ـارد لويس



الإغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية

جمه و قدم له و زاده :

.سهيل زكار



الإغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية

الطبعة الثانية

1427 هـ - 2006 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

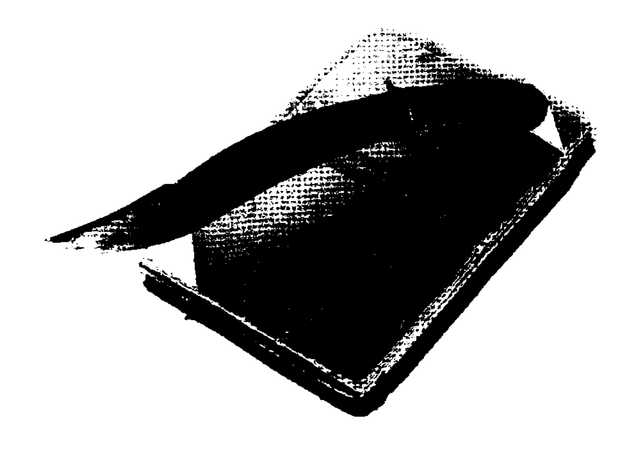
بيروت - لبنان
ص.ب: 14/6364
خليوي: 833 814 3 961+
فاكس: 171 377 1 961+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

برنارد لويس

الحشيشية

الإغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية



ترجمه و زوده بمدخل تأريخي للإسماعيلية و القرامطة
و الخلافة الفاطمية و ألحق به ملاحق وثائقية :

د.سهيل زكار




بسم الله الرحمن الرحیم

وقل رب زدني علماً

تقديم

استهوتني منذ زمن طويل الدراسات حول الأديان والمذاهب، وأخذت هذه الهواية تتحول إلى احتراف أثناء إعدادي لأطروحة الدكتوراه في جامعة لندن، وفي عام 1968م سمعت أكثر من محاضرة حول الاسماعيلية بشكل عام والدعوة الاسماعيلية الجديدة من المستشرق برنارد لويس الذي كان يشرف على رسالتي للدكتوراه، وأفدت من ذلك لعلاقة أطروحتي من جانب بالخلافة الفاطمية ومن جانب آخر بتأسيس السلطنة السلجوقية، وما رافقها من يقظة إسلامية معادية للاسماعيلية تجلت بتأسيس المدرسة النظامية وفروعها، على يد الوزير الكبير نظام الملك ـ الحسن بن علي الطوسي، الذي كان أول ضحايا الدعوة الاسماعيلية الجديدة ـ الحشيشية ـ، وأخرج الأستاذ لويس آنذاك كتابه «الحشيشية» فأستأذنته بنقله إلى العربية، فأذن لي بذلك، وخرج الكتاب عام 1971، وشكل بذلك أول محاولة لي بالترجمة إلى العربية، وكان لنشر هذا الكتاب آنذاك الكثير من الأصداء، ونفدت الطبعة سريعاً، ثم طلب مني إعادة الطباعة فلم أجد الوقت للقيام بذلك، ولكن اشتغلت لبعض الوقت حول القرامطة، ومنذ قرابة العام تمنى عليَّ أكثر من صديق إعادة إخراج كتاب «الحشيشية» فاستجبت، وصرت كلما وجدت قليلاً من الوقت أعمل به، حيث حضرت له مدخلاً طويلاً حول الاسماعيلية والقرامطة، وتاريخ الخلافة الفاطمية، ثم أعدت ترجمة النص الإنكليزي، وبعد ذلك ألحقت بالكتاب ملاحق توثيقية مهمة.

وعندما شرعت بهذا العمل لم تكن أحداث 11/ أيلول قد وقعت، لذلك لم يكن بين دوافعي مجاراة التيار الذي تقوده الولايات المتحدة الآن باسم الحرب على الإرهاب، فضلاً عن أنني أمتلك قناعاتي الخاصة حول الإرهاب، والتمييز بينه وبين النضال في سبيل التحرر والعدالة والقضاء على إرهاب الدول، ذلك أن تاريخ الولايات المتحدة قام منذ البداية على الإرهاب، بإفناء الهنود الحمر، وخاصة أمة الشيروكي، وباستخدام الأسلحة

النووية، والولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في عصرنا التي أدينت بممارسة الإرهاب من قبل محكمة العدل الدولية، والإعلان الأمريكي هو مجرد وسيلة لتسويغ الفراغ من تأسيس الامبراطورية الاستعمارية العالمية، وهي أبشع صورة عرفها التاريخ الإنساني لتطبيق النظام الرأسمالي، ذلك أن إخفاق بعض الأنظمة في تطبيق العقائد الاشتراكية، لا يعني فساد هذه العقائد، بل سوء التطبيق، ونحن الآن من الشهود عن سوء تطبيق الكثير من العقائد السامية الطاهرة، مثلما الأمر متعلق بالإسلام، وفي الإسلام كل أعمال القتل سواء أصدرت عن أفراد أم كيانات حاكمة هي إرهاب، يقول الله تعالى في محكم تنزيله:

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 32].

وقبل نهاية القرن الميلادي الماضي، ودخولنا القرن الجديد، ودع الناس كثيراً من طرائق المعالجات السياسية والمذهبية وعلى رأس ذلك معظم مدارس تفسير التاريخ، وأخذ الباحثون في أحاديثهم عن العولمة يتحدثون عن المعيقات، وعلى رأسها الإسلام، الذي هو الدين الحق، والذي ينبغي أن يسود عالم العولمة، لا أن يُزال من الوجود، وأطلق على مواجهة عائق الإسلام عدة مسميات، منها ما رأيناه لدى الرئيس الأمريكي الراحل نيكسون حول الفرصة السانحة، ثم ما أطلق عليه اسم «صراع الحضارات» أو «حوار الحضارات» أو غير ذلك، وكان على المسلمين عدم الانجراف مع هذه الديانات، بل كان عليهم جعل الحوار بين الحضارات منهجاً جديداً للدعوة إلى الإسلام، وأقصد بالإسلام دوماً إسلام القرآن الكريم والسنة الشريفة الصحيحة، لا الإسلام الذي استخدمه بريجينسكي، وأجهزة المخابرات الأمريكية، وسواها، مع أن السحر قد انقلب على الساحر.

نحن بحاجة إلى توعية إسلامية علمية حقة، ولسنا بحاجة إلى الإثارة والانفعالات، فالذي يتوجب علينا هو السعي في سبيل تغيير العقلية، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن نتعلم كيف نفكر قبل أن نستخدم الأيدي ونفعل، لأن الرأي قبل شجاعة الشجعان، علينا أن نلتزم بالتفكير العقلاني، فقد أمضى النبي ﷺ طوال المرحلة المكية لصقل العقول والنفوس، وهكذا جاءت المحصلات الإعجازية في المرحلة المدنية وفي عصر الخلفاء الراشدين، ولم يتعطل ذلك كلياً، بل أعيق لأسباب كثيرة.

ومن هذا المنطلق علينا معاودة التعامل مع ماضينا للتعلم والمعالجة المستقبلية، وليس لإثارة الأحقاد، والفتن، لأن الفتنة أشد من القتل، ومن ملك حسن التفكير يمكنه التعامل مع الماضي بكل انفتاح وأناة، في سبيل الحاضر وصنع المستقبل، وقد يقول قائل: علينا أن نكون انتقائيين في معالجة التاريخ، نتعامل مع اللائق المفيد، وندع ما سوى ذلك، وهذا مرفوض، لأن الآراء والمعايير تختلف من إنسان لآخر، ثم نحن نتاج الماضي كله وليس بعضه، يضاف إلى هذا أننا لسنا وحدنا في الميدان، فما قد نتركه يأتي غيرنا فيقدمه لنا، ضمن إطار يستهدف القول بأن تاريخ الإسلام كله تناقضات، وهذه سمة أساسية من سمات أعمال الاستشراق، ولعل في هذا الكتاب الذي أقدم له اليوم شاهد على ذلك، وبالمناسبة أنا لست على اتفاق مع المؤلف في كل ما ذهب إليه، ولعل كتابتي للمدخل الطويل والملاحق دليل على هذا.

ومهم جداً التعامل مع تاريخ الاسماعيلية، فالاسماعيليون لم يستهدفوا إحلال أسرة حاكمة محل أخرى فقط، بل أرادوا أن يقدموا عقيدة عالمية مرتكزها الإسلام والتجارب الفلسفية الإنسانية، ولذلك لاقى فكرهم القبول وسيطر على العقل الإسلامي لأكثر من قرنين، وتمت صياغة العقيدة الاسماعيلية عبر مناطق دار الإسلام كلها في العراق والمشرق، والشام، واليمن، ومصر، وإفريقية، ومثل ذلك تأسست الخلافة الفاطمية في المغرب ثم انتقلت إلى المشرق، لكن جذب العقيدة الاسماعيلية كان أعظم في مراحل ما قبل تأسيس الخلافة الفاطمية، فبعدما حققت هذه الدعوة النجاح السياسي بالوصول إلى السلطة، واجهت التطبيق للنظريات وهنا ظهر الإخفاق تلو الإخفاق، والعزلة عن الجماهير، لذلك قام عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ببناء المهدية لتكون حصناً للسلطة فقط، حتى أنه منع التجار وغير الاسماعيليين من المبات فيها، وسمح لهم بالعمل فيها بالنهار فقط، وبات الآن على السلطة الفاطمية الارتحال من المغرب، وكان أخيراً الانتقال إلى مصر، وفي مصر بنى الفاطميون القاهرة، ومثل المهدية اتخذوها معسكراً محصناً للسلطة، فأزهر القاهرة كان حكراً على غير المصريين، والوزارة والقيادات العسكرية والإدارات باتت بأيدي غير المصريين، ولذلك سهل على صلاح الدين بعد أكثر من قرنين القضاء على الخلافة الفاطمية بخطبة خطيب جمعة، والذين تآمروا فيما بعد

لإعادة الخلافة الفاطمية لم يكونوا من المصريين، وفقط بعد إزالة الحكم الفاطمي أخذت القاهرة تتحول إلى مدينة للمصريين أولاً وللمسلمين من أهل الشام وسواها معهم ثانياً، وحين أعيد افتتاح الأزهر فيما بعد صار أزهر الإسلام والمسلمين، الذي شغل دوراً عظيماً، حتى عطلته إلى أبعد الحدود التقدمية المعاصرة.

ومما مكن من هذه النجاحات هو أن صلاح الدين لم يتخذ هو وخلفاؤه مدينة القاهرة مقراً للسلطة، لأنه ساير قاعدة عصره ببناء قلعة الجبل وجعلها مقراً للسلطة الحاكمة، ومسألة حلول القلعة منذ العصر السلجوقي محل دار الخلافة أو القصر الملكي، هي سمة سيطرت حتى العصر الحديث، وفي إطار هذه السمة، نشأت قلعة دمشق، وقلعة في كل مدينة، حتى كان عصر الأتابكة والأيوبيين والحروب الصليبية هو عصر القلاع، وانطلاقاً من هذا الإطار ينبغي التعامل مع الدعوة الاسماعيلية الجديدة وتاريخها في إيران وسورية، وغير مقبول مطلقاً القول بأن الحشيشية في إيران وسورية كانوا مجرد عصابات من القتلة اعتصموا داخل عدد من القلاع الحصينة، بل صيغة الدويلة القلعية هي الصيغة الصحيحة، مثلما كان حال الأسر المنقذية في شيزر، والأسرة العُقيلية في قلعة جعبر، والأسرة الأيوبية في الكرك وحماة وحلب، وحمص، وطرابلس، ودمشق، وقبلهم البارونيات الصليبية.

وتدين شهرة الحشيشية الكبيرة إلى أحداث الحروب الصليبية والاهتمام الأوروبي بهم أثناء العصور الوسطى ثم في العصر الحديث والمعاصر، لأن من الملاحظ أنه مع بداية نهاية الحروب الصليبية والوجود اللاتيني على أرض الشام، أيام بيبرس تناسى الناس الحشيشية وباتوا من ذكريات الماضي، وصارت صورتهم الشعبية ممدوحة، لأن الحشيشية أخذوا يعملون لصالح بيبرس، وأصداء هذا نجدها في السيرة الشعبية لبيبرس.

وفي جميع الأحوال تمثل الدعوة الاسماعيلية الجديدة آخر وأهم انتكاسات تاريخ الاسماعيلية، صحيح أن العقيدة الاسماعيلية تعرضت لمختلف الانتكاسات منذ تأسيس الخلافة الفاطمية لكن الحياة استمرت فيها، وحاولت أحياناً تجديد نفسها فكرياً وعقائدياً، كما حدث أيام الحاكم بأمر الله، لكن ذلك كان أشبه بسحابة صيف عابرة ومثلت العقيدة التي أعاد صياغتها حسن الصباح آخر الانتكاسات، إذ تقوقعت العقيدة الاسماعيلية، وتخلت عن أهدافها العالمية، واكتفت بممارسة الاغتيال الطقوسي، وأعمال الاغتيال مهما

كانت مسوغاتها مرفوضة، ومع ممارسة الاغتيال والقوقعة تحولت مؤسسة الصباح إلى دويلات قلاع في إيران وسورية، مثل البارونيات الصليبية، فراشد الدين سنان ـ شيخ الجبل حافظ على صلات بألَموت تشبه ما حافظ عليه أي بارون صليبي مع مملكة القدس، ولنأخذ مثل أرناط صاحب الكرك، ومثلما حدث للصليبيين حين أزيلت قواهم العسكرية زالوا دون ذكريات شعبية، مثل هذا لم يستطع الحشيشية النجاح شعبياً بين أوساط غيرهم من الشيعة الذين جاوروهم وتسلطوا عليهم في جبال إيران وجبال بهراء الشامية، ولذلك هم الآن أقلية صغيرة جداً في إيران وسورية.

لكن يبقى التاريخ هو نهر الزمان المرتبط بالماضي والدائم التدفق، ولذلك علينا التعامل مع أحداثه بشكل علمي، وأن نضع الأمور في نصابها دون مبالغات أو انحياز، ودون أن نساير ما كان يطرح قبل سنوات، وهو تسويغ «العنف الثوري» وما يقال الآن حول «الإرهاب» وما قد يقال في المستقبل، وإذا كان التاريخ هو نهر الزمان الدائم التدفق، فمن تربة هذه الأرض الحضارية مزجنا مياه هذا النهر، فكنا الآن وسنكون في المستقبل، ومادام التاريخ هو ما أنجزه الإنسان من أحداث، ومادام التاريخ خبر ورؤية، فمرحباً باختلاف الآراء والتفسيرات، شرط عدم التنكر لما حدث بالفعل، وعدم عكسه سلبياً على الحاضر، وعلينا دوماً أن لا نطلب من الماضي أكثر من الماضي.

أرجو من الله التوفيق والعون، والصلاة والسلام على النبي محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق 17 رمضان 1423/12 تشرين ثاني 2002.

سهيل زكار

مدخل
الفصل الأول
الدعوة الاسماعيلية
وقيام الخلافة الفاطمية

1 ـ نشوء الحزبية في الإسلام:

واجهت الأمة الإسلامية الناشئة أولى أزماتها السياسية الصعبة داخلياً يوم مرض النبي ﷺ مرضه الأخير، وساعة وفاته، ونشأت أصول الأزمة حول مسألة زعامة المسلمين بعد النبي، فالنبي لم يترك ـ كما ترى غالبية الجماعة الإسلامية ـ وصية خاصة محددة يوضح بها شكل الحكم من بعده، ففي أثناء مرضه الأخير، الذي جعله يلزم الفراش، شعر غالبية المسلمين بالقلق الشديد، ودنو المخاطر، وبدأ الناس يتساءلون عن المستقبل، ويطرحون الاستيضاحات حول مشكلة الحكم والزعامة بعد غياب النبي ﷺ، ويبدو أن صدى هذه التساؤلات قد وصل إلى النبي حيث روي عن ابن عباس قوله: «لما احتضر رسول الله ﷺ، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلو بعده، فقال عمر: إن رسول الله قد غلب عليه الوجع[1]، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال: قوموا. . . فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من اختلافهم ولغطهم»[2]

---

(1) في رواية البخاري ـ فتح الباري: 8/ 132 «فقالوا: ما شأنه أهجر» أي هذى.

(2) مغازي الزهري: 136. فتح الباري: 8/ 132. طبقات ابن سعد: 2/ 242 ـ 245.

لقد ورد هذا الحديث في كتب الصحاح وسبب إرباكاً عظيماً لكل من تعرض له من الفقهاء بشكل مباشر أو غير مباشر، وقد عرض الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري[1] صورة ملخصة لمختلف الآراء جاء فيها: «والهجر ـ بالضم ثم السكون ـ الهذيان، والمراد هنا ما يقع من كلام المريض الذي لا ينتظم ولا يعتدّ به لعدم فائدته، ووقوع ذلك من النبي ﷺ مستحيل، لأنه معصوم في صحته ومرضه، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ ولقوله ﷺ: «إني لا أقول في الغضب والرضا إلا حقاً»، وإذا عرف ذلك فإنما قاله من قاله منكراً على من توقف في امتثال أمره بإحضار الكتف والدواة، فكأنه قال: كيف تتوقف، أتظن أنه كغيره يقول الهذيان في مرضه؟ امتثل أمره، وأحضر ما طلب، فإنه لا يقول إلا الحق.

قال: هذا أحسن الأجوبة، قال: ويحتمل أن بعضهم قال ذلك عن شك عرض له، ولكن يبعده أن لا ينكره الباقون عليه مع كونهم من كبار الصحابة، ولو أنكره عليه لنقل، ويحتمل أن يكون قائل ذلك أراد أنه اشتد وجعه، فأطلق اللازم وأراد الملزم، لأن الهذيان الذي يقع للمريض ينشأ عن وجعه. وقيل قال ذلك لإرادة سكون الذين لغطوا ورفعوا أصواتهم عنده، فكأنه قال: إن ذلك يؤذيه ويفضي في العادة إلى ما ذكر. . . قال المازري: إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب مع صريح أمره لهم بذلك، لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكأنه ظهرت منه قرينة دلت على أن الأمر ليس على التحتم بل على الاختيار، فاختلف اجتهادهم، وصمم عمر على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه ﷺ قال ذلك عن غير قصد جازم، وعزمه كان إما بالوحي وإما بالاجتهاد، وكذلك تركه، إن كان بالوحي فبالوحي، وإلا فبالاجتهاد أيضاً. . . وقال النووي: «اتفق قول العلماء على أن قول عمر: (حسبنا كتاب الله) من قوة فقهه ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب أموراً ربما عجزوا عنها، فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة. . ويحتمل أن يكون قصد التخفيف عن رسول الله ﷺ لما رأي فيه من شدة الكرب. . . ».

ولدى السؤال: ماذا أراد النبي ﷺ أن يكتب؟ نجد ابن حجر وغيره يجيب «تعين الخليفة بعده» ونزيد على هذا بياناً أن الشيعة قالت: حيل بين النبي وبين الكتابة أمر هو أن

---

(1) فتح الباري: 8/ 133.

عمر كان يعرف مسبقاً بأنه ﷺ سيعين علي بن أبي طالب صراحة بعدما عينه يوم غدير خم إشارة وتلميحاً، وقد ذكر هذا القاضي النعمان، قاضي قضاة المعز لدين الله الفاطمي، وداعى دعاته في الأرجوزة المختارة بقوله:

وأنه قال على الإجماع	**للناس بعد حجة الوداع**
وقد دعاهم بغدير خم	**فاجتمعوا إليه كي يسمي**
لهم ولي أمرهم من بعدهم	**فحمد الله بحق حمده**
وقال إني أزمع الذهابا	**فليبلغ الشاهد من غابا**
أن عليا حل مني فافهموا	**محل هارون على ما يعلم**
من صاحب التوراة موسى فاسمعوا	**ما قلته وما أقوله وعوا**
ثم دعاه بينهم إليه	**وقال وهو رافع يديه**
يا رب وال اليوم من والاه	**وعاد يا ذا العرش من عاداه[1]**

وهكذا تمت عملية تأويل ما حدث في غدير خم، لكن من المرجح أن علي بن أبي طالب، صاحب القضية لم يفهم ما جرى بهذه الصورة.

جاء في كتب الصحاح: «خرج العباس وعلي من عند رسول الله ﷺ في مرضه، فلقيهما رجل، فقال: كيف أصبح رسول الله ﷺ يا أبا الحسن؟ فقال: أصبح رسول الله ﷺ بارئاً، فقال العباس لعلي بن أبي طالب: أنت بعد ثلاث لعبد العصا[2]، ثم خلا به، فقال: إنه يخيل إليّ، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، وإني خائف ألا يقوم رسول الله ﷺ من وجعه هذا، فاذهب بنا إليه فنسله، فإن يك هذا الأمر إلينا ذلك، وإن لا يك إلينا، أمرناه أن يستوصي بنا خيراً، فقال له علي: أرأيت إذا جئناه فلم يعطناها أترى أن الناس يعطوها، والله لا أسأله إياها أبداً»[3].

هذا، ومن المرجح أن ما روي حول قضية الكتابة لم يحدث حسب الشكل المروي، ويثبت هذا إثارة المسائل التالية وتبيانها:

---

(1) الأرجوزة المختارة: 34 ـ 118.

(2) كناية عمن يصير تابعاً لغيره، أي أن النبي سيموت بعد حين، وتصير أنت مأموراً عليك.

(3) مغازي الزهري: 133 ـ 134. طبقات ابن سعد: 2/ 245 ـ 247. فتح الباري: 8/ 142.

إنه مع تحقيق الإسلام لنجاحاته الكبرى بعد فتح مكة، ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية الناشئة، ازداد تقدم النبي ﷺ بالسن، وأخذت آثار المرض مع ما عاناه خلال حياته تظهر عليه بشكل جلي، وهنا لابد من أن عدداً من المسلمين أخذ يفكر ويتساءل عن مستقبل الأمة والعقيدة، وإلى من ستؤول مقاليد الزعامة بعد النبي ﷺ، ومع مرض النبي الأخير أصبحت هذه المسألة بالنسبة لبعض الصحابة هاجساً جثم على صدورهم، ولابد أن المسلمين أثاروا هذه المسألة في نواديهم ومجالسهم، وأن أصداء ذلك وصلت إلى مسامع النبي، ومن هنا جاء أصل الروايات حول طرح القضية على النبي صراحة، وحول محاولة وضع حل مكتوب.

هذا، ويرى بعض الباحثين في التاريخ الإسلامي أن النبي ﷺ بعدما وضع قاعدة الشورى العريضة ما كان بإمكانه أو يوصي بالحكم من بعده لشخص محدود، أو حتى أن يبين شكل الحكومة المقبلة بصورة مفصلة، لأن مرضه وظروف العرب السياسية - سيما في شمال شبه الجزيرة - ومفاهيمهم مع تركيبهم الاجتماعي ما كان ليسهل تنفيذ أية وصية سياسية، ذلك «أن مكة حي لقاح لا تدين لملك»[1].

إن في الوصية تحديداً تأباه الأيام، وتقييداً يعارضه تطور العصور، كما أن في تسمية ولي للعهد إسباغ للشرعية والقدسية الأبدية وإقامة لأسرة مالكة ذات حق إلهي، وهذا يتنافى بصورة قاطعة مع مبادئ الإسلام وعقائد النبي، كما يرفضه تطور التاريخ، والمستعرض لتاريخ العرب والإسلام يرى المدى الذي استغلت فيه بعض الإشارات العرضية، مثل: استخلاف النبي لأبي بكر على الصلاة، وحادثة غدير خم.

لقد بعث الله نبيه محمداً لهداية البشر ولسعادتهم في الدارين العاجلة والآجلة، ولم يبعثه ليملكه على العرب أو سواهم، والنبي حين نظم نواة أمته الجديدة جعل من العقيدة رابطاً يجمع جميع أفراد الأمة ويساوي بينهم، فالمسلمون ارتبطوا بالإسلام وتعلقوا به، فهم كانوا مسلمين ولم يكونوا محمديين، والنبي نفسه كان مسلماً ولم ينتم لغير الإسلام، كما لم يسمح للمؤمنين برسالته بالإنتماء لغير الإسلام، وهذا أمر فريد متميز في تاريخ الديانات والعقائد قديمها وحديثها، ذلك أن الموسوية هي نسبة إلى موسى عليه

---

(1) انظر سيرة ابن هشام: 1/ 224 (خبر عثمان بن الحويرث وتوليته من قبل بيزنطة على مكة).

السلام، والمسيحية نسبة إلى المسيح عليه السلام، والبوذية إلى بوذا، والزرادشتية إلى زرادشت، والمانوية إلى ماني، والماركسية إلى ماركس وهكذا. . .

في تاريخ الشرق القديم قامت المدن الأولى حول المعبد أو قصر الملك لتأمين الخدمات للمعبد أو القصر، وعلى هذا كان سكان كل مدينة رعية وخدماً، وجودهم مسوغ برفاه الملك وتلبية حاجاته ورغباته والملك يملك كل شيء من أرض وماء ونبات ومعدن[1].

عندما جاء الإسلام ألغى هذا بشكل حاسم، لكن عندما قامت حركات المعارضة في العصر الأموي، تأثرت هذه الحركات بشكل أو بآخر بالعقائد التي تجعل الناس يرتبطون بشخص أو أسرة، وأن عليهم الثورة لإيصال هذا الشخص أو الأسرة إلى السلطة، لا الثورة لتصحيح ما اعوج وإلغاء الظلم والحيف بشكل مباشر، بل من خلال فرد أطلقت عليه لقب الإمام أو المهدي المنتظر، وشكل هذا انتكاسة خطيرة، لنا عودة إليها ثانية.

لقد اختار الله تعالى محمد بن عبد الله رسولاً له، وظل النبي محمد ﷺ طوال حياته هكذا، يبلغ أوامر ربه ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ ويرعى تنفيذها، ويشرف عليه، وهو لذلك كان ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾.

لكن كيف فهم صحابة النبي ﷺ مسألة عدم النطق عن الهوى؟ روى ابن اسحق أن النبي اتخذ موقعاً له ولأصحابه يوم بدر قبل نشوب القتال، فجاءه الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال: «يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه. . »[2].

وروى الإمام الزهري في مغازيه أن النبي أرسل يوم الخندق أثناء حصار المشركين للمدينة «إلى عُيينة بن حصن بن بدر الفزاري، وهو يومئذ رأس المشركين من غطفان، وهو

---

(1) انظر كتاب الغرب والعالم تأليف كافين رايلي ـ ترجمة عربية ـ سلسلة عالم المعرفة: 71 ـ 95.

(2) سيرة ابن هشام: 1/ 320.

ثم قال: . . . أما بعد، فما ذكرتم فيكم من خير يا معشر الأنصار، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، فهم أوسط العرب داراً ونسباً».

وأثارت خطبة أبو بكر ردة فعل بين المجتمعين، وقام أحد الأنصار فتهدد المهاجرين بقبول ما يقرره الأنصار طوعاً أو كرهاً، فرد عليه عمر رداً عنيفاً، وفي ذروة الجدل تخلى بعض أقرباء سعد بن عبادة عنه لأمور في نفوسهم، وكان سعد بن عبادة زعيماً لقبيلة الخزرج، لهذا تهامس زعماء قبيلة الأوس، قبيلة الأنصار الثانية، بين بعضهم بعضاً فقالوا: «والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً»، وهنا قام أبو بكر فقال: «هذا عمر، وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا».

وفي هذه اللحظة «كثر اللغط، وارتفعت الأصوات» وفقد النظام فانهار مؤتمر الأنصار، وأخفقت خططهم، وعندما حصل هذا، وقبل أن يتفرق المجتمعون وقف عمر بقامته المديدة وصرخ بالقوم، ثم تقدم من أبي بكر قائلاً «ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده» فبايعه قائداً جديداً للأمة، وتقدم بعض الحضور فقلدوا عمراً بما فعله، وانسحب سعد بن عبادة، وارفض الاجتماع وتفرق الناس، ولربما لم يأخذ معظمهم ما حدث من بيعة لأبي بكر مأخذ الجد، لكن تلاحق الأحداث حقق النجاح، مع أن ما حدث كاد أن يكون فلتة كفلتات الجاهلية[1].

وبعد ارفضاض اجتماع السقيفة عاد أبو بكر وصحبه إلى مسجد النبي حيث تم الإعلان عما حدث حيث بايع بقية الناس، ونحن وإن كنا لسنا بحاجة للحديث عما شهدته أيام حكم أبي بكر من أحداث مثل حروب الردة وحروب الفتح، نرى من الضروري الإشارة إلى أن اختيار أبي بكر لم يواجه أية معارضة معلنة من قبل المهاجرين من أهل المدينة، وأنه حمل لقب خليفة رسول الله، وتبعاً لهذا عرفت المؤسسة التي قامت إثر ذلك بمؤسسة الخلافة.

ولابد من سؤال: من أين جاءت هذه التسمية؟ مع إنها لم تذكر أثناء مناقشات السقيفة، حيث أن الألفاظ التي استخدمت كانت لفظتا: أمير، ووزير، هذا ولم تحدد أثناء الانتخاب صلاحيات الخليفة ومكانته.

---

(1) مصادر الحاشية (1) في الصفحة السالفة.

كانت الحكومة التي أسسها النبي ﷺ في المدينة هي الأولى من نوعها في تاريخ شبه جزيرة العرب، فقد ملك النبي وحده جميع فروع السلطة، من تشريع وقضاء وإدارة وجباية وأعمال حربية، وذلك بالإضافة إلى صفته الأساسية وهي النبوة، وهكذا امتزجت مفاهيم السلطات الزمنية بمفاهيم السلطات الدينية في الإسلام، وصار كل أمر في الدولة العربية الناشئة مزدوج الصفات زمنياً ودينياً[1]، ولم تعرف دولة النبي التوظيف والموظفين الدائمين، بل كان النبي ينتدب أحياناً بعض أصحابه، فيكلفهم ببعض الوظائف حين يبتعد عن المدينة، أو يرسلهم لتنفيذ بعض المهام مثل جباية الصدقات، أو تفقيه الناس بالإسلام، وإمامتهم بالصلوات، أو تنفيذ مهمات عسكرية، وكان الذي ينوب عن النبي في إمامة الصلوات يدعى خليفة النبي، وكان قائد الحملة العسكرية يسمى أميراً، ولما كانت القوات التي يقودها هذا الأخير قواتاً مؤمنة تقوم بتنفيذ مهمة ضد غير المؤمنين، فقد كان القادة من

---

(1) تفرد تاريخ الإسلام بجذوره العربية والشرقية القديمة بمسيرة خاصة في المزج بين المفاهيم الدينية والسياسية، ففي الشرق القديم تحول الكاهن إلى ملك ومشرع، وفي تاريخ مكة القريب من ظهور الإسلام بدأ قصي بن كلاب حياته في مكة سادناً للكعبة أولاً، ثم ما لبث أن أصبح سيد مكة، حيث طرد خزاعة منها وجلب قريش إليها وأسكنها فيها وفق نظام ابتدعه، وبعد هذا نظم حياة المدينة من جميع الجوانب بما عرف باسم الحجابة والرفادة والسقاية ودار الندوة وغير ذلك، وهذا ما نشهده في حياة النبيﷺ، فهو بدأ حياته في مكة نبياً يدعو إلى دين جديد، وبعد هجرته إلى المدينة أسس نواة الدولة الإسلامية الأولى فكسب صفة رجل الدولة، وأخذ بعد هذا يضع نظم دولته ويشرع لها دنيوياً، وعلى هذا مرت حياتهﷺ بثلاث مراحل: أولها دينية، ثم تلاها السياسية، وكانت المرحلة الثالثة هي التشريعية، وطبعاً لم توقف أي من المرحلتين الجديدتين ما تقدمها، بل كان هنالك استمرار، وبما أن النبيﷺ لم يكن ينطق عن الهوى، فإن الدين الإسلامي تبني دمج المفاهيم، وبات لكل عمل دنيوي لونه الديني والتشريعي في الوقت نفسه، وظل هذا الحال قائماً طوال التاريخ الإسلامي، وهو يعني أن المنصب الديني يقود إلى المنصب السياسي، ثم إلى الوضع التشريعي، وليس العكس كما في الحضارات الأخرى مثل روما، ففي تاريخ روما نجد أنه بعدما كان الحظ يحالف أحد الساسة أو العسكريين في الوصول إلى عرش الامبراطورية، كان هذا الامبراطور يتم إضفاء صفة الألوهية عليه، وكان وهو على عرش الامبراطورية قد يحدث بعض الإصلاحات أو التنظيمات الإدارية، ويعني ذلك أن طريق السياسة يقود إلى الدين ومن ثم إلى التشريع.

العسكريين المسلمين يميزون عن قادة الأعداء بلفظة أمير المؤمنين[1]، فهذا ما حمله أسامة بن زيد قائد آخر بعوث النبي ﷺ حتى وفاته.

وكان الخليفة على الصلوات يؤدي الصلاة كما كان النبي ﷺ يؤديها تماماً دونما زيادة أو نقصان، ذلك أن الخليفة هو النائب عن الأصيل الملتزم كلياً بما عهد إليه من أوامر وتعاليم، وكانت صلاحيات أمير الجيش أوسع من صلاحيات الخليفة، ذلك أن قيادة العساكر تستوجب الطاعة المبرمة، وتعطي الأمير فرص التصرف وإبداع الحلول وإصدار ما يراه ضرورياً من أوامر وتعليمات، إنما ضمن إطار المهمات المكلف بها، وعليه فإنه في الوقت الذي حرم فيه الخليفة من أي نوع من صلاحيات التشريع منح ذلك للأمير وتمتع به.

كان أبو بكر آخر من تولى خلافة النبي على الصلوات في مسجد المدينة، وعليه كان لقبه يوم لزم النبي الفراش، بسبب مرضه ﷺ «خليفة رسول الله على الصلوات»، أو اختصاراً «خليفة رسول الله» لأنه كان الخليفة الوحيد، وكان عندما توفي النبي، وبعدما تسلم البيعة يوم السقيفة يحمل هذا اللقب، ويعرف به، وإذا صح هذا ففيه تبيان لأصل لقب الخلافة، وجواب للتساؤل.

هذا ويلاحظ في الوقت نفسه أن الله تعالى ذكر الخلافة في القرآن الكريم لخمسة نفر، من الأنبياء: لآدم، ولداود، ولهارون، وللصحابة وللمؤمنين:

قال الله تعالى: بشأن آدم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [سورة البقرة ـ الآية 30].

وقال مخاطباً داود: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة ص: الآية 26].

وقال تعالى بصدد هارون: ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ [سورة الأعراف: الآية 142].

وقال تعالى بصدد الصحابة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية 55].

وقال تعالى في المؤمنين: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النمل: الآية 62].

---

(1) التراتيب الإدارية: 1/ 2 ـ 8. (2) كتابي المدفعية عند العرب: 301 ـ 330.

ويستفاد من مجمل هذه الآيات أن الاستخلاف هنا هو إسناد الحكم أو السلطة، والخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه، ولا يستبعد أن يكون أبو بكر قد أطلق على نفسه إثر بيعته لقب خليفة رسول الله، فقد روى ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب أن أبا بكر كان يقول: «أنا خليفة رسول الله ﷺ»، وروى أيضاً أن رجلاً قال لأبي بكر: «يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكنني خليفة رسول الله وأنا راض بذلك»[1].

ومهما يكن الأمر، إنه بتسلم أبي بكر لمقاليد الحكم أصبح منصب الخلافة منذ ذلك الحين رسمياً وأساسياً في الحياة السياسية للأمة الإسلامية، بينما لم تكن له في البداية أي هوية واضحة المعالم والأسس.

وحاول أبو بكر في أول خطبة له بعد بيعته تحديد معالم منصبه الجديد، منطلقاً من مفهوم «الخلافة» اللغوي، ومن قاعدة الاستخلاف على الصلاة، أي أن الخليفة نائب ملتزم كل الالتزام بأوامر المنيب وأفعاله وشكل تصرفاته، وظهر هذا في قوله: «إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني»[2] وظل أبو بكر يعرف طيلة حكمه بخليفة رسول الله، لم يشعر بأدنى فارق بينه وبين أي واحد من المسلمين: أعطيته أعطية عادية، ليس له قصر ولا حرس ولا مراسم ولا زي خاص، يحكم من خلال قاعدة للشورى عريضة، ومات أبو بكر والحالة على ما هي عليه من حيث الجوهر، مع أن رقعة الدولة اتسعت اتساعاً كبيراً فشملت أراضي كبيرة خارج شبه الجزيرة، وتجمع للمسلمين جيوش جرارة على عدة جبهات، وقام أبو بكر قبيل وفاته باستخلاف عمر بن الخطاب، بعدما استشار معظم الصحابة، وقبل الناس إثر وفاة أبي بكر بولاية عمر.

وكان عمر قد غدا منذ يوم إسلامه ثالث ثلاثة في سلم الزعامة لدى المسلمين وقد جاء في الأثر أن النبي ﷺ قال له: «أنت معي في الجنة ثالث ثلاثة من هذه الأمة»[3]، وقام الفاروق بأعباء الخلافة خير قيام، وفي عصره تمت إنجازات رائعة في جميع المجالات،

---

(1) الاستيعاب: 2/ 246. المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق: 94-96.

(2) تخريج الدلالات السمعية للخزاعي: 28. الطبري: 2/ 224.

(3) الكامل في الضعفاء لابن عدي - مخطوطة الظاهرية: ص294.

وكانت علاقته بجميع الصحابة سيما بعلي بن أبي طالب ممتازة، لعل أفضل شاهد عليها زواجه من أم كلثوم الكبرى، إحدى بنات علي من فاطمة الزهراء[1]، رضي الله عنهما.

لقد واجه عمر عدداً من القضايا الجديدة والخطيرة في الوقت نفسه، مما اضطره إلى معالجتها في ضوء المصالح المرسلة للمسلمين، وعلى أساس لا ضرر ولا ضرار، وطبعاً ضمن إطار الشريعة الإسلامية، وبناء على استشارة الصحابة، ومعالجته لهذه القضايا مثل: مسألة سواد العراق، ونصارى تغلب[2]، والمؤلفة قلوبهم، يعني ممارسته لشيء من الصلاحيات التشريعية، فهو على هذا تصرفٌ تصرف أمير الجيش، هذا ويلاحظ أن الأمة الإسلامية كانت أيام عمر مستنفرة بشكل كامل[3].

ولعله لهذا تخلى عن لقب خليفة واتخذ بدلاً عنه لقب «أمير المؤمنين» وفي هذا التغيير مؤشرات تدل على تبدل جوهري في المفاهيم السياسية للدولة الإسلامية، سيما وأن العرب المسلمين كانوا قد اختلطوا بشعوب كانت خاضعة لفارس وبيزنطة قبل خضوعها للعرب، وتأثروا بها، مع الأخذ بعين التقدير أن مركز الثقل السياسي والعسكري بدأ منذ أيام عمر بالتحول إلى الأمصار الجديدة خارج شبه الجزيرة، وأن هذه الأمصار هي التي ستتولى القيادة الإسلامية إن عاجلاً أو آجلاً.

ومع امتداد الأيام واتساع رقعة الدولة وبروز مشاكل جديدة أصبح الناس أكثر تقبلاً لإعطاء الخليفة صلاحيات أوسع في التشريع، ولا ريب أن أمير المؤمنين عمر كان متنبهاً لذلك سلباً وإيجاباً، لذلك بحث عن قواعد تنظيمية للدولة[4] وعن حل له صفة الديمومة لمسألة الخلافة.

لقد رأى عمر أن الخلافة حق محصور في قريش ولا يجوز لغير قريش، ويبدو أنه أيضاً رأي ـ حسب قاعدة قديمة ـ أن عشرة بيوت من قريش[5] هي التي يجوز اختيار الخلفاء منها، ومثَّل هذه البيوت أبرز الصحابة الذي عرفوا بالعشرة المبشرين بالجنة، ثم إنه رأى أن

---

(1) أنساب الأشراف: 2/ 189 ـ 191.

(2) انظر خراج أبي يوسف: 28 ـ 47.

(3) انظر تاريخ الدولة العربية لفلهوزن: 24 ـ 26.

(4) انظر تاريخ المدينة لابن شبه: 3/ 805 ـ 841.

(5) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه (كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب): 2/ 282 ـ 204.

الخلافة لا يجوز تناوبها في البيت القرشي الواحد، فإذا مات الخليفة لا يجوز أن يكون الخليفة الجديد من أهله وبيته، حتى وإن كان المرشح هو الأفضل[1]، وهنا يقتضي الحال اختيار المفضول مع وجود الأفضل.

ويمكن أن نرجع ملامح هذه الخطة وأسسها العامة في وصيته يوم طعن، وفي قيام ما يعرف باسم «شورى الستة»، فبعد ما توفي عمر اجتمع الباقون من الصحابة المبشرين بالجنة، وكان أبرز المرشحين بينهم كل من: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وبعد جدل طويل تم اختيار عثمان بن عفان لمنصب الخلافة، وأبعد علي عن زعامة الأمة، مع أنه كما وصفه عمر كان أحرى الصحابة «إن وليها أن يحملهم على كتاب الله وسنة نبيهم»[2] والأمر المثير للانتباه هنا أن جل قوى المهاجرين والأنصار من أهل المدينة أيدت اختيار عثمان، وذلك على الرغم من أن عمر بن الخطاب قال: «والله لئن كان الأمر إليه ليحملن بني أبي معيط على رقاب الناس، والله لئن فعل لينهض إليه فليقتلنه، والله لئن فعل ليُفعلن، والله لئن فعل ليفعلن»[3].

ولوحظ يوم انتخاب عثمان أن عدداً من الرجال، تجمعوا منذ أيام النبي ﷺ حول علي، مما يوحي أن هذا التجمع شرع منذ ذلك الحين بالتحول إلى شكل حزب للمعارضة، وازداد أيام عثمان عدد أفراد هذا الحزب، وعظم دورهم المعارض.

وتسلم عثمان الخلافة، وكان آنئذ شيخاً تقدمت به السن، فيه طيبة نفس وكرم، وثبات إلى التشبث، وحب إثره لآله من بني أمية، ويمكن أن نقسم عهده إلى قسمين: الأول كان حكمه فيه استمراراً طبيعياً لعصر عمر بن الخطاب، والثاني هو عصره هو، وكان هذا العصر من حيث الواقع نهاية للعصر الراشدي، وبداية لعودة بني أمية مع الأرستقراطية الملكية إلى زعامة العرب والدولة الجديدة، كل ذلك على الرغم من الهزيمة التي حلت بهذه الأرستقراطية يوم فتح مكة، وشكلت عودة الأرستقراطية الأموية بعد هزيمتها نكسة كبرى، وضربة عظمى وطعنة نجلاء لثورة الإسلام، ومن المثير للانتباه أن

---

(1) تاريخ المدينة: 3/ 879 ـ 887.

(2) تاريخ المدينة: 3/ 883.

(3) تاريخ المدينة: 3/ 881 ـ 883.

الأمويين عندما فقدوا ـ في مستقبل الأيام ـ الحكم، فقدوه لصالح الأسرة العباسية، الذين كان جدهم ينتمي إلى الأرستقراطية المكية ورجال المال والتجارة، فقد أسلم العباس مع أبي سفيان في يوم واحد ومناسبة واحدة.

بدأ القسم الثاني من عصر عثمان حين واجهت الدولة بعض المشاكل الجديدة، فأقدم عثمان على عزل ولاة عمر وعماله، وعين بدلاً عنهم جماعة من أقربائه من بني أمية على أمل التمكن من خلالهم من مواجهة القضايا الجديدة، ومن ثم حلها بنجاعة. لكن الذي حدث هو أن الأمويين تسلطوا بشكل صريح على مقاليد الأمور في الدولة الجديدة المترامية الأطراف، وقاموا تبعاً لذلك بتجاوزات كبيرة، لكن ـ والحق يقال ـ التجاوزات لم تقتصر عليهم، فقد انطلق الصحابة كباراً وصغاراً نحو البلاد المفتوحة، وبدأت الفتوحات تعطي ثمارها، وتكونت الثروات عن طريق الاستثمارات التجارية والزراعية والعقارية وغير ذلك[1].

وقبل الحديث عن ردات الفعل لما وقع، وقاد نحو أحداث ما يعرف باسم الفتنة الكبرى، لابد من الإشارة إلى أن ما حدث لم يكن وليد عصر عثمان وهو لم يكن مسؤولاً عن تفجيره، بل والحق يقال: إنه حاول منع الانفجار وإيجاد الحلول، لكن ذلك لم يكن ممكناً، ويقتضي منا تبيان الحال، العودة إلى تاريخ مكة فيما قبل الإسلام ومسايرة الأحداث حتى خلافة عثمان:

حين تسرد مصادرنا أخبار مكة قديماً، تعدّ حادثة استيلاء قصي بن كلاب عليها، وإسكانه قبيلته من قريش فيها نقطة تحول عظمى في تاريخها وتاريخ العرب، ويبدو أن قصي قد استولى عليها في النصف الثاني من القرن الخامس للميلاد[2]، ونظم قصي شؤون مكة فأوجد فيها نوعاً من الجمهوريات التي تحكم من قبل التجار، ومنذ أيام قصي أخذ القرشيون يمارسون التجارة بشكل نشط جداً، وكانت تجارتهم محلية وعالمية، فقد كانت الأسواق تعقد منذ أول شوال من كل عام، وتنتهي مع أول أيام الحج، ورغّبت هذه الأسواق الناس بزيارة مكة، واستغلت عمليات الحج بشكل تجاري، وكانت الأسواق

---

(1) ينصح القارئ بالعودة إلى تاريخ المدينة لابن شبة، وتاريخ صنعاء للرازي.

(2) الروض الأنف: 1/ 139 ـ 142.

مواسم للبيع والشراء والتبشير والدعاية وحل الخصومات وإقامة التحالفات، وإنشاد القصائد، ومكنت الأسواق مكة وسكانها من قريش من السيطرة الاقتصادية على شمال شبه الجزيرة العربية، وعقد رجال المال من قريش تحالفات مع زعماء قبائل ومناطق شبه الجزيرة، وهو ما عرف باسم «الإيلاف» وكان للمكيين رحلتان رئيستان كل عام واحدة من مكة إلى اليمن، والأخرى من مكة إلى الشام، وكانت القوافل المكية ضخمة جداً، وغالباً ما مثلت المكيين جميعاً، وكان يقودها أكثر المكين ثروة وبضاعة، وبالتالي مكانة[1]، وذلك أن من ملك المال ملك السلطة.

ويحكى بأن قصى بن كلاب أسكن عشائر قريش وسواهم في مكة بشكل كان يتماشى مع الثروة، فقد عدّ الكعبة قلب (بطحاء) المدينة، وهنا أسكن آله، ثم أسكن خلفهم بقية عشائر قريش، وسكن في أطراف المدينة الأجراء والفقراء الذين تجمعوا من كل مكان وعرفوا بالأحابيش، وعلى هذا فإن مكة وإن لم تعرف الطبقات الاجتماعية، قد عرفت الطوائف الاجتماعية والعشائر التي ارتبطت مكانه كل منها بثروتها، وعدد رجالها.

ويستخلص من كتب الأخبار أن ثلاثة من الذكور من أولاد قصي قد عاشوا وهم: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وكان عبد الدار أسنهم، وعبد مناف أبرزهم وأكثرهم ثروة، وقام قصي بتوريث وظائفه في مكة لولده عبد الدار، وبعد وفاة قصي بأمد نازع آل عبد مناف آل عبد الدار السيادة على مكة، وانشقت قريش إلى قسمين: واحد أيد آل عبد مناف، ودعي باسم حلف المطيبين، وقسم ثان أيد آل عبد الدار وعرف باسم حلف لعقة الدم، أو حلف الأحلاف، وكادت الحرب تقع بين الحلفين لولا توسط بعض الزعامات بينهما، وتمت تسوية تقاسم بها زعماء الحلفين وظائف السيادة في مكة وهي: السقاية والرفادة، والحجابة واللواء.

لكن هذه التسوية لم تنه الصراع الداخلي في مكة، فلقد ازدادت مع الأيام ثروة آل عبد شمس بن عبد مناف وازداد شرههم وطغيانهم مما سبب انشقاقاً في حلف المطيبين حيث طرد منه آل عبد شمس وأصحاب الأموال من قريش، وصنع حلف جديد دعي

(1) الأصنام: 28 ـ 30. المحبر: 162، 164، 263 ـ 268، 315 ـ 318. الأزرقي: 1/ 112 ـ 113. ابن هشام: : 1/ 76 ـ 88.

باسم حلف الفضول قوامه: بنو هاشم بن عبد مناف وعشيرة تيم بزعامة عبد الله بن جدعان، وكان النبي ﷺ ممن شهد عقد هذا الحلف، وكان لمناقشاته وقراراته أبعد الأثر على نفسه، ويعدّ قيام هذا الحلف إحدى المقدمات المباشرة لقيام ثورة الإسلام الإصلاحية، وقال النبي محمد ﷺ يذكر هذا الحلف: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمر النعم، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت» وهكذا استمر هذا الحلف سبباً ونتيجة مؤثراً إلى أبعد الحدود في صنع التاريخ الإسلامي، وقد رد آل عبد شمس على هذا الحلف بإنشاء حلف ضمهم مع بني مخزوم وبني عدي[1].

وعندما قام الإسلام كان أول المؤمنين به أبو بكر الصديق، وكان من تيم، وهكذا تمتع بالمكانة الثانية في سلم الزعامة الإسلامية، وكان دائماً (ثاني اثنين)، وفي أثناء الدعوة إلى الإسلام في مكة ركز النبي جهوده على تدمير حلف بني أمية، ودعا ربه أن يعز الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب العدوي، وعمرو بن هشام المخزومي، وأعزه الله بعمر بن الخطاب، الذي عُد إسلامه فتحاً من الفتوح، وغدا عمر منذ ساعة إيمانه ثالث ثلاثة في سلم الزعامة الإسلامية، لهذا كان من المنطقي أن يلي الصديق زعامة الأمة بعد النبي، ثم أن يخلفه عمر بن الخطاب، وأن تعود الأمور سيرتها الأولى بعد ابن الخطاب.

ونتابع عرضنا للأوضاع في مكة والدعوة الإسلامية فيها فنلاحظ أنه عندما كانت الدعوة في البداية دينية محضة لم تلاق معارضة منظمة من قريش، لعدم وجود كهنة ورجال دين في مجتمع مكة، لكن عندما شرع النبي ﷺ ينادي بإصلاحاته الاجتماعية، وهاجم أصحاب المال والمرابين، ثارت ثائرة زعامة قريش، وأخذت تضطهده وتعذب كل من آمن به، وبقدر المعارضة وشدتها كانت حملات النبي وردات فعله، فهذا عمه أبو لهب المرابي الكبير الذي أوقف نفسه وزوجته على تأليب الناس عليه، وإفساد عمله، نزلت اللعنة الربانية عليهما بقوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد: 1 ـ 5] وعندما تعرض للنبي زعيم آخر من الأثرياء هو الوليد بن المغيرة المخزومي، واتهمه بالسحر نزل به: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا ۝

(1) المحبر: 166 ـ 167. ابن هشام: 1/ 65 ـ 68.

وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 11 ـ 29]، ونزلـه بـه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: 1 ـ 6]، وأعلن النبي ﷺ حرباً لا هوادة فيها على الذين ألهاهم التكاثر، فتهافتوا على حطام الدنيا، وتكالبوا على جمع المال بمختلف الوسائل، فقال مخاطباً إياهم: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: 17 ـ 20]، وتوعد طائفة التجار والمرابين ناراً محرقة، ووعدهم بعذاب دائم لأنه كانوا: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 2 ـ 3]. .

واتصل النبي ﷺ بقبائل الجزيرة وعرض عليها دينه، وتابع نضاله حتى تمكن من الهجرة إلى المدينة، وبهجرته بدأت مرحلة جديدة هامة من تاريخ العرب والإسلام[1].

ولقد طويت بالهجرة صفحة الصراعات الداخلية على الزعامة في مكة بين بني هاشم وبني أمية بن عبد شمس، وخلصت الزعامة فيها لأبي سفيان صخر بن حرب ابن أمية بن عبد شمس، وترسخت هذه الزعامة وتأصلت بين قبائل شبه جزيرة العرب أثناء الحروب ضد المدينة، فصار أبو سفيان سيد أهل الجاهلية بلا منازع، وازداد تعداد الأمويين، وعظمت ثرواتهم وخبراتهم السياسية والإدارية والحربية، وصحيح أن الحرب ضد المدينة قد انتهت بهزيمة أبي سفيان والأرستقراطية المكية والعربية يوم فتح مكة، لكن الهزيمة شيء والسحق والدمار شيء آخر، فالذي حدث أن الأرستقراطية قد تخلت عن الوثنية،

---

(1) لم يتوقف الصراع الاجتماعي والاقتصادي بعد الهجرة بل استمر، وتجلى بالصراع ضد يهود المدينة الذين كانوا يملكون معظم الأراضي وبيدهم الحرف والتجارات، وبمحاولة تحطيم مكة اقتصادياً عن طريق إيقاف حركة القوافل منها وإليها، وتحويل هذه الحركة إلى المدينة، ومع الأيام أمكن إجلاء اليهود من المدينة فصارت أراضيهم للمسلمين من مهاجرين وأنصار، ونشطت التجارة في أسواق المدينة حتى كادت هذه الأسواق أن تحل محل أسواق مكة وأطرافها.

ودخلت إلى الإسلام حيث وجدت فوائد أعظم، وتواءم هذا مع اتساع رقعة دولة المدينة، وحاجتها إلى ذوي الكفاءة لاستخدامهم عمالاً وقادة، وهكذا تولى رجالات بني أمية والأرستقراطية أكبر المناصب وأهمها إدارياً وسياسياً وعسكرياً، وكانوا يدركون أن مآل الأمور إليهم لا محالة، فقد قال أبو سفيان يوماً لابنه معاوية حينما كان يلي الشام لعمر بن الخطاب: «إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقوا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم، وقصَّر بنا تخلفنا، وصاروا قادة وصرنا أتباعاً، وقد ولوكم جسيماً من أمرهم فلا تخالفوهم، وإنك تجري إلى أمد لم تبلغه وستبلغه[1]».

في يوم السقيفة طرح اقتراح لإيجاد صيغة للتعاون بين الأنصار والمهاجرين لإدارة الدولة الناشئة، لكن لم يلق الاستجابة، وانتصرت مقولة فيها «الأئمة من قريش» فمع بيعة السقيفة أقر مبدأ: «الحكم في الإسلام وقف على قريش ومحصوراً بها»، وفي أيام عمر تطور هذا المبدأ من قريش عامة إلى أسر المبشرين بالجنة، وكانوا عشرة، لكن عندما توفي عمر كانوا قد أصبحوا ستة، وخلال مناقشات شورى الستة تطور المبدأ، أو بالحري عادت الأمور سيرتها الأولى، فانحصر الحكم بآل عبد مناف بن قصي، وقام صراع بين أسرتين من آل عبد مناف على السلطة، هما: بنو أمية، وبنو هاشم، ولم يتبدل هذا الحال طوال تاريخ الإسلام المديد، وحين اختير عثمان للخلافة جرت نقلة نوعية بالنسبة لاحتكار السلطة، حيث رست الأمور بأيدي بني أمية، ووقف بنو هاشم على رأس المعارضة، وأسفر الصراع المرير، بعد الفتنة الكبرى ومعارك الحروب الأهلية عن انتصار معاوية بن أبي سفيان، وتأسيس حكم الأسرة الأمورية، ولقد حاولت بعض الأسر القرشية دخول حلبة الصراع، فخرجت منه مهزومة بشكل قاطع، كما حدث لعائشة وطلحة والزبير في معركة الجمل، ولابن الزبير فيما بعد.

إن هذا الإنجاز يحتاج إلى بعض التفصيل، وسنحاول ذلك، إنما مع التركيز والإلحاح على العوامل الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أن الحدث السياسي هو غالباً محصلة لأسباب اقتصادية واجتماعية، والسبب أهم من المحصلة لأنه صانع لها:

---

(1) أنساب الأشراف: 2/ 1/ 8-10.

روى ابن الأعثم الكوفي في فتوحاته: «أنه لما صار الأمر إلى عثمان بن عفان، واجتمع إليه الناس، وأرسل إلى عمال عمر بن الخطاب، فأقرهم على أعمالهم التي هم عليها مدة يسيرة من ولايته، ثم إنه بعث إليهم فعزلهم عن الأعمال، وجعل يقدم أهل بيته وبني عمه من بني أمية فولاهم الولايات... ودرت عليه الأموال... ثم كثر المال عليه، فكان كلما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس، ويزيدهم في العطاء، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم، ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية فوصله بثلاثمائة ألف درهم، ثم بعث إلى الحكم بن أبي العاص فرده إلى المدينة، وهو طريد رسول الله ﷺ، ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين، وجعل له خمس إفريقية، وجعل ابنه الحارث بن الحكم على سوق المدينة، ووصل ابنه مروان بمال جليل، قال فكبر ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وكرهوا ذلك من فعله»، وأثيرت هذه المسائل مع الخليفة عثمان، فقام بعد مداولات طويلة خطيباً في المسلمين، وكان مما قاله: «وقد بلغني أن قوماً منكم يقولون: لو أن أمير المؤمنين فرق هذا المال في المقاتلة والذرية الذين في الأمصار لكان ذلك أعود عليه وعلينا، وأقرب له إلى الله عز وجل، وقد قبلت ذلك منكم، وأنا باعث إلى كل مصر أن تقسم أمواله بين أهله بالسوية إن شاء الله تعالى، فإن فضل لنا شيء صرفناه في نوائبنا التي تنزل بنا، ونجعله في ضعفاء العرب ومساكينهم وأيتامهم وأراملهم».

ولم تطل حياة هذا الإجراء، وعادت التجاوزات من جديد، وتحرك الصحابة في المدينة، وتحرك أبو ذر في الشام، وحدثت تحركات في العراق ومصر، مما دفع عثمان إلى استدعاء ولاة الأمصار إلى مؤتمر عقد برئاسته، وفي المؤتمر «أقبل [عثمان] عليهم فقال: يا بني أمية أنتم باطنتي دون ظاهرتي، إنه قد كثرت شكايات الناس منكم، فأما القريب فقد بادهني، وأما البعيد فما يألو جهداً فماذا عندكم من الرأي؟.

قال: فتكلم عبد الله بن عامر بن كريز [والي البصرة] وقال: يا أمير المؤمنين إنه ليس يرضي الناس عنك إلاّ ما أسخطهم عليك، فإن الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك، ولا يشكوك أحد بعد ذلك.

قال : ثم تكلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح [والي مصر] فقال : يا أمير المؤمنين إن لك على الناس حقاً في كتاب الله ، ولهم عليك مثل ذلك ، فادفع إليهم حقوقهم ، واستوف منهم حقك ، فإنه قد ولي أمر هذه الأمة من قبلك رجلان فاضلان : أبو بكر وعمر ، فسارا بسيرة فسر بسيرتهما ، واستن بسنتهما واعمل بعملهما يرضَ الناس عنك ، ولا يشكوك أحد .

قال : ثم تكلم سعيد بن العاص [والي الكوفة] فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما دعا الناس أن نقموا عليك إلاّ الحمام ، والفراغ من الحروب ، وذلك أن العرب اليوم جلست في المحافل ، وتحدثت بالأحاديث ، فاشغل العرب بالغزو ، وقاتل بهم العدو ، حتى لا يرجع أحدهم ، إذا رجع ، إلى منزله وقد أهمته نفسه ، ولا يتفرغ لعيب الأمراء .

قال : ثم تكلم معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك قد جمعتنا ، وذكرت أنه قد كثرت الشكايات منا ، وأنت قد ملكتنا رقاب الناس ، وجعلتنا أوتاداً في الأرض ، فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى يكفيك من قبله ، ولا يكون ها هنا شكاية أحد ، ولا ينقم أحد عليك .

قال : فعلم عثمان أن الرأي ما قاله معاوية ، فعزم أن يرد عماله إلى بلادهم وأعمالهم»[1] ، وعليه أخفق المؤتمر في التوصل إلى حل مناسب لأسباب الشكوى ، ولذلك لم يلبث أن تفجر الوضع في كل مكان في الشام والكوفة ومصر :

ظهرت المعارضة في الشام مع أبي ذر ، وكان عثمان قد بعثه إلى الشام ، فلما قدم إلى دمشق «قدم رجل حديث العهد برسول الله ﷺ ، فأخذ بقلوب الناس ، فأبكى عيونهم ، وأوغر صدورهم ، وكان فيما يقول : لا يبقين في بيت أحد منكم دينار ولا درهم ، ولا تبر ولا فضة ، إلا شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لغريم ، فأنكر معاوية الناس ، فبعث إليه معاوية في جنح الليل بألف دينار ، أراد أن يخالف فعله قوله ، وسريرته علانيته ، فلما جاء الرسول قسم الألف فلم يصبح عنده منها دينار ولا درهم ، فعلم معاوية أن فعله يصدق قوله ، وسريرته تصدق علانيته» .

ونشط أبو ذر ، وكان يأتي المسجد فيتحلق حوله الناس ويسألونه أن يحدثهم عن رسول الله ﷺ ، فكان يبدأ حديثه بقوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ ثم يستطرد فيقول :

---

(1) الكامل في الضعفاء لابن عدي ـ مخطوطة الظاهرية : ص294 .

«سمعت النبي ﷺ يقول: في الإبل صدقتها، والبقر صدقتها، والغنم صدقتها، وفي البر صدقته، ومن جمع دنانير أو دراهم أو تبر ذهب، أو تبر فضة لا ينفقه في سبل الله ولا يعده لغريم فهو كنز يُكوى به يوم القيامة» ثم يتبع ذلك بتلاوة قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 34].

وحاول معاوية إسكاته فأخفق، فكتب إلى عثمان يقول: «إن كان لك بالشام حاجة فأخرج أبا ذر منه، فإنه قد [أفسد] الناس عندي» فاستدعاه عثمان إلى المدينة، وبعد مواجهة حامية بينه وبين عثمان نفاه إلى الربذة حيث توفي هناك[1].

واستطاع معاوية أن يضبط الأمور بالشام لأن معظم القبائل التي اعتمد عليها، ـ وكانت تقطن في جنوب الشام ـ كانت من أصل يماني، وكانت موجودة في الشام منذ ما قبل الإسلام، لكن الوضع لم يمكن ضبطه في الكوفة، وهناك حدث انفجار قاد نحو وقائع الفتنة الكبرى ومقتل عثمان.

ولكن لماذا حدث الانفجار في الكوفة، ومن ثم ارتبط تاريخ هذه المدينة بأهم حركات المعارضة، خاصة الشيعة؟

الكوفة مدينة أنشئت أيام عمر أثناء فتوحات العراق، وسكنها في البداية الفاتحون الأوائل، ثم ما لبث أن لحق بهم مهاجرون جدد من شبه الجزيرة، وقدم إليها الكثيرون من أهل الردة، لذلك لم يعرف مجتمعها الاستقرار، وكانت هنالك دائماً أسباب للشكوى والثورة.

قد يكون هذا من الأسباب الهامة لكن علينا أن نضيف إليه عوامل أخرى ارتبطت بموارد أهل الكوفة المحلية في العراق، وغير المحلية في الجزيرة وجبهة الكوفة.

كانت أرض الجزيرة عبر التاريخ مسرحاً للصراع بين الدول والامبراطوريات التي قامت في شرقي الفرات، وبين دول الشام أو الامبراطوريات التي تحكمت بهذه البلاد، فقد شهدت أرض الجزيرة حروب الاسكندر المقدوني ضد الفرس، والحروب الفارسية الرومانية، والأيام بين الغساسنة والمناذرة، والمعارك الساسانية البيزنطية التي كان آخرها معركة نينوى سنة 627 م التي ربحها الامبراطور هرقل.

(1) تاريخ المدينة: 1034 ـ 1038. وانظر مادة أبي ذر في كتابي مائة أوائل من تراثنا.

وكان العرب الفاتحون للشام والعراق، قد عسكروا إثر كل من معركتي اليرموك والقادسية في كل من الجابية [في أحواز بلدة نوى في حوران ـ سورية] وفي البصرة المؤسسة حديثاً في العراق، وإثر مؤتمر الجابية الذي حضره عمر بن الخطاب سنة 17هـ/ 638م قام هذه الخليفة العبقري بإدخال تعديلات أساسية على استراتيجية الفتوح والإدارة عند العرب، فألغى جيش شُرحبيل بن حسنة الشامي، وأذن بتأسيس معسكر جديد في العراق هو الكوفة، وأوجد إقليم الجزيرة ليكون واصلاً فاصلاً بين إقليمي الشام والعراق المتنازعين أبداً، وألحق هذا الإقليم بالكوفة وذلك عندما عهد إلى جنده بخراج وموارد وفتح الأقاليم الواقعة خلف أراضي الجزيرة بدءاً من أرمينية الصغرى (أو الدنيا)، مثلما عهد إلى جند البصرة بشؤون فتح خراسان والمشرق، وإلى جند الجابية ببلاد الامبراطورية البيزنطية في الشمال، وعهد بالوقت نفسه إلى جيش عمرو بن العاص، بعد إنجاز فتح القدس، بالتوجه إلى مصر، حيث سيقوم بتأسيس معسكر الفسطاط بعد فتحه لأرض الكنانة[1].

وحدث في خلافة عثمان أنه أقدم أولاً على إفراد ولاية الشام لمعاوية بن أبي سفيان، ثم ألحق به ولاية الجزيرة، وعارض أهل الكوفة هذا الإجراء، ووجد لديهم أسباب أخرى للشكوى تجمعت فظهرت أولاً على شكل نقد لإدارة عثمان، ثم ما لبث أن ارتدت دثار العنف، فقد اجتمع عدد من زعماء قبائل الكوفة وتدارسوا الأوضاع وأسباب الشكوى وقرروا إثر ذلك كتابة كتاب إلى عثمان جاء فيه: «أما بعد: فإننا كتبنا إليك هذا الكتاب نصيحة لك واعذاراً وشفقة على هذه الأمة من الفرقة، وقد خشينا أن تكون خلقت لها فتنة، وأن لك ناصراً ظالماً، وناقماً عليك مظلوماً، فمتى نقم عليك الناقم ونصرك الظالم، اختلفت الكلمتان، وتباين الفريقان، وحدثت أمور متفاقمة أنت جنيتها بأحداثك يا عثمان، فاتق الله والزم سنة الصالحين من قبلك، وانزع عن ضرب قرابتنا ونفي صلحائنا وقسم فيئنا بين أشرارنا، والاستبدال عنا، واتخاذك بطانة من الطلقاء، وأبناء الطلقاء دوننا، فأنت أميرنا ما أطعت الله واتبعت ما في كتابه، وأنبت إليه، وأحييت أهله، وجانبت الشر وأهله، وكنت للضعفاء، ورددت من نفيت منا، وكان القريب والبعيد عندك في الحق سواء.

---

(1) تاريخ المدينة: 821 ـ 738. كتابي تاريخ العرب والإسلام: 72 ـ 88.

فقد قضينا ما علينا من النصيحة لك، وقد بقي ما عليك من الحق، فإن تبت من هذه الأفاعيل نكون لك على الحق أنصاراً وأعواناً، وإلاّ فلا تلم إلاّ نفسك فإننا لن نصالحك على البدعة، ونترك السنة، ولن نجد عند الله عذراً إن تركنا أمره لطاعتك، ولن نعصي الله فيما يرضيك، هو أعز في أنفسنا وأجل من ذلك، نشهد الله على ذلك، وكفى بالله شهيداً، ونستعينه وكفى بالله ظهيراً، راجع الله بك طاعته، يعصمك بتقواه من معصيته»[1].

وكتب أحد الكوفيين إلى عثمان يقول: «أما بعد: فإني نذير لك من الفتنة، متخوف عليك فراق هذه الأمة، وذلك أنك قد نفيت خيارهم، ووليت أشرارهم وقسمت فيئهم في عدوهم واستأثرت بفضلهم، ومزقت كتابهم وحميت قطر السماء ونبت الأرض، وحملت بني أبيك على رقاب الناس، حتى قد أوغرت صدورهم واخترت عدواتهم، ولعمري لئن فعلت ذلك بنا، فإنك تعلم أنك إذ فعلت ذلك وتكرمت فإنما تفعله من فيئنا وبلادنا، والله حسيبك يحكم بيننا وبينك»[2].

ووصلت الرسائل إلى عثمان، فكان رده عليها غاضباً حيث جرد الرسل من ثيابهم وأمر بضربهم بشكل موجع، وأغضبت هذه التصرفات الصحابة من أهل المدينة، فاجتمع نفر منهم تدارسوا الوضع «ثم أنهم كتبوا كتاباً ذكروا فيه كل حدث أحدثه عثمان، منذ يوم ولي الخلافة إلى ذلك اليوم، ثم إنهم خوفوه في الكتاب، وأعلموه إن لم ينزع عما هو عليه خلعوه، واستبدلوا به غيره» وحمل الكتاب، عمار بن ياسر وانطلق به ليبلغه إلى عثمان، ودفع عمار الكتاب إلى عثمان «فنظر فيه حتى قرأ سطر منه، ثم غضب ورمى به من يده، فقال له عمار: لا ترم بالكتاب، وانظر فيه حسناً، فإنه كتاب أصحاب رسول الله ﷺ، وأنا والله ناصح لك، فقال له عثمان: كذبت يا بن سمية، فقال عمار: أنا والله ابن سمية وابن ياسر، قال: فأمر عثمان غلمانه فضربوه ضرباً شديداً حتى وقع لجنبه، ثم تقدم إليه عثمان فوطئ بطنه ومذاكيره حتى غشي عليه وأصابه الفتق، فسقط لما به، لا يعقل من أمره شيئاً[3].

---

(1) فتوح ابن الأعثم الكوفي: 1/ 10 ـ ظ.

(2) فتوح ابن الأعثم الكوفي: 1/ 11 ـ و.

(3) الفتوح: 1/ 3 ـ و.

وعم الغضب أرجاء المدينة، وأعلنه الجميع وشارك في نقد عثمان والتحريض عليه، حتى أن السيدة عائشة كانت تخرج على الناس وبيدها قميص رسول الله ﷺ وتخاطبهم: «هذا قميص رسول الله لم يبل بعد، وقد بليت سنته على يد عثمان، اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً»[1].

وجرت بعض المحاولات لتدارك الأمور والحيلولة دون الانفجار العام لكن بدون فائدة، وثارت الكوفة وتمردت على واليها المعين واستبدلته بوال جديد، ويروي لنا ابن الأعثم الكوفي قصة البدايات بقوله: «بينا سعيد بن العاص ذات يوم في مسجد الكوفة وقت صلاة العصر، وعنده أهل الكوفة، إذ تكلم حسان بن مجروح الذهلي فقال: والله إن سهلنا لخير من جبلنا، فقال عدي بن حاتم: أجل السهل أكثر براً وخصباً وخيراً، فقال الأشتر: وغير هذا أيضاً، السهل أنهاره مطردة ونخله باسقات، وما من فاكهة ينبتها الجبل إلا والسهل ينبتها، والجبل خون وعر، ويحفي الحافر، وصخره يعمي البصر، ويحبس عن السفر، وبلدتنا هذه لا نرى فيها ثلجاً ولا قراً شديداً.

قال: فقال عبد الرحمن بن خُنيس ـ صاحبة شرطة سعيد بن العاص ـ: هو لعمري كما تذكرون، ولوددت أنه كان للأمير ولكم أفضل منه، فقال له الأشتر: يا هذا يجب عليك أن تتمنى للأمير أفضل منه، ولا تتمنى له أموالنا، فما أقدرك أن تتقرب إليه بغير هذا؟! فقال عبد الرحمن بن خُنيس: وما يضرك من ذلك يا أشتر، فوالله إن شاء الأمير لكان هذا كله له، فقال له الأشتر: كذبت والله يا بن خنيس، والله لو رام ذلك لما قدر عليه، ولو رمته أنت لفزعت دونه فزعا يذل ويخشع.

قال: فغضب سعيد بن العاص من ذلك، ثم قال: لا تغضب يا أشتر، فإنما السواد كله لقريش، فما نشاء منه أخذنا، وما نشاء تركنا، ولو أن رجلاً قدم فيه رجلاً لم ترجع إليه، أو قدم فيه يداً لقطعتها، فقال له الأشتر: أنت تقول هذا أم غيرك؟ فقال سعيد بن العاص: لا بل أنا أقوله، فقال الأشتر: أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا بستاناً لك ولقومك، والله ما يصيبك من العراق إلا كل ما يصيب رجل من المسلمين».

---

(1) تاريخ العرب والإسلام: 95ـ 11.

وقاد هذا الحادث إلى الشجار، وتحول الشجار إلى بدايات ثورة تتوجت بحصار عثمان في داره في المدينة ثم بقتله على يد الثوار[1].

لقد كان كل من الأشتر وسعيد بن العاص منسجماً مع نفسه غير متناقض، فالأشتر كان زعيماً قبلياً، وكان العرب قبل الإسلام مشكلين من مجموعة من القبائل، كل منها كانت تشكل وحدة سكانية متميزة اجتماعياً واقتصادياً ودينياً وسياسياً، وكانت القبيلة في الحقيقة أشبه بالأمة، لها شخصيتها وهويتها وأعرافها وسياستها الخاصة والعامة، تأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية، ومشاعية الملكية، حق «المواطنة» فيها محددة أسسه، تقبل بين صفوفها مواطنين من سواها يعيشون في وضع خاص، وتحرم من حق المواطنة فيها من خرج على قواعدها، تقيم الأحلاف مع من تتواءم مصالحها ومصالحه، وتحارب من يعتدي عليها ويهدد مصالحها، تختار لزعامتها من يدافع عنها ويقاتل في سبيلها، وتكلف شاعرها أن يكون «صوت الإعلام» فيها.

وعندما جاء الإسلام سعى نحو إنشاء أمة واحدة من مجموعات القبائل، وأراد أن يجعل رباط العقيدة أداة توحيد تحل محل صيغة الأحلاف القائمة على المصالح، لقد أراد الإسلام أن يربط بين جميع القبائل أفقياً عن طريق العقيدة، وهكذا جعل المؤمنين إخواناً بالعقيدة، وبما أن العقيدة الإسلامية لم تميز بين العمل الدنيوي والديني فإن أخوة العقيدة شملت جميع مصالح الحياة وغطتها.

وعندما قامت حركة الفتوحات الكبرى أراد رجالات القبائل توزيع الأراضي المفتوحة عليها، لكن عمر بن الخطاب آثر لأسباب كثيرة مسوغة عدم توزيع الأراضي - وهو ما عرف باسم مسألة سواد العراق - وإبقائها وقفاً على مصالح الأمة وملكاً لها، إنما الذي حدث هو أن الأمة كانت قد قبلت بزعامة قريش، وغدت مع الأيام قريش تمتلك - كما أوضحنا من قبل - كل شيء وتحتكره، وتواءم هذا الاحتكار وتداخل منذ أيام عثمان مع المفهوم الشرقي القديم في امتلاك الدولة لكل شيء، ولذلك عدّ سعيد بن العاص السواد بستان قريش.

---

(1) فتوح ابن الأعثم: 1/ 7 - 8. تاريخ خليفة: 1/ 181 - 193. تاريخ المدينة: 1038 - 1195. الطبري: 4/ 330 - 436. الأخبار الطوال: 139 - 140. اليعقوبي: 2/ 172 - 177.

ولم يكن مثل هذا التحول الخطير ليمر بسلام أبداً، فقد قامت الثورة في الأمصار، سيما في الكوفة، وكانت ثورة ذات أهداف ومبادئ، ولكنها مع ذلك وقعت في شرك الزعامة، فكان هنا مقتلها.

ليس بودي عرض ما حدث في المدينة حتى مقتل عثمان، ويكفي القول أن الثورة فتشت عن زعامة قرشية لقيادتها، فوجدت ضالتها في علي بن أبي طالب، وهكذا وجد علي نفسه متورطاً بالوقائع إلى حد الاتهام بالتحريض على عثمان، وبعد مقتل عثمان جرى اختيار علي خليفة جديداً.

لم يكن علي حين ولي الخلافة فقيراً، يعاني من أية ضائقة اقتصادية، كما كان لا يشعر بالحرمان واغتصاب حقوقه وممتلكاته، وكانت التركة التي ورثها إثر توليه الخلافة ثقيلة جداً، فقد وجد نفسه أمام عدد لا يحصى من المشاكل، وعلى رأس جماعة من الثوار، جاؤوا من بلد لم يزره قط من قبل، وقادوا ثورة لم يخطط لها أبداً، ولم يكن لا هو ولا واحد من الذين تحلقوا حوله في المدينة من المشاركين في تفجيرها ووضع مبادئها بشكل مباشر[1].

وحين جاء اختيار علي للخلافة، لاحظ أن غالبية أهل المدينة مع أكثر أهل الحجاز ليسوا معه، بل هواهم مع عائشة أم المؤمنين والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وعندما توجهت نحو البصرة، ترك هو الحجاز وذهب إلى الكوفة.

عندما حدث هذا، كانت شبه الجزيرة قد فقدت مكانتها المؤثرة في الأحداث، وتجمعت قوى العرب العسكرية في ثلاثة معسكرات رئيسة هي: الكوفة، والبصرة والجابية، وكان كل معسكر من هذه المعسكرات لديه مطامع للاستيلاء على مقاليد السلطة في العالم الإسلامي، أو على الأقل الانفراد بالأراضي التابعة - كل - لمصره على حدة.

كان معسكر الشام في الجابية أكثر المعسكرات تماسكاً وأقلها تناقضات ومشاكل، وكان على رأسه معاوية بن أبي سفيان منذ سنين طويلة، لذا ليس من المغالاة القول أن معاوية بن أبي سفيان هو المؤسس الفعلي لمعسكر الشام، وسيده، وكان معاوية ابن سيد أهل الجاهلية يطمح أن يغدو سيد أهل الإسلام.

---

(1) مصدر الحاشية السالفة.

وكان معسكر الكوفة أقل المعسكرات الثلاثة تماسكاً، فقد كان في طور النشوء وبناء القواعد، لقد كان بالكوفة طوائف من مختلف القبائل العربية من الذين هاجروا قديماً، مع مهاجرين جدد، وإلى جانب العرب كانت هنالك فئات وطوائف من سكان العراق المحليين، مع أعداد كبيرة من أهل الأقاليم المفتوحة من إيران وخراسان، وعليه يمكن تشبيه مجتمع الكوفة ببركان عنيف، دائم الجيشان يقذف بحممه في كل اتجاه.

وكان معسكر البصرة يشبه معسكر الكوفة إلى حد ما، لكن استقراره الاجتماعي وتماسكه كان أفضل، وكان حجمه أدنى، وبالتالي كانت مشاكله أقل حدة.

وبعد ما وصل علي إلى الكوفة جرت محاولات للحوار بين معسكره ومعسكر عائشة، باءت كلها بالإحباط، وآلت الأمور إلى الصدام المسلح في معركة الجمل، حيث انتصر علي وأسرت عائشة، وقتل كل من الزبير وطلحة.

لقد دخل معسكر الكوفة معركة الجمل - أول معارك المسلمين الأهلية - شبه موحد الأهداف، وعندما خرج منها منتصراً صار سيداً للسياسة في غالبية بقاع دار الإسلام، وهنا كانت بداية مشاكله، فقد كان سهلاً على هذا المعسكر أن يتدخل في السياسة، لكن هذا هيأ السبل للسياسة أن تدخل إليه، وكان لديه إمكانات التمزق، لذلك بدأت السياسة تفتت قواه وتشلها عن الحركة المؤثرة.

وكما هو معلوم، قام الإسلام على فكرة المزج بين المفاهيم الدينية، والدنيوية، وحدث في يوم الجمل أن أوجد علي بن أبي طالب شرعة قتال أهل القبلة، حظر بموجبها على أتباعه أخذ الأسرى والغنائم، وعدّ المهزومين كفاراً أو مرتدين، وبعد العودة من الجمل احتج بعض الجند على أوامره قائلين: كيف أبحت لنا الدماء، وحظرت علينا الأموال؟.

وهكذا تفجر بين أهل الكوفة صراع فكري مخيف، أخذ يطرح مشاكل الكفر والإيمان[1]، ونما مع الأيام هذا الصراع نمواً خطيراً جداً، وأسهمت فيه عناصر كثيرة غير

---

(1) الفتوح: 1/ 28 و- 44 و. مصنف عبد الرزاق: 5/ 457. تاريخ خليفة: 1/ 199 - 207. الطبري: 4/ 427 - 543. اليعقوبي: 2/ 178 - 184. الأخبار الطوال: 144 - 154. وينصح القارئ بالعودة إلى كتابي: عائشة والسياسة، لسعيد الأفغاني، وعائشة، لزاهية قدورة.

عربية، وما لبث أن تحول عن مسبباته الأولى، فامتزج مع الصراع الذي كان يخوضه الإسلام ضد العقائد والطقوس القديمة والديانات التي هزمت أثناء الفتوحات، وأقبل المتصارعون على استيراد الأفكار المساعدة على إثارة الجدل والنقاش، وكان هذا كله بداية الانقسامات الخطيرة التي ألمت بجماعة المسلمين سيما وأنه ترافق مع نشوء عقيدة الإمامة وتطورها.

ودون الوقوف طويلاً عند التفاصيل والدخول في متاهات النقاشات الدينية، نختصر القول بأن علي بن أبي طالب تمكن بعد لأي من قيادة أعوانه نحو الشام، إنما بكل صعوبة، ولم يتوجه نحو دمشق مباشرة، بل نحو الجزيرة، لارتباطها بمصالح الكوفيين المباشرة، وبعدما عسكر في صفين على الفرات، أقبل أعوانه على القتال بنفوس مدبرة، لذلك انتهى أمر يوم صفين دون نتيجة عسكرية حاسمة، وعاد علي أدراجه نحو العراق، بعدما فقد مكانته، عاد وآثار الانقسامات الخطيرة واضحة بين صفوف جيشه، وقد تجلى ذلك بقيام حركة الخوارج[1].

وحاول علي تدارك الأمور، لكن الوقت لم يسعفه وعاجلته منيته حيث تم اغتياله، وأخفق ابنه الحسن بالاحتفاظ بالسلطة بالعراق، فتنازل لمعاوية بن أبي سفيان، الذي صار الآن سيد العالم الإسلامي، ومؤسس أول أسرة ملكية وراثية في تاريخ الإسلام، وكان لهذا ردات فعل عنيفة جداً، ومن يقرأ تاريخ العصر الأموي، يشاهد أن الحكم الأموي لاقى صنوفاً من المعارضة الكبيرة الدائمة[2].

فقد كان العراق المتضرر الأكبر من استيلاء الأمويين على السلطة، ولهذا تجمعت فيه غالبية عناصر المعارضة، وكان معظم هذه الغالبية من أهل الكوفة عاصمة علي بن أبي طالب، ومنذ البداية اختار أهل الكوفة لزعامتهم الحسن بن علي بن أبي طالب، ومع الأيام انتظمت أمور المعارضة، وعبر عدد من الحوادث والأزمات أخذت تتحول من حركات سياسية ترى أحقية أسرة محددة في السلطة إلى حركات دينية سياسية.

---

(1) مصنف عبد الرزاق: 5/ 463 ـ 466. أنساب الأشراف: 2/ 292 ـ 367. تاريخ خليفة: 1/ 216. الطبري: 4/ 552 ـ 576، 5/ 5 ـ 71. صفين لنصر بن مزاحم. الأخبار الطوال: 152 ـ 201. اليعقوبي: 2/ 184 ـ 193.

(2) انظر كتابي تاريخ العرب والإسلام: 137 ـ 164.

لقد كان لعناصر المعارضة هذه عدة جولات مع السلطان الأموي، كان أهمها فاجعة كربلاء، التي قدمت حصاداً لم ينقطع، وكان أبرز ثمرات هذا الحصاد حصر الزعامة السياسية لمعارضة الكوفة في آل علي بن أبي طالب، وأخذ هذه المعارضة اسم الشيعة، ففي العربية شيعة فلان: أصحابه ومؤيدوه، وشيعة علي: حزب علي، وهي عبارة صارت فيما بعد مقتصرة على لفظة «شيعة» فقط، وكان من ثمرات هذا الحصاد أيضاً ثورة التوابين التي نشهد فيها بداية التحول في حزب الشيعة من حزب سياسي محض، إلى حركة دينية، ويعد التوابين خطا المختار بن أبي عبيد الثقفي في هذا المجال خطوات واسعة للغاية، كما أن حركته سجلت بداية الانشقاقات في صفوف الشيعة، وتحول حزبهم إلى مجموعة من الفرق، ليست ممزقة الصفوف فقط، بل متصارعة أيضاً.

كما كان من حصاد كربلاء أيضاً زعامة غالبية الشيعة أخذت تنحصر في أبناء السبط الثاني للنبي ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب[1].

وكان معاوية بن أبي سفيان عندما استولى على السلطة في الدولة الإسلامية، استولى معها على لقب أمير المؤمنين، وحيث أنه حاز السلطة بقوة السلاح، فقد قامت السياسة الأموية على قاعدة شرعية السلاح، والقول إن هذا ما كان ليتم إلا بقضاء الله وقدره، وهو ما سيعرف فيما بعد باسم الجبرية الأموية.

وحدثت تجاوزات كبيرة في العصر الأموي، واغتصبت حقوق، واعتمد الأمويون على قطعة مختارة من الجند العربي ـ الجند الشامي ـ فانعدمت بذلك المساواة بينها وبين صفوف الجند العربي في الأمصار، كما انعدمت بين جماعات المسلمين من عرب وسواهم، وأخذت عناصر المعارضة تنادي بالعدل ناقضة لأفكار الجبرية الأموية، وسيعرف هؤلاء فيما باسم القدرية، أو أهل العدل، وسنراهم مع آثارهم بشكل واضح في فرق الشيعة والمعتزلة.

وقالت فرق المعارضة بأن حق آل علي بالسلطة قام على وصية النبي ﷺ لأبيهم وعلى شرعة الميراث، وأن الخلفاء من بني أمية حين استولوا على السلطة استولوا على الجانب الدنيوي منها فقط، ولم يستطيعوا انتزاع الجانب الديني من الميراث النبوي، ودعي هذا الجزء من الميراث باسم الإمامة:

---

(1) مصادر الحاشية السالفة.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي كنتم خير أصحاب دين أخرج للناس، لأن الأمة هم أصحاب دين، ولهذا أخذ الشيعة يطلقون على زعيمهم لقب الإمام، هذا من جهة، ومن جهة ثانية حين تتحدث الأخبار عن سيرة علي ابن أبي طالب، تجعل من صفاته الأساسية ومزاياه التي تميز بها الشجاعة والعلم، فهو ربيب بيت النبوة نشأ مسلماً، ونهل من علم النبوة ما لم ينهله سواه، حتى قيل بأن النبي قد باح له بعلوم لم يطلع عليها سواه.

ومع الأيام غدت الإمامة ذات العلم الموروث محور العمل الشيعي، وأغنيت فكرتها، وزودت بكثير من المعاني والصفات بفضل التطور الثقافي والحضاري والسياسي الذي ألم بالمجتمع الإسلامي، واستعير لها الكثير من المعاني والصفات والتجارب من تراث الديانات السماوية وغير السماوية، ومن الأفلاطونية المحدثة، والغنطوسية، وحكمة الشرق الأقصى.

والمعروف أن حركة التشيع بدأت حركة عربية إسلامية محضة، لكن ما لبث أن دخل إليها غير العرب، خاصة من سكان أراضي الامبراطورية الساسانية المنهارة، وجاء هذا الدخول في كثير من المناسبات نوعاً من أنواع المعارضة الأعجمية للعروبة والإسلام، وعانت فئات في حركة التشيع في الوقت ذاته من تسرب الكثير من الأفكار والعقائد الغريبة إليها، مما أدى إلى التمزق والانقسام، وأدى هذا إلى معاناة هذه الفئات من التنكيل الأموي والقمع الدموي، كما أدى إلى مزيد من الانقسامات داخل الحزب الشيعي، وظهور فرق جديدة، وتورطت بعض الفرق الجديدة هذه في ثورات آلت إلى الإخفاق والدمار، وسبب هذا استيراد المزيد من الأفكار المتطرفة والغريبة، ولعل أهم هذه الثورات كانت ثورة الإمام زيد بن علي [سنة 122هـ] في عصر هشام بن عبد الملك[1].

وللإنصاف العلمي إننا نلاحظ أن أعمال الملاحقة والتنكيل الأموية لم توجه ضد البيت الهاشمي بالأساس، بل ضد حركات متطرفة أظهرت عداءاً واضحاً أو باطنياً للعروبة

(1) الفتوح: 2/ 206 و ـ 212 و. الطبري: 7/ 160 ـ 191. تاريخ خليفة: 2/ 536. اليعقوبي: 2/ 325 ـ 326. ومقاتل الطالبيين: 127 ـ 151. تاريخ الخلفاء: 415 ـ 423. مروج الذهب: 3/ 217 ـ 220. المقالات والفرق للقمي: 4 ـ 28. فرق الشيعة: 2 ـ 15. الأرجوزة المختارة: 98 ـ 180. تاج العقائد ومعدن الفوائد: 65 ـ 81.

والإسلام، صحيح أن الحكم الأموي قام بالأصل على القاعدة العربية والتعصب لها، إلا أنه من الملاحظ أن الأمويين، وضعوا منذ العصر المرواني الخطط لتعريب أمم دولتهم، وشرعوا في تنفيذها، ففي أيام عبد الملك بن مروان تمت أعمال تعريب الإدارة والاقتصاد، وأخذت علامات الاندماج بين العرب الفاتحين وسكان خراسان تظهر، وأقبل الخراسانيون على الدخول في الإسلام، كما أقبل عليه سواهم في مناطق أخرى من أراضي الدولة الشاسعة.

كانت بلاد الإمبراطورية الساسانية تتألف من مجموعة من الاقطاعيات لها نظام اجتماعي قائم على تعدد الطبقات، وقد حظر هذا النظام الانتقال من طبقة إلى أخرى، ودون الدخول بتفاصيل أسماء الطبقات، لقد كان هنالك أولاً وفي الأعلى الإمبراطور والأسرة الإمبراطورية، وطبقة رجال الدين الزرادشت، والأسر الإقطاعية المالكة، وقابل هذا في الدرك الأسفل طبقات رجال الزراعة والحرفيين والصناع أو العامة بشكل مطلق، ووجد بين هاتين المجموعتين طبقة وسيطة شغلت دور صلة الوصل بينهما، وعملت لصالح الطبقات العليا في الإدارة والجباية، وعرفت باسم طائفة الدهاقين.

ولدى نجاح الفتوحات العربية الكبرى جرى تدمير الطبقات العليا، وحل محلها قادة العرب الفاتحين، واعتمد العرب على طبقات الدهاقين التي اتسع الآن نفوذها كثيراً، حتى طمح بعض أفرادها بالحلول محل الطبقات العليا الزائلة، وعاش العرب في خارج المدن الخراسانية على شكل حاميات عسكرية، مهامها ضبط الأمن، وتسلم الخراج والجزية، والقيام بأعمال الجهاد في المواسم المناسبة، وأسلم بعض الدهاقين في سبيل توطيد صلاتهم بالحكم الجديد، وفي البداية كانت غالبية سكان البلاد من غير المسلمين، إنما مع الربع الأخير من القرن الأول للهجرة بدأنا نسمع بأخبار دخول كثير من سكان خراسان بالإسلام، وبعمليات أولية للاندماج بين العرب وسكان مدن خراسان، فقد أخذ بعض العرب يقطنون هذه المدن، وعمدت في هذه الآونة السلطات الأموية إلى تعريب الإدارة والاقتصاد في الدولة، وقد جعل نجاح أعمال التعريب مع عمليات الاندماج في خراسان الدهاقين يشعرون بالمخاطر الشديد والتهديد بزوال طائفتهم من الوجود، وازداد هذا الشعور بالخطر مع قيام حكم عمر بن عبد العزيز وتفرغه لتنفيذ خطط إيجاد أمة

إسلامية جديدة، لسانها عربي، وعقيدتها حنيفية، وعلى الرغم من أن مدة حكم عمر بن عبد العزيز كانت قصيرة، وعلى الرغم من ردات فعل الأسرة الأموية عليها، وعملها ضدها، نلاحظ أن جميع الثورات التي تفجرت بعد عصر عمر الثاني نادت بشعاراته بالمساواة وبدمج أفراد الأمة في كيان واحد[1].

ويرى بعض الباحثين أن هذا كله قد بعث الذعر في نفوس جماعات من الدهاقين فعملوا على محاربة هذا الاتجاه عن طريق التآمر لإسقاط الحكم الأموي، وهكذا قام تنظيم الدهاقين الذي اختار لواجهته الأسرة العباسية، ومن هنا نفهم أسباب وجود قوى معادية للإسلام بين صفوف الدعوة العباسية مثل خداش وسواه، ونفهم مغزى تعاليم إبراهيم الإمام التي قيل بأنه بعث بها إلى أبي مسلم الخراساني بعدم الإبقاء على أحد من العرب في خراسان.

وأعود مؤكداً أنه يلاحظ في هذا المقام، أنه بخلاف جميع الثورات التي تقدمت الدعوة العباسية، قام صلب تنظيم هذه الدعوة بين طائفة الدهاقين، وأن هذه الطائفة هي التي تولت حشد الطوائف الدنيا وقيادتها، وارتبطت هذه الطوائف والجماعات من خلال الدهاقين بإمام منتظر هو «الرضا من آل البيت».

وحين جرى تفجير الثورة العباسية لم تواجه هذه الثورة مشكلة التناقض بين القاعدة الثورية والزعامة القرشية، فهذه الزعامة لم تتول قيادة الثورة ولا حتى توجيهها، بل الذي

---

(1) انظر محتويات كتاب تنسر مع كتاب عهد أردشير 7 وجهار مقاله للعروضي. وترجمة أبي مسلم في تاريخ ابن عساكر حيث هناك مادة خطيرة لم تستثمر بعد. الفتوح: 2/ 66ظ 8 تاريخ خليفة: 1/ 461 - 471. فتوح البلدان: 159. الطبري: 6/ 550 - 573. خراج أبي يوسف: 119. سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم. أخبار أبي حفص عمر للآجري. الأخبار الطوال: 331. تاريخ الخلفاء: 352 - 388. مروج الذهب: 3/ 192 - 205. تاريخ اليعقوبي: 2/ 301 - 309. العيون والحدائق: 3/ 37 - 64. معجم بني أمية: 132 - 133. الفخري: 103. السيوطي: 228 - 246. فلهوزن: 256 - 301. ملامح الانقلاب الإسلامي: 81 - 177. تعريب النقود والدواوين لحسان حلاق: 61 - 79.
هذا وقد أوقف عبد الحي شعبان كتابه: «الثورة العباسية» بالانكليزية على دراسة أوضاع خراسان في العصر الأموي. ط. كمبردج 1970.

تولى ذلك الدهاقين (الدعاة) ونجحت الثورة، واحتلت العراق بعد خراسان، وأخذت تعد العدة للدخول في معركة حاسمة ضد الخلافة الأموية، وأعلن داعي الدعاة عن نفسه وزيراً لآل محمد، ومع ذلك وجدت الثورة نفسها بحاجة إلى إعلان الزعامة القرشية، وبعد شيء من التردد والمراوغة من قبل الوزير جرى الإعلان عن أبي العباس السفاح خليفة وإماماً مهدياً جديداً، له السلطة الاسمية أما الحكم والإدارة فبيد وزير آل محمد، أي حامل أوزار المسؤولية الدنيوية عنهم[1].

لقد أوقف نجاح الثورة العباسية عمليات الاندماج، وأبقى على شعوب وطوائف الدولة الاجتماعية، وربط هذه الشعوب والطوائف بروابط شاقولية بشخصية الإمام العباسي، عن طريق مؤسسة الوزارة، التي تولت أمور الإدارة والحكم، ولم يعد الإمام العباسي خليفة لرسول الله ﷺ، بل ابن عم رسول الله، وخليفة الله، وظل الله في الأرض[2].

وليس من المغالاة أبدأ القول بأن الثورة العباسية قد حولت الدولة الإسلامية من دولة تنشد البنيان العقائدي إلى إمبراطورية تشبه الإمبراطورية الساسانية التي أزالها العرب الفاتحون من الوجود، إذ تعطلت عمليات الاندماج العقائدي، أو أصيبت ـ على الأقل ـ بما يشبه الشلل، وغدت الدولة العباسية إمبراطورية تحوي العديد من الشعوب والطوائف

---

(1) انظر: أخبار العباس: 160 ـ 376. الفتوح: 2/ 218 و288. والطبري: 7/ 49 ـ 51، 353 ـ 457. تاريخ الموصل: 106 ـ 107. تاريخ خليفة: 564 ـ 608. الأخبار الطوال: 360 ـ 370. اليعقوبي: 338 ـ 349. مروج الذهب: 3/ 252 ـ 266. مسائل الإمامة للناشئ الأكبر: 26 ـ 36. تاريخ الخلفاء: 475 ـ 597. العيون والحدائق: 3/ 157 ـ 213. الكامل: 4/ 200 ـ 330. العواصم: 83 ـ 84، 98. الفخري: 113 ـ 120. ابن كثير: 10/ 25 ـ 55. السيوطي: 254 ـ 259. الذهب المسبوك: 48 ـ 59. ابن العبري: 117 ـ 120. ابن خلدون: 3/ 251 ـ 279. فلهوزن: 455 ـ 538. العرب في التاريخ: 113. دولة بني العباس: 1/ 91 ـ 189. أطروحة دكتوراه فاروق عمر بالإنكليزية (الخلافة العباسية) وقد قام فاروق عمر بإخراج محتويات هذا الكتاب بثلاثة كتب عربية هي طبيعة الدعوة العباسية. العباسيون الأوائل 1 + 2.

(2) انظر مقال «من ألقاب الخلفاء العباسيين ـ خليفة الله وظل الله» للدكتور فاروق عمر. مجلة الجامعة المستنصرية ـ العدد الثاني بغداد 1971.

الاجتماعية ارتبطت جميعاً بشكل شاقولي بالخليفة وتعلقت به ، وقد وجد بين هذه الطوائف والخليفة الإمام طبقة وسيطة ، فقد قام مع الدولة العباسية دور الطبقة الوسيطة ولم يجر إلغاؤه أبداً ، ولاشك أن من أسباب نجاح الثورة العباسية اعتمادها على مثل هذه الطبقة ، أو بالحري الطائفة من الوسطاء .

بعدما نجحت الثورة العباسية ، أراد قادتها الخراسانيون تحقيق أهدافهم ، فتصدى لهم الخلفاء الأوائل من بني العباس ، خاصة المنصور ، حيث دبر قتل أبي سلمة الخلال ، وبطش بأبي مسلم الخراساني ، وفصل الدعوة العباسية عن الحركة الكيسانية الشيعية ، وأعلن الحرب على الزندقة والشعوبية ، ووضع سياسة دينية متوازنة ، وعلى الرغم من ذلك فقد نجم عن انتصار العباسيين فيما نجم ، إخفاق مشاريع إنشاء الأمة الواحدة ، وظهر إلى الوجود معالم انشطار العالم الإسلامي إلى وطنين : واحد عربي ، وآخر أعجمي ، وظهرت حركة الزندقة ، وحركات لا إسلامية أخرى ، كما نشطت حركة الشعوبية وسواها .

ولاحق العباسيون هذه الحركات بلا هوادة ، وسعوا للقضاء عليها ، صحيح أن حركة الدهاقين حققت بعض النجاح ، إنما كان نصيبها في الإخفاق أعظم ، فقد تعمقت جذور الإسلام في إيران وخراسان ، وازدادت عقيدة الإسلام قوة ومنعة ، لذلك تابعوا تآمرهم وأرادوا توريط قوى إسلامية كثيرة في مشاريعهم .

ومارس العباسيون سياسة دينية محكمة ربطت رجال الدين والفكر عامة بهم ، وخدمت هذه السياسة في توطيد فكرة أن الإمام العباسي هو «محور الحياة الدنيا وقطبها» الذي تتعلق به جميع الكائنات ، وبذلك تعلقت شعوب الدولة الإسلامية المترامية الأطراف بشخصية الإمام ، ولم ترتبط [كما أريد أصلاً] بعضها ببعض أفقياً على أساس الشريعة ، وفي سبيل إنشاء الأمة الإسلامية الواحدة .

ولاشك أن هذا كان فيه انتكاسة كبرى لما أراده الإسلام ، ولا ريب أنه كان للنزعات الاستقلالية لدى شعوب الدولة الإسلامية دورها في هذا المجال خاصة عن طريق الحزبية الدينية ، والمهم قوله أنه لم تتكون لدى الدولة الإسلامية المترامية الأطراف قاعدة اجتماعية بلا سدود وحواجز ، ومن هنا يلاحظ أنه عندما ضعف الخلفاء في بغداد انفصمت عرى الدولة العباسية ، وغدت مجموعة متزايدة العدد من الدول .

لا بل حتى على صعيد العرب أنفسهم يلاحظ الشيء ذاته في قوالب قبلية قديمة أو مستحدثة، وفي قوالب إقليمية وحزبية ودينية وسواها، وكان أيضاً أنه عندما ضعف سلطان الخلفاء في بغداد ضعف معهم شأن الدهاقين فزالت قوة مؤسسة الوزارة من الوجود، وحكم على الخلفاء من قبل الجند، لكنهم احتفظوا بمكانتهم الدينية السامية، والسؤال الذي لابد منه هنا هو: متى بدأت التحولات لدى العرب نحو تقبل الزعامة الفردية، الطريق الذي قاد نحو تطوير عقيدة الإمامة مع فكرة المهدي وجعل صاحبها يأخذ دور المخلص؟.

المتتبع لتاريخ الإسلام يلاحظ أن العرب تعلقوا أيام النبي ﷺ بالشريعة، ذلك أنهم تعلموا من خلال سيرته ﷺ أن طريق التغيير هو تبديل القاعدة والنظام وليس السلطة أو رأسها ـ فالفارق كبير جداً بين الثورة والانقلاب[1] ـ لكن هؤلاء العرب شرعوا منذ أواخر أيام عثمان يرون أن تبديل رأس السلطة برأس جديد سيمكن من حل المشاكل، ولعل مرد هذا إلى ما تأثر به العرب في البلدان المفتوحة في الشام والعراق ومصر، فهذه البلدان عرفت عقيدة «المُخلِّص» وكانت تجارب الحكم الماضية فيها قائمة على سيرة الفرد الحاكم وليس على قاعدة النظام المقرر، ففي روما كان الإمبراطور يؤله بعد اعتلائه العرش، وبعدما تبنت روما المسيحية كانت أهواء الحكام ومطامحهم وراء تطور هذه الديانة وابتعادها عن كثير من أصولها، وبالتالي السبب في قيام كنائس جديدة.

وعقيدة المخلص عقيدة بابلية إيرانية شرقية بوذية وبراهمية نبعت عن عبادة بوذا وبراهما ومردوخ، والعقيدة الزروانية، وتفاعلت مع الغنطوسية، وبقية عقائد بلاد الرافدين، وقد تأثر بها اليهود أثناء عصر الحكم الاخميني، وظهرت لديهم مع النبي اليعازر، ثم تطورت مع ظهور المسيحية وبعد ذلك أثناء محاولات الاستقلال عن اليهودية خاصة ما حدث في شمالي بلاد الشام في مناطق الرها، وحران، وطرسوس، وأنطاكية[2].

---

(1) في السيرة النبوية روايات عدة فيها أن بعض أصحاب النبي ﷺ أشاروا عليه في مكة، بالعمل للاستيلاء على مقاليد الأمور فيها بغتة فرفض. انظر سيرة ابن هشام: 1/ 488.

(2) انظر كتابي ماني والمانوية: 82 ـ 93. تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية لميرسيا إلياد. ترجمة عربية ـ ط. دمشق 1987: 1/ 83 ـ 98.

ولم يعرف عرب ما قبل الإسلام فكرة المُخلِّص، والنبي محمد ﷺ أرسله الله ﴿ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[1]، وهو لم يقم بعمل فداء، ولم يبشر بمثل ذلك، بل بذل جهوده كلها في سبيل هداية قومه والناس أجمعين إلى الوحدانية الخالصة، وليس لفكرة الفداء حسبما استقرت في المسيحية وجود في القرآن، وهذه الفكرة دخلت إلى عقول العرب والمسلمين عن طريق شعوب الإمبراطورية الساسانية، وذلك في وقت مبكر حينما جرى تطوير واقعة كربلاء إلى ملحمة قائمة على عقيدة الفداء، هذا ويلاحظ أن التاريخ الإسلامي المبكر شهد عمليات اغتيال كبيرة، لكن لم تطلق عبارة «فداوي أو فدائي» على القائم بالاغتيال بين العرب، فقد ظهرت هذه العبارة فيما بعد مع إقامة حسن الصباح لتنظيم الدعوة الاسماعيلية الجديدة واعتماده القتل الطقوسي، ومعروف أن الصباح أسس دعوته في الأراضي الإيرانية[2]، حيث تراث الزروانية وسواها.

لقد قلت: إن النبي ﷺ بذل جهوده لهداية قومه، فهل كان ﷺ مهدياً؟.

النبي ﷺ كان رسول الله ومبلغ كلماته، دعا إلى الإسلام ولم يدع إلى نفسه، وعبارة المهدي وإن وردت في الآثار لم ترد مطلقاً في القرآن الكريم، وليس في القرآن ما يشابهها أبداً، هذا ويلاحظ أن عبارة مهدي عندما استخدمت في الحقبة المبكرة من تاريخ الإسلام عنت بشكل مجرد ومطلق عملية الهداية فقط، وذلك انطلاقاً من المعنى اللغوي البحت، ففي العربية «المهدي: هو الذي قد هداه الله إلى الحق»[3] وفي هذا الإطار ظهرت العبارة في شعر صدر الإسلام، يقول حسان بن ثابت من قصيدة رثى بها النبي ﷺ:

جزعا على المهدي أصبح ثاويا ... يا خير من وطئ الحصى لا تبعد

بأبي وأمي من شهدت وفاته ... يوم الاثنين النبي المهتدي

ومدح شاعر سليمان بن عبد الملك فقال:

على طاعة المهدي لم يبق غيرها ... فأُبنا وأمر المسلمين جميع

وفيه قال الفرزدق:

---

(1) الآية 119 من سورة البقرة.

(2) يمكن للقارئ الكريم العودة إلى محتويات كتاب الدعوة الإسماعيلية الجديدة المقبل.

(3) النهاية لابن الأثير مادة «هدى».

وألقيت من كفيك حبل جماعة وطاعة مهدي شديد النقائم

ومدحه جرير فقال:

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدي قد وضح السبيل

ومدح جرير من بعد هشام بن عبد الملك فقال:

فقلت لها الخليفة غير شك هو المهدي والحكم الرشيد[1]

وفي عودة إلى كتب الحديث نجد أقدمها كتاب المصنف للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، وقد أفرد عبد الرزاق بابا من كتابه بعنوان «باب المهدي» أورد فيه عدة روايات وحديثين فقط، الروايات منقولة أو معزوة إلى بعض الصحابة والتابعين، وأحد الحديثين مرفوع إلى النبي والآخر فيه «ذكر رسول الله . . .»[2].

وقد عظم حجم المادة المتعلقة بعقيدة المهدي في القرن الثاني للهجرة، إثر نجاح الثورة العباسية، وكان من أقدم من جمع المواد حول هذا الموضوع في كتاب مفرد الإمام نعيم بن حماد المروزي الخزاعي [ت: 228هـ] في كتاب الملاحم والفتن. وكان لأئمة رجال الحديث موقفهم الواضح من هذا الكتاب وأمثاله، فقد قال الإمام أحمد ابن حنبل: «ثلاثة كتب ليس فيها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير»[3].

وتعطي عملية تفحص هذه المواد مع ما حوته المصادر التاريخية من أخبار، أنه وإن حافظ المسلمون في صدر الإسلام بشكل عام على المعنى النابع عن اللغة لكلمة مهدي، فإنه منذ خلافة علي وأثناء وجوده في الكوفة بدأت فكرة الإمامة بالتبلور ومعها أخذت عبارة مهدي تكسب معاني جديدة، ويدعى ما ظهر في الكوفة ببداية الغلو، فقد روي عن القاضي الشعبي أنه قال: «إن علي عليه السلام أتاه قوم، فقالوا: أنت هو، قال: ومن أنا؟ قالوا: أنت ربنا، فأمر بنار فأججت، فألقوا فيها، وفيهم قال علي عليه السلام:

---

(1) انظر كتاب المهدية في الإسلام: 45-47.

(2) المصنف: 11/ 26-29. وأنصح القارئ بالعودة إلى مواد كتاب الإمام المهدي عند أهل السنة تأليف مهدي الفقيه إيماني - ط. بيروت: 1402هـ ونشرت كتاب ابن حماد محققاً، دار الفكر في بيروت 1993.

(3) الكامل لابن عدي ط. بيروت، دار الفكر: 1/ 118.

لمـــا رأيـــت الأمـــر امـــراً منكـــراً أججـــت نـــاري، ودعـــوت قنـــبرا

فحرقهم علي بن أبي طالب، ونفاهم في البلاد».

وفي رواية أخرى عن شريك العامري قال: «أُتي علي بن أبي طالب، فقيل له: إن ها هنا قوماً على باب المسجد يزعمون أنك ربهم، فدعاهم، فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، فقال: ويلكم أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، إن أطعته أثابني إن شاء الله، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا، فأبوا فطردهم، فلما كان الغد غدو عليه، فجاء قنبر فقال: والله قد رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال أدخلهم علي فقالوا له مثل ما قالوا، وقال لهم مثل ما قال: إنكم ضالون مفتونون، فأبوا، فلما كان اليوم الثالث، أتوا فقالوا له مثل ذلك القول، فقال لهم: والله لئن قلتم لأقتلنكم أخبث القتلة، فأبوا إلا أن يتموا على قولهم، فدعا قنبر، فقال: ائتني بفعلة معهم مرورهم وزبلهم، فلما جاء بهم خدّ لهم أخدوداً بين باب المسجد والقصر، وقال: احفروا فحفروا فأبعدوا في الأرض، فلما حفروا وأبعدوا جاؤوا بالحطب، فطرحه وبالنار فطرحها في الأخدود، وقال: إني طارحكم فيها فارجعوا، فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم فيها حتى احترقوا، قال:

إنـــي إذ رأيـــت أمـــراً منكـــرا أوقـــدت نـــاري ودعـــوت قنـــبرا[1] »

وبعدما قامت الخلافة الأموية وكثرت التجاوزات واشتد عود المعارضة، لجأت هذه المعارضة إلى تنمية فكرة المهدي ومزجها مع العقائد المتعلقة بشخصية المخلص، وعمت الفكرة وآمن بها معظم الناس، لأن الظلم نزل بالأكثرية، حتى أننا لنجد الفكرة لدى بني أمية، في الحديث عن الأشج منهم وعن السفياني المنتظر.

وعلى الرغم من هذا كله نلاحظ أن كبار الفقهاء لم يؤمنوا بهذه العقيدة فقد سأل أحدهم الإمام سفيان الثوري فقال: «قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ قال: إن مرّ على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه، واعلم علمك الله أن هذه الطائفة طمع بسخافة عقلها وكثرة جهلها وادعائها المنكرات من الأقوال والأفعال كل أحد

---

(1) الحرز والمنعة في بيان أمر المهدي والمتعة لأبي منصور عبد الله بن محمد بن الوليد البغدادي الحنبلي المتوفي سنة 643هـ، ط. بيروت ـ دار الفكر 1988، ص24 ـ 26.

من يريد الكيد للإسلام، وتشويش قواعد الدين والإمامة، وخرق إجماع أهل العقد في الإسلام حتى ترسم لهذا الأمر وترشح له من ليس له أهل، وما كان سبب ذلك إلا ادعاء هذه الطائفة خروج هذا الخارج الذي يدعون أنه صاحب الوقت والزمان، تعالى مدبر الزمان ومالكه عما يقولون علواً كبيراً»[1].

وتطورت فكرة الإمامة وامتزجت بفكرة المهدي وبالعقائد التي تعلقت بشخصية المخلّص والفداء، وتبدلت الصور والأدوار، ففي عملية الفداء المسيحية قام المسيح بما قام في سبيل الناس تضحية منه، وفي ملحمة كربلاء أقدم الحسين على سلوك طريق الشهادة، وهو سبط آخر نبي، ليضرب مثلاً أعلى في الشجاعة والفداء للذين رضوا بطغيان بني أمية وجورهم، والمدهش بعد كربلاء أنه طلب من جماهير الناس التي عانت من الظلم والحرمان أن تقوم هي بدور الفداء فتثور وتسفك الدماء لا في سبيل العدالة والمساواة ورفع الحيف بل في سبيل إيصال أسرة أو فرد إلى السلطة، وباتت العدالة يتم الوصول إليها لا من خلال الشريعة وتطبيق الأحكام بل من خلال الزعيم الفرد، ويشكل هذا المفهوم بعداً واضحاً عن مفاهيم الإسلام في أن التغيير يجب أن يحدث من خلال الشريعة لا من خلال الأفراد، فعلى الشريعة تقاس أعمال الأفراد ويحكم عليها، وهذا ما بدا واضحاً في سيرة النبي ﷺ وفي خطبة أبي بكر الأولى بعد اختياره خليفة، وفي موقفه من المرتدين وغير ذلك من الأمثلة كثير.

لقد تسلم السلطة في تاريخ الإسلام أكثر من مهدي، لكن الذي حدث ليس زوال المظالم والمشاكل بل وقوع المزيد منها، ومن الأكثر تعقيداً، فالأفراد لا يحققون العدالة من قبل أنفسهم ذلك لأن النفس أمارة بالسوء، لكن الطريق إلى العدالة هو طريق العقيدة التي يسعى إلى تطبيقها المؤمنون بها.

ومما يثير الدهشة أن تاريخ العرب والإسلام شهد في العصرين الأموي والعباسي عدداً هائلاً من الثورات، جلها - إن لم نقل جميعها - التزم بقاعدة أن الزعامة ينبغي أن تكون لواحد من قريش، وذلك على الرغم من أن أسر قريش ورجالاتها الكبار ظلوا مرتبطين بالأرستقراطية والأرستقراطيين الواسعي الثروات والأموال! علماً بأن الثورات

---

(1) الحرز والمنعة: ص59 - 60.

وجهت بالأساس ضد التحكم الأرستقراطي، لهذا وقعت الثورات جميعاً بالتناقض ونالت الإخفاق، فقد كان التناقض طبقياً من جانب وتنظيمياً من جانب آخر، فغالباً ما دعي الزعيم القرشي إلى تولي قيادة ثورة لم يعدّ لها، ولم يكن يعرف أسبابها الأصلية، ولاشك أن هذا يوضح سبباً هاماً من أسباب إخفاق ثورة الحسين بن علي، ثم ثورة حفيده زيد بن علي، ففي كلتا الثورتين سمعنا أثناء الدعوة تزعمهما لعشرات الألوف من الأعوان إن لم نقل لمئات الألوف، وعند تفجر الأحداث سمعنا بأخبار أفراد فقط، ومن ثم بنهاية مأساوية للزعيمين.

ويثير الدهشة أيضاً أن جميع التنظيمات التي بشرت بالمهدي المنتظر، جمع دعاتها ممن اتبعهم خمس مداخيلهم بغية إرسالها إلى بيت الإمامة، لا للتخفيف عن المظلومين بل لرفاه ونفقات الإمام، وسنلاحظ في المستقبل أن حركة واحدة قد تمردت بعض أطرافها على هذه القاعدة وقاعدة الزعامة الأرستقراطية، هي حركة القرامطة وذلك مع أبي سعيد الجنابي.

الدعوة الإسماعيلية

بعدما استقر النبي ﷺ في المدينة ، وقطع أشواطاً بعيدة في إنشاء الأمة الجديدة مع دولتها المركزية ، بدأ يظهر إلى الوجود رسوم خاصة تحدد طرق التعامل مع النبي ﷺ ، فهو لم يعد ﷺ مجرد داعية إلى دين جديد يتحدى به النظام القائم ، كما كان الحال في مكة ، ولم يعد يعرض نفسه على الناس ، بل صار الآن سيد أمة في جميع مجالات حياتها ، ورئيس دولة مركزية هي الأولى من نوعها في تاريخ العرب ، لذلك اقتضى الحال إحداث رسوم خاصة للتعامل معه ، ويلاحظ أن ظهور هذه الرسوم قد ترافق مع تمييز أسرة النبي ﷺ عن غيرها من الأسر ، وإلزام أفراد هذه الأسرة بالتزامات أشد من التزامات بقية الأسر الإسلامية ، فالصدقة مثلاً كانت تحل لكل مسلم محتاج إلا لآل النبي ﷺ ، والحجاب فرض على أزواج النبي ﷺ ، اللواتي ميزن عن سواهن بنيل لقب أمهات المؤمنين ، وهكذا . . .

وفي أواخر أيام النبي ﷺ كان الأحياء من آله قلة أبرزهم ابن عمه علي ثم عمه العباس رضي الله عنهما ، وكان علي أقدم سابقة وجهاداً في الإسلام من العباس ، كما كان أوثق صلة بالنبي ﷺ ، فهو ربيبه ، زوج ابنته فاطمة ، ووالد سبطيه ﷺ .

وظل علي بعد وفاة النبي أبرز آل البيت ، بيت محمد ﷺ ، وقد رأى فيه عدد كبير من المسلمين الأهلية والجدارة والأحقية لخلافة النبي ﷺ ، ومع الأيام تكوّن حوله نواة حزب خاص ، ضم عدداً من الرجالات الذين أعجبوا به وبسلوكه وعلمه وشجاعته ، وظهر هذا الحزب للمرة الأولى أيام البيعة لعثمان .

ومعروف أنه بعد مصرع عثمان آلت الخلافة إلى علي ، وكان عصره زاخراً بالحروب الأهلية ، وقد انتهى هذا العصر باغتياله ، ثم بإخفاق ابنه الحسن في البقاء بالخلافة حيث تنازل لمعاوية بن أبي سفيان .

وبعدما احتكر الحكم معاوية وآله من بني أمية تصدى لمعارضته قوى كثيرة تطورت إلى أحزاب، وقد كان الحزب العلوي أبرز هذه الأحزاب، وقد تكون هذا الحزب بشكل عملي في الكوفة من عناصر تعاونت مع علي أثناء خلافته، ولم يكن بين هؤلاء لجماعة المدينة دور كبير، وكان من أبرزهم حجر بن عدي الكندي الذي قتله معاوية، ثم سليمان ابن صرد وأصحابه قادة حركة التوابين.

وكان الحسن بن علي بعدما تنازل عن الخلافة لمعاوية قد انسحب إلى المدينة حيث دس له السم من قبل زوجته بتحريض من معاوية، وبوفاته آلت زعامة الحزب العلوي الناشئ إلى أخيه الحسين، وقد استشهد الحسين في كربلاء، وكان لفاجعة كربلاء وحصادها أبعد الآثار على تطور الحزب الشيعي وتاريخه حتى يومنا هذا.

ومنذ حركة التوابين يلاحظ المرء تحول الحزب الشيعي من حزب سياسي إلى فرقة دينية، وقد وضح هذا التحول مع المختار بن أبي عبيد الثقفي وقيام فرقة الكيسانية، ولقد عانت الحركة الشيعية - بعدما تحولت إلى فرقة - من التمزق، كما عانت من القمع والملاحقة والتنكيل، وتورطت بعض الفرق الجديدة في ثورات آلت إلى الإخفاق والدمار، كان أهمها ثورة الإمام زيد بن علي في عصر هشام بن عبد الملك[1].

ويلاحظ أنه في الوقت الذي تورطت فيه بعض فرق الشيعة أيام الأمويين وبعدهم بعدد من الثورات المسلحة، واستوردت الجديد من العقائد الغريبة، حافظت بعض الجماعات على الهدوء، ولم تتورط - بعد كربلاء - في أي حركة سياسية حربية، وبذلك حمت أنفسها وعقيدتها، وحالت دون تسرب أية عقائد غريبة جديدة إليها، وظلت صافية الإسلام، محمدية المنهج، علوية النسب، مثالية السلوك، وعرف خط هذه الجماعات باسم الخط الأمامي، وقد قاده سلسلة من الأئمة الكبار من أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب، وظل هذا الخط محافظاً على اعتداله ووحدته حتى أواخر حياة الإمام السادس منه، حيث حدث انشقاق بين صفوفه شطره إلى قسمين: قسم تابع خطه حتى الإمام الثاني

---

(1) أنساب الأشراف: 4/ 1/ 102 - 103، 2/ 1 - 16 - 5/ 214 - 273. تاريخ خليفة: 1/ 278 - 332. الفتوح: 1/ 255 و- 264ظ. الأخبار الطوال: 227 - 306. الطبري: 5/ 400 - 583. اليعقوبي 2/ 243 - 264. تاريخ الخلفاء: 161 - 253. مروج الذهب: 3/ 75 - 117. مقاتل الطالبيين: 78 - 122. الفخري: 93 - 95. السيوطي: 205 - 210. البداية والنهاية: 8/ 150.

عشر، وعرف باسم الاثنا عشرية أو الإمامية، وعرف الخط الثاني باسم السبعية أو الاسماعيلية، وادعى كل طرف من هذين الطرفين بأن فقهه وعقائده وعلومه استقاها من الإمام السادس.

والإمام السادس هو جعفر بن محمد، الذي عرف بالصادق، والأئمة قبله هم: علي بن أبي طالب، ثم الحسن بن علي، ثم الحسين بن علي، ثم علي بن الحسين - زين العابدين - ثم محمد بن علي الذي عرف بالباقر.

وولد الإمام جعفر الصادق في حوالي سنة ثمانين للهجرة (699م) ونشأ في المدينة حيث آثار جده المصطفى، وحيث كبار علماء الإسلام، مع تراث آل البيت، لذلك نال حظاً كبيراً من العلوم الإسلامية، وحظي بمكانة اجتماعية سامية، وقيمة سياسية عالية، وعندما بلغ مبلغ الرجال صار أبرز رجالات عصره، وبعد وفاة أبيه عدّته الشيعة الإمامية إمامهما، وكان رجالاتها ودعاتها يرجعون إليه بقضاياهم وبشؤونهم الخاصة والعامة كافة، كما أن الغلاة منهم أخذوا يلهجون باسمه، رافعين إيّاه إلى درجات عليا، لذلك تصدى الإمام الصادق لدعوات الغلو، وحارب أفكارها، وقام بتعرية رجالها والبراءة منهم، لكن جهوده كلها لم تحل دون انشطار صف الشيعة الإمامية إلى شطرين، ولقنت الثورة العباسية جميع الأحزاب الإسلامية درساً بليغاً، مفاده أن التحرك ينبغي أن يعتمد على الخطط الطويلة الأمد، والواضحة الأهداف، وأن النشاط الدعوي ينبغي أن يكثف في المناطق النائية عن مركز السلطة الرسمي، لتبعد الشبهات عن رجالها، ولتكون أكثر قدرة على التخطيط.

وتوفي الإمام الصادق سنة 148هـ/ 765م وبوفاته خسر المسلمون عالماً جليلاً أجمعت أطراف الأمة على إمامته[1]، ولدى الوقوف عند مشكلة انشطار الخط الإمامي إلى قسمين: محافظ، وراديكالي، لن أدخل في تفاصيل متاهات مقالات كتب الملل والنحل، وتوزيع الأدوار على عدد من الرجالات، فقد كفانا مؤونة ذلك كتّاب الفرق، مع عدد من الباحثين في أيامنا هذه، ويكفي هنا القول بأن الجماعة الجديدة قد قالت إن الإمام بعد

---

(1) عيون الأخبار: 4/ 253. الأرجوزة المختارة: 189. أعلام الإسماعيلية: 184. الكافي: 1/ 306، 472 - 375. وجمع أسد حيدر أخبار الصادق وعلاقته بالمذاهب الأربعة في ثلاثة مجلدات، انظر ط. بيروت 1983.

الصادق هو ابنه البكر اسماعيل، واعتقد غالبية هذه الجماعة بأن اسماعيل قد توفي في حياة أبيه، وقال أقليتها: لم يمت اسماعيل بل تغيب ليظهر بعد حين في البصرة حيث أقام مقعداً، وجاء تغيبه خوفاً من أبي جعفر المنصور، وأصرت الأغلبية على صحة خبر وفاته، وقالت: إن الإمامة انتقلت حكماً ونصاً إلى محمد بن اسماعيل، كل ذلك على الرغم من الاعتراف بأن الصادق قد عهد بالإمامة من بعده إلى ابنه موسى الكاظم.

لقد قالت إن تعيين الكاظم جاء تمويهاً وغطاء فهو قد عين بمثابة إمام استيداع، لأن إمام الاستقرار كان محمد بن اسماعيل، وذلك بموافقة من جعفر الصادق، ذلك أن الإمامة لا يجوز أن تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين، وهي لا تكون إلا في الأعقاب، وعرف محمد بن اسماعيل باسم المكتوم، ذلك أن دعوة الفرع الذي قال بإمامته دخلت في دور الكتمان الشديد، وقد اتسم هذا الفرع بالتطرف، والعلمية والدقة في التنظيم، وباتت فرقته تعرف باسم الاسماعيلية أو السبعية أو التعليمية، أو الباطنية، أو القرامطة، إلى غير ذلك من الأسماء، وقيل عرفت بالسبعية لأن اسماعيل كان سابع الأئمة، والأرجح من هذا هو التأثر بتقديس رقم سبعة، فقد عرف العالم القديم من قدس الرقم / اثنا عشر/ سيما في بلاد بابل، ومن قدس الرقم / عشرة/ واعتمده، ومن قدس الرقم / سبعة/ واعتمده سيما في العالم الكلاسيكي ومصر حيث ظهرت الفيثاعورثية، ومن قدس الرقم / خمسة/ واعتمده وهذا واضح في الديانة المانوية.

وتأثر المسلمون بهذه الأنظمة، وظهر ذلك في عقائد وأفكار الفرق، وحين اعتمدت الاسماعيلية الرقم سبعة قالت: «إن السموات سبع، والكواكب السيارة سبع، والأرضين سبع، وأعضاء الإنسان سبعة، والنقب في الرأس سبعة، والأنبياء ذوي العزم أيضاً سبعة»[1].

وعرفوا بالتعليمية لأن مذهبهم قام على «إبطال النظر والاستدلال، والدعوة إلى الإمام المعصوم، ويقولون: إن الحق إما أن يعرف بالرأي، أو بالتعليم، وباطل أن يعرف بالرأي لتعارض الآراء واختلاف العقلاء، فلم يبق إلا أن يعرف بالتعليم».

وشهروا بالباطنية لأنهم قالوا لكل ظاهر باطن، والعلم علمان: علم الظاهر وعلم الباطن، أو علم أهل الحقيقة وعلم أهل الطريقة، ولقد اعتمد الاسماعيلية طرائق تأويل

---

(1) النوبختي: 57 ـ 58. عيون الأخبار: 4/ 349 ـ 350. الملل والنحل: 1/ 331 ـ 332.

النصوص المقدسة، وهذا عمل بذي به مع فيلون المؤرخ اليهودي والفيلسوف، ووصل الذروة مع أفلوطين في مدرسة الاسكندرية للأفلوطونية المحدثة.

وقالت الفئة الكبرى من أتباع الإمام الصادق: إنه بوفاة اسماعيل ولغير ذلك من الأسباب، عين الصادق ابنه موسى الكاظم إماماً سابعاً، وليس في هذا التعيين تمويه أو استيداع، وتابع خط موسى هذا سلسلة أئمته حتى الإمام الثاني عشر: محمد بن الحسن العسكري، الذي ذهب في غيبة وسيظهر عندما يحين الوقت لأنه المهدي المنتظر، وبناء عليه عرف هذا الخط باسم الإمامية أو الاثنا عشرية.

وتذهب المصادر الإمامية إلى أن موسى الكاظم قد مات مقتولاً من قبل الخليفة العباسي هارون الرشيد وأن محمد بن اسماعيل هو الذي وشى بعمه إلى الرشيد حيث دخل عليه في بغداد «فسلم عليه بالخلافة، وقال: ما ظننت أن في الأرض خليفتين حتى رأيت عمي موسى بن جعفر يسلم عليه الخلافة»[1].

وشكل القوم الذين تبعوا اسماعيل، بعد عمل سري طويل، فرقة عرفت بإعدادها المحكم، وتنظيمها الدقيق المتقن في مجالات الجذب العقلاني والفلسفي والثقافي العالي، مع الإثارة العاطفية، والانفعال، وفاقت في ذلك كل الفرق التي تقدمت عليها أو نافستها، ففي مكان العمل المشوش للفرق السالفة، والإيمان البدائي، والاعتماد على الفورات العاطفية، أحكم عدد من العلماء، ذوي القدرات الخارقة، والعقول الجبارة، نظاماً جديداً للعقيدة الاسماعيلية، على مستوى فلسفي في غاية الرقي، وأنتجوا أدباً رفيعاً، بدأ الآن رجال عصرنا بالاعتراف بقيمته وأثره.

لقد قدم الاسماعيليون للورعين احتراماً كبيراً ظاهرياً للقرآن والحديث والشريعة، ومسايرة للعقيدة الشعبية الدارجة، وقدموا للمثقفين شرحاً باطنياً فلسفياً للكون، اعتمد على مصادر الثقافات الشرقية القديمة والكلاسيكية، وخاصة الفكر التأويلي والإشراقي من الأفلاطونية المحدثة.

---

(1) الكافي للكليني: 1/ 485 ـ 487. عيون أخبار الرضا: 70 ـ 89. النوبختي: 57 ـ 58. سرائر وأسرار النطقاء: 262 ـ 263. عيون الأخبار: 4/ 349 ـ 350. بحار الأنوار: 9/ 175. الملل والنحل: 1/ 331. الفرق بين الفرق: 39. بيان مذهب الباطنية: 21 ـ 25. أصول الاسماعيلية: 82 ـ 83. تاريخ الفلسفة العربية: 11 ـ 14.

وقدم رجال الإسماعيلية للصوفية والروحانيين، مادة فيها الدفء العاطفي والعرفان مع الحب السامي المؤدي إلى التحام الكائنات ووحدة الوجود، ودعم هذا كله بأمثلة وشواهد مما عاناه الأئمة، ومن تضحياتهم في سبيل أتباعهم، وتم عرض هذا بمجمله وتقديمه في صيغ معارضة للنظام القائم، وهادمة له، فكان في ذلك سحر الثورة، وحرارة العمل المعارض[1].

وفي عودة نحو تاريخ الدولة العباسية نلاحظ أن العباسيين وصلوا إلى السلطة، عن طريق شرعية الثورة مع حق الميراث، وذلك بعد عمل دعوي منظم، فقد قالوا بأنه عندما توفي النبي ﷺ كان واحداً من أعمامه حياً، وهو العباس، وحيث أنه لم يكن للنبي ولد ذكر يرثه، ولما كان العم بمنزلة الأب، فالعباس كان الوريث الشرعي للنبي، ومنذ أيام المنصور مارس العباسيون سياسة دينية خاصة، أحلت عبد الله بن العباس في العلم محل علي بن أبي طالب، وصار يعرف الآن بحبر الأمة، وقرب العباسيون إليهم رجال الدين وعلماء الإسلام بشتى السبل من ترغيب وترهيب، ولنذكر هنا على سبيل المثال أن الإمام مالك بن أنس صنف «الموطأ» بناء على طلب المنصور وإرشاده، وابن اسحق صنف «السير والمغازي» أيضاً بطلب من المنصور، ونحن عندما نقرأ كتب الأدب والتاريخ والتراجم نراها تتحدث لنا ملياً عن العلماء وعلاقتهم بالخلفاء ونشاطاتهم في مجالس الخلفاء، والجوائز التي كانوا يحصلونها، حتى ليكاد المرء يقول بأن رجال الدين صاروا أدوات الخلافة العباسية في الحكم، وأن الفكر الإسلامي تمت صياغته عباسياً.

ونحن حين ندرس تاريخ الخلافة العباسية خاصة في القرن التاسع للميلاد، نرى مدى التطورات التي ألمت بالمجتمع العباسي، فقد حدثت تحولات اجتماعية كبيرة مع انقلابات اقتصادية وصناعية، وتجمعت الثروات في أيد قليلة، وصار للبيوتات التجارية مكانتها على صعيد السلطة وغير ذلك، كما أن الإقطاع الزراعي عظم، وبات رجال السلطة يملكون العديد من القرى، ويطلبون المزيد، ويحصلون عليه بشتى السبل من شراء أو اغتصاب، وفي تاريخ الخلافة العباسية نقرأ عن «ديوان للمظالم» كان يجلس فيه الخلفاء،

---

(1) عن طريق عقيدة القيامة التي سنعرض لها، وينصح القارئ بالعودة إلى محتويات رسائل إخوان الصفا.

ويحدثنا الكتَّاب عن عدالة بعض الخلفاء، حيث نجد مثلاً في المتخاصمين إلى الخليفة شخصاً اغتصبت ضيعته، والمغتصب ابن الخليفة أو قريبه، أو أحد الوزراء أو الكتَّاب أو القادة.

واستخدم الإقطاعيون أعداداً عظيمة من العمال في مزارعهم، وجلبوا أعداداً هائلة من الرقيق، خاصة الأسود منه، للعمل الزراعي المرهق.

ومع منتصف القرن الثالث بدأ الضعف يلم بالكيان العباسي، وأخذت المشاكل تتفجر، وترافق هذا مع استيلاء ضباط القصر الأتراك على السلطة وتحكمهم بالخلفاء، وبعدما فعل الجند الأتراك هذا، انعدم الاستقرار السياسي، وكثرت الصراعات على منصب الخلافة، وتعددت الانقلابات الدموية الشرسة، وهكذا ازداد تدهور الأوضاع من جميع الجوانب، واستمر أثناء ذلك ارتباط رجال الدين ـ السنة ـ بالسلطة وقصر الخلافة، وتورط بعضهم بالنزاعات السياسية، وصاروا يسدلون ثوب الشرعية على كثير من الأعمال غير الشرعية، ويقدمون المسوغ لما لا يقبل التسويغ، يضاف إلى هذا أنه منذ أيام المتوكل سيطر الحنابلة على شارع بغداد، فشغلوا أنفسهم بمشاغل فكرية لاهوتية لا تسمن ولا تغني من جوع، غافلين ـ أو متغافلين ـ عن المشاكل التي باتت تهدد كيان الأمة بالخطر.

ولا غلو إذا قلنا بأن الفكر السني أفلس ـ أو كاد ـ في العطاء الاجتماعي، وأن الناس فقدوا ثقتهم بعلماء السنة نظراً لتورط هؤلاء مع رجال السلطة، ولشغل أنفسهم بقضايا التجسيم ومسائل علم الكلام الأخرى[1].

وأمام هذا الحال بدأ الناس يفتشون عن البديل، وأخذوا يسعون في البحث عن الحل، وعن طريق الإنقاذ والنجاة، وقد فر بعضهم ـ لأسباب نفسية عديدة ـ إلى الخيال، فأغنى صورة المهدي المنتظر، وجعله في أنواع من الشخصيات، وهذا ما نشهده في كتاب «الملاحم والفتن» لنعيم بن حماد الذي جاءنا من هذا العصر.

وقامت الدعوة الإسماعيلية بتقديم البديل، وهكذا ما أن حلت نهاية القرن التاسع للميلاد، حتى كان قد تم للإسماعيلية السيطرة على مسارات التفكير الإسلامي، وعلى عقول الفلاسفة، وتغلغل تأثيرهم الموجه إلى جوف نظم وأفكار الثورات وحركات العدالة

---

(1) انظر كتابي تاريخ العرب والإسلام: 281 ـ 310. وينصح القارئ بالعودة إلى كتاب «الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية» تأليف الدكتور فاروق عمر ـ ط. بغداد 1977.

والمساواة في بلاد الإسلام، كما حصل لدى العامة شعور بدنو النصر، وقرب ساعة التحرير، وروجوا لهذا عن طريق فكرة الإمام المهدي المنتظر، الذي سيخرج عندما يحين الوقت فيمهد لإعلان القيامة وقيام القائم، والقيامة عند الاسماعيلية ليست نهاية الحياة، بل نهاية كلية أو جزئية للشرائع السائدة والنظم القائمة، وتحرير الإنسان من كافة الأغلال وجميع القيود القانونية والتعبدية وسواها.

وكان لهذا ردات فعل عنيفة للغاية، نرى أثرها في كتب الفرق على اختلاف ألوانها وأزمانها، فكلها يعزو إلى الاسماعيلية القول بالإباحية، لا بل وحتى ممارسة ذلك، وعدم الالتزام بالقيام بالفروض الدينية الكاملة، وإذا صح هذا فإنه مورس فقط في احتفالات مناسبات إعلان القيامة بصورة استثنائية، ولم يأخذ صفة الاستمرار، وشكل الممارسة الدائمة.

وعلى الرغم من توفر بعض المعطيات الممتازة، لم تورط الحركة الاسماعيلية نفسها في عمل ثوري مباشر تتحمل أعباء نشاطه بشكل علني، بل سعت نحو استغلال القوى غير الموالية لها تماماً، لكن المتأثرة بها، إلى أبعد الحدود، في سبيل زيادة إضعاف النظام السني العباسي، وإضعاف هذه الحركات في الوقت ذاته.

وهنا لابد من وقفة أمام سؤال فيه: أين كان مركز القيادة الاسماعيلية خلال هذا كله؟ ثم ما هو موقف السلطات العباسية من النشاط الإسماعيلي؟ وإلى أي مدى كان تأثير القيادة الإسماعيلية في كل ما حصل؟.

من الصعب إعطاء جواب مقنع موثق لهذا السؤال، فنحن حين نتحدث عن دعوة إسماعيلية، الأجدر بنا أن نستبدل عبارة «دعوة» بـ«دعوات»، ذلك أنه كما حصل في تاريخ التشيع حين انضوى العديد من الحركات المناوئة والمعارضة تحت لواء التشيع عن إيمان أو للتمويه، حصل الشيء ذاته في الإسماعيلية.

قلنا إن دور الستر قد بدأ مع محمد بن إسماعيل، حيث قيل بأن هذا الإمام قد أودع لدى ميمون القداح، وذلك من قبل الصادق نفسه، أو من قبل إسماعيل[1]، وإذا كان هناك اتفاق حول محمد بن إسماعيل فالخلاف شديد لدى المصادر حول أسماء الأئمة خلال

---

(1) سرائر وأسرار النطقاء: 262 ـ 264. عيون الأخبار: 4/ 332 ـ 335. أصول الاسماعيلية: 86.

حقبة الستر وتعدادهم، والمقصود بحقبة الستر هنا، الحقبة التي قامت بين إسماعيل وإعلان قيام الخلافة الفاطمية.

ويذكر صاحب كتاب التراتيب أن الإمامة قد تولاها بعد محمد المكتوم ابنه أحمد الرضي الذي «كان حجابه الذي احتجب به وستره الذي ستره، والذي نصبه وأقامه ميمون القداح» وأثر وفاة أحمد آلت الإمامة إلى ابنه محمد، وقد اتخذ الإمام الجديد عبد الله بن ميمون القداح وكلفه أن «يأخذ العهد لنفسه» ويعني هذا أن ميمون القداح وولده من بعده قاما بوظيفة إمام استيداع.

وإثر وفاة محمد آلت الإمامة إلى ابنه أحمد، وقام الإمام الجديد بتكليف أخيه - ولعله حمل اسم سعيد - بأن يكون إمام استيداعه، مما يفيد بانتهاء دور الأسرة القداحية، وجاءت وفاة أحمد مبكرة فأوصى لأخيه أن يستمر بوظيفته، مستودعاً لابنه محمد الذي حمل لقب المهدي، وحاول العم اغتصاب الإمامة من ابن أخيه فأخفق، واحتفظ محمد المهدي بمنصبه، وقد كلف أخاه عبد الله بإمامة الاستيداع أثر وفاة عمه، ولدى وفاة المهدي آلت الإمامة إلى ولده القائم، وظل أخوه عبد الله محتفظاً بإمامة الاستيداع، وعبد الله هذا هو أول الخلفاء الفاطميين، الذي شهر بلقب المهدي[1].

أما صاحب كتاب استتار الإمام فيرى أن أول أئمة الستر فاسمه عبد الله، وأنه قدم من المشرق واستقر أخيراً في السلمية، وأثر وفاته آلت الإمامة إلى ابنه أحمد، وبعده إلى ابنه حسين، وحسين بن أحمد هذا هو والد عبد الله المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية، وكان حسين عندما حضرته الوفاة قد أوصى بإمامة الاستيداع إلى أخيه سعيد الخير، وحاول سعيد اغتصاب الإمامة من ابن أخيه فأخفق[2].

وذكر الداعي المطلق إدريس القرشي أن أول أئمة الستر هو عبد الله بن محمد المكتوم وقد حمل لقب الرضي، وهو الذي بعث الدعاة إلى المغرب، وخلف عبد الله ابنه أحمد التقي، وهو الذي انتقل إلى السلمية، وخلف أحمد التقي ولده الحسين الزكي، ثم ابنه عبد الله المهدي، ويذكر الداعي ادريس قصة سعيد الخير ومحاولته اغتصاب الإمامة[3].

---

(1) كتاب التراتيب في أخبار القرامطة: 137 - 139.

(2) أخبار القرامطة: 113 - 117.

(3) عيون الأخبار: 4/ 351 - 400.

التناقض واضح بين هذه الروايات الاسماعيلية الثلاث، لذلك لا غرابة أن نجد التناقض أشد في الروايات غير الاسماعيلية، وهكذا روى المقريزي أن أول أئمة الستر جعفر بن محمد المكتوم وقد حمل لقب المصدق، وقد خلفه ابنه محمد الحبيب وهو والد عبد الله المهدي[1]، ومعروف أن المقريزي قد عاصر ابن خلدون وتأثر به كثيراً لذلك جاءت الرواية لدى ابن خلدون أصلاً مطابقاً لما ذكره المقريزي[2].

لقد استغلت الدعاية العباسية فيما بعد هذا التناقض فطعنت في نسب الفاطميين[3]، وقد أدرك الداعي إدريس القرشي خطورة الموضوع فعلل الأمر بقوله: «وكان الدعاة أيام الأئمة المستورين منذ استتار الإمام محمد بن اسماعيل يسمونهم بغير أسمائهم، ويختلفون في الأسماء إخفاء لأمر الله، وستراً لأوليائه لتغلب الأضداد، وقوة أهل العناد، ولذلك وقع الاختلاف في الأئمة المستورين، وكثر خوض الخائضين، وقول القائلين»[4].

قد يكون هذا صحيحاً، لكن من الواضح من جميع الروايات أن بيت الإمامة الاسماعيلي قد عاني في حقبة الستر العديد من المشاكل، وأن ذلك أدى إلى انشقاقه على نفسه، وعمليات الانشقاق هذه توضح لنا قضية انتساب زعيمي قرامطة الشام إلى اسماعيل بن جعفر الصادق.

من المرجح أن وجد عدد لا بأس به من الحركات المطالبة بالعدالة، وذات الفكر الراديكالي القريب من الفكر الاسماعيلي، ولشهرة الاسماعيلية صنف الناس والكتاب هذه الحركات بين الاسماعيلية، فنحن عندما نقرأ، كتب الملل والنحل نرى أصحابها يعزون انتماء بعض الشخصيات والحركات إلى أكثر من فرقة، ويطلقون العديد من الأسماء ويحلونها بكمية من الصفات والنعوت.

هذا وعلينا أيضاً أن نأخذ بعين التقدير مسألة تغير الأئمة بالوفاة أو غير ذلك، وبالتالي التعديل بالسياسة، وفوق هذا مشكلة المواصلات، فكل داعية من الدعاة في منطقة [جزيرة] من المناطق كان سيد عمله، ينشط حسب معطياته، ويعلل الأمور كما يراها

---

(1) اتعاظ الحنفا: 1/ 16. انظر أيضاً المصابيح في إثبات الإمامة للكرماني: 139.

(2) العبر: 3/ 449.

(3) انظر أصول الاسماعيلية: 117 ـ 163.

(4) عيون الأخبار: 4/ 393 ـ 394.

من منظاره الخاص، ومنظار بيئته وخلفياته، ومع الأيام قد تكتشف القيادة ذلك فلا ترضاه، وقد يؤدي هذا إلى طرده، ومن ثم إلى انشقاق في داخل الحركة، والمطالع لما نشر من الكتب والرسائل الاسماعيلية يرى بشكل واضح أن هذا الفكر قد انتمى إلى عدة مدارس، تأثر كل منها بخلفيات محددة، ولأضرب مثلاً على ذلك أنني قرأت أثناء عملي في كتابي ماني والمانوية بعض رسائل وكتب كل من حمزة بن علي الزوزني وأحمد الكرماني، وكانا متعاصرين، فوجدت فيها مؤثرات مانوية واضحة، ولا غرابة في ذلك، فهما وإن نشطا في مصر، قد قدما بالأصل من بيئة سيطرت عليها المانوية فيما مضى.

ولعل من الأصوب ـ والأمر كما أوضحت ـ أن نستخدم عبارة حركات بدلاً من حركة، ولدى العودة إلى المصادر الاسماعيلية لتتبع حركات بيت الإمامة نجد أن بيت الإمامة انتقل أولاً من الحجاز إلى العراق، ربما إلى البصرة، ومن العراق إلى خراسان، إلى منطقة جبال الديلم، فهناك استقر مدّة من الزمن مع التردد على الكوفة أحياناً، ثم انتقل فجأة ـ إثر انشقاق كبير ـ إلى بلاد الشام، وكان هذا في حوالي منتصف القرن الثالث للهجرة، واستقر بيت الإمامة متخفياً في منطقة جبل السماق [الأربعين حالياً في محافظة إدلب السورية] ثم تحول بعد تجديد الاتصال به من قبل بعض الدعاة وأركان الدعوة إلى منطقة مصياف، ثم من مصياف إلى السلمية على طرف البادية حيث استقر هناك، وكانت السلمية مأهولة من قبل عدد من الهاشميين، ومن الممكن الاتصال بها بسهولة بقبائل بادية الشام، حيث المادة البشرية متوفرة للعمل السياسي والعسكري لأصحاب المطامح، كما يمكن الوصول إليها من العراق وغير العراق من بلاد الإسلام، وبالتالي السفر بكل يسر في جميع الاتجاهات.

في مرحلة السلمية انتهت مهمة آل القداح واتخذ الأئمة حجابهم من آلهم، هذا ما تذكره بعض المصادر الاسماعيلية كما رأينا، لكن مصادر أخرى غير اسماعيلية تحكي العكس فتذكر استمرار آل القداح، واستيلائهم على منصب الإمامة عن طريق الولادة الروحانية والحلول النوراني، وعلى الرغم من شيوع هذه الرواية ورواجها نتيجة اعتمادها من قبل الدعاية العباسية المضادة، فإن كثيرين رجحوا صحة الرواية الأولى[1].

---

(1) أخبار القرامطة: 137. عيون الأخبار: 4/ 354 ـ 396. اتعاظ الحنفا: 1/ 16. أصول الاسماعيلية: 117 ـ 156.

ومع ذلك لم تكن عملية الطعن العباسية بالنسب الفاطمي بلا أساس من الصحة ، ففي مجموع مخطوط درزي ، فيه عدة كتب ورسائل من بينها «كتاب فيه تقسيم العلوم ، وإثبات الحق وكشف المكنون ، تأليف اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي ، الداعي المشخّص ، ذي مصة ، الممتص علمه من قائم الزمان حمزة بن علي بن أحمد ، هادي المستجيبين ، المنتقم من المشركين ، بسيف مولانا الحاكم جلّ ذكره» نقرأ حول تأليه الحاكم بأمر الله ، وأن أئمة الاسماعيلية سواء في دور الستر ، أو بعد تأسيس الخلافة الفاطمية كانوا «من ولد ميمون القداح» ، وأن المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية كان اسمه الأصيل سعيد ابن أحمد ، وأن هذا المهدي جاء ممهداً للقائم بأمر الله ، ولسوف نعالج فيما بعد مسألة العلاقة فيما بين المهدي الفاطمي ، والقائم الذي خلفه بالحكم ، ويستفاد أيضاً من هذه الرسالة أن ترتيب القائم هو الثامن من بين الأئمة منذ اسماعيل ، وهو «أول ما ظهر بمملكة الدنيا في ذلك الوقت» .

ويذكر أن الدعوة الاسماعيلية كانت ذات أهداف عالمية ومقاصد أممية ، لذلك أقدمت على تقسيم العالم إلى عدة قطاعات دعوية دُعي كل منها باسم «جزيرة» وأرسل إلى كل جزيرة أحد الدعاة الكبار ، وارتبط دعاة الجزر جميعاً بداع للدعاة اتصل بالإمام مباشرة ، وقسمت كل جزيرة بدورها إلى عدة مراكز دعوية ، تولى شؤون الدعوة في كل منها واحد من الدعاة ، كان ارتباطه المباشر بداعي الجزيرة ، الذي كان بمثابة داع للدعاة في جزيرته ، ولتجنب التناقضات وسواها وحرصاً على وحدة الدعوى ونموها وجد دائماً مع بيت الدعوة أو بالحري بيت الإمامة أو تحت إشرافه مباشرة دار لتدريب الدعاة وتخريجهم ، فقد كانت الدعوة ترسل خيرة رجالاتها من كافة المراكز والجزر للتدرب والتخرج ، وكان بيت الدعوة يقوم بعد تخريج الدعاة بتكليف كل واحد منهم بمهمة من المهام في الأراضي التي جاء منها أصلاً أو في أراضي جديدة .

وفي أثناء مرحلة السلمية عاود بيت الإمامة صلاته مع جزر الدعوة ، وأشرف مجدداً على نشاط الدعوة والدعاة في كل مكان ، وحدث قبل الانتقال إلى الشام ، أن ركزت الدعوة جهودها على اليمن ، ذلك أن اليمن كانت تعد منطقة نائية ، وهي ذات طبيعة جبلية مساعدة ، وقبلية موائمة للعمل ضد السلطة المركزية ، ثم إن اليمن شهرت منذ

القديم بولائها الشيعي، ولهذا توجهت أنظار الدعوة الاسماعيلية إليها، وتركزت عليها، وكانت اليمن أيضاً مسرحاً لنشاط بعض الحركات الشيعية الأخرى، ونخص بالذكر هنا الأسرة الرسية، وهي أسرة حسنية، تمركزت على مقربة من المدينة المنورة، ونجح أفراد من الأسرة الرسية في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة في تأسيس كيان سياسي ومذهبي وسط اليمن وشماليها، استمر هناك طويلاً، وكانت له جولات مع رجالات الدعوة الاسماعيلية في اليمن، الذين ركزوا جهودهم على الجنوب[1].

إلى اليمن أرسل عدد من الدعاة الاسماعيلية، تصدرهم مع بدايات المرحلة الشامية، اثنان هما: ابن حوشب، وهو عراقي الأصل، تمركز في الجنوب على مقربة من عدن، وشهر فيما بعد باسم «منصور اليمن»، وعلي بن الفضل، وهو من أصل يماني تمركز في داخل اليمن إلى الشمال من عدن، وقد حققا في اليمن نجاحات واسعة، لذلك أعلنت قيادة السلمية عن اليمن «دار هجرة» وحرضت الدعاة من جميع الجزر على التوجه إلى اليمن، وتحت إشراف «منصور اليمن» أقيم في اليمن دار تدريب للدعاة وتخريجهم، وهذا موضوع لنا وقفات مستقبلية عنده.

3 ـ قيام الخلافة الفاطمية ـ الطور الإفريقي:

«لابد لأهل المغرب من دولة، دولة كفر.... إذا قرئ على منبر مصر: من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين لم يلبث يسيراً حتى يقرأ: من عبد الله عبد الرحمن وهو صاحب المغرب، وهو شر من ملك... إذا دخل أهل المغرب أرض مصر، فأقاموا فيها كذا وكذا تقتل وتسبي أهلها، يومئذ تقوم النائحات، فباكية على استحلال فروجها، وباكية تبكي على ذلها بعد عزها، وباكية تبكي على قتل أولادها، وباكية تبكي على قتل رجالها، وباكية شوقاً إلى قبورها».

وردت هذه الأقوال على شكل أحاديث على طريقة الأثر، في أحد فصول كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد المرزوي الخزاعي [قتل في فتنة خلق القرآن سنة 228هـ/ 842م] وعنوان هذا الفصل «أول علامة تكون من علامات البربر وأهل المغرب في

---

(1) أفضل المصادر حول هذا الموضوع «سيرة الهادي إلى الحق» وقد سلف لي نشر هذه السيرة في دار الفكر ـ بيروت.

خروجهم[1] ، وموضوع كتاب نعيم بن حماد هذا هو الحديث عما كان من «ملاحم وفتن» وما سيكون ، وقد كتبت مواد هذا الكتاب قبل ما لا يقل عن قرن من الزمن تقدم على قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية [تونس] أي في قرن الدعوة للتحضير لتأسيس الإمامة الاسماعيلية ، والنماذج المقدمة أعلاه هي أكثر مواد الفصل تهذيباً ، وأقلها اقذاعاً بالشتائم ، ومع هذا فهي كما هو واضح تنم عن روح مفرطة بالعداء ، ذلك أن المعني بها الدولة التي ستعرف باسم الخلافة الفاطمية ، وهي ذات فائدة كبيرة ، إذ يمكن أن نفترض من خلالها تاريخاً تقريبياً لبداية النشاط الدعوي الشيعي المتطرف في الشمال الأفريقي ، والمهم الآن هو أنه إذا كانت روح البغضاء والعداء «للخلافة الفاطمية» بلغت هذه الدرجة في التنبؤ ، فكيف آل إليه الأمر في الواقع ؟ .

كان من المناطق التي اهتمت بها الدعوة الاسماعيلية كثيراً بلدان المغرب العربي الكبير ، فهذه البلاد النائية عن بغداد ، والتي لم يصل السلطان العباسي إلى بعض بقاعها ، كانت مناسبة للنشاط بين قبائلها البربرية ، وعندما نستعرض تاريخ الشمال الإفريقي الإسلامي ، نرى شراسة المقاومة التي أبدتها القبائل البربرية للفتح العربي ، وكثرة الثورات التي واجهت الخلافة الأموية ، وأن هذه الثورات ارتدت إما الطابع الرافض للعروبة والإسلام ، أو الطابع الخارجي ، لكن مع انقضاء القرن الهجري الأول ، كان الإسلام قد انتشر بين قبائل البربر ، وقامت حركة سفر واتصال مع المشرق ، خاصة مع الحجاز للحج ولغايات أخرى ، وكان لهذه الاتصالات أبعد الآثار ، منذ القرن الثاني ، حيث انتشر مذهب أهل السنة ، حسب مدرسة فقه أهل المدينة ، في كثير من المناطق ، وأفاد هذا التشيع العام ، سيما مع استمرار العداء للتيار الأموي .

وفي بداية العصر العباسي فر بعض رجال بني أمية إلى الشمال الأفريقي ، وسعوا للنجاح سياسياً ، فلم ينالوا التوفيق ، وخير شاهد على هذا الجهود التي بذلها عبد الرحمن ابن معاوية قبل دخوله إلى الأندلس ، إنما بعد عبد الرحمن بمدة قصيرة وصل المولى إدريس الأول إلى الشمال الأفريقي ، واستقر بين قبائل أوربة في منطقة زرهون قرب مكناس من المغرب الأقصى فنال نجاحاً متميزاً ، علماً بأن قبائل أوربة كانت على رأس القبائل الخارجية في العصر الأموي .

---

(1) الفتن لنعيم بن حماد ـ ط . بيروت 1993 ، ص158 ـ 159 .

ولنجاح الأدارسة في المغرب الأقصى، وأبناء سليمان [أخو إدريس] بن عبد الله في منطقة تلمسان، ولوجود كل من دولتي الأغالبة في القيروان والرستمية الأباضية الخارجية، في تيهرت[1]، وقوى بر غواطة على ساحل الأطلسي، ودولة بني مدرار الصفرية الخارجية على طرف الصحراء، فقد ركزت الدعوة الاسماعيلية أنظارها على ديار قبائل كتامة في المغرب الأوسط [في عمق الأراضي الجزائرية المصاقبة للحدود مع تونس] وإلى هذه الديار بعثت الدعوة الاسماعيلية بعدد من الدعاة شهر منهم اثنان عرفا باسم «أبو سفيان والحلواني» وأمرا «أن يبسطا ظاهر علم الأئمة من آل محمد - صلوات الله عليهم - وينشرا فضلهم» وأمرا «أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر، ثم يفترقان، فينزل كل واحد منهما ناحية».

ومع أن القاضي النعمان يعزو إرسال هذين الداعيين إلى الإمام جعفر الصادق، فإن من المرجح أن ذلك كان قبيل بدايات المرحلة الشامية من تاريخ الدعوة الاسماعيلية وينقل المقريزي بأنهما أمرا بالبعد «عن المدن والمنابر. . . وقيل لهما: اذهبا فالمغرب أرض بكر فاحرثاها، واكرباها حتى يجيء صاحب البذر»، «فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها».

ويفيدنا القاضي النعمان بأنهما لاقيا النجاح في عملها الدعوي، لكنه لا يخبرنا عن الأفكار التي دعوا إليها، ولا عن واسطتهما اللغوية، التي من المرجح أنها كانت العربية، لاستعراب كتامة المبكر، ويذكر القاضي النعمان أن الداعي أبا سفيان قد نزل بلدة تالا التونسية [على بعد 17 كم من حدود الجزائر] فابتنى مسجداً هناك وكان بعض رجال القبائل «يأتونه ويسمعون منه ويأخذون عنه» وأن بعضهم تشيع على يديه، ونزل الحلواني منطقة سوف الجمار في ديار كتامة «فبنى مسجداً وتزوج امرأة. . وكان في العبادة والفضل والعلم علماً في موضعه، فاشتهر به ذكره، وضرب الناس من القبائل إليه، وتشيع كثير منهم على يديه من كتامة ونفزه، وسماته».

ومن المرجح قياساً أن هذين الداعيين دعيا إلى الإمام الرضا من آل محمد، وبشراً بقرب ظهوره، ونعتاه بأنه المهدي المنتظر، وصورة المهدي صورة غنية فيها العدل المنتظر والخصب والرحمة والمساواة، وفيها الحروب والانتصارات المثيرة، فيها برنامج سياسي

---

(1) انظر كتابي: تاريخ العرب والإسلام: 411 - 423، 451 - 460، 485 - 488.

وعقائدي واجتماعي كامل، ولاشك أن نشاط هذين الداعيين قد مهد السبيل أمام من جاء بعدهما ليقطف الثمار[1].

وفي مرحلة السلمية توفي أبو سفيان والحلواني، ويرجح أن الخبر حُمل إلى السلمية على يد وفد من رجالات البربر، وأمام المعلومات التي حملها هذا الوفد، وضعت الخطط لمتابعة العمل، فصدرت الأوامر إلى مركز الدعوة في اليمن لاختيار عدد من الدعاة للسفر إلى المغرب، ويرجح أن الوفد البربري تم توجيهه إلى الحجاز ليلتقي هناك بالبعثة الدعوية القادمة من اليمن، وفق ترتيبات كاملة، وأمام هذه الحالة من الصعب الاعتماد على رواية القاضي النعمان في كتابه رسالة افتتاح الدعوة، وهي رواية تقول بعامل الصدفة والنجاح الإعجازي بالمنح الربانية.

حين يتحدث القاضي النعمان ـ وعنه أخذت بقية المصادر ـ عن ابن حوشب نجده يذكر عن «أهل العلم والثقة من أصحابه، أنه كان من أهل الكوفة من أهل بيت علم وتشيع، . . . وكان ممن يذهب إلى مذهب الإمامية الاثني عشرية» وأنه ترك مذهب الإمامية وجرى تجنيده لحساب الإسماعيلية من قبل إمام وقته، وبعد التحاقه بمدة وجيزة تم تكليفه بالذهاب إلى اليمن بصحبة علي بن الفضل[2] حيث نشطا هناك وحققا نجاحات كبيرة، الأمر الذي سأتعرض له فيما بعد بتفصيل أكبر.

ومواطن الريبة في هذه الرواية تنبع من التساؤل: كيف يمكن أن تعهد الدعوة الاسماعيلية لرجل التحق بها جديداً بالدعوة باليمن والإشراف على الدعوة والدعاة بشكل عام بعدما أعلنت عن اليمن دار هجرة، ثم لم طلبت من مركز اليمن بالذات توجيه دعاة، أو داعية إلى المغرب؟.

من بين كتب الاسماعيلية التي جرى نشرها كتاب «البيان لمباحث الإخوان»، لقد جرى تأليف هذا الكتاب في حقبة الستر، في مرحلة السلمية، من قبل «أبي منصور اليمن» الذي شهر بلقب الشاذلي، والمراد بأبي منصور اليماني والد الداعية «أبو القاسم الحسن بن

---

(1) افتتاح الدعوة: 54 ـ 58. المقفى (مخطوطة باريس) 214. وعيون الأخبار: 4/ 324 ـ 395. نهاية الأرب: 23/ 24. الترتيب: 138. استتار الإمام: 95. الكامل لابن الأثير: 5/ 130 ـ 131. اتعاظ الحنفا: 1/ 51. ابن خلدون: 3/ 450. دور كتامه: 45 ـ 329.

(2) افتتاح الدعوة: 32 ـ 54.

فرج بن حوشب بن زادان الكوفي» ومعنى هذا أن اسمه كان «فرج بن حوشب»، وإذا صح هذا، فهو ينفي حداثة تجنيد منصور اليمن، وأصله الإمامي، يضاف إلى هذا أنه عرف بلقب الشاذلي أو التادلي نسبته إلى بلدة في إفريقية نشط بها كداعية اسماعيلي حتى استدعي إلى سلمية، ومما يؤكد هذا كله هو أننا عندما نقرأ كتاب الكشف من تأليف جعفر ابن منصور اليمن ونقارن محتوياته بمحتويات كتاب «البيان لمباحث الإخوان» نجدهما معاً ينتميان إلى مدرسة اسماعيلية واحدة، وأن الأفكار المعروضة في كتاب المباحث قد جرى تطويرها في كتاب الكشف[1].

إن صورة الأحداث التي يمكن رسمها الآن منطقية، وفيها تفسير ليس للأسباب التي دفعت الإسماعيلية إلى الإيعاز إلى منصور اليمن لإرسال داعية من لدنه إلى المغرب فحسب، بل لأسباب النجاحات الهائلة والسريعة التي حققها أبو عبد الله الداعي في المغرب.

تألفت البعثة المرسلة من اليمن من أخوة ـ ربما اثنان ـ من أسرة يمانية بارزة في الدعوة الاسماعيلية، اسمها «آل أبي الملاحف» مع أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، وهو الذي سيشتهر باسم «أبي عبد الله الداعي»، وقبل انطلاق البعثة تخلف واحد من آل أبي الملاحف، وهكذا انفرد أبو عبد الله بالبعثة، وكان أبو عبد الله هذا من أهل العراق ممن هاجر إلى اليمن والتحق بدار الدعوة الاسماعيلية فيها، وعرف بالمغرب بعدة أسماء منها «الصنعاني» لقدومه من اليمن.

ويبدو أنه كان في مكة جماعة كبيرة من الحجاج من كتامة والبربر، لم يكونوا جميعاً من الاسماعيلية، أو بالحري «من الشيعة» لهذا تظاهر أبو عبد الله أنه معلم أطفال، يود السفر إلى مصر، وبالتنسيق مع الاسماعيلية من كتامة متن من مكانته بين ركب الحجاج البربر حتى وافق الجميع على مرافقته إلى الشمال الأفريقي.

ويصف القاضي النعمان أبا عبد الله بقوله: «وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة، وكان أكثر علمه الباطن، ونظر في علم الظاهر نظراً لم يبالغ فيه» وكانت لديه تعليمات كاملة وواضحة حول مهمته في الشمال الأفريقي، ففي ديار كتامة نشط أبو عبد

---

(1) نشر كتاب الكشف في أكسفورد عام 1952، ثم أعيد نشره في بيروت 1984، ونشر كتاب المباحث في عام 1956 من قبل مصطفى غالب.

الله نشاطاً أوصله في سنين قليلة إلى استمالة العديد من القبائل البربرية، وقام بتنظيم قوي بين صفوف هذه القبائل، وقادها نحو النصر في عديد من المعارك مكنته من أن يصبح سيداً للمغرب الأوسط، وقادراً على إزالة دولة الأغالبة من الوجود، واحتلال أراضي كل من دولتي تيهرت وسجلماسة، ويبدو أنه ظل طيلة الحقبة من نشاطه مرتبطاً باليمن، التي كانت بدورها تبلغ السلمية[1].

ويبدو أن أبا عبد الله قد جاهر أثناء عمله بأن الإمام الذي يدعو إليه هو المهدي من أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق، أو بكلمة أخرى: نقل الدعوة من التشيع العام إلى التشيع الاسماعيلي الخاص.

يبدو أن أول ما قام به أبو عبد الله كان الاستفادة من جهود الدعاة الذين سبقوه، ولعله قام بإعداد تنظيم جهاز الدعوة، وأعد الدعاة الجدد، وكان إعداده لهم عقائدياً وعسكرياً، ونظراً لأنه مارس مهنة التعليم في أيامه الأولى في المغرب، فمن خلال التعليم ـ الذي لعله اقتصر على أبناء شيوخ القبائل ـ أوجد الدعاة وبنى صداقات مع زعماء القبائل، ولاشك أن الأفكار التي طرحت كانت بسيطة تعلقت بحق آل البيت بالإمامة، ثم بفكرة المهدي، وقرب ظهوره وشروط طاعته المطلقة، والإيمان به وتقديسه.

ولقد أحسن أبو عبد الله استغلال ماكان لدى قبائل البربر من عقائد وعادات، فالبربر تعلموا من العرب الأنساب، وقال أكثريتهم بأنهم انحدروا من قوم من قبائل حمير، كانوا يسكنون فلسطين، وكان زعيمهم اسمه «جالوت» وقتل النبي «داود» جالوت، وطرد قبائله من فلسطين حيث وصلوا إلى المغرب، واستغل أبو عبد الله هذه الفكرة، وروج لها، وأعلن أن المهدي قادر على نقض قرار النبي داود، ورغب البربر بالعمل من أجل الزحف نحو فلسطين، ووعدهم بالنصر المحقق، لأن المهدي هو الذي سيقودهم.

---

(1) افتتاح الدعوة: 59 ـ 122. مروج الذهب: 1/ 371. ابن خلدون: 3/ 32. نهاية الأرب: 23/ 24. طبقات المشايخ للدرجيني: 1/ 92. أبو الفداء: 2/ 81. الكامل لابن الأثير: 8/ 33. اتعاظ الحنفا: 1/ 51. ابن عذاري: 1/ 167. المقفى برتو باشا: 391. دور كتامه: 193 ـ 331. ومن أفضل الكتب الذي تظهر تمكن أبي عبد الله من علم الباطن، كتاب المناظرات لأبي عبد الله جعفر بن أحمد بن محمد بن الأسود بن الهيثم، وقد نشر حديث من قبل المركز الاسماعيلي في لندن.

ونقرأ في كتاب الكشف من تصنيف الداعي جعفر بن منصور اليمن أن المهدي هو الذي «يهدي إلى الأمر الخفي، وهو القائم بالحق، عند حلول الوقت بعد انقضاء عهد غيبة الأئمة، بعد استبداد أهل الظلم والعسف والجور، بمقاليد الأمور، وهو حين يخرج، يخرج مغضباً، تؤيده ملائكة الرحمن، وتسير أمامه، وتواكبه أينما تحرك، على رأسها جبرائيل على فرس أبلق بسرج من نور، وعليه سرج من ذهب، وعلى جبرائيل تجافيف من نور، ومغفر من حديد، وبيده حربة من نور، وهو واقف على العقبة في سنان الحربة النصر، وفي وسطها الرعب، وفي زجها الظفر»، لذلك «لا تتوالى للمهدي راية إلى بلد إلا قدمه الرعب بين يديه مسيرة شهر، ولا يهدي بالدلالة أهل بلد إلا وهداهم الله، ومن أبى ذلك رماهم الله بحجارة الكبريت حتى يردهم أجمعين إلى هداه يستسلمون بأجمعهم إليه ويكسر الصليب، ويهدم البيع، ويقتل الخنزير وتنقضي دعوة الشرك، وتظهر دعوة الفرج، وتقوم الدعوة بالدين لله خالصاً، وآنئذ يشرب الثور والسبع من حوض واحد، ويخلف الراعي الذئب على غنمه»[1].

ومسألة ترغيب البربر بالهجرة إلى فلسطين يمكن أن نفهمها في إطار أهداف الدعوة الاسماعيلية، فهدف هذه الدعوة لم يكن هدفها الاقتصار بالاستيلاء على رقعة من الأرض من أجل إقامة دولة فحسب، بل كان الهدف الأساسي إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وإحلال الخلافة الاسماعيلية محلها، ولاشك أن فلسطين كانت إحدى بلدان الخلافة العباسية، وكان الوصول من المغرب إلى العراق سيتم عبرها حتماً، وفي تاريخ الخلافة الفاطمية، توجهت الجيوش البربرية بعد احتلالها لمصر مباشرة بقيادة بربرية، لاحتلال فلسطين، لكنهم أخفقوا في تجاوز حدود الشام والزحف على العراق.

وبعدما مضينا بعيداً مع أبي عبد الله الداعي ونشاطاته في الشمال الإفريقي، نعود نحو السلمية، حيث نجد بيت الدعوة الاسماعيلي يشهد انشقاقاً خطيراً، تجلى بقيام ما يعرف بحركة قرامطة الشام بزعامة «صاحب الجمل» أولاً ثم «صاحب الخال»، فقد ادعيا النسب الاسماعيلي، وتسمى كل واحد منهما بلقب إمام، وقام صاحب الشامة بمهاجمة السلمية حيث دمرها وأباد كل من وجده فيها، وأثناء زحف القرامطة على السلمية،

(1) الكشف: 48 ـ 49.

وصلت رسالة إلى الزعيم الاسماعيلي فيها أنهم «قد عزموا على قتلك وقتل أهلك، فإن كنت قاعداً فقم»، وكان هذا الزعيم هو الذي سيعرف باسم المهدي الفاطمي، وسيكون أول خلفاء الدولة الفاطمية، وبادر المهدي لدى وصول الخبر إليه بالرحيل، وأخذ معه أبا القاسم الذي سيكون الخليفة الفاطمي الثاني وسيعرف باسم القائم، وأخذ معه «جعفر الحاجب وابن بركة الحاضن لا غير»، وترك القصر «كما هو بفرشه وستوره وأمواله وعبيده، وبني عمه، وبني أخيه الذكور والإناث.. وخرج وقت صلاة العصر ولم يعرف به أحد» وبعد خروجه من السلمية اتصل بواحد من كبار بداة المنطقة واسمه غيلان الرياحي فأتاه «ومعه ثلاثون فارساً، فمشى معه الليل كله حتى وصل إلى حمص صلاة الغداة، ورجع عنه غيلان، وتمادى هو يومه ذلك حتى وصل طرابلس الشام، فأقام بها يوماً واحداً، ثم توجه إلى فلسطين الرملة» وأقام بالرملة ما يزيد عن السنة يرقب الحوادث بالشام، ويجدد الاتصالات ببعض الدعاة لتدارس الموقف والتخطيط لخطوات مقبلة، وأثناء الإقامة بالرملة جرت بعض الاتصالات مع القرامطة، ولعل هذا كان في حوالي سنة 290هـ لكنها لم تتوصل إلى نتيجة مجدية، لهذا تقرر مغادرة الرملة نحو مصر، وكانت قد بلغته الأخبار بدمار السلمية وبقتل جميع من كان بها، وكان آنذاك «داعي الدعاة وأجل الناس عند الإمام وأعظمهم منزلة، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده، وهو باب الأبواب إلى الأئمة» اسمه فيروز، وكان المسؤول عن الدعوة في مصر اسمه أبو علي «وكان مقيماً يدعو بها، وأكثر دعاة الإمام من قبله، وكان فيروز الذي دعاه ورباه وزوجه ابنته أم أبي الحسين ولده».

وأقام «المهدي» في مصر متخفياً مدّة من الزمن، وهو على نية التوجه من هناك إلى اليمن، لكنه ما لبث أن غير نيته وقرر التوجه إلى الشمال الأفريقي يريد سجلماسة على طرف الصحراء، ويحدثنا الحاجب جعفر وكان بصحبة من المهدي عما حدث في مصر، والأعمال التي قام بها المهدي هناك، فيذكر وصول تقارير إلى والي مصر حول نشاط اسماعيلي فيها، ويبدو أن هذه التقارير لم تكن واضحة، ولذلك اعتقل الحاجب جعفر وأجري معه التحقيق ثم أطلق سراحه، يقول جعفر: «وكنت ذلك الرجل المقبوض عليه وضربت أسواطاً يسيرة ضرباً خفيفاً لم يكن علي منه بأس، وكان المهدي ـ ع. م ـ قد تقدم

إلي قبل القبض، وقال لا توجعك نفسك، إذا دفعتك إلى العامل دون أصحابك، فإني أريد أردك إلى سلمية لتستخرج القمقمين اللذين أمرتك بدفنهما، فليس معي من الغلمان من يعلم بهما سواك، وإذا وقفت للتقرير، فقل: أنا رجل حر، خدمت هذا الرجل بأجرة معلومة فعلى ما تقروني، ولم أخدمه إلاّ من قريب، وأنا أرد عليه باقي أجرتة وأرجع عنه إلى بلدي؟.

قال: ففعلت ما أمرني به، وخلى العامل سبيلي، فدخلت على المهدي ـ ع . م ـ بالليل، فقال لي: بكّر في الغداة، ولا تلو على شيء حتى تصل سلمية، وتستخرج المال، وتشتري منه أحمال قطن، وتجعله في بعضها وتسرع جهدك، واحذر أن تظهر لأحد بسلمية... وأنا أنتظرك بأطرابلس المغرب، ولا أبرح منها حتى أراك إن شاء الله»[1].

وكان قرار التوجه مفاجئاً بالنسبة لأتباع المهدي، يقول الحاجب جعفر: «ولم نشك أنا نريد اليمن، فلم يظهر سيره إلى المغرب إلاّ تلك الليلة، قال جعفر: فاشتد ذلك على كل من كان معه، وشق علينا ذكر المغرب». والأسباب التي دفعت المهدي إلى اتخاذ هذا القرار نبع من أخبار اليمن غير المشجعة، ولخلافه مع داعي دعاته فيروز، ففي داخل اليمن حقق الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، وهو إمام زيدي منذ سنة 284هـ/ 897م وبعد عمل دعوي وحربي طويل، نجاحات كبيرة، وخاض أكثر من معركة ناجحة ضد اسماعيلية اليمن.

وعن فيروز يقول الحاجب جعفر: «وخالفه [المهدي] فيروز قبل خروجه من مصر، ومضى إلى اليمن... ووصل فيروز إلى داعي اليمن، وهو رجل من الكوفة، وكان السبب في اتصاله بالإمام فيروز، وهو... المعروف بمنصور اليمن، من بيت تشيع، فلما وصل فيروز إليه لقيه بالتبجيل والتعظيم لما كان يعلم من محله»[2].

ويبدو أن الخلاف مع فيروز عجل بقرار المهدي بالسفر نحو الشمال الأفريقي، فانطلق من الاسكندرية يريد مدينة طرابلس، لكن لم تسر الأمور بيسر، حيث وصلت تقارير وافية إلى السلطات المصرية حوله، تبين صفاته وملامحه وتذكر مكانته، ويرجح هنا

---

(1) سيرة الحاجب جعفر: 109 ـ 114.

(2) سيرة الحاجب: 114 ـ 115.

أن المنشقين هم الذين رفعوا هذه التقارير، ومهما يكن الحال، فقد تمكن المهدي ومن برفقته من الوصول إلى طرابلس عن طريق الرشوة والتنكر، وركوب المسالك غير المطروقة، حتى أن ركبه تعرض للنهب من قبل بعض البربر.

ومن طرابلس توجه المهدي، وهو على غاية الحذر يريد سجلماسة [إقليم الراشدية في المملكة المغربية] على طرف الصحراء، وكانت سجلماسة مركزاً تجارياً نشطاً بشكل كبير، وكانت أشبه المدن بحال مكة ودورها لما قبل الإسلام، وكانت هذه المدينة تدار من قبل أسرة خارجية تعرف ببني مدرار[1]، واختيار سجلماسة يشبه من حيث المنطلقات اختيار الدعوة الاسماعيلية للسلمية من قبل بلاد الشام.

وقد يتساءل المرء عن السبب الذي جعل المهدي يأخذ الطريق إلى سجلماسة وليس إلى ديار كتامه حيث أبو عبد الله الداعي كان يحقق النجاحات الكبيرة؟ وأرجح الأسباب هنا مرتبط بالانشقاق الذي حصل في مصر، فأبو عبد الله الداعي تم توجيهه إلى المغرب من قبل منصور اليمن، وكان به متصلاً، ولم يسبق له أن زار السلمية، ونال معرفة واحد من الأئمة.

ويذكر الحاجب جعفر أن المهدي كان قد كتب إلى منصور اليمن يخبره بأمر فيروز، وطلب منه القيام بقتله، ويتابع الحاجب جعفر قوله بأن فيروز علم وهو باليمن بما وصل من عند الإمام، فهرب إلى علي بن الفضل، وهو الداعية الاسماعيلي الآخر باليمن، وكان ابن الفضل سيداً لعدد من القلاع اليمانية مع منطقة شاسعة، ويذكر الحاجب جعفر بأن فيروز «فتن علي بن الفضل وأهل بلده وشعوذ لهم»[2] وتتحدث المصادر اليمنية[*] بأن علي بن الفضل أعلن القيامة في منطقته ودخل في حروب طاحنة مع منصور اليمن، وانتهت الصراعات هذه بمؤامرة اغتيال ناجحة لعلي بن الفضل، ولعل ذلك كان سنة 293هـ/ 905م، وأثناء هذا تجددت الاتصالات بين منصور اليمن وأبي عبد الله الداعي، ويبدو أن هذا الأخير علم الآن بتوجه المهدي إلى الشمال الأفريقي.

ووصف لنا الحاجب جعفر مصاعب الرحلة إلى سجلماسة، وبين بأن المهدي «قد لقي قبل دخولنا سجلماسة رجلاً وسيماً حسن الهيئة ومعه ولد له، وهو يريد إليها بتجارة

---

(1) المغرب الإسلامي للحبيب الجنحاني: 143 ـ 190.

(2) سيرة الحاجب: 115.

(❖) نشرت غالبية النصوص اليمنية المرتبطة بهذا الموضوع في كتابي «الجامع في أخبار القرامطة».

معه، فسأله المهدي ـ ع . م ـ وقد جمعهما الطريق عن اسمه ونسبه وبلده، فعرّفه أنه مطلبي، وبلده القيروان، فحادثه المهدي ـ ع . م ـ وأنس به ولاطفه، فوجده متشيعاً، ففتش عقله، فلما رضيه أخذ عليه».

واستقر المهدي في سجلماسة، وفيها توثقت علاقاته بالمطلبي، ولما فرغ «من تجارته، استأذن المهدي ـ ع . م ـ في الرجوع إلى القيروان» فأذن له وكلفه بالاتصال بأبي عبد الله الداعي، وقال له: «إذا رأيته قد عزم على الخروج إلى سجلماسة، فاخرج معه، وأنفذ إليّ ابنك هذا معه . . . قال جعفر: وإنما أراد المهدي ـ ع . م ـ بانفاذ المطلبي ليعرف أبا عبد الله الشيعي بالمهدي ـ ع . م ـ لأن الشيعي الداعي ببلد كتامه لم يكن رأى المهدي»[1].

ويستفاد مما كتبه الحاجب جعفر بأن المراسلات توالت بين المهدي وأبي عبد الله الداعي، وأثارت نشاطات المهدي ريبة اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة، فقرر التحقيق معه، واتهمه بالنشاط السياسي، وأنه يتظاهر بالتجارة للتمويه فقط، لذلك اعتقله، وفرق بالاعتقال بينه وبين القائم، وتعرض رجال حاشية المهدي للتعذيب الشديد، وقاد ذلك إلى معرفة اليسع بوجود علاقات بين أبي عبد الله الشيعي والمهدي، وكان أبو عبد الله قد صار سنة 296هـ/ 909م سيد إفريقية، حيث أزال دولة الأغالبة من الوجود، لذلك حافظ اليسع بن مدرار على حياة المهدي ليساوم به، وبالفعل توجه أبو عبد الله الشيعي على رأس جيوش كبيرة يريد سجلماسة، معه ابن المطلبي التاجر، ولما وصل «إلى سجلماسة وضع عليها الحرب، بعد أن راسل اليسع بن مدرار أمير البلد في إخراج المهدي ـ ع . م ـ إليه وضمن له بالانصراف عن بلده على الموادعة، فامتنع عليه، وضيق عليه، وضيق على المدينة بالحرب، وأحاطت العساكر من كل الجهات بسجلماسة بعد حرب عظيمة، فلما رأي اليسع ما لا طاقة له به استشار من معه من أهله بالحيلة في الخلاص، فقال له بعض من استشاره: اقتل هؤلاء المتهمين عندك، فإن كانوا أصحابهم فللت جمعهم، وأبطلت عليهم مذهبهم، وشتت كلمتهم، وقال آخرون بل تحسن إليهم، فإنهم يكفونهم عنك إن كانوا أصحابهم، ويكافئونك عن إحسانك إليهم.

قال جعفر: وكان قد اتهم أيضاً بهذا الأمر رجل من التجار يعرف بابن بسطام، وذلك أن قوماً من التجار حسدوه على نعمته، مع شرّ كان فيه، فأرادوا زوال نعمته

---

(1) سيرة الحاجب: 116 ـ 120.

وهلاكه، فاجتمعوا إلى اليسع وقالوا له: إن الرجل الذي يطلبه السلطان ليس هو مولى هؤلاء المعذبين عندك، وإنما هو هذا الرجل - يعني ابن بسطام - فأمره بلزوم منزله. قال جعفر: وكان ذلك مما شككه في المهدي - ع. م - فتوقف عن عذابنا.. وقال له بعض من كان يثق به ويرجع إلى رأيه: القوم قد أحاطوا بنا من كل جانب، وليس لنا بهم طاقة، فإن أنت قتلت هؤلاء القوم قتلوك بهم وقتلونا، والرأي لنا ولك أن تخرج هؤلاء الرجال واحداً واحداً، فمن كان منهم صاحب القوم اشتغلوا به عنك وعنا وقت خروجه إليهم، فعند ذلك نجد نحن لاشتغالهم الفرصة للهرب، ومع هذا فإنه إذا وصل إليهم صاحبهم لم يكن له ولا لهم اهتمام إلا القفول إلى إفريقية، خوف أن يبلغ زيادة الله بن الأغلب الهارب من بين أيديهم أنهم انصرفوا عن إفريقية إلى سجلماسة، فيرجع إليها طمعاً منه لبعد ما بين البلدين، ويحشد بها العرب، ويتحصن منهم، فيصعب الأمر عليهم، فإذا انصرفوا عن البلد بصاحبهم رجعنا إليه.

قال جعفر: فاتفق القوم على إخراج ابن بسطام، الذي وشى التجار به، وأخرجوه إلى أبي عبد الله، فلما رآه أبو عبد الله ترجل إليه، وقدر أنه المهدي - ع. م - فترجل ابن بسطام لترجل أبي عبد الله، فلما رآه أبو عبد الله قد ترجل لترجله ركب فرسه ولم يلتفت إليه، ودعا بأبي القاسم بن المطلبي، وقال له: الزم على يميني ولا تفارقني، فلهذا وجهك معي الإمام، ولو كنت معي ما نزلت لرجل من سائر الناس.. قال: ووقف ابن بسطام تحت ركاب أبي عبد الله يحرضه على فتح المدينة، ويعرفه سلامه المهدي وسلامة القائم - صلوات الله عليهما - قال جعفر: فلما زاد البلاء على أهل سجلماسة ورآهم صاحبها لم يلتفتوا إلى ابن بسطام، بعث إلى المهدي - ع. م - بفرس كميت، وقال له: اخرج عنا إلى هذا الرجل إن كان صاحبك، قال جعفر: فخرج المهدي.. فلما فصل عن سجلماسة، وانتهى إلى حيث تبين للمتأمل، قال ابن المطلبي لأبي عبد الله: هذا مولاي ومولاك ومولى الناس جميعاً، فنزل أبو عبد الله عن فرسه وابن المطلبي، فنزل الجيش كله، وقبل أبو عبد الله الأرض، وقبل الناس معه، وعدا، وعدا الناس خلفه، يقبل الأرض والناس يقبلون خلفه، حتى انكب على حوافر فرس المهدي بالله صلوات الله عليه، ثم رفع رأسه فقبل ركاب المهدي عليه السلام وقد خنقته العبرة، فأخذ المهدي - ع. م - بيده رأس أبي عبد الله، وأقبل بوجهه إليه، وقال: أبشر بخير يا حسين»، وازدحم الناس حول المهدي،

وانشغل رجال جيش كتامة بذلك عن متابعة القتال، الفرصة التي اهتبلها اليسع بن مدرار وأصحابه، فخرجوا «هاربين من المدينة على وجوههم إلى الصحراء، يريدون صنهاجة المشركين الذين في داخل المغرب».

وما إن هدأت الأحوال واستعيد النظام، حتى أمر المهدي باقتحام سجلماسة والعمل على استنفاذ القائم ورجال حاشيته، وبعد شيء من الصعوبات تم ذلك، وفي اليوم التالي أقيم سرادق كبير، ووضعت الترتيبات لبيعة المهدي بالخلافة، والإعلان عن ولادة الدولة الجديدة.

ويقدم لنا الحاجب جعفر وصفاً وثائقياً لاحتفالات البيعة، حيث نصب سرير كبير للمهدي وضع تحت سرادق كبير مفتوح من جميع الجوانب، جاء أشبه بمظلة سماوية كبيرة جداً، ووقف رجال حاشية المهدي مع القائم حوله، وعلى مسافة مائتي ذراع وقف أبو عبد الله الداعي، «ومعه ألف بواب، وقد وقفوا صفين، وهو يدعو بأسماء الدعاة والقواد يقدمهم عشرة عشرة» للسلام على المهدي وتقديم البيعة، واحتاج هذا العمل عدة أيام، وبعد ذلك رحل المهدي يريد القيروان ليتخذها مقراً لملكه الجديد[1].

مما سلف نخلص إلى القول أنه في سنة 909م تمت ولادة دولة جديدة، دعيت باسم الخلافة الفاطمية [نسبة إلى فاطمة الزهراء]، وهذه الخلافة هي أول خلافة شيعية متطرفة في التاريخ، وأعظم دول الشيعة مكانة ودوراً، وحمل أول خلفاء هذه الدولة لقب المهدي، ويبدو أنه كان مهدياً من حيث الاسم فقط لا من حيث التصور الوهمي المرغوب فيه، ووصل هذا المهدي إلى السلطة وحقق النصر بفضل عمل دعوي طويل وجيد التنظيم، ثم بفضل استخدام القوة المسلحة البشرية، لا بفضل الملائكة وجند السماء، ولاشك أنه كان لتبدد الصورة الخيالية السرابية، وقيام دولة الواقع ردات فعل شديدة، لكن قبل الاستطراد في الحديث عن هذا، وعلى الرغم مما أوردناه من قبل، من المناسب هنا الوقوف لنحاول التعرف عن كثب إلى شخصية المهدي، واسمه ونسبه ومرتبته في الدعوة الاسماعيلية، وهل كان إمام استيداع أم استقرار، وهل انحدر من صلبه أئمة الخلافة الفاطمية؟.

---

(1) سيرة الحاجب جعفر: 120 ـ 133.

الخلاف بين مصادرنا حول أصل المهدي ونسبه شديد، فقد ذهب كل مصدر مذهباً خاصاً في تحديد اسم المهدي ونسبه، قبل أن يكون مهدياً، ثم بعدما صير نفسه كذلك، فغالبية المصادر السنية تنفي عنه النسب العلوي الفاطمي، وكذلك المصادر الدرزية، وتعزوه حيناً إلى الفرس المجوس وحيناً آخر اليهود، وغير ذلك، وهي إن اختلفت أيضاً في تحديد اسمه قبل استلامه الخلافة، تتفق على أنه اسمه بعدما صار خليفة هو عبيد الله، وعلى هذا الأساس دعت المصادر السنية الخلافة الفاطمية باسم «الدولة العبيدية».

إن مسألة الطعن في نسب المهدي والفاطميين مسألة مرفوضة، ذلك أن الكتّاب السنة أخذوا بها مسايرة للدولة العباسية، التي عجزت عن التصدي للفاطميين بقوة السلاح، فلجأت إلى وسيلة الطعن بالنسب عن طريق البيانات، واستغلت الثغرة التي قامت بسبب لجوء أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق إلى التكتم والتخفي الشديد، نتيجة للملاحقة العباسية، ومن المدهش أن السلطات العباسية لاحقت تحركات المهدي في طريقه من الشام إلى مصر، ومنها إلى الشمال الأفريقي وكانت أثناء الملاحقة هذه ترى بداهة صحة نسبه العلوي، لذلك لم تطعن بأصله العلوي، إنما بعدما انتصر نفت عنه هذا النسب، أما المصدر الدرزي الذي أشرنا إليه من قبل، فله وضع شاذ، حيث انطلق من مقوله تأليه الحاكم بأمر الله، وتميزه عن الفاطميين.

وفيما يتعلق باسمه، نحن لا نملك من المصادر الاسماعيلية وغير الاسماعيلية، ما يساعد بشكل حاسم تماماً على إثبات أو نفي كونه كان يحمل اسماً غير الاسم الذي عرف به بعد استلامه الخلافة، ومرد هذا الأمر إلى عاملين رئيسين: أولهما مرتبط بما أثير حول النسب، والثاني مرتبط بقضية التكتم والتخفي، فلعل ذلك استلزم منه إعطاء نفسه أسماء مختلفة بين حين وآخر.

ومع هذا كله فهل كان اسمه بعد استلامه الخلافة عبيد الله؟ إن اسم عبيد الله هو مصغر عبد الله، ومن المعلوم أن في التصغير تحقير، ومرة أخرى كما أرادت السلطات العباسية أن تطعن بنسب المهدي سعت إلى تحقيره بتصغير اسمه، ذلك أن المهدي عند الشيعة عامة وعند الاسماعيلية خاصة ينبغي أن يكون من قريش من بني هاشم، ثم من بني عبد المطلب، من ولد الحسين بن علي، لأن الحسين من ولد فاطمة بنت الرسول، واسم المهدي إما عبد الله مثل اسم أبي رسول الله واسم أبيه مثل اسم النبي محمد، أو عكس

ذلك، كما اعتقد الخليفة المنصور العباسي حين أعلن ابنه محمداً مهدي الدولة العباسية [كان اسم المنصور عبد الله] يضاف إلى هذا أن اسم - الخليفة - المهدي الفاطمي في المصادر الاسماعيلية وفي الكتابات التاريخية المعاصرة له، وعلى النقود هو عبد الله، وقد رأيت في القيروان دينارين ذهبيين من دنانير المهدي ضربا فيها الأول سنة 302هـ/ 914م والثاني سنة 304هـ/ 916م ونقشهما:

الإمام عبد الله

لا إله إلا الله محمد رسول الله

وحده لا شريك له

المهدي بالله أمير المؤمنين(1)

وأما فيما يتعلق بمكانة المهدي في الدعوة الاسماعيلية، فمن المرجح أنه كان إمام استيداع ولم يكن إمام استقرار، وكان عماً للقائم، ولم يكن والده على الرغم مما أثبت في بعض المصادر المتداولة، ويمكن أن نسوق هنا أدلة:

1 - نقرأ في كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان، وعنه نقل الداعي المطلق إدريس القرشي في كتابه عيون الأخبار، بأن المهدي ولد له بالمهدية غلام ذكر دعاه بأبي الحسن، وفكر بجعله ولياً لعهده، لكن هذا الغلام جدر فذهب بصره، وهكذا بقيت ولاية العهد للقائم، وكانت أم الوليد المجدور تقول دائماً: «والله لقد خرج هذا الأمر من هذا - تعني قصر المهدي [صلع] فلا يعود إليه أبداً، وصار إلى ذلك القصر - تعني قصر القائم بأمر الله - فلا يزال في ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا» وكانت إذا ما رأت واحدة من نساء قصر القائم تقول لها: «قد ولدت إماماً»(2).

2 - عندما بني المهدي مدينة المهدية - كما سنوضح ذلك - لم يبنِ في المدينة الجديدة داراً للخلافة بل قصراً له وآخر للقائم، على الرغم من ضيق الرقعة.

---

(1) في متحف دمشق دينار ذهبي وربع دينار يؤكدان هذا أيضاً، وأيضاً في متحف سيرتا في قسنطينة بالجزائر. انظر جامع المسكوكات العربية الإسلامية بالمتاحف الجزائرية، متاحف الشرق الجزائري من دون تاريخ، ج1، ص48.

(2) المجالس والمسايرات: 542 - 543.

3 ـ يبدو أن المهدي أنجب وهو في الخلافة عدداً من الأولاد، وقد أثار هؤلاء المشاكل الكثيرة لأبناء القائم من بعده، وخاصة الإمام المنصور اسماعيل ثم المعز لدين الله، وفي رسائل هذين الإمامين إلى الأستاذ جوذر، الذي كان من العبيد الصقالبة [السلاف] وتدرج في المناصب حتى وصل أعلاها وصار المسؤول عن القصر، ففي عدد من الرسائل شكا جوذر سوء سلوك أبناء المهدي، فوافق المنصور ثم المعز على اتخاذ أقسى الإجراءات ضدهم، ووصفهم المنصور بأنهم «الشجرة الملعونة في القرآن» ووصفهم المعز بالقردة وغير ذلك من الأوصاف، وبلغ المعز تآمر أحمد بن المهدي عليه «وأنه يكثر القبيح ويتقول على المقام» فكتب إلى جوذر يقول: «. . وقد كبر على كل ذي نعمة ما وهبنا الله، واستعظموا الخروج مما هم فيه، فلو وجدوا من سوء الشنع كل عظيمة ـ يرد الله شرها ـ برؤوسهم لفعلوا إرادة أن يطفئوا نور الله، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . . . وهذا الشقي أحمد قد تقدم له رسم في الشؤم. . »[1].

4 ـ ونقرأ ـ كما سلفت الإشارة ـ في مخطوط اسماعيلي قديم اسمه «كتاب التراتيب ـ وهي سبعة تراتيب على التمام والكمال» بأن والد القائم، وكان لقبه المهدي تسلم الإمامة «واشتهر بها، وكان أمر الظهور قد اقترب، بأوان طلوع الشمس من مغربها، فحضرته النقلة [الوفاة] دون الظهور الكلي، فعندها أحضر المهدي ولده القائم، وسلم إليه بمحضر من خواص الدعاة، وأكابر الحجج، وأمر أخاه عبد الله أيضاً بأن يقوم مقامه ـ أي الإمام المهدي أبو القائم ـ وينوب منابه، ويتسمى باسمه، وينعت نفسه بنعته، وينسب القائم عليه السلام، أنه ولده، كيما تعلو كلمته، وتثبت دعوته، لأنه صاحب الكشف، على يده يكون الظهور والفرج، وبروز كل أمر من الدين مستور.

وقام القائم عليه السلام بصورة الجود الكلي، والفيض الإلهي، وقام عمه عبد الله بالخلافة والنيابة، وتلقب بالمهدي، كما أمره الإمام على ذكره السلام، ودعا لنفسه، وبسط الدعاة والحجج في الجزائر والأقاليم من قبله، والدعاء له، والطاعة لأمره، وأنه الإمام المقصود، الذي دلت الحدود على طاعته، وعلى يده يكون الظهور، وبروز كلام من الدين مستور، فلم يزل كذلك حتى ظهرت الدعوة باليمن على يد بعض دعاته، وهو

---

(1) سيرة جوذر: 65 ـ 69، 105 ـ 106.

الملقب بمنصور اليمن، فظهرت الدعوة بالمغرب على يد أبي عبد الله الشيعي، واستقام أمره، وتم المراد، وظهر بالإمامة والملك، وخطب له على المنابر في جميع الأمصار، وسائر الأقطار، وشد عند ذلك ما كان ضعف من شريعة جده محمد ﷺ، وأبان حقائق التنزيل، وجاهد في الله حق جهاده، ولم يزل كذلك إلى أوان نقلته، وحضور أجله، فعند ذلك أحضر حججه، وحدود دعوته، وسلم الأمر إلى صاحبه، وهو القائم محمد بن المهدي، والإمام الحقيقي، بمحضر منهم، فأشهدهم على نفسه أنه أدى ما وجب عليه من الخدمة والخلافة، وسلم الأمر لصاحب الأمر.

وكان المهدي أبو القائم، هو أخو المنتقل إلى سجلماسة، وكان المهدي صاحب الكشف، هو المولود، المنتقل بالمهدية كما جاء بالتواريخ، ومن هذه الجهة أنكر أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي إمامة المهدي الظاهر من سجلماسة لأنه عارف بالمهدي أبي القائم، فلما رأى الأمر وسوس لأخيه أبي عبد الله الشيعي، وقال: إن هذا الذي يدعي بأنه الإمام، وسلمت مقاليد الملك الذي بيدك إليه، وقلت أنه المهدي المنتظر، ما هو كما قلت، ولا الأمر كما توهمت، ولا هو صاحب الأمر، ولقد كنت أنت أحق بالخلافة منه، وأولى بالنيابة، وكان من أمر أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس»[1] أن قتلهما المهدي بتهمة التآمر والخروج.

5 ـ اللقب الذي حمله القائم، فهو الوحيد بين أئمة الفاطميين الذي تفرد بحمل هذا اللقب، ذلك أن لقب القائم هو أرفع الألقاب الإسماعيلية وأعلاها قداسة، هو ليس إماماً عادياً بل نبياً من الأنبياء ذوي العزم، ففي رسالة من رسائل القاضي النعمان، كتبها أيام المعز لين الله الفاطمي، في المرحلة الإفريقية، ودعاها باسم «الرسالة المُذْهبة في الحكمة والتأويل»[2] تحدث القاضي النعمان طويلاً عن شخصية القائم وكان من جملة ما قاله: «قد ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز له ثلاثمائة وستين اسماً يعرفها العارفون، ويعمى عنها الجاحدون، حتى أن الصفوة الذين اقتفوا آثار الأئمة صلوات

(1) أخبار القرامطة: 137 ـ 141.

(2) لدي صور ثلاث نسخ منها حصلت عليها من مكتبة خاصة.

الله عليهم أجمعين اختلفوا فيه، فزعمت طائفة منهم أنه جسماني غير مؤيد، واحتجوا على ذلك، وقالوا: إنه مقتف آثار أبيه رسول الله ﷺ مقتبس من علمه، لا يحكم إلاّ بما وصى به إليه جده ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وكيف لا يكون ذلك، وقد أعطاه الله تبارك وتعالى ما لم يعطَ لأحد غيره، لقوله عز وجل: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1] ولا يكون أفضل من فاضل، وتحقيق ذلك أن سائر النطقاء، والرسل، والأنبياء، والخلفاء من الأئمة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ كلهم مبشرون منذرون به، داعون إليه.

وقالت طائفة أخرى: إنه روحاني منتقل عن الجسماني، وهم الجم الغفير. . وقالت طائفة أخرى أيضاً: إنه سابع سبعة من آدم. . فالنطقاء سبعة أولهم آدم وآخرهم القائم. . ومثله مثل من سلف من النطقاء [الأنبياء ذوي العزم] أصحاب الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، غير أنه أيده الله بما لم يؤيدهم به، وأعطاه ما لم يعطهم، وذكر الدعاة إليه، والمبشرون به، والمخبرون عنه، أن دوره ـ صلوات الله عليه ـ آخر الأدوار، إذ كان يومه آخر الأيام، وأنه يجيء بالجسمانية فيحكم في الجسمانية، ويملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، وأن دوره دور القيامة. فلا تزال دعوته قائمة إلى أن يرث ﴿الأرض ومن عليها﴾ [الأنبياء: 89] والقائم يحكم في الحياة بالجسمانيين، وبعد الحياة «في الروحانيين كما حكم في الجسمانيين، لا على من كان في عصره وزمانه» فقط بل على الجميع من «الأولين والآخرين، إذ كان هو صلوات الله عليه سبباً لبدء الابتداء، وإليه الانتهاء».

إن الرسالة المذهبية من أهم الرسائل الاسماعيلية، أوقف القاضي النعمان جل مواردها على شخصية القائم، على أساس النظام السبعي، وعنده الأنبياء ذوي العزم هم: «النطقاء السبعة عليهم السلام، وذلك أن الولاية لآدم عليه السلام، وأن الطهارة لنوح، وأن الصلاة لابراهيم، وأن الزكاة لموسى، وأن الصوم لعيسى، وأن الحج لمحمد ﷺ، وأن الجهاد إلى القائم صلوات الله على ذكره» وكان من المفترض بالمهدي التمهيد لعصر القائم

---

(1) آية 33 من سورة التوبة.

لدى تسلمه السلطة بإعلان قيامة عظمى ، لكن لم تتح الفرصة للقائم الفاطمي حتى بإعلان قيامة صغرى ، لأنه شغل أثناء حكمه بثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي[1] .

(1) يذهب القاضي عبد الجبار الهمذاني إلى أن الخلافة الفاطمية أظهرت أثناء ثورة أبي يزيد «الرجوع إلى الإسلام ، وقام الإمام» بقتل الدعاة ، ونفي بعضهم إلى أرض الأندلس وغيرها ، وقال للعامة من سمعتموه يلعن الأنبياء فاقتلوه ، وأنا من ورائكم ، وأذن للفقهاء والمحدثين . . . وخفف الخراج وأظهر الشغل بالفقه» . انظر أخبار القرامطة : 164 .
وبالنسبة لثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد يمكن العودة إلى ترجمتي القائم والمنصور اسماعيل في المقفى للمقريزي وإلى طبقات المشايخ للدرجيني وإلى محتويات المكتبة الإباضية الإفريقية ، وإلى عيون الأخبار للداعي إدريس ، وجرى نشر السبع الخامس من هذا الكتاب في بيروت ، وأعيد نشر أجزاء منه في تونس بعنوان «تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب» تحقيق د . فرحات الدشراوي ـ تونس 1979 ، وشخصية هذا الثائر ما تزال تستهوي الباحثين بين معجب ومتهم ومن أحدث الكتب الإباضية حوله كتاب «ثورة أبي يزيد ـ جهاد لإعلاء كلمة الله» تأليف الشيخ سليمان بن الحاج داود بن يوسف ط . الجزائر : 1981 .
أما بالنسبة إلى موضوع القيامة فلا تكاد رسالة أو كتاب من كتب الاسماعيلية إلا ويكون فيها وفيه الموضوع الرئيسي ، انظر : سرائر وأسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليمن : 229 ـ 264 . كتاب الكشف له : 46 ـ 50 ، 64 ـ 67 ، 105 ـ 106 ، 116 ـ 117 . كتاب البيان لمباحث الإخوان لأبي منصور اليماني : 88 ـ 93 ، 108 ـ 109 . أربع رسائل اسماعيلية تحقيق عارف تامر : 51 ـ 52 ، 102 . ثلاث رسائل اسماعيلية تحقيق عارف تامر : 18 ـ 20 . أربع كتب حقانية تحقيق مصطفى غالب : 88 ـ 99 . كتاب إثبات الإمامة لأحمد بن إبراهيم النيسابوري : 41 ـ 93 . كتاب إثبات النبوءات لاسحق السجستاني : 189 ـ 193 كتاب شجرة اليقين للداعي عبدان القرمطي : 11 ـ 13 ، 36 ـ 37 ، 47 ـ 48 ، 55 ـ 56 ، 89 ، 102 . تاج العقائد ومعدن الفوائد تأليف علي بن محمد الوليد : 58 ـ 59 . كتاب الذخيرة في الحقيقة له : 84 ـ 122 . كتاب الافتخار لأبي يعقوب السجستاني : 47 ـ 91 .
وقد تعرض لهذا الموضوع في أيامنا برنارد لويس في كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة : 87 ـ 89 ، 128 . المحجة فيما نزل في القائم الحجة لها شم البحراني ، وقد حاول مؤلف هذا الكتاب إثبات قيام القائم عن طريق تأويل آيات القرآن الكريم . الإمامة وقائم القيامة لمصطفى غالب ، وهو كتاب ، وإن تميز بالضحالة ، لا يخلو من فائدة .

لعل ما قدم حتى الآن يكفي للبرهنة، وعليه لن أتوسع الآن أكثر حول هذه المسائل، بل سألزم نفسي بالمضي في البحث، إنما بشيء من الاختصار:

فبعدما تسلم المهدي زمام الأمور من أبي عبد الله الداعي، وما أن أصبح أميراً للمؤمنين حتى أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه حسب قاعدة الإمامة عند الاسماعيلية، ذلك أن الإمام وحده هو صاحب الحق في الحكم والتشريع، وقام المهدي بجمع الدعاة وعمل على إعادة تنظيم الدعوة، وجهد في سبيل إيجاد جيل جديد من الدعاة، ولقد أصاب في هذا السبيل نجاحاً كبيراً، ذلك أن زعامة الفكر الاسماعيلي ستؤول بعد قليل إلى جيل من الدعاة جلهم من أصل بربري أو مغربي، وسيظل هذا الجيل متمسكاً بهذه الزعامة حتى عصر الحاكم بأمر الله في مصر.

وأصبحت الدعوة الاسماعيلية الآن دعوة علنية، تدعمها سلطة دولة فتية، وهنا لابد لنا من أن نتساءل عن التجديدات التي أدخلت على أفكار الدعوة ثم عن التأثيرات المحلية عليها؟.

ويروى بأن المهدي كان قد جلب معه من المشرق كمية من الكتب الخاصة، لعلها تضمنت النتاج الفكري الاسماعيلي، أو بعض المهم منه، وإذا صح هذا، فإن هذا النتاج هو الذي اتخذ أساساً في العمل الدعوي الجديد، وعليه فقد بقيت أفكاره الظاهرية هي هي، وكذا التأويل الباطني، وجاء لإعادة تنظيم الدعوة والمجاهرة بها وبأفكارها مع ممارسة المهدي للسلطة، ومباشرته الحكم بنفسه، ردات فعل اسماعيلية داخلية، وغير اسماعيلية خارجية، ونجمت ردات الفعل الداخلية بالأساس عن حصر المهدي للسلطات وعمله في سبيل تغيير وضعه الإمامي وتبديل ولي العهد، وبناء دولة مركزية على غرار العباسية، وكان في هذا حرمان من الغنائم للذين تحملوا أعباء الدعوة مثل أبي عبد الله الشيعي وسواه، ثم كان في ذلك انتكاسة عقائدية، وتراجع، ذلك أن إقامة سلطة ملكية مركزية شديدة ومطلقة: شيء، والتصور الوهمي الخيالي الفضفاض لدولة المهدي شيء آخر.

يروي القاضي عبد الجبار الهمذاني في كتابه تثبيت دلائل النبوة أنه بينما كان أصحاب أبي عبد الله الشيعي من المغاربة يحمِّلون أمتعة المهدي «وجدوا ملابس الحرير والديباج، وأواني الذهب والفضة، وخصيان رومة، وآثار الأنبذة، فأنكروا ذلك في أنفسهم، مع بلادة البربر، وسألوا أبا عبد الله الداعية عن ذلك، وإنما أنكروا ذلك، لأن أبا

عبد الله هذا كان مقيماً سنين كثيرة في كتامة يدعوهم إلى المهدي، الذي هو حجة الله، ويزعم أنه صاحبه، وكان أبو عبد الله يتقشف ويلبس الخشن، ويأكل العشب، ويعدهم عن المهدي بمثل ذلك، فلهذا أنكروا وسألوا، فقال لهم أبو عبد الله: هذه الآثار لأصحابه وأتباعه، وكان معه أتباع كثير»[1].

ووفق المهدي في القضاء على المعارضة الداخلية، وقام بتصفية دموية لأبي عبد الله الشيعي ومن سانده[2]، وجاء نجاحه نتيجة بذله الأموال، وشرائه زعماء قبائل كتامة، وكان للمعارضة من الخارج قصة أخرى من رواتها إبراهيم الرقيق مؤرخ القيروان، وقد بدأت في الأسبوع الأول لنزول المهدي برقادة حيث كانت قصور الأغالبة الفخمة على مقربة من القيروان: «فعندما حلت الجمعة أمر المهدي الخطيب أن يذكره في الخطبة، فيقول: عبد الله الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، فلما صعد الخطيب المنبر وانتهى إلى ذكر المهدي، قام واحد من رجالات السنة الحضور واسمه جبلة بن حمود الصدفي قائماً وكشف رأسه حتى رآه الناس ومشى من المنبر إلى آخر الجامع وهو يقول: قطعوها قطعهم الله ويكررها، يعني الخطبة لبني العباس، وقام الفقهاء ووجوه البلد معه، فما حضر أحد من الأماثل، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف، ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى مذهبهم، فأجابوا إلى ذلك إلا القليل، فأمر بهم، فضربوا وحبسوا، ونابذت طائفة من الفقهاء المهدي، وحتى أنه أدخل برجل على الوالي فقال له الوالي: قل لا إله إلا الله، فقال: أما من قولك فلا، إنني لا أدري ما تقول لي بعدها، وأدخل إليه بآخر، وبين يديه مصحف، فقال له: أليس هذا هو القرآن؟ فقال له: ما أعرف ما هو، ووجد رجل من أصحاب المهدي المشارقة مقتولاً، فأتوا إليه، وقالوا: قتل رجل من الأولياء، قال: وأين هو؟ قالوا له: أكلوه ولم تبق إلاّ عظام ساقيه، فقال المهدي: هذا بلد لا يحل أن يقام فيه،

---

(1) أخبار القرامطة: 178 ـ 179.

(2) الكامل لابن الأثير: 8/ 150 ـ 152. أخبار بني عبيد: 115 ـ 116. رسالة افتتاح الدعوة: 260. أخبار الدول المنقطفة ـ نسخة غوطا، قسم الدولة الفاطمية: 6 ـ 8. صلة عريب: 52. البيان المغرب: 1/ 223 ـ 225. تاريخ المغرب في العصر الوسيط: 52 ـ 53. نهاية الأرب: 23/ 35. معالم الإيمان: 3/ 47. عيون الأخبار: 5/ 123. المقفى: تراجم المهدي. أبو عبد الله الداعي وأخيه أبي العباس.

فأمر بقتل المحبسين إن لم يرجعوا عما هم عليه، فقتل منهم على ما قيل أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عابد ورجل صالح».

وأثارت هذه الأعمال أهل القيروان، وكانوا يتعصبون لمذهب الإمام مالك وأهل السنة، وكانوا سادة الأعمال التجارية والصناعية والثقافية والحضارية العامة في الشمال الأفريقي، ودخلوا في صراع مع رجال قبيلة كتامة، لأسباب قبلية عربية بربرية وحضارية واجتماعية وسياسية عامة، وكان الصراع حاداً أجبر المهدي على التراجع ولو مؤقتاً، والخروج لتسكينهم «وكف الدعاة عن طلب الناس بمذهب التشيع»، فلما كانت سنة 300هـ/ 913م «خرج بنفسه إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة، فلم يجد بقرطاجة إلى تونس أحسن ولا أحصن من موضع المهدية، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند، فتأملها فأعجبته»، فبنى فيها مدينة في غاية الحصانة والإحكام، ذلك أنه أراد من المدينة حصناً «يعتصم هو فيه، ثم من يخلفه» لأنه أدرك أن شعوب تونس والشمال الإفريقي لن يمنحوه الولاء صرفاً، ولن يدعوه بينهم إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وعلى الرغم من تسمية المهدي لمدينته باسمه - وهذه حالة شاذة في تاريخ الإسلام - فإن هذه المدينة لم تخطط وتشيد كمدينة عقائدية ومثالية، بل أريد منها أن تكون قوية حصينة، ولما وجد المهدي أن مساحة الجزيرة غير كافية قام بردم جزء من البحر، كما قام بنقر ميناء لها في الصخر يتسع لحوالي ثلاثين سفينة، وأقام على مدخل هذا المرسى برجين عظيمين[1] - ما تزال بقاياهما قائمة - للحراسة، ربط بينهما بسلاسل من الحديد لتحول دون طرق السفن الغريبة إلى الميناء، ونقر في الصخر أيضاً داراً للصناعة تتسع لثلاثمائة سفينة، كما بنى في المدينة الإهراءات الكبيرة لخزن الحبوب والمؤن، ونظر لندرة المياه فقد أكثر المهدي من بناء خزانات المياه التي تملأ بمياه الأمطار.

وبنى المهدي لنفسه قصراً وآخر للقائم، كما بنى مسجداً كبيراً، ويختلف بناء هذا المسجد عن غيره من مساجد المشرق والمغرب، ذلك أن له بوابة كبيرة[2] قام على مقربة منها برجان في غاية الضخامة ثم أبراج أصغر، مما جعل واجهة المسجد أشبه بواجهة إحدى

---

(1) المقفى - باريس - 215 و222 ظ (ترجمة المهدي).

(2) تشبه باب بغداد في الرقة.

قلاع، وجاءت هذه الأبراج مجوفة حيث كانت تملأ بمياه الأمطار، وكان الإمام يدخل ى المسجد من بوابته الكبيرة، ذلك أن حرمه لم يكن فيه مقصورة لها دهليز خاص متصل بقصر الخليفة كما كانت العادة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، إثر محاولة اغتياله على يد خوارج، كما لم يكن القصر قريباً من المسجد، والجديد في بناء مسجد المهدية أيضاً وجود مر خاص مسقوف قام على صفين من الأعمدة، وكان يصل البوابة بالحرم، وتعليل هذا مرتبط بأمر المظلة وما يتعلق برسومها عند الفاطميين، فمن المشهور أن النبي ﷺ كان إذا تحرك - أثناء رحلته إلى الشام - كانت تظله غمامة، لذلك عندما قامت الخلافة الفاطمية تخذ الخلفاء لأنفسهم مظلة كانت تحمل فوق رؤوسهم، وحيث أنه كان من غير اللائق، و من المحال حمل المظلة داخل المسجد عند دخول الخليفة إليه، تم بناء رواق مسقوف جاء على شكل المظلة ليمر الخليفة تحته عند دخوله المسجد، وكان الموقع الذي اختاره المهدي بناء مدينته موقعاً معروفاً من قبل، كان فيه بعض السكان عندما اختاره، والمنطقة المحيطة به. وتعرف بمنطقة الجم (أرض جمة) كانت منطقة حضارة وعمران وهي ما تزال كذلك، وعندما أنجز بناء المهدية انتقل المهدي إليها مع أركان دولته، ثم أمر بعد مدة بأن تحول طرق تجارة إليها، وكان في ذلك مشقة على التجار وعقوبة لأهل القيروان، وسنجد المنصور سماعيل، وهو الخليفة الثالث يترك المهدية، ويبني قرب القيروان صبرة المنصورية لإرضاء تجار، وكسب ود أهل القيروان، وقد جعل المهدي أسواق المدينة في داخل الجزيرة، وحرم على التجار البيتوتة في المدينة الجزيرة، فكانت بضائع التجارة تبقى رهينة داخلها تمنعهم من التحريض، أو المشاركة في أية ثورة تدبر في الليل، وإذا حدث وانفجرت ثورة في النهار كانت بوابة المدينة الوحيدة الشديدة الحصانة، والتي لا يتصل بالبر سواها، تغلق ويبقى التجار وبضائعهم رهائن فيها.

ومن المهدية أخذ بتوجيه الدعاة إلى مناطق البلدان الإسلامية في المغرب والأندلس والمشرق، وأولى المهدي المشرق عنايته الكبرى، ذلك أن هدف الاسماعيليين كان إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وينقل المقريزي أن المهدي «لم يمت حتى وصلت دعاته إلى بلاد الشرق، وبعث إليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول: أنا في خمسين ألف مملوك يطيعوني، وليس على المهدي كلفة ولا مؤونة. فإن أمرني بالمسير سرت إليه، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه، وامتثلت أمره، وإن أمرني أن أدخل أهل الأرض في طاعته

فعلت، وكتب بهذا إليه أيضاً مرادويج الجبلي بمثل ذلك، وكتب إليه يوسف بن أبي الساج.. وأحمد بن صعلوك.. بمثل ذلك، وأنفذوا رسلهم مع الأموال إليه، فوقع على ظهر كتبهم: الزموا مراكزكم ﴿لكل أجل كتاب﴾[1].

ولم يقتصر اعتماد المهدي على جيش الدعاة الكبير كوسيلة لإزالة الخلافة العباسية عن طريق تفجير الثورات، بل اعتمد القوة المسلحة لدولته، فتوجهت أنظاره فور استقرار الأمور له في إفريقية نحو مصر الأخشيدية، فوجه ضدها عدة حملات عسكرية قاد غالبيتها خليفته أبو القاسم محمد القائم، وكان نصيب هذه الحملات الإخفاق[2]. وعقب وفاة المهدي سنة 934م توقفت هذه الحملات، ذلك أنه كان على أبي القاسم ثم ابنه المنصور اسماعيل بعده، العمل في سبيل المحافظة على الوجود الفاطمي في المغرب، هذا الوجود الذي كادت تعصف بأركانه الثورة الخارجية التي قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري بتحريض ودعم من الخلافة الأموية في الأندلس[*]، ووافت المنية القائم في المهدية سنة 946م دون أن يتمكن من القضاء على هذه الثورة، ثم خلفه ابنه المنصور اسماعيل، وقد تسنى للمنصور بعد حروب طويلة القضاء على ثورة أبي يزيد، وعقب ذلك أخذ يعيد تنظيم دولته، ويتوجه ببصره نحو مصر، وخلال انشغال الدولة الفاطمية في المهدية بثورة أبي يزيد بقي الدعاة نشطين، وثابروا في تركيز الجهد على مصر وغيرها من بلدان المشرق، ويبدو أن الدعوة كسبت بعض القواعد في مصر، وأخذت هذه القواعد تستقبل المزيد من الدعاة للتدريب والتوجيه، ولعل من أبرز الذين وصلوا إلى واحد من مراكز الدعوة في مصر أحمد بن الحسين، الذي سيعرف باسم المتنبي الشاعر، ذلك أنه بعد

---

(1) مصادر الحاشية السالفة، وهذا الوصف للمهدية ومسجدها قائم على المشاهدة الشخصية لدى زيارتي لها عام 1975.

(2) للقائم ترجمة مفيدة في المقفى، انظر أيضاً عيون الأخبار: 5/ 120 ـ 136.

(*) رأيت في القيروان ديناراً ذهبياً ضرب سنة 333هـ/ 943م لأبي يزيد مخلد بن كيداد، من المعتقد أن ذهبه أندلسي المصدر، وجاء على هذا الدينار:

1 ـ الطوق: الحمد لله. ضرب بمدينة القيروان. سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

2 ـ الوجه الأول: ربنا الله، لا حكم إلا الله. وحده لا شريك له. الحق المبين.

3 ـ الوجه الثاني: العزة لله، محمد رسول الله، خاتم النبيين.

عودته من مصر أعلن ثورته في بادية الشام[1] ، حيث أسره لؤلؤ صاحب حمص وأودعه السجن ، وسيقوم المتنبي بعد خروجه من السجن بالالتحاق بسيف الدولة الحمداني حيث قال في مدحه أروع القصائد ، وحاول كسبه إلى الجانب الاسماعيلي فأخفق ، لذلك ذهب إلى مصر ، تسير أمامه شهرته الواسعة ، فاتصل بكافور الأخشيدي ، وسعى لنيل ولاية منه لتكون قاعدة متقدمة للتحرك الاسماعيلي نحو احتلال مصر ، لكن كافور رفض طلبه ، فاتصل بواحد من كبارة قادة جيشه ، فتوفي هذا في ظروف غامضة وبشكل مفاجئ ، وضيق كافور على المتنبي ، فاضطر إلى مغادرة مصر فوراً ، وأعلنت الدعوة الاسماعيلية نتيجة ذلك ، أن مصر لن تفتح «حتى يزول الحجر الأسود من مكانه» ، ولاشك أن الدعوة الاسماعيلية هي التي مكنت المتنبي من الفرار من مصر والوصول إلى العراق .

وفي أيام المعز خليفة المنصور ، وكان الحجر الأسود [كافور] قد زال من الوجود ، تمكنت الخلافة الفاطمية بفضل حملات قادها جوهر الصقلبي قائد المعز ، تمكنت من بسط سيطرتها على جميع أجزاء الشمال الأفريقي ، ونشط بعض الدعاة في الأندلس ، لكن الأندلس ودولتها لم تكن هدف الإمامة الفاطمية ، لذلك ما إن وافت الفرصة حتى زحفت القوات الفاطمية على مصر فاحتلتها ، ثم ألحقت بها القسم الأكبر من بلاد الشام .

---

(1) ترجمة المتنبي في بغية الطلب لابن العديم مع ترجمة جوهر الصقلبي في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، وترجمة المتنبي في المقفى للمقريزي .

4 ـ الدور المصري الأول:

وفي مصر بنت الخلافة الفاطمية عاصمة جديدة كانت هي القاهرة، ودار دعوة جديدة كانت هي الأزهر، وعندما انتقل مركز الفاطميين من إفريقية إلى مصر لم يترك هذا المركز وراءه أتباعاً عقائديين كثيرين، حيث سهل بعد مدة قصيرة نسبياً التخلي عن الولاء الفاطمي، والعودة إلى الولاء السني العباسي، وهذا يعني أن الدعوة الاسماعيلية قد نجحت في المغرب سياسياً، ولم تنل النجاح عقائدياً، وسيتكرر هذا الحال في مصر، وإنه لمن الغرابة بمكان أن نجد للعقيدة الاسماعيلية أتباعاً يؤمنون بها حيث لم تقم لها سلطة ودولة، وأن لا نجد لها من يؤمن بها حيث حكمت سنين طويلة؟ إنه لأمر يتمنى الباحث أن يعرف سره، ويكشف مغلق لغزه.

ولقد مر تاريخ الخلافة الفاطمية بطورين رئيسين هما: الطور الإفريقي، والطور المصري، ومن الممكن أن نقسم الطور المصري إلى دورين: ينتهي الأول منهما مع بداية عصر الخليفة الحاكم بأمر الله، وينتهي الثاني بسقوط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي، وقام هذا التقسيم على معايير سياسية ودينية، حيث ـ كما سنرى ـ أخذت مظاهر الضعف تبدو على جسم الخلافة أيام الحاكم، وفي عصر الحاكم جرت محاولات لإعادة بناء أسس العقيدة الاسماعيلية:

كان من الطبيعي أنه عندما توطدت أركان الخلافة الفاطمية في إفريقية ألا تكتفي الدعوة الاسماعيلية بتونس، بل ابتغت التوسع لكن ليس في بلدان المغرب بشكل أساسي، ذلك أن هدف الدعوة الاسماعيلية الأساسي كان إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وإحلال الخلافة الفاطمية محلها، لهذا كانت أنظار رجالات الاسماعيلية ترنو نحو مصر ومن ثم المشرق، وكانت مصر يوم قامت الخلافة في تونس، تحكم من قبل الأسرة الإخشيدية، وكانت هذه الأسرة تحكم بالإضافة إلى مصر المناطق الجنوبية من بلاد الشام، لأن الشمالية كانت تدار من قبل الأسرة الحمدانية في حلب، وعلى الرغم من استقلال الأسرة الأخشيدية، فإنها كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية.

وسلفت الإشارة إلى أن الخلافة الفاطمية قد سعت نحو الاستيلاء على مصر، وذلك منذ أيام المهدي، حيث قاد القائم عدة حملات ضد مصر كان نصيبها الإخفاق،

وبالإضافة إلى الحملات العسكرية، نشطت الدعوة الاسماعيلية في مصر واتخذ عدد مؤثر من الاسماعيليين مصر منزلاً لهم بغية الإعداد للاستيلاء على مقاليد الأمور فيها، وسلف أن ذكرنا أن المتنبي كان من أشهر الذين قدموا إلى مصر، قدمها للمرة الأولى وهو داعية اسماعيلي مغمور، ثم زارها ثانية وهو شاعر قد طبقت شهرته الآفاق، فالتحق بكافور الأخشيدي، وحاول أن ينال منه ولاية ولو على طرف الصحراء فأخفق، فاتصل بالقائد فاتك الأخشيدي، فتوفي هذا في ظروف غامضة. فاضطر المتنبي إلى الهرب من مصر، وواضح أن الولاية كانت لتستخدم قاعدة للاسماعيلية، والقائد الأخشيدي، لإحداث انقلاب ضد كافور.

وبعد وفاة المهدي سنة 322هـ/ 934م وفي عهد خليفته القائم محمد [322 - 334هـ/ 934 - 946م] انشغلت الخلافة الفاطمية في الدفاع عن وجودها الذي تهدد بثورة صاحب الحمار أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري، ولقد استطاع الخليفة القائم وابنه المنصور اسماعيل (334 - 341هـ/ 946 - 953م) القضاء على هذه الثورة، وتمكن من إطفاء نائرتها، وفي عهد خليفة المنصور وابنه المعز لدين الله معد (341 - 365هـ/ 953 - 975م) تمكنت الخلافة الفاطمية من بسط سيطرتها على غالبية أجزاء الشمال الأفريقي، ووافق هذا التعاظم في القوة تدهور لأحوال الدولة الإخشيدية في مصر، خاصة بعدما توفي كافور الاخشيدي.

واغتنم المعز لدين الله الفرصة فبعث قائده جوهر الصقلبي على رأس جيش حسن الإعداد جيد التنظيم والعدة، واستطاع هذا الجيش أن يسيطر على مصر دون كبير عناء وعظيم خسائر[1]، وتم هذا سنة 969م وعقب ذلك زحفت القوات الفاطمية نحو بلاد الشام، وهنا كان لزحفها هذا قصة أخرى تباينت تبايناً شديداً مع قصة الاستيلاء على مصر، سنعرض لها بعد قليل.

وفي مصر قام جوهر الصقلبي ببناء نواة مدينة جديدة - لتكون مقراً للفاطميين، هنالك إلى جانب الفسطاط العاصمة الأولى لمصر الإسلامية - دعاها بالقاهرة المعزية، وبعدما أنجز بناء القاهرة، وفي أثناء محاولات الاستيلاء على بلاد الشام، اصطدمت

---

(1) تراجم جوهر الصقلبي، جعفر بن فلاح، جيش بن الصمصامة في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: 298 - 376. عيون الأخبار: 6/ 136 - 165. اتعاظ الحنفا: 1/ 93 - 100.

الجيوش الفاطمية بقوات قرامطة الأحساء والبحرين، الأمر الذي تطور إلى حد تهديد الوجود الفاطمي في مصر، مما حدا بالخليفة المعز لدين الله إلى ترك إفريقية والارتحال نحو مصر في موكب كبير جداً، تضمن الكثير من بربر كتامة وسواهم من المنتمين إلى الدعوة الاسماعيلية، مع كميات عظيمة من الذخائر والذهب وأهل الحرف والصناعات والفنون، كما حمل المعز تابوت أبيه وتوابيت أجداده[1].

لقد جاءت حملة جوهر، ثم موكب المعز أشبه بهجرة بربرية نحو مصر ثم بلاد الشام، وكانت الأولى من نوعها، وفي القاهرة استقر المعز، وفيها أيضاً بنى الفاطميون دار دعوة جديدة ومسجداً كان في الوقت نفسه جامعة دعي بالأزهر، وذلك نسبة إلى فاطمة الزهراء التي انتسب إليها الفاطميون، وأطلقوا اسمها على دولتهم.

وفي مصر تم إحكام بناء الدولة الفاطمية ووضع لها نظام إداري يمكن وصفه بالعلمية لرقيه ودقته، كما أحكم نظام الدعوة الاسماعيلية بشكل رائع جداً، ويعدّ يعقوب ابن كلِّس وزير كل من المعز ثم ابنه العزيز أهم بناة النظام الإداري والدعوي للدولة الفاطمية في مصر، فبفضل هذا النظام استطاعت الدولة الفاطمية أن تبقى حية لمدة تفوق القرنين على الرغم من أنه لم يوجد بين الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش القاهرة بعد المعز من اتسم بالقدرة والكفاءة السياسية والإدارية، فمن هو يعقوب بن كلس هذا؟.

كان من رجال الإدارة والمال اليهود في العراق، وقد هجر العراق، وجاء إلى بلاد الشام حيث عمل مدة من الزمن في مدينة الرملة، ثم غادرها إلى مصر، واتصل هناك بكافور الإخشيدي فولاه إحدى الوظائف، وكلفه بمهام فنجح بها أيما نجاح، فأعجب به كافور إعجاباً كبيراً حتى أنه سمع يقول: «أي وزير بين جنبيه» لو كان مسلماً، فما كان من يعقوب إلاّ أن مضى في اليوم التالي إلى المسجد حيث أعلن عن إسلامه، «وبلغ خبره إلى كافور فسره ذلك، وعاد من الجامع إلى دار كافور، فخلع عليه غلالة مبطنة ودراعة وعمامة وزادت مراتبه عنده».

وبعد وفاة كافور ترك يعقوب مصر، وسافر إلى المهدية، حيث دخل في خدمة المعز لدين الله الفاطمي، وقدم له المساعدات من أجل الاستيلاء على مصر، وفي مصر تسلم

---

(1) عيون الأخبار: 6/ 184 ـ 194. اتعاظ الحنفا: 1/ 134 ـ 143.

ابن كلس وضع أسس الإدارة الفاطمية هناك، ولم يكتف بذلك بل تولى إعادة تنظيم بناء الدعوة الاسماعيلية، وألف كتاباً معتمداً في الفقه الاسماعيلي، وحين اعتل علة الوفاة عاده الخليفة العزيز «فقال له: وددت لو أنك تبتاع فأبتاعك بملكي، أو تفدى فأفديك بولدي فهل من حاجة توصي بها يا يعقوب؟» وشكره يعقوب، وأوصاه بأن يتبع منهجاً، وسماه له، في عمله بالسياسة الخارجية لدولته، ومن المدهش حقاً أن وثائق الجنيزا اليهودية التي عثر عليها في كنيس الفسطاط القديم، وهي وثائق تحوي أوراق ومستندات الجالية اليهودية في مصر أيام الفاطميين ومن جاء بعدهم، تشير هذه الوثائق إلى يعقوب بن كلس باسم الأخ يعقوب، وتوحي بأنه ظل محافظاً على يهوديته وتظاهر بالإسلام تظاهراً[1].

وبعدما توطد الفاطميون في مصر صار تحدي العقيدة الاسماعيلية للنظام العباسي والفكر السني أكثر قوة، وأشد خطراً، وصار للفاطميين امبراطورية مترامية الأطراف، وشملت وهي في ذروة قوتها: مصر وبلاد الشام، وشمال أفريقيا، وصقلية وشواطئ البحر الأحمر وبلاد الحجاز واليمن بما في ذلك المدينتين المقدستين: مكة والمدينة، وسيطر الفاطميون على جيش هائل من الدعاة، واعتمدوا على ولاء عدد لا يحصى من الأتباع في أراض كانت خاضعة للحكم العباسي فعلياً، أو اسمياً.

وعلى الرغم من توفر جميع هذه الإمكانات الهائلة للخلافة الفاطمية، فإنها أخفقت في تحقيق أهدافها في إسقاط الخلافة العباسية وإزالتها من الوجود، ومرد ذلك إلى أسباب عدة منها إخفاق الفاطميين في الاستيلاء على بلاد الشام، وتضاءل القدرات العسكرية للجند البربر أمام الجند المشارقة، والصدام الشديد مع قرامطة الإحساء والبحرين، وعدم تميز واحد من بين الخلفاء الفاطميين بالقدرات العسكرية، ولعل مرد ذلك إلى طبيعة التنشئة الدينية لهؤلاء الخلفاء.

ظهرت بوادر الإخفاق الفاطمي منذ تاريخ مبكر، فبعدما استولى جوهر الصقلبي على مصر، وفي العام نفسه، أرسل جيشاً كبيراً ـ أوكل قيادته إلى الأمير البربري جعفر بن فلاح ـ نحو بلاد الشام، كي يعمل على ضمها إلى الحكم الفاطمي، ولقي هذا الجيش أثناء

---

(1) الإشارة إلى نال الوزارة: 18 ـ 223. الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي: 241 وفي كتاب يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى لفيشل، الذي ترجمته إلى العربية. ط دار الفكر، بيروت 1988، ص70 ـ 98، براهين على احتفاظه بيهوديته.

زحفه في فلسطين مقاومة من بقايا القوات الاخشيدية ، لكنه تغلب عليها ، وتابع سيره نحو دمشق ، وقبيل وصوله إليها فرّ حاكمها الاخشيدي منها «فخلت المدينة من السلطان ، فطمع الطامع ، وكثر الذعار وحمال السلاح» ، ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم ، بأن أغلقوا أبوابها ، وأوقفوا الرماة على شرفات الأسوار ، وأقاموا الحواجز داخل المدينة ، وكسروا أقنية المياه ، وحفروا الخنادق ، واشترك الرجال والنساء والصبية في الإعداد للدفاع عن دمشق ، وتولى شؤون المقاومة وقادها منظمة شعبية عرفت بالأحداث وكانت هذه المنظمة شبه عسكرية ، قامت في مدن بلاد الشام ، وشغلت أكبر الأدوار فيها ، وأدت بعض أنواع الخدمات البلدية والعسكرية والأمنية .

وصمد أهالي دمشق ، وكاد الإخفاق أن يلحق بالجيش الفاطمي لولا أن جماعة من تجار المدينة وأشرافها قامت فشكلت وفداً قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح ، وبث هذا الوفد التخاذل بين المدافعين ، مما سبب إيقاف المقاومة ، وأدى إلى فتح أبواب المدينة لجيش ابن فلاح .

وكان أبرز الزعماء القائمين بالدفاع عن دمشق رجل من عامة أهلها وأحداثها اسمه أبو اسحق محمد بن عصودا ، وبعدما سقطت دمشق للجيش الفاطمي نجا ابن عصودا بحشاشة نفسه ، وهرب إلى الإحساء في شبه جزيرة العرب فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الأعصم ، فحضه على مساعدة دمشق ، فلقي الاستجابة منه ، وجاء جيش قرمطي إلى دمشق ، فالتقى بجيش ابن فلاح فهزمه ، ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة ، وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي ، وعين القرامطة عليها من يحكمها ، وتابعوا زحفهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي ، ولكنهم أخفقوا وهزموا ، وجردت الجيوش الفاطمية مجدداً في أثرهم لملاحقة فلولهم ، ولإعادة جنوب بلاد الشام إلى حظيرة الخلافة الفاطمية .

الوجه	الظهر
	

فى المركز: لا إله إلا الله
وحده
لا شريك له
السيد
الرئيس
المحيط (1): بسم الله ضرب هذا الدينر بفلسطين سنة اثنتين وستين وثلثمائة.
المحيط (2): لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

فى المركز: لله
محمد رسول الله
صلى الله عليه
وعلى آله
المطيع لله
الحسن بن أحمد
المحيط: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

دينار قرمطي ضرب في فلسطين سنة 376هـ أصدره الحسن بن أحمد الأعصم في أيام صراعه ضد الفاطميين، في عهد الخليفة العباسي المطيع لله.

وكما سلفت الإشارة حدت المخاطر التي تهددت القاهرة المعز لدين الله الفاطمي إلى ترك تونس والقدوم إلى مصر، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان من بين نتائج النشاطات القرمطية في شبه جزيرة العرب قيام هجرة بدوية عملاقة حملت قبائل من عامر ابن صعصعة وسواها مثل: عُقَيل، وقُشَير ونُمير، وخَفاجة، وطيّء، وكلاب، وفَزارة، وسُلَيم، إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين، وعلى هذا رست القوى الفعالة في الشام بأيدي رجالات القبائل، وكانت طيء أقوى قبائل فلسطين، وقد سعى القرامطة إلى كسب هذه القبيلة إلى جانبهم، كما سعى الفاطميون عن طريق الذهب وعرض المناصب إلى شراء ولاء هذه القبيلة وسواها، هذا ومن المقرر أن اعتماد القوى المتصارعة على ولاء البداة، لا يمكن من حسم الأمور، ولا من قيام معارك فاصلة.

وهكذا نجد في سنة 363هـ/ 973م الخليفة المعز لدين الله يقوم بتعيين ظالم بن مرهوب (أو موهوب) العُقَيْلي على دمشق، وحاول ظالم البدوي العربي أخذ دمشق بالحديد والنار، فأوقع الحرائق بعدة أماكن من المدينة، ولكن ذلك لم يفت في عضد

الدمشقيين بزعامة الأحداث، وتم أخيراً التوصل إلى تسوية غادر ظالم بن مرهوب بموجبها دمشق، وسمح أحداث دمشق لحاكم فاطمي آخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم، وكان هذا حلاً مؤقتاً، وغير ناجع، إذ سرعان ما عادت الاضطرابات إلى دمشق، وهنا تدخل المعز، فأوعز إلى واليه على طرابلس الشام بالقدوم إلى دمشق للمساعدة على حل مشاكلها، فقام هذا الوالي بصرف القوات الفاطمية وأجلاها عن دمشق، وهكذا تم الوصول إلى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق، الذين أحكموا الآن قبضتهم على المدينة وأمورها، وكان زعيم الأحداث في هذه الآونة عامياً عرف باسم ابن الماورد، وكانت منطقة الباب الصغير هي نقطة تمركز الأحداث، أو لنقل مكان معسكرهم.

وكان في هذه الآونة الصراع على السلطة على أشده في بغداد، وقد أدى فيما أداه إلى خلع الخليفة العباسي المطيع لله [334 ـ 363هـ/ 946 ـ 974م] واستخلاف ولده الطائع، وأدت هذه المشاكل ببعض العسكريين الأتراك إلى القيام بهجر بغداد، وكان من بين هؤلاء واحد عرف بألبتكين (هتكين) الحاجب، حيث ترك العراق، وقدم إلى دمشق، وعندما وصلها عسكر مع غلمانه خارجها، فخرج إليه بعض شيوخ المدينة وأشرافها فرحبوا به، وسألوه «الإقامة عندهم والنظر في أحوالهم»، وقبل ألبتكين العرض، وكان عسكرياً محترفاً، له خبرات إدارية وسياسة، وقد تمكن من دخول دمشق، فرتب الأمور فيها بالتعاون مع الأحداث، وكان زعيم الأحداث قد أصبح رجلاً عامياً عرف باسم قسام التراب، وكان قسام أصله من تلفيتا «إحدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون»، نشأ في دمشق، وكان يعمل في التراب، ثم انضم إلى الأحداث فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل بينهم.

وفي القاهرة توفي الخليفة المعز دون التمكن من حل مشكلة دمشق، وقد خلفه ابنه العزيز، وافتتح هذا الخليفة عهده بإعداد جيش كبير جرده نحو دمشق، وجعل على رأسه جوهر الصقلبي قاهر مصر، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن، وأن يبعد خطر القرامطة عن الشام مهما كلفه الأمر، وأخفق جوهر، وتمكن ألبتكين بالتعاون مع قرامطة الإحساء من صد جيوش الفاطميين، وأوقع فيها الهزائم، وألحق بها العار في أكثر من معركة، مما اضطر العزيز إلى الخروج بنفسه إلى حربه وحرب القرامطة، وبعد جهود مضنية وبذل كميات من

الذهب لزعماء قبيلة طيء، استطاع العزيز إيقاع الهزيمة بألبتكين وحلفائه، وقام العزيز بشراء رضا القرامطة بمبلغ كبير من المال يدفع لهم سنوياً، وحمل ألبتكين معه إلى القاهرة وذلك سنة 368هـ/ 978م، لكن نصر العزيز لم يقده إلى احتلال دمشق، فقد عاد إلى مصر دون أن يجرب ذلك، وهكذا حافظت دمشق على استقلالها، واستبد قسام وأحداثه بأمورها فضبطوها ضبطاً جيداً، وقام قسام بمراسلة الخليفة العزيز، فاعترف اسمياً بسلطانه، ودفعه عن دمشق، وأراد خداعه، وتظاهر العزيز بالرضى، لكنه ما لبث أن جرد جيشاً جديداً أرسله نحو دمشق، ولم يتمكن هذا الجيش من تحقيق مهمته، واضطر إلى الانسحاب راضياً بتعهد من قسام بأنه لن يسلم دمشق لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين.

ودام الحال على هذه الصورة حتى سنة 371هـ/ 981م حيث جهز الخليفة جيشاً فاطمياً جديداً لإعادة السيطرة على دمشق، وذلك بعدما أخفقت أساليب أخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها وإثارة الأعراب وتسليطهم عليها، بهدف إسقاط حكم قسام.

ووصل الجيش الفاطمي دمشق فحاصرها طويلاً، ولقي من المقاومة الشيء الكثير، لكن انشقاقاً في صفوف أهل المدينة أجبر قسام على إلقاء السلاح، ودخل الفاطميون دمشق، إنما بقيت مقاليد الأمور بأيدي الأحداث، وظل الحال هكذا بين أخذ ورد حتى سنة 388هـ/ 998م حيث تمكن الفاطميون من دعوة زعماء الأحداث إلى وليمة غدر، جعلوهم فيها طعمة للسيوف، وهكذا توطد حكم الفاطميين في جنوب الشام، ولكن إلى حين فقط.

وفي الوقت الذي كان فيه الفاطميون يسعون إلى السيطرة على دمشق حاولت بعض جيوشهم الاستيلاء على مدينة حلب، فأخفقت بفضل دفاع حكامها من الحمدانيين عنها، وبفضل حماية الامبراطورية البيزنطية لها، ذلك أن هذه الامبراطورية رغبت أن تكون حدودها مع بلاد الشام مع دولة صغيرة حاجزة لا مع خلافة قوية واسعة الأملاك.

وحتى أوائل أيام العزيز كان قوام الجيش الفاطمي من الجند البربر الذين استولوا على مصر، ثم من الذين اصطحبوا المعز لدين الله حين قدم مصر، ولكن أخذ العزيز الآن

تجنيد عناصر تركية وديلمية على غرار الخلافة العباسية ودول الشام والمشرق، كما شرع تشكيل فرق زنجية، وسيكون لهذا انعكاساته على مستقبل الخلافة الفاطمية حيث سيقوم صراع بين جنسيات الجيش وسيؤدي ذلك إلى إضعاف الخلافة وزعزعة كيانها[1].

٤ ـ الدور المصري الثاني:

توفي العزيز سنة 996، فخلفه من أم مسيحية ابنه أبو علي المنصور، بلقب الحاكم بأمر الله، وكان صبياً صغيراً، فأديرت الدولة من قبل عدد من الرجال إلى أن بلغ من السن ما مكنه من مباشرة الحكم بنفسه، وما أن فعل ذلك حتى طبع العصر بطابعه الخاص، ونظراً لكثرة ما قام به من أعمال اتسمت بالتناقض الشديد، ثم للنهاية التي آل إليها، اختلفت آراء الناس فيه في القديم والحديث، فهناك من رفعه إلى المنزلة الإلهية، وهناك من اتهمه بالجنون، ومن اتهمه بالشذوذ وبالطغيان، وفي أيامنا هناك من عدّه لغزاً يستحيل حله، ومن عدّه ممثلاً للشر والكفر، ومن رأى فيه العدالة والاستقامة فرفعه إلى منزلة أبي بكر وعمر.

والحق أن وصف كل مؤرخ أو باحث متأثر إلى أبعد الحدود بعقيدته الدينية، ذلك أن الحاكم اتبع سياسة دينية خاصة، وكان باعثه هو محاولة إنشاء عقيدة جديدة، أو بالحري تحقيق ما استهدفته الحركة الاسماعيلية في الوصول إلى إعلان قيامة عظمى تلغي جميع الديانات والشرائع القائمة وتحرر الإنسان من ربقتها، وتكشف للإنسان صور حقائق العلوم والمعارف، إنما الآن ليس بوساطة «الإمام القائم عليه السلام سابع النطقاء» ذوي العزم، بل بوساطة «الإله الواحد» الذي نزل من عليائه إلى الأرض فتجلى لبعض الوقت ناسوتيا في شخصية عرفها الناس باسم الإمام الحاكم، وذلك مثلما اعتقدت الكنائس بالمسيح.

والكتابات الحديثة حول هذا الموضوع باتت كثيرة سيما في لبنان نتيجة للصراع الذي دار هناك، ومهما يكن الحال يبدو أن الحاكم أراد أن يجمع الناس على عقيدة واحدة طوعاً أو كرهاً، وأنه بالنظر للمعارضة الشديدة التي لقيها، ثم في سبيل نجاح حركته أراد أن

---

(1) بالإضافة إلى مواد كتابنا «أخبار القرامطة» يعدّ تاريخ دمشق لابن القلانسي مصدرنا الأساسي: 1 ـ 93. انظر أيضاً تراجم: بشارة الأخشيدي، جعفر بن فلاح، جوهر الصقلبي، جيش بن الصمصامة في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: 306 ـ 348.

يزلزل أركان دولته في مصر ومجتمعه، فكان يصدر الأوامر الغريبة ثم يلغيها، ويصدر غيرها وهكذا، فلعله استهدف إقناع الناس أنه وحده فعال لما يريد.

ولم يكتف الحاكم بالأخذ بهذه الوسيلة بل عمد إلى الإكثار من سفك الدماء، خاصة دماء كبار رجالات الدولة، ولعله أراد من وراء ذلك إزالة رجال العقيدة القائمة لإحلال أتباع العقيدة الجديدة محلهم، ثم الإيحاء أنه هو وحده قادر على أخذ الحياة ممن يشاء ساعة يشاء، له الحق في ذلك كاملاً دون اعتراض..

وقد واجه الحاكم العديد من الثورات كان أولها وأكبرها ثورة أبي ركوة الذي ادعى أنه هشام بن الوليد الأموي الأندلسي، وكان مسرح نشاطه بين قبائل مناطق الحدود الليبية المصرية الحالية، وكان على رأس هذه القبائل بنو قرة العرب، وقد تمكن الحاكم بعد جهود مضنية من القضاء على هذه الثورة، ثم واجه ثورة أخرى في فلسطين بين قبائل طيء، وقد جلبت طيء أحد أشراف مكة وأعلنته خليفة في الرملة، وتيسر أيضاً للحاكم القضاء على هذه الحركة، ثم واجه إثر ذلك جيشاً شعبياً في بلاد الشام تزعمه الأحداث، وقد نجح أحداث مدينة صور بزعامة رجل اسمه علاقة الملاح في نزع زمام الأمور في بلدتهم من الفاطميين، وقام العلاقة فضرب نقوده الخاصة، وكانت ردة فعل الحاكم تجاه هذه الثورة شديداً، حيث بعث أسطوله ضد صور، وأردفه بجيش بري، واستطاع الفاطميون أخذ صور، وأوقعوا الهزيمة بالعلاقة وأسروه، حيث حمل القاهرة، وهناك سلخ هذا الثائر حياً وصلب بظاهر القاهرة.

وعندما شعر الحاكم باستتباب الأمور له، بدأ بتحركه الديني، فكان أن تخلى عن ملابسة المذهبة، ولبس الصوف، وتظاهر بالزهد، وسمح للدعاة بالقول بأن الإله قد حل فيه، وأثار هذا القول ردات فعل عنيفة في العاصمة المصرية، خاصة في شطر الفسطاط والأقسام الأقدم بناء من القاهرة، وفي ذروة الصراع من أجل العقيدة الجديدة التي ستعرف بالدرزية، اختفى الحاكم من على مسرح الأحداث، وجاء هذا بشكل مفاجئ، ولذلك أحدث دوياً كبيراً، واحتار الناس في كشف غوامضه ومعرفة أسبابه وصنّاعه.

فمن قائل إن الحاكم قد اغتيل بفعل مؤامرة أعدتها أخته ست الملك، بالتعاون مع عدد من قادة الجيش، ورجالات الدولة، هذا ويرى الدروز من الجانب العقدي أنه ارتفع من الأرض، وعاد إلى طبيعته اللاهوتية، في حين توحي بعض الكتابات الدرزية المبكرة ـ

رسائل الهند ـ أنه تغيب بفعل رغبته ومحض إرادته، وأنه قام برحلات كبيرة شملت مناطق شاسعة من بلاد الشام والمشرق حتى الهند، هذا ولعقيدة الغيبة على أنواعها مكانة خاصة في الفكر الشيعي عامة والاسماعيلي خاصة، وعلى الرغم مما اعتقده الدروز ورأوه، فإن بعض الكتاب يغمزون من طرف خفي ويقولون إن الحاكم اغتيل من قبل رجال من دعاة دعوته الجديدة، ذلك أن تغيبه قد حوله من حال الواقع إلى الأسطورة، ولاشك أن الوهم والخرافة أهم ينابيع الكثير من العقائد والديانات لاعتمادها على الغيبيات[1].

لقد جاء اختفاء الحاكم في سنة 411هـ/ 1021م وكان في أيام خلافته قد عين ابن عمه عبد الرحيم بن الياس ولياً لعهده، ثم عزله، وإثر وفاته أخرجت أخته ست الملك ابنه أبا الحسن علي وأعلنته إماماً جديداً، وهرب عبد الرحيم بن الياس، وأمسكت ست الملك بزمام الأمور، ومنح الخليفة الجديد لقب الظاهر لاعزاز دين الله، وفي هذا اللقب إعلان عودة إلى دين الظاهر، بعد محاولة الخروج عنه إلى دين الباطن، وكان الظاهر يوم إعلان خلافته ما يزال صبياً، ولهذا استبدت عمته بكل شيء، وغلبته على أمره.

ومع توليه الخلافة أخذت مظاهر الضعف والتفكك تبدو جلية على الامبراطورية الفاطمية، ففي بلاد الشام تحالفت قبائل الشام الرئيسة وهي: كلب وطيء وكلاب على طرد الفاطميين من البلاد وإقامة دول عربية ثلاث: واحدة في دمشق لكلب، وثانية في الرملة لطيء، وثالثة في حلب، وتزعم هذا التحالف: حسان بن المفرج الطائي، وسنان بن عُلّيان الكلبي، وصالح بن مرداس الكلابي، واستطاع هذا التحالف تحقيق جزء كبير من برامجه، فطرد الجيوش الفاطمية، وأجلاها عن الشام، وأقام صالح بن مرداس الدولة المرداسية في حلب، لكن حدث بعد حين أن توفي سنان بن عليان فتصدع التحالف، مما شجع الخلافة الفاطمية على إرسال جيوشها إلى الشام، وفي وادي اليرموك، هزمت الجيوش الفاطمية

(1) في مصادر التاريخ الفاطمي والمصادر المعاصرة وسواها مثل تاريخ دمشق لابن القلانسي ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي مواد غنية حول الحاكم، وجرى حديثاً نشر عدد من الكتب والرسائل الدرزية وهي ذات أهمية خاصة، ومن أشهر الدراسات العربية عن الحاكم كتاباً عبد الله عنان ثم عبد المنعم ماجد ولهما منهج متعارض، انظر كتاب «تاريخ دولة الكنوز الإسلامية»: 47 ـ 56.

The Druze Faith by Sami Nasib Makarim, pp 14 - 24.

صالح بن مرداس وقتلته في معركة عرفت بمعركة الأقحوانة، لكن على الرغم من هذا النصر لم يستطع الفاطميون تثبيت أقدامهم طويلاً في الشام، وتوفي الظاهر وهو لا يزال في مقتبل العمر، فخلفه ابنه معد بلقب المستنصر وكان هذا سنة 427هـ/ 1036م، ويعدّ عصر المستنصر أطول عصور الخلفاء الفاطميين حيث امتد حتى سنة 1094م.

وفي هذا العصر المديد ملكت الخلافة الفاطمية العديد من الفرص الثمينة، فقد وصلت إلى ذروة توسعها، ثم هوت بسرعة كبيرة، وذلك لأسباب داخلية، وأخرى خارجية، ففي عصر المستنصر ضعف شأن الأسرة البويهية التي كانت تتحكم بخلفاء بغداد، ووجد في المشرق دول إسلامية سنية كبرى، وحيث أن الدعوة الاسماعيلية لم تستطع الوفاء بالوعود التي قطعتها على نفسها، فقد خبت جذوة هذه الدعوة، وشهدت في الوقت نفسها بلدان العالم الإسلامي بعثاً سنياً بروح قوية، وكان مما ساعد على هذا البعث قيام الدولة الغزنوية في المشرق، لكن الفضل الأكبر في نجاحه بسرعة وفعاليته يعود إلى السلاجقة الذين خلفوا الدولة الغزنوية في حكم خراسان.

والسلاجقة هم أسرة الزعامة لدى القبائل التركمانية، ففي بداية القرن الحادي عشر هاجرت مجموعات كبرى من التركمان من موطنها في بلاد ما وراء النهر إلى خراسان، ومن هناك انساحت إلى العراق، وبلاد الجزيرة، والشام، وآسية الصغرى، وأرمينية، ونجم عن هذه الهجرة نتائج خطيرة للغاية كان لها انعكاساتها على تاريخ العالم الوسيط أجمع، وعلى الخلافة الفاطمية بشكل خاص، وألم بالمناطق التي هاجر إليها التركمان دماراً كبيراً، كما أنها شهدت تغييرات سياسية واجتماعية ودينية وعرقية كبيرة.

ولم تحدث الاستفاقة السنية في المشرق فقط بل قامت في المغرب أيضاً، ففي ولاية إفريقية ـ تونس ـ أعلن حاكمها المعز بن باديس استقلاله عن الفاطميين، وترافق هذا بالبطش بعناصر الاسماعيلية في ولايته، وتجديد قواعد العقيدة السنية، وجمع الناس كلهم على مذهب مالك، وحين حدث هذا كانت مصر تعاني من مواسم جفاف متعاقبة وقصور في النيل، أفقر البلاد، وأصاب الناس بالمجاعة والوباء، لذلك عجزت الخلافة الفاطمية عن القيام بأي عمل مباشر ضد المعز بن باديس.

وكان في مصر العديد من القبائل العربية جلها من هلال وسُلَيم، وكانت هذه القبائل مصدر شغب وإخلال بالأمن، وحين قامت المجاعة، وحدث الانفصال في إفريقية،

شجعت هذه القبائل، لا بل دفعت للزحف نحو تونس، وهنا حدثت الهجرة الهلالية الكبرى، وحققت هذه الهجرة غرض تدمير سلطة ابن باديس، لكنها لم ترجع شمال أفريقية إلى العقيدة الاسماعيلية، بل ساعدت بشكل حاسم على تعريب الشمال الإفريقي، وتشكل آثار هذه الهجرة وأخبارها واحداً من محاور فلسفة ابن خلدون التاريخية الأساسية، ولقد لقيت عناية خاصة من قبل المستشرقين خاصة الفرنسيين أيام الاستعمار في المغرب الكبير، وكان الهدف القول بأن العرب دمروا الشخصية المغربية البربرية مع الحضارة، وأن البلاد ينبغي أن تعاد إلى أصولها، إلى غير ذلك من الدعاوي الحاوية للزيف والاختراع، والتي تهاوت جميعاً بعدما كشف باطلها.

وفي المشرق، ومع تدفق التركمان على أرضه، زحفت جموعهم نحو العراق للسيطرة على بغداد وإنهاء النفوذ البويهي فيها، كما زحفوا على الجزيرة وبلاد الشام، وأثر هذا على كل من التركمان أنفسهم وعلى القوى السياسية والعربية لهذه المناطق، وقامت تحالفات متنوعة مع العديد من الخصومات، كما برز عدد من المغامرين خاصة بين صفوف بقايا الجند البويهي، وكان من أبرز هؤلاء رجل عرف بالبساسيري.

والبساسيري هو أبو الحارث أرسلان التركماني، نسب إلى بلدة بسا بفارس (والعرب تسميها فسا، وينسبون إليها فسوي، وأهل فارس يقولون بسا، بين الباء والفاء، وينسبون إليها "البساسيري"، وكان مولاه رجل من أهل بسا، فنسب الغلام إليه، واشتهر بهذه النسبة)، وبدأ البساسيري حياته كعبد تركي لدى الحكام من آل بويه، وتدرجت المناصب به حتى أصبح - في سنة 435هـ/ 1033م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد، وبعد هذا صار من أبرز شخصيات السلطة في بغداد وأكثرها قوة، وعرضه هذا للتصارع مع غيره من رجالات بغداد مع البحث عن الحلفاء من الداخل والخارج، وحين رأى خصومه يتحالفون مع السلاجقة، راسل القاهرة وعرض عليها إمداده بالمعونات والأموال، حتى يزيل الخلافة العباسية من الوجود.

وتجاوبت القاهرة مع ما عرضه البساسيري عليها، وفي سنة 448هـ/ 1056م، أرسلت الخلافة الفاطمية إلى البساسيري ما قيمته (2.300.000) من الدنانير مع داعي الدعاة المؤيد في الدين، وبعد جهود مضنية واتت الفرص البساسيري سنة 450هـ/ 1058م فدخل بغداد، واعتقل الخليفة العباسي، حيث أودع في مدينة عانة على الفرات، وألغيت

الدعوة العباسية وخطب الخطباء للمستنصر من على منابر بغداد، وهكذا تحقق حلم الفاطميين في القضاء على الخلافة العباسية، لكن هذا كله كان سراباً، حيث لم يمض العام الواحد على حكم البساسيري لبغداد حتى تمكن طغرلبك سلطان السلاجقة من قيادة جموعه من التركمان، فاستعاد بغداد وقتل البساسيري، وأعاد الخليفة العباسي إلى داره.

وعقب هذا بوقت قصير تمكن التركمان من أخذ دمشق، والانسياح في جنوب الشام وشماله، وقام لهذا مع إخفاق البساسيري ردات فعل كبيرة في القاهرة، حيث تمرد بعض ضباط الجند على الخليفة وأراد التحكم فيه، وتمكن في سنة 1074م أحد الضباط من الأصل الأرمني، واسمه بدر الجمالي من الاستيلاء على مقاليد الأمور في القاهرة.

وقبل هذا كان الخليفة الفاطمي يسيطر على جميع فروع السلطة في دولته وهي (الإدارة، والدعوة، والدعاة، والجيش) وكان الوزير الذي يرأس قسم الإدارة، الشخصية الأولى في الحكم بعد الخليفة، وكان داعي الدعاة يرأس الحزب الفاطمي ويسير جيشاً هائلاً من الدعاة الموزعين في كافة أنحاء العالم الإسلامي والهند، وكان قائد الجيش رئيساً للجند، وثالثاً في الترتيب، في حكم كان بالأساس مدنياً.

لكن الآن صار أمير الجيوش سيداً للبلد، يحكم على الخليفة ويحجر عليه، ويحمل من الألقاب: لقب وزير، وداعي الدعاة، وذلك بالإضافة إلى لقبه كأمير جيوش، وغدا منصب أمير الجيوش منصباً وراثياً، وقد أيقظ هذا التسلط والتغيير عدم رضا، ومعارضة شديدة بين صفوف الحركة الاسماعيلية.

وبعد وفاة الخليفة المستنصر سنة 1094م، واجه الأفضل بن بدر الجمالي، الذي ورث منصب أبيه، فصار أميراً للجيوش وداعياً للدعاة، واجه أمر اختيار خليفة جديد، كما واجه عدداً من المسائل الأخرى نجمت في الأساس عن تملك التركمان لبلاد الشام، وعن تعرض هذه البلاد لغزو جديد جاء من أوروبة الغربية، وعرف بالغزو الصليبي.

وكان أمام الأفضل نزاراً، الابن الأكبر للمستنصر، وكان معيناً لولاية عهد أبيه، وكان أمامه أيضاً أخوه الأصغر المستعلي، وكان حدثاً بدون مساندة أو جماعة، فاختاره أمير الجيوش، وسماه إماماً جديداً وصاهره على أخته (أي أخت الأفضل) وهرب نزار إلى الاسكندرية، فقام بثورة هناك، لكن قوات الأمير الجيوش تمكنت من ملاحقته والقضاء عليه وعلى حركته.



وأدى اختيار المستعلي إلى انشطار الدعوة الاسماعيلية إلى قسمين، فقد رفض الاسماعيليون في المشرق، وكذلك القسم الأكبر من اسماعلية بلاد الشام الاعتراف بالخليفة الجديد، وقامت بين صفوفهم دعوة جديدة أسسها حسن الصباح في المشرق، وبنى أركانها في قلعة أَلَموت، كما استولى على عدد من القلاع كان من أشهرها قلعة نَمَسر، وأبدع حسن الصباح طرقاً جديدة لنشر دعوته، واعتمد الاغتيال السياسي بطعن الخصوم حتى الموت، بالسكاكين، وقد عرفت دعوته في المشرق باسم الباطنية، وقد تمكن أتباع حسن الصباح من الاستيلاء على عدد من القلاع المهمة في بلاد الشام، ومارسوا هناك دوراً بالغ الخطورة، وكان اسمهم في بلاد الشام الحشيشية، وهي كلمة غير معروفة الأصل حتى الآن، إنما انتقلت إلى اللغات الأوربية لتعني الاغتيال.

ذلك أن حشيشية الشام، وباطنية المشرق قاموا بعدد من عمليات الاغتيال الكبرى ضد قادة المسلمين السنة بشكل رئيسي وضد قادة الاسماعيلية المستعلية في مصر، كما نفذوا بعض عمليات الاغتيال ضد بعض قادة الصليبيين، وأثاروا جواً كبيراً من الرعب، كما فرضوا فروضاً (أتاوات) مالية كبرى على قادة المسلمين في المشرق والشام وعلى بعض قادة الصليبيين ـ وحتى تبعاً لبعض الروايات ـ على ملوك أباطرة أوروبة.

وبعد وفاة حسن الصباح خلفه أحد معاونيه وعرف باسم كيابزرك أميد، وبتولي كيابزرك أميد هذا صار حكم أتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة بيد أسرة وراثية، وبعد وفاة كيابزرك أميد قام أحد أحفاده فادعى لنفسه النسب الاسماعيلي، وصاغ قصة مفادها بأن نزاراً بن المستنصر خلف طفلاً جلب إلى ألموت سراً، وربي هناك وعاش وأنجب، ثم أنه عندما حان الوقت، قام وأعلن نفسه إماماً اسماعيلياً جديداً، وترافق هذا الإعلان بطقوس كبيرة للغاية، عرفت بطقوس القيامة الصغرى، وقد وصلنا وصف مفيد لهذه الطقوس في كل من بلاد الشام والمشرق:

«ففي السابع عشر من رمضان لسنة 559هـ/ 8 آب 1164 م، أمر صاحب ألموت وسيد الباطنية والحشيشية الحسن بن محمد بن كيابزرك أميد بإقامة منبر متوجه إلى الغرب نصبت على أطرافه أربعة رايات كبار: واحدة بيضاء، وثانية صفراء، والرابعة الخضراء، وواحدة حمراء، واجتمع في الساحة جمهور كبير من الناس من مختلف الأجناس والأقطار، وحيث أن المنبر كان موجهاً إلى الغرب، فقد كانت ظهور المجتمعين موجهة إلى

الكعبة، وعند الظهر كما يقال من مصدر اسماعيلي (نزل المولى حسن - على ذكره السلام - من القلعة مرتدياً رداء أبيض وعمامة بيضاء) ثم ارتقى المنبر بكل جلال، وبعدما تفوه بالسلام، صرح برسالة الإمام القائم، بإعلان القيامة، وبعثه صلواته ورحمته لأتباعه وتسميتهم بعباده المختارين، وبموجب القيامة أعفاهم من أعباء الناموس، وتكاليف الشريعة، ثم نزل من على المنبر فصلى ركعتي العيد وظهره إلى الكعبة، ثم أمر بمدّ سماط عظيم، ودعا الحسن الناس إلى الإفطار والمشاركة بالوليمة، وأباح لهم بأن يطربوا ويمارسوا من الأعمال ما رغبوا فيه».

ولقد تقبل غالبية الباطنية الحشيشية الأعمال الجديدة، على أن قلة منهم رفضت التحرر من نير الشريعة، فاستخدم حسن ضدهم أصرم العقوبات وأشدها (مؤكداً أنه كما في عصر الشريعة إذا لم يطع الإنسان الناموس ولم يتعبد، بل اتبع أحكام القيامة بحجة أن الطاعة والعبادة أمران روحيان، كان ينكل به ويرجم أو يقتل، فكذلك الآن في عصر القيامة الصغرى، إذا تقيد المرء بحرفية الشريعة، وواظب على العبادة الجسدية وعلى تطبيق الشعائر، فإن ذلك يعدّ تعصباً ينكل به من أجله ويقتل).

ولقد استمر أتباع ألموت أقوياء يزرعون الرعب في كل مكان، ويبرهنون على عجز سلطات دول الإسلام تجاههم، حتى قام الغزو المغولي لبلاد الإسلام، ففي طريقه لاحتلال بغداد، قام هولاكو باحتلال قلاع ألموت، ولمسر، وبقية القلاع الاسماعيلية في المشرق، وقضى على مؤسساتهم السياسية، لكن أتباع العقيدة الاسماعيلية ظلوا يعيشون في بقاع كثيرة، وفي العصر الحديث يتزعمهم أئمة يحمل الواحد منهم لقب الآغا خان، ويدعون الانحدار من أئمة ألموت.

وعندما أقام الأفضل المستعلي إماماً جديداً، قبل بهذا الاختيار عدد لا بأس به من الاسماعيلية، وبعد وفاة المستعلي صار ابنه الآمر إماماً جديداً، وفي سنة 1130م تمكن اسماعيلية ألموت من اغتيال الآمر، وعقب اغتيال الآمر رفض الاسماعيلية المستعلية الاعتراف بالخليفة الفاطمي بالقاهرة، وتبنوا عقيدة فيها أن طفلاً رضيعاً للآمر يدعى الطيب كان قد فقد، حيث استتر وتغيب، وكان تغيبه في اليمن لدى إحدى سيدات الأسرة الصليحية التي كانت تحكم اليمن، والطيب هو الإمام المنتظر، ولهذا لم يعد لدى المستعلية أئمة بعده، إنما صار المسؤول عن أمورهم داعي الدعاة، وقد نقل أتباع هذه الدعوة

نشاطهم مع مركز أعمالهم إلى الهند، ويوجد الآن في الهند ما يزيد على المليون ونصف المليون من المستعلية، وتعرف طائفتهم باسم البهرة، وأفراد هذه الطائفة من أكثر أهل الهند ثروة، ويحمل داعي دعاتهم لقب سلطان، لهم لغتهم الخاصة وجامعتهم ومعاهدهم الثقافية، كما ويوجد في اليمن أقلية منهم.

وحكم بعد الآمر في القاهرة أربعة خلفاء من الأسرة الفاطمية لكنهم لم يعدّوا أئمة، ثم كانوا بلا صلاحيات أو نفوذ داخلي أو خارجي وضعفت مصر في زمنهم ضعفاً شديداً، ونجم ذلك عن توسع الصليبيين وعن تنافس القوى في القاهرة وصراعاتها من أجل منصب أمير الجيوش، وأراد بعض أفراد هذه القوى الاستعانة بمملكة القدس الصليبية، وعرف الصليبيون مصر وقدروها حق قدرها، فعملوا من أجل احتلالها فتدخل نور الدين محمود بن زنكي، سيد الشام وبطل الإسلام زمن الحروب الصليبية، فمنعهم بثلاث حملات قادها أسد الدين شيركوه، وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب بصحبه عمه أسد الدين، كما أنه كان أبرز أمراء الحملة بعد عمه، وعقب وفاة أسد الدين حل محله صلاح الدين، وتسلم منصب الوزارة، وقام صلاح الدين في سنة 1171م - بناء على تعليمات تلقاها من نور الدين - بإلغاء الخلافة الفاطمية، وأعاد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية، ولم يؤد هذا الإلغاء إلى ردات فعل شعبية في داخل مصر، ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى أن العقيدة الاسماعيلية لم تتعد سيطرتها على مصر أطر السياسة، وكان عدد الاسماعيليين في مصر قليلاً خاصة بين المصريين، ذلك أن الحركة الاسماعيلية التفتت بعد سيطرتها على مصر إلى النشاط الخارجي، وأهملت الوضع الداخلي، وكان هذا من أعظم الأخطاء التي وقعت فيها، يضاف إلى هذا أن الدعاة طوال العصر الفاطمي كانوا من غير المصريين، وفي سبيل زيادة الفائدة سوف أعرض في الفصل المقبل دراسة مكثفة لتاريخ القرامطة[1].

---

(1) انظر كتابي إمارة حلب بالإنكليزية: 67 - 129، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: 96 - 124، تاريخ العرب والإسلام: 325 - 335. الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، مع كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة المقبل.

الفصل الثاني
القرامطة

1 ـ ظهور القرامطة ـ قرامطة العراق:

يكتنف موضوع ظهور القرامطة بعض الغموض، فهناك خلاف شديد حول أصلهم ومدى علاقة هذا الأصل بالحركات الاسماعيلية عقيدة تنظيمياً، فقد ذهب جل الباحثين في عصرنا إلى القول إن القرامطة جزء من الاسماعيلية وأن هناك علاقات عقائدية وعضوية بين الطرفين واضحة كل الوضوح، بينما ذهبت قلة من الباحثين إلى نفي هذا الرأي والقول إن القرامطة تنظيم قائم بذاته، مستقل كل الاستقلال عن الاسماعيلية، فهذا ما حاول إثباته المستشرق إيفانوف، الذي اختص بالاسماعيلية، وارتبط بالآغاخانية بأمتن الروابط إلى حد يمكن القول فيه بأنه كان يعمل لحسابها، ولهذا كانت محتويات المكتبات الاسماعيلية تحت تصرفه في كل مكان، واحتج ايفانوف بأن المصادر الاسماعيلية وغيرها لا تثبت وجود علاقة، كما أن المعلومات المتوفرة عن عقائد القرامطة تظهر أن هذه العقائد تختلف عما تبنته الاسماعيلية[1].

إن الفحص الدقيق للمواد التي كانت متداولة أيام ايفانوف تثبت عكس ما ذهب إليه، ويدعم الرأي المواد الجديدة التي ظهرت إلى النور بعده، فلدى العودة إلى مختلف المصادر الاسماعيلية نراها تنظر إلى القرامطة نظرة فئة تمردت على قيادتها وهذا ما نشهده في كل من كتاب (سيرة الحاجب جعفر) و(استتار الإمام)، وفي الرسالة التي وجهها المعز لدين الله الفاطمي إلى الحسن الأعصم حيث جاء قوله: «فأما أنت أيها الغادر الخائن، الناكث المباين عن هدي آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده. . أما كان لك

---

(1) (مجلة فرع بومباي للجمعية الملكية البريطانية الآسيوية).
Ismailis and Qarmatians J.B.B.R.A, Vol 16 (1940) pp 42 - 85.

بجدك أبي سعيد أسوة حسنة وبعمل أبي طاهر قدوة، أما نظرت في كتبهم وأخبارهم، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم، وما كان من آثارهم، ألم تعلم أنهم كانوا ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وعزم سديد، وأمر رشيد، وفعل حميد، تفيض إليهم موادنا، وتنشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الأعمال، ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة فسادوا منحة منا واسماً من أسمائنا. . ».

ومن الكتب التي نشرت بعد ايفانونف كتاب «المقالات والفرق» لسعد القمي، وكتاب «شجرة اليقين» للداعي القرمطي عبدان، بين كتب أخرى، ويعدّ سعد القمي بين أقدم من كتب في الملل والنحل، فقد عاصر ظهور القرامطة ورأى نشاطاتهم الحربية المعلنة، ذلك أنه توفي في أواخر القرن الثالث للهجرة[1].

قال سعد القمي: «وتشعبت بعد ذلك فرقة. . . ممن قال بإمامة محمد بن اسماعيل تسمى القرامطة، سميت بذلك لرئيس كان لهم من أهل السواد من الأنباط، كان يلقب بقرمطويه. . وقالوا: يكون بعد محمد ﷺ سبعة أئمة: علي وهو إمام رسول، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ومحمد بن اسماعيل ابن جعفر، وهو الإمام القائم المهدي وهو رسول، وهؤلاء رسل أئمة، وزعموا أن النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب للناس بغدير خم، فصارت الرسالة في ذلك اليوم إلى أمير المؤمنين وفيه، واعتلوا في ذلك بخبر تأوّلوه هو قول رسول الله: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة وتسليم منه ذلك لعلي بن أبي طالب بأمر الله، وأن النبي ﷺ بعد ذلك صار تابعاً لعلي محجوباً به، فلما مضى أمير المؤمنين صارت الإمامة والرسالة في الحسن، ثم صارت من الحسن في الحسين، ثم صارت في علي بن الحسين، ثم في محمد بن اسماعيل ابن جعفر، كما انقطعت الرسالة عن محمد في حياته، ثم إن الله بدا له في إمامة جعفر واسماعيل فصيرها عز وجل في محمد بن اسماعيل، واعتلوا في ذلك بخبر رووه عن جعفر بن محمد أنه قال: ما رأيت مثل بداء بدا لله في اسماعيل، وزعموا أن محمد بن اسماعيل حي لم يمت، وأنه غائب مستتر في بلاد الروم، وأنه القائم المهدي، ومعنى

(1) أخبار القرامطة: 318-319، 374-375.

«القائم» عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة وينسخ بها شريعة محمد، وأن محمد بن اسماعيل من أولي العزم، وأولو العزم عندهم سبعة: نوح، وإبراهيم وموسى، وعيسى، ومحمد، وعلي، ومحمد بن اسماعيل، على معنى أن السموات سبع، والأرضين سبع. وأن الإنسان بدنه سبع: يداه، ورجلاه، وظهره، وبطنه، وقلبه، والأئمة سبع كذلك وقلبهم محمد بن اسماعيل، وأولو العزم سبع، واعتلوا في نسخ شريعة محمد ﷺ وتبديلها بأخبار رووها عن جعفر بن محمد أنه قال: لو قام قائمنا علمتم القرآن جديداً، وأنه قال: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء» ونحو ذلك من أخبار القائم، وزعموا أن الله جعل لمحمد بن اسماعيل جنة آدم، ومعناها عندهم الإباحة للمحارم، وجميع ما خلق في الدنيا وهو قول الله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ يعني محمد بن اسماعيل وأباه اسماعيل، ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ موسى بن جعفر، وولده من بعده من ادعى منهم الإمامة، وزعموا أن محمد بن اسماعيل هو خاتم النبيين الذي حكاه الله في كتابه، وأن الدنيا اثنتا عشر جزيرة، في كل جزيرة حجة، وأن الحجج اثنا عشر، . . . وزعموا أن جميع الأشياء التي فرضها الله على عباده وسنها نبيه ﷺ فيها ظاهر وباطن، وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة فأمثال مضروبة، وتحتها معان هي بطونها عليها العمل وفيها النجاة. . واستحلوا مع ذلك استعراض الناس بالسيف وسفك دمائهم، وأخذ أموالهم، والشهادة عليهم بالكفر والشرك. . وقد كثر عدد هؤلاء القرامطة، ولم يكن لهم شوكة ولا قوة، وكان كلهم بسواد الكوفة، وكثروا بعد ذلك باليمن، ونواحي البحرين، واليمامة وما والاهما، ودخل فيهم كثير من العرب فقوي، حالهم بهم وأظهروا أمرهم»[1].

إن أهم الأفكار الواردة في هذا النص الوثائقي هي:

1 ـ القرامطة تشعبوا عن الاسماعيلية.

2 ـ الإيمان بإمامة اسماعيل، وابنه محمد.

3 ـ الصراع مع الإمامية الاثني عشرية.

4 ـ الفرقة سبعية.

---

(1) المقالات والفرق: 83 ـ 86.

5 ـ عقيدة القائم والقيامة هي الأساس والمحور.

6 ـ التأويل الباطني.

7 ـ النبوة انتهت يوم غدير خم، وبدأت إمامة علي.

8 ـ استعراض الناس جميعاً بلا استثناء.

9 ـ إباحة بعض المحظورات.

كان سعد القمي إمامياً من أصحاب الإمام الحادي عشر، وهو أقدم المعروفين من الشيعة ممن صنف في الملل والنحل، وقد جاء من بعده الحسن بن موسى النوبختي، وهو أيضاً شيعي إمامي، خلف لنا «كتاب فرق الشيعة» وقد توفي النوبختي بعد القمي بحوالي عقدين من الزمن، وردد النوبختي ما كتبه القمي من حيث الجوهر، لا بل من حيث العبارات اللهم إلا قوله: «وعددهم كثير إلاّ أنه لا شوكة لهم ولا قوة، وهم بسواد الكوفة واليمن أكثر، ولعلهم أن يكونوا زهاء مائة ألف»[1].

وكان ممن عاصر القمي والنوبختي، وأتى على ذكر القرامطة الإمام أبو الحسن الأشعري (ت 330هـ)، وذلك في كتابه مقالات الاسلاميين، بقوله: والصنف الثامن عشر من الرافضة وهم القرامطة: يزعمون أن النبي ﷺ نص على علي بن أبي طالب، وأن علياً نص على إمامه ابنه الحسن، وأن الحسن بن علي نص على إمامة أخيه الحسين بن علي، وأن الحسين بن علي نص على إمامة ابنه علي بن الحسين، وأن علي بن الحسين نص على إمامة ابنه محمد بن علي، ونص محمد بن علي على إمامة ابنه جعفر، ونص جعفر على إمامة ابن ابنه محمد بن اسماعيل، وزعموا أن محمد بن اسماعيل حي إلى اليوم لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض، وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به، واحتجوا في ذلك بأخبار رووها عن أسلافهم يخبرون فيها أن سابع الأئمة قائمهم»[2].

الاتفاق بين هذه المصادر واضح تمام الوضوح، ونلتفت الآن إلى كتاب «شجرة اليقين» للداعي القرمطي عبدان الذي سنتعرض إلى شخصيته بعد قليل، ونقرأ في كتابه قوله:

---

(1) فرق الشيعة: 61 ـ 64.

(2) مقالات الإسلاميين: 1/ 98.

«.... وصلى الله على سيدنا محمد الغفور الودود، وعلى وصيه أمير المؤمنين صاحب الحوض المورود وعلى ذريتهما الحجج على كل موجود، وعلى القائم بالأمر، صاحب الزمان والعصور... وأن كل من ينظر في هذه الآيات الموجودة في الآفاق والأنفس والدلالات الباطنة فيها، ولا يطلب حقائقها وتأويلاتها من أرباب الدين وأصحاب اليقين، فيكون من الأبالسة والشياطين».

ويستعرض عبدان إثر هذا ما جاء به الأنبياء ذوو العزم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام ليخلص إلى الحديث عن شخصية القائم فيقول: «وأما القائم سلام الله عليه فهو صاحب التأويل الذي يجمع به جميع شرائع النطقاء وأعمالهم، وهو صاحب يوم الكشف الذي ذكره الله عز وجل في كتابه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾[1]، وأوقف عبدان جل مواد كتابه على التأويل الباطني للبرهنة على القيامة والقائم معتمداً في عمله على النظام السبعي فاسمعه يقول: «القائم محصول جميع الإنس... وآخر النطقاء السبعة الذي يتم به الكور العظيم»، وقد أشار أثناء عرضه أكثر من مرة إلى الإمام الاسماعيلي أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وذلك تحت اسم «الحكيم الصادق»[2] ونقل بعض أقواله كما وردت في كتاب اسمه «المحصول»، ومن المعروف أن تصنيف هذا الكتاب منسوب إلى الإمام، كما ينسب إليه تصنيف رسائل إخوان الصفا في مرحلة السلمية من دور الستر[3].

ونستخلص مما قلناه من كتاب عبدان، ومن مجمل متن الكتاب أنه كان من كبار دعاة الاسماعيلية، وأكثرهم تمكناً من علم التأويل الباطني، اعتمد النظام السبعي وآمن بفكرة القائم والقيامة، وكان على معرفة باللغة الفارسية، كما كان يفهم لغة «نبط العراق» أي الآرامية[4]، ويتوافق هذا مع ما سلف عرضه وله دلالات أخرى مفيدة.

وننتقل بعد هذا إلى تراث الإسماعيلية وهو تراث غني جداً، نجده يجمع على مسألة القيامة والقائم وغير ذلك مما سلفت الإشارة إليه في الفصل المتقدم وفي سبيل

---

(1) شجرة اليقين: 9-12.

(2) المصدر عينه: 20، وانظر أيضاً: 36، 48، 52، 55، 89، 94، 102، 107.

(3) عيون الأخبار: 4/ 367.

(4) شجرة اليقين: 59، 107.

تتجنب التكرار والإطالة سأكتفي بعرض بعض ما جاء عند القاضي النعمان الذي كان أكبر علماء الاسماعيلية في وقته وبعد وقته، وأكثرهم إنتاجاً، فقد ردد القاضي النعمان ما ورد عند القمي والنوبختي والأشعري وعبدان، في معظم كتبه، وكان من بين ما كتبه النعمان أيام المعز لدين الله الفاطمي وقبل الانتقال إلى مصر رسالة دعاها «الرسالة المُذْهِبَة في الحكمة والتأويل» وقد احتوت هذه الرسالة على عدد من الأسئلة أجاب عنها النعمان، وأتيح لي الوقوف على نسخ ثلاث منها، نسخها متأخر، فيها من التصفيحات والأخطاء والسقط الشيء الكثير، ومع هذا استطعت بعد شيء من الصعوبة ترميم النص وتقويمه وإعداده للنشر، وكان مما قاله القاضي النعمان في رسالته هذه:

«وسألت عن السبب الذي أوجب أن النبي ﷺ كان في بداية أمره يتختم في يمينه، فلما كان أوان نقلته [أي وفاته] حوّل خاتمه من يمينه إلى يساره؟.

اعلم أيدك الله إنما سبب تختمه بيمينه في بداية أمره، فإنما ذلك إشارة منه إلى نفسه بتسلم منزلة النبوة والناطق، وقيامه بتبليغ رسالات ربه كما جرى فيمن تقدمه من النطقاء والمرسلين، وأنه لم يزل متختماً بيمينه أيام حياته دليل على العمل بشريعته، وظاهر تنزيله، وإقامة دعوة الظاهر حتى نزل من الله تعالى إليه بنصب أساسه ووصيه، فبلغ عن الله أمره، ونصب وصيه يوم غدير خم، وأقامه، واستخلفه من بعده، فحول خاتمه من يمينه إلى يساره، وأمر وصيّه علياً عليه السلام أن يتختم باليمين ولا يحوله إلى شماله، فكان ذلك إشارة منه بتسليم المنزلة إلى وصيّه، فكان الوصي يتختم باليمين دليلاً على ما قد صار إليه، وتختم الرسول بالشمال دليل على انقطاع المواد عنه بتسليمه الأمر إلى وصيه».

وقال في مكان آخر متحدثاً عن النبي ﷺ: «فالذي له اثنتا عشرة امرأة مضى على تسع نسوة وسقط منهن ثلاث، وقد تروي عامة الشيعة[1] أنه رد طلاق نسائه بيد علي عليه

---

(1) هذا صحيح، فقد روى ابن الأعثم الكوفي في كتابه الفتوح أخبار معركة الجمل ونتائجها، وذكر أموراً لا نجدها إلا عنده، ذلك أنه كان شيعياً من الأوائل، فبعد ما وصف وقوع السيدة عائشة بالأسر تحدث عن محادثات جرت بينها وبين ابن عباس، ثم مع علي بن أبي طالب ثم قال: بعث علي «إليها بابنه الحسن، فقال لها: يقول لك أمير المؤمنين: أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن لم ترحلي الساعة لأبعثن عليك بما تعلمين، قال: وعائشة في وقتها ذلك قد ضفرت قرنها الأيمن وهي تريد أن تضفر الأيسر، فلما قال لها الحسن ما قال وثبت من ساعتها وقالت: رحلوني، فقالت لها امرأة من =

السلام، وذلك أنه لما أمر بالتسليم إليه فوض إليه أمر حججه ونقبائه، فله أن يطلق منهن من يشاء وينصب من شاء».

وسلف القول في الفصل السالف أن القاضي النعمان قد ذكر شخصية القائم حيث تحدث عنه على الأساس السبعي، وبين أكثر من مرة أنه «سابع سبعة من آدم، ودوره آخر الأدوار»، كما وأشار إلى أنه من الأنبياء ذوي العزم يأتي بما يلغي كل الشرائع المتقدمة، ويعلن الجهاد على معاندته، وعلى ضوء هذا الأمر سيمكننا فهم ما أقدم عليه قرامطة الإحساء والبحرين من استعراض لخصومهم، وإغارات على قوافل الحجاج بلغت الذروة في مهاجمة مكة سنة 317هـ/ 929م، وقتل الحجاج واقتلاع الحجر الأسود من الكعبة.

فلقد أراد القرامطة ما أرادته الدعوة الاسماعيلية: إيقاف الحج بشكل نهائي بوساطة مهاجمة قوافل الحجيج، وقطع طرق الحج، لكن عندما أخفقت هذه الخطة هاجم أبو طاهر القرمطي مكة في أيام الموسم، فقد قتل الحجيج واقتلع الحجر الأسود لأن القرامطة اعتقدوا أنه مغناطيس القلوب «يجذب الناس إليه من أطراف العالم»[1].

إن الحج هو شعيرة تميز بها الإسلام، وهي الشعيرة الوحيدة التي تعلن بشكل عالمي ظاهري عن استمرارية الإسلام، والعمل بمبادئه أممياً، فالصلاة، ودفع الزكاة، وصوم رمضان، مع التلفظ بالشهادتين شعائر، يمكن أن تمارس بشكل فردي أو سري، لكن الحج لا يمارس إلاّ في بقعة محددة وبصورة علنية، واستمرار الحج معناه إخفاق العمل في سبيل إعلان القيامة، ونجاحها في تعطيل الشريعة، وإحلال دين الكشف الذي سيأتي به القائم محلها.

= المهالبة: يا أم المؤمنين جاءك عبد الله بن عباس فسمعناك وأنت تجاويينه حتى علا صوتك ثم خرج من عندك وهو مغضب، ثم جاءك الآن هذا الغلام برسالة أبيه فأقلقك، وقد كان أبوه جاءك فلم نر منك هذا القلق والجزع، فقالت عائشة: إنما أقلقني لأنه ابن بنت رسول الله ﷺ، فمن أحب أن ينظر إلى رسول الله ﷺ فلينظر إلى هذا الغلام، وبعد فقد بعث إلي أبوه بما قد علمت ولا بد من الرحيل، فقالت لها المرأة: سألتك بالله وبمحمد ﷺ ألا أخبرتني بماذا بعث إليك علي ـ رضي الله عنه ـ فقالت عائشة: ويحك إن رسول الله ﷺ... قال: يا علي إني قد جعلت طلاقهن (أزواج النبي) إليك، فمن طلقتها منهن فهي بائنة، ولم يوقت النبي ﷺ في ذلك وقتاً في حياة ولا موت، فهي تلك الكلمة». الفتوح مخطوطة استانبول: 1/ 43 وظ.

(1) أخبار القرامطة: 197.

وبعدما فرغنا من إثبات أن القرامطة كانوا بالأصل فرعاً من فروع الاسماعيلية يغدو بديهياً أن نشأتهم مرتبطة بنشأة الاسماعيلية وتطورها، ومع ذلك لابد من سؤال حول التاريخ الذي ظهرت به كلمة «قرامطة»، وعن معناها والمقصود منها، وعن البلد الذي شهد أول تنظيمات القرامطة وتحركاتهم.

وقبل معالجة هذه القضايا لابد من أن نضع بالحسبان أن المؤرخ المسلم رصد لدى تدوينه لأخباره، الحركات لا عندما بدأت، ولكن عندما كانت تصطدم بالأنظمة الحاكمة القائمة، أو عندما كانت الحركات تتحول إلى مؤسسات سياسية، ففي كتب السيرة النبوية نلاحظ وضوحاً في أخبار المرحلة المدنية ودقة، لا نجدها في أخبار المرحلة المكية السالفة، فقد عمد رواة السيرة إلى البحث في المدينة عما سلف منذ زمن، فوجدوا أنفسهم في شح من الروايات وفي بحر من الخيال والتمازج والاختلاط، وقد تكرر هذا الحال دائماً، ولهذا تختلف الروايات حول بداية ظهور القرامطة ومعنى تسميتهم.

ولقد أكثر الأوائل والمعاصرون البحث في هذه القضية، لكن عجزوا عن الوصول إلى رأي حاسم حولها، ومثل هذا ليس بغريب في التاريخ العام والخاص، فهناك أسماء كثيرة ذات شهرة واسعة لا نعرف شيئاً مؤكداً عن أصلها، مثل دمشق، وسورية، وغير ذلك، وعلى صعيد الحركات الاسماعيلية المتأخرة ينطبق هذا الحال على كلمتي «قرامطة» و«حشيشية»، ومع هذا سنحاول أن ندلي بدلونا في هذه المسألة عارضين أولاً لأهم الآراء والروايات حول هذا الموضوع، ثم محاولين بعد ذلك الوصول إلى نتيجة ما: نقرأ في لسان العرب:

قرم: القَرَم بالتحريك: شدة الشهوة إلى اللحم. . .

قرمد: القَرْمَد كل ما طلي به. . . وقيل القرمد والقرميد حجارة لها خروق يوقد عليها، حتى إذا نضجت بني بها، قال ابن دريد: هو رومي تكلمت به العرب قديماً. . . قال: القراميد في كلام أهل الشام آجر الحمامات، وقيل: هي بالرومية قرميدي. . .

قرمط: القَرْمَطيط المتقارب الخطو، وقرمط في خطوه إذا قارب ما بين قدميه. . والقرمطة المقاربة بين الشيئين، والقُرْمُوط زهر الغضا وهو أحمر. . . والقرمطة في الخط دقة الكتابة وتداني الحروف. . . والقرامطة: جيل واحدهم قَرْمَطي[1].

---

(1) لسان العرب المحيط «مادة قرم». انظر المادة ذاتها في تاج العروس حيث التطابق كاملاً.

ونقرأ في بعض كتب الملل والنحل:

قال سعد القمي: «القرامطة: سميت بذلك لرئيس كان لهم من أهل السواد من الأنباط كان يلقب بقرمطويه»[1].

وقال النوبختي: القرامطة: وإنما سميت بهذا برئيس لهم من أهل السواد من الأنباط كان يلقب قرموطوية»[2].

وقال البغدادي في الفرق بين الفرق: «ثم ظهر.. رجل يقال له حمدان قرمط لقب بذلك لقرمطة في خطه أو في خطوه، وكان في ابتداء أمره أكاراً من أكرة سواد الكوفة، وإليه تنسب القرامطة»[3].

وقال الديلمي في بيان مذهب الباطنية وبطلانه: «وأما لقبهم بالقرامطة فلانتسابهم إلى رجل يقال له حمدان قرمط من أهل الكوفة، وهو أحد دعاتهم في الابتداء، فلما استجاب له ناس سموا قرامطة وقرمطية»[4].

وكتب الإمام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية:

«وأما القرامطة فإنما لقبوا بها نسبة إلى رجل يقال له حمدان قرمط، كان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب له في دعوته رجال، فسموا قرامطة وقرمطية، وكان المسمى حمدان قرمط رجلاً من أهل الكوفة مائلاً إلى الزهد، فصادفه أحد دعاة الباطنية في طريق وهو متوجه إلى قريته وبين يديه بقر يسوقها، فقال حمدان لذلك الداعي، وهو لا يعرف حاله: أراك سافرت من موضع بعيد، فأين مقصدك؟ فذكر موضعاً هو قرية حمدان، فقال له حمدان: اركب بقرة من هذه البقر لتستريح من تعب المشي، فلما رآه مائلاً إلى الزهد والديانة أتاه من حيث رآه مائلاً إليه، فقال: إني لم أومر بذلك، فقال حمدان: وكأنك لا تعمل إلا بأمر؟ قال: نعم، قال حمدان: وبأمر من تعمل؟ فقال الداعي: بأمر مالكي ومالكك، ومن له الدنيا والآخر، فقال حمدان: ذلك إذن هو رب العالمين، فقال الداعي: صدقت، ولكن الله يهب ملكه لمن يشاء، قال حمدان: وما

---

(1) المقالات والفرق: 83.

(2) فرق الشيعة: 61.

(3) الفرق بين الفرق: 266 ـ 276.

(4) بيان مذهب الباطنية: 22.

غرضك في البقعة التي أنت متوجه إليها؟ قال: أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملكهم ما يستغنون به عن الكد والتعب، فقال له حمدان: أنقذني أنقذك الله، وأفض علي من العلم ما يحييني به، فما أشد احتياجي إلى مثل ما ذكرته، فقال الداعي: وما أمرت بأن أخرج السر المخزون لكل أحد إلاّ بعد الثقة به والعهد عليه، فقال حمدان: وما عهدك فاذكره لي، فإني ملتزم له، فقال الداعي: أن تجعل لي وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه أن لا يخرج سر الإمام الذي ألقيه إليك، ولا تفشي سري أيضاً.

فالتزم حمدان سره، ثم اندفع الداعي في تعليمه فنون جهله حتى استدرجه واستغواه واستجاب له في جميع ما دعاه، ثم انتدب حمدان للدعوة، وصار أصلاً من أصول هذه الدعوة، فسمي أتباعه القرمطية»[1].

وجاء في كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل: «ومات عبد الله (بن ميمون القداح) فأوصى إلى ابنه، فخرج إلى العراق وصحبه رجل يقال له قرمط، فأجابه ومن ثم سموا قرامطة، ودعا قرمط أهل قريته فأجابوه، فلما مات قرمط خلفه تلميذ له يسمى حمدان قرمط، وممن أعانهم ودعا إلى ملتهم عبدان داعية العراق، وخليفته عيسى بن موسى، ولعبدان كتب، ومن دعاتهم زكرويه بن مهرويه، أخذ العلم عن حمدان قرمط»[2].

ونلتفت إلى المصادر التاريخية وتاريخ الطبري أقدمها، وفيه جاء في حوادث سنة 278 هـ: «وفيها وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة، ومقامه. . . يظهر الزهد والتقشف» ثم تحدث على عمله في القرية ودعوته أهلها وإقامته لدى واحد من سكانها «أحمر العينين شديدة حمرتها، وكان أهل القرية يسمونه كرميته لحمرة عينيه، وهو بالنبطية أحمر العينين» ثم تحدث عن ذهاب هذا الداعية إلى الشام وأنه «سمي باسم الرجل الذي كان في منزله. . كرميته ثم خفف فقالوا: قرمط».

وكانت السلطات العباسية قد ألقت القبض على عدد من القرامطة وحملتهم إلى سجون بغداد، وقد كان من بين الذين حققوا معهم محمد بن داود الجراح، وقد

---

(1) فضائح الباطنية: 12 ـ 15.

(2) المنية والأمل في شرح الملل والنحل تأليف أحمد بن يحيى بن المرتضى: 98.

«ذكر عن محمد بن داود أنه قال: قرمط رجل من سواد الكوفة، كان يحمل غلات السواد على أثوار له، يسمى حمدان، ويلقب بقرمط، ثم فشا أمر القرامطة ومذهبهم وكثروا بسواد الكوفة»[1].

لقد اعتمدت مصادر تاريخ العرب والإسلام بعد الطبري روايته الأولى وأهملت ما عداها ومن أجمع الروايات وأفضلها ما ذكره ابن الجوزي في كتابه المنتظم حيث قال: «وأما تسميتهم بالقرامطة ففي سبب ذلك ستة أقوال:

أحدها: أنهم سموا بالقرامطة لأن أول من أشير لهم بتلك الجهة محمد الوراق المقرمط، وكان كوفياً.

والثاني: أن لهم رئيساً من السواد من الأنباط يلقب بقرمطويه، فنسبوا إليه.

والثالث: أن قرمطاً كان غلاماً لاسماعيل بن جعفر، فنسبوا إليه، لأنه أحدث لهم مقالاتهم.

والرابع: أن بعض دعاتهم نزل برجل يقال له كرميته، فلما رحل تسمى قرمط بن الأشعث، ثم أدخله في مذهبه.

الخامس: أن بعض دعاتهم رجل يقال له كرميته، فلما رحل تسمى باسم ذلك الرجل، ثم خفف الاسم فقيل قرمط...

السادس: أنهم لقبوا بهذا نسبة إلى رجل من دعاتهم يقال له حمدان بن قرمط، وكان حمدان من أهل الكوفة يميل إلى الزهد، فصادفه أحد دعاة الباطنية في طريقه. فاستدرجه واستغواه، واستجاب له في جميع ما دعاه إليه، ثم انتدب للدعوة، وصار أصلاً من أصول هذه البدعة، فسمي أتباعه القرمطية[2].

ولا يقل مكانة عن رواية ابن الجوزي ما ذكره مؤرخ حلب الكبير الصاحب كمال الدين ابن العديم في كتابه (بغية الطلب) في ترجمة صاحب الخال كبير زعماء قرامطة الشام حيث قال: «وإنما سموا القرامطة: لأنهم زعموا أنهم يدعون إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر بن علي، ونسبوا إلى قرمط، وهو حمدان بن الأشعث، كان بسواد

---

(1) تاريخ الطبري: 10/ 23-25. انظر أيضاً العيون والحدائق: 4/ 68-69، حيث أورد الرواية نفسها.

(2) أخبار القرامطة: 257-260.

الكوفة، وإنما سمي قرمطاً لأنه كان رجلاً قصيراً، وكانت رجلاه قصيرتين، وكان خطوه متقاربا، فسمي لهذا السبب قرمطاً . . . وذكر بعض العلماء أن لفظة قرامطة، إنما هي نسبة إلى مذهب يقال له القرمطة خارج عن مذاهب الإسلام، فيكون على هذه المقالة عزوة إلى مذهب باطل لا إلى رجل»[1].

لدى عودتنا إلى هذه المواد نلاحظ:

1 ـ المعاجم اللغوية العربية لا تسعفنا بشيء.

2 ـ ظهر القرامطة للمرة الأولى في سواد الكوفة.

3 ـ الوسط الذي ظهر فيه القرامطة كان وسطاً فلاحياً لغة أهله النبطية أي الآرامية.

4 ـ قرمط كان لقباً حمله أحد الدعاة واسمه حمدان بن الأشعث.

5 ـ القرمطة مذهب «خارج عن مذاهب الإسلام».

ونتيجة لهذا يتوجب على الباحث أن يجعل منطقة بحثه، وقاعدة انطلاقه الأولى منطقة سواد الكوفة.

الكوفة مدينة تأسست في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أيام الفتوحات الكبرى، وهي عاصمة علي بن أبي طالب، وقد تميزت دوماً بطابعها الشيعي وكانت لهذا مركزاً للنشاط الدعوي الشيعي، لذلك لا غرابة إذا وقع اختيار دعاة الاسماعيلية على سوادها، وتمركزوا فيه دون سواه للتفجير العسكري، متذكرين في الوقت نفسه ثورة الزنج ونشاطاتها في سواد البصرة في تلك الأثناء.

كانت منطقة الكوفة ذات خلفيات حضارية وعقائدية غنية جداً، عرفت ديانات بابل القديمة، كما شهدت تفاعل هذه الديانات مع العقائد الإيرانية ومع عقائد أعالي بلاد الرافدين والأجزاء الشمالية من الشام، وهذا ما نتلمسه في عقائد جميع الفرق التي ظهرت هناك، لقد كان في منطقة الكوفة في العصر العباسي وبعده بقايا أتباع الديانة المانوية (الزندقة)، وأهم منهم وأشهر أتباع المندعية الذين يعرفون باسم صابئة العراق، والذين ما تزال بقاياهم في العراق حتى يومنا هذا، ولقد اعتاد سكان سواد الكوفة على التنظيمات

(1) أخبار القرامطة: 277.

الدينية خاصة السرية منها، كما اعتادوا على الأدب الديني المدون، سيما الذي حوى علوم الباطن (الغنطوسية)[1] وما تعلق بشخصية المُخلِّص (المهدي) والفداء.

ومع اعتماد هذه المعرفة والاستفادة منها يتوجب علينا العودة إلى اللغة الآرامية وهنا يترجح لدينا أن كلمة قرمط مشتقة من عبارة «قرم» الآرامية أو السريانية، فهي تعني أخفى وغطى ستر، وبذلك تقابل كلمة (باطنية)، وما تزال هذه العبارة تعني في السورية الدارجة «جذر» ويقابلها في سريانية معلولا «كرموتية» ولنتذكر أن القرامطة كانوا منتسبين إلى حزب عقائدي، ولم يشكلوا قط قبيلة، ولم ينتسبوا إلى جد أعلى اسمه قرمط انحدروا منه، هذا ما نراه الآن ونقدره، لكن المؤرخ المسلم اعتاد أن ينسب الطوائف والجماعات حسب قواعد علم النسب لا عقائدياً، فقد غلبت تسمية اسماعيلية ـ نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ـ على باطنية وتعليمية وسبعية وسواها.

ليس في التاريخ قرار حاسم أو رأي لا رجعة عنه، والآراء قائمة على الاجتهاد وباب الاجتهاد التاريخي مفتوح دائماً. والآن: وبعد أن فرغنا من قضية التسمية فنلتفت نحو معرفة تاريخ ظهور هذه التسمية.

يرتبط هذا الظهور ببداية الدعوة في سواد الكوفة، وأقدم تاريخ قدمه المؤرخون هو «سنة إحدى وستين ومائتين» حسبما جاء عند النديم في فهرسة[2]، لكن إذا تذكرنا أن النشاط الاسماعيلي قد شهدته مناطق الكوفة قبل ما لا يقل عن قرن من هذا التاريخ، يمكننا أن نتصور أن كلمة قرمطي قد استخدمت منذ تاريخ أبكر من سنة 261هـ، ففي أثناء عملي في كتاب الكامل في الضعفاء لابن عدي مرّ معي في ترجمة عاصم بن عمر بن حفص بن عاصم الإسناد التالي: «ثنا صاعد، ثنا محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المعروف بالقرمطي بالمدينة سنة خمس وأربعين ومائتين»[3].

---

(1) انظر كتابي ماني والمانوية: 18 ـ 38. وينصح القارئ الكريم بالعودة إلى كتاب «الصائبة المندائيون» تأليف الليدي دراوور ـ ترجمة عربية ـ ط بغداد: 1969.

(2) الفهرس ـ ط. طهران: 238.

(3) الكامل ـ مخطوطة الظاهرية ـ ص609.

وقبل الانتقال نحو الحديث عن قرامطة العراق ثم قرامطة الشام، فقرامطة اليمن، وأخيراً - لكن ليس آخراً - قرامطة الإحساء والبحرين لابد من سؤال: لماذا القرامطة وحدهم كفرع من فروع الاسماعيلية - أخذوا بمبدأ استعراض الناس؟.

من الصعب إعطاء جواب مقنع موثق لهذا السؤال، إنما إذا تذكرنا ما سلف تقريره في أن الاسماعيلية لم تكن حركة واحدة بل حركات، وأنه كما حصل في تاريخ التشيع العام، حين انضوى العديد من الحركات المناوئة والمعارضة تحت لواء التشيع، عن إيمان واجتهادات ومطالب مختلفة أو للتمويه، حصل الشيء ذاته في الاسماعيلية، إذا تذكرنا هذا سهل علينا الجواب.

لربما وجد عدد لابأس به من الحركات المطالبة بالعدالة، وذات الفكر «الراديكالي» القريب من الفكر الاسماعيلي، ولشهرة الاسماعيلية وضخامة إمكاناتها انضووا تحت لوائها، وليس من المستبعد أيضاً أن الإسماعيلية أرادت تجربة العمل العسكري المحدود، إنما البالغ الشدة، لتدرس ردات الفعل، أو لتشغل خصومها، في سبيل النجاح التام في مكان آخر، واعتماد مثل هذه الطرائق أمر معقول لكن لا يمكن ضبط نتائجه، فهو قد يقود إلى التمزق، وبالتالي التمرد على القيادة وعدم الاعتراف بشرعيتها، واتهامها بالخروج على المبادئ والعقيدة، وهذا ما حصل بالفعل في تاريخ العلاقات الاسماعيلية القرمطية، وأخيراً يجب ألا ننسى أن الحزب الواحد قد يتمزق، ويرمي أفراده بعضهم بعضاً بأقسى التهم وأشنعها، وقد يحدث مثل هذا أثناء الإعداد للثورة، ثم يتطور بعد الوصول إلى السلطة، فالملك عقوق عقيم، والإنسان في السلطة هو غيره في الواقع النظري، ومقتضيات السياسة تتباين عن مقتضيات المبادئ والمثل، وها نحن الآن في أيامنا قد عشنا صورة الصراعات بين الأنظمة العربية، وصورة الأحزاب الشيوعية في العالم، وكنا نسمع كل يوم أخبار ما يجري بين العملاقين الشيوعيين الأعظمين: الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية - أو لم يعتقد كل منهما أن الخطر المحدق به كان آت من قبل رفاقه؟ أو لم يقم تفاهم متبادل بين الصين الشيوعية من جهة، وأمريكا الرأسمالية من جهة ثانية، للوقوف ضد الاتحاد السوفييتي.

2 - قرامطة العراق:

مرَّ تاريخ قرامطة العراق بمرحلتين رئيستين كان بينهما توقف حدث خلاله نشاط قرامطة الشام، والحديث عن قرامطة العراق يجب أن يتقدمه أولاً وصف لأوضاع العراق،

وبما أن العراق كان دار الخلافة العباسية ومقرها، فالحديث سيتناول أوضاع الخلافة العباسية أولاً ومن ثم أوضاع العراق.

لقد جرى شيء من هذا القبيل فيما مضى، لكن ما تقدم لا يكفي، لهذا نعاود البحث للإيضاح مع تجنب التكرار:

وصل العباسيون إلى السلطة نتيجة ثورة جرى الإعداد لها بشكل منظم، ومرت الدعوة بمرحلتين أساسيتين: ما قبل إبراهيم الإمام، ثم ما جاء إثر ذلك، فقد كان قوام الدعوة قبل إبراهيم الإمام: الدعاة وبيت الإمامة، ونشط الدعاة في خراسان وانتمى غالبتهم إلى طائفة دهاقين إيران وخراسان، واستقر بيت الإمامة في الحميمة على مقربة من البحر الميت في الشام، وعمد إبراهيم الإمام لدى تسلمه القيادة إلى تكليف أبي مسلم الخراساني بالذهاب إلى خراسان ليتولى التفجير العسكري وقيادة قوات الثورة، وكان من معاني هذا التكليف أن الدعوة العباسية باتت الآن قائمة على ثلاثة مرتكزات هي: الإمامة، والدعاة، وجيش الثورة، ولنتذكر في هذا المقام أن العمل الدعوي تقدم على تولي العباسيين له كقادة، وأن الجيش ولد بمبادرة من الإمامة لا من الدعاة، وأعلنت الثورة وحققت انتصاراتها الكبرى دون أن يكون للإمامة أي دور يذكر، بل قام بمسؤولية العمل جيش الثورة بقيادة أبي مسلم الخراساني، والدعاة بقيادة داعي الدعاة أبي سلمة الخلال، وإثر الاستيلاء على الكوفة أطلق أبو سلمة الخلال على نفسه لقب وزير آل محمد، وهكذا ولدت مؤسسة جديدة في تاريخ الإسلام هي مؤسسة الوزارة، وباشر الخلال السلطة بكل حدودها ومعانيها، ولدى شعوره بضرورة الإعلان عن اسم خليفة جديد، وجد نفسه في حل من الارتباط بالعباسيين، لعدم إسهامهم بالثورة، وعرض منصب الخلافة على زعيمي بيتي الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، فلم يحصل نتيجة، وكان للجيش رأي آخر في الموضوع، لهذا ضغط على أبي سلمة لمبايعة واحد من إخوة إبراهيم الإمام الذين التجؤوا إثر مقتله إلى الكوفة، وأذعن الخلال وهكذا بويع لأبي العباس السفاح.

ولم يغفر العباسيون للخلال ما أقدم عليه، وأرادوا منذ اللحظة الأولى أن يباشروا الحكم بأنفسهم، مما عنى تجريد الخلال والدعاة من صلاحياتهم ولم يكن من السهل الوصول إلى هذا سلماً، فسافر أبو جعفر المنصور أخو الخليفة إلى خراسان

واجتمع بأبي مسلم الخراساني وبحث الأمر معه، فتقرر إحداث انقلاب ضد الدعوة والدعاة (الحزب) وبعث أبو مسلم بعدد من جنوده إلى الكوفة فأقدموا على قتل الخلال في وضح النهار، وهكذا تمكن الخليفة العباسي من مباشرة السلطة، لكنه وجد نفسه مضطراً إلى اختيار وزير، وطبعاً جاء الاختيار من بين شخصيات الدعاة، ومن جديد حاول الوزير الانفراد بالسلطة، فقام صراع مع الخلافة، ومن يستعرض تاريخ بني العباس في قرنه الأول يلاحظ أن غالبية الوزراء جرى قتلهم في ذروة القوة والسيطرة، وأكبر مثل على هذا مصرع البرامكة، وخلاصة الأمر أن الحكم في الخلافة العباسية وإن اعتمد على ثلاث مؤسسات هي: الخلافة، والوزارة، والجيش، لم تحكم الخلافة فيه من خلال التوازن والتنافس والصراع بين المؤسستين: المدنية والعسكرية، بل شذت عن القاعدة، وقام الحكم على الصراع بين الإمامة والوزارة، أي بين مؤسستين مدنيتين، وطبعاً كان الجيش هو المستفيد، ونظراً للسياسة الدينية التي اعتمدها العباسيون، ولادعائهم أنهم جمعوا بين الخلافة والإمامة، فإن الجيش استفاد على حساب الوزارة والخلافة، لكن دون المساس بجوهر الإمامة، وسعى الجيش إلى التدخل بالسلطة، ووضح هذا المسعى في أواخر عصر المعتصم وفي أيام خليفته الواثق، وحاول المتوكل الذي جاء بعد الواثق التخلص من سلطان الجيش، فتخلص الجيش منه وقتله سنة [247هـ/ 861م] واستولى على مقاليد الأمور(1).

---

(1) أخبار العباس: 160-276. الفتوح: 2/ 218 و-288. والطبري: 7/ 49-51، 353-457. تاريخ الموصل: 106-167. تاريخ خليفة: 564-608. الأخبار الطوال: 360-370. اليعقوبي: 338-349. مروج الذهب: 3/ 252-266. مسائل الإمامة للناشئ الأكبر: 26-36. تاريخ الخلفاء: 475-597. العيون والحدائق: 3/ 157-213. الكامل: 4/ 200-330. الفخري: 113-120. ابن كثير: 10/ 25-55. السيوطي: 254-259. الذهب المسبوك: 48-59. ابن العبري: 117-120. ابن خلدون: 3/ 251-279. فلهوزن: 455-528. العرب في التاريخ: 113. دولة بني العباس: 1/ 91-189.

Combridge Medieval History, IV, 636 641.

أوقف عدد من الباحثين المعاصرين أطروحاتهم لمعالجة الثورة العباسية، من هؤلاء:

M.A. Shaban الذي كتب بالإنكليزية كتاباً دعاه (الخلافة العباسية) The Abbasid Caliphate 750-786 ولم يعالج شعبان في هذا الكتاب مسألة الثورة والإعداد لها، بل أوقف كتابه على دراسة أحوال خراسان في العصر الأموي. وقام فاروق عمر بدراسة الثورة العباسية =

على هذا مر التاريخ العباسي بطورين رئيسين: طور أول، حكم فيه الخلفاء، وطور ثان حكم فيه الجند، وبعدما تدخل الجند بالسياسة واستلموا مقاليد الأمور دخلت السياسة إلى الجيش، وتغلغلت بين صفوف الجند، وحدث أن تضخم الجيش، وضم عدداً من الأسلحة من: مشاة، وفرسان نبالة، وفرسان حملة رماح، ومشاة رماة وحملة رماح، وجاء رجال كل سلاح من هذه الأسلحة من إحدى أمم الدولة، ولذلك كان ما حدث بعدما استلم الجند مقاليد السلطة أن قام صراع بين فئات الجيش، وغذى هذا الصراع رجال السياسة والمطامح وعناصر الأسلحة، لذلك تميز طور تحكم الجند بعدم الاستقرار، وكثرة الفتن، وتبديل الخلفاء، مما كان له أبعد الآثار على بنية الدولة داخلياً وخارجياً من كافة الجوانب.

وكانت الخلافة العباسية منذ يوم قيامها قد أخفقت في المحافظة على وحدة ديار المسلمين، والسيطرة على جميع ما كان تابعاً للدولة الأموية، وعانت هذه الخلافة حتى في طور حكم الخلفاء من النزعات الاستقلالية والثورات الانفصالية، وهكذا رأينا ظهور دولة الأغالبة في إفريقية، ودولة الأدارسة، والدولة الرستمية، ودولة سجلماسة في المغربين الأوسط والأقصى، وظهور الدولة الطاهرية في خراسان، وقويت النزعات الاستقلالية بعد تحكم الجند بالخلافة، وظهرت إلى الوجود أسر وقوى محلية استقلت بالأطراف، ثم توسعت نحو الداخل، كما أن بعض قادة الترك الذين أخفقوا في بغداد اتجهوا نحو مصر من الأمصار للاستقلال به، وهكذا تقلصت مع الأيام رقعة دولة الخلافة حتى باتت مقتصرة على العراق، أو أجزاء منه فقط، وكان من معاني ذلك تناقص موارد الخلافة بشكل شديد جداً، وترافق هذا التناقص مع ازدياد الطلب على المال لنفقات دار الخلافة، وأهم من هذا لشراء المزيد من الغلمان الترك لسد حاجة الجيش، وللإنفاق على كبار القادة والموظفين، ولسداد نفقات الانقلابات، وقد قاد عدم الاستقرار إلى تدمير الموارد، وعندما حدث هذا كله كانت بلاد العراق تجتاز مرحلة اقتصادية «زراعية وحرفية وتجارية» متميزة، فالأموال كانت قد تكدست في بعض البيوتات، والأراضي الزراعية

= بأطروحته التي دعاها The Abbasid Caliphate 750 - 786. ثم قام بعد ذلك بإعادة كتابة هذه الأطروحة مع شيء من التوسع في كتب ثلاثة دعاها: طبيعة الدعوة العباسية، والعباسيون الأوائل، وقد جاء الأخير في مجلدين.

آلت ملكيتها إلى كبار من الملاك، وبالنظر إلى حاجة السلطة الدائم إلى المال لجأت إلى زيادة الضرائب لا بل مضاعفتها، ولجأت في كثير من الأحيان إثر كل انقلاب، أو تغير سياسي إلى أعمال المصادرة والتصفية، وأهم من هذا، تحالف كبار التجار وملاك الأراضي مع قادة الجند ورجال السلطة، وأمدوهم بالمال، لكن بعدما سخروا وسائط وطاقات الدولة لحسابهم ولمنفعتهم، وهكذا لحق البلاء ونزل الظلم بالفلاحين والحرفيين، وهرب كثير من الفلاحين من قراهم، وأقبل كبار الملاك على استخدام الرقيق الأسود من زنوج أفريقيا وزنوج (زط) الهند في مزارعهم خاصة في منطقة البصرة، وأراضي المستنقعات في جنوبي العراق.

وعاش هؤلاء الرقيق في حالات متردية وقاسية جداً، وهكذا توفرت بين صفوفهم أجواء الاستعداد الثوري والتمرد على السلطات، فتوجهت أنظار الحركات المعارضة نحوهم تحاول استغلالهم حاملة إليهم برامج إصلاحية اقتصادية واجتماعية، واتسمت هذه الحركات بالسمة الشيعية المزيجة أو شبه الواضحة، كما سنرى بالنسبة لما حدث في سواد الكوفة، فكان أن قامت ثورة الزنج، وقد تزعم هذه الثورة رجل قيل كان اسمه علي بن محمد، ادعى النسب العلوي وطعن في نسبه، فالطبري يقول أنه كان من عبد القيس القبيلة العربية، وغيره يقول إنه من أصل إيراني، وقد بدأت تحركات صاحب الزنج قبيل عام 254هـ/ 868م، وجرى الإعلان عن الثورة في 26 رمضان سنة 255هـ/ 18 أيلول 869م، وحققت الثورة انتصارات واسعة، واستمرت حتى سنة 270هـ/ 883م، ويلاحظ من أخبار وقائعها أن رجالاتها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم، وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية، الأمر الذي سيفلح فيه بعض القرامطة، يضاف إلى هذا أن أطر الثورة كانت محلية ومحدودة ولم تكن لديها تطلعات شاملة، ومن هنا نفهم رفض صاحب الزنج التنسيق مع الحركة القرمطية حين عرض عليه ذلك، ومع ذلك إن دراسة هذه الثورة[1] تسهل على الباحث تصور ما كان عليه حال الفلاحين والسواد الأعظم من سكان العراق، لا بل سكان معظم بلدان العالم الإسلامي، ويمكن أن نجد

---

(1) تاريخ اليعقوبي: 2/ 507 ـ 551. الطبري: 9/ 431 ـ 661. العيون والحدائق: 4/ 194 ـ 195. الكامل لابن الأثير: 6/ 7 ـ 51.

بعض الصور المعبرة لا في حوادث العنف فقط بل في ثنايا كتب الأدب، وبعض عناوين ومصنفات ذلك العصر، مثل: الفرج بعد الشدة، والمكافأة وحسن العقبى، وغير ذلك، ولعل من أصدق الصور المعبرة عن أحوال الناس قول الشاعر:

تلوم عليَّ ترك الصلاة حليلتي ... فقلت اغربي عن ناظري أنت طالق

فوالله لا صليت لله مفلساً ... يصلي له الشيخ الجليل وفائق

وتاش ويكتاش وكنباش بعده ... ونصر من ملك والشيوخ البطارق

وصاحب جيش المشرقين الذي له ... سراديب مال حشوها متضايق

ولا عجب إن كان نوح مصلياً ... لأن له قسراً تدين المشارق

لماذا أصلي أين باعي ومنزلي ... وأين خيولي والحلى والمناطق

وأين عبيدي كالبدور وجوههم ... وأين جواري الحسان العواتق

أصلي ولا فتر من الأرض يحتوي ... عليه يميني إنني لمنافق

تركت صلاتي للذين ذكرتهم ... فمن عاب فعلي فهو أحمق مائق

بلى إن عليَّ الله وسع لم أزل ... أصلي له ما لاح في الجو بارق

فإن صلاة السيء الحال كلها ... مخارق ليست تحتهن حقائق(1)

امتد عصر تحكم الترك بالخلافة من سنة 247 إلى 334هـ [861/ 946م] وقد تولى الخلافة خلاله اثنا عشر خليفة هم: المنتصر، المستعين، المعتز، المهتدي، المعتمد، المعتضد، المكتفي، المقتدر، القاهر، الراضي، المتقي، المستكفي، والحقبة المميزة في تاريخ هؤلاء الخلفاء، هي التي بدأت مع خلافة المعتمد سنة 256هـ/ 870م حتى نهاية أيام المكتفي سنة 295هـ/ 908م، ويعود الفضل في تميز هذه الحقبة أنه تسلم قيادة الجيش أيام المعتمد أمير عباسي فتحكم هو بالخلافة، وأعاد إليها بعض رونقها، وهذا الأمير هو أبو أحمد الموفق أخو المعتمد، والموفق هو الذي صد عن دار الخلافة القوى الطامعة، وقضى على ثورة الزنج، وفرض ابنه ولياً للعهد، حيث سيلي الخلافة بلقب المعتضد.

وكان المعتضد مثل أبيه، تأثر به وسار على خطاه، وكان قائداً شجاعاً، وإدارياً ناجحاً، حاول إيجاد حلولاً لبعض مشاكل الشعب، وإنهاء التذمر والفوضى

---

(1) يتيمة الدهر: 4/ 175 - 158. المحمدون من الشعراء: 24 - 25.

والاستغلال، وخلفه في سنة 289هـ/ 902م ولده المكتفي، فاقتدى به، لكنه كان يفتقر إلى حزمه وشدته، ولهذا عاد القادة الترك في أيامه إلى التسلط على الخلافة[1].

في حقبة الانتعاش السياسي هذه بدأت حركة قرامطة العراق، في سواد الكوفة، عندما كانت أنظار رجالات العباسيين مشدودة نحو سواد البصرة حيث ثورة الزنج، وتتفق غالبية الروايات على أن أول الدعاة الذين نشطوا في سواد الكوفة كان اسمه الحسين الأهوازي، وأنه أرسل من قبل عبد الله بن ميمون بن القداح، أو من قبل الإمام عبد الله ابن محمد المكتوم، ومن المرجح أنه جاء مرسلاً من السلمية بعد الاستقرار فيها، ومعنى هذا أنه قدم أيام الإمام أحمد ابن وخليفة الإمام عبد الله بن محمد المكتوم، ويستدل مما ذكره الداعي المطلق إدريس القرشي أن الدعوة الإسماعيلية شهدت في عهد الإمام أحمد بن عبد الله هذا، نشاطاً ثقافياً ودعوياً بارزاً حيث قال: «وقويت الدعوة أيام الإمام أحمد بن عبد الله عليه السلام، واشتهرت وأعلن بها الدعاة فظهرت، ولم يعرف صاحبها الذي الدعوة إليه، وإمام أهلها الذين يعولون عليه، والجبابرة العباسية على الأرض متغلبون، وبقطع العترة النبوية مطالبون».

وكان الإمام أحمد بن عبد الله ينتقل تحت الستر والتقية، تارة إلى الكوفة والديلم، وتارة إلى سلمية، وتارة إلى عسكر مكرم (خوزستان) يظهر بزي التجار، ويخفي فضله، فلا يعرفه إلاّ الأخيار»[2]، هذا وسلفت الإشارة في الفصل السالف إلى الداعية القرمطي الكبير عبدان وإلى إشاراته في كتابه «شجرة اليقين» إلى الإمام أحمد باسم «الحكيم الصادق»[3].

وكان أول من قابله الأهوازي في سواد الكوفة حمدان بن الأشعث، ويبدو أن المقابلة لم تأخذ عامل الصدفة كما توحي الروايات المبكرة، ذلك أن حمدان كان كما يقول

---

(1) الطبري: 9/ 438 ـ 667. 10/ 7 ـ 139. اليعقوبي: 2/ 507 ـ 511. مروج الذهب: 4/ 199 ـ 291. العيون والحدائق: 4/ 1 ـ 129. الفخري: 201 ـ 211. الكامل: 5/ 250 ـ 367، 6/ 2 ـ 118. الذهب المسبوك: 233 ـ 237. ابن كثير: 11/ 22 ـ 104. كتاب فاروق عمر الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية: 79 ـ 86.

(2) عيون الأخبار: 4/ 365 ـ 394. أخبار القرامطة: 308.

(3) شجرة اليقين: 28، 55.

الغزالي «مائلاً إلى الزهد والديانة» أي أنه كان لديه الاستعداد والمؤهلات لتحمل العمل الدعوي الاسماعيلي، ودليل آخر على هذا سرعة تقبله لما دعي إليه، وتسلمه العمل الدعوي وقيامه بتنظيم هذا العمل خير قيام وأحسنه، ولهذا كله كان أول من حمل لقب «قرمط» أي «باطني» أو «اسماعيلي».

وأهم ما يثير الانتباه في قيام العمل الدعوي في سواد الكوفة هو الصبغة الاجتماعية والاقتصادية الاصلاحية، وهذا أمر طبيعي، فهو مطلب ذلك العصر، في سبيله قامت ثورة الزنج، إنما كانت هنالك فوارق بين ما طرحه صاحب الزنج وبين ما دعا إليه دعاة الإسماعيلية، كما أن العمل التنظيمي قد تباين لديهما:

روى الإمام الغزالي أن حمدان بن الأشعث سأل الحسين الأهوازي حين التقيا: «وما غرضك في البقعة التي أنت متوجه إليها؟ قال: أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملكهم ما يستغنون به عن الكد والتعب»[1].

وجاءت رواية المقريزي حول الموضوع ذاته: «قال حمدان فما تريد في القرية التي سألتني عنها؟ قال: دفع إليّ جراب فيه علم وسر من أسرار الله، وأمرت أن أشفي هذه القرية، وأغني أهلها، وأستنقذهم، وأملكهم أملاك أصحابهم»[2].

تحتوي كلمات الأهوازي هذه على أفكار الإسماعيلية الأساسية في الدعوة إلى تعلم علوم الباطن، وإلى معرفة الإمام والإيمان به، وذلك بالإضافة إلى فكرة جديدة تضمنت طرحاً اجتماعياً واقتصادياً، وهو ما يهم الباحث في أيامنا هذه.

ونجح الأهوازي في عمله، وقد أثار نشاطه انتباه السلطات المحلية وأصحاب الأراضي، ولعله أودع السجن وفر منه، ويرجح أنه استمر في عمله ونشاطه حتى وفاته، وكان عندما حضرته الوفاة قد «عهد إلى حمدان بن الأشعث قرمط وأقامه مقامه».

ودخلت الدعوة في ظل قيادة حمدان مرحلة جديدة حاسمة، حيث تضاعف عدد الذين آمنوا بدعوته أو التحقوا بها، وذلك بعد ما بث دعاته، وكان من بين هؤلاء الدعاة:

---

(1) فضائح الباطنية: 12 ـ 13. انظر أيضاً الطبري: 10/ 23 ـ 25. أخبار القرامطة: 906.

(2) أخبار القرامطة: 393 ـ 394.

جلندي الرازي، وعكرمة البابلي، واسحق البوراني، ومهرويه بن زكرويه السلماني، وعبدان الأهوازي، وكان عبدان أبرز الدعاة نشاطاً ومكانة، كما وكان أكبرهم وأكثرهم علماً وقد ربطته بحمدان قرمط رابطة المصاهرة[1].

وأقدم قرمط على تنظيم المؤمنين بدعوته تنظيماً اجتماعياً واقتصادياً، وذلك بشكل تدريجي، فقد فرض أولاً على «كل واحد من الرجال والنساء والصبيان» دفع مبلغ درهم، ودعا ذلك باسم «الفطرة» ثم ما لبث أن فرض على البالغين دفع مبلغ دينار، ودعا ذلك باسم «الهجرة» وسارع القرامطة إلى دفع ذلك إليه «وتعاونوا عليه، حتى أن من كان منهم فقيراً أسعفوه»، ثم فرض عليهم دفع سبعة دنانير، ودعا ذلك باسم «البلغة»، وبعد ذلك فرض على كل واحد دفع خُمس دخله، وعندما تحقق له هذا كله بادر إلى اتخاذ خطوة خطيرة وجديدة من نوعها، وذلك بأن أمر بإلغاء الملكية الخاصة، وأحل محلها الملكية الجماعية العامة، ودعا ذلك باسم الألفة «وهي أنهم يجمعون أموالهم في موضع واحد، وأن يكونوا فيه أسوة واحدة لا يفضل أحد من أصحابه على صاحبه، ولا أخيه في ملك يملكه البتة. . وقال لهم: لا حاجة بكم إلى الأموال فإن الأرض بأسرها ستكون لكم دون غيركم. . وأقام في كل قرية رجلاً مختاراً من الثقات، فجمع عنده أموال قريته من: غنم، وبقر، وحلي، ومتاع، وغير ذلك، فكان يكسو عاريهم، وينفق عليهم ما يكفيهم، حتى لم يبق بينهم فقير ولا محتاج، وأخذ كل رجل منهم بالإنكماش في صناعته والكسب بجهده، ليكون له الفضل في رتبته: وجمعت إليه المرأة كسبها من مغزلها، وأدى إليه الصبي أجرة نظارته وحراسته ونحوه، ولم يبق في ملك أحد منهم غير سيفه وسلاحه ولا غير».

لاشك أن هذا الإجراء كان الأول من نوعه في تاريخ الإسلام والمسلمين، وكان حمدان يدرك مخاطره، وردات الفعل ضده اسماعيلياً وعباسياً، ذلك أن الدعاة قبل حمدان كانوا يجمعون الأموال من أتباعهم لترسل إلى الإمام، أما الآن فإنها صرفت في سبيل هؤلاء الأتباع، ويبدو أن خلافاً ما قد حدث بين حمدان والقيادة الاسماعيلية، والدليل على هذا أن حمدان أعلن عن قيامه صغرى، ومثل هذا الإجراء قد حدث في تاريخ القرامطة في اليمن والإحساء، وجاء بمثابة تمرد على القيادة الاسماعيلية كما سنرى،

---

(1) المصدر السالف: 329 ـ 395.

يضاف إلى هذا ما آل إليه أمر حمدان ومعه ختنه الداعي عبدان مجهول بالنسبة لنا، لا تحوي المصادر شيئاً واضحاً أو يقيناً عنه، بل الذي تحويه ـ وهذا ما سنبحثه ـ أخبار قيام صراع بين آل زكرويه بن مهرويه وإمامة السلمية، كما أن هذا الصراع سيقوم مع قرامطة الإحساء والبحرين الذين أسس دعوتهم أبو سعيد الجنابي، وهو من دعاة حمدان وتلاميذ عبدان، وقد نفذ برنامجاً اقتصادياً يشبه الذي سلف وصفه، ومثل هذا البرنامج لم نجده إلا لديهما، فالخلافة الفاطمية عندما قامت سارت على طريق بقية دول الإسلام، لا بل شهرت بكثرة ضرائبها وبسياساتها المالية الثقيلة، المتشددة في الجباية إلى حد العسف.

وفي الوقت نفسه كان حمدان قرمط يدرك أن ردة فعل الخلافة العباسية ستكون ضده عنيفة مثلما كان الحال ضد الزنج، ولهذا ألزم أتباعه منذ عام «ستة وسبعين ومائتين» بشراء السلاح، كما عمل على بناء دار هجرة «في قرية تعرف بمهتماباذ»، «في طسوج الفرات من ضياع السلطان المعروفة بالقاسميات»، وقد حصنت هذه القرية بشكل جيد، حيث بني القرامطة «حولها سوراً منيعاً عرضة ثمانية أذرع، ومن ورائه خندق عظيم، وفرغوا من ذلك في أسرع وقت، وبنو فيها البناء العظيم، وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان»[1] ويرجح أن هذا كان سنة 277هـ/ 890م، فقد ذكر صاحب العيون والحدائق في أخبار هذه السنة أن قوماً قدموا «من الكوفة، ورفعوا إلى السلطان أمر القرامطة، وأنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام، وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ، إلاّ من بايعهم على دينهم»[2]، «فلم يلتفت إليهم ولم يسمع منهم»[3].

لقد مضى على نشاط القرامطة في سواد الكوفة حتى الآن قرابة العقدين من الزمن، والخلافة في بغداد غافلة عن ذلك، غير مهتمة به، إلى حد أنها عندما شكي إليها من هذا النشاط لم تعبأ ولم تصغ للشكوى والشكاة، وهذا الأمر إن بعث على الدهشة فيه دلالة واضحة على أحوال إدارة الخلافة، وعلل المقريزي الأمر فقال: «وكان الذي أعانهم على ذلك تشاغل الخليفة بفتنة الخوارج، وصاحب الزنج بالبصرة، وقصر يد السلطان، وخراب

---

(1) أخبار القرامطة: 332 ـ 333، 397 ـ 398. الفهرس للنديم: 238 ـ 240. قرامطة العراق: 61 ـ 65. القرامطة لدى خويه: 33 ـ 37.

(2) العيون والحدائق: 4/ 1/ 69 ـ 70.

(3) الطبري: 10/ 25. أخبار القرامطة: 9.

العراق، وتركه لتدبيره، وركوب الأعراب واللصوص بعد السبعين ومائتين بالقفر، وتلاف الرجال، وفساد البلدان»[1].

ليس في المصادر المتوفرة ما يشير إلى إقدام السلطات العباسية في بغداد على نشاط حربي ضد حمدان وقرامطته في سواد الكوفة، بل الذي نلاحظه إهمال لأخبارهم وتركيز للانتباه على ظهور قرامطة الإحساء والبحرين بزعامة أبي سعيد، وعلى قيام حركة قرامطة الشام، واستقطب نشاط قرامطة الشام ـ كما سنرى ـ حول شخصيتين قيل كانا أخوين شهراً باسم صاحب الجمل، ثم صاحب الخال، وكلاهما ادعى الانتساب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، لكن غالبية المصادر من سنية واسماعيلية تقول بأنهما كانا من أولاد الداعية زكرويه بن مهرويه، وتتحدث المصادر الاسماعيلية عن خلاف قام بين إمامة السلمية وبين أولاد زكرويه، وأن هؤلاء قتلوا زوج أختهم[2]، وحين نعود إلى روايات المقريزي حول حمدان قرمط نراه يذكر من بين دعاته رجلاً اسمه مهرويه بن زكرويه السلماني، كما أنه ذكر عبدان وركز حديثه حول أهميته ومكانته وأوحى بما يفيد أن عبدان اختص بمناطق دعوية، وكان يتبعه عدد من الدعاة منهم: الحسن بن أيمن، والبوراني والوليد، وأبي الفوارس، وزكرويه بن مهرويه، وبين المقريزي أن زكرويه هذا كان أهم دعاة حمدان حيث «كان شاباً ذكياً فطناً من قرية بسواد الكوفة على نهر هد، فنصبه عبدان على إقليم نهر هد وما والاه، ومن قبله دعاة جماعة متفرقون في عمله»[3]، وبناء عليه لا علاقة بين مهرويه بن زكرويه، وبين زكرويه بن مهرويه، فأولهما تبع حمدان وثانيهما كان من دعاة عبدان.

لا ندري ما الذي حدث بالتأكيد لعبدان، وحمدان، لعلهما ماتا بشكل طبيعي أو قتلا؟ المهم بالأمر أن الدعوة في سواد الكوفة آلت إلى زكرويه بن مهرويه، وأن زكرويه اضطر إلى التخفي، ولعله أشيع أنه مات، لذلك قام بأمر الدعوة من بعده أولاده،

(1) أخبار القرامطة: 333.
(2) أخبار القرامطة: 117.
(3) أخبار القرامطة: 329.

ولعلهم كانوا ثلاثة، وهؤلاء هم الذين اصطدموا ببيت إمامة السلمية، واثنان منهما قادا على التوالي قرامطة الشام[1].

يبدو أن أعمال التغيير في دعوة سواد الكوفة لم تكن سليمة البتة، لذلك اتخذت الإمامة إجراءات قضت بعزل أولاد زكرويه عن الدعوة في الكوفة، وكان أكبر أولاد زكرويه واسمه أبو القاسم محمد هو الذي حل محل أبيه، وتلاه في المكانة أخوه أبو العباس أحمد، ويبدو أن أبا القاسم احتج لإمام السلمية على عزله عن دعوة سواد الكوفة، وزار مع أخوته الشام، ومكثوا بين السلمية وحماة مدّة من الزمن، وحين لم يتم التوصل إلى تسوية، توجه أبو القاسم محمد نحو منطقة دمشق، ففجر ثورة قرامطة الشام.

إن نشاط قرامطة الشام سيتم بحثه فيما بعد، المهم أنه قد أنزلت ضربة ماحقة بهؤلاء القرامطة سنة 293هـ/ 906م، أجبرت زكرويه على مباشرة النشاط وتوجيه الدعوة بنفسه، وكان زكرويه قبل ذلك «مختبئاً في سرداب عليه باب حديد، وكان للقرامطة تنور ينقلونه، فإذا جاءهم الطلب، وضعوا التنور على باب السرداب، وقامت امرأة تسجره»[2].

وحاول زكرويه أولاً النشاط في منطقة دمشق فأخفق فنقل النشاط إلى بادية السماوة، ووضع خطة محكمة للاستيلاء على مدينة الكوفة، وقضت الخطة بمفاجأة الكوفة صباح يوم عيد الأضحى، والناس غارون قد خرجوا إلى المصلى في ظاهر المدينة، وهوجمت الكوفة، وتمكن من الدخول إليها حوالي مائة فارس من القرامطة، لكن أهل الكوفة تصدوا لهم، وجمع والي الكوفة شتات قواته، وهكذا أمكن مقاومة الهجوم القرمطي وصده[3].

ولم يفت هذا الإخفاق بعضد زكرويه وقرامطته، وشرع بمهاجمة قوافل الحجاج والبطش بها ونهبها، وقد أجبر نشاطه هذا الخليفة المكتفي العباسي على حشد ما أمكنه من قوات وجهها ضده، وتمكنت القوات العباسية من إنزال ضربة حاسمة بالقرامطة، فقتلت عدداً كبيراً منهم، وأسرت عدداً أكبر، وقد أصيب زكرويه أثناء القتال بجراحات مميتة

---

(1) أخبار القرامطة: 117 ـ 118، 329.

(2) الطبري: 10/ 127 ـ 128.

(3) الطبري: 10/ 124 ـ 125. أخبار القرامطة: 28 ـ 30.

ففقد حياته إثر ذلك، وكان ذلك سنة 294هـ/ 907م، وبمقتل زكرويه انطفئت نائرة قرامطة الكوفة، وطويت صفحة أخبارهم، والمثير للدهشة اقتصار نشاط زكرويه على سواد الكوفة وعدم مده لهذا النشاط إلى مناطق أخرى مثل البصرة؟[1].

من الملاحظ بشكل عام أن القرامطة جميعاً نشطوا في الأطراف، واعتمدوا دائماً على القوى البدوية، ولم يتوفر أدنى تعاون بين مجموعاتهم، ولهذا جاء تأثيرهم هامشياً، سريع الزوال منعدم التأثير الدائم والعميق، مثله مثل طباع البداة في الولاء السياسي.

وكانت البصرة منطقة نفوذ ونشاط لقرامطة الإحساء والبحرين، ولهذا لم يقربها زكرويه وأتباعه، هذا وإن انعدام التعاون والتنسيق بين مجموعات القرامطة أو لنقل الحركات الباطنية، في: الشام، والعراق، والإحساء، واليمن، يجعلنا نقول: شكل القرامطة حركات لا حركة واحدة، ولابد أن من معاني هذا كان التباين في الخطط والأهداف والأساليب والغايات، فزكرويه وقرامطة الشام وقرامطة اليمن، على خلاف قرامطة حمدان بن الأشعث، وقرامطة الإحساء والبحرين، لا نلحظ في أخبارهم أية برامج إصلاحية اجتماعية أو اقتصادية، وقبل التعرض لأخبار قرامطة الإحساء والبحرين نلتفت عائدين أولاً نحو قرامطة الشام.

3 ـ قرامطة الشام:

يقتضي البحث في قرامطة الشام وقفة أولية مع أوضاع بلاد الشام وما تميزت به:

بلاد الشام عند الجغرافيين العرب هي صقع واسع يحده من الشرق سقي الفرات، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل بعيداً حتى ما بعد سفوح جبال طوروس الشمالية، وقد جعل العرب المسلمون بعد فتحهم للشام هذه البلاد أربعة أجزاء، أو مناطق عسكرية أطلق على كل منها اسم جند، وغدا عدد هذه المناطق في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان خمساً وهي: جند فلسطين، وجند الأردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين، وقد عمَّر هذا التقسيم حقبة قصيرة، واستمر وجوده نظرياً فقط.

---

(1) الطبري: 10/ 133 ـ 135. أخبار القرامطة: 30 ـ 35.

وكانت بلاد الشام ـ ومازالت ـ من أقدم البلدان التي ارتبط تاريخها بالعرب والعروبة ، ففي الشام قامت أقدم الدول العربية ، وإلى هذه البلاد هاجرت القبائل العربية من شبه جزيرة العرب بشكل لم يتوقف ، وكان في الشام قبل قيام الفتوحات الإسلامية العديد من القبائل العربية ، كان أكثرها ـ تبعاً لروايات النسابين العرب ـ منحدراً من أصل يماني ، وقد شهر منها قبيلة كلب ، ذلك أنها استقرت في منطقة دمشق وإلى الجنوب منها ، وكان لها دورها البالغ الخطورة في العصر الأموي .

وفي المقابل كانت غالبية القبائل التي هاجرت إلى شمال بلاد الشام واستقرت هناك من أصل قيسي ، وكان من أشهر هذه القبائل قبيلة كلاب ، وفي سنة 64هـ/ 683م بعد وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك بن قيس الفهري بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط في أحواز [دمشق] ، ولقد هزمت قيس ، وانتصرت اليمن ، وكانت قبيلة كلاب أكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة ، ولقد فر زعيمها زُفر بن الحارث شمالاً واعتصم في قرقيسيا (البصيرة حالياً أو البوسرايا في سورية حيث يلتقي الخابور بالفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة ، ولم يستطع مروان أن يقسره على مثل هذا الاعتراف ، ولعل من أهم نتائج هذه المعركة أنها قسمت بلاد الشام إلى قسمين : شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه ، وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية ، خاصة كلب ، وتسيطر عليه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعياً عبارة عن دارين : دار لكلب في الجنوب ، ودار لكلاب في الشمال ، وكان الخط الفاصل بين الدارين يمر وهمياً عند الرستن على العاصي بين حمص وحماة ، وازداد مع الأيام نفوذ كلب في منطقة دمشق وتركز ، وغالباً ما كانت أجزاء منها تقطن في منطقة المزة خارج أسوار المدينة ، كما انتشرت عشائر كلب في البادية حتى منطقة السماوة ، بين العراق والشام[1] .

ومعروف أن بلاد الشام كانت مقر الخلافة الأموية ، وبعد سقوط هذه الخلافة غدت ولاية شبه مهملة من ولايات الخلافة العباسية ، وكانت النزعات الاستقلالية في الشام واضحة ، وقد ازدادت قوة مع وضوح سيطرة الأعاجم على هذه الخلافة ، وتزامنت هذه النزعات مع استقلال مصر ، وقيام الدولة الطولونية فيها منذ بداية النصف الثاني للقرن

---

(1) تاريخ خليفة : 1/ 266 . الطبري 5/ 540 ـ 542 . ابن عساكر : 6/ 211 و 212 ظ .

الثالث للهجرة [254هـ/ 868م]، وكما فعل من تقدم على ابن طولون من حكام مصر المستقلة، لم يتوقف طموحه عند حدود مصر، بل سرعان ما اتجه بأنظاره نحو الشام، فسيطر على مختلف أجزاء البلاد، واصطدم أثناء ذلك بالخلافة العباسية، ونتيجة لهذا ولأسباب أخرى، سيطر الطولونيون على الأجزاء الجنوبية من الشام سيطرة قوية، وكانت سيطرتهم على الشمال وهمية أو شبه معدومة.

توفي أحمد بن طولون سنة 270هـ/ 883م فخلفه ابنه خمارويه، وورث عنه الصراع ضد الخلافة العباسية، لذلك قضى كثيراً من وقته في دمشق، وفي دمشق اغتيل خمارويه سنة 282هـ/ 895م، ومنذ ذلك الحين عصفت بالدولة الطولونية رياح التمزق والتنافس على السلطة، وقد انعكس هذا على الأوضاع في دمشق والأجزاء الجنوبية من بلاد الشام[1]، وكانت على هذا الأجواء مهيأة والفرص متوفرة للإقدام على عمل ثوري في الشام.

وانتشر دعاة الاسماعيلية بين صفوف قبيلة كلب، فلاقوا النجاح وخاصة بين أفراد بني العليص، وتبعاً للمصادر الإسماعيلية توجه أبو القاسم محمد بن زكرويه من السلمية نحو كلب في منطقة دمشق، والتقى بزعماء بني العليص «وكان معه دفاتر، وكان غلاماً شيطاناً» واتفق معهم على الثورة، وتفجرت الحركة في مزة كلب، ويبدو أنها استهدفت الاستيلاء على مدينة دمشق.

كان يلي دمشق آنذاك قائد اسمه طغج بن جف، وذلك نيابة عن هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، «وكان طغج قد طغى وجار في دمشق جوراً عظيماً»[2] كما وكان ضابطاً تركي الأصل التحق بالخدمة الطولونية، وقد اتهم بالتآمر على اغتيال خمارويه بن أحمد بن طولون، وابنه محمد هو الذي سيرث الدولة الطولونية ويؤسس الدولة الإخشيدية.

وبدأت الثورة في منطقة دمشق سنة 289هـ/ 902م وأعلن أبو القاسم عن نفسه إماماً اسماعيلياً باسم «محمد بن عبد الله بن يحيى» وأنه ولد اسماعيل بن جعفر الصادق، وقيل ـ وهو الأرجح ـ محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل، وقد عرف باسم الشيخ، وشهر بلقب صاحب الناقة أو صاحب الجمل.

---

(1) انظر كتابي تاريخ العرب والإسلام: 399 ـ 401.

(2) أخبار القرامطة: 119.

وشهرته بهذا اللقب تعود إلى أن ناقته التي كان يركبها كانت مأمورة وموجهة سماوياً، وأن تلك آيته الدالة على صحة إمامته، ومرد هذا إلى دعوة وراثة الإمامة للنبوة وعلاماتها جميعاً أو بعضها، ويروي أن النبي ﷺ عندما هاجر من مكة ودخل المدينة، وأخذ أهل المدينة يدعوه كل فريق منهم للنزول عليه، وذلك عن طريق اعتراض سبيله ومحاولة جر ناقته إلى دارهم، كان النبي ﷺ يطلب من موجهي الدعوة إليه ترك الناقة على أساس أنها مأمورة، ويروى أيضاً أن من علامات نبوته ﷺ «خاتم النبوة»، وكان عبارة عن كتلة لحمية ناتئة فوق كتفه من الخلف، وسنلاحظ أن خليفة صاحب الجمل سيعرف باسم صاحب الخال على أساس أن الكتلة اللحمية التي كانت بارزة في وجهه هي علامة إمامته، وذلك على قاعدة خاتم النبوة.

حاصر صاحب الجمل طغج بن جف في دمشق ولم يستطع دخولها، وحاول طغج فك الحصار فأخفق وطلب النجدات من مصر فجاءته تباعاً، لكنها لم تغن شيئاً، وأخيراً وصلت قوات لا بأس بها بقدراتها بقيادة بدر الحمامي، وفي هذه الآونة التحق بصاحب الجمل أخوه أحمد، «فعند ذلك جمع مشايخ العليصسين من بني زياد، وقال لهم: هذا أخي قدم، ونحن بالغداة نلتقي بالقتال على باب المزة، فبايعوا لأخي، فإني غداً أطلع إلى السماء أقيم بها أربعين يوماً»، ورتب قواته، وأعطى أخاه خمسمائة فارس يكمن بها بين بساتين المنطقة.

وخرجت قوات بدر وطغج من دمشق لقتاله، وزحفت ضده، وباشرت القتال، وضغطت على قوات القرامطة، وجمل القرمطي واقف مكانه لم ينبعث، وسدد أثناء ذلك أحد جنود بدر نحوه حربة قصيرة منفطة ورماه بها مع جمله فأصابه إصابة قاتلة، وتقول إحدى الروايات بأنه سبب إحراقه مع جمله، وتقول روايات بأن أصحابه قاتلوا دونه حتى استنقذوا جثته، وساعدهم على ذلك خروج الكمين بقيادة أحمد أخوه.

لقد حدث هذا سنة 290هـ/ 903م، ولم تؤد هذه المعركة إلى هزيمة القرامطة بل على العكس من ذلك، فقد ارتدت القوات الطولونية نحو دمشق، وفي الوقت نفسه انسحب القرامطة لتنظيم صفوفهم.

وجرت بيعة أحمد بالإمامة، وأعلن عن نفسه مهدياً، وجعل علامته الخال في وجهه، واتخذ لنفسه حاجبين دعا أحدهما «المدثر» لأن الله تعالى خاطب نبيه في القرآن

بهذه العبارة، ودعا الثاني باسم «المطوق»، وقام صاحب الخال بنشاط كبير حيث سعى نحو الاستيلاء على المناطق المحيطة بدمشق، ثم توجه نحو وسط بلاد الشام، فأخذ حمص، وزحف من هناك إلى السلمية، فدمرها وأباد كل من كان فيها، وعلم وهو هناك بقدوم حملة عباسية ضده بقيادة أبي الأغر خليفة بن المبارك السُلمي كان قوامها عشرة آلاف فارس، فبعث غلامه المطوق على رأس قوة اعترضت سبيل الجيش العباسي قبل وصوله إلى حلب فهزمته، وفر أبو الأغر إلى حلب واعتصم بها، وحاول القرامطة الاستيلاء على حلب فأخفقوا وردوا، وبعد هذا احتل القرامطة معرة النعمان، وحاول صاحب الخال إقامة دولة قرمطية في وسط الشام حيث «بث ولاته في» أعمال حمص «وضرب الدنانير والدراهم وكتب عليها: المهدي، المنصور. أمير المؤمنين».

وشعر الخليفة المكتفي بجسيم ما وقع بالشام، وبعجز السلطات الطولونية، لذلك قرر حشد قوات دولته والتوجه على رأسها نحو بلاد الشام، وكان عدد ما حشده يزيد على ثلاثين ألفاً، وكان هذا سنة 290هـ/ 903م، وتوقف المكتفي في مدينة الرقة، ومن هناك وجه محمد بن سليمان الكاتب الأنباري على رأس الجيش نحو القرامطة.

وزحفت القوات العباسية ضد القرامطة بعد اتخاذ جميع الاحتياطات، ومع حلول عام 291هـ، التقت بالقرامطة في موقع إلى الشمال من مدينة حماة، فأوقعت بهم ضربة ماحقة، حيث «قتل منهم وأسر أكثر من عشرة آلاف رجل، وشرد الباقون في البوادي، واستمرت بهم الهزيمة»، وهرب صاحب الخال نحو منطقة الرحبة (قرب الميادين في سورية) وهناك التقى ببعض أركان دعوته وقادته، وحاول من جديد جمع شتات قواته فأخفق، ورفض أصحابه التعاون معه وقالوا له: «قد وجب حقك علينا، وقد رأيت ما كان من جدنا واجتهادنا، ومن حقك علينا أن ندعك وإنما يطلبنا السلطان بسببك، فانج بنفسك».

واستجاب صاحب الخال، وركب الطريق يريد الكوفة ومعه غلام له اسمه لؤلؤ «وركب معه المدثر، وكان يزعم أنه ابن عمه، والمطوق غلامه» وحمل كل واحد من أصحابه هؤلاء كمية من الدنانير، وأخذ دليلاً «وسار يريد الكوفة عرضاً في البرية، فغلط الدليل» وقادهم باتجاه إحدى قرى الرحبة، وكانت السلطات العباسية قد نشرت قواتها في المنطقة ووضعت في كل قرية مجموعة للحراسة، وتنبه حراس القرية للقرمطي وأصحابه فألقوا القبض عليهم، وبسرعة طار الخبر إلى الرحبة، ومنها إلى الرقة حيث الخليفة

المكتفي، فسر سروراً عظيماً وبدأ يستعد لصنع موكب للنصر لا نظير له يدخل به بغداد، ومعه صاحب الخال، وأسرى القرامطة، وأعد الموكب ودخل الخليفة بغداد، وبعدما خلع على كبار القادة من أصحابه، تقرر إعدام صاحب الخال وقرامطته إعداماً جماعياً، بشكل علني، وتم ذلك بصورة لم يعرف التاريخ الإسلامي لها مثيلاً.

وقع الاختيار على مصلى الجانب الشرقي من بغداد، وهناك جرى بناء دكة (منصة) مرتفعة مساحتها حوالي 300 م2، وأمر الخليفة «القواد جميعاً بحضور هذه الدكة، ونودي كذلك في الناس أن يحضروا عذاب القرامطة ففعلوا، وكثر الناس في هذا الموضع» وعندما اكتمل الحضور، جلب صاحب الخال مع حوالي ثلاثمائة من أسرى القرامطة، وبدأت المراسم بتقديم حوالي الثلاثين من وجوه الأسرى «فقطعت أيديهم وأرجلهم وضربت أعناقهم، ثم قدم القرمطي فضرب مائتي سوط، ورش على الضرب الزيت المغلي، وكوي بالجمر، ثم قطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه» واستغرقت طقوس عمليات الإعدام سحابة النهار، وفي اليوم التالي «صير ببدن القرمطي إلى باب الجسر الأعلى من الجانب الشرقي فصلب هناك» وهكذا طويت صفحة من صفحات نشاط القرامطة[1].

وحين ذكرت مصادرنا أن صاحب الخال أراد التوجه إلى الكوفة، فإن ذلك يوحي أنه أراد الالتحاق «بأبيه» زكرويه بن مهرويه، وهنا لابد من سؤال: إذا صح وكانت الصلات بين كل من صاحب الجمل وصاحب الخال وزكرويه كما قيل علاقة أبوة وبنوة، فلماذا انعدم التنسيق والتعاون بين قرامطة الشام وقرامطة العراق؟، ليس كل ما يسأله الباحث في التاريخ يجد جواباً مقنعاً أو موثقاً له، لكن لاشك أنه لو صحت الصلات بين الطرفين، كان بإمكان الفريق العراقي لو تحرك التخفيف عن قرامطة الشام، ولربما تسبب بالإخفاق لحملة الخليفة المكتفي!.

ومثلما كان الحال بالعراق بشكل عام يلاحظ أن تأثير نشاطات القرامطة في الشام كان هامشياً، ذلك أنه من المشاكل الأساسية في تاريخ القرامطة أنهم عندما عمدوا إلى استخدام القوة المسلحة أهملوا أعمال الدعوة السلمية والتبشير بأفكارهم، وأنهم اقتصروا على المناطق المتطرفة من بلاد الشام والعراق، ولابد من سؤال أخير: ما هو موقع الدعوة الاسماعيلية وقيادتها مما وقع بالشام ثم بالعراق؟ أما المصادر الاسماعيلية

---

(1) الطبري: 10/ 94-115. أخبار القرامطة: 18-25، 119-130، 275-300.

فتقول إن ما قام به القرامطة بالشام كان موجهاً بالأساس ضدها وضد إمامها الصحيح، وهذا غير مقنع البتة، فلقد ملكت الاسماعيلية العديد من الدعاة، ولاشك أنه كان بإمكان الدعاة التدخل لدى حشود القرامطة وإفهامها أن ما يحدث هي غير راضية عنه وهو ضد الدعوة الاسماعيلية التي آمنوا بها، ويبدو أنه عندما قامت نشاطات قرامطة الشام كانت الإمامة الاسماعيلية منقسمة على نفسها في السلمية وتعاني من مشاكل حادة، وإذا صح هذا، صحت معه دعوى نسب صاحب الخال وأخيه من قبله إلى اسماعيل بن جعفر الصادق، وهذا يجعل الأمور مسوغة بعض الشيء إذ من غير المعقول أن ينقاد تنظيم القرامطة إلى دعي، وحين نقول تنظيم القرامطة، نبنيه على ما يمكن استخلاصه من مواد كتابنا أخبار القرامطة، حيث كان هناك داعي دعاة، إلى غير ذلك حسب التنظيم الاسماعيلي المحكم، وصحيح أن القرامطة اعتمدت قياداتهم على العناصر البدوية، لكن لا يجوز أن نتصور أن جميع قواهم كانت بدوية أعرابية، ولا جميع البداة كانوا أعراباً متقلبي الأهواء والولاء، فقبيلة كلب قبيلة قديمة في الشام، لم يكن رجالها أعراباً، ويبدو أنه لشدة تأثرها بالدعوة القرمطية أن بيت الزعامة فيها صار يعرف بآل قرمطي، وظل يعرف كذلك مدة طويلة من الزمن.

وإذا ما عدنا إلى الروايات التي وصفت الإعدام الجماعي في بغداد نجدها تذكر أن عدد الأسرى الذين جلبوا للإعدام كان حوالي الثلاثمائة، وأن كثيرين منهم كانوا موجودين في سجون بغداد من قبل، وهذا العدد قليل جداً، يدل على أن القرامطة قاتلوا بشجاعة، وكانوا يموتون ولا يؤسرون، ذلك أنهم آمنوا أن الحياة بعد القتل أفضل، فالقتل كان يخلص أرواحهم من قذر الأبدان وشهواتها[1].

4 ـ قرامطة اليمن:

لقد قيل: الجغرافية توجه التاريخ، ولئن صح هذا القول بعض الشيء بالنسبة لبعض البلدان، فإن صحته مطلقة بالنسبة لليمن، ذلك أن الطبيعة الجغرافية لهذا البلد شغلت أعظم الأدوار في صنع تاريخه، فلقد سيطرت الطبيعة الجبلية على اليمن، لهذا نادراً ما نعمت بالوحدة السياسة والاستقرار، وهذا ما نلاحظه في تاريخها المتقدم على ظهور

(1) قرامطة العراق: 210. مع مصادر الحاشية السالفة.

الإسلام وما تلاه، وقبل الإسلام شغلت اليمن أدواراً هامة في التاريخ، خاصة بالنسبة للتجارة بين الشرق الأقصى وبعض أجزاء أفريقيا من جانب والشرق الأوسط وأوربة من جهة ثانية، ودخلت اليمن الإسلام أيام النبي ﷺ، وشاركت قبائلها بالفتوحات الكبرى مشاركة فعالة، وبعد قيام الخلافة الأموية تأثرت اليمن بشكل كبير، بالنظر للتحولات التي طرأت على طرق التجارة والأوضاع الاقتصادية في العالم بسبب الفتوحات الإسلامية، وعاشت اليمن على هامش حياة الدولة الأموية، وباتت ولاية شبه منسية، ولم يتغير هذا الحال في العصر العباسي، ولهذا السبب ولغيره توجهت أنظار بعض الأحزاب المعارضة نحو اليمن، فمنذ خلافة يزيد بن معاوية نُصح الحسين بن علي بالتوجه إلى اليمن وبعدم الذهاب إلى الكوفة، وذلك بسبب الطبيعة الجبلية، وحصانة البلاد ومنعتها، ولأن قبائلها كانت من أنصار أبيه علي بن أبي طالب.

لقد توجهت أنظار أحزاب المعارضة إلى اليمن، ففيها نشط الخوارج لاسيما في أواخر العصر الأموي، كما نشط فيها أيام الدولة العباسية بعض دعاة الشيعة. وتميز بين الشيعة الذين نشطوا بها أفراد من الأسرة الحسنية التي أقامت بالرس على مقربة من المدينة، ونجح منهم هناك منذ عام 280هـ/ 893م الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين[1] وإلى اليمن بعثت الدعوة الاسماعيلية بدعاتها، وشهر من هؤلاء الدعاة داعيين هما: علي بن الفضل، والحسن بن فرج بن حوشب وكان يكنى أبا القاسم.

وتتفق مختلف المصادر اليمنية على أن علي بن الفضل قد كان من زعماء اليمن، ومن الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، وقد توجه عام 266هـ/ 880م إلى تأدية فريضة الحج وبعدما زار قبر النبي ﷺ دعته نفسه «إلى زيارة قبر أمير المؤمنين، وقبر ابنه الحسين بكربلاء رضي الله عنهما، فخرج مع الصادرين من حاج العراق إلى هنالك، فلما وصل إلى الكوفة، وزار قبر الحسين رضي الله عنه، رأى عنده زواراً كثرة، فاجتهد في البكاء والجزع» وقد لفت انتباه رجالات الاسماعيلية هنالك فتقربوا منه، وتعرفوا إليه، ثم استدرجوه إلى دعوتهم، ويروى أن الذي تولى ذلك ميمون القداح أو واحداً من كبار الدعاة، حيث جمعه، بعدما توثق منه، بشخصية الإمام.

(1) نشرت سيرة الهادي إلى الحق، دار الفكر، بيروت.

هذا أيضاً ما تذكره المصادر الاسماعيلية، ونحن وإن كنا لا ندري مدى صحة هذه الرواية، يهمنا تاريخ الحادثة، فهو يتوافق مع التاريخ المبكر للحركة القرمطية في سواد الكوفة، أضف إلى هذا وصفه من قبل المصادر، لاسيما التي عاصرته، بالقرمطة، مع أن المصادر نفسها حين تحدثت عن النشاط الدعوي في الشمال الأفريقي وفي مناطق أخرى سمته نشاطاً اسماعيلياً وميزته عن النشاط القرمطي، وتبعاً لهذا هل جرى تجنيده من قبل الدعوة القرمطية، خاصة وأن تسمية قرامطة أطلقت على دعوة سواد الكوفة أولاً، وعممت فيما بعد على كل من ارتبطت أصوله بهذه الدعوة؟!.

إن المتفحص لسيرة حياة علي بن الفضل، وما قام به في اليمن كما هي معروضة في مواد كتابنا أخبار القرامطة، يلاحظ أن الرجل كان متمكناً من علوم الباطن، والفكر الاسماعيلي بشكل عام، فأين ومتى نال هذا كله؟ علماً بأن مصادرنا تشير إلى تكليفه بالعمل في اليمن مع ابن حوشب إثر تجنيده مباشرة، مما يفيد أنه لم يتلق أية تدريبات، ونعود إلى المصادر اليمنية فنجد صاحب كتاب «الفرق والتواريخ» يقول: «وكان أهل بيت هذا الرجل أهل تشيع، فرغب في علم الأدب، وكان لسناً جريء القلب. صبوراً نظاراً، فانتحل مذهب الاثني عشرية»، ولا يفيد هذا النص أن أسرته كانت أسرة إمامية، ويفيد أنه صاحب خلفيات ثقافية، وأن ارتحل في طلب المزيد من العلم، فهل يا ترى تأثر بواحد من دعاة الاسماعيلية في اليمن، وبعث به إلى العراق ليقرر بذاته ما يأخذ به وليتدرب، ومثل هذا قد حدث في التاريخ الاسماعيلي أكثر من مرة.

أما بالنسبة لابن حوشب الذي سيشهر بلقب منصور اليمن فقد سلف التبيان في الفصل السالف أنه كان من أصل إسماعيلي، ويزيد هذا قوة وبرهاناً ما ذكره صاحب «الفرق والتواريخ» حين وصف لقاء ابن الفضل بالإمام الإسماعيلي حيث قال: «وكان عند هذا الإمام المستور الذي ذكروه رجل يقال له أبو القاسم، رجل مواظب معه على مراده، فقال له: يا أبا القاسم هذا الرجل الذي كنا بطلبه من نهج اليمن، فما رأيك بالخروج معه إلى بلده، وتدعوان الناس إلى هذه المقالة»؟[1].

---

(1) ينسب هذا الكتاب إلى الإمام الغزالي، وهو من تأليف عالم يمني من أهل القرن الخامس اسمه أبو محمد، وكان المرحوم الدكتور محمد جواد مشكور، قد أعطاني نسخة منه حتى ننشرها معاً.

ومهما يكن الحال جرى إرسال الداعيين إلى اليمن، وحددت لكل واحد منهما منطقة يدعو بها، وأخبر ابن حوشب أن عليه أن يذهب إلى عدن لاعة حيث سيجد من ينتظره من أهل المنطقة، أي أن الأمور كانت ممهدة في اليمن، وقد توجها من العراق «في سنة سبع وستين ومائتين، فدخلا مع الحاج مكة حرسها الله تعالى، وخرجا إلى اليمن في سنة ثمان وستين ومائتين».

ونشطا في اليمن وفي مدة وجيزة حقق كل منهما نجاحات كبيرة، واستولى ابن حوشب على حصن «فائش» في جبل مسور، وكان من أمنع حصون اليمن، كما استولى ابن الفضل على حصن المذيخرة وكان أيضاً منيعاً، ومنذ عام سبعين ومائتين «ظهرت مقالتهما، فأجابهما خلق كثير» واستطاع كل منهما دخول عدد من المعارك والخروج منها منتصراً.

وشجعت نجاحاتهما بيت الإمامة في السلمية، فأعلنت عن اليمن دار هجرة للإسماعيلية، وذلك إلى حد التفكير بالتوجه إليها، وهذه مسألة سلف بحثها، ويهمنا أن نشير هنا مجدداً إلى أنه بعدما التحق داعي الدعاة فيروز بعلي بن الفضل، أعلن عن قيامة كبرى «وقال لأصحابه: أنا الإمام المهدي الذي كنت دعوتكم إليه، فاحلقوا رؤوسكم فحلق منهم قدر مائة ألف نفس يظنون أن ذلك شيء من الدين، وأباح لهم ما حرم عليهم، وقال: إنما الجنة الذي ذكرها الله في كتابه هي الدخول في اللذات المكتومات عن هذا الخلق المنكود، ولهذا سميت الجن جناً لاستتارهم من أعين الناس، وقد أبحت لكم إظهارها، فصدقوه وانتهكوا المحارم، ونسخ لهم الشرائع، وادعى بعد ذلك أنه نبي نسخ الله تعالى به نبوة محمد ﷺ بتحليل ما حرم الله عليه وتحريم ما أحل الله له، وقال لهم: إني بعثت بالراحة السمحة، والاستباحة المحضة، يعني بالراحة «ترك العبادات» والاستباحة «ترك المحظورات» فتبعه على ذلك خلق كثير، وسار إلى صنعاء، وأظهر بها ذلك»، ويروى أنه كان قد أمر «جواريه أن يضربن الدفوف على المنبر ويغنين بشعر قاله» منه:

خذي الدف يا هذه واضربي	**وغني هزاريك ثم اطربي**
تولى نبي بني هاشم	**وهذا نبي بني يعرب**
لكل نبي مضى شرعة	**وهذه شرائع هذا النبي**
فقد حط عنا فروض الصلاة	**وحط الصيام فلم تتعب**
إذا الناس صلوا فلا تنهضي	**وإن صوموا فكلي واشربي**

ولا تطلبي السعي عند الصفا — ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي نفسك المعرسين — من أقربي ومن أجنبي
فكيف تحلي لهذا الغريب — وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربه — وسقاه في الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء — حلالاً فقدست من مذهب[1]

والمثير في أخبار قرامطة اليمن أنه لا توجد أدنى إشارة إلى وجود برامج اجتماعية أو اقتصادية لديهم، سواء من حيث الواقع النظري أو التطبيق، لكن ما هو سر الاستجابة الواسعة التي لاقاها دعاتهم؟ هل مرد ذلك إلى اتقان فن استغلال الصراع القبلي؟ لعل هذا ما حدث، سيما وأن رائحة العصبية واضحة في هذا الشعر المنسوب إلى ابن الفضل، حتى كأننا أمام ردة يمانية جديدة، فلقد ضاق اليمانيون دوماً بالزعامة العدنانية المتمثلة بولاية قريش، لهذا لا غرابة أن رأينا التمرد على الإمامة أخذ شكل ردة ورفض لما جاء به النبي الهاشمي ﷺ، وهنا كان مقتل حركة ابن الفضل حيث كان من المفترض أن يفعل مثلما فعل معاصره أبو سعيد الجنابي، حيث أوقف الاعتراف بإمامة الدعوة، ودفع الأموال إليها، وانصرف نحو إنشاء مجتمع لم يشهد التاريخ الإسلامي له مثيلاً.

إن من المشاكل الرئيسة بالنسبة لحركات القرامطة هي أنها عبرت في غالب الأحيان عن رفضها للواقع الاقتصادي والاجتماعي، بأساليب وقوالب وأشكال دينية ليست محضة فحسب بل في غاية التطرف، وللإنصاف هذه السمة وجدت لدى جميع حركات الإصلاح والمعارضة، لكن وضوح الرؤية تباينت بين طائفة وأخرى، ووضوح الرؤية هو المطلوب في كل حركة إصلاحية، ووضوح الرؤية هو ما نشهده في السيرة النبوية لاسيما في المرحلة المكية، ووضوح الرؤية هو ما نشهده في أفكار وأعمال عدد كبير من الأئمة، فعندما يعود المرء إلى كتاب الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني، الذي صنف في مرحلة بدأ فيها استبداد كبار التجار وأصحاب الأموال واضحاً بمجتمعات الدولة العباسية، يجد هذا الإمام الكبير قد قام بكل شجاعة بتحدي الواقع الاستغلالي المفروض ورفضه، إنما بشكل نظامي مكشوف وعلى أساس الشريعة وليس على أساس التأويل الباطني، ذلك أن التغير لا يجري بوساطة السلاح، وبالرفض الأحمق، ولا عن طريق الفرد حتى إذا كان إماماً مهدياً حقاً، التغيير

(1) أخبار القرامطة: 230 ـ 231، 421 ـ 422.

يمكن أن يحدث فعلاً عن طريق العقيدة والشريعة والنظام، فهنا تكمن عناصر الديمومة ومنع الانحراف، ويبدو أن الباطنية لم يأخذوا بمبدأ السرية فقط، بل كانوا باطنيين مؤولين غير واضحين في برامجهم، ولذلك التصقت بهم تهمة التآمر ضد الإسلام، وأخفقوا.

بعدما أعلن علي بن الفضل ما أعلنه، دخل في صراع مع ابن حوشب، وجرد ضده قواته وحاصره حصاراً شديداً، لكنه أخفق في الاستيلاء عل حصنه وأراضيه، وقد استغلت هذا الصراع قوى اليمن القبلية وسواها، فتم انتزاع صنعاء من ابن الفضل: كما انتزعت منه بعض المناطق الأخرى، واضطر إلى الانكفاء إلى حصنه بعدما تصالح مع ابن حوشب، وفي سنة 302هـ/ 914م توفي ابن حوشب واضطرب الحال في منطقته بعض الشيء، ولم يستطع علي بن الفضل استغلال هذا الفراغ حيث تعرض للاغتيال، ومات بعد بضعة أشهر فقط من موت ابن حوشب، وكان ذلك في سنة 303هـ/ 915م، الفرصة التي أحسن استغلالها حكام صنعاء، فاستولوا على قلعته وعلى ما تركه، وقاموا بتصفية كاملة لميراثه الخاص والعقائدي، وهكذا طويت هذا الصفحة من تاريخ القرامطة دون أن تترك أية آثار لها صفة الديمومة[1] الإيجابية النافعة، أو المهمة.

5 ـ قرامطة الأحساء والبحرين:

حظي تاريخ قرامطة الأحساء والبحرين بعناية كبيرة من قبل الباحثين في عصرنا، حتى أن تاريخ القرامطة بات بالنسبة لبعضهم هو تاريخ قرامطة البحرين، ولهذا أهملوا تاريخ قرامطة الشام واليمن، وجاء البحث في قرامطة العراق بمثابة مقدمة لتاريخ طائفة الأحساء والبحرين، وكان من أوائل من اهتم بهم اهتماماً زائداً المستشرق الهولندي دي خويه، وقد دفع هذا الاهتمام المستشرق الكبير برنارد لويس إلى القول: «وتاريخ هذه الطائفة الظاهري معروف إلى حد ما، وليس لدينا إلاّ شيء قليل نستطيع أن نضيفه إلى دراسات دي خويه في هذا الموضوع»[2]، وركز لويس جهوده على تحقيق علاقة هذه الطائفة بالدعوة الاسماعيلية الفاطمية، فأثبتها من حيث الأصول والبدايات.

---

(1) أخبار القرامطة: 226 ـ 248، 413 ـ 431.

(2) أصول الاسماعيلية: 167.

ترتبط بدايات الدعوة القرمطية بالبحرين بالحركة القرمطية في سواد الكوفة أيام حمدان بن الأشعث وعبدان، فقد جرى إرسال داعية إلى منطقة هجر يدعو بين قبائلها، وكان على رأس هذه القبائل عُقيل وكلاب من قبائل «عامر بن صعصعة»[1]، ومن المرجح أن اسم هذا الداعية قد كان أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي، وقد أنفذ هذا الداعية سنة 281هـ/ 894م ثم ألحق بعد أمد بأبي سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابي، ويلاحظ أن هذا قد تم بعد القضاء على ثورة الزنج وتصفيتها نهائياً، ذلك أن البحرين منطقة خليجية خاضعة للمؤثرات القادمة من البصرة، ولاشك أن الدعوة القرمطية قد استغلت فرصة القضاء هذه ونتائج أعمال التصفية مع انتشار التشيع بين القبائل، ويعلل هذا سرعة الاستجابة التي لقيها الطمامي، أولاً ثم الجنَّابي بعده.

لقد قام أبو سعيد بتصفية الداعية الطمامي، ومن المرجح أنه قد قتله، ويمكن أن نستنتج من هذا العمل بداية تمرد على دعوة العراق، ويرجح أن هذا قد حدث إثر استيلاء زكرويه بن مهرويه على هذه الدعوة، وتصفيته لكل من عبدان وحمدان بن الأشعث[2]، ولاشك أن هذا كان له أبعد الآثار على أبي سعيد وخططه المستقبلية.

بدأ أبو سعيد نشاطه في بلدة هجر قصبة البحرين، ولقي معونة عشيرة قوية عرفت ببني سنبر، وتحالف أبو سعيد مع هذه العشيرة، وكان قوام هذا التحالف: القيادة لأبي سعيد، والمشورة لآل سنبر، واستمر العمل بهذه القاعدة بعدما أفلح أبو سعيد في تأسيس دولة قرمطية في البحرين، فقد كانت السيادة في هذه الدولة لآل أبي سعيد، والوزارة لآل سنبر وفق خطة محكمة.

ليس هنالك من إشارات إلى قيام إمامة الدعوة الاسماعيلية بمراسلة أبي سعيد أو توجيهه، ومرد هذا إلى ما حل ببيت الإمامة في السلمية بسبب نشاط قرامطة الشام، وسفر المهدي والقائم نحو الرملة فمصر فالمغرب، وليس من المستبعد، لا بل من المرجح أن نوعاً من الاتصالات قد جرى بعد قيام الخلافة الفاطمية، لكن ليس المهم قيام هذه الاتصالات، بل هو أن الدعوة في البحرين نشأت مستقلة عن التوجيه الاسماعيلي، والمثير للانتباه، أن

(1) أخبار القرامطة: 13.

(2) أخبار القرامطة: 13، 148، 334، 401. أصول الإسماعيلية: 171. دي خويه: 42.

أبا سعيد لم يستغل هذا الاستقلال استغلالاً شخصياً بأن يدعي النسب العلوي، كما فعل صاحب الزنج، ويعلن عن نفسه إماماً، أو يعلن عن نفسه إماماً مهدياً من دون هذا النسب كما فعل علي بن الفضل.

لقد اكتفى أبو سعيد باتخاذ لقب «سيد» وسار في أتباعه سيرة ديموقراطية، فكان في غاية التواضع وهكذا كان أولاده من بعده، وركز جهوده الدعوية ونشاطاته الحربية وأوقفها على الاستيلاء على بلدة هجر، فقد أقام على مقربة منها بلدة الأحساء، واتخذها قاعدة له، وعندما تمكن من هجر دمرها، ونقل من أطاعه من أهلها إلى الأحساء التي غدت الآن عاصمة لدولة لم يعرف تاريخ شبه جزيرة العرب مثيلاً لها.

لقد أنشأ أبو سعيد مجتمعاً جديداً، أساسه خطة تجربة حمدان قرمط في سواد الكوفة، ففي البداية جمع صبيان أتباعه «في دور، وأقام عليهم ما يحتاجون إليه، ووسمهم لئلا يختلطون بغيرهم، ونصب لهم عرفاء، وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان، فنشأوا لا يعرفون غير الحرب، وقد صارت دعوته طبعاً له».

بوساطة هؤلاء عندما غدوا رجالاً أمّن البنية الأساسية والعمود الفقري لدولته ومجتمعه، ويلاحظ في هذا المقام أن الجنابي لم يبدع هذه الطريقة، فهي أساس تجربة جيش المعتصم من الغلمان الأتراك، وكانت أيضاً مطبقة في ثغور بلاد الشام، سيما في مدينة طرسوس، وتتجلى عبقرية الجنابي في حسن استفادته من هذه التجربة، وتطويرها لصالح دولته العقائدية.

لقد ألغى الجنابي كما فعل حمدان من قبل الملكيات الخاصة «وقبض كل مال في البلد، والثمار، والحنطة، والشعير، وأقام رعاة للإبل، والغنم ومعهم قوم لحفظها، والتنقل معها على نوب معروفة، وأجرى على أصحابه جرايات، فلم يكن لأحد غير ما يطعمه»، وتبعاً لهذا جرى إلغاء الضرائب، وأمنت الحاجيات «للمواطنين» بالقسطاس المستقيم، ولم يكن هناك حاجة إلى النقود الذهبية والفضية، وقد اكتفى الناس بالتعامل بنقود خاصة من الرصاص، وكان هذا من بين الإجراءات التي اتخذت للحفاظ على الثروة العامة «والرأسمال الوطني».

لقد أقام الجنابي مجتمعاً «اشتراكياً عسكرياً» من الطراز الأمثل، بشكل لم تعرف له سابقة من قبل، فقد أوقف وقته كله «على جمع الخيل، وإعداد السلاح، ونسج الدروع

والمغافر، واتخاذ الإبل، وإصلاح الرجال، وضرب السيوف والأسنة، واتخاذ الروايا والمزاود والقرب، وتعليم الصبيان الفروسية، وطرد الأعراب من قريته، وسد الوجوه التي يتعرف منها أمر بلده وأحواله بالرجال، وإصلاح أراضي المزارع، وأصول النخل، وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها، ونصب الأمناء على ذلك، وأقام العرفاء على الرجال، واحتاط على ذلك كله حتى بلغ من تفقده الشاة إذا ذبحت تتسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسم لهم، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء، ويجز الصوف والشعر من الغنم ويفرقه على من يغزله، ثم يدفعه إلى من ينسجه عبياً، وأكسية، وغرائر، وجوالقات، ويفتل منه حبال، ويسلم الجلد إلى الدباغ، ثم إلى خرازي القرب والروايا والمزاود، وما كان من الجلود يصلح نعالاً وخفاً عمل منه، ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن.

فكان ذلك دأبه لا يغفله. . . فزادت بلاده، وعظمت هيبته في صدور الناس». لم يبن الجنابي في بلدته المساجد، كما لم يقم بها صلاة الجمعة، وعلى هذا لم تعرف دولته الدعوة لخليفة أو إمام، فهو حين أنشأ دولته لم تكن الخلافة الفاطمية قد قامت، وكان هو بالأساس معادياً للدولة العباسية.

ويلاحظ أن «مواطني» دولة الأحساء عاشوا مع نظامها وتعايشوا بكل إخلاص وانسجام، وعلى هذا لم تورد الأخبار ذكر أية حوادث تمرد أو فتن داخلية وعاش هذا النظام طويلاً، وهذا ما نلاحظه في وصف الأحساء لدى ناصر خسرو، الذي زارها بعدما يزيد على القرن ونصف القرن من تأسيسها.

لقد كانت دولة الأحساء دولة مقاتلين عقائديين، وقد احتاجت إلى الخدمات العامة، وهذا ما قامت الدولة بتأمينه، حيث مكنت الحرفيين من العمل ومنحتهم الرساميل والمواد الأولية والحوانيت، أما بالنسبة لأعمال الزراعة والخدمات الأخرى فقد جرى تأمين ذلك بوساطة الرقيق، خاصة الأسود منه، ودفع استخدام العبيد بعض الكتاب إلى القول: إن دولة الأحساء لم تكن دولة اشتراكية محضة، إنما كانت دولة محاربين طبقت نظام رأسمالية الدولة، وذهب باحثون آخرون إلى القول: إن دولة القرامطة في البحرين والأحساء قامت من منطقة خضعت بشكل متواصل إلى التأثير الفارسي، لاسيما الساساني منه، وعلى هذا إن نظام دولة القرامطة الذي قام فيها لم يكن سوى نظاماً متطوراً عن النظام الإقطاعي الساساني، الذي شهر بنظام اقطاعيات الفرسان.

لاشك أن اعتماد العبيد كان ثغرة في نظام دولة الأحساء، الدولة التي شهدت ساحاتها وبصرتها قبل قيامها ثورة عارمة للزنج، لكن أما والأخبار لم تذكر أعمال تمرد أو شكوى للعبيد، يمكننا الافتراض أنها أحسنت معاملتهم، ولنتذكر في هذا المقام أن العقل البشري لم يتقبل إلغاء الرقيق إلاّ منذ مدّة وجيزة نسبياً، وأن تجربة الأحساء قامت منذ أحد عشر قرناً، وهي بلاشك تجربة كانت ما تزال دول العالم الحالي الاشتراكية والشيوعية سواء تتطلع إلى ما يماثلها.

لقد بهرت تجربة الأحساء عقول معاصريها أيام أبي سعيد وخلفائه من بعده، وهذا ما نشهده في محتويات المكتبة الجغرافية العربية، وعند بعض الكتاب المتأخرين نسبياً مثل البيروني، فقد تحدث المقدسي عن الأحساء فقال: «وبها مستقر القرامطة من آل أبي سعيد، ثم نظر وعدل، غير أن الجامع معطل» ووصف ابن حوقل وهو جغرافي اسماعيلي أوضاع دولة الأحساء بعد قرابة قرن مضى على تأسيسها، وذلك أيام الصراع بينها وبين الخلافة الفاطمية ـ كما سنرى، وكان مما قاله:

«وبها أموال وعشور ووجوه مرافق وقوانين ومراصد وضروب مرسومة من الكلف إلى ما يصل إليهم من بادية البصرة، والكوفة، وطريق مكة بعد إقطاع ما بالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة، والشعير، والنخل لأتباعهم المعروفين كانوا بالمؤمنين، ومبلغها نحو ثلاثين ألف دينار، وما عدا ذلك من المال، والأمر والنهي والحل والعقد، وما كان يصل إليهم من طريق مكة ومال عُمان، وما وصل إليهم من الرملة والشام فمتساو، فيه آراء ولد أبي سعيد الباقين ومفاوضة أبي محمد سنبر بن الحسن بن سنبر، وكان أكمل القوم وأشدهم ثم تمكنا من نفسه، فإذا هموا بقسمة ما يصل إليهم من مال السنة كان ذلك اليوم معلوم مذ لم يزالوا. وكان من رسومهم ركوب مشايخهم وأولادهم فرادى، فيجتمعون إلى قبلة الأحساء بالمكان المعروف بالجرعاء، ويلعب أحداثهم بالرماح على خيولهم وينصرفون أفذاذاً بغاية التواضع، وقد لبسوا البياض لا غير، وكان من رسومهم أن تقع شوارهم بالجرعاء فيمن يخرجونه لما قدحهم وأهمهم، فإن اتفق رأيهم على خروجهم بأجمعهم لم يتخلفوا ونفذوا»[1].

---

(1) أحسن التقاسيم: 93 ـ 94. صورة الأرض: 33 ـ 34. الآثار الباقية: 12 ـ 213. أخبار القرامطة: 13 ـ 15، 150 ـ 152، 195 ـ 199، 334 ـ 339، 400 ـ 401. دي خويه: 61 ـ 95.

وعندما وصلت أخبار أبي سعيد إلى السلطات العباسية في بغداد عجلت بإرسال جيش ضده، فلحقته الهزيمة الماحقة، وكان وقع ذلك مخيفاً على سكان البصرة حتى «عزم أهلها على الانتقال منها»، وأرسلت الخلافة العباسية الجيش تلو الآخر ضد القرامطة فأخفقت جميعاً، وخيل لكثير من الناس أن القرامطة باتوا قادرين على الاستيلاء على العراق، واقتحام بغداد بالذات.

أخبار المعارك بين القرامطة والجيوش العباسية مفصلة في نصوص كتابي الجامع في أخبار القرامطة، وليس المكان هنا مناسباً لإعادة سردها وتكرارها، حيث من الممكن العودة إلى ذلك الكتاب، لذلك لا بأس في أن ننتقل مباشرة إلى القول إن أبا سعيد الجنابي قد جرى اغتياله سنة 301هـ/ 914م[1].

وتسلم السيادة بعده ابنه سعيد، وكان مستضعفاً، لكنه كان أسن أخوانه ولهذا ولي، وحدث أن الخلافة العباسية كانت قد عمدت إلى إرسال سفارة إلى أبي سعيد، وعندما وصلت إلى البصرة علمت بمصرعه، فراجعت علي بن عيسى وزير الخلافة، فطلب منها الذهاب إلى الأحساء، وكان مما جاء في رسالة الخلافة «زعمت أنك رسول المهدي، وقد قتلت العلويين وسبيت آل الأخيضر العلويين، ومن باليمامة، واسترققت العلويات، وغدرت بأهل البحرين» فأجاب سعيد بن أبي سعيد: «إن أهل البحرين بغوا علينا، وغدروا بنا، وقالوا: إنا نشترك في أزواجنا، ونرى الإباحة، وتعطيل الشريعة، وقد كذبوا علينا، ونحن قوم مسلمون، وما نحل من اتهمنا بغير الإسلام».

وشجعت هذه الإجابة الوزير علي بن عيسى فكتب إلى قيادة القرامطة يقول: «إن كنتم صادقين فأطلقوا من في أيديكم من أسارى المسلمين» واستجاب القرامطة «فأطلقوا نحو ثلاثين ألفاً، وأظهروا الإسلام والصلاة، وقراءة القرآن»، ويفيد هذا أن السلام ساد بين القرامطة والسلطات العباسية، وقد دام ذلك حتى سنة 305هـ/ 917م، حيث خلع سعيد وحل محله أخوه أبو طاهر سليمان.

واختلفت شخصية أبي طاهر عن سعيد، وفي أيام أبي طاهر نشط القرامطة عسكرياً بشكل هائل، وتركز نشاطهم بصورة خاصة وتوجه ضد قوافل الحجاج، كما استهدف

---

(1) قيل أن عملية الاغتيال كانت فردية بدون دوافع تآمرية داخلية أو خارجية، ومن الصعب تصديق هذا لاسيما على ضوء العلاقة مع الطمامي ثم مع ابنه فيما بعد.

إضعاف العباسيين وشلهم عن العمل، ويلاحظ أن تولي أبي طاهر تلا عزل علي بن عيسى عن الوزارة في بغداد وحدوث تبدل في المواقف العباسية، وقد تزامن هذا مع استقرار الأمور في إفريقية للمهدي الفاطمي، وشروعه في إرسال الجيوش ضد مصر لاحتلالها، ويبدو أن الاتصالات قد قامت في هذه الآونة بين الخلافة الفاطمية والقرامطة، ووضعت الخطط للتنسيق في الجهود العسكرية بين الطرفين، والذي طلبته الخلافة الفاطمية من القرامطة هو الضغط على العراق، والضغط أيضاً على السلطات الإخشيدية في الشام وهذا ما حصل[1].

أخبار حملات أبي طاهر مفصلة في نصوص كتابي الجامع في أخبار القرامطة وهي قد وصلت الذروة في عام 317هـ/ 929م بمهاجمة مكة في موسم الحج، وقتل الحجاج مع أهل مكة واقتلاع الحجر الأسود من الكعبة، هذا وقد سلفت الإشارة إلى هذا الحدث الجلل مع التعليل، ويروى أن أبا طاهر كان قد وقف أثناء الفتك بالحجاج على باب الكعبة يلعب بسيفه وينشد ويقول:

أنا بالله وبالله أنا   **يخلق الخلق وأفنيهم أنا**

وأنه أنشد إثر انصرافه من مكة:

ولو كان هذا البيت لله ربنا   **لصب علينا النار من فوقنا صبا**

لأنا حججنا حجة جاهلية   **مجللة لم نبق شرقاً ولا غرباً**

وأنا تركنا بين زمزم والصفا   **جنائز لا تبغي سوى ربها رباً**[2]

إنها والحق يقال لم تكن حجة من أية نوع من الأنواع، بل كان حملة بربرية قصدت إلغاء الحج، وذلك تمهيداً لإعلان قيامة عظمى، حيث لم يلبث بعد هذه الحملة حتى ظهر في الأحساء زكريا الطمامي بن أبي زكريا الداعية القرمطي المتقدم على أبي سعيد، ويروى أن أبا طاهر «جمع الناس بالبحرين، وقال: معشر الناس إنا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم، مرة بمحمد، ومرة بعلي، ومرة باسماعيل بن جعفر، ومرة بمحمد بن اسماعيل، وبالمهدي، وهذا إلهنا وإلهكم، وربنا وربكم، يعني» زكريا الطمامي.

---

(1) دي خويه: 72 ـ 80.

(2) أخبار القرامطة: 53 ـ 215.

وحار الكتاب في تعليل هذه الحادثـة ، فـالأوائل عللوهـا ردة إلـى الديانـة الزرادشـتية وإلى عبادة النيران ، وهذا بعيد الاحتمال ، ورأى آخرون فيها تمرداً على الفـاطميين ورفضـاً لسلطتهم ، وفي هذا أيضاً ما فيه ، سيما إذا أخذنا بعين التقدير أنه لـم تقـم للفـاطميين سـلطة على قرامطة الأحساء والبحرين .

إن التعليل يمكـن إيجـاده في مضـامين العقيـدة الاسـماعيلية في مسـألتي الكشـف عـن علوم الباطن ، وإعلان القيامة العظمى ، ومثل هذا العمل قـد شـهده التـاريخ الفـاطمي أيـام خلافة الحاكم بأمر الله[1] .

ولم يطل الأمر بزكريا الطمامي ، فقد حاول الانفراد بالأمر بالأحساء وتصفية آل أبي سعيد الجنابي وآل سنبر ، لذلك سارع أبو طاهر فقتله وتخلص منه .

ويبدو أنه عندما أعلن عن تأليه زكريا الطمامي ، جرى الإعلان عن أبي طـاهر إمامـاً مهدياً ، فهذا ما يستفاد من شعر أورده له البيروني[2] ، ويتوافق هذا أيضاً مع ما حصل لحمزة ابن علي الزوزني أيام الحاكم بأمر الله[3] .

ومهما يكن الحال لقد كان لهذا الحادث أثره الكبير على أوضاع القرامطة عامة ، ومسألة القيادة والطاعة لأبي طاهر فقد «صار أصحابه لا يمتثلون أمره كمـا كـان ، وقـد كانوا لا يخالفونه في شـيء البتـة ، وكـان أي شـيء نـهبوه أو غنمـوه يسـلموه إليـه ، ولا يخونونـه في شـيء منـه لأنـه حجـة الله . . . فصـار . . لا يعطونـه مـا ينهبونـه ، وصـاروا يشـربون الخمـر ، ويسـمعون القيـان ، ويطلبـون المواخير ، وإذا جـاءهم العرفـاء وقـالوا لهم : هاتوا ما غنتم لم يعطوهم ، وإذا قالوا لهم : السـيد يـأمركم بكـذا» وجـهوا أقبـح الشتائم للسيد .

لقد سبب نشاط القرامطة في شبه الجزيرة اندفاع أعداد كبيرة من القبائل ، خاصـة من قبائل عامر بن صعصعة نحو الشام والعراق ، ومع اتساع عمليات القرامطـة أيـام أبـي طـاهر جرى زيـادة في الاعتمـاد علـى رجـالات هـذه القبـائل عـن طريـق الإغـراء بالغنـائم ، ودفـع

---

(1) الآثار الباقية للبيروني : 213 . أخبار القرامطة : 158 . أصول الاسماعيلية : 185 ـ 187 .
(2) الآثار الباقية : 214 . أخبار القرامطة : 160 ـ 161 . دي خويه : 104 ـ 108 .
The Druze Faith, by Sami N. Mkarem, pp 16 - 22.
(3) أخبار القرامطة : 146 ، 160 ـ 161 .

الأموال، وأخذ العباسيون يسعون لشراء ولاء بعض زعماء القبائل، كما أن بعض هؤلاء الزعماء أخذ يفكر بالعمل لصالحه ولمنفعته الخاصة[1].

لقد خفت حدة نشاط أبي طاهر، لكنه لم يتوقف، وتجددت الاتصالات بينه وبين بغداد، وطلبت السلطات العباسية منه منذ عام 322هـ/ 934م عدم التعرض لقوافل الحجاج، ورد الحجر الأسود، وذلك مقابل اعتراف الخليفة العباسي به أميراً على البلاد التي يحكمها، وبعد مدة تم التوصل إلى اتفاق، بات على الخلافة العباسية بموجبه لا الاكتفاء بالاعتراف بأبي طاهر بل بدفع مبلغ كبير من المال له سنوياً، ويبدو أن مرد هذا الاتفاق لا يعود إلى الأزمة الداخلية التي وقعت، فحسب بل إلى الإخفاق في قطع الحج، وإلى ما لحق الدولة الفاطمية ونزل بساحها إثر وفاة المهدي سنة 322هـ/ 934م، بقيام ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري[2].

وظل أبو طاهر سيداً لقرامطة الأحساء والبحرين حتى وفاته سنة 332هـ/ 944م، ولعل من أهم ما حصل في العقد الأخير من حياته هو أخذ حركة قرامطة الأحساء والبحرين شكل دولة، والدول في العادة تتعامل بالسياسة حسبما تمليه المصالح، وإنشاء الدولة معناه إما وصول الثورة إلى غاياتها القصوى، أو قناعتها بعدم إمكان حصول ذلك، والاكتفاء بما تحقق من مكاسب، وفي هذا انكماش وبداية تراجع وسير في دروب الانهيار، وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لقرامطة البحرين، صحيح أن دولتهم لم تزل من الوجود فوراً، وعاشت لمدة طويلة، لكنها عاشت على الهامش يحجبها عن أماكن التأثير الفاعلة في العالم الإسلامي محيطات من رمال الصحراء، ومن جديد لابد من الإشارة إلى أن اعتماد القرامطة على القوة المسلحة المدمرة فقط، دون إرفاق ذلك بعمل دعوي منظم، قد أضرّ بهم ضرراً بالغاً، وحال دون انتشار مبادئهم.

والمشكلة الأساسية في تاريخ القرامطة أنهم اهتموا بأوضاعهم الداخلية، لكنهم لم يلتفتوا إلى قضية سمعتهم الخارجية، ونسوا أنهم لئن ملكوا القوة المدمرة لوقت من الأوقات، فإن من قهروهم وأنزلوا بهم الضربات الموجعة كانوا أكثر منهم عدداً وعدة، وأمامهم فرص استرداد القوة، ومن ثم التمكن من الانتقام.

---

(1) أخبار القرامطة: 360 ـ 361. دي خويه: 108 ـ 112

(2) صورة الأرض: 33 ـ 34. دي خويه: 150 ـ 152.

لقد اهتم القرامطة بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية اهتماماً كبيراً ، ورأوا بأم أعينهم أكثر من مرة زيف الغطاء الديني للباطنية وشفافيته وتناقضاته ، وملكوا الفرصة حتى يتخلصوا من هذا الغطاء ، وذلك عن طريق العودة إلى الجادة القويمة ، فذلك كان سيفتح أمامهم مختلف الأبواب في جميع البلدان ، لكن على الرغم من كل هذا تمسكوا بالغطاء الواهي ، وسخروا قواتهم في سبيل تدمير ما أجمعت الأمة على الإيمان به والتمسك ، فأهلكوا أنفسهم بأيديهم ، فهذا كان وما يزال مصير كل من يتنكر للإسلام الأصيل ويعلن الحرب عليه .

وحين توفي أبو طاهر كان معظم إخوانه مازالوا على قيد الحياة بينهم سعيد ، وكان من المقدّر أن يعود سعيد إلى تسلم منصب القيادة ، لكن هذا لم يحدث بالتحديد بل وقعت الإدارة مشاركة بين الأخوة ، ومع الأيام برز بينهم أحمد ، حتى بات المقرر انفراده بالسيادة ، لكن وجد بين القرامطة جماعة ارتأت تنصيب سابور بن أبي طاهر ، وسلكت هذه الجماعة مسلك التآمر ، وفي سنة 358هـ/ 969م ألقي القبض على سابور وجرى قتله ، وبذلك انفرد أحمد بالسيادة ، ويعلق ابن حوقل على هذا الحدث ويبين آثاره على القرامطة حيث «تشتت كلمتهم وتغيرت أحوالهم ، واستوحش بعضهم من بعض ، وانقبضوا عن الالتقاء بالجرعاء وغيرها»[1] .

ويبدو أن الذي حدث لم يكن مجرد صراع داخلي على السلطة ، بل للقضية أسبابها الخارجية ، ففي السنة التي قتل بها سابور كان الفاطميون قد تمكنوا من الاستيلاء على مصر ، وسلف لنا الحديث عن هذا الحدث وعما جلبه من قيام صراع بين قرامطة الأحساء والخلافة الفاطمية ، ويستخلص من ابن حوقل أن سابور وحزبه كانوا من مؤيدي الخلافة الفاطمية ، في حين كان أحمد وحزبه من المعادين للفاطميين ، وهذا أيضاً واضح في رسالة الخليفة المعز للحسن بن أحمد المشهور بالأعصم .

لقد كان لاستيلاء الفاطميين على مصر وبناء مدينة القاهرة أبعد الآثار وأخطرها على دولة قرامطة الأحساء والبحرين ، فقد تعارضت مصالح الدولتان ، الفرصة التي استغلها سادة بغداد الجدد من الديلم ، فضغطوا على الخليفة المطيع العباسي [334 ـ 363هـ/ 946 ـ 974م] للتقرب من القرامطة ، كما أوعزوا إلى الحمدانيين في الموصل وإلى قادة قبائل الشام والعراق والجزيرة للمبادرة إلى تقديم العون إلى القرامطة في صراعهم مع الفاطميين .

---

(1) انظر نصها محققاً في كتابي الجامع في أخبار القرامطة .

لن نتعرض للحديث عن وقائع الصراع بين الفاطميين والقرامطة، فقد سلفت الإشارة إلى ذلك في الفصل المتقدم، يضاف إلى هذا إن نصوص كتابي الجامع في أخبار القرامطة تحوي تفاصيل كبيرة حول الموضوع، ويهمنا أن نشير هنا إلى أن الفاطميين حين خططوا لاحتلال مصر، كانوا لا يتوقعون عون القرامطة لأعدائهم، وكانوا يعولون على القرامطة لا في سبيل تسهيل احتلال بلاد الشام فحسب، بل بمهاجمة العراق من الجنوب، وذلك في وقت تهاجم فيه الجيوش الفاطمية من الشمال والشرق وهكذا يمكن بيسر القضاء على الخلافة العباسية، وتحقيق الأهداف الاسماعيلية الفاطمية، آخذين بعين التقدير أعداد الاسماعيلية في خراسان، وكون قبائل الشام والجزيرة والعراق مع الديلم كانوا من الشيعة.

وأحبط هذه الخطط الحفاظ على مصالح دولة القرامطة، ودول آل بويه من الديلم مع الدويلات البدوية، فغالباً ما قهرت المصالح الدولية الوحدة العقائدية، وصحيح أن قوى الشام والجزيرة والعراق والديلم كان غالبيتها شيعة، لكنهم كانوا إمامية أو زيدية معادين للاسماعيلية، ولهذا أخفقت خطط الفاطميين، ولم يتعد سلطانهم وسط الشام في غالب الأحيان.

ومع قيام الصراع القرمطي الفاطمي كانت زعامة القرامطة قد آلت إلى الحسن بن أحمد الذي شهر بالأعصم لقصره، وقد دامت زعامته طيلة مدة النزاع التي امتدت حتى أيام العزيز الفاطمي، فمع أيام العزيز تم التوصل إلى اتفاق هدنة في سنة 366هـ تعهدت الخلافة الفاطمية بموجبه بدفع أتاوة سنوية للقرامطة قدرتها المصادر بسبعين ألف دينار، وإثر التوصل إلى هذا الاتفاق توفي الأعصم، وتراجع القرامطة إلى الأحساء، وقد استمرت دولتهم بعد الأعصم ما يزيد على القرن، ففي سنة 469هـ/ 1077م في أيام السلطان السلجوقي ملكشاه أغار القائد التركماني أُرتُق على الأحساء، ورام الاستيلاء عليها فأخفق بعدما حاصر قرامطتها مدة طويلة من الزمن[1].

والله الموفق إلى السداد

---

(1) مرآة الزمان ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ حوادث سنة 469. أخبار القرامطة: 68 ـ 84، 364 ـ 389، 402 ـ 409. دي خويه: 152 ـ 156.

الحشيشية
(النص المترجم)

الفصل الأول
اكتشاف الحشيشية

عندما كان فيليب السادس Philip VI ملك فرنسا يقوم في 1332م بالإعداد لحملة صليبية جديدة، بهدف استرداد الأماكن المقدسة، قام راهب ألماني اسمه بروكارديوس Brocardus بكتابة رسالة، قدم فيها نصائح إلى الملك، وإرشادات تعلقت بإدارة هذه المخاطرة، وقد أوقف بروكارديوس، الذي كان قد أمضى بعضاً من الوقت في أرمينيا، شطراً مهماً من رسالته للحديث عن المخاطر الغريبة لحملة كهذه إلى الشرق، عن الاحتياطات التي يحتاج إليها للوقاية منها.

وقال بروكارديوس: «أنا أسمي بين هذه المخاطر الحشيشية الذين ينبغي لعنهم والفرار منهم، لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان، وهم متعطشون إلى الدماء البشرية، يقتلون البريء لقاء ثمن، ولا يكترثون من أجل حياة أو خلاص، وهم مثل الشيطان، قادرين على تحويل أنفسهم إلى صورة ملائكة النور، وذلك بمحاكاة حركات الشعوب والأقوام المختلفة، وتقليد ملابسهم ولغاتهم، وعاداتهم وأفعالهم، فهكذا تصادفهم وقد تخفوا في ثياب الشياه، والذي عليك هو أن تذيقهم طعم الموت في اللحظة التي يمكن تمييزهم فيها، وفي الحقيقة، بما أنني لم أرهم، ولكن عرفت هذا عنهم مما تواتر حولهم من أخبار، أو من الكتابات الصادقة، لا يمكنني كشف أكثر من هذا، ولا أن أقدم معلومات أوفى، وأنا لا يمكنني أن أوضح كيف يمكنك تمييزهم بعاداتهم أو بأية علامات أخرى، لأنهم غير معروفين بمثل هذه الأشياء لا بالنسبة لي، ولا للآخرين أيضاً، كما لا يمكنني أيضاً أن أبين كيف يمكنك فضحهم بوساطة أسمائهم، لأن حرفتهم على درجة عالية من المكر، ومزدراة من قبل الجميع، إلى حد جعلهم يخفون أسماءهم ويتكتمون عليها إلى أقصى درجات الكتمان، وبناء عليه أنا أعرف علاجاً واحداً من أجل سلامة الملك وحمايته، وهو ينبغي أن لا يؤذن لأي واحد من أفراد الحاشية الملكية بأداء أية خدمة مهما كانت صغيرة، أو قصيرة،

أو حقيرة، إلاّ للذين تعرف بصورة أكيدة وكاملة وواضحة أماكن بلدانهم ومواطنهم، وأصولهم وأحوالهم وهويتهم»[1].

وعلى هذا كان الحشيشية بالنسبة لبروكارديوس جماعة مأجورة، يقتلون بالخفاء، وهم نوع خطر، ويتمتعون ببراعة غير اعتيادية، ولكنه وإن خصهم بالتسمية بين مخاطر الشرق، هو لم يلحقهم، بصورة واضحة، بأي مكان محدد، أو بطائفة، أو بشعب معين، كما أن لم يبين أياً من عقائدهم الدينية أو أهدافهم السياسية، وكل ما في الأمر هو أنهم كانوا ـ بالنسبة له ـ قوماً بلا شفقة، وقتلة بارعين ينبغي الاحتراس منهم إلى الدرجة التي أوصى بها.

وواقع الحال جاءت كلمة حشيشي منذ القرن الثالث عشر في أشكال مختلفة في الاستعمالات الأوربية عنت في مفهومها الواسع: قاتلاً مستأجراً محترفاً، فالمؤرخ الفلورنسي جيوفاني فيلاني Giovanni Villani، المتوفى في عام 1348، قص علينا كيف أرسل صاحب لوكا Luca حشيشيته إلى بيزا Pisa لقتل عدو مزعج، هذا ونجد قبله دانتي قد تحدث في إشارة عابرة، في المقطع التاسع عشر من كتابه «الجحيم» عن الحشيشي الغدار، وفسر شارح كتابه فرانسيسكو دابوتي Francesco Dabuti، الذي عاش في القرن الرابع عشر هذا الاصطلاح، الذي كان ما يزال بالنسبة لبعض القراء غريباً وغير واضح بقوله: «الحشيشي هو الذي يقتل الآخرين من أجل المال»[2].

وأصبحت كلمة حشيشي Assassin منذ ذلك الحين، اسماً شائعاً في معظم اللغات الأوربية، مرادفاً لكلمة «قاتل»، وبشكل أكثر دقة ذاك الذي يقتل خلسة، أو غدراً، والذي يكون ضحيته شخصية مرموقة، ودافعه إلى ذلك تعصب أعمى أو جشع، لكن واقع الحال لم يكن هكذا دائماً، فقد ظهرت هذه الكلمة أولاً في كتابات مؤرخي الحروب الصليبية، اسماً لطائفة شاذة من الطوائف الإسلامية، كانت تسكن في غربي سورية، وتوجه من قبل شخصية أسطورية عرفت باسم «شيخ الجبل»، وكان هؤلاء كطائفة ممقوتين من قبل خيرة المسلمين، ومن الصليبيين أيضاً، على حد سواء، وذلك بسبب عقائدهم وتصرفاتهم، وكان من أقدم الأوصاف لهذه الطائفة ما ورد في تقرير رسول أرسل في عام 1175م إلى كل من مصر وسورية من قبل فردريك بربروسا Frederick Barbarossa، حيث قال: «انتبه إنه يوجد في الجبال على أطراف دمشق وأنطاكية، وحلب جنس معين من المسلمين،

يطلق عليهم محلياً اسم الحشيشية، وفي الروماني Segnoro de montana (سادة الجبال)، وتعيش هذه المخلوقات من البشر بلا قانون، وهم يأكلون لحم الخنزير، وبذلك يخالفون الشريعة الإسلامية، ويعاشرون النساء بلا تميز، بما في ذلك أخواتهم وأمهاتهم، وهم يسكنون في الجبال، ويكاد يكون من المستحيل الوصول إليهم، لأنهم انحازوا إلى قلاع جيدة التحصين، وبلادهم غير خصبة، فهم لذلك يعتمدون في عيشهم على قطعانهم، ولهم من أنفسهم مقدم يقذف الرعب الشديد في قلوب أمراء المسلمين قريبهم وبعيدهم، وتنطبق حالة الرعب هذه على جيرانهم من الصليبيين، لأن له عادة في قتلهم بطريقة مدهشة، والوسيلة التي صنع بها هذا هي كما يلي: «يوجد في حوزة هذا الأمير في الجبال العديد من القصور الفائقة الجمال، والمحاطة بأسوار شاهقة، لذلك ما من أحد يستطيع الدخول إليها إلاّ من باب صغير محروس بعناية، وعنده في هذه القصور الكثير من أبناء الفلاحين، الذين تمت تربيتهم هناك منذ نعومة أظفارهم، حيث جعلهم يتعلمون مختلف اللغات مثل اللاتينية، والإغريقية والرومانية والإسلامية مع بعض اللغات الأخرى، ولقد تعلم هؤلاء الفتيان من قبل أساتذتهم ـ منذ طفولتهم حتى رجولتهم ـ أن عليهم إطاعة كلمات سيد أرضهم وأوامره، وأنهم إذا فعلوا ذلك، فإن الذي هو الأقوى من جميع الأرباب الأحياء، سوف يمنحهم نعيم الحياة في الجنة، وتم تعليمهم أيضاً، أنه لا يمكن انقاذهم إذا قاوموا إرادته في أي شيء، وعليك أن تعلم أنه منذ الوقت الذي يؤخذون به وهم أطفال، لا يرون إلاّ أساتذتهم ورؤساءهم، ولا يتلقون أية تعليمات إلى أن تجري دعوتهم للمثول في حضرة الأمير، وعندما يصبحون في حضرة الأمير، يسألهم عما إذا كانوا على استعداد لإطاعة أوامره، حتى يُنعم عليهم بدخول الجنة، وبناء على هذا، يتصرفون حسبما جرى تدريبهم، فيرمون بأنفسهم تحت أقدامه، ويجيبون بالرضا من دون تردد أو تهيب، ويعلنون أنهم سوف يطيعونه في ما سيأمرهم به، وعند ذلك يعطي الأمير، كل واحد منهم مدية ذهبية، ويبعث بهم لقتل أي أمير عينه لهم»[3].

وكتب بعد ذلك بسنوات قليلة وليم رئيس أساقفة صور Willam of tyre بياناً قصيراً عن هذه الطائفة، ضمنه في التاريخ الذي صنفه عن الدويلات الصليبية حيث قال: «يوجد في مقاطعة صور، أو بالحري ما يسمى فينيقيا، وفي بارونية طرطوس بالذات، شعب يملك حصوناً منيعة مع قراها المتعلقة بها، وعدده حسبما تناهى في الغالب إلينا حوالي الستين

ألفاً، أو أكثر، ومن عادتهم تعيين مقدمهم واختيار رؤسائهم، لا على قاعدة الوراثة، وإنما اعتماداً على فضائل الصفات والخلق فقط، وهم يدعونه باسم الشيخ، لأنهم يحتقرون ألقاب التعظيم الأخرى، ورباط الطاعة والخضوع المطلق الذي يربط هذا الشعب بمقدمه قوي جداً، إلى حد أن ما من واحد منه إلاّ ويود أن يأخذ على عاتقه تنفيذ أية مهمة ـ مهما كانت صعبة أو متعبة أو خطيرة ـ بأعظم حماس ممكن، وذلك من اللحظة التي يأمره مقدمه بها، ومثالاً على هذا، إنه إذا كان هناك أمير مكروه، أو غير موثوق به من قبل هذا الشعب، يعطي المقدم مدية إلى أي واحد أو أكثر من أتباعه، وما أن يتلقى أياً منهم الأمر، حتى يمضي فوراً إلى تنفيذه، دونما تقدير لنتائج هذا العمل، أو اهتمام بإمكانات النجاة، ويكمل بحماسة تامة مهمته، وتراه يعمل بكل جد وجهد طوال المدة التي يحتاجها، حتى يجد الفرصة ليقوم بتنفيذ أوامر مقدمه، هذا وإن كل من شعبنا وشعب المسلمين يطلقون عليهم اسم الحشيشية، ونحن لا نعرف أصل هذا الاسم»[4].

وفي عام 1192م، وجدت سكاكين الحشيشية ـ التي كانت قد صرعت عدداً من أمراء المسلمين وقادتهم ـ أول ضحية لها [في صور] هي شخصية كونراد أوف مونتفرات Conrad of Montferrat [المرشح] لأن يكون ملكاً على مملكة القدس اللاتينية [في عكا].

ولقد أحدث هذا الاغتيال أثراً عميقاً بين الصليبيين، ولهذا نجد عند معظم مؤرخي الحملة الصليبية الثالثة ما يقولونه حول هذه الطائفة المخيفة، وحول عقائدها الغريبة، وأساليبها المرعبة، وحول مقدمها الذي لا يخفى شأنه، وهكذا قال المؤرخ الألماني آرنولد أوف لوبك Arnold of Lubeck : «إنني سوف أحكي الآن حول هذا الشيخ، ما قد يبدو مضحكاً، ولكنه تأكد لي ببينات الشهود والعدول، فلقد ضلل هذا الشيخ بسحره عقول رجال منطقته، وأزاغهم إلى حد أنهم لا يعبدون رباً سواه، ولا يؤمنون بإله غيره، ووفق المنهج نفسه، أغواهم بشكل غريب بالأماني وبالوعود باللذة، والسعادة السرمدية إلى حد أنهم يؤثرون الموت على الحياة، حتى أن كثيراً منهم، عندما يكونون واقفين على جدار مرتفع، يقفزون من فوقه بناء على إيمائة، أو أمر منه، وهكذا يهشمون رؤوسهم، ويموتون ميتة تعيسة، ويؤكد هو لهم أن أفضلهم هم الذين يسفكون دماء الناس، وأثناء القيام بهذا العمل هم أنفسهم يذوقون الموت، ولذلك عندما يختار بعضهم الموت بهذه الطريقة، أي أن يمارسوا قتل شخص ما، ثم بعد ذلك هم أنفسهم يقتلون انتقاماً له، فتلك ميتة مباركة،

ووقتها يسلمهم الشيخ نفسه سكاكين ـ يخيل إليك أنها منذورة لهذه المسألة ـ، ثم يخدرهم بمخدر يجعلهم في غيبوبة وهذيان، وعندها يعرض عليهم بعض الأحلام المثيرة والمليئة بالانشراح والسرور، أو بالحري بالخيال الكاذب، ويعدهم أنهم سيحوذون هذه الأشياء أبدياً، ثواباً لقيامهم بمثل هذه الأعمال»[5].

وفي البداية أثر الإخلاص الأعمى للحشيشية على التفكير الأوربي، أكثر من طرائقهم في الاغتيال، وعلى هذا الأساس قال بروفنسال تروبادور Provencal Trodbadour لفتاته: «أنت ستتملكيني بقوتك أكثر من تملك الشيخ لحشيشيته الذين يمضون لقتل أعدائه الفانين. .» وقال آخر: «ومثلما يخدم الحشيشية سيدهم دونما تردد أو إخفاق، هكذا خدمت أنا الحب، دون وعد بالإخلاص»، وفي رسالة حب لمجهول أكد الكاتب لفتاته: «أنه حشيشيها الذي يأمل بنوال الجنة من خلال تنفيذ أوامرها»[6].

ومهما يكن من أمر، كان الاغتيال مع مرور الزمن أقوى تأثيراً من الولاء، وهكذا أعطى كلمة حشيشي (Assassin = اغتيال) المعنى الذي احتفظت به إلى يومنا الحاضر.

ومع امتداد بقاء الصليبيين في غربي سورية، سهل الحصول على معلومات أكثر عن الحشيشية، حتى أنه كان هناك عدد من الأوربين الذين قابلوهم وتحدثوا معهم، ونجح الداوية (فرسان الهيكل) والاسبتارية (فرسان المشفى) في تحقيق مراقبة قوية لقلاع الحشيشية، وجبوا منهم الأتاوات، وروى وليم الصوري حكاية خبر اتصال مخفق قام به شيخ الجبل مع ملك القدس، اقترح فيه قيام نوع من التحالف بينهما، وروى صاحب الذيل على تاريخه حكاية ـ عرضة للريبة ـ ذكر فيها احتفاء شيخ الجبل بقلعته بالكونت هنري أوف شامبين Henry of Champagne، عندما كان في عام 1198م عائداً من أرمينية (الصغرى في كليكيا)، حيث أمر ـ امتاعاً لضيفه ـ عدداً من أتباعه أن يثبوا من فوق السور إلى حتفهم، ثم وصف كيف عرض بأريحية تقديم عدد آخر للقيام بذلك إذا ما طلب، وأن عليه أن يخبره عما إذا كان هناك أي شخص قد سبب له ضرراً، ذلك أنه سيتولى من جانبه تأمين قتله، وأقرب إلى المعقول والقبول من هذا ما رواه المؤرخ الإنكليزي متى باريس، عن وصول بعثة أرسلها بعض حكام المسلمين «وبصورة رئيسية من قبل شيخ الجبل» إلى أوربا في عام 1238م، وأنها قدمت تنشد مساعدة الفرنسيين والانكليز ضد الخطر المنبعث حديثاً من المشرق مع المغول، ومع عام 1250م، عندما قاد القديس لويس

حملته إلى الأرض المقدسة، بات من الممكن آنذاك تبادل الهدايا والسفارات مع شيخ الجبل، ولقد رافق الراهب البريتاني إيف Yves the Breton رسل الملك الفرنسي إلى الحشيشية، وتناقش مع مقدمهم(*)، ومن خلال التحامل وضباب الجهل، يستطيع المرء بصعوبة استخلاص بعض العقائد المعروفة للطائفة الإسلامية التي انتمت الحشيشية إليها[7].

وعرف الصليبيون الحشيشية فقط كمجرد طائفة في سورية، وأبدوا إدراكاً ضئيلاً، أو بالحري معدوماً، حول ما يتعلق بمكانتها في الإسلام، ثم صلتها بالجماعات الأخرى في الأماكن الأخرى من الأراضي الإسلامية.

وكان أول كاتب غربي أبدى إدراكاً عن وجود علاقة للحشيشية بإيران، هو الرحالة اليهودي الإسباني بنيامين التطيلي، الذي تنقل خلال سورية عام 1167، وهو في طريقه المشرق، وفي حديثه عن «بلاد الملاحدة»، لاحظ أن الناس، الذين يعيشون هناك على قمم الجبال، لهم علاقة بشيخ الجبل في أرض الحشيشية، أي في سورية، وهم مثلهم رافضة، وظهرت هذه المعلومات بعد وقت قصير بين الصليبيين، من ذلك أن جاك دي فيتري، أسقف عكا، لاحظ في مطلع القرن الثالث عشر، أثناء حديثه عن حشيشية سورية، بأن المشرق كان هو المكان الذي تأصلت فيه الطائفة، ومن هناك جاء أفراد الحشيشية إلى سورية(**)، ويبدو أنه لم يعرف أكثر من ذلك[8].

وفي النصف الثاني لهذا القرن ظهرت معلومات جديدة، تعلقت بالطائفة في إيران، وكان الراهب الفيلاندي وليم أوف روبروك William of Rubrock، الذي بعث بسفارة من قبل ملك فرنسا إلى بلاط الخان الأعظم في قراقورم في منغوليا، في الأعوام 1253 ـ 1255م، أول من جلب مثل هذه المعلومات، فلقد أخذ وليم رحلته خلال إيران، حيث لاحظ أن جبال الحشيشية متصلة بجبال قزوين الواقعة إلى الجنوب من بحر قزوين، وفي قراقورم بغت وليم للاحتياطات والحراسة المحكمة، التي كان سببها، ما سمعه الخان من أن ما لا يقل عن أربعين من الحشيشية، في أزياء مختلفة، قد أرسلوا لاغتياله، وفي رد فعل تجاه هذا الخبر، أرسل واحداً من إخوته مع جيش ضد أرض الحشيشية، وأمره بإبادتهم جميعاً[8].

(*) جميع المصادر التي تقدم ذكرها قد نقلتها إلى العربية، وأودعتها في كتابي الموسوعة الشامية (الشاملة) في تاريخ الحروب الصليبية.

(**) كتابه عن تاريخ القدس موجود في الموسوعة الشامية بين مصادر الحملة الصليبية الخامسة.

وكانت الكلمة التي استخدمت من قبل كل من بنيامين ووليم للدلالة على الحشيشية في إيران هي «ملهت» وهي تصحيف للكلمة العربية «ملحد»، التي جمعها ملاحدة (ومعنى هذه الكلمة حرفياً الضلالة وعدم الإيمان)، وهو معنى استخدم بشكل عام للدلالة على جميع طوائف المتطرفة، ولاسيما الاسماعيلية التي جاءت فرقة الحشيشية منها، وظهرت مرة أخرى في رواية ماركوبولو، الرحالة العظيم الشهرة، الذي تنقل خلال إيران في عام 1273م، ووصف حصن ووادي ألموت، الذي كان منذ أمد، المركز الأساسي للطائفة حيث قال: «ويطلق على الشيخ في لغتهم اسم علاء الدين، وقد أمر بواد هناك، واقع بين جبلين فأغلق، ثم حوله إلى حديقة، وهي أكبر وأجمل حديقة يمكن أن تقع عليها العين، حيث أنها مليئة بمختلف أنواع الفواكه، ولقد أنشأ فيها أبهى ما يمكن أن يتصوره المرء من قصور وقاعات، كلها مغطاة بالذهب، وبروائع الصور، وهناك أيضاً عدداً من الغدران، تتدفق سائلة بالخمر والحليب، والعسل، والماء، وفي الحديقة عدد من السيدات مع جمع من أجمل فتيات العالم، اللواتي يستطعن اللعب على جميع الآلات الموسيقية ويغنين بحلاوة، ويرقصن برشاقة تخلب الألباب، والسبب وراء عمل هذا، هو أن الشيخ قد رغب بأن يجعل شعبه يؤمن بأن هذه هي الجنة الحقيقية، لذلك صاغ الحديقة حسب الوصف الذي أعطاه محمد ﷺ لجنته، حين بيّن بأنه سوف تكون حديقة جميلة، تجري فيها أنهار الخمرة واللبن، والعسل، والماء، وهي مليئة بأجمل النساء وأحبهن، كل ذلك من أجل الاستمتاع بالحياة هناك، ومن المؤكد بما فيه الكفاية، أن مسلمي تلك البقاع، قد آمنوا بأنها كانت الجنة.

وما من رجل يسمح له بالدخول إلى الحديقة، إلاّ الذين عزم الشيخ أن يجعلهم حشيشية، وكان يوجد عند مدخل الحديقة حصن منيع، فيه من القوة ما يكفي لمقاومة العالم كله، وليس هناك منفذ آخر للدخول إليها، وحفظ الشيخ في بلاطه عدداً من فتيان بلده، الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثانية عشرة والعشرين، من الذين لديهم قابلية العمل العسكري، واعتاد أولاً أن يقص على هؤلاء حكايات حول الجنة، تماماً مثلما اعتاد محمد ﷺ أن يفعل، وهم يؤمنون به مثلما آمن المسلمون بمحمد وكان بعد هذا يدخلهم إلى الحديقة أربعة أربعة، أو ستة ستة، أو عشرة عشرة، في كل وقت، وكان يتم ذلك بعد جعلهم يتناولون أولاً مخدراً من نوع ما يرميهم في سبات عميق، وبعد هذا كان يأمر بهم فيرفعون ويطرحون داخلها، وبذلك كانوا عندما يستيقظون يجدون أنفسهم في الحديقة.

وكانوا عندما يستيقظون وهم على هذا الحال، ويجدون أنفسهم بهذا الروعة، يخيل إليهم حقاً أنهم في جنات النعيم، وتلعب السيدات والعذارى معهم حتى يشبعن رغباتهم، وهكذا يحصلون على كل ما يود الشبان أن يحصلوا عليه، ويودون أن لا يتركوا هذا المكان أبداً.

وأبقى هذا الأمير، الذي ندعوه بالشيخ، بلاطه في عظمة وأبهة، جعلت هؤلاء الجبليين السذج من حوله يعتقدون بتصميم أنه نبي عظيم، وبناء عليه عندما كان يريد أن يرسل واحداً من حشيشيته في أية مهمة، كان يأمر بالمخدر الذي تكلمت عنه، فيعطى إلى واحد من الفتيان في الحديقة، وبعد ذلك كان يأمر به فيحمل إلى قصره، وهكذا كان عندما يستيقظ هذا الفتى ويجد نفسه في الحصن، وليس في الجنة، حيث كان مغموراً بالغبطة، يقاد إلى حضرة الشيخ، فينحني أمامه باحترام عظيم، وكأنه يعتقد نفسه في حضرة نبي حقيقي، ووقتها يقوم الأمير بسؤاله من أين جاء، فيجيبه بأنه قدم من الجنة، وأنها كانت كما وصفها محمد ﷺ في الشريعة، وطبعاً يعطي هذا الآخرين من الحضور، من الذين لم يقبلوا بعد بالدخول إلى الجنة، الرغبة الأعظم بالدخول إلى هناك.

وهكذا عندما يرغب الشيخ بذبح واحد من الأمراء، يقول لفتى من هؤلاء: اذهب أنت واقتل فلاناً وفلاناً، وعندما تعود سوف تقوم ملائكتي بحملك إلى الجنة، وإذا مت، فإنني أيضاً سوف أرسل ملائكتي لحملك وإعادتك إلى الجنة، وبهذه الصورة يجعلهم يصدقونه، وبذلك فإن ما من أمر من أوامره، إلاّ ويودون تنفيذه مهما كانت المخاطر التي سيواجهونها، لأن رغبتهم الشديدة تمثلت في العودة إلى تلك الجنة التي عملها، وبهذه الطريقة جعل الشيخ شعبه يغتال أي إنسان أراد الخلاص منه، وهكذا أيضاً ألقى بالرعب في قلوب جميع الأمراء من دون استثناء، وجعلهم يدفعون الأتاوات إليه من أجل أن يعيش معهم بسلام وأمن.

وعليّ أيضاً أن أخبركم أن لدى الشيخ بعض الآخرين الذي يدينون بالطاعة إليه، ويتبعون طرائقه ويعملون تماماً وفق المنهج نفسه، فلقد بعث بواحد من هؤلاء إلى بلاد دمشق، وبآخر إلى كردستان»[10].

وفي الحديث عن الاسماعيلية في إيران على أنهم حشيشية، وعن قائدهم باسم «الشيخ» كان ماركو بولو ـ أو ناسخه ـ يستخدم الاصطلاحين اللذين كانا قد أصبحا عاديين

في أوربا، ومهما يكن فإن هذين الاصطلاحين قد جاءا من سورية، وليس من إيران، فالمصادر العربية والفارسية تتحدث بوضوح تام عن أن اسم «حشيشي» كان اسماً محلياً أطلق فقط على اسماعيلية سورية، ولم يطلق أبداً على الذين وجدوا في إيران أو في أي منطقة أخرى[11]، ولقب شيخ الجبل كان أيضاً سوريا، وإنه لمن الطبيعي بالنسبة للاسماعيلية أن يتحدثوا عن مقدمهم، كرجل متقدم بالسن أو عجوزاً (في العربية شيخ، وفي الفارسية بير) وهو اصطلاح عام للاحترام بين المسلمين، وفي جميع الأحوال يبدو أن التسمية ـ شيخ الجبل ـ المحددة قد استخدمت في سورية فقط، وربما بين الصليبيين وحدهم، حيث لم تظهر بعد للضوء في أي من النصوص العربية العائدة للحقبة نفسها.

وغدا استخدام هذين الاصطلاحين عاماً، ليدل على كل من فرعي الطائفة في سورية وإيران، ولقد تعمق وصف ماركو بولو، برواية مشابهة قدمها بعد نصف قرن أودوريك أوف بوردنن Odoric of Pordenone، وزاد من التأثير الذي عمله حشيشية سورية على التفكير الأوروبي، ووجدت قصص حدائق الجنة، وموت الأتباع المخلصين بالقفز، وبراعة الحشيشية التي لا تجارى في التمويه والاغتيال، مع شخصية رئيسهم ـ شيخ الجبل ـ الأسطورية صداها في الأدب في أوربا، وانتشرت من التاريخ والرحلات إلى الشعر والقصة، والأسطورة.

ولقد ترك الحشيشية تأثيرهم على السياسيين أيضاً، فمنذ تاريخ مبكر بما فيه الكفاية، وجد ـ حتى في أوربا ـ بعض الذين تتبعوا يد شيخ الجبل، في حوادث اغتيالات سياسية، أو محاولات اغتيال، ففي عام 1158م، عندما كان فردريك بربروسا يحاصر ميلان، أذيع أنه تم إلقاء القبض على حشيشي في معسكره، وفي عام 1195، عندما كان رتشارد قلب الأسد في شينون Chinon، أعلن أنه جرى القبض على ما لا يقل عن خمسة عشر رجلاً ممن أطلق عليهم اسم حشيشية، حيث اعترفوا بأن ملك فرنسا قد أرسلهم لاغتياله.

وبعد هذا بقليل تكرر وقوع مثل هذا الادعاء، فجرى توجيه الاتهام إلى العديد من الحكام والقادة على أنهم على اتفاق مع شيخ الجبل، وعلى أنهم يستخدمون جهود مبعوثيه للتخلص من عدو مزعج وتدميره، وليس هناك من شك أن مثل هذه الاتهامات لم يكن لها أساس من الصحة، حيث لم يكن لمقدمي الحشيشية في إيران أو سورية أية مصالح في السعاية والتآمر في أوربا الغربية، ولم يكن الأوربيون قط بحاجة إلى مساعدة خارجية في

أي ميدان من ميادين الاغتيال، ومع القرن الرابع عشر، أصبحت كلمة حشيشي مرادفة لكلمة «قاتل» ولم تعد توحي بوجود أية علاقة بالطائفة التي صدر عنها ذلك الاسم أصلاً.

ومهما يكن الحال، فقد استمرت الطائفة في إثارة الاهتمام، ويبدو أن أول محاولة علمية للبحث في تاريخهم، كانت تلك التي قام بها دينس ليبي دي باتلي Denis Lebet De Batilly، التي نشرت في ليون في عام 1603م، وهذا التاريخ له أهمية خاصة وكبيرة، ذلك أن القيم الوثنية لعصر النهضة قد بعثت إلى الوجود مفهوم القتل كأداة سياسية، وقامت الحروب الدينية بتصعيده والارتقاء به إلى واجب ديني، وكان ظهور الملكيات الجديدة - حيث كان رجل واحد، يستطيع أن يقرر سياسة الدولة وديانتها - قد جعل من الاغتيال سلاحاً فعالاً ومقبولاً، وكان الأمراء ورجال الدين راغبين في الوقت نفسه، دوماً في استئجار قتلة يقضون على خصومهم السياسيين أو الدينيين، وبعد هذا كان يأتي دور أصحاب النظريات، ليقوموا بتلبيس المنطق العاري للعنف، غطاء عقائدياً موائماً.

وكان غرض ليبي دي باتلي معتدلاً، انحصر في القيام بشرح المعنى التاريخي لاصطلاح كان قد حصل على رواج جديد في فرنسا، وقامت دراسته على مصادر صليبية فقط، ولهذا لم تتجاوز مادته كثيراً ما كان معروفاً في أوربا في القرن الثالث عشر، ولكن حتى بدون شواهد جديدة قد تكون هناك رؤى جديدة، ولابد أن هذه الرؤى قد أصبحت أسهل بالنسبة للجيل الذي شهد وليم أوف ناسو William of Nassau يقع صريعاً برصاص رجل مستأجر من قبل ملك فرنسا، وكذلك هنري الثالث ملك فرنسا يطعن من قبل راهب دومينيكاني، وإيليزابت ملكة إنكلترا، تبذل أقصى جهودها في سبيل النجاة من أتباع الكنيسة الكاثوليكية، الذين رغبوا في قتلها.

وكان أول تقدم حقيقي ومهم نحو حل لغز الحشيشية وأصلهم وهويتهم، قد جرى إنتاجه وتم الوصول إليه في أوائل عصر التنور، وجاء ذلك في عام 1697م، مع نشر مكتبة بارثلميودي هربلوت Bartholome De Herbelot الشرقية العظيمة، وهو عمل رائد حوى معظم ما كان العمل الاستشراقي في أوربا يستطيع أن يقدمه حول ديانة وآداب الإسلام، وهنا قام لأول مرة عالم وباحث غربي علماني، باستخدام المصادر الإسلامية، حيث كان القليل جداً هو الذي كان معروفاً من هذه الآداب آنذاك في أوربا، وحاول أن يضع الحشيشية السوريين والإيرانيين ضمن الإطار العريض للتاريخ والدين الإسلامي، فأوضح أنهم كانوا

من الاسماعيلية، التي كانت فرقة منشقة مهمة، وكان رؤساء الفرقة يدعون بأنهم أئمة من أبناء إسماعيل بن جعفر، ومن خلاله من النبي محمد ﷺ من ابنته فاطمة الزهراء وصهره عليّ، وقام خلال القرن الثامن عشر عدد آخر من المستشرقين والمؤرخين بتناول هذا الموضوع، فأضافوا تفاصيل جديدة على تاريخ وعقائد وصلات الحشيشية بالإسماعيلية، التي كانت هي الفرقة الأم، وحاول بعض الكتاب أيضاً تفسير أصل الاسم «حشيشي» الكلمة التي أُفترض أنها عربية، ولكن لم يعثر على تفسيرها بعد في أي من النصوص العربية المعروفة، وتم اقتراح عدد من الاشتقاقات اللغوية، ولكن لم يكن أي منها قوي الإقناع.

وشهدت بداية القرن التاسع عشر، اندفاعاً جديداً في الاهتمام بالحشيشية، فلقد أحيت الثورة الفرنسية، وما جرته خلفها، الاهتمام العام بالتآمر والاغتيال، كما هيأت حملة نابليون على مصر وسورية احتكاكاً أقرب مع المشرق الإسلامي، وفرصاً جديدة للدراسات الإسلامية، وبعد بعض المحاولات التي قام بها أشخاص وضيعي المكانة في سبيل إشباع رغبات الرأي العام، حوّل سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy أعظم مستشرق فرنسي في وقته اهتمامه نحو الموضوع، وقرأ في التاسع عشر من أيار لعام 1809م على المجمع الفرنسي Inslitut de France مذكرة حول الأسر الحاكمة لطائفة الحشيشية، مع الاشتقاق اللغوي لاسمهم.

وكانت مذكرة سلفستر دي ساسي معلماً متميزاً في الدراسات حول الحشيشية، ذلك أنه بالإضافة إلى حفنة المصادر الشرقية التي استعملت من قبل الباحثين السالفين، كان هو قادراً على أن يجذب الانتباه إلى المجموعة الغنية من المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في باريس، بما في ذلك إلى عدد من المؤرخين العرب الرئيسيين للحروب الصليبية، والذين كانوا حتى تلك الآونة غير معروفين في الأبحاث الأوربية، ولقد تفوقت تحليلاته للمصادر جميع جهود الكتاب الأوربيين السالفين، وكان حله للمعضلة المقلقة لأصل كلمة «حشيشي Assassin» هو بلاشك أهم جزء في المذكرة، لأنه كان الأول والنهائي في آن واحد، فبعد أن فحص النظريات المتقدمة، وطرحها جانباً، أظهر بشكل لا يقبل الجدل أن هذه الكلمة قد جاءت من الكلمة العربية «حشيشي»، واقترح بأن الصيغ المختلفة Assassins, Hessissnin، إلخ في المصادر الصليبية، أسست على الصيغة العربية لكلمة حشيشي التي فهمت بشكل مختلف وكذلك كتبت من قبل المؤرخين الأوربيين،

وفي إثبات لهذا، هو كان قادراً على أن يستشهد بعدد من النصوص العربية، التي دُعي بها الواحد من أفراد الطائفة باسم «حشيشي»، ولم يدع أياً منهما فيها «بحشاش»، ومنذ ذلك الحين ثبتت صيغة «حشيشي» في نصوص إضافية ظهرت للضوء، ولكن لم يتوفر حتى الآن - بقدر ما هو معلوم - نص أطلق فيه على أحد من الاسماعيليين اسم «حشاش»، ولذلك توجب التخلي عن هذه الصيغة، وتبيان أن سلفستر دي ساسي قد وهم حين رجح إمكانية أن يكون أصل كلمة Assissini أو Hessissini هو «حشاش»، وذلك بالإضافة إلى كلمة «حشيشي»، وقد بات من المقرر أن مختلف الصيغ الأوربية، وأشكال الكتابة قد صدَّر عن الكلمة العربية «حشيشي» التي جمعها «حشيشية».

وبصرف النظر عن الاشتقاق اللغوي، إن إعادة النظر هذه تثير مرة أخرى التساؤل حول أهمية هذا الاصطلاح، فالمعنى الأساسي لكلمة حشيش في العربية هو «عشب»، وبشكل أكثر دقة عشب يابس أو علف، وخصصت هذه الكلمة في وقت متأخر للتعريف بالقنب الهندي «حشيش Canabis وsativa»، الذي كان تأثيره التخديري معروفاً من قبل المسلمين في العصور الوسطى، وكلمة «حشاش» هي حديثة نسبياً، وهي الصيغة العامة التي تطلق على متناول الحشيش، وفي الوقت الذي لم يأخذ فيه سلفستر دي ساسي برأي كثير من الكتاب المتأخرين، من أن الحشيشية قد عرفوا بهذا الاسم لأنهم كانوا مدمنين، نجده مع ذلك ذهب إلى القول أن سبب التسمية يعود إلى استخدام الحشيش سراً من قبل رؤساء الطائفة، من أجل إعطاء مبعوثيهم طعماً مسبقاً لمباهج الجنة، التي تنتظرهم حين إتمام مهامهم بنجاح، وهو بهذا ربط هذا التفسير بالحكاية التي وردت عند ماركو بولو، ووجدت أيضاً في مصادر شرقية وغربية أخرى حول حدائق الجنة السرية التي أدخل إليها الأتباع المخدرين.

وهذه القصة على الرغم من ظهورها المبكر، وانتشارها الواسع، تكاد بالتأكيد أن تكون غير صحيحة لأن استعمال الحشيش، وتأثيره كانا معروفين في ذلك الوقت، ولم يكونا سراً، واستخدام المخدر من قبل رجال الطائفة لم يشهد به الكتاب الاسماعيليون، ولا كتّاب السنة الرصناء، لا بل حتى إن اسم «حشيشي» هو اسم سوري محلي فقط، وربما هو عبارة عن صيغة تشنيع عامة، ومهما يكن من أمر، كان الاسم هو الذي سبب ظهور القصة أكثر من العكس، وبين مختلف التفاسير التي قدمت حتى الآن، إن أشبهها

بالصحة هو أن هذه التسمية كانت تعبيراً عن الازدراء للاعتقادات الطائشة والمغالاة في السلوك لرجال الطائفة، وجاءت بمثابة تعليق ساخر على تصرفاتهم، ولم تكن وصفاً لممارساتهم، ومن المحتمل أن مثل هذه القصص قد خدمت ـ لاسيما بالنسبة للمراقبين الغربيين ـ في تقديم شرح معقول لسلوك كان بدون ذلك غير مفهوم كلياً.

ولقد فتحت مذكرة سلفستر دي ساسي الطريق إلى سلسلة أبعد من الدراسات حول الموضوع وأعمق، ومن المؤكد أن تاريخ الحشيشية للمستشرق النمساوي يوسف فون هامر Von Hammer هو أوسع هذه الدراسات قراءة، فلقد نشر بالألمانية في ستوتغارت Stuttgart في عام 1818م، ثم نشر بتراجم فرنسية وإنكليزية في عام 1832 وعام 1835م، ومع أن تاريخ هامر قد قام على مصادر شرقية، كان بالأكثر رسالة للعصر، جاءت بمثابة تحذير ضد «التأثير المخرب للجمعيات السرية . . . و . . . الامتهان المخيف للديانات، في سبيل الطموح المرعب وغير الملجوم»، وكان الحشيشية بالنسبة له «اتحاد مغرر بهم ومحتالين قوضوا ـ وهم تحت حجاب عقيدة أكثر قساوة وأصرم مُثلاً ـ الدين كله مع المثل، وظل تنظيم القتلة هذا الذي هوى تحت طعنات سكاكينه سادة العالم كله، قوة لمدة ثلاثة قرون، ولقد كان الحشيشية مرعوبين كونياً، وظلوا كذلك حتى سقط وكر الأوباش، مع سقوط الخلافة التي كانت مركزاً للسلطة الروحية الدنيوية، وهي التي أقسموا عند قيامهم على تهديمها، ولكن بدمارها هم أنفسهم هلكوا»، وخشية منه من عدم إدراك مقاصده، وعدم القدرة على قراءة أفكاره قراءة صحيحة، قام هامر بمقارنة الحشيشية بالداوية، والجوزويت، والمستنيرين، وجماعات الماسونية، ورجسيد Regicides (قتلة الملك) الجمعية الوطنية الفرنسية: «ومثلما قامت الجمعيات السرية الثورية في الغرب من صدر جماعات الماسونية، مثل ذلك حدث في الشرق، حيث نبعت طائفة الحشيشية من الاسماعيليين وأبدى خبل المستنيرين، الذين ظنوا أنهم بالتبشير فقط يستطيعون تحرير الأمم من الرعاية الواقية للأمراء، ومن القيادة المتينة للديانات العملية، نعم لقد أبدى هذا الخبل نفسه في أفظع الصور بوساطة تأثيرات الثورة الفرنسية، كما كان قد حدث من قبل في آسيا [في أَلَموت] أثناء حكم الحسن الثاني»[13].

وأحدث كتاب هامر تأثيراً كبيراً، وكان لمدة قرن ونصف القرن النبع الأساسي للصورة الشعبية الغربية عن الحشيشية، وفي الوقت نفسه، كان البحث العلمي يتقدم

خاصة في فرنسا، حيث أن كثيراً من العمل قد صنع في ميادين اكتشاف، وتحقيق، وترجمة، واستثمار النصوص العربية والفارسية المتعلقة بتاريخ الاسماعيلية في سورية وإيران، وكان من أهمها كتابات مؤرخين إيرانيين من العصر المغولي هما: الجويني، ورشيد الدين، اللذان نجحا معاً، كل على انفراد في التوصل إلى الكتابات الاسماعيلية، في ألموت، وهكذا كانا باستخدامهما إياها قادرين على تقديم أول بيان متعلق بالإمارة الاسماعيلية في شمالي إيران.

ولقد أمكن بظهور مادة من نوع جديد، تحقيق خطوة مهمة إلى الأمام، فقد أضاف استعمال المصادر الإسلامية الكثير إلى المعلومات التي جاءت من الكتابات الأوربية للعصور الوسطى، لكن هؤلاء حتى وإن كانوا غالباً سنيين، إلاّ أنهم كانوا بمعلوماتهم أفضل بكثير من المؤرخين والرحالة الغربيين، ومع ذلك كانوا أكثر عداء لعقيدة الاسماعيلية وأهدافهم، من أي عدو آخر، ومع ذلك ظهرت الآن ـ للمرة الأولى ـ إلى الوجود معلومات عكست مباشرة وجهة نظر الاسماعيلية أنفسهم، فقد لاحظ رحالة القرن الثامن عشر أنه ما يزال هناك اسماعيلية في بعض قرى سورية الوسطى، ففي عام 1810م قام روسو Rousseau القنصل الفرنسي العام في حلب، مدفوعاً من قبل سيلفستر دي ساسي، بنشر وصف للاسماعيلية في سورية، في أيامه مع شواهد: جغرافية، وتاريخية، ودينية[14].

ولم يذكر روسو مصادره، ولكن يبدو أنها كانت محلية وشفوية، وقام سيلفستر دي ساسي نفسه، فقدم بعضاً من الملاحظات الإضافية والشروحات، وكان روسو أول أوربي يعتمد على مثل هذه المعلومات المحلية، وهكذا جلب إلى أوربا ـ للمرة الأولى ـ بعض الفتات من المعلومات التي استقيت من الاسماعيلية أنفسهم، وقام عام 1812م بنشر مقتطفات من كتاب اسماعيلي حصل عليه في مصياف، التي هي واحدة من المراكز الأساسية للاسماعيلية في سورية، ومع أن هذا الفتات احتوى على معلومات تاريخية قليلة، إلاّ أنه ألقى بعض الضوء على العقيدة الدينية للطائفة، ووجدت نصوص اسماعيلية أخرى من سورية سبيلها إلى باريس، حيث نشر بعضها فيما بعد، وفي خلال القرن التاسع عشر، زار عدد من الرحالة الأوربيين والأمريكيين القرى الاسماعيلية في سورية، وكتبوا تقارير قصيرة حول الخرائب وسكانها.

وكانت المصادر من إيران، حيث بقايا قلعة أَلَموت العظيمة، ما تزال أقل توفراً، وفي عام 1833م قام ضابط بريطاني اسمه العقيد و. مونتيث W. Monteith بتقديم وصف لرحلة وصل بها حتى مدخل وادي ألموت، وقد نشر ذلك في مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، ولم يصل هذا الضابط إلى القلعة، ولم يتحقق من هويتها، وتم إنجاز هذا من قبل ضابط بريطاني آخر هو العميد سير جوستن شيل Justin Sheil، الذي ظهر تقريره في المجلة نفسها في عام 1838، وبعد سنوات قليلة قام ضابط بريطاني ثالث اسمه ستيورات Stauart بزيارة القلعة، ومرّ بعد هذا قرن قبل استئناف محاولات استكشاف أَلَموت[15].

ولكن كان هناك شيء أكثر من الخرائب ليخلد ذكرى عظمة ماضي الاسماعيلية في إيران، ففي عام 1811م، قام القنصل روسو أثناء رحلته من حلب إلى إيران بالسؤال عن الاسماعيلية، فدهش عندما علم بأن كثيراً منهم ما برحوا موجودين في البلاد، وأنهم يدينون بالطاعة لإمام من سلالة اسماعيل اسمه شاه خليل الله، وأنه كان يسكن في قرية اسمها كَخ قرب قُم، على منتصف الطريق بين طهران وأصفهان، وقال روسو: «إنني يمكن أن أضيف بأن شاه خليل الله، يُبجل من قبل أتباعه كإله تقريباً، وهم يدفعون له عطاء المعجزة، ويغنونه بما يعطون، وغالباً ما يفخمونه بلقب التعظيم للخليفة، وهناك اسماعيلية بعيداً حتى الهند، وهم يشاهدون باستمرار قادمين من ضفاف الغانغ Ganges والهندوس إلى كخ، ليحصلوا على تبريكات إمامهم، في مقابل الورع والتقديمات التي يحضرونها له»[16].

وفي عام 1825م أكد الرحالة الإنكليزي ج. ب. فريزر J. B. Fraser، استمرار وجود اسماعيلية في إيران، وتحدث عن ولائهم المستمر لرئيسهم، ومع أنهم لم يعودوا، بناء على أوامره، يمارسون أعمال الاغتيال، فإنه «حتى هذا اليوم يبجل هذا الشيخ، أو رئيس الطائفة، بشكل أعمى، من قبل الذين مازالوا موجودين، مع أن حماسهم قد فقد عمق وهول الصفات التي سلف وتحلوا بها»، وهنالك أيضاً أتباع للطائفة في الهند، وهم مخلصون لقديسهم ووليهم بشكل خاص، وكان شيخهم السالف شاه خليل الله قد قتل في يَزْد، وذلك في السنين القليلة الماضية» (في الحقيقة في عام 1817م) من قبل عصاة خرجوا على حاكم المدينة «فخلفه في مركزه الديني واحد من أولاده، الذي يقابل من قبل الطائفة بالاحترام نفسه»[17].

ثم تمّ الوصول التالي إلى المعلومات عن طريق مصدر مختلف تماماً، فقد عرضت في كانون الثاني لعام 1850م، قضية قتل غير عادية، أمام المحكمة الجنائية في بومباي، خلاصتها أن أربعة رجال تم الاعتداء عليهم في وضح النهار، وقتلوا أثناءه، وذلك نتيجة لخلاف بالرأي ضمن الجماعة الدينية نفسها، التي كانوا ينتمون إليها، وتمت محاكمة تسعة عشر رجلاً، وحكم على أربعة منهم بالإعدام وشنقوا، وكان الضحايا وقتلتهم معاً أعضاء طائفة إسلامية تعرف بالخوجات، وهي جماعة كانت تضم بضعة عشرات الألوف، كان غالبيتهم تجار في بومباي الرئيسية، وأجزاء أخرى من الهند.

ونشأ الحادث نتيجة خلاف كان قائماً منذ مدة كانت تزيد على العشرين عاماً، فلقد بدأ في عام 1827م، عندما رفض بعض من الخوجات أن يؤدوا المبالغ المعتادة إلى رئيس الطائفة، الذي كان يسكن في إيران، وكان هذا الرئيس هو ابن شاه خليل الله، الذي خلف والده المقتول في عام 1817م، والذي كان شاه إيران قد قام في عام 1818م بتعيينه حاكماً على محلاّه وقُم، ومنحه لقب آغا خان، وبهذا اللقب أصبح هو وأحفاده يعرفون عادة.

وعندما واجه الآغا خان الرفض المفاجئ، الذي صدر عن جماعة من أتباعه في الهند، بدفع مستلزماتهم الدينية، أرسل مبعوثاً خاصاً من إيران إلى بومباي، ليعمل على إعادتهم إلى الحظيرة، وذهبت جدة الآغا خان مع المبعوث، ويبدو أنها تحدثت بنفسها إلى خوجات بومباي، وذلك في محاولة منها لاسترداد طاعتهم، وعلى العموم بقي معظم الخوجات مخلصين لرئيسهم، ولكن جماعة صغيرة منهم ثابرت على معارضتها، وصممت على الإعلان أن أفرادها لا يدينون بالطاعة للآغا خان، وينكرون أن يكون الخوجات مرتبطين به بأي سبيل من السبل، ولقد تسببت نتيجة الصراعات ببعث شعور مر في داخل الطائفة، تصاعد وتطور إلى حوادث قتل عام 1850م.

وفي الوقت نفسه، كان الآغا خان نفسه قد غادر إيران، حيث كان قد قاد حركة مخفقة ضد الشاه، وبعدما أقام لمدة قصيرة في أفغانستان، قام بالالتجاء إلى الهند، وأعطته خدماته للبريطانيين في كل من أفغانستان والهند، بعض المسوغات للمطالبة بعرفان بريطاني بالجميل، وبعد أن مكث أولاً في السند، ثم في كلكتا، استقر أخيراً في بومباي، حيث جعل من نفسه رئيساً مؤثراً للخوجات، ومع ذلك بقي هناك بعض المخالفين الذين استمروا يعارضونه، ولذلك لجأوا إلى استخدام وسيلة القانون لإلحاق الهزيمة بادعاءاته،

وبعد القيام ببعض الأعمال التحضيرية قامت جماعة من المخالفين في نيسان 1866م، بكتابة شكوى والتماس إلى المحكمة العليا في بومباي، سألوا فيها إيقاف الآغا خان، ومنعه «من التدخل في إدارة ممتلكات الأوقاف Trust وشؤون طائفة الخوجات».

وتمّ النظر في الدعوى أمام رئيس العدالة السير جوزف آرنولد Joseph Arnold، واستغرق سماع القضية خمسة وعشرين يوماً، واستوعب معظم الهيئة القضائية في بومباي، وقدم كل فريق من الفريقين أدلة متقنة وموثقة، وهكذا اتسع نطاق تحقيقات المحكمة، وتعمق في التاريخ والشريعة والناموس، وبين العدد الكبير جداً من الشهود وقف الآغا خان نفسه أمام منصة المحكمة، وقدم أدلة على صحة نسبه، وفي الثاني عشر من تشرين الثاني لعام 1866م، أصدر السير جوزف آرنولد حكمه، فلقد «وجد بأن الخوجات في بومباي، هم جزء من جماعة الخوجات الهندية الكبرى، التي كانت ديانتها تلك التي اعتنقها الجناح الاسماعيلي من الشيعة، وكان أفراد هذه الطائفة جماعة من الناس، كان أجدادهم من أصل هندوسي، تحولوا إلى الاعتقاد بمذهب شيعة الإمامة الاسماعيلية، وأقاموا على ذلك وهي الإمامة التي كانت دائماً، وما تزال مرتبطة بالولاء الروحي إلى الأئمة الوراثيين للإسماعيلية»، ولقد تحولوا إلى هذا المذهب منذ ما يقارب الأربعمائة سنة، وذلك بوساطة دعاة من إيران، وهكذا استمروا رعايا تابعين للسلطة الروحية لسلسلة الأئمة الاسماعيليين، الذين كان آخرهم الآغا خان، وانحدر هؤلاء الأئمة من أصحاب ألَموت، ومن خلالهم ادعوا انحدارهم من خلفاء مصر الفاطميين، ومن ثم أخيراً من النبي محمدﷺ، وهم الذين غدا أتباعهم مشهورين خلال العصور الوسطى تحت اسم الحشيشية.

وجرى تأييد قرار حكم أرنولد بالبراهين، والحجج التاريخية الغنية، وهكذا أسس بصورة قانونية مكانة الخوجات كطائفة اسماعيلية، وهؤلاء الاسماعيلية ورثة الحشيشية، والآغا خان رئيساً روحياً لهؤلاء الاسماعيلية، ووريثاً لأئمة ألَموت، وفي عام 1899م، قدمت لأول مرة معلومات مفصلة عن الطائفة في الجريدة الرسمية لبومباي الرئيسية(18).

وجذب حكم آرنولد الانتباه إلى وجود فئات اسماعيلية في أنحاء أخرى من العالم، بعضهم لا يعترفون ـ بالحقيقة ـ بالآغا خان رئيساً لهم، وكانت هذه الفئات في الواقع مجرد أقليات صغيرة في أماكن نائية ومعزولة يصعب الوصول إليها بأية صورة ممكنة، وهي باطنية

حتى درجة الموت، متسترة حول معتقداتها وكتاباتها، وعلى الرغم من هذا كله، فقد وجدت بعض الكتابات سبيلها كمخطوطات ـ إلى أيدي بعض الباحثين، وفي البداية قدمت كل هذه المخطوطات من سورية، التي كانت المنطقة الأولى التي لفتت انتباه الغربيين إلى الاسماعيلية في العصر الحديث، وذلك مثلما فعلت خلال العصور الوسطى، ومع ذلك تابع بعضهم الآخر القدوم من مناطق نائية، ففي عام 1903 قام تاجر إيطالي اسمه كاربروتي Carprotti بجلب مجموعة تضم حوالي الستين مخطوطة عربية من صنعاء في اليمن، شكلت المجموعة الأولى لعدد من المخطوطات جلبت ومن ثم أودعت في مكتبة الأمبروزيانا Ambrosiana في ميلانو، ولقد تبين بعد فحص هذه المخطوطات أنهن يحوين عدداً من الكتابات عن العقيدة الإسماعيلية، جئن من عند السكان الاسماعيليين، الذين مازالوا يعيشون في أجزاء ومناطق من الجنوب العربي، ويضم بعضهن مقاطع كتبت بأجفار سرية[19]، وفي الطرف الآخر من أوربا، اكتشف الباحثون الروس، الذين كانوا بدورهم قد تلقوا بعض المخطوطات الاسماعيلية من سورية، بأن لديهم بعض الاسماعيلية ضمن حدود امبراطوريتهم، وبناء عليه نشر الكونت الكس ببرينسكوي Alexis Bebrinskoy في عام 1902 بياناً عن تنظيم الاسماعيلية وتوزعهم في آسيا الوسطى الروسية، وحوالي الوقت نفسه، حصل موظف من إدارة المستعمرات اسمه أ. بولوفتسف A. Polovitsev على كتاب ديني اسماعيلي كتب بالفارسية، وقد أودعت نسخة هذا الكتاب فيما بعد في المتحف الآسيوي التابع للأكاديمية الامبراطورية الروسية للعلوم، ثم جاءت نسخة أخرى، وفيما بين عامي 1914 و1918، حصل المتحف على مجموعة من المخطوطات الاسماعيلية التي جلبت من شوغنان Shughnan الواقعة في أعالي منطقة نهر جيحون، وكان ذلك بوساطة المستشرقين ي. ي. زاروبين I. I. Zarubin وأ. أ سيمونوف A. A. Semyonov، وقد تمكن الباحثون الروس بوساطة هذه المخطوطات مع مخطوطات أخرى تمّ الحصول عليها فيما بعد، من فحص الأدب المتعلق بالدين وبالعقيدة الاسماعيلية في فامير Pamir، وفي المناطق الأفغانية المتصلة ببدخشان Badakhashan.

وكان التقدم في الدراسات الاسماعيلية، منذ ذلك الوقت سريعاً ومدهشاً، فكثير من النصوص الاسماعيلية الأخرى، غدت متيسرة، لاسيما في المكتبات الغنية العائدة

للطائفة في شبه القارة الهندية، وجرى إنتاج الكثير من الأبحاث المفصلة من قبل الباحثين في مختلف الأصقاع، كان من ضمنهم بعض الباحثين كانوا أنفسهم اسماعيليين، وكان اكتشاف الأدب الضائع للطائفة، من بعض الجوانب مخيباً - بعض الشيء - للآمال، لاسيما في ميدان التاريخ، فغالبية الكتب التي ظهرت إلى النور تعلقت - من دون استثناء - بالدين وبالمسائل المتصلة بذلك، وكانت الكتابات التاريخية، أو التي لها صفة تأريخية قليلة من حيث العدد، وفقيرة من حيث المحتويات، وهذا لربما كان أمراً حتمياً بالنسبة لطائفة صغيرة لم تمتلك الأراضي ولا المؤسسات الواضحة، التي هي وحدها استطاع مؤرخ العصور الوسطى أن يتصورها ويتعامل معها، وحولها فقط تمكن من كتابة التاريخ، والاستثناء هو أن إمارة أَلَموت - كما يبدو - لوحدها، قد حوت بعض المؤرخين، لكن حتى كتابات هؤلاء وأعمالهم، حفظت من قبل أهل السنة، وليس من قبل مؤرخين اسماعيليين، ومع هذا إن الأدب الاسماعيلي وإن كان فقيراً في محتوياته التاريخية، هو من دون شك، لا تنقصه القيمة التاريخية، ومع أن الذي قدمه حول أخبار الأحداث التاريخية هو قليل - حيث هناك بعض الأخبار عن الحشيشية في إيران، وأقل من ذلك عن إخوانهم في سورية - إنه قد أسهم بدون حدود في المساعدة على فهم أحسن للقاعدة الدينية للحركة، وجعل من الممكن قيام تقدير جديد وتقويم لعقائد الاسماعيليين، وأهدافهم وديانتهم، ومكانتهم التاريخية في تاريخ الإسلام، ومثل ذلك للحشيشية بحكم كونها فرعاً للاسماعيلية، وباتت الصورة المكونة تختلف بشكل جذري عن الصورة التي تكونت قديماً عن الحشيشية من خلال جميع المرويات الجذابة، مع الأوهام التي جُلبت من الشرق، بوساطة رحالة العصور الوسطى، وكذلك عن الصورة المعادية والمشوهة التي استخلصها مستشرقو القرن التاسع عشر من مخطوطات كتابات فقهاء، ومؤرخي المسلمين السنة، الذين كان همهم الأساسي النقض والإدانة، وليس الفهم أو الشرح، ولم يعد الحشيشية يبدون مجرد عصابة مدمنين مغرر بهم، يقادون من قبل أدعياء مغامرين مخططين، أو من قبل متآمرين، لهم طبيعة إباحية تخريبية، أو عصبة قتلة محترفين، وهم من أجل ذلك كله ليسوا أقل قيمة ومكانة.

الفصل الثاني
الاسماعيليون

قامت أول أزمة سياسية في تاريخ الإسلام عند وفاة النبي ﷺ في عام 632م، ذلك أن النبي ﷺ لم يدّع قط أنه أكثر من إنسان فان، والذي ميزه عن الآخرين هو أنه كان رسول الله وحامل كلماته، ولكنه هو نفسه ليس رباً، وليس مخلداً، وهو ـ على كل حال ـ لم يترك تعليمات واضحة حول من سيخلفه قائداً للجماعة الإسلامية، وحاكماً للدولة الإسلامية الناشئة وكان لدى المسلمين التجارب السياسية الضئيلة لجزيرة العرب قبل الإسلام، ليسترشدوا بها، وبعد بعض النقاشات والجدل، ومواجهة ساعة خطر عظيمة، وافقوا على تعيين أبي بكر، الذي كان من أقدم المسلمين وأكثرهم احتراماً، على تعيينه خليفة للنبي ﷺ، وهكذا أوجدوا ـ على الأغلب ـ مصادفة مؤسسة الخلافة التاريخية العظيمة.

ومنذ الأيام الأولى للخلافة، كانت هناك فئة من الناس، شعر أفرادها بأن علياً ـ ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته ـ كان صاحب ادعاء أقوى لخلافة النبي ﷺ، من أبي بكر، ومن الخليفتين اللذان جاءا من بعده، وكان تأييدهم لعلي، من بعض الوجوده، ناجماً ـ بلاشك ـ عن يقينهم بأن صفاته الشخصية جعلته أحسن رجل للمنصب، ومن وجه آخر بسبب الاعتقاد بشرعية أهل البيت وأحقيتهم بالحكم، وفيما بعد أصبحت هذه الفئة تعرف باسم شيعة علي، ثم بكل بساطة باسم الشيعة، وسببت ـ مع مرور الأيام ـ نشوب أعظم صراع ديني في الإسلام.

وكان الشيعة ـ في البداية ـ أساساً أتباع حركة سياسية، بمثابة مؤيدين لمرشح للسلطة، ومن دون التميز بعقائد دينية، ومن دون محتويات دينية أكبر مما تمت وراثته في الطبيعة الأصيلة للسلطة السياسية الإسلامية، ولكن ما ليث أن حدثت تغييرات هامة في كل من

تشكل أتباعها مع طبيعة تعاليمها، فقد تراءى إلى كثير من المسلمين أن الجماعة الإسلامية مع الدولة قد أخذتا منحى غير صحيح، ففي مكان المجتمع المثالي الذي تصوره النبي ﷺ وأصحابه الخلفاء الراشدين الأوائل، قامت دولة عظمى (إمبراطورية) استبد بالسلطة فيها «أرستقراطية» جشعة ومستهترة غير مسؤولة، ففي محل العدالة والمساواة كان هناك عدم مساواة، وتمييز، وتحكم، وبناء عليه بدا لكثيرين ممن رأوا الأمور تحت هذا الضوء، أن الرجوع إلى قريب النبي ﷺ، ربما قد يجلب رجعة لرسالة الإسلام الأصيلة والحقة.

وفي عام 656 أصبح علي خليفة، وجاء ذلك بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان على أيدي متمردين مسلمين، ولكن حكمه كان قصيراً، فسد بالانشقاقات والحروب الأهلية، وعندما هو بدوره اغتيل انتقلت الخلافة إلى أيدي منافسه معاوية، والذي احتفظت أسرته ـ أي البيت الأموي ـ بها مدة تقارب القرن.

ولم تختف شيعة علي مع موته، بل استمرت جماعة لها دورها بين المسلمين، تقدم الولاء إلى آل بيت النبي ﷺ، حيث رأوا فيهم القادة الشرعيين للجماعة الإسلامية، وبالتدريج حصلت هذه المطالب مع المساندة التي جلبتها على سمات دينية، لا بل حتى على سمات مسائحية (مهدوية) ذلك أن الدولة الإسلامية، هي من حيث التصور العقائدي، دينية ـ سياسية، أسست وحفظت في ظل قانون إلهي، لأن السلطة في الإسلام جاءت من عند الله، والله هو الحاكم في دولة الإسلام، والخليفة رجل قد أؤتمن على واجبات حفظ الإسلام، وعلى تمكين المسلمين من العيش حياة إسلامية صالحة، ولم يعرف المجتمع الإسلامي التمييز بين الديني والدنيوي، سواء في القانون أم في الشريعة، أو في السلطة، والمسجد ومقر السلطة واحد وسواء، والخليفة إمام ورئيس، وفيما تعلق بقواعد التميز الفردي والترابط في المجتمع، وكذلك رباط الإخلاص والواجب في الدولة، نجد أنهم جميعاً قد جرى تصورهم، والتعبير عنهم في صيغ دينية، وعلى هذا يصبح التمييز الغربي المعتاد بين الديانة والسياسة، أو بين الميول السياسية والممارسات السلطوية من جهة، وبين الدين من جهة أخرى أمراً بعيد الصلة وغير حقيقي، وهنا يجد عدم الرضا السياسي، الذي هو نفسه ربما تكوّن لسبب اجتماعي، تعبيراً دينياً، وبذلك يحصل التمزق الديني على مضمون سياسي، وعندما قامت فئة من المسلمين بتقديم أكثر من معارضة شخصية، أو محلية صرفة للرجال الذين كانوا في السلطة، وعندما شكلوا تحدياً للنظام

القائم، وأنشأوا تنظيماً لتغييره، كان تحديهم آنذاك دينياً، وصارت منظمتهم فرقة، وفي المفهوم الإسلامي المزدوج لنظام الخلافة، لم يكن هناك أمامهم طريق آخر لإبداع وسيلة، أو تكوين عقيدة تمضي إلى ما وراء أعمالهم وأهدافهم الآنية.

وفي القرن الأول للتوسع الإسلامي، كانت هناك توترات كثيرة، دفعت إلى حدوث كوارث عديدة، كما كانت هناك مطامح وجدت طريقاً للتعبير عن ذاتها على شكل انشقاق طائفي وثورة، وجلب انتشار الإسلام، والتحول إليه، إلى الجماعة الإسلامية أعداداً كبيرة من المؤمنين الجدد، الذين حملوا معهم من ماضيهم المسيحي واليهودي، والإيراني، مفاهيم دينية، وميولاً لم تكن معروفة من قبل الأرستقراطية العربية الحاكمة، شعوراً بالظلم وعدم العدالة، وجعلتهم متطوعين راغبين، في الحركات التي طعنت بشرعية النظام القائم، ولم يكن العرب أنفسهم بمنآة عن هذه الشكاوي، فلقد نعى العرب الأتقياء دنيوية الخلفاء، وفئات السلطة والحكم، وقاوم البداة العرب تدخلات السلطة، وشرع آخرون كثر، ممن عانى من الفوارق الاقتصادية، والاجتماعية، الحادة، التي ترافقت مع الفتوحات وتكوين الثروات، شرعوا يشاركون في مآسي وآمال وآلام المتحولين الجدد، ولقد كان لدى كثير من هؤلاء مواريث وتقاليد سياسية وشرائع دينية، فلقد آمن اليهود والنصارى بقدسية بيت داود الملكي، وبنصره النهائي، وذلك من خلال المسيح المعمد، وتوقع الزرادشتية سوشيانس Soshyans، الذي هو مخلص سوف يقوم عند نهاية الزمان من الذرية المقدسة لزرادشت، وما أن تحول هؤلاء إلى الإسلام، حتى جذبتهم مطالب آل بيت النبي ﷺ، فقد بدت هذه المطالب والإدعاءات وكأنها تقدم وعداً بنهاية عدم المساواة في النظام الذي كان قائماً، ووفاء لجميع وعود الإسلام.

وفي تحول الشيعة من حزب إلى فرقة يمكن الحديث عن حادثتين لهما أهمية خاصة، نجمتا معاً عن محاولات مخفقة، قام بها شيعة لهم مطالبهم وإدعاءاتهم، وذلك في سبيل الإطاحة بالخلافة الأموية، وقاد المحاولة الأولى عام 680 الحسين بن علي، ابن فاطمة زوجة علي وابنة رسول الله ﷺ، ففي اليوم العاشر من محرم، وفي مكان في العراق اسمه كربلاء نازل الحسين وأتباعه قوة أموية كبيرة، فوضع هو وآله ومن معه للموت من دون رحمة، فقد لاقى حوالي السبعين رجلاً حتفهم في المذبحة، ونجا فقط طفل مريض من القتل هو علي [الأصغر] ابن الحسين، كان قد ترك متمدداً مريضاً في إحدى الخيم، ولقد

حقنت مأساة استشهاد آل النبي ﷺ هذه، وموجة الأحزان والتوبة التي لحقتها، حماسة دينية جديدة بين صفوف الشيعة، الذين باتوا الآن يستلهمون ملحمة العذاب الهائلة، والشهادة والتوبة.

وقامت نقطة التحول الثانية في نهاية القرن السابع، ومطلع القرن الثامن، ففي عام 685، قاد المختار ـ وهو عربي من الطائف ـ ثورة في الكوفة باسم ولد لعلي عرف باسم محمد بن الحنفية، الذي قال بأنه هو الإمام والرئيس الحقيقي والشرعي للمسلمين، ولحقت الهزيمة بالمختار، وقُتل في عام 687، ولكن حركته لم تمت، فبعدما مات محمد بن الحنفية في حوالي عام 700، كانت هناك فئة تقول بأن الإمامة قد انتقلت إلى ولده، وادعت فئة أخرى أنه لم يمت حقيقة، بل تغيب في جبال رضوى على مقربة من مكة، ومن هناك، سوف ـ في وقت يختاره الله ـ يعود فينتصر على أعدائه، وأطلق الآن على هذا الإمام المنتظر اسم المهدي.

وأرست هذه الحوادث الأساس لسلسلة طويلة من الحركات الثورية الدينية، وهناك كان يوجد في مثل هذه الحركات على الدوام شخصيتان مركزيتان: الإمام الذي هو أحياناً المهدي والقائد الحق، التي سوف يأتي لتحطيم الطغيان وإقامة العدل، والداعي الذي قام بالتبشير برسالته، أو بالحري غالباً ما تولى اختراع هذه الرسالة، وسجل المريدين والمستجيبين وجندهم، وصار من الممكن له أن يقودهم نحو النصر أو الشهادة، وفي منتصف القرن الثامن كسبت واحدة من هذه الحركات نجاحاً فعالاً، جلب الإطاحة بالأمويين، ومن ثم استبدالهم بالعباسيين، الذين شكلوا فرعاً آخر من فروع الأسرة التي كان منها كل من النبي ﷺ، وعلي بن أبي طالب، غير أن العباسيين تبرأوا في ساعة نصرهم من الفرقة التي جلبتهم إلى السلطة، وتخلصوا من دعاتها، واختاروا طريق الاستقرار والاستمرار في الدين والسياسة، وأدى التعويق الناتج للآمال الثورية إلى قيام عدم رضا جديد وعنيف أيضاً، وإلى موجات تطرف جديدة، وحركات مهدوية.

وكانت كل من مذاهب الشيعة وتنظيماتهم قد خضعت منذ زمن مبكر إلى تغيير متواصل، وظهر عدد كبير من أصحاب المطالب، الذين ادعوا ـ بمختلف الأقاويل ـ أنهم أعضاء من بيت النبي ﷺ أو وكلاء لآل النبي ﷺ، وبعدما أغنوا الوصف الأسطوري Mythical الخيالي للمخلص (المهدي) المنتظر، ببعض التفاصيل والشروح الجديدة،

اختفوا عن العيون البشرية، ولقد تنوعت برامجهم ما بين معتدلة - على الأكثر أو الأقل بمثابة معارضة أسروية - إلى هرطقات دينية متطرفة، حيث انحرفت بعيداً ونأت عن الأسس العامة والمقبولة لتعاليم الإسلام، وكانت إحدى السمات التي تكرر وقوعها، عقيدة الرجال المقدسين من أئمة ودعاة، الذين أُعتقد بأنهم ملكوا قوى خارقة، وقد عكست مذاهبهم أفكاراً رمزية وإلهامات جاءت من عند الصابئة والمانوية، ومن عند مختلف الهرطقات الإيرانية واليهودية - المسيحية، وكان من بين العقائد التي عزيت إليهم، تلك التي قالت بالحلول، وبتأليه الأئمة، لا بل حتى بعض الدعاة في كثير من الأحيان، وبالتحلل والإعفاء، أي التخلي عن جميع الأوامر والنواهي وهجرانها، وظهرت في بعض المناطق، من ذلك على سبيل المثال بين الفلاحين والبداة في مناطق من إيران وسورية، ديانات محلية متميزة، نتجت عن تفاعل تعاليم الشيعة ونحل وعقائد محلية أقدم.

وكان البرنامج السياسي للفرق بديهياً، هو الإطاحة بالنظام القائم، وإقامة إمامهم المختار، وإنه لمن الصعب التحقق من وجود أية برامج اجتماعية أو اقتصادية، مع أن أعمالهم وبواعثهم كانت متصلة بصورة واضحة بعدم رضا، وبتطلعات اجتماعية واقتصادية، ومن الممكن استخلاص بعض أفكار هذه التطلعات والبواعث من الأحاديث التي راجت حول شخصية المهدي، ذلك أنها أوضحت الأشياء الضرورية التي كان من المتوقع من المهدي مواجهتها، ولقد كان جزء من واجبه إسلامياً، في المعنى الواسع، أي إرجاع الإسلام الحقيقي، ونشر الإيمان إلى أقصى الأرض، وبشكل أكثر تحديداً، كان المهدي سيحقق العدالة ويجلبها «ويملأ الأرض عدلاً وطمأنينة بعدما ملئت جوراً وظلماً»، وهو سيقيم المساواة بين الضعيف والقوي، وسيجلب السلام والخير العميم.

وفي البداية أسس القادة الذين أعطاهم الشيعة ولاءهم، مطاليبهم ودعواتهم على قرابتهم من النبي ﷺ، أكثر من انحدارهم منه بخط نسب مباشر، من خلال ابنته فاطمة، فقد كان بعضهم، الذين من ضمنهم عدد من الأكثر نشاطاً، لم يكونوا من أبناء فاطمة، وبعضهم أيضاً لم يكونوا أيضاً حتى من أبناء علي، وإنما من فروع أخرى من عشيرة النبي ﷺ، ولكن بعد النصر العباسي، وغدر العباسيين وخيانتهم، ركز الشيعة آمالهم على أبناء علي، وبين هؤلاء على الذين ولدوا بشكل خاص من زواجه من ابنة النبي ﷺ، وباستمرار

ازداد إلقاء الإلحاح على أهمية الانحدار المباشر من النبي ﷺ، وكان هؤلاء هم (الإمام) علي وولديه الحسن والحسين، وبعد ذلك أبناء الحسين من خلال ولده زين العابدين، الذكر الوحيد الذي عاش بعد مأساة كربلاء، لأن الحسن كان قد اعتزل العمل السياسي، لكن الحسين تمسك بحقه واستشهد في كربلاء، وبعد كربلاء أهدر كثير من المطالبين أنفسهم وأضاعوا جهودهم في محاولات غير مجدية للاطاحة بالخلافة بالقوة، لكن الأئمة الشرعيون آثروا أن يعملوا نوعاً من المعارضة القانونية للخلفاء في السلطة، وبناء عليه أقاموا في مكة أو في المدينة بعيداً عن المراكز السياسية الأساسية، وظلوا محافظين على مطالبهم وعلى ادعاءاتهم، وعملوا بالوقت نفسه قليلاً لدفعها إلى الأمام، ومع ذلك تصرفوا في بعض الأحيان بصورة معاكسة لمطالبهم وادعاءاتهم، حيث قدم بعضهم في بعض الأحيان اعترافهم للأمويين، لا بل أكثر من هذا قدموا لهم النصيحة والمساعدة، ومن بعد الأمويين فعلوا الشيء نفسه مع العباسيين الحكام الجدد لدار الخلافة، وهنا أعطيت تصرفات الأئمة الشرعيين وميولهم لوناً دينياً خاصاً في تقاليد الورع الشيعي، فقد جاءت إيجابياتهم تعبيراً عن حكمتهم وورعهم، وانشغالهم بالحياة الآتية، وكانت طاعتهم ضرورة جرى تطبيقها تماشياً مع مبادئ التقية.

ويعبر اصطلاح التقية عن عقيدة إسلامية خاصة بالترخيص العلني، وقوام الفكرة هي أنه تحت الإكراه أو الخوف، يمكن تحليل المؤمن من أداء بعض الفرائض الدينية، وطبعاً حددت قاعدة التقية وفهمت وسط خلاف كبير، ومع ذلك إنه بلا ريب لم يكن ذلك خاصاً بالشيعة لوحدهم، مع أنهم ـ على كل حال ـ كانوا هم الذين تعرضوا بصورة متواصلة لمخاطر الملاحقة، والتنكيل، والإرهاب، ولذلك جاء اعتمادهم على قاعدة التقية واستنادهم عليها أكثر تكراراً، كما واستعملت التقية لتسويغ إخفاء عقائد كانت من الممكن أن تثير عداء السلطات، أو الجماهير، ولقد استعيرت هذه القاعدة واعتمدت بمثابة جواب معلل للتحطيم العسكري الذاتي الذي قاد العديد إلى حتفهم في ثورات كانت تماماً من دون أمل.

وكان النصف الأول من القرن الثامن حقبة نشاط هائل بين الشيعة المتطرفين، فقد ظهر فيه عدد لا يحصى من الفرق وأشباه الفرق، خاصة بين خليط سكان جنوبي العراق، وشواطئ الخليج العربي، وكانت مذاهبهم متعددة ومزيجة، كما كان التحول من طائفة أو

رئيس إلى آخر سهلاً ومتكرراً، وورد في المصادر الإسلامية أسماء العديد من الدعاة الدينيين، الذين كان بعضهم من أصل وضيع، قادوا ثورات، ووضعوا للسيف، وتعزو إلى بعضهم عقائد أصبحت فيما بعد خاصة بالاسماعيلية، فقد مارست إحدى الجماعات الخنق بوساطة وتر، وذلك بمثابة واجب ديني، وفي هذا مواز بديهي للخناقين الهنود، ونموذج متقدم لحشيشية القرون المتأخرة، هذا ويلاحظ أنه حتى بين الذين كانوا متساهلين في مواقفهم وعقائدهم، وجدت جماعات لها سمات عسكرية، حاولت الاستيلاء على السلطة باستخدام القوة، فتكبدت الهزيمة، ونالت الدمار على أيدي الجيوش الأموية، ثم بعد ذلك الجيوش العباسية.

ومع النصف الثاني للقرن الثامن، كانت الحركات المتطرفة والعسكرية السالفة قد أخفقت في الغالب، ومن ثم اختفت، أو انحدرت إلى شيء ليس له قيمة، فلقد كان الأئمة الشرعيون المتساهلون ولينوا العريكة، ولكن الثابتي العزم، هم الذين حفظوا وأغنوا عقيدة الشيعة، ومهدوا الطريق وهيأوا السبل إلى جهد أكبر وجديد، من أجل كسب سلطة العالم الإسلامي.

لكن على الرغم من الإخفاقات، وعلى الرغم من عدم التشجيع من قبل الأئمة أنفسهم، تابعت العناصر المتطرفة العسكرية الظهور، حتى بين الحاشية المباشرة للأئمة الشرعيين، ووقع في عام 765 الانقسام الحاسم بين الغلاة والمتساهلين، وجاء ذلك بعد موت جعفر الصادق، الإمام السادس بعد علي، فلقد كان اسماعيل أسن أولاد جعفر، ولأسباب غير واضحة تماماً حُرم اسماعيل، وجاء ذلك ربما لتعايشة مع العناصر المتطرفة، واعترف قسم كبير من الشيعة بأخيه الأصغر منه موسى الكاظم، إماماً سابعاً، واستمر خط موسى بالتتابع حتى الإمام الثاني عشر، الذي اختفى في عام 873، وهو ما يزال «الإمام المنتظر» أو «المهدي المنتظر» وذلك بالنسبة إلى أكثرية شيعة اليوم الحالي، ويعرف أتباع الأئمة الاثنى عشر باسم الاثني عشرية، وهم يمثلون الجناح الأكثر اعتدالاً بالنسبة لفرقة الشيعة، واختلافاتهم عن الكتلة الرئيسية لمسلمي السنة محصورة في بعض النقاط العقائدية التي غدت في السنوات الأخيرة أضأل أهمية، وكان مذهب الاثني عشرية قد أصبح منذ القرن السادس عشر المذهب الرسمي لإيران.

وتبعت فئة أخرى اسماعيل وسلالته، وهم عرفوا لذلك بالاسماعيلية، وشكل الاسماعيلية بعد عمل طويل بالسر فرقة تفوقت - بالتحامها وتماسكها الداخلي وتنظيمها، وبقدرتها في مجالات كل من الجذب الثقافي والانفعالي - على جميع المنافسين لها، ففي محل التوقعات المشوشة، والإيمان البدائي بالخوارق للفرق السالفة، أحكم عدد من العلماء المتميزين نظاماً للعقيدة الدينية على مستوى كان فلسفياً رفيعاً، وأنتجوا أدباً، أخذ الآن، مرة أخرى، بعد قرون طويلة من الاختفاء يحصل على الاعتراف بقيمته الحقيقية، فقد قدم الاسماعيليون للورعين الأتقياء احتراماً للقرآن والحديث، والشريعة، ليس أقل من ذاك الذي قدمه أهل السنة، وقدموا للمثقفين شرحاً فلسفياً للكون معتمداً على مصادر القدماء، وخاصة أفكار الأفلاطونية المحدثة، وجلبوا للأتقياء الروحانيين دفئاً وإيماناً عاطفياً شخصياً مدعماً بشواهد من معاناة الأئمة، وقدموا أخيراً للحانقين سحر حركة معارضة، حسنة التنظيم، وواسعة الانتشار وقوية، وبدت وكأنها تقدم إمكانية حقيقية للإطاحة بالنظام القائم، وإقامة مجتمع عادل وجديد يحل مكانه، يترأسه الإمام الوارث للنبي ﷺ، والمختار من قبل الله، والقائد الشرعي الوحيد للجنس البشري. والإمام شخصية أساسية بالنسبة للنظام الاسماعيلي، في مجالات التنظيم، والإخلاص، والعمل، فبعد خلق العالم بوساطة تأثير عمل العقل الكلي على الروح الكلية، دخل التاريخ الإنساني في سلسلة من الدورات، أو بالحري الأدوار، بدأ كل دور منها بإمام ناطق أو نبي، تبعه أو زامنه تعاقب للأئمة الصامتين، فهناك على هذا أدوار أئمة مستترين (أئمة ستر) وأدوار أئمة ظاهرين، وذلك تبعاً لحقب الستر والخفاء، ولحقب نجاح الإيمان وظهوره، وكان الأئمة في الدور الحالي من أبناء فاطمة وعلي من خلال اسماعيل، وكان هؤلاء ملهمين ربانياً، ومعصومين، أو بالحري كانوا أنفسهم ربانيين، وبما أن الإمام هو هيولي الكون وأصله وشكل تجسيداً لروح ما وراء الطبيعة للكون، كان على هذا الأساس المنبع الأساسي للمعرفة، والسلطة، وكان هو أيضاً المنبع الرئيسي لحقائق الباطن، التي كانت مخفية عن الذين لم يصلهم البلاغ، وهو أيضاً صاحب أوامر تقتضي طاعة كاملة وعمياء.

ومن أجل المريد كانت هناك الدراما مع إثارة المعرفة الباطنية والعمل السري، وأمكن جعل هذا معروفاً من خلال التأويل الباطني، والتأويل الباطني هو عقيدة وممارسة تميزت

بها هذه الطائفة، وبذلك سببت قيام اصطلاح باطني، وهو ما عرفت به أحياناً، فقد ذهب الاسماعيليون إلى القول أنه إلى جانب معاني أوامر القرآن والحديث البديهية والحرفية، هناك معاني أخرى رمزية، وتأويلات باطنية على درجات، كشفت من قبل الإمام، وأبيحت من جهته، وجرى تعليمها إلى المريدين، وذهبت بعض فروع الفرقة حتى إلى أبعد من هذا، فتبنت عقائد مخالفة للشريعة وقد تكرر وقوع مثل هذا عند بعض غلاة المتصوفة المسلمين والهراطقة المتطرفين، ومن هذا المنطلق قالوا: إن الغايات النهائية للفرائض الدينية هي المعرفة، معرفة باطنية، بالإمام الحقيقي، فقد أقيم المعنى الحرفي للشريعة من أجل الاعتقاد الظاهري والاستمرار والديمومة، وإذا كان ولابد بمثابة عقاب للذنب، وبناء عليه فإن البحث عن الحقيقة الباطنية هو الموضوع العام للكتابات الدينية الاسماعيلية، وهذا البحث قد يبدو في البداية عبثاً، لكنه ما يلبث أن يتجمع بعد ذلك، ثم ينجلي في لحظة كشف باهرة، ولقد كان تنظيم الفرقة ونشاطها، والوصاية عليها، والدعوة إليها وإلى عقائدها وتعاليمها في أيدي طبقات من الدعاة مرتبين بالتدريج تحت قيادة رئيس لهم عرف باسم داعي الدعاة، وكان داعي الدعاة هو المعاون المباشر للإمام.

وخلال القرن الأول ونصف القرن بعد وفاة اسماعيل، بقي الأئمة الاسماعيليون، متخفون، وقليل هو المعروف عنهم لا بل حتى أعمال الدعاة وتعاليمهم والذي بشروا به، وبدأت مرحلة جديدة في النصف الثاني من القرن التاسع، وذلك عندما بدا أن الضعف المتنامي والواضح للخلافة العباسية في بغداد ينبئ بانهيار دولة الخلافة الإسلامية ودمارها، ويشير إلى تمزق المجتمع الإسلامي، وزوال وحدة الجماعات الإسلامية، فقد ظهرت في الأقاليم أسر حاكمة محلية جديدة، كانت بالعادة عسكرية، وفي بعض الأحيان من أصل قبلي، وكانت على الغالب قصيرة الحياة، كما كانت في بعض المناطق مبتزة وظالمة، لا بل في العاصمة نفسها أخذ الخلفاء يفقدون سلطتهم، ليصبحوا ألاعيب بلا أمل، بين أيدي عساكرهم، وهكذا نجد أن أسس الثقة والقبول بالهيئة الجامعة للإسلام قد تفتت، وشرع الناس يتطلعون نحو جهات أخرى من أجل الحصول على الراحة، وفي سبيل إعادة الطمأنينة، وفي أوقات تعاظم هذه الشكوك جاء الإصغاء بانتباه جديد إلى رسالة الشيعة: إن الجماعة الإسلامية قد أضلت السبيل، وأنه يتوجب إعادتها إلى الطريق القويم، وكسب كل من فرعي الشيعة: الاثني عشرية، والاسماعيلية من هذه الفرص، وبدا أولاً أن الشيعة

الاثني عشرية كانوا على أبواب النصر، ففي عدة أماكن ظهرت أسر اثني عشرية حاكمة، وفي سنة 946 قامت أسرة شيعية (زيدية) من فارس، هي الأسرة البويهية الديلمية بإنزال الإذلال النهائي بأهل السنة، وذلك بوساطة الاستيلاء على بغداد، ووضع الخليفة نفسه تحت سيطرة شيعية، لكن لم يكن للاثني عشرية في ذلك الوقت إمام، لأن الإمام الثاني عشر والأخير كان قد اختفى منذ سبعين سنة خلت، ووجد البويهيون [وقد أخفقوا في إيجاد خليفة زيدي] أنفسهم أمام اختيار حاسم، فقرروا عدم الاعتراف بأي من أصحاب المطالب والإدعاءات العلويين الآخرين، والإبقاء على الخلفاء العباسيين بالاسم واللقب فقط، تحت حكمهم وسلطتهم، وبصنعهم هذا وتصرفهم هكذا ألحقوا خزياً أعظم بخلافة أهل السنة التي كانت قد تلطخت، وقاموا بالوقت نفسه فأزالوا أخيراً فرقة الشيعة المعتدلة وأبعدوها عن أن تكون بديلاً جدياً للخلافة العباسية.

وكانت هناك أشياء كثيرة جعلت الناس يبحثون عن البديل وينشدونه، فقد جلبت التغييرات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة للقرنين الثامن والتاسع ثروة كبيرة وقوة لبعض الناس، وشقاء وإعاقة لآخرين، ففي الأرياف ترافق نمو المؤسسات الكبيرة، والتي كانت في الغالب ذات امتيازات مالية، مع إفقار المستأجرين وصغار الملاك وإخضاعهم، وفي المدن أوجد تطور التجارة والصناعة شريحة من العمال المتجولين، واجتذب سكاناً غير مستقرين وعائمين ممن ليس لهم جذور، ومهاجرين محتاجين، وفي وسط الرفاه العظيم، كان هناك كرب عظيم، وقدم الجفاف القانوني، والترفع والسمو البعيد لعقيدة أهل السنة، والمواءمة الحذرة لفقهائها المقدرين، قليلاً من الراحة للمحرومين ومجالاً ضيقاً للحنين الروحي للمستأصلين والتعساء، ولقد كان هناك ارتباك ثقافي أيضاً، فالفكر الإسلامي والتعليم الذي ازداد ثراء عن طريق كثير من المصادر، كان قد أصبح أكبر براعة، وأكبر خبرة، وأشد تشعباً، وكانت هنالك مشاكل عظيمة ومؤلمة، تحتاج إلى تقدير ومواجهة وتقويم نشأ بعضها عن مواجهة الوحي الإسلامي لعلوم اليونان والفلسفة الإغريقية، والحكمة الفارسية، وحقائق التاريخ الصعبة، وبين الكثير كان هناك فقدان الثقة بالأجوبة الإسلامية المعتادة، ورغبة ملحة بازدياد وتطلع إلى أجوبة جديدة، وبدا الإجماع الإسلامي العظيم في مجالات الدين، والفلسفة، والسياسة والاجتماع وكأنه يتفتت، وتوفرت الحاجة إلى مثل جديدة وعادلة ومؤثرة للوحدة والسلطة لإنقاذ الإسلام من الدمار.

وكانت القوى العظيمة للاسماعيلية هي التي تستطيع تقديم مثل هذه المثل ، وذلك في إطار تصميم نظام عالمي جديد ، في ظل الإمام وتحت قيادته ، وهكذا جلبت الرسالة ، ودعوة الدعاة الراحة والأمل إلى كل من الأتباع والمتزمرين ، وقدمت الصيغة الاسماعيلية إلى الفلاسفة ، ورجال الدين ، والشعراء والعلماء جذباً مغوياً ، لكن بسبب ردات الفعل الشديدة ضد الاسماعيلية في الحقب المتأخرة ، اختفى معظم نتاجهم الفكري وأدبهم من الأراضي المركزية للإسلام ، وتمّ حفظ ذلك كله بين أتباع الطائفة أنفسهم ، ولكن بعض الأعمال المستوحاة من الفكر الاسماعيلي والمتأثرة به ، كانت واسعة الانتشار ، وهكذا أبدى عدد كبير من عظماء المفكرين الأوائل بالعربية وبالفارسية ، بعض المؤثرات الاسماعيلية ، وظهرت آثار ذلك في مؤلفاتهم وأفكارهم ، فرسائل إخوان الصفا ، الموسوعة المشهورة للمعارف الدينية والدنيوية ، التي صنفت في القرن العاشر ، مشبعة بالتفكير الاسماعيلي ، وهي قد أحدثت تأثيراً عميقاً على الحياة الثقافية الإسلامية من إيران إلى الأندلس .

ولذلك ليس أمراً مدهشاً أن حقق الدعاة نجاحاً خاصاً في مناطق مثل جنوب العراق ، وشواطئ الخليج العربي ، وأجزاء من إيران ، حيث كانت تنظيمات قديمة لعسكري الشيعة وغلاتهم قد ربحت كثيراً من الأتباع ، أو حيث كانت المواريث العقائدية المحلية قد منحت أرضية مناسبة ، وفي نهاية القرن التاسع كان فرع للاسماعيلية يعرف بالقرامطة ، على الرغم من أن علاقاتهم الثابتة والمحققة مع الجسم الأساسي العام للاسماعيلية أمر غير مؤكد تماماً ، أو كان متأرجحاً ، على الرغم من ذلك تمكن هذا الفرع واستطاع كسب السيطرة ، وتمكن من إقامة شكل من أشكال الجمهورية في المناطق الشرقية لشبه جزيرة العرب ، خدمتهم بمثابة قاعدة لمدة تزيد على القرن للعمليات العسكرية والدعوية ضد الخلافة ، وأخفقت محاولات قرمطية للسيطرة على السلطة في سورية ، وكان ذلك في بداية القرن العاشر ، ومع ذلك كان هذا الحدث بحد ذاته خطيراً ، عبر عن وجود بعض التأييد المحلي للاسماعيلية ، حتى في ذلك التاريخ المبكر .

وجاء النصر الأعظم للقضية الاسماعيلية في بقعة أخرى ، فقد ربحت في نهاية القرن التاسع بعثة كانت قد أرسلت إلى اليمن كثيراً من المستجيبين مع قاعدة ذات قوة سياسية ، ومن هناك جرى إرسال عدد من البعثات إلى بلدان أخرى ، بما في ذلك الهند ، والشمال الإفريقي ، وفي الشمال الإفريقي تحققت أعظم النجاحات ، وأبعدها دوياً

وتأثيراً، حتى أن الحركة كانت في عام 909 قوية بما فيه الكفاية، لأن يظهر الإمام المستتر من مكان اختفائه، ويعلن عن نفسه خليفة في تونس بلقب المهدي، وبهذا أسس دولة جديدة، وأسرة حاكمة، عرف أفرادها بالفاطميين، وشهروا بهذا الاسم، إشارة لدعوى انحدارهم من فاطمة ابنة النبي ﷺ.

وحكم الفاطميون في نصف القرن الأول في المغرب الكبير فقط في الشمال الإفريقي وصقلية، لكن كانت أعينهم ـ على كل حال ـ تتطلع نحو المشرق، قلب الأراضي الإسلامية، حيث كانوا هناك فقط يأملون بالتوصل إلى هدفهم المأمول وغايتهم القصوى في طرد الخلفاء العباسيين السنة، وإقامة أنفسهم رأساً منفرداً للإسلام كله، وكان آنذاك العملاء الفاطميون والدعاة الاسماعيليون نشيطين في أراضي أهل السنة، كما أعدت الجيوش الفاطمية في تونس من أجل الاستيلاء على مصر، وذلك كخطوة أولى على الطريق نحو الاستيلاء على دولة الخلافة في المشرق.

وفي عام 969 تمت هذه الخطوة تماماً، فاستولت الجيوش الفاطمية على وادي النيل، وما لبثت أن أخذت على الفور بالزحف عبر سيناء إلى فلسطين والشام الجنوبي، وقرب الفسطاط المركز القديم للحكومة، بنى القادة الفاطميون مدينة جديدة، عرفت باسم القاهرة، لتكون حاضرة لخلافتهم، وأنشأوا فيها مسجداً جديداً، كان جامعة بالوقت نفسه، سموه الأزهر، وأرادوه أن يكون حصناً لعقيدتهم، وانتقل الخليفة المعز من تونس إلى مقره الجديد، حيث حكم، ومن بعده سلالته للمائتي عام المقبلين.

وأصبح الآن التحدي الاسماعيلي للنظام القديم أقرب وأقوى، وتمت المحافظة عليه بوساطة قوة عظمى، كانت لوقت طويل هي الأعظم في العالم الإسلامي، وشملت الخلافة الفاطمية وهي في ذروة قوتها: مصر، وسورية، وشمال أفريقيا، وصقلية، والشاطئ الأفريقي للبحر الأحمر، واليمن، والحجاز، بما في ذلك المدينتين المقدستين: مكة، والمدينة، وذلك بالإضافة إلى شبكة واسعة من الدعاة جرى توجيهها من قبل الخليفة الفاطمي، كما امتلك هذا الخليفة ولاء أعداد لا تحصى من الأتباع في بلدان كانت ماتزال خاضعة لحكام من أهل السنة في المشرق، وفي معاهد القاهرة العظيمة، أحكم العلماء والأساتذة بناء عقائد المذهب الاسماعيلي، ودربوا الدعاة للتبشير بين غير الاسماعيلية في الداخل والخارج، وكانت إيران وآسيا الوسطى بين أهم مناطق نشاطهم الرئيسية، حيث

وَجَدَ منها كثير من الساعين وراء المعرفة والحقيقة طريقهم إلى القاهرة، وإليها عادوا بعد أمد شراحاً بارعين للرسالة الإسماعيلية ودعاة لها، وكان من أشهر هؤلاء الفيلسوف الشاعر الرحالة ناصر خسرو، الذي تحول إلى المذهب الاسماعيلي أثناء زيارته لمصر في عام 1046، وقد عاد من هناك ليبشر بالاسماعيلية في الأراضي المشرقية، حيث امتلك نفوذاً ومارس تأثيراً عظيماً.

وكانت ردات فعل أهل السنة في البداية محدودة وغير فعالة، مجرد خطوات أمنية ضد الدعاة، وحرب سياسية كلامية ضد الفاطميين الذي اتهموا في محضر جرى نشره في بغداد في عام 1011، بشكل غير مقنع بعض الشيء ـ بأنهم ليسوا فاطميين، بل من سلالة دعي فاسد السمعة.

ومع هذا، إنه على الرغم من هذه القوة المفرطة والجهد العظيم للحرب السياسية والدينية والاقتصادية ضد الخلافة العباسية، أخفق التحدي الفاطمي، واستمرت الخلافة العباسية بالبقاء، وتعافى الإسلام السني، وبالتالي فقد الخلفاء الفاطميون خلافتهم، وسلطتهم ثم أتباعهم.

وينبغي البحث عن جزء من أسباب هذا الإخفاق في أحداث الشرق، حيث وقعت تغييرات كبيرة جداً، فقد أوقف قدوم الشعوب التركية التمزق السياسي في جنوبي غربي آسيا، وأمكن ولو لبعض الوقت استرداد الوحدة والاستقرار لأراضي الخلافة السنية بعدما كانت قد فقدتها، وكان المستولون المسيطرون الترك، مهتدون دخلوا في الإسلام منذ وقت قريب، وكانوا متحمسين مخلصين للسنة، وكانوا مشبعين بشعور قوي بواجبهم نحو الإسلام، وبمسؤولياتهم بمثابة حماة جدد للخليفة، وبكونهم سادة للعالم الإسلامي في سبيل تمتينه وحمايته من المخاطر الداخلية والخارجية، ولقد أدوا واجبهم هذا تماماً، حيث هيأ حكام ترك وجند تركمان القوة، والبراعة السياسية والعسكرية اللازمة للصمود والاستمرار، وللتصدي للخطرين الكبيرين اللذين هددا الإسلام السني، وهما التحدي الاسماعيلي، وبعد ذلك الحملات الصليبية من أوربا.

وساعدت الأخطار نفسها، أي الانشقاق الديني المذهبي، والغزو الأجنبي، على إثارة البعث السني العظيم وتنشيطه، وهو البعث الذي كان بادئاً بتجميع قواه، فقد كان ما يزال في العالم السني احتياطات عظيمة للطاقة الدينية، وذلك في فقه رجال المدارس،

وفي روحية الصوفية، والانصراف الكلي الورع لأتباعهم، وفي وقت المحنة والمعافاة هذا، أمكن الوصول إلى تركيب جديد، مع أجوبة جديدة لكل من التحدي الثقافي للفكر الإسماعيلي، والجذب العاطفي للعقيدة الإسماعيلية.

وفي الوقت الذي كان فيه خصوم الاسماعيلية من أهل السنة يربحون في مجالات القوة العسكرية والسياسية والدينية، كانت قضية الاسماعيليين الفاطميين قد ضعفت بالتمزق والانحدار، لا بل التدهور السياسي، وكان قد نتج أول صدام داخلي جدي داخل الاسماعيلية نفسها، عن نجاح الفاطميين ذاته، فقد تطلبت حاجات الأسرة الحاكمة، ومسؤوليات الدولة الكبرى إدخال بعض التعديلات في بنية العقائد القديمة، وفي كلمات باحث اسماعيلي حديث «تطلبت تبني ميول رزينة، وأكثر محافظة تجاه النظام الإسلامي الذي كان قائماً آنذاك»[1].

ومنذ البداية كان هناك خلاف بين متطرفي الاسماعيلة، والمحافظين منهم، أي بين المتمسكين المحافظين على الإسلام الظاهري وبين المؤولين الباحثين عن الأسرار الباطنية والساعين وراءها، وكان على الخلفاء الفاطميين لذلك، أن يواجهوا من وقت إلى آخر انشقاقاً، لا بل حتى مقاومة مسلحة حيث سحبت فئات من أتباعهم موافقاتها وتأييدها، ومن قبل، كان هناك في زمن الخليفة الفاطمي الأول في الشمال الأفريقي، انشقاق وخلافات بين دعاة ذوي آراء متنوعة، وترافق ذلك مع بعض أعمال التخلي عن المعسكر الفاطمي والانسحاب منه، وقد واجه المعز ـ الخليفة الفاطمي الرابع الصعوبات نفسها، في الوقت نفسه، الذي سيطر فيه على مصر، حتى أنه أجبر على القتال ضد القرامطة، الذين قدموا من شرقي الجزيرة العربية، والذين بعد مساندتهم للفاطميين أولاً، انداروا ضدهم، وقاتلوا جيوشهم في سورية ومصر، ويبدوا أنه في وقت متأخر، عاد القرامطة إلى الولاء الفاطمي، ثم اختفوا لتحولهم إلى كيان منعزل، كما حدث انشقاق آخر بعد اختفاء الحاكم ـ الخليفة السادس ـ في عام 1021 في ظروف غامضة، ووقتها اعتقدت فئة من الاسماعيلية بأن الحاكم كان ربانياً، وأنه لم يمت، بل عاد صعوداً إلى عنصره أو ذهب في غيبوبة، ورفضوا الاعتراف بخليفته على العرش الفاطمي، وانفصلوا عن الجسم العام للفرقة الاسماعيلية، ونالوا بعض النجاح في كسب بعض المساندة بين اسماعيلية سورية حيث ما تزال فئات منهم موجودة في دول الوقت الحالي: سورية، ولبنان، وفلسطين المحتلة، وكان

واحد من مؤسسي هذه الطائفة داعية أصله من آسيا الوسطى، عرف باسم محمد بن اسماعيل الدرزي، وصدوراً عن اسمه هم ما يزالون يعرفون باسم الدروز.

ووصلت الدولة الفاطمية أثناء الحكم المديد للمستنصر (1036 ـ 1094) ـ الخليفة الثامن، إلى ذروتها، ثم هوت في انحدار سريع، فعند موته كان الدعوة الاسماعيلية قد تمزقت إلى أجزاء بسبب انشقاقها الداخلي الأكبر.

ففي أوائل الحكم الفاطمي احتفظ الخليفة بسيطرة شخصية على جميع الأعمال، وترأس بسلطة مساوية فوق الفروع الثلاثة الكبيرة للدولة وهي: جماعة الإدارة، والشريحة الدينية العليا، والقوات المسلحة، وكان رأس جماعة الإدارة المدنية هو الرئيس الفعال والمؤثر للحكومة بعد الخليفة، وكان رئيس الشريحة الدينية العليا هو داعي الدعاة، وهو تولى قيادة وإمرة الجيش الكبير من العملاء والدعاة الاسماعيليين في الخارج، وذلك بالإضافة إلى توجيهه للمؤسسة الاسماعيلية داخل الدولة، وترأس قائد القوات المسلحة ـ في حكم كان بالأساس مدنياً ـ الفرع الثالث، ومهما يكن من أمر، كان العسكريون منذ وفاة الحاكم قد شرعوا بزيادة قوتهم وسلطتهم باضطراد على حساب المدنيين، لا بل حتى على حساب الخليفة نفسه، وعجلت الانتكاسات، والمصائب والاخفاقات، واضطرابات منتصف القرن الحادي عشر هذه العملية، وكان أن اكتملت في عام 1074، عندما تحرك بدر الجمالي، الحاكم العسكري لعكا مع جيشه الخاص إلى مصر، وذلك بناء على دعوة الخليفة، ليستولي على مقاليد الأمور، وأصبح بدر على الفورسيد البلد، مع ألقاب ثلاثة منحت له من قبل الخليفة، وهي: أمير الجيوش، وداعي الدعاة، ووزير، وهذا يدلل على سيطرته على فروع السلطة الثلاثة: العسكري، والديني، والإداري، وهو على كل حال بات عادة يعرف باللقب الأول من هذه الألقاب (أمير الجيوش).

ومنذ ذلك التاريخ أصبح سيد مصر الحقيقي هو أمير الجيوش، وصار بحكم كونه حاكماً عسكرياً مطلقاً يحكم من خلال عساكره، وأصبح هذا المنصب له صفة الديمومة، حيث عندما مات بدر الجمالي خلفه ابنه، وفيما بعد وصل إلى المنصب ذاته حفيده، ومن بعد ذلك سلسلة من الحكام العسكريين المطلقين، ومثلما أصبح خلفاء بني العباس في بغداد أشبه بألاعيب لا حول لها ولا طول بين أيدي عسكرييهم المتسلطين، كذلك أصبح الفاطميون الآن رؤساء رمزيين لسلسلة متوالية من الطغاة Dictators العسكريين، ولقد كان

هذا انحداراً مأساوياً لأسرة إدّعت الرئاسة الروحية السياسية للإسلام، ثم إنه كان انحداراً واضح التضاد مع عقائد الإيمان الاسماعيلي وآماله.

وكان من المحتم أن يوقظ هذا التغيير عدم الرضا والمعارضة بين الأكثرين عنفاً وتشدداً من أبناء الطائفة الاسماعيلة، وزاد هذا تأججاً أنه تصادف مع حقبة تجدد للنشاط بين الاسماعيليين في إيران، ومع ذلك أحدث استبدال بدر الجمالي بابنه الأفضل في عام 1094 قليلاً من التغيير في شؤون الدولة، وعند وفاة المستنصر - بعد شهور قليلة - حينما واجه الأفضل - أمير الجيوش الحاجة إلى اختيار خليفة جديد لم يكن اختياره صعباً، فقد كان هناك على الطرف الأول نزار، الابن الأسن والبالغ، والذي كان معيناً ولياً للعهد من قبل المستنصر، وكان معروفاً ومقبولاً من قبل قادة الاسماعيلية، وكان على الطرف الثاني هنا أخوه الأصغر المستعلي، وكان حدثاً من دون حلفاء، أو مؤيدين، ولذلك فإنه سيكون معتمداً بالكلية على سيده القوى المتحكم به، وكان هذا من دون شك في الذهن، عندما هيأ الأفضل زواجاً بين أخته وبين المستعلي، وهكذا أعلن حين وفاة المستنصر صهره خليفة، وهرب نزار إلى الاسكندرية، حيث قام بتمرد مع تأييد محلي، وبعد قليل من النجاح المبدئي، لحقت به الهزيمة، ووقع بالأسر، ثم قتل إثر ذلك.

وبقيام الأفضل باختيار المستعلي، أحدث شرخاً في داخل الفرقة الاسماعيلية من الأعلى إلى الأسفل، وجعل - ربما عن قصد - جميع أتباع الفرقة الاسماعيلية تقريباً، في أراضي الإسلام المشرقية أشبه بالأجانب، وأكثر من هذا، لقد كان هناك داخل الحدود الفاطمية حركات معارضة، وعلى العموم رفض اسماعيليو المشرق الاعتراف بالخليفة الجديد، وأعلنوا عن ولائهم لنزار وسلالته، وقطعوا جميع العلاقات مع منظمة الفاطميين المتهاوية في القاهرة، وبات التباعد بين الدولة والثوريين - الذي كان قد بدأ بالظهور عند قيام الدولة الجديدة - الآن كاملاً.

وبعد قليل، قام حتى الاسماعيليون الذين قبلوا بالمستعلي، فقطعوا صلاتهم مع الحكم في القاهرة، وفي عام 1130، بعد مقتل الآمر بن المستعلي وخليفته، رفض الاسماعيلية الاعتراف بالخليفة الجديد في القاهرة، وأيدهم في ذلك النزارية، وتبنى المستعلية الآن عقيدة، بأن طفلاً رضيعاً للآمر اسمه الطيب، كان قد اختفى، وأنه هو الإمام المستتر، والمنتظر، وبذلك لم يعد لديهم أئمة آخرين من بعده.

وحكم أربعة خلفاء فاطميون آخرون في القاهرة، لكنهم لم يكونوا أكثر من أفراد أسرة حاكمة مصرية محلية، بلا سلطة، أو نفوذ، أو أمل، وفي عام 1171، عندما كان آخرهم يحتضر في قصره في القاهرة، سمح صلاح الدين، العسكري الكردي ـ الذي كان قد أصبح آنذاك السيد الفعلي لمصر ـ للخطباء بقراءة الخطبة باسم خليفة بغداد العباسي، وأزيلت الخلافة الفاطمية وألغيت بصورة رسمية، وبعدما كانت ميتة بصورة فعلية كقوة دينية وسياسية، وتمت الإزالة الرسمية وسط لا مبالاة شعبية تامة، وكدست كتب الهرطقة الاسماعيلية فوق لهيب النيران، وهكذا استردت مصر بعد أكثر من قرنين، وعادت إلى حظيرة أهل السنة.

ومع هذا الوقت لعله كانت هناك قلة فقط من الاسماعيلية المؤمنين قد بقوا في مصر، ومع ذلك استمرت الطائفة حية في بلدان أخرى، وفق الفرعين الأساسين اللذين كانت قد انقسمت بينهما عشية وفاة المستنصر، وكان أتباع المستعلي، وما يزالون لهم وجودهم غالباً في اليمن وفي الهند حيث يعرفون باسم «البُهرة»، ويعرف مذهبهم أحياناً باسم «الدعوة القديمة» بسبب أنه استمر يمارس التقاليد نفسها للعصر الفاطمي.

وفي الوقت الذي انحصر فيه المستعلية في المناطق النائية لديار الإسلام، دخل منافسوهم، أي الذين أيدوا دعوة نزار، في حقبة تطور هائلة في كل من العقيدة والعمل السياسي، وقاموا لحقبة من الزمن بدور خطير ومهم في شؤون الإسلام.

واتضح الضعف الداخلي المتنامي للعالم الإسلامي في القرن الحادي عشر من خلال سلسلة من الغزوات التي كان أهمها تلك التي قام بها السلاجقة الأتراك، والتي أوجدت دولة عسكرية كبيرة جديدة، ممتدة من آسيا الوسطى إلى البحر الأبيض المتوسط، ورافق هذه الغزوات تغييرات اقتصادية وثقافية وثقافية خطرة، وكانت ذات أهمية بالغة في تاريخ الإسلام، وفي النتائج التي أعقبت ـ كما هي العادة ـ أعمال الاستيلاء، جرى تعيين أراض واسعة وموارد كبيرة لقادة الجيوش التركية المنتصرة، الذين شكلوا مع موظفيهم عناصر حاكمة جديدة حلت محل الأرستقراطية العربية والفارسية وأعيان الحقب الماضية، أو غمرتها وغطت عليها، وأصبحت السلطة، والثروة، والمكانة، من نصيب الرجال الجدد، الذين كانوا أجانب، وقدموا حديثاً، وغالباً ما كانوا غير قادرين بعد على التمثل التام، واستيعاب حضارة مدن الشرق الأوسط المسلم، وازداد ضعف مركز الأعيان القدماء

بوساطة عوامل أخرى، كان منها تحركات البدو، والتحول في طرق التجار، ثم بدايات التغييرات الكبرى التي قادت إلى ارتقاء أوربا، والانحدار المتواصل لقوى الإسلام، وجلب السادة الأتراك الجدد في وقت الاضطرابات والخطر تدابير قوة ونظام، ولكن ذلك كان مقابل نفقات عسكرية أبهظ، مع تسلط أشد على الحياة العامة، ومواجهة أعنف صرامة وأقسى للتفكير.

وباتت السلطة العسكرية للأتراك ثابتة غير قابلة للاهتزاز، ولم تعد سنية المدارس معرضة لتحديات جدية، ولكن كانت هناك طرائق أخرى للقتال، فقد جلبت الاسماعيلية في شكلها الجديد لكثير من المشتكين من السلطنة السلجوقية مرة أخرى نقداً مغوياً للسنة، ترافق الآن مع استراتيجية فعالة للثورة، فالدعوة الاسماعيلية القديمة قد أخفقت الآن، وكانت الخلافة الفاطمية تحتضر، ولهذا باتت الحاجة متوفرة إلى دعوة جديدة، وإلى مذهب جديد، وهذا ما جرى إبداعه من قبل ثوري عبقري أصيل، اسمه حسن الصباح.

الفصل الثالث
الدعوة الجديدة

ولد حسن الصباح في مدينة قُم، التي كانت واحدة من المراكز الأولى للاستقرار العربي في إيران، ثم معقلاً للشيعة الاثني عشرية[1]، وقدم والده ـ وهو شيعي اثني عشري ـ من الكوفة في العراق، وقيل بأنه كان من أصل يماني، وبخيال أكبر، كان هو سليل للملوك الحميريين القدماء لجنوبي الجزيرة العربية، وتاريخ ولادة حسن غير معروف، ولكنه ربما كان في حوالي منتصف القرن الحادي عشر، وعندما كان طفلاً تحول والده إلى الري ـ بجانب طهران الحديثة ـ وهناك تابع حسن تربيته الدينية، وكانت الري منذ القرن التاسع، مركزاً لنشاط الدعاة، ولم يمض وقت طويل حتى شعر حسن بتأثيرهم، وقد روى قصته الخاصة في قطعة من سيرته لنفسه، حفظت من قبل المؤرخين المتأخرين حيث قال:

«شعرت منذ أيام طفولتي، منذ سن السابعة، بحب وميل نحو فروع متعددة من العلوم، وتمنيت أن أصبح عالماً دينياً، وكنت حتى سن السابعة عشر جارياً وراء المعرفة وباحثاً عنها، ولكنني لازمت عقيدة الاثني عشرية التي اتبعها آبائي.

وقابلت في أحد الأيام رجلاً، كان واحداً من الرفاق (رفيق اصطلاح غالباً ما استخدم من قبل الاسماعيلية أنفسهم)، وكان اسمه الأمير الضراب، وكان يتولى من وقت إلى آخر شرح مذهب خلفاء مصر. . مثلما فعل آخرون قبله. . .

ولم يكن هناك أبداً لدي أي شك، أو ريبة حول إيماني بالإسلام، ولا حول عقيدتي بأن هناك إله حي دائم، قادر، سميع، بصير، ونبي وإمام، وحلال وحرام، وجنة ونار، وفرائض ونواهي، ولقد افترضت بأن الدين والعقيدة قد تألفتا مما عند الناس عامة، وعند الشيعة خاصة، ولم يدر بخلدي قط أن الحقيقة ينبغي البحث عنها خارج الإسلام، وخيل إلي أن عقيدة الاسماعيلية كانت فلسفة (اصطلاح للشتم بين الأتقياء) وأن حاكم مصر متفلسف.

وكان الأمير الضراب رجلاً صاحب خلق حسن، وأول ما تحدث معي قال: «يقول الاسماعيلية: كيت وكيت» فقلت أنا له: «يا صديقي لا تتفوه بكلامهم لأنهم منبوذين، والذي يقولونه هو ضد الدين»، وكان هناك خلاف وجدل بيننا، ونقض هو عقيدتي وهدمها، ومع ذلك لم أقر له بهذا، ولكن كان لهذه الكلمات وقع عظيم في قلبي. . . وقال الأمير لي: عندما تفكر بالليل وأنت في فراشك ستعلم أن ما قلته سوف يقنعك».

وبعد أمد افترق حسن عن مرشده، ولكن المريد الشاب تابع بحثه، وقرأ كتباً اسماعيلية، حيث وجد بعض الأمور التي أقنعته، وبعضها الآخر الذي لم يرضه ولم يقنعه، ولكن إصابته بمرض حاد وشديد أكمل تحوله، وقد قال واصفاً ما حدث له: «ولقد اعتقدت أن من المؤكد هذا هو الإيمان الصحيح، ولكن بسبب خوفي الكبير لم أعترف به، وحضر الآن أجلي، وسوف أموت دون بلوغي إلى الحقيقة».

ولم يمت حسن، وبعد شفائه توجه إلى معلم اسماعيلي آخر، قام بإكمال تعليمه، وكانت خطوته الثانية هي أداء يمين الولاء إلى الإمام الفاطمي، ولقد أخذ اليمين عليه واحد من الدعاة حمل تفويضاً من عبد الملك بن عطاش، داعي دعاة الدعوة الاسماعيلية في العراق وغربي إيران، وبعد ذلك بوقت قصير في أيار ـ حزيران 1072، زار داعي الدعاة هذا نفسه الري حيث قابل المتطوع الجديد، فوافق عليه، وأعطاه مكاناً في الدعوة، وأخبره بأن يذهب إلى القاهرة، ويقدم نفسه إلى بلاط الخليفة، أو في كلمات أخرى: أن يمثل أمام مقر القيادة[2].

وفي الحقيقة لم يكن إلاّ بعد مضي بضع سنوات، حين ذهب حسن الصباح إلى مصر، وهناك حكاية رويت من قبل عدد من الكتاب الإيرانيين، وقدمت إلى القراء الأوربيين من قبل إدوارد فتز جيرالد Edward Fitaz - Gerald في توطئته لترجمته للرباعيات، بهدف تقديم رواية عن الأحداث التي أدت إلى ذهابه، وتبعاً لهذه الحكاية كان حسن الصباح، والشاعر عمر الخيام، والوزير نظام الملك جميعاً تلاميذاً لأستاذ واحد، وعقد الثلاثة فيما بينهم ميثاقاً، قضى على الأول بينهم الذي سوف ينال نجاحاً وسعداً في الدنيا، تقديم المساعدة للآخرين، وبعد أمد أصبح نظام الملك وزيراً للسلطان، فتقدم بتوجيه دعوة إلى رفيقيه بالمدرسة، فعرض عليهما ولايات فرفضا، ولكن لأسباب مختلفة، فقد أعرض عمر عن تحمل مسؤوليات العمل، وفضل الحصول على راتب لمدى

الحياة، والاستمتاع بالفراغ، ورفض حسن أن يتم التخلص منه بعمل في المقاطعات، وأراد الحصول على منصب رفيع في البلاط، وبعد قليل من تلبية رغبته صار مرشحاً للوزارة، وبات منافساً خطيراً لنظام الملك نفسه، لذلك تآمر الوزير ضده، وتمكن بوساطة الدس، من أن يحط من منزلته في عيني السلطان، وفي شعور بالإهانة والغضب هرب حسن إلى مصر حيث أعدّ العدة لانتقامه.

وتثير هذه الحكاية بعض المشاكل، فنظام الملك كان قد ولد، على الأقل في عام 1020، وقد قتل في عام 1092، وتاريخا ميلاد حسن الصباح، وعمر الخيام غير معروفين، ولكن الأول مات في عام 1124، ومات الآخر حسب أبكر التقديرات في عام 1123، وهذه التواريخ المتباعدة، تجعل من غير المعقول أن كان الثلاثة تلاميذاً متعاصرين، وقد رفض معظم الباحثين الحديثين هذه الرواية الخلابة، وعدوها شيئاً ملفقاً[3]، وأعطي تفسير أكثر قبولاً لسفر حسن، من قبل مؤرخين آخرين، فتبعاً لما رووه، شعر حسن بسوء نوايا السلطات في الري نحوه، حيث أنها اتهمته بأنه يقوم بإيواء العملاء المصريين، وأنه مثير فتنة خطر، ولكي ينجو من إلقاء القبض عليه هرب من المدينة، وقام بعدد من الأسفار، أوصلته إلى مصر[4].

وتبعاً لقطعة سيرته نفسه، ترك حسن الري في عام 1076، وذهب إلى أصفهان، وسافر من هناك إلى أذربيجان، ومن ثم إلى ميافارقين، حيث طرد ونفي من المدينة من قبل القاضي، بسبب تأكيده أن الإمام وحده فقط له الحق في تفسير الدين، وهكذا أنكر بذلك سلطة علماء أهل السنة، وبعد أن تابع أسفاره خلال الجزيرة ثم سورية، وصل إلى دمشق حيث وجد الطريق إلى مصر مغلقاً، بسبب بعض الاضطرابات العسكرية، ولهذا انحرف غرباً نحو الساحل ورحل جنوباً من بيروت حتى أبحر من فلسطين إلى مصر، ووصل إلى القاهرة في الثلاثين من آب عام 1078، وهناك استقبل من قبل أعيان البلاط الفاطمي.

وبقي حسن في مصر حوالي الثلاثة أعوام، في البداية في القاهرة، ومن بعد ذلك في الاسكندرية، وتبعاً لما ورد في إحدى الروايات اصطدم حسن مع أمير الجيوش بدر الجمالي، بسبب تأييده لنزار، فسجن ثم أخرج من البلاد، هذا وإن هذا السبب الذي أعطي لصدامه مع بدر، لابد وأن يكون صنعة زخرفت مؤخراً، حيث أن الخلاف حول الخلافة لم يكن قد نشأ بعد في ذلك الحين، ومع ذلك إن صداماً بين الثوري المتحمس والطاغية العسكري، ليس بعيداً عن التصور[5].

ولقد أخرج من مصر إلى الشمال الإفريقي، ولكن السفينة الفرنجية التي كان مسافراً عليها تحطمت فنجا وحمل إلى سورية، وبعد سفره عبر حلب وبغداد، وصل إلى أصفهان في العاشر من حزيران لعام 1081، وفي التسعة أعوام التالية تنقل حسن بشكل واسع في إيران في خدمة الدعوة، وفي قطعة سيرته لنفسه، نجده قد تحدث عن عدد من رحلاته فقال: «من هناك (أي من أصبهان) تابعت سفري إلى كرمان ويزد، وقمت بالدعوة هناك لبعض الوقت»[6]، ثم عاد من وسط إيران إلى أصفهان وتحول بعد ذلك جنوباً ليمضي ثلاثة أشهر في خوزستان، حيث سلف له أن أمضى بعض الوقت هناك، عندما كان على طريق عودته من مصر.

وبدأ حسن يركز اهتمامه، بشكل متزايد، على الشمال الأقصى لإيران، أي على المقاطعات القزوينية لجيلان، ومازندران، ولاسيما على منطقة المرتفعات المعروفة بالديلم، وهذه الأراضي التي تقع شمالي السلسلة الجبلية التي تحد هضبة إيران العظمى هي ذات اختلاف في التكوين الجغرافي عن بقية البلاد، ولقد قطنت من قبل شعب إيراني مقاتل ومستقل، عدّ لأمد طويل، من قبل إيرانيّ الهضبة أجنبياً وخطراً، ولم يكن حكام إيران في العصور القديمة قادرين أبداً على إخضاعه بشكل فعال، لا بل حتى الساسانيون أنفسهم، وجدوا أنه من الضروري الاحتفاظ بحصون على الحدود، تكون بمثابة خطوط دفاعية، ضد غاراتهم، ولقد أفلح العرب الفاتحون لإيران في هذا المجال أكثر قليلاً، وقد روي أنه عندما عزم القائد العربي الحجاج على حرب الديلم، أمر بخريطة للبلاد فأعدت له، مصور بها الجبال والوديان، والعقاب، ثم عرضها على رجال وفد ديلمي، ودعاهم إلى الاستسلام قبل أن يغزو بلادهم ويلحق بها الدمار، فنظر الرجال إلى الخريطة ثم قالوا: «قد صدقوك عن بلادنا هذه صورتها، غير أنهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال، وستعلم ذلك لو تكلفته»، ومع ذلك حدث بمرور الوقت أن أصبح الديلم مسلمون بوساطة التغلغل السلمي لا بوساطة الفتح.

وكان الديلم على هذا بين آخر من خضع للإسلام، ومع ذلك كانوا بين أوائل الذين أعادوا تأكيد وجودهم الذاتي ضمن إطاره، وجاء ذلك سياسياً بوساطة ظهور أسر حاكمة مستقلة، ودينياً من خلال تبني عقائد غير سنية، فمنذ نهاية القرن الثامن وجد عدد من أفراد البيت العلوي ـ الذين هربوا من الملاحقة العباسية ـ مأوى ومساندة هناك، وبذلك

غدت بلاد الديلم مركزاً للنشاط الشيعي، وصار سكانها يدافعون عن استقلالهم ضد خلفاء بغداد وحكام السنة الآخرين، وفي القرن العاشر نجح الديلم ـ تحت قيادة البويهيين ـ في مدّ نفوذهم ثم سيطرتهم على معظم إيران والعراق، وباتوا لأمد طويل من الزمن الأوصياء على الخلفاء أنفسهم والمتحكمين بهم، ولقد وضع قدوم السلاجقة حداً لحكم الديلم والشيعة في دار الخلافة، وضغط بشدة على الديلم أنفسهم.

ولقد كان بين هؤلاء القوم الشماليين، الذين كان التشيع غالباً عليهم، والذين كانوا قد أشبعوا بشدة بالدعاية الاسماعيلية، أن عمل حسن الصباح، وبذل جهوده الأساسية، وكان لنظامه العسكري جذب شديد بين سكان جبال الديلم، ومازندران، الذين كانت لديهم ميولهم الحربية، وكانوا سذجاً، وبعد أن تجنب حسن المرور بالمدن، أخذ طريقه خلال الصحارى من خوزستان إلى شرقي مازندران، وأسس نفسه أخيراً في دامغان، حيث أقام لمدة ثلاثة أعوام، وبث من هذه القاعدة الدعاة ليعملوا بين سكان الجبال، وسافر هو من دون كلل في سبيل توجيه جهودهم، ومساعدتها، وسرعان ما جذب نشاطه انتباه الوزير، الذي أمر السلطات في الري بإلقاء القبض عليه، ولم تنجح هذه السلطات، وتجنب حسن الري، ورحل بوساطة الطريق الجبلي إلى قزوين، التي كانت أفضل قاعدة موائمة لحملته في بلاد الديلم.

ولم يكن حسن، أثناء أسفاره المتواصلة، مشغولاً فقط بكسب الأتباع لطريقته، بل كان مهتماً أيضاً في إيجاد نوع جديد من القواعد، ليس كمقرات سرية في مدينة تحت خطر دائم بالاكتشاف والانقطاع، ولكن في حصن ناء، يعسر الوصول إليه، وحيث يستطيع منه العمل بلا معيق، في توجيه حربه وممارستها ضد السلطنة السلجوقية، وبعد لأي وقع اختياره عل قلعة أَلَموت، التي كانت فوق شعب جبلي ضيق، على قمة صخرة عالية، في قلب جبال البرز، وكانت تتحكم بواد مزروع ومغلق، طوله نحواً من ثلاثين ميلاً، وعرضه في أوسع نقاطه، حوالي الثلاثة أميال، وكانت على ارتفاع أكثر من ستة آلاف قدم فوق سطح البحر، وكانت القلعة واقعة على ارتفاع بضع مئات من الأقدام فوق قاعدة الصخرة، ومن الممكن الوصول إليها فقط بوساطة ممر ضيق، منحدر وحلزوني، كما كان الوصول إلى الصخرة يتم خلال الممر الضيق لنهر ألموت، بين منحدرات شديدة، وشعاب جبلية معلقة أحياناً.

ولقد قيل بأن القلعة قد بينت من قبل واحد من ملوك الديلم، الذي بينما كان خارجاً للصيد في أحد الأيام، أطلق واحداً من عقبان الصيد، فجاء فوقف فوق الصخرة، ورأى الملك الأهمية الاستراتيجية للموقع، فأمر على الفور ببناء قلعة عليها «وسماها أله موت، وهي عبارة تعني بلغة الديلم: تعليم العقاب»[8]، وترجم آخرون ـ أقل اقتناعاً ـ الاسم «بعش العقاب»، وأعيد بناء القلعة عام 860 من قبل رجل علوي، وفي أيام وصول حسن كانت بيد رجل علوي اسمه مهدي، كان قد أخذها من السلطان السلجوقي.

وتم الإعداد للاستيلاء على ألَموت بحذر، فقد أرسل حسن دعاة من دامغان ليعملوا في القرى التي من حول ألَموت، وقال حسن: ثم «أرسلت من قزوين مرة أخرى داعياً إلى قلعة ألَموت. . وتحول بعض الناس الذين كانوا في القلعة واهتدوا بوساطة الداعي، وأرادوا تحويل العلوي وهدايته أيضاً، وتظاهر العلوي بأنه قد كُسب من جانبهم وأنه صار منهم، غير أنه ما لبث أن دبر بعد ذلك إخراج جميع المهتدين وإنزالهم إلى الأسفل، ثم أغلق أبواب القلعة، قائلاً بأنها ملك للسلطان، ولكن بعد كثير من الأخذ والرد عاد فقبلهم، وبعد ذلك رفضوا النزول بناء على أوامره»[9].

وما أن أصبح أتباعه متمركزين في القلعة، حتى ترك قزوين، وانتقل إلى جوار ألَموت، حيث مكث بعض الوقت متخفياً، ثم أدخل في يوم الأربعاء الرابع من أيلول عام 1090 سراً إلى القلعة، فلبث بعض الوقت فيها متموهاً، ولكن شخصيته أصبحت بمرور الوقت معروفة، وأدرك مالك القلعة السالف ما حدث ولكنه كان عاجزاً عن صنع أي شيء ليوقف ذلك أو ليغيره، وسمح حسن له بمغادرة القلعة، وتبعاً لقصة رويت من قبل المؤرخين الإيرانيين أعطاه إيصالاً بمبلغ ثلاثة آلاف دينار ذهبي ثمناً لقلعته[10].

وأصبح حسن الآن سيداً لألَموت مؤسساً بثبات، ومنذ وقت دخوله حتى تاريخ موته بعد خمسة وثلاثين عاماً لم ينزل ولا مرة واحدة من الصخرة، وخرج مرتين فقط من المنزل الذي كان يسكنه، وفي كلتا الحالتين صعد إلى السطح فقط، وقال رشيد الدين: «لقد أمضى بقية الوقت حتى موته داخل البيت، حيث عاش منشغلاً بقراءة الكتب، وبتدوين أقوال الدعوة وكلامها كتابة، وبإدارة أعمال مملكته، وقد عاش حياة زهد، وتقشف، وورع»[11].

وكانت وظيفته في البداية ذات شقين: أن يربح مستجيبين، وأن ينال السيطرة على المزيد من القلاع، ومن أَلَموت أرسل الدعاة والعملاء وبثهم في مختلف الجهات، ليعملوا في سبيل إنجاح هذين الغرضين، وكان الهدف البديهي هو السيطرة على المنطقة المجاورة مباشرة لمركز قيادته، ودعيت هذه المنطقة باسم رود بار (ضفاف النهر)، وذلك نسبة لنهر شاه رود الذي يجري خلالها، ففي هذه الوديان الجبلية النائية، ولكن الخصبة، وجدت طريقة للحياة أقدم، واستمرت هناك دوماً، من دون تأثر بالتغييرات التي كانت تحدث على بعد جنوباً، لذلك لم يكن هناك مدينة حقيقية في رودبار، كما لم تكن هناك مدينة أقامت سيطرة سياسية، أو عسكرية، وعاش الناس في القرى، وقدموا ولاءهم إلى الأعيان المحليين الذين عاشوا في القلاع، ولقد كان بين هؤلاء ـ كما بين القرويين ـ أن وجد الاسماعيليون التأييد، و«بذل حسن ـ كما قال الجويني ـ كل جهد ممكن ليملك الأماكن المجاورة لأَلَموت، أو في ذلك الجوار، وحيثما كان ممكناً كسبَها بوساطة خدع دعايته، في حين تملك الأماكن التي لم تتأثر بغوايته، والسلب والنهب، وسفك الدماء والحرب، فاستولى هكذا على ما أمكنه من القلاع، وكان حيثما وجد مكاناً مناسباً بنى عليه قلعة»، وحدث الاستيلاء على قلعة لَمَسَر في عام 1096 أو 1102 بوساطة انقضاض، وكان ذلك نجاحاً مهماً، فلقد اقتيد المقاتلون من قبل كيابزرك أميد، الذي بقي هناك حاكماً لمدة عشرين عاماً، وتموضعت هذه القلعة، وقامت بصورة استراتيجية فوق صخرة مستديرة أشرفت على شاه ورد، وقد ثبتت سلطة الاسماعيلية في جميع منطقة رودبار.

وبعيداً في الجنوب الشرقي، وقعت منطقة قوهستان الجبلية الجرداء، وذلك على مقربة من الحدود الحالية بين إيران وأفغانستان، وعاش سكانها على شكل مجموعات مبعثرة ومنعزلة في الواحات المحاطة من جميع الجهات بالصحراء الملحية الكبرى، للهضبة الوسطى، وكانت هذه المنطقة منذ أوائل التاريخ الإسلامي واحدة من أواخر ملاجئ الزرادشتية وملاذاتها، وأصبحت بعد تحولها إلى الإسلام ملاذاً للشيعة والمنشقين الدينيين الآخرين، وفيما بعد للاسماعيلية، وفي عام 1091 ـ 1092، أرسل حسن الصباح بعثة إلى قوهستان لتعبئة التأييد الاسماعيلي وتوسيعه، ووقع اختياره على حسين القائني، الذي كان داعية قديراً، سلف له أن قام بدور ما في تحويل أَلَموت، والذي كان هو نفسه من أصل قوهستاني، وكانت بعثته على الفور ناجحة، فقد كان أهالي قوهستان هائجين تحت الحكم السلجوقي، وقام قائد سلجوقي ظالم بإيصال الأزمة إلى ذروتها، بطلبه يد أخت

واحد من أعيان السادة المحليين هناك ، مما دفعه إلى الالتجاء إلى الاسماعيلية ، وكان ما حدث في قوهستان أكثر من عملية استيلاء سري ، وأكثر من تملك القلاع ، لقد أخذ ما يشابه صورة ثورة شعبية ، وحركة للاستقلال عن تسلط عسكري أجنبي ، فقد قام الاسماعيلية في كثير من مناطق المقاطعة بثورة معلنة ، وأمسكوا بزمام الأمور في عدد من المدن الرئيسية مثل زوزن ، وقائن ، وطبس ، وتون ، ومدن أخرى ، ونجحوا في شرقي قوهستان ، مثلما فعلوا في رودبار في إيجاد ما كان في الواقع دولة مقاطعات[14] .

ولقد كان للمناطق الجبلية فضائل بديهية بالنسبة لاستراتيجية الاسماعيلية في التوسع ، وقد وقعت منطقة أخرى مماثلة في الجنوب الغربي لإيران ، في المقاطعة ما بين خوزستان وفارس ، وهناك توفرت أيضاً الشروط الضرورية للنجاح : بلاد صعبة ، وسكان مشاغبون وسذج ، وتقاليد شيعية محلية قوية ، وإخلاص للاسماعيلية وكان قائد الاسماعيلية في هذه المنطقة هو أبو حمزة ، الذي كان حذّاء من أرجان ، سلف له أن ذهب إلى مصر وعاد كداعية فاطمي ، ولقد استولى على قلعتين كانتا تبعدان بضعة أميال عن أرجان ، واستخدمهما بمثابة قاعدة لمزيد من النشاط[15] .

وفي الوقت الذي كان فيه بعض الدعاة من الاسماعيلية يحصلون على مراكز للسيطرة في بقاع نائية ويقومون بتمتينها ، كان آخرون يتابعون عملهم الدعائي الديني في المراكز الرئيسية للسنة وللسيطرة السلجوقية ، ولقد كان هؤلاء هم الذين جلبوا أول سفك للدماء تورط فيه العملاء الاسماعيلية مع السلطات السلجوقية وقد وقع أول حادث في مدينة صغيرة اسمها ساوة ، وقعت في الهضبة الشمالية ، ليس بعيداً عن الري وقُمّ ، ولربما كان ذلك قد وقع حتى قبل الاستيلاء على أَلَموت ، وقد حدث ذلك حين أُلقي القبض من قبل صاحب الشرطة ، على مجموعة تألفت من ثمانية عشر اسماعيلياً ، بسبب اشتراكهم معاً في صلوات خاصة منفردة ، ولقد قيل بأن ذلك كان أول اجتماع لهم من هذا النوع ، ولذلك سمح لهم بالانصراف بعد استجوابهم ، ثم إنهم حاولوا بعد ذلك تحويل مؤذن من ساوة كان مقيماً في أصفهان ، ورفض هذا الرجل الاستجابة لدعوتهم ، فقام الاسماعيلية الذين خشيوا من أن ينم عليهم ، بقتله ، وقال المؤرخ العربي ابن الأثير لدى ذكره لهذه الواقعة : «إنه كان أول قتيل لهم ، ودمه كان أول دم قتلوه» ، وبلغت أخبار عملية القتل هذه إلى الوزير نظام الملك ، فأصدر بنفسه الأمر بقتل رئيس الحلقة ، وكان الرجل الذي

اتهم نجاراً اسمه طاهر، وكان ابناً لواعظ سلف له أن شغل عدة مناصب دينية، وقد فتك به من قبل العامة في كرمان، على أساس اعتقادهم أنه كان اسماعيلياً، ثم جرى إعدام طاهر، ومثّل به، حيث أن جسده قد جرى سحله في السوق، فكان كما قال ابن الأثير: «أول اسماعيلي يقتل»[16].

وفي عام 1092، بذل السلاجقة أول جهد لهم في معالجة الخطر الاسماعيلي، وذلك بوساطة القوة العسكرية، حيث قام ملك شاه، الذي كان السلطان الأعظم، أو بالحري السيد الأعلى فوق الحكام والأمراء السلاجقة، بإرسال حملتين: أولاهما ضد ألَموت، والثانية ضد قوهستان، وقد صدتا وأخفقتا معاً، فقد صدت الأولى بمساعدة مؤيدين ومشايعين من رودبار، ومن قزوين، ونقل الجويني رواية اسماعيلية حول هذا الانتصار قالت: «أرسل السلطان ملك شاه في بداية سنة أربعمائة وخمس وثمانين (1092) أميراً اسمه أرسلان تاش ليطرد حسن الصباح ويجتثه مع جميع أتباعه، ونزل هذا الأمير أمام ألَموت في جمادى الأولى، من السنة المذكورة (حزيران ـ تموز 1092)، ولم يكن مع حسن الصباح آنذاك في ألَموت أكثر من ستين أو سبعين رجلاً، ولم يكن لديهم سوى القليل من المؤن، ولقد عاشوا على القليل الذي كان لديهم، وتناولوا فقط ما يقوم بالسغب، وتابعوا القتال مع المحاصرين، وحدث آنذاك أن كان واحداً من دعاة حسن الصباح رجلاً اسمه دهدار بوعلي، كان قد جاء من زوارا وأردستان، وكان يسكن في قزوين، التي كان بعض سكانها من أتباعه المتحولين على يديه، وعلى غرارهم كان كثير من الناس في منطقة الطالقان وكوه بره، ومنطقة الري، وكانوا قد آمنوا بالدعوة الصباحية، وكلهم منح الولاء إلى الرجل الذي استقر في قزوين، واستنجد حسن الصباح بـ «بوعلي» فاستجاش جمعاً غفيراً من الناس من كوه بره والطالقان، وأرسل سلاحاً وآلات حرب من قزوين، وجاء زهاء ثلاثمائة رجل من هؤلاء إلى مساعدة حسن الصباح، وقذفوا بأنفسهم إلى داخل ألَموت، ثم قاموا بمساعدة الحامية، وبمساندة بعض الناس من رود بار ـ الذين كانوا في ميثاق معهم ـ في ليلة من أواخر شعبان من تلك السنة (أيلول ـ تشرين أول 1092) بهجوم مفاجئ على جيش أرسلان تاش، وبتقدير من الله انهزم الجيش، وغادر من ألَموت عائداً إلى ملك شاه»[17]، وتم رفع الحصار عن المركز الاسماعيلي في قوهستان، وكان ذلك عندما وصل خبر موت السلطان في تشرين الثاني لعام 1092.

وفي الوقت نفسه، توصل الاسماعيلية إلى تحقيق أول نجاح عظيم، في الفن الذي سينال اسمه منهم، أي فن الاغتيال، وكان ضحيتهم المختارة الوزير القدير نفسه، الذي جعلته جهوده: «لاجتثاث صديد الفتنة، وقطع دابر التراخي، أكثر أعدائهم خطراً»، ووضع حسن الصباح خططه بحذر، وقال رشيد الدين وهو يساير مصدره الاسماعيلي، وبلا شك مقوماً له: «نصب سيدنا فخاخه وأحابيله بشكل تمسك فيه، وتضع في شباك الموت والفناء، قبل شيء، بصيد ثمين مثل نظام الملك، وبهذه الفعلة أصبحت شهرته واسعة، وسمعته عظيمة، فبشعوذة التضليل، وخدع النفاق، وبتراتيب مغوية، وبحيل مغرية، أرسى حسن قواعد الفدائيين وقال: من منكم سيخلص هذه الدولة من شرور نظام الملك الطوسي؟ فوضع رجل اسمه أبو طاهر الأرّاني يد القبول على صدره، وسار على طريق الضلالة والإثم، الذي أمل أن يحظى بوساطته على نعيم الحياة الأخرى، وفي ليلة الجمعة في الثاني عشر من رمضان لسنة أربعمائة وخمس وثمانين (16 تشرين أول لعام 1092)، وفي منطقة نهاوند عند محطة سحنة، جاء بزي صوفي إلى محفة نظام الملك، الذي كان محمولاً من مكان العامة إلى خيمة نسائه، وضربه بسكين، فنال بتلك الضربة الشهادة، وكان نظام الملك أول رجل جرى قتله من قبل الفدائيين، وقد قال سيدنا عليه ما يستحقه: إن مقتل هذا الشيطان، هو بداية الغفران»[18] ولقد كان مقتل نظام الملك الأول في سلسلة من مثل هذه الهجمات، التي تجمعت فجلبت حرباً من الإرهاب، فيها الموت المفاجئ للملوك والأمراء والقادة، والحكام، لا بل حتى إلى الفقهاء الذين أدانوا العقائد الاسماعيلية، وأفتوا بقمع الذين آمنوا بها، حتى أن واحداً من خصومهم قد قال: «أن تقتلهم أحل من ماء المطر، وواجب السلاطين والملوك أن يقهروهم وأن يقتلوهم، وأن ينظفوا وجه الأرض من دنسهم، ولا يجوز التعايش معهم، أو الارتباط بالصداقة بهم، ولا أكل لحوم ذبائحهم، ولا التزاوج معهم، ولأن تسفك دم باطني، هو أكثر ثواباً من أن تقتل سبعين كافراً رومياً»[19].

ولقد كان الحشيشية بالنسبة لضحاياهم مجرمين متعصبين، انغمسوا في تآمر للقتل، ضد الدين وضد المجتمع، وكانوا بالنسبة للاسماعيلية كتيبة النخبة في الحرب ضد أعداء الإمام، وكانوا بقتلهم للظالمين والمغتصبين يقدمون البرهان النهائي على إيمانهم وإخلاصهم، وينالون بذلك على الفور النعيم الأبدي، واستخدم الاسماعيليون أنفسهم

اصطلاح «فدائي» وأطلقوه على القاتل والمنفذ الفعلي، ولقد حُفظ لنا شعر اسماعيلي مفيد مدح شجاعتهم، وإخلاصهم، وتضحيتهم الذاتية[20]، وكان يوجد في الكتابات المحلية لأَلموت ـ التي نقلت من قبل رشيد الدين، والكاشاني ـ ملف شرف بالاغتيالات، فيه أسماء الضحايا وأسماء قتلتهم الأتقياء.

وكان الاسماعيلية من حيث الشكل والصيغة، جماعة سرية ذات نظام لأداء الأيمان، وللمريدين، ومراتب للزعامة الدينية في الدرجة والمعرفة، ولقد تم الحفاظ على الأسرار بشكل جيد، ولذلك كانت المعلومات حولهم مشرذمة ومشوشة، وصوّر علماء الكلام من أهل السنة الاسماعيلية كعصابة من المغرر بهم والملحدين الذين أضلوا الناس الذين خدعوهم، خلال مراحل متوالية من الانحطاط، أباحوا في آخرها الهول الكامل لكفرهم، وبالمقابل رأى الكتاب الاسماعيليون رجال الطائفة ونظروا إليهم، بمثابة أوصياء على الأسرار المقدسة، التي يمكن للمؤمنين الاطلاع عليها بعد دورة طويلة من التحضير والتوجيه، تميزت ببوادر للتقدم والتطور، والاصطلاح الأكثر عمومية في الاستخدام للتدليل على تنظيم الطائفة هو دعوة (في الفارسية: دعوت) وعملاء الدعوة هم الدعاة، أو المبشرين، الذين شكلوا ما يشبه كهنوت مكرس، وهؤلاء مقسمون في الروايات الاسماعيلية المتأخرة إلى أنواع من ذوي المراتب العليا والدنيا، من وعاظ ومعلمين، ومجيزين، يأتي دونهم المستجيبين، الذين هم في أدنى مراتب المريدين، وجاء فوقهم الحجة (في الفارسية: الحجت) وهو الداعية الكبير، واستخدمت كلمة جزيرة للدلالة على أرض أو منطقة إدارية متميزة إثنياً وأشار الاسماعيلية مثل غيرهم من الفرق والتنظيمات الاسلامية إلى قادتهم باسم شيوخ مفردها شيخ (في الفارسية: بير)، والاصطلاح الذي استخدم لأعضاء الفرقة هو رفيق[21].

وواجه الاسماعيلية في عام 1094 محنة كبرى، فقد مات في القاهرة الخليفة الفاطمي المستنصر، الذي كان يعدّ إمام الزمان ورأس الإيمان، تاركاً خلافاً حول خلافته، ورفض الاسماعيلية في إيران الاعتراف بخليفته على العرش المصري، فأعلنوا عن إيمانهم بأن الوريث الشرعي كان هو الابن الأكبر نزار المخلوع (انظر ما تقدم ص194)، فحتى ساعة هذا الانقسام، كان التنظيم في إيران تحت السلطة العليا للإمام وداعي الدعاة في القاهرة، ولو أن ذلك كان من الناحية الشكلية أو الاسمية، وكان حسن الصباح وكيلهما،

أولاً بمثابة نائب، ثم خليفة لعبد الملك بن عطاش، ولكن كان الآن هناك انفصال كامل، ومنذ ذلك الوقت لم يستمتع اسماعيلية إيران بالتأييد من سيدهم السالف في القاهرة، كما لم يعانوا من إشرافه عليهم.

وكانت المشكلة الحاسمة الآن هي تحقيق هوية الإمام الذي هو الشخصية المركزية في مجموع النظام اللاهوتي والسياسي للإسماعيلية، فنزار بالنسبة إليهم، كان هو الإمام الشرعي، بعد المستنصر، ولكن نزاراً كان قد قتل في سجن الاسكندرية، وقد قيل بأن أولاده قد قتلوا معه، وادعى بعض النزارية أن نزاراً لم يكن في الحقيقة ميتاً، بل هو في الغيبة، وهو سوف يعود بمثابة مهدي، أو أن تقول بأن خط الأئمة قد وصل إلى النهاية، ولم تعش هذه المدرسة، وما درّسه حسن الصباح لأتباعه حول هذه المسألة هو غير معروف، ولكن العقيدة التي جرى تبنيها مؤخراً قالت بأن الإمامة قد انتقلت إلى حفيد لنزار، كان قد جُلب سراً إلى أَلَموت، وجاء في إحدى الروايات كان هذا الحفيد رضيعاً، جرى تهريبه من مصر إلى إيران، وجاء في رواية أخرى أن الذي حدث هو: أن جارية كانت حاملة من ابن نزار، قد حملت إلى أَلَموت حيث أعطت ولادة للإمام الجديد، وتبعاً للعقيدة النزارية كانت هذه الأمور قد حفظت في سر مصون، كل ذلك الوقت، ولم تجعل معروفة حتى سنين عديدة مؤخراً.

ويبدو أن غياب الإمام الظاهر، والتعديلات التي صنعت بحكم الضرورة، بسبب الانشقاق مع القاهرة، لم توقف نشاط الاسماعيلية في إيران، ولم تعقه، بل على العكس من ذلك، لقد قاموا بالإفادة من التمزق المؤقت الذي ألم بالسلطنة السلجوقية أثناء الأعوام الأخيرة للقرن الحادي عشر، والأعوام الأولى للقرن الثاني عشر، فمدوا نشاطهم وميادين أعمالهم إلى مناطق جديدة.

وكان أحد هذه الأعمال، وهو الاستيلاء على قلعة في شرقي البرز في عام 1096، قد سار على الخطوط نفسها لجهودهم المبكرة، فقد تمّ إرسال دعاة من أَلَموت إلى منطقة الدامغان، حيث كان حسن قد عمل قبل ذهابه إلى الديلم، وتلقوا هناك مساعدة كبيرة من حاكم الدامغان، الذي كان قائداً عرف باسم مظفر، حيث كان متحولاً سرياً إلى الاسماعيلية، وكان قد كسب إلى جانبهم من قبل شخص لم يكن أدنى مرتبة من عبد الملك بن عطاش نفسه، ففي جنوبي الدامغان وقع حصن جردكوه (كردكوه)، وكان موائماً

بصورة حسنة، في قوته وموقعه لأغراض الطائفة، وأخذ مظفر يعمل في سبيل الحصول عليه لصالح الاسماعيلية، وظل متظاهراً بأنه قائد مخلص لأسياده، حتى تمكن من إقناع الأمير السلجوقي الذي كان رئيسه، بأن يطلب جردكوه من السلطان، ويقيمه هناك آمراً، ووافق كل من الأمير والسلطان، وهكذا استحوذ مظفر على حصن جردكوه وتملكه، وبتفويض من الأمير، وربما على حسابه رمم هذه القلعة وحصنها وشحنها بالمؤن والخزائن، ثم عندما أصبحت استعداداته كاملة، أعلن عن نفسه اسماعيلياً، وتابعاً لحسن الصباح، ثم حكم هذه القلعة لمدة أربعين عاماً، ومتنت قلعة جردكوه التي كانت تشرف على الطريق الرئيسي بين خراسان وغربي إيران، والتي كانت قريبة بشكل مناسب من مراكز التأييد الاسماعيلي في شرقي مازندران، متنت بشدة المكانة الاستراتيجية للقوة الاسماعيلية النامية[22].

وفي حوالي الوقت ذاته، قام الاسماعيليون بانقلاب أبعد جرأة، وذلك بالاستيلاء على حصن اسمه شاه دز، وكان يقع على تل بجوار مدينة أصبهان العظمى، مقر السلطان السلجوقي[23]، فقد كان الدعاة الاسماعيليون يعملون في هذه المدينة منذ وقت طويل، فعبد الملك بن عطاش كان قد عاش هناك، ولكنه فرّ بعدما اتهم بالتشيع، وكان صراع السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه، ضد أخيه من أبيه، وزوجة أبيه، قد أعطى الاسماعيلية فرصة جديدة، حيث أقاموا في أصفهان سلطة من الإرهاب انتهت فقط، عندما ثار السكان ضدهم وفتكوا بهم، وسجلت بالوقت نفسه انفجارات مماثلة من عنف العامة ضد الاسماعيلية في مدن إيرانية أخرى.

وفي أصفهان صنعت بداية جديدة من قبل أحمد بن عبد الملك بن عطاش، ذلك أنه في الوقت الذي فر فيه والده، سمح له بالبقاء، بسبب الاعتقاد أنه لم يشارك والده في معتقداته الدينية، ومهما يكن من أمر، لقد كان أحمد يعمل سراً في سبيل القضية الاسماعيلية، وذكر مؤرخ فارسي، أنه وجد عملاً كان هو القيام بتدريس أطفال حامية شاه دز، الذين كان غالبيتهم مرتزقة ديلم، وبهذه الوسيلة رفع من مكانة نفسه لديهم، وتمكن من كسبهم إلى الجانب الاسماعيلي، وهكذا كان قادراً على كسب السيطرة على الحصن، وقالت رواية أخرى أكثر ركاكة وضعفاً بأنه تدبر سبيله فنال ثقة الحاكم حتى أصبح ساعده الأيمن، ثم خلفه بعد موته، وبعد هذا بوقت قصير حصل الاسماعيلية على

قلعة ثانية قرب أصفهان كان اسمها خالنجان، ولكن هل تم هذا بالقوة أم بالتنازل، هذا غير واضح، ولها على كل حال حكاية، من النوع الذي تمتع المؤرخون في روايته حول الاسماعيلية، من أن نجاراً نجح بإقامة صداقة مع الحاكم، ثم عمل وليمة تمكن فيها من أن يجعل الحامية كلها سكارى من دون أحاسيس.

وكان السلطان بركياروق الذي خلف ملك شاه في عام 1092، مشغولاً تماماً في صراعه ضد أخيه من أبيه محمد تبر، مؤيداً من أخي الأخير من والديه سنجر، وفي أحسن الأحوال كان لدى السلطان قليلاً من الاهتمام، وقليلاً من القوات ليستغني عنها لاستخدامها ضد الاسماعيلية، وكان في أسوأ الأحوال هو أو بعض قادته عل استعداد للتغاضي عن النشاط الاسماعيلي ضد أعدائهم، لا بل ربما كانوا في بعض الحالات، على استعداد لأن يطلبوا بحنكة مساعدة الاسماعيلية بشكل مباشر، وهكذا قام وكلاء بركياروق ونوابه في خراسان، بالحصول على تأييد اسماعيليي قوهستان ضد الفئات المناوئة، وورد في لائحة الشرف العائدة للحشيشية، التي أوردها الذين أرخوا لأَلَموت، ويوجد سجل فيه حوالي خمسين عملية اغتيال جرت خلال حكم حسن الصباح، شروعاً من نظام الملك، ويعود أكثر من نصفهم إلى هذه الحقبة، ولقد قيل بأن بعض الضحايا كانوا من المؤيدين لمحمد تبر، وخصوماً لبركياروق.

وفي صيف عام 1100، أوقع بركياروق هزيمة بمحمد تبر، الذي أرغم على التراجع إلى خراسان، وأصبح الاسماعيلية بعد هذا النصر أجرأ، وأكثر اعتداداً بأنفسهم، إلى حد أنهم تغلغلوا في بلاط بركياروق وفي جيشه، وكسبوا إلى جانبهم كثيراً من العساكر، وتهددوا الذين عارضوهم بالاغتيال، «حتى لا أمير ولا متقدم - كما قال المؤرخ العربي - تجاسر على الخروج من منزله حاسراً، بل يلبس تحت ثيابه درعاً، حتى أن الوزير الأعز أبا المحاسن، كان يلبس زردية تحت ثيابه، واستأذن السلطان بركياروق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم، وعرفوه خوفهم ممن يقاتلهم، فأذن لهم بذلك»[24].

وأخيراً أجبر الخطر المتنامي للاسماعيلية، وصلفهم المتزايد، مع الغضب المتعاظم لمؤيدي السلطان من تساهله، أو حتى مما هو أنكى من ذلك أجبر بروكياروق على القيام بعمل، ويبدو أنه توصل في عام 1101 إلى اتفاق مع سنجر، الذي كان ما يزال يحكم في خراسان، للقيام بعمل مشترك ضد العدو الذي هددهما معاً، فأرسل سنجر حملة كبيرة

وحسنة التسليح، تولى قيادتها أكبر الأمراء لديه، ووجهها ضد المناطق الاسماعيلية في قوهستان، وشعثت الحملة البلاد، ثم ألقت الحصار على طبس، التي كانت الحصن الرئيسي للاسماعيلية، وتمكنت الحملة باستخدامها للمنجنيقات من تدمير معظم الأسوار، وكانت على وشك الاستيلاء على القلعة، عندما دفع الاسماعيلية رشوة إلى الأمير لرفع الحصار والرحيل عنهم، وكانوا بعد ذلك قادرين على ترميم طبس، وإعادة تحصينها، وشحنها بالمؤن، لمواجهة الهجوم التالي، وجاء هذا الهجوم بعد ثلاثة أعوام، عندما قاد الأمير جيشاً جديداً ضد قوهستان، تضمن بالإضافة إلى قواته النظامية عدداً من المتطوعة، وكانت حملته هذه المرة ناجحة، ولكن من الغريب أنها كانت غير فاصلة، فقد قهرت العساكر السلجوقية طبس وخربتها مع قلاع اسماعيلية أخرى، ونهبت القرى الاسماعيلية، واستعبدت بعضاً من سكانها، ثم انسحبت بعد أن أخذت العهد على الاسماعيلية: «أنهم لا يبنون حصناً، ولا يشترون سلاحاً، ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم»[25].

وكان هناك كثيرون، ممن اعتقدوا بأن هذه الشروط كانت كثيرة الليونة، وانتقدوا سنجر من أجل قبوله لها، ومن المؤكد بما فيه الكفاية أن الاسماعيلية، لم يحتاجوا إلى وقت طويل، حتى أعادوا تأسيس أنفسهم بقوة ومتانة، مرة ثاني في قوهستان.

وفي غربي إيران والعراق، لم يقم بركياروق بأي جهد حقيقي للقتال ضد مراكز الاسماعيلية، وعوضاً عن ذلك، حاول تسكين غضب قادته والشعب بالسماح، أو بالحري، بتشجيع الفتك بمؤيدي الاسماعيلية في أصفهان، واشترك جند المدينة وسكانها في أعمال مطاردة المتهمين وملاحقتهم، حيث جرى تطويقهم، ثم حملوا إلى الساحة الكبرى، ومن ثم قتلوا، وكان توجيه اتهام بسيط كافياً، ولذلك مات في ذلك اليوم - حسبما روى ابن الأثير - كثير من الأبرياء بانتقام خاص، ومن أصفهان امتد العمل ضد الاسماعيلية إلى العراق، حيث جرى قتل بعض الاسماعيلية في معسكر عند بغداد، وتم إحراق بعض الكتب الاسماعيلية، وكان أبو إبراهيم الأسد أباذي، وهو من أعيان الاسماعيلية، قد أرسل من قبل السلطان في بعثه رسمية إلى بغداد، فقام السلطان الآن، بإرسال أمر بإلقاء القبض عليه، وعندما جاء سجانه ليقتله قال الأسد أباذي: «هبوا أنكم قتلتموني أتقدرون على قتل من بالقلاع»[26].

وكانت سخرية الأسد أباذي هذه فعلية، فصحيح أن الاسماعيليين قد أصيبوا بنكسة، ولم يعد بإمكانهم الاعتماد على تغاضي بركياروق، وبات الفدائيون لبعض الوقت غير نشيطين إلى حد ما، لكن قلاعهم بقيت سليمة وغير منتهكة، وتحكمهم الإرهابي وتسلطهم، وإن كان قد كبح، لم ينته بأي حال من الأحوال، ففي ما بين عام 1101 وعام 1103، أدرج ملف الشرف اسم مفتي أصفهان الذي جرى قتله في الجامع القديم لتلك المدينة، ومحتسب بيهق، وزعيم الكرامية، التي كانت طائفة عسكرية دينية معادية للاسماعيلية وتعمل ضدهم، وحدث ذلك في مسجد نيسابور، ويبدو أن اغتيال القادة والولاة السلاجقة قد بات في هذه الآونة كثير الصعوبة، ولكن مهمة معاقبة الأعيان المدنيين والدينيين الذين تجرأوا على معارضة الاسماعيلية، كانت ماتزال قائمة ولقد حدث في هذه الأعوام إقدام حكام ألَموت على خطوة مهمة أخرى، تمثلت ببعث الدعاة إلى سورية.

وكان الخطر الاسماعيلي على السلطنة السلجوقية قد جرى استيعابه وحصره، ولكنه لم يُدمر، وبعد موت بركياروق في عام 1105، بذل خليفته محمد تبر جهداً جديداً، وأظهر إصراراً على قهرهم «ولما صفت السلطنة لمحمد ولم يبق له منازع، لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية، وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم، وعسفهم، فرأى أن تكون البداية بقلعة أصفهان التي بأيديهم، لأن الأذى بها أكثر، وهي متسلطة على سرير ملكه، فخرج بنفسه فحاصرهم في سادس شعبان» لسنة خمسمائة (2 نيسان 1107)[27].

وأعيق حصار القلعة والاستيلاء عليها بسلسلة من الخدع والمناورات، أعدت من قبل الاسماعيلية وأصدقائهم، ففي البداية، أجلت مغادرة الحملة نفسها لمدة خمسة أسابيع، وكان ذلك بسبب تقارير زائفة عن مخاطر جهات أخرى، وعندما وجد القائد الاسماعيلي المحلي أحمد بن عطاش نفسه، وقد اشتد الأمر وصعب عليه، كسب فرصة تنفس بالشروع بمناظرات دينية، فلقد ادعى الاسماعيلية في رسالة بعثوها إلى السلطان أنهم كانوا مسلمين صالحين، مؤمنين بالله ورسوله، ومراعين لتطبيق أحكام الشريعة، وأنهم يختلفون عن أهل السنة حول ما يختص بالإمامة، فقط، ولذلك إن المتوجب على السلطان هو أن يمنحهم هدنة وأن يوادعهم، وأن يقبل طاعتهم، وسبب هذا الشروع بمناقشات دينية بين المهاجمين والمدافعين، وبين مختلف المذاهب والآراء في معسكر المهاجمين، وكان عدد كبير من مستشاري السلطان من الفقهاء راغبين في قبول حجة

الاسماعيلية، ولكن بعضهم الآخر وقفوا بحزم، واتخذوا مواقف أشد صرامة، وقال واحد منهم: «يقال لهم: أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حرمه الشرع، أو حرم عليكم ما أحله الشرع، أتقبلون أمره وتطيعونه؟ فإن أجابوا بنعم، تصبح دماءهم حلال شرعاً» ولكن بفضل عناد المناظرين، وصلت المحاجة إلى لا شيء، وتوبع الحصار.

وجرب الاسماعيلية الآن وسيلة أخرى، فاقترحوا تسوية، يُعطون بموجبها حصناً آخر في الجوار من أجل «حماية دمائهم وأموالهم من العامة»، وطال أمد المباحثات، وفي تلك الأثناء رتب وزير السلطان نفسه إرسال إمدادات من الأطعمة إلى داخل القلعة، وانتهت هذه المرحلة عندما جرح اسماعيلي مكلف بالاغتيال، واحداً من أمراء السلطان، ولكنه أخفق في أن يقتله، وكان هذا الأمير مجاهراً بعداء الاسماعيلية بشكل خاص، وبناء عليه شدد السلطان الآن الحصار من جديد، ولذلك كان الأمل الوحيد الذي بقي للمدافعين هو استسلام مشروط.

وتمت الموافقة على الشروط من دون تأخير، حيث سمح لقسم من الحامية بالمغادرة والذهاب تحت حماية السلطان إلى المراكز الاسماعيلية في طبس وأرجان، وتحول البقية إلى واحد من أجنحة القلعة وتخلوا عن بقيتها إلى السلطان، على أساس أنه عندما تصلهم أخبار بسلامة وصول أصحابهم، سوف ينزلون أيضاً، حيث سيسمح لهم بالذهاب إلى ألَموت، وعندما حان الوقت وصلت الأخبار بوصول الذين غادروا، لكن رفض الآن ابن عطاش الوفاء بحصته من الصفقة، فلقد استفاد من فرصة الانتظار، فركز سلاحه ورجاله، وكانوا حوالي الثمانين رجلاً، في الركن الباقي من القلعة، واستعد للقتال حتى الموت، وتمت غلبتهم فقط، عندما أوضح خائن بأن ما كان موجوداً على أحد الأسوار، كان مجرد صف من الأسلحة وكزاغندات عُملت على هيئة الرجال، ولكنها كانت من دون رجال، وفي الهجوم الأخير هلك جميع المدافعين، وألقت زوجة ابن عطاش نفسها من فوق الشرافات، وهي مزينة بجواهرها فهلكت، ووقع ابن عطاش بالأسر، فشهر به في طرقات أصفهان، ثم سلخ وهو حي، وحشي جلده تبناً، وأرسل رأسه إلى بغداد.

وفي كتاب فتح جاء نشره للاحتفال بهذا النصر، قدم كاتب السلطان وجهه النظر السلجوقية حول العدو الذي قهروه، وكان أسلوب هذا الكتاب حسب ما كان معتاداً في مثل هذه الوثائق طناناً وكله مباهاة، من ذلك: «في قلعة شاه دز هذه.. كان الباطل باض

فيها وفرخ. . . وفيها ابن عطاش، الذي طار عقله في مدرج الضلال وطاش، وكان يري الناس نهج الهدى مضلة، ويتخذ السفر المشحون بالأكاذيب مجلة، ويستبيح دماء المسلمين هدراً، ويستحل أموالهم غرراً، ولو لم يكن منهم إلاّ ما كان عند حدثان أمرهم بأصفهان من اقتناص الناس غيلة، واستدراجهم خديعة، وقتلهم إياهم، بأنواع العقوبات، قتلة شنيعة، ثم الفتك بهم، عوداً على بدء، بأعيان الحشم، وخيار العلماء، وإراقتهم ما لا يعد ولا يحصى من محرمات الدماء، إلى غير ذلك من هنات يمتعض الإسلام لها. . . وكان حقاً علينا أن نناضل عن حمى الدين، ونركب الصعب والذلول في مجاهدتهم ولو إلى الصين»[28].

وجاء ذكر الصين بمثابة تنميق للأسلوب، وفي ذلك إشارة إلى قول مشهور للنبي ﷺ، هذا وامتد هجوم السلطان ضد الاسماعيلية إلى كل من شرقي السلطنة السلجوقية وغربيها، وفي العراق أخفقت حملة ضد تكريت، التي تملكها الاسماعيلية لمدة اثني عشر عاماً، ولم تستطع السيطرة على الموقع، ومع ذلك أرغمت الحاكم الاسماعيلي على التنازل عنها إلى عربي شيعي من المنطقة، وفي المشرق جرى تحريض سنجر، على القيام بعمل ما ضد الاسماعيلية في قوهستان، لكن بأية تأثير ونتائج، ذلك غير جلي، وحوالي الوقت نفسه، أو بعد وقت قصير، جرى قهر الحصون الاسماعيلية، والمعاقل التي كانت قرب أرجان، وكان الذي سمع عنهم أكثر قليلاً في منطقتي خوزستان وفارس.

لكن مركز القوة الاسماعيلية لم يكن في أي من هذه المناطق، لقد كان في الشمال في قلاع رودبار، وجردكوه، وفوق هذا كله، في قلعة ألَموت العظيمة مقر حسن الصباح، ففي عام 1107 ـ 1108، أرسل السلطان حملة عسكرية ضد رودبار تحت قيادة وزيره أحمد بن نظام الملك، وكانت لدى الوزير أسبابه القوية الخاصة لكراهية الاسماعيلية، فوالده الشهير كان قد سقط بمثابة الأول بين ضحاياهم الكبرى، وأخوه فخر الدين كان قد سقط في العام الفائت، بطعنة مدية حشيشي في نيسابور.

وحصلت الحملة على بعض النجاح، وألحقت مصاعب جمة بالاسماعيلية، ولكنها أخفقت في الوصول إلى بغيتها، ألا وهو الاستيلاء على ألَموت، وتخريبها، «وطوق أحمد بن نظام الملك ألَموت وأوستاند التي كانت قريبة منها، على ضفاف الأندج، وباشرت عساكره الحرب لبعض الوقت، وتمّ إفساد المحاصيل، ثم لما وجد الجيش

نفسه غير قادر على صنع أي شيء أكثر، رحل من رودبار، وكان في داخل القلاع الاسماعيلية مجاعة كبيرة، فقد عاش الناس على الأعشاب، وبسبب المجاعة أرسلوا زوجاتهم وأطفالهم إلى أماكن أخرى، وبعث هو ـ حسن الصباح ـ أيضاً بزوجته وبناته إلى جردكوه[29].

وإلى جانب إرسال السلطان لعساكره النظامية، حاول إثارة الجيران المباشرين للاسماعيلية ضدهم، وأكره حاكماً محلياً في جيلان على المشاركة في القتال، لكن من دون هدف، وفيما بعد أوقف الحاكم المحلي مساندته، وسبب ذلك كما ادعى، أنه غضب من رعونه السلطان، ولكن من الممكن أنه كانت لديه أسبابه الأخرى، وتولى الجويني وصف محنة الحكام المحليين بصورة جذابة، فهؤلاء الحكام المحليين للديلم كانوا يعيشون بين جيرانهم الأقرباء المرعبين، وبين سادتهم الأقوياء لكن البعيدين، وقال الجويني: «وعلى هذا الأساس كان الحكام المحليون عرضة للمخاطر عن قرب وعن بعد، وذلك من قبل كل من أصدقائهم وأعدائهم، ووقعوا في دوامة الدمار، فمن أصدقائهم، لأن ملوك الإسلام سوف يخضعونهم ويدمرونهم، وبذلك يغدون مثل من ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ﴾ (القرآن الكريم: 22/ 11)، وعلى الرغم من أنهم يفرون من عدوهم إلى قفص الدفاع والحذر، فإن أكثرهم قد قتل»[30].

وكان من الواضح أن الاستيلاء على أَلَموت بوساطة هجوم مباشر، كان أمراً مستحيلاً، ولهذا جرب السلطان طريقة أخرى، وهي حرب العزل والتجريد، التي أمل بأنها سوف تضعف الاسماعيلية إلى درجة لا يستطيعون بعدها مقاومة القتال أمداً طويلاً، وهكذا حدث أنه «لمدة ثمان سنين ـ كما روى الجويني ـ جاءت العساكر إلى رودبار، فدمرت المحاصيل، واشتبك الجانبان في القتال، وعندما بات معلوماً بأن حسناً ورجاله قد باتوا من دون قوة أو طعام، عين (السلطان محمد) في أول سنة 511هـ/ 1117 ـ 1118م الأتابك نُشتكين شيركير قائداً للعساكر، وأمره بإلقاء الحصار على القلعة منذ ذلك الوقت فصاعداً، وفي الأول من صفر (4 حزيران 1117) حاصرت العساكر لَمَسر، وفي الحادي عشر من ربيع الأول (13 تموز) حاصرت أَلَموت، ونصبت المجانيق، وقاتل الجنود باندفاع، ومع ذي الحجة من تلك السنة (آذار ـ نسيان 1118)، كانوا على وشك الاستيلاء على القلعة، وتحرير بني البشر من شرورهم، وقتها وصلت أخبار بأن السلطان محمد قد مات في أصفهان، فكان

على الفور أن تفرقت العساكر، وترك الملاحدة أحياء، فرفعوا إلى داخل قلاعهم جميع المؤن والأسلحة وآلات الحرب، التي جُمعت من قبل جيش السلطان»[31].

وسبب انسحاب جيش شيركير، وهو على وشك الانتصار خيبة أمل عميقة، هذا وهناك بعض الإشارات إلى أن خبر موت السلطان، لم يكن الشيء الوحيد الذي سبب انسحاب الجيش المستعجل، فلقد عزي دور تآمري إلى واحد اسمه قوام الدين ناصر بن علي الدركزيني، الذي كان وزيراً في خدمة السلاجقة، حيث قيل بأنه كان اسماعيلي في السر، وكان له نفوذ كبير على محمود بن السلطان محمد، الذي خلف والده سلطاناً في أصفهان، ولذلك قام بدور له بعض الأهمية في بلاط السلطان الجديد، ولذلك قيل بأنه تدبر أمر انسحاب جيش شيركير من ألَموت، وبذلك أنقذ الاسماعيلية، كما أنه سمم عقل السلطان الجديد ضد شيركير، فأودع السجن، ثم ما لبث أن لقي حتفه، واتهم الدركزيني فيما بعد باشتراكه في عدد آخر من جرائم القتل[32].

وفضلاً عما تقدم، حتى عندما كان الاسماعيلية تحت الهجوم، لم يكونوا كسالي، ففي عام 1108 ـ 1109 قتلوا عبد الله الخطيب، قاضي أصفهان، وعدو الاسماعيلية بكل جوارحه، وكان القاضي قد عرف ما كان فيه من الخطر، فارتدى زردية، وكان له حرسه، واتخذ حذره واحتاط، ولكن من دون فائدة، ففي أثناء صلاة الجمعة في جامع همذان، تمكن حشيشي من التسلل بين حرسه وطعنه فصرعه، وفي بغداد انقض حشيشي على أحمد بن نظام الملك، بدون شك ليعاقبه على قيادته حملة إلى ألَموت، وجرح الوزير، لكنه لم يمت، وكان هناك ضحايا آخرين، منهم علماء سنة وقضاة، وكثير من الأعيان مثل الأمير الكردي أحمديل الذي كان أخاً للسلطان بالرضاعة.

وتبع موت السلطان محمد في عام 1118، مرحلة جديدة من الصراع المدمر بين السلاجقة، كان رجال الاسماعيلية أثناءها قادرين على التعافي من الضربة التي عانوا منها، وعلى استعادة مواقعهم في كل من قوهستان والشمال، ومع مرور الزمن استطاع سنجر، الذي حكم المقاطعات الشرقية، في ظل أخويه بركياروق ومحمد تبر، تأسيس ريادة مقلقة حذرة بين الحكام السلاجقة، وبدأت في هذه الآونة طبيعة العلاقات بين الاسماعيلية والدولة السنية بالتغير، فالاسماعيلية لم يتخلوا عن الأهداف النهائية لحركتهم، ولكن حملتهم للتخريب والإرهاب في البلدان الوسطى أخرست، وعوضاً عن ذلك ركزوا جهودهم على

الدفاع، وعلى تقوية الأماكن التي كانت تحت سيطرتهم، لا بل إنهم قد حصلوا حتى على بعض من درجات الاعتراف السياسي، وفي الوقت الذي كان فيه تمزق الشرق الأوسط، قد أوقف بأعمال الاستيلاء السلجوقية الكبرى، فإن هذا التمزق قد استؤنف مجدداً، وهكذا احتلت الإمارات والكيانات الاسماعيلية مكانها في الأرضي السياسية بمثابة دويلات صغيرة مستقلة، لا بل إنها شاركت حتى في التحالفات والمنافسات المحلية.

وهناك قصة رواها الجويني، تولت شرح أسباب تساهل سنجر تجاه استقلال الاسماعيلية، جاء فيها: «واصل حسن إرسال الرسل (إلى سنجر) يطلبون السلام، ولكن عروضه لم تقبل، وعندها تمكن حسن بوساطة سبل الخديعة من رشوة واحد من حاشية السلطان، ليدافع عنه أمام السلطان، ثم رشا واحداً من خصيانه بمبلغ كبير من المال، وأرسل إليه مدية، ثم ضربها في الأرض إلى جانب فراش السلطان، وكان ذلك عندما كان السلطان في إحدى الليالي مستلقياً نائماً وهو مخمور، وعندما أفاق السلطان وشاهد المدية امتلأ رعباً، ولكن نظراً لعدم معرفته من يتهم، أمر بحفظ القضية سراً، وأرسل بعدها حسن الصباح إليه رسولاً حمل الرسالة التالية: إنني لو لم أبغ الخير إلى السلطان، لكان من الممكن لتلك المدية التي غرست في الأرض الصلبة، أن تغرس في صدره اللين، وأصيب السلطان بالرعب، وتوجه منذ ذلك الحين إلى قبول السلام معهم، وباختصار أمسك السلطان بسبب هذه الخديعة عن قتالهم، وأفلحت قضيتهم أثناء حكمه، وسمح لهم بعطاء مقداره ثلاثة آلاف دينار من ضرائب أراضيهم التي كانت في منطقة قومس، كما أذن لهم بفرض مكوس صغيرة على المسافرين العابرين أمام جردكوه، وهي عادة ما تزال قائمة حتى هذا اليوم، ورأيت بنفسي عدداً من فرمانات سنجر المحفوظة في مكتبتهم، والتي أرضاهم فيها وتملقهم، ومن هذه الفرمانات استطعت أن أستخلص معرفة المدى الذي تغاضى فيه السلطان عن أعمالهم، وكيف طلب أن يكون على اتفاقات سلمية معهم، وباختصار لقد نعموا أثناء حكمه بالراحة والطمأنينة»[33].

وكان لنزارية ألَموت عدواً آخر، وذلك بالإضافة إلى الخلفاء العباسيين وسلاطنة السلاجقة، ففي القاهرة، كان ما يزال هناك خليفة فاطمي بين أتباعه وبين نزارية إيران، ذلك النوع الخاص من البغضاء والعداوة اللدودة، التي توجد عادة بين الفروع المتنافسة للديانة نفسها، ففي عام 1121 جرى في القاهرة اغتيال الأفضل المهيب، والوزير، وأمير

الجيوش، وبلا مفر لامت الإشاعات الحشيشية، ولكن مؤرخاً دمشقياً معاصراً للأحداث، وصف ذلك بأنه: «ادعاء باطل ومحال زائل»[34]، فقد كان السبب الحقيقي للاغتيال حسبما قال: النفرة بين الأفضل، والخليفة الفاطمي الآمر، الذي خلف المستعلي في عام 1101، فقد رفض المستعلي الوصاية من وزيره القدير، وأظهر سروره لموته، ويمكن أن يكون هذا قد حصل ولكن الإشاعة كانت في هذه المرة صحيحة، فالرواية التي نقلها كل من رشيد الدين والكاشاني، أرجعت الفضل في الاغتيال إلى «رفاق ثلاثة من حلب» وذهبت الرواية إلى القول أنه عندما وصل خبر موت الأفضل: «أمرهم سيدنا بالاحتفال لمدة سبعة أيام وليال، ولقد احتفلوا واحتفوا بالرفاق»[35].

وبدت إزاحة الأفضل التي سببت مثل هذه الغبطة في كل من قلعة أَلَموت وقصر القاهرة، ساعة مناسبة للقيام بمحاولة للتصالح بين كل من الفرعين، وعقد في عام 1122، اجتماع عام في القاهرة، فيه عرضت القضية وطرحت لصالح المستعلي وضد نزار، وفي حوالي الوقت نفسه دافع الخليفة عن شرعيته في رسالة وعظ، توجهت بالخطاب بشكل رئيسي إلى الإخوان المنفصلين، كما وأمر المأمون الوزير الجديد في القاهرة ـ كاتب الديوان، بأن يكتب رسالة طويلة إلى حسن الصباح، يحثه فيها على العودة إلى جادة الصواب، وأن يتخلى عن اعتقاده بإمامة نزار، وسار المأمون ـ الذي كان هو نفسه من الاثني عشرية، وليس اسماعيلياً ـ إلى هذا الحد، تماشياً مع رغبات الخليفة والدعاة، ولكن كان من الواضح أنه لم يكن لدى الوزير النية بالسماح لهذه المعاملات مع حسن الصباح بأن تذهب بعيداً جداً، فلقد تبع اكتشاف مزعوم لمؤامرة وجهت من أَلَموت، ومولت من قبلها، لاغتيال كل من الآمر والمأمون، اتخاذ أشد الاحتياطات الأمنية عند الحدود، وكذلك في القاهرة، لمنع تسرب عملاء الحشيشية: «فلما ولي المأمون، بلغه أن ابن صباح والباطنية، فرحوا لموت الأفضل وقتله، وأنهم قد امتدت آمالهم لقتل الآمر والمأمون، وأنهم أرسلوا رسلاً لأصحابهم المقيمين بمصر، ومعهم أموال للتفرقة عليهم. فتقدم المأمون إلى والي عسقلان، وصرفه عنها وولى غيره، وأمره بعرض أرباب الخدم بها، وأن لا يبقى فيها إلاّ من هو معروف من أهل البلاد، ووصاه بالاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم، بل يكشف عن بعضهم من بعض ويفرق بينهم، ويبالغ في كل ذلك، ومن وصل ممن لم تجر له عادة

بالوصول إلى البلاد، فليعوقه بالثغر ويطالع بحاله وبما معه من البضائع وكذلك الجمالون، وأن لا يمكن أحداً من الوصول إلى البلاد إلاّ إن كان معروفاً متردداً، ولا يسير قافلة إلاّ بعد أن يتقدمها كتاب إلى الديوان بعدة التجار، وأسمائهم، وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين، وذكر أصناف البضائع ليقابل بها في مدينة بلبيس، وعند وصولهم إلى الباب، ويكرم التجار ويكف الأذى عنهم.

ثم تقدم أمر المأمون لوالي مصر والقاهرة، وأمرهما أن يسقعاها له شارعاً شارعاً، وحارة حارة بأسماء من فيها من السكان، وأن لا يمكنا أحداً من الانتقال من منزله إلى منزل، إلاّ أن يخرج أمره بما يعهده فيه.

فلما وقف على أوراق التسقيع، وفهم أسماء أهل مصر والقاهرة وكناهم وأحوالهم ومعايشهم، ومن يصل إلى كل ساكن من سكان الحارات من الغرباء، سيّر من قبله نساء يدخلن هذه المساكن، ويتعرفن أحوال الباطنية، فكانت أحوال من بالقاهرة ومصر لا يخفى عليه منها شيء... ثم إنه ركب في يوم من الأيام في جماعة من العسكرية، وفرقهم وأمر بمسك من عينه...»[36]، وألقي القبض على الكثير من أمثال هؤلاء العملاء، وكان من ضمنهم مربي أبناء الخليفة، وكان في حوزة بعضهم مال كان حسن الصباح قد أعطاهم إياه لاستخدامه في مصر، وكانت شرطة الوزير وجواسيسه ناجحين إلى حد أنه ـ كما روى المؤرخ المصري ـ أنه من اللحظة التي كان يترك فيها حشيشي أَلَموت، كانت حركاته معروفة ومخبراً عنها، ويبدو أن رسالة عفو ودعوة إلى القادة النزارية بأسمائهم، للعودة إلى الحظيرة، دونما خوف من عقوبة، لم ترسل، وتدهورت العلاقات بين القاهرة وأَلَموت وفسدت بسرعة.

وفي أيار عام 1124 وقع حسن الصباح مريضاً، وشعر بأن نهايته باتت وشيكة، فوضع الترتيبات من أجل خلافته، وكان وريثه المختار بزرك أُميد، الذي كان لمدة عشرين عاماً حاكماً لقلعة لَمَسر، «وأرسل شخصاً إلى لمسر ليجلب بزرك أميد، وعينه خليفة له، وجعل دهدار بو علي حاكم أردستان على يمينه، وأوكل إليه بشكل خاص أمر ديوان الدعوة، وجعل ابنه آدم ـ قصران عن شماله، وكيا ـ باجعفر، الذي كان قائد عساكره، أمامه، وعهد إليهم، أن يعمل الأربعة في وفاق واتفاق حتى يحين الوقت الذي يأتي فيه إمام فيستولي على مملكته، وفي ليلة الأربعاء السادس من ربيع الآخر سنة 518 (الجمعة 23 مايس 1124) هرع بعيداً إلى نار الله وجحيمه»[37].

ولقد كان نهاية لحياة رائعة، وقد وصفه مؤرخ عربي ـ بدون شك لم يكن صديقاً ـ بأنه كان «شهماً» كافياً، عالماً بالهندسة والحساب والنجوم، والسحر، وغير ذلك»[38]، وتلح الترجمة الاسماعيلية ـ التي اقتبست من قبل المؤرخين الإيرانيين ـ على نسكه وزهده، حتى أنه «خلال الخمس والثلاثين سنة التي أمضاها في أَلَموت، ما من أحد شرب الخمرة بشكل مكشوف، أو وضعها في جرار»[39]، ولم تكن صرامته محصورة ضد أعدائه فقط، بل إنه أعدم واحداً من أبنائه من أجل شربه الخمر، وقتل آخر بتهمة تبرهنت فيما بعد أنها كانت زائفة، من أنه كان قد دبر قتل الداعي حسين القائني»، واعتاد أن يشير إلى إعدام ولديه كحجة ضد أي واحد كان يتوهم بأنه قاد الدعوة من أجلهما، وأن ذلك الغرض كان في ذهنه»[40].

وكان حسن الصباح مفكراً وكاتباً، كما كان رجل عمل، وحفظ لنا الكتّاب السنة اقتباس من كتاباته، وهما قطعة من سيرته لنفسه، ومختصر لرسالة كلامية[41]، ونظر إليه باحترام وتقدير من قبل الاسماعيليين المتأخرين، على أنه كان المحرك الأول للدعوة الجديدة، والمكون للدعوة الاسماعيلية التي ذاعت بعد الانفصال عن القاهرة، والتي حفظت، وأحكمت صناعتها بين الاسماعيلية النزارية، وتحتوي الكتابات الاسماعيلية المتأخرة عدداً من المقاطع، التي من الممكن أن تكون اقتباساً من مبادئه أو اختصاراً لها، ولم يدع حسن قط أنه كان إماماً، بل كان ممثل الإمام فقط، وكان هو بعد اختفاء الإمام هو الحجة ومصدر المعرفة بالإمام المستتر لزمانه، وصلة الوصل الحية بين سلسلة الأئمة الظاهرين للماضي، وللمستقبل، وقائد للدعوة وللعقيدة الاسماعيلية التي هي في الأساس تعليمية، وفيها ليس للمؤمن الحق في الاختيار، بل يجب عليه أن يتبع التعليم، وكان الإمام هو المصدر النهائي للقيادة والتوجيه، وكان ممثله المعتمد، هو المصدر المباشر، ولا يستطيع الناس اختيار إمامهم، حسبما قال أهل السنة، ولا أن يمارسوا الحكم في تقرير الحقيقة الصادقة في مسائل الفقه والشريعة، فلقد عين الله الإمام، وبناء عليه كان الإمام مورد الحق والصدق، والإمام وحده يمكنه أن يثبت شرعية الوحي والعقل، والإمام الاسماعيلي وحده فقط، بحكم طبيعة وظيفته وعقيدته، يمكنه في الحقيقة فعل ذلك، ولذلك كان هو وحده الإمام الصحيح، وكان منافسوه مغتصبين، وأتباعهم مذنبين، ومذاهبهم ودعواهم زائفة.

وغدت هذه العقيدة بإلحاحها على الإخلاص والطاعة، ورفض العالم كما كان، سلاحاً فعالاً في أيدي المعارضة الثورية السرية، وأصبح الواقع المؤلم للخلافة الفاطمية في مصر محرجاً للإدعاءات الاسماعيلية، وحرر الانفصال عن القاهرة، وتحويل الطاعة إلى إمام خفي أسطوري، قوى الانفعال والتقوى الاسماعيلية المكبلة، ولقد كان نجاح حسن الصباح هو الذي بعثهما ووجههما.

الفصل الرابع
الدعوة في إيران

لقد عنى دوما موت سلطان سلجوقي توقفاً مباشراً لجميع الأعمال الإيجابية، ومرحلة من الصراع والريبة، كان يقوم خلالها أعداء الدولة الداخليين والخارجيين، بإيجاد فرصهم المواتية واغتنامها، ولابد أنه وجدت أعداد كبيرة من الناس ممن توقعوا بأن الإمارة الاسماعيلية، التي أوجدها حسن الصباح، سوف تسير بعد موته على هذه المنحى المؤسف والمعتاد للحكومات الإسلامية في تلك الحقبة.

وفي عام 1126، أي بعد عامين من تولي بُزُرك أميد، قام السلطان سنجر بهجوم، وضع فيه المسألة تحت الاختبار، ولم يكن سنجر قد اتخذ أي إجراء ضد الاسماعيلة منذ حملته ضد طبس في عام 1103، لا بل من الممكن القول أنه كان قد دخل في نوع من التفاهم والوفاق معهم، وليس هناك سبب مباشر معروف لإعلان الحرب، ثم للقيام بهجوم ضد الاسماعيلية في عام 1126، ومن الممكن افتراض أن السبب كان هو تزايد ثقة السلطان، وتصور ضعف الاسماعيلية في ظل حاكمهم الجديد، وفي هذا تفسير كاف لقراره بعدم الاستمرار بالتغاضي والتساهل مع هذا الخطر، وهذه القوة المستقلة على حدود سلطنته لا بل حتى في داخل حدودها، وتمت تأدية دور مهم من قبل وزير السلطان، معين الدين الكاشي، الذي كان يسعى لاتخاذ إجراء حاسم، ويبدو أن الهجوم قد جاء من المشرق، فقد ورد أنه «في هذه السنة أمر الوزير . . . . بغزو الباطنية وقتلهم أينما كانوا، وحيثما ظفر بهم، وبنهب أموالهم، وسبي حريمهم، وجهز جيشاً إلى طرُبثيث (في قوهستان) وهي لهم، وجيشاً إلى بيهق من أعمال نيسابور. . . وسير إلى كل طرف من أعمالهم جمعاً من الجند، ووصاهم أن يقتلوا من لقوه منهم»[1]، ويستنتج من هذا بأن الاسماعيلية قد حُرموا من الحق الذي منح إلى الأسرى والمدنيين في الشريعة الإسلامية، فيما يتعلق بالقتال بين المسلمين، وأنهم كانوا يعاملون بمثابة كفار خاضعين للقتل أو

الاسترقاق، وروى المؤرخ العربي خبر نجاحين، كانا: الاستيلاء على طرزْ، وكانت قرية اسماعيلية قرب بيهق، حيث وضع السكان طعمة للسيف، وقتل قائدهم نفسه بقفزه من منارة الجامع، وكان النجاح الثاني غارة على طريثيث، حيث أن العساكر «قتلوا من أهلها فأكثروا، وغنموا من أموالهم وعادوا»، وإنه لمن الواضح أن نتائج الحملة كانت محدودة وغير فاصلة، لا بل أكثر من هذا كان ما حققه الهجوم في الشمال حتى أسوأ، حيث أن حملة ضد رودبار قادها ابن أخي شيركير، ردت على أعقابها، وأخذ منها كثيراً من الغنائم والأسلاب، وتعرضت حملة أخرى تمت بوساطة مساعدة محلية، إلى الهزيمة ووقع واحد من قادتها بالأسر.

ولم يتأخر انتقام الاسماعيلية كثيراً، فقد تدبر اثنان من الفدائيين سبيلهما إلى ما بين حاشية الوزير، حيث اندسا على شكل سواس، وببراعتهما وتظاهرهما بالورع كسبا ثقته، ولقد وجدا فرصتهما عندما دعاهما الوزير إلى حضرته لاختبار حصانين عربيين لتقديمهما هدية إلى السلطان بمناسبة أول السنة الفارسية، وجرى تنفيذ الاغتيال في السادس عشر من آذار عام 1127، وقال ابن الأثير: «وكان له في قتالهم آثار حسنة ونية صالحة، فرزقه الله الشهادة»[2]، وروى هذا المؤرخ نفسه خبر حملة تأديبية أخرى قادها سنجر نفسه ضد ألَموت، حيث لاقى أكثر من عشرة آلاف اسماعيلي حتفهم، ولم يُذكر هذا من قبل الاسماعيلية، أو من قبل مصادر أخرى، ولربما كان خبراً مخترعاً.

وبعد انتهاء هذه الحملات، وجد الاسماعيلية أنفسهم أكثر قوة من قبل، ففي رودبار دعموا أنفسهم ومتنوها ببناء حصن جديد وقوي اسمه ميمون دز[3]، ووسعوا أراضيهم بالاستيلاء على طالقان بشكل خاص، وفي المشرق أغارت في عام 1129 قوات اسماعيلية، ربما من قوهستان، على سجستان[4]، وفي العام نفسه وجد محمد السلطان السلجوقي لأصفهان أن من الحكمة بحث السلام معهم، ولهذا استدعى مبعوثاً من ألَموت، ولسوء الحظ أن المبعوث مع زملائه تم الفتك بهم من قبل عامة أصفهان، وذلك عندما غادروا حضرة السلطان، واعتذر السلطان، وأعلن عن عدم مسؤوليته، ولكن ـ كما كان متوقعاً ـ رفض طلب بزرك أميد بمعاقبة القتلة، ورد الاسماعيليون بهجوم على قزوين، حيث أنهم ـ تبعاً لمؤرخهم ـ «قتلوا أربعمائة إنسان، وأخذوا غنائم كثيرة، وحاول القزوينيون أن يكروا عليهم، ولكن ـ كما قال المؤرخ الاسماعيلي ـ : «عندما قتل الرفاق

واحداً من الأمراء الأتراك فر باقيهم»[5]، ثم أخفق هجوم ضد أَلَموت، قام به محمد في هذه الآونة، ولم يتوصل إلى أية نتيجة.

ومات السلطان محمد في عام 1131، وكالعادة سادت الفوضى بين إخوته وابنه، واستطاع بعض الأمراء توريط المسترشد خليفة بغداد في تحالف ضد السلطان مسعود، وفي عام 1139 وقع الخليفة المسترشد بالأسر مع وزيره، وعدد من أفراد حاشيته، وكان آسرهم السلطان مسعود، ووقع ذلك قرب همذان، وحمل السلطان أسيره المتميز إلى مراغة، حيث قيل بأنه عامله باحترام، ولكنه لم يمنع جماعة كبيرة من الاسماعيلية من دخول المعسكر وقتله، وطبعاً كان الخليفة العباسي - الرئيس الشرفي لمسلمي السنة - هدفاً بديهياً عندما تحين الفرصة لسكاكين الحشيشية، ومع ذلك اتهمت الأقاويل السلطان مسعود بالتآمر، أو لنقل بالإهمال المتعمد، لا بل إنها اتهمت سنجر، الذي كان ما يزال السيد الاسمي للحكام السلاجقة، وعدته مدبراً للجريمة، هذا وحاول الجويني جاهداً تبرئتهما معاً من هذه التهمة بقوله: «اتهم بعض من قصيري النظر، وأصحاب الأماني الشريرة نحو بيت سنجر، كلاهما بالمسؤولية عن هذا العمل، أما ورب الكعبة لقد كذب المنجمون، إن حسن طوية السلطان سنجر، ونقاء سريرته، في اتباع الدين الحنيف والشريعة وتقويتهما، وتعظيم كل ما له علاقة بالخلافة، وكذلك شفقته ورأفته أمران واضحان، وهما برهان على بهتان أشكال مثل هذا التزوير الذي وضع ضد حضرته، التي كانت منبع الرحمة، ومنشأ الرأفة»[6].

أما في أَلَموت فقد جرى استقبال خبر موت الخليفة بسرور عارم، واحتفل الاسماعيلية لمدة سبعة أيام وليالي، واحتفوا كثيراً بالرفاق، وشتموا اسم العباسيين وحطوا من شأن شعارهم.

وقائمة الاغتيالات التي تمت في إيران، أثناء حكم بُزُرك أُميد هي بالمقارنة قصيرة، لكنها لم تكن غير متميزة، فإلى جانب الخليفة كان ضمن الضحايا محتسب أصفهان، ووالي مراغة، الذي قتل قبيل وصول الخليفة إلى تلك المدينة، ومحتسب تبريز، ومفتي قزوين.

ولم يكن التراخي في أعمال الاغتيال هو التغير الوحيد في صفات الإمارة الاسماعيلية، فبُزُرك أُميد كان رجلاً من أهالي رودبار، ولم يكن غريباً مثل حسن الصباح، كما أنه لم يشارك حسناً خبرته كمحرك سري، بل أمضى معظم حياته العملية حاكماً، ورجل إدارة، وتبنيه لدور حاكم إقليمي، وقبوله هكذا، من قبل الآخرين، قد

ظهر بشكل صارخ بهرب الأمير يَرَنْقُش إلى أَلَموت، وهو الذي كان عدواً قديماً ومرعباً للاسماعيلية، وجاء فراره مع أتباعه، بعدما أزيح من قبل القوة الصاعدة لخوارزم شاه، وسأل الشاه تسليمهم له، محتجاً بأنه كان صديقاً للاسماعيلية، بينما كان يرنقش عدوهم، ولكن بزرك أميد رفض أن يسلمهم إياه قائلاً: «أنا لا يمكنني أن أعد عدواً أي شخص يضع نفسه تحت حمايتي»، وشعر المؤرخ الاسماعيلي الذي أرخ لحكم بزرك أميد بالانشراح البديهي، في ترديد قصص للشهامة كهذه، وهي قصص عكست دور سيد أريحي، أكثر منه قائداً ثورياً.

واستوعب الحاكم الاسماعيلي الجديد هذا الدور وشغله إلى درجة القضاء على الهرطقة، ففي عام 1131، ظهر - كما قال المؤرخ الاسماعيلي - في الديلم شيعي اسمه أبو هاشم، وأرسل كتباً إلى جهات بعيدة حتى خراسان، وأرسل بزرك أميد إليه رسالة نصيحة، جلب انتباهه فيها إلى براهين الله، فأجابه أبو هاشم: «ما تقوله هو إلحاد وكفر، وإذا ما جئت إلى هنا وبحثناها، فإن زيف عقيدتك سوف يبدو واضحاً، وأرسل الاسماعيلية ضده جيشاً فهزموه وأسروا أبا هاشم، وقدموا له كثيراً من البراهين، ثم أحرقوه»[8].

وانتهى حكم بزرك أميد بموته في التاسع من شباط لعام 1138، وذكر ذلك الجويني بعباراته المنمقة قائلاً: «بقي بزُرك أميد جالساً على عرش الجهالة، حاكماً فوق الضلالة، حتى السادس والعشرين من جمادى الأولى لسنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة (شباط 1138) عندما سحق تحت سنابك الهلاك والنار، وأحرق بحطب جثته»[9].

وإنه لتغيير مهم في طبيعة القيادة الاسماعيلية أنه جرى استخلافه من دون أية حادثة، من قبل ابنه محمد، الذي كان قد سماه ولياً لعهده قبل ثلاثة أيام من موته فقط، وقال المؤرخ الاسماعيلي: «عندما مات بُزرك أميد أصبح أعداؤهم فرحين ووقحين»[10]، ولكنهم ما لبثوا أن جعلوا يدركون أن آمالهم كانت عابثة.

وكانت الضحية الأولى للحكم الجديد عباسياً آخر، هو الخليفة الراشد المعزول، ابن وخليفة المسترشد المقتول، فهذا كان مثل أبيه، قد تورط في الخلافات السلجوقية، ولذلك خلع بشكل مهيب، من قبل جمع من القضاة والفقهاء، جمعوا من قبل السلطان، وترك الراشد بعدها العراق إلى إيران للحاق بحلفائه، وكان في أصفهان ناقهاً من مرض، عندما وجده مغتالوه في الخامس، أو السادس من حزيران عام 1138، وكان القتلة من

خراسان، في خدمته الخاصة، ومرة ثانية جرى الاحتفال بموت الخليفة بأسبوع من السرور في أَلَموت، وذلك على شرف «النصر» الأول للحكم الجديد[11].

وأدرج ملف الشرف لحكم محمد كله، أربعة عشر اغتيالاً، فإلى جانب الخليفة، كان أبرز الضحايا السلطان السلجوقي داود، الذي قتل في تبريز عام 1143، من قبل أربعة من الحشيشية من سورية، ولقد قيل بأن القتلة قد أرسلوا من قبل زنكي، حاكم الموصل، الذي كان يوسع مملكته في سورية، ذلك أنه كان يخشى من إرسال داود ليأخذ مكانه، ومن المؤكد أنه أمر غريب أن يقع اغتيال في شمال إيران، يكون الإعداد له قد جرى في سورية، وليس في أَلَموت المجاورة، وكان هناك ضحايا آخرين، كان من ضمنهم أمير من بلاط سنجر، وواحد من زملائه، وأمير من بيت خوارزم شاه، مع حكام محليين في جورجيا (؟) ومازندران، ووزير وقضاة قوهستان، وتفليس، وهمذان، الذين أجازوا قتل الاسماعيلية أو حرضوا عليه.

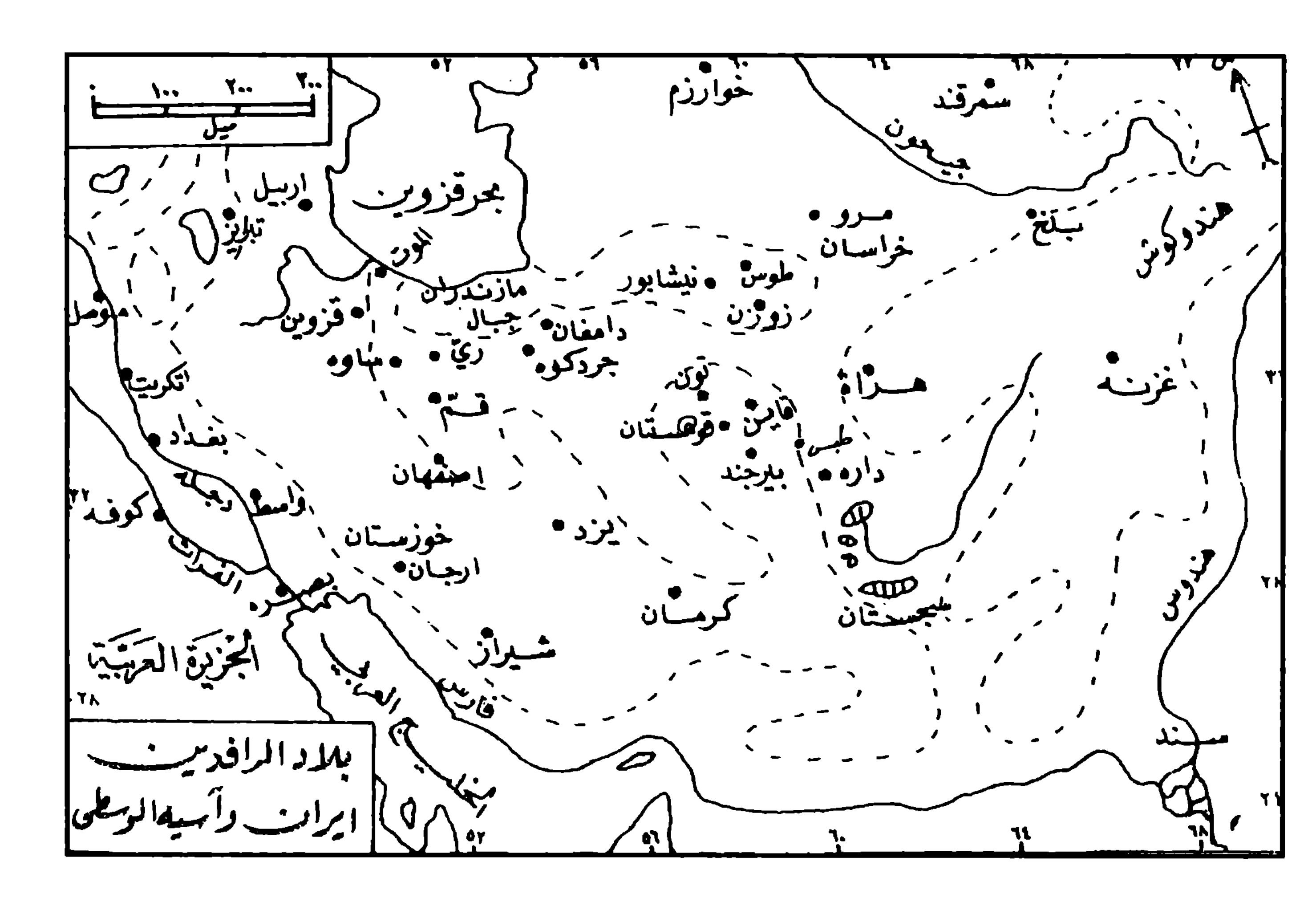
ولقد كانت حفنة صغيرة بالمقارنة مع الأيام العظيمة لحسن الصباح، وهي تعكس انشغال الاسماعيلية المتزايد بالمشاكل المحلية، والإقليمية، وقد احتلت هذه الأشياء مكان الصدارة في التاريخ الاسماعيلي، ونادراً ما ورد ذكر المسائل الكبرى للسلطنة، وهناك عوضاً عنها روايات عن أحوال الصراعات المحلية مع الحكام المجاورين حليت بقوائم الأبقار، والأغنام، والحمير، وأسلاب أخرى جرى الاستيلاء عليها، وقام الاسماعيلية بأعمال أكبر من حفظهم لأنفسهم بوساطة سلسلة من الغارات والغارات المضادة بين رودبار وقزوين، ففي عام 1143 صدوا هجوماً جرى توجيهه من قبل السلطان محمد ضد أَلَموت، واستطاعوا أن يكسبوا، أو أن يبنوا بعضاً من الحصون الجديدة في مناطق قزوين، إلى حد أنه قيل بأنهم مدوا نشاطهم إلى منطقتين جديدتين في جورجيا، حيث أغاروا وتابعوا الدعوة، وفي أفغانستان اليوم الحالي، حيث وجهت إليهم الدعوة من قبل الحاكم، لارسال بعثة إلى هناك، وذلك لأسباب تعلقت به، ولكن بعد موته في عام 1161، نال كل من الدعاة والمستجيبين حتفهم على يد خليفته.

وكان هناك عدوان مثابران بالعمل ضدهم بشكل خاص، وهما حاكم مازندران، وعباس الحاكم السلجوقي للري، الذي أعد مذبحة للاسماعيلية في تلك المدينة، وهاجم الأراضي الاسماعيلية، حتى قيل بأنهما قد بنيا أبراجاً من رؤوس اسماعيلية، وفي عام 1146 أو عام 1147 قُتل عباس من قبل السلطان مسعود، عندما كان في زيارة لبغداد

«وذلك بإشارة من السلطان سنجر ، وأرسل رأسه إلى خراسان» حسب رواية المؤرخ الاسماعيلي ، هذا وهناك العديد من مثل هذه الإشارات ، التي أفادت أن سنجر والاسماعيلية ، كانوا على الجانب نفسه ، ومع ذلك فإنهم اشتبكوا في أوقات أخرى ، ودخلوا في صراعات ، من ذلك على سبيل المثال عندما أيد سنجر محاولة لاستعادة عقيدة السنة إلى واحد من المراكز الاسماعيلية في قوهستان ، وكانت هناك ، كما في الأماكن الأخرى ، قضايا للنزاع ، حسبما جرت العادة محلية وإقليمية ، ومن الجدير بالذكر أن القيادة في القلاع الاسماعيلية الأخرى ، والاقطاعيات بالإضافة إلى ألموت ، قد انحدرت من الأب إلى الابن ، وغالباً ما كان النزاع الذي التحموا به عائلياً بحتاً .

ويبدو أن حرارة الانفعالات كانت قد اختفت من بين الاسماعيلية ، ووجد إقرار بالواقع ، وتفاهم مع رضا متبادل بين الإمارات الاسماعيلية ، والملكيات السنية ، فالصراع الكبير للإطاحة بالنظام القديم ، ولإقامة عصر جديد باسم الإمام المستتر ، قد انكمش وتحول إلى حوادث حدود ، وغارات على القطعان ، وأصبحت القلاع الحصينة ، التي كان القصد منها بالأصل أن تكون رأس حربة في الهجوم العظيم على الدولة السنية الكبرى ، أصبحت مراكز لأسر حاكمة ، طائفية ، ومحلية على نحو لم يكن أمراً غريباً في التاريخ الإسلامي ، حتى أنه صار لدى الاسماعيلية سكتهم ، وأنهم قد ضربوا نقودهم الخاصة ، وصحيح أن الفدائيين كانوا ما يزالون يمارسون الاغتيال ، ولكن هذا لم يكن خاصاً بهم ، وهو على كل حال ، لم يعد بالكاد كافياً لإلهاب آمال المؤمنين .

وكان ما يزال بينهم من كان ينصت إلى صوت الماضي ، إلى الأيام المجيدة لحسن الصباح ، وإلى التكريس والمغامرة لصراعه المبكر ، والإيمان الديني الذي ألهمهم ، ووجد هؤلاء قائداً في حسن بن محمد سيد أَلَموت ، وولي عهده ، ذلك أنه كان قد بدأ اهتماماته مبكراً «فعندما قارب سن البلوغ تهوس بالرغبة في تحصيل مذهب حسن الصباح وأسلافه (أي أسلاف حسن) والبحث فيه و . . . أصبح بارعاً في عرض دعوتهم . . . وبوساطة . . . بلاغة كلماته كسب إلى جانبه القسم الأعظم من ذلك الشعب ، ولما كان والده لا يملك شيئاً من هذا الفن . . . بدا . . . ابنه إلى جانبه كعالم متفوق ، ولهذا . . . رغبت العامة في اتباع قيادته ، ولما كانوا لم يسمعوا مثل هذه المقالات من أبيه ، بدأوا يعتقدون بأن ها هنا كان الإمام الذي تقدم الوعد به من قبل حسن الصباح ، وازداد التصاق الناس به ، وبادروا إلى المسارعة إلى اتباعه كقائد لهم» .



بلاد الرافدين
ايران وآسيه الوسطى
ميل
١٠٠
٢٠٠
٣٠٠
خوارزم
سمرقند
جيحون
بحر قزوين
اربيل
تبريز
آمل
مازندران
قزوين
الموصل
جبال
ري
ساوه
دامغان
جردكوه
نيشابور
طوس
زوزن
مرو
خراسان
بلخ
هندوكوش
غزنة
هراة
تون
قاين
قوهستان
طبس
بيرجند
داره
قم
تكريت
بغداد
اصفهان
دجلة
واسط
كوفة
الفرات
خوزستان
ارجان
يزد
كرمان
سجستان
هندوس
بصرة
الجزيرة العربية
شيراز
فارس
الخليج العربي
سند

ولم يرضَ محمد بهذا كله، ولأنه كان محافظاً في اسماعيليته «كان متشدداً في اتباع القواعد التي وضعت من قبل أبيه ومن قبل حسن (الصباح)، مع الالتزام بتوجيه الدعوة لصالح الإمام، والتشدد في إظهار شعائر الإسلام، ولذلك عدّ سلوك ولده غير متماش مع هذه القواعد، ولهذا انتفى منه كلياً أمام الجميع، وجمع الناس وخاطبهم كما يلي: إن حسن هذا هو ولدي، وأنا لست الإمام بل واحداً من دعاته، وكل من يصغي إلى كلام هؤلاء ويصدقهم هو كافر ومشرك بالله، وعلى هذا الأساس عاقب بعضاً ممن آمن بإمامة ابنه بكافة أنواع العذاب والعقوبات، وأمر في إحدى المرات بقتل مائتين وخمسين شخصاً في أَلَموت، ثم ربط جثثهم على ظهور مائتين وخمسين آخرين ممن أدانهم بالتهمة نفسها، وطرد هؤلاء الأخيرين من القلعة، وبهذه الوسيلة خافوا وذلوا»[13]، وانتظر حسن وقته، وبدد شكوك والده، وعند وفاة محمد في عام 1162، خلفه حسن من دون معارضة، وكان آنذاك في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره.

وكان حكم حسن في البداية من دون حوادث، وتميز فقط ببعض التساهلات في الالتزام الصارم بالشريعة، كما كان سائداً من قبل في أَلَموت، ثم قام بعد عامين ونصف العام من مجيئه إلى الحكم، في منتصف رمضان، شهر الصيام، بإعلان قيام القيامة.

ولقد حفظت لنا الروايات الاسماعيلية المتأخرة، أوصاف بعض ما حدث، والذي ورد في الأدب المتأخر للطائفة الاسماعيلية نجد ما قد يماثله، إنما مع شيء من التعديل، في تواريخ إيرانية كتبت بعد سقوط أَلَموت، وقد ورد في كتب التاريخ هذه حكايات غريبة، قالت أنه: «في اليوم السابع عشر من رمضان ـ ذكرى مقتل الإمام علي ـ لسنة خمسمائة وتسع وخمسين (8 آب 1164) تحت طالع السنبلة، وبرج السرطان، أمر حسن بنصب منبر في ساحة أَلَموت متوجهاً نحو الغرب، مع أربع رايات كبار، ذوات أربعة ألوان: أبيض، وأحمر، وأصفر، وأخضر، على زواياه الأربع، وجمع الناس، الذين سلفت دعوتهم إلى أَلَموت من مختلف الأصقاع، وحشدهم في الساحة، ورتب الذين من المشرق على الجانب الأيمن، والذين من المغرب على الجانب الأيسر، والذين من الشمال من رودبار والديلم في المقدمة مواجهين للمنبر، وبما أن المنبر واجه الغرب، كانت ظهور الجماعة نحو مكة»، ثم قال مصدر اسماعيلي: «نزل المولى (حسن) على ذكره السلام عند الظهر من القلعة، مرتدياً رداء أبيض، وعمامة بيضاء، واقترب من المنبر من الجانب الأيمن، وارتقاه

بأكمل خلق، وتفوه بالسلام ثلاث مرات، أولاً للديلمية، ثم للذين كانوا على اليمين، وبعد ذلك للذين كانوا على اليسار، ثم جلس هنيهة، نهض بعدها، واتكأ على سيفه، وتكلم بصوت مرتفع، موجهاً خطابه إلى سكان الأكوان من أنس وجن، وملائكة، وأعلن أن رسالة قد جاءته من الإمام المستتر مع دليل جديد، ثم قال: إن إمام وقتنا قد أرسل إليكم مباركاته ورحمته، وسماكم عباده المختارين، ولقد أعفاكم من تكاليف الشريعة، وأتى بكم إلى القيامة» وبالإضافة إلى ذلك إن الإمام قد سمى الحسن بن محمد ابن بزرك أميد بمثابة خليفتنا، وداعيتنا، وحجتنا، وينبغي على شيعتنا إطاعته واتباعه في كل من أمور الدين والدنيا، وأن يلتزموا بأوامره، مثل الالتزام بالمواثيق، وليعلموا أن كلمته هي كلمتنا»[14]، وبعدما أكمل حسن خطابه نزل من على المنبر، وأدى ركعتين صلاة العيد، ثم مدّ سماطاً ودعاهم إلى الإفطار، والمشاركة في الوليمة، وأن يطربوا، وأرسل رسلاً تحمل البشائر السارة إلى المشرق والمغرب، وفي قوهستان أعاد دزدار (شحنة) قلعة مأمون أباد حفلة أَلَموت، وأعلن عن نفسه خليفة لحسن، وذلك من على منبر متجه نحو الجهة المخالفة: «وفي ذلك اليوم الذي اقترفت فيه هذه القبائح، وأفشيت فيه تلك المساوئ في مأمون أباد عش الكفر، لعب الجميع على الجنك والرباب، وشربوا الخمر بشكل مكشوف، على درجات ذلك المنبر بنفسه، وفي مكان جلوس الخطيب»[15]، واستقبل الخبر في سورية، واحتفل المؤمنون بنهاية الشريعة.

ويبين الخرق الطقوسي المهيب والمتعمد للشريعة ـ الجماعة مع ظهورها نحو مكة، ووليمة بعد الظهر في منتصف الصيام ـ تكدس ميول القيامة، ومعارضة الشريعة، التي هي متكررة في التاريخ الإسلامي، ولها قرائن بديهية في النصرانية (لا بل حتى في اليهودية) فلقد أدت الشريعة غرضها، وانتهى حكمها، وأبيحت الأسرار، وعمت نعم الإمام، وهو بجعله عبيده هم الذين اصطفاهم لنفسه، كان قد عصمهم عن الخطيئة، وبإعلان القيامة، وقاهم من الموت، وأتى بهم أحياء إلى ذلك الفردوس الروحي، الذي هو معرفة الحقيقة، وروح الرعاية الإلهية «وخلاصة هذا المذهب المخفق... كانت اتباعاً للفلاسفة في قولهم بأن العالم قديم غير مخلوق، وأن الزمان غير متناهي، وأن المعاد روحاني.. ووصفوا الجنة والنار بطريقة أعطوا فيها تأويلاً روحانياً لهذه المعاني، وعلى هذا الأساس قالوا بعد ذلك: إن المعاد هو عندما يعود الناس إلى الله، وعندما تظهر بواطن، وحقائق الخلائق، وترتفع أعمال الطاعة، لأن كل شيء في هذا العالم هو عمل، وليس هناك حساب،

ولكن كل شيء في العالم المقبل هو حساب، وليس هناك عمل، وهذه هي (القيامة) الروحانية، والقيامة التي تقدم الوعد بها، وجرى انتظارها في جميع الملل والنحل، هي هذه التي أظهرت من قبل حسن، ونتيجة لهذا أعفي الناس من تكاليف الشريعة، لأن عليهم في حقبة القيامة هذه التوجه نحو الله بجميع جوارحهم، وأن يهجروا كل شعائر الشريعة الدينية، وجميع عادات العبادات القائمة، فلقد وضع في الشريعة أن على الناس عبادة الله خمس مرات في اليوم، وأن يكونوا معه، وهذا التكليف كان ظاهرياً فقط، ولكن الآن في (أيام القيامة) عليهم أن يكونوا دائماً مع الله في قلوبهم، وأن يبقوا نفوسهم متوجهة دائماً نحو الحضرة الإلهية، لأن تلك هي الصلاة الحقيقية»[16].

وجلب التفسير الجديد تغييراً مهما إلى مركز سيد ألموت ووضعه، ففي قداس ساحة قلعة ألَموت أعلن عنه أنه خليفة الإمام وحجته الحية، وبما أنه الجالب للقيامة كان هو القائم، والقائم شخصية متحكمة في الحياة الأخرى لدى الاسماعيلية، وتبعاً لرشيد الدين، وزع حسن بعد إعلانه العام كتابات قال فيها: بأنه كان هو في الظاهر معروفاً بمثابة حفيد لبزرك أميد، كان هو في الواقع إمام الزمان وابن إمام سالف من سلالة نزار، وإن لمن الممكن ـ كما جادل بعضهم ـ بأن حسناً لم يكن يدعي الانحدار الجسدي من نزار، بل ادعى نوعاً من أنواع القرابة الروحية، لأن الجسد قد توقف في عصر القيامة ولم يعد له أهميته، وفي الواقع هناك في الحركات الإسلامية المبكرة ـ ذوات ملامح الإيمان بقيام مهدي منظر ـ سوابق لمثل هذه الادعاءات، من انحدار روحي، أو أعمال تبني من قبل آل بيت النبي ﷺ، ومهما يكن الحال، أجمعت الروايات الاسماعيلية المتأخرة والتقاليد على التأكيد أن حسناً وسلالته كانوا حقاً من سلالة نزار، وذلك على الرغم من تباين الروايات حول كيفية حدوث ذلك، ولقد نال حسناً تبجيلاً خاصاً، فهو يذكر دوماً كحسن على ذكره السلام.

وتقبل معظم الاسماعيلية التفسير الجديد باندفاع، لكن كان هناك ـ على كل حال ـ بعض الذين رفضوا التحرر من نير الشريعة، ولقد استخدم حسن ضد هؤلاء أصرم العقوبات وأشدها، من أجل فرض الحرية، وأكد حسن بالتعريض، وبالتصريح، أنه كما في عصر الشريعة إذا لم يطع إنسان ولم يعبد، بل تبع حكم القيامة بحجة أن الطاعة والعبادة هما أمران روحيان، كان ينكل به ويرجم ويقتل، كذلك الآن في عصر القيامة،

إذا تقيد إنسان بحرفية الشريعة، وواظب على العبادة الجسدية والشعائر، فإن ذلك تعصب ينكل به ويرجم، ويقتل من أجله»[17].

وكان من بين المعارضين أخو زوجة حسن، وكان سليل بيت ديلمي نبيل، وكان تبعاً للجويني واحداً من «الذين كان ما يزال يأتي إلى شرايين قلوبهم بعض رائحة التقوى والدين . . . وكان هذا الرجل غير قادر على تحمل دعاية هؤلاء الضالين المفضوحين، رحمه الله وجزاه على حسن نيته خيراً، ففي يوم الأحد السادس من ربيع الأول سنة إحدى وستين وخمسمائة (9 كانون الثاني 1166) قام بطعن المضل في قلعة لَمَسر، وهكذا مضى من هذه الدنيا ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾[18].

وخلف حسن ابنه محمد الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، والذي مضى على التأكيد على أن والده، وبالتالي هو كانا من أبناء نزار، وكانا إمامين، ولقد قيل بأنه كان كاتباً مخصباً، تطورت أثناء حكمه الطويل عقيدة القيامة، وأحكمت، ولكن يبدو أنها عملت تأثيراً ضئيلاً ملحوظاً على العالم الخارجي، وإنه لمن المهم أن حقبة القيامة في أَلَموت، قد مرت دون أن تذكر في التواريخ السنية التي عاصرتها، ولم تعرف إلاّ بعد تدمير أَلَموت، عندما وقعت الكتابات الاسماعيلية في أيدي علماء السنة.

وكان حكم محمد الثاني سياسياً أيضاً غير مليء بالأحداث، فقد استمر رجال أَلَموت في الإغارة على جيرانهم، وقتل الفدائيون وزير الخليفة في بغداد، ولكن قلما حدث إلى جانب هذا شيئاً كانت له أهميته، وهناك حكاية تعلقت بالفقيه السني الكبير فخر الدين الرازي، رواها رشيد الدين مع مصنفين آخرين جاء فيها: عمل فخر الدين في دروسه لطلاب الفقه في الري مسألة خاصة حول نقض الاسماعيلية وتجريحهم، وعندما سمع صاحب أَلَموت بهذا، قرر أن يضع حداً لذلك، فأرسل إلى الري فدائياً اندس هناك كتلميذ، وحضر دروس فخر الدين يومياً لمدة سبعة أشهر، حتى وجد الفرصة في رؤية أستاذه على انفراد في حجرته، وذلك بحجة البحث في مسألة معقدة، ومباشرة امتشق الفدائي مدية، وهدد الفقيه بها، وقفز فخر الدين جانباً وقال: ماذا تريد أيها الرجل؟ فأجابه الفدائي: أريد أن أشق بطن حضرتك من الصدر حتى السرة، لأنك لعنتنا من على المنبر، وبعد عراك رمى الفَدائي فخر الدين على الأرض، وجلس على صدره، ووعد الفقيه المرعوب بالتوبة، وأن يمتنع عن مثل هذه المهاجمة في المستقبل، وسمح الفدائي

لنفسه بالاقتناع، وتقبل تعهداً قطعه فخر الدين بأنه سوف يقوّم طريقه، فأعطاه كيساً كان يحتوي على ثلاثمائة وخمسة وستين ديناراً ذهبياً، مع الوعد بدفع مبلغ مماثل كل عام بمثابة بدلاً لخضوعه، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، أخذ فخر الدين في دروسه عن فرق الإسلام حيطة شديدة، في تجنب التفوه بعبارات معادية للإسماعيلية، واسترعى هذا التغيير انتباه واحد من تلاميذه، فسأله عن سبب ذلك، فأجاب الأستاذ: «إنه ليس من النصيحة لعن الاسماعيلية لأن لديهم حججاً قوية وعويصة»، ولهذه القصة مظهر التلفيق، ولكن يمكننا أن نلاحظ أنه بينما لم يقبل فخر الدين الرازي بكتاباته بالعقائد الاسماعيلية، أدان واحداً من الفقهاء السنة لمحاولتهم نقض أفكارهم بانفعال عاطفي شديد، وباتهامات وشتائم غير صحيحة، وامتدح آخر لاقتباسه الصحيح لنص اسماعيلي[20]، وكانت فكرة الرازي بالطبع أن ليس الاسماعيلية على حق، ولكن المناظرة الكلامية والنقد الديني ينبغي قيامه على معلومات صحيحة وفهم وإدراك لوجهة نظر الخصم.

وفي الوقت نفسه، كانت قد حدثت تغييرات سياسية كبيرة في أراضي المشرق الإسلامي، فالسلطنة السلجوقية العظمى، التي كانت قد تمكنت لحقبة من الزمن من إعادة وحدة السنة الإسلامية، وتأكيد مقاصدها، قد تمزقت، وظهر مكانها نمط جديد من الإمارات التي أوجدها بعض من مقدمي عشائر التركمان البدوية، الذين جلبتهم موجات الهجرة التركية المتعاقبة من آسية الوسطى، إلى الشرق الأوسط، ووصل التوسع التركي لهذه الآونة إلى مداه الإقليمي، وتهاوى على الهيكل الامبراطوري، ولكن التغلغل التركي والاستيطان استمرا يعمقان أعمال الاستيلاء التي تمت حتى الآن، ويدعمانها، ولم يجلب التغيير في الحكم تغييراً في الأسس، ووجد الأمراء المتعاقبين أنه من الأسهل الاحتفاظ بطرائق السلاجقة السياسية، والعسكرية والإدارية بما في ذلك الارتباط الديني الثابت بالسنة والتمسك بها، وهنا وهناك حيثما كان الأتراك قلة، رفعت جماعات محلية من أصل فارسي، أو كردي، أو عربي رؤوسها، وحصلت على بعض الدرجات من الاستقلال، ولكن على العموم جرى الزعماء الأتراك، مهما كانوا ممزقين في ميدان الولاء السياسي، وراء هدفهم العام، في إزاحة السادة المحليين القدامى وعزلهم، وفي هذا كانوا ناجحين إلى حد بعيد.

ونحو نهاية القرن الثاني عشر ظهرت قوة جديدة من المشرق، ففي جنوب بحر أرال وقعت واحة خوارزم، التي كانت مركز حضارة قديمة مزدهرة، حميت بشريط من

الصحارى، من النوبات التي كانت تهز البلدان المجاورة، وكانت مثل معظم آسية الوسطى، قد قُهرت واستوطنت من قبل الترك، وكانت أسرتها الحاكمة منحدرة من عبد تركي تم إرساله إليها والياً من قبل السلطان السلجوقي الكبير ملكشاه، وازدهرت أحوال حكامها هؤلاء، وميزوا أنفسهم وشخصياتهم في البلد الذي حكموه بتبنيهم لقب خوارزم شاه، وهو لقب محلي قديم، وكانوا في البداية تابعين للقوى العظمى، ثم أصبحوا حكاماً مستقلين، وفي وسط الفوضى غدت مملكة خوارزم المزدهرة والجيدة التسليح واحة للأمن، وموئلاً للاجئين، ولم يمضِ وقت طويل حتى شعر الملك بأن عليه أن يمد الانتفاع من سلطانه إلى بلدان وشعوب أخرى، وهكذا احتل تكش ـ خوارزم شاه في حوالي عام 1190 خراسان، فصار بذلك سيد إيران الشرقية، وقوة عظمى في الإسلام، وفي بغداد تعرض الخليفة الناصر إلى ضغط شديد من قبل طغرل الثالث، آخر سلاجقة إيران، فالتمس مساعدة تكش، وبذلك هيأ الفرصة أمام الجيوش الخوارزمية حتى تزحف نحو الغرب، للاستيلاء على الري وهمذان، وفي الري تعرض آخر السلاجقة إلى الهزيمة في عام 1194، ثم قتل.

هذا ويلاحظ أنه خلال القرن ونصف القرن، منذ قدوم السلاجقة، أصبحت السلطنة العظمى التي أسسوها جزءً مقبولاً من قاعدة السلطة الإسلامية، وبناء عليه إن وفاة آخر السلاجقة، قد أوجدت الآن فراغاً، وكان خوارزم شاه المنتصر، الشخص البديهي لسده وشغله، وهكذا أرسل تكش الآن رسالة إلى الخليفة الناصر طلب فيها قبوله والاعتراف به سلطاناً في بغداد، ولكن كان ـ على كل حال ـ لدى الناصر أفكاراً أخرى، ولذلك وجد تكش نفسه بعدما أمل أن يتطور من حليف للخليفة إلى حام له، قد أصبح عوضاً عن ذلك عدواً للخليفة.

وكانت الخلافة العباسية منذ وصول الناصر إلى الحكم في عام 1180، قد تمتعت بانتعاش مدهش، فلقرون ثلاثة مضت، لم يكن الخلفاء أكثر من ألعوبات، رؤساء اسميين للسنة الإسلامية، لكن فعلياً كانوا تحت تحكم الحكام العسكريين، ثم الأمراء، وأخيراً السلاطين، وأوجد انحدار القوة السلجوقية في العراق فرصة مناسبة، كان الناصر سريعاً في اغتنامها، وكان هدفه مضاعفاً: استعادة الوحدة الدينية للإسلام والسلطة المعنوية للخلافة التي كان هو رئيسها، وإقامة دويلة خلافية في العراق ـ من نوعية الدول الكنسية ـ تكون تحت الحكم الفعلي للخليفة، وتكون حرة متحررة من السيطرة والتحكم، أو التأثير

الخارجي ، وذلك لتكون قاعدة مفيدة لسياسته الدينية ، ولاحق تنفيذ الهدف الثاني ، الذي كان محصور الغرض ، بعمل سياسي وعسكري ضد طغرل أولاً ، وبعد ذلك ضد تكش ، ووسع الغرض الأول ، الذي كان ربما الأساسي ، أي استعادة الوحدة الإسلامية ، بسلسلة من المبادرات : الدينية ، والاجتماعية ، والتثقيفية ، بما في ذلك التقرب إلى كل من الشيعة الاثني عشرية ، والاسماعيلية ، هذا وحقق الناصر بالنسبة للهدف الثاني من هذين الهدفين نجاحات واسعة ومدهشة .

ففي الأول من أيلول لعام 1210 مات محمد الثاني صاحب ألَموت ، ربما مسموماً ، وخلفه ابنه جلال الدين حسن ، وكان حسن قد أظهر أثناء حياة أبيه علامات على عدم رضى عن عقائد وأفعال القيامة ، وأظهر رغبة للقبول في داخل أخوة الإسلام الكبرى ، وقال الجويني : «عندما كان طفلاً قام والده بتعيينه ولياً لعهده ، وعندما كبر ، وأظهر علامات الفطنة ، رفض عقيدة والده ، وشعر بالمقت نحو طقوس الإلحاد والإباحة ، ونشأ بينه وبين أبيه نوعاً من العداوة ، بعدما أدرك مشاعره فكانا على هذا خائفين ومحترزين من بعضهما . . . وفي تلك الآونة قام جلال حسن ، إما بدافع من إيمانه السني ، أو بسبب عداوته نحو أبيه ، بالتآمر ضده ـ والده ـ فكتب سراً إلى خليفة بغداد ، وإلى سلاطين وملوك البلدان الأخرى ، مدعياً أنه كان ـ خلافاً لأبيه ـ مسلماً بالعقيدة ، وأنه عندما سيحين دوره بالحكم سوف يقوم بإزالة الإلحاد ، ويعيد تمهيد قاعدة الإسلام ، . . . وأظهر جلال الدين حسن من ساعة وصوله إلى العرش إسلامه ، ووبخ بعنف قومه وشيعته لأخذهم بالإلحاد ، ومنعهم بشكل صارم من الاستمرار في ذلك ، وحثهم على الالتزام بقواعد الشريعة واتباعها ، وأرسل رسلاً إلى خليفة بغداد ، وإلى محمد خوارزم شاه ، وإلى ملوك وأمراء العراق وبقية الأطراف ، ليعلمهم بهذه التغييرات ، وبما أنه كان قد مهد السبيل أثناء حياة أبيه بالإعلان عن وضعه لهم ، قاموا الآن بتصديق كلامه ، خاصة في بغداد ، حيث جرى إصدار مرسوم تم فيه تأكيد عودته إلى الإسلام ، وحيث تلقى جميع أنواع التشجيع ، وجرى الآن فتح طريق للمراسلات معه ، وخوطب بألقاب التكريم وهكذا بات معروفاً باسم جلال الدين المسلم الجديد ، كما أطلق على أتباعه خلال عهده اسم «المسلمين الجدد» ، ويمكن للمحلل النفسي أن يلاحظ أيضاً ، أنه في الوقت الذي كان حسن فيه مختلفاً عن أبيه الاسماعيلي ، يبدو أنه كان ملتصقاً بقوة بوالدته السنية الورعة .

ولم يكن من غير الطبيعي أن عبر شعب قزوين عن بعض الشكوك حول أصالة هذه العودة، وذلك على أساس تجاورهم وعداواتهم القديمة، وبذل جلال الدين عظيم جهده، وركب كل صعب من أجل إقناعهم بإخلاصه، وقام باتصالات مباشرة بأعيان المدينة، وأقنعهم بإرسال بعثة إلى ألَموت لتفتيش المكتبة، ولإزاحة الكتابات التي لا ترتضيها، وشمل هذا التفتيش رسائل لحسن الصباح، ولأجداد جلال الدين حسن ولأسلافه، وتحدث الجويني عن هذا قائلاً: «وأمر جلال الدين بإحراق هذه الكتب بحضور القزوينيين وحسب رغبتهم، وتفوه باللعن والطعن ضد آبائه وأسلافه، وضد كتّاب تلك الدعوة، ولقد رأيت كتاباً بيد أعيان وقضاة قزوين، كان قد أملي من قبل جلال الدين حسن، تحدث فيه عن التزامه بالإسلام، وعن قبوله بشعائر الشريعة، والتبرؤ من الإلحاد، ومن مذهب أجداده وأسلافه، وكتب جلال الدين بضع كلمات بخط يده في صدر الكتاب، فذكر تبرؤه من مذهبهم، وعندما مرّ بأسماء أجداده وأسلافه، أضاف اللعنة «ملأ الله قبورهم ناراً»[21].

وفي عام 609هـ/ 1112م ذهبت أم جلال الدين إلى الحج، وعوملت في بغداد بإعزاز وإكرام عظيمين، ولقد كان من سوء الحظ أن تصادفت زيارتها لمكة مع مقتل ابن عم شريفها، وكان الشريف ـ الذي شابه ابن عمه شبهاً عظيماً ـ موقناً بأنه كان هو الضحية المقصودة، وبأن القاتل كان حشيشياً، أرسل ضده من قبل الخليفة، فقام وهو مملوء بالغضب، بمهاجمة ركب الحجاج العراقيين ونهبه، وجبى من هؤلاء الحجاج غرامه ثقيلة، دفع معظمها من قبل السيدة القادمة من ألَموت، وعلى الرغم من هذه السقطة، فقد استطاع جلال الدين الاحتفاظ بحلفائه المسلمين، وأصبح متين الصداقة مع حاكم أران وأزربيجان، وتبادل معه الهدايا والمساعدات من مختلف الأنواع، واشتركت قواتهما معاً ضد عدوهما المشترك حاكم غربي إيران، وفي هذا كانا قد تلقيا التأييد من قبل الخليفة، اللذان قاما بخطوات تقارب مشتركة نحوه.

وجاءت من الخليفة مساعدة من نوع آخر، فقد «عاد جلال الدين إلى ألموت بعد إقامته في العراق وأرّان وأزربيجان لمدة سنة ونصف السنة، وأثناء أسفاره هذه، وخلال مدة إقامته في هذه البلدان أصبح ادعاؤه بالإسلام أكثر قبولاً، وشرع المسلمون بالاختلاط معه بحرية أكبر، وقام هو فالتمس من أمراء جيلان أيدي نسائهم للزواج، وكان الأمراء، كما هو مفهوم، يشعرون بالإكراه سواء بالقبول أو بالرفض، وعدم الموافقة على التماسات

خطيب بمثل هذه الخطورة، وبناء عليه كان أن وجدوا مخرجاً في جعل موافقتهم موقوفة على إذن الخليفة، وهكذا جرى على الفور إرسال رسول من ألَموت إلى بغداد، حيث استصدر من الخليفة كتاباً يجيز للأمراء تزويج بناتهم إلى جلال الدين، وذلك تبعاً لأحكام الإسلام، وقام جلال الدين مسلحاً بهذه الإجازة، فأخذ أربع أميرات جيلانيات زوجات له، كان لواحدة منهن شرف حمل الإمام التالي[22].

وتظهر مغامرات جلال حسن الدينية والعسكرية، والزواجية، القوة المدهشة لمركزه، ففي قرار ليس أقل مفاجأة وسرعة من ذلك الذي أخرج القيامة، قام هو بإلغائها، وأعاد حكم الشريعة، ولقد أطيع في قوهستان، وسورية، كما أطيع في رودبار، وفي مجرى حملاته ترك ألَموت، الأمر الذي لم يصنعه أحد من أسلافه، وأقام بعيداً لمدة سنة ونصف السنة دون أية حادثة، وعوضاً عن إرسال قتلة لاغتيال القادة والعلماء بعث جيوشاً للاستيلاء على المقاطعات والمدن، وببنائه مساجد وحمامات في القرى، أكمل تحويل دولته من وكر قتلة إلى مملكة مقدرة ومحترمه، مرتبطة بروابط تحالف زواجي مع جيرانه.

ومثله مثل بقية أمراء المقاطعات عمل جلال الدين محالفات وبدلها، ويبدو أنه قد أيد في البداية خوارزم شاه، حتى أنه ألقى الخطبة في رودبار باسمه ودعا له، ثم حول ولاءه إلى الخليفة وساعده بمختلف السبل، من ضمن ذلك الإزالة بوساطة الاغتيال لكل أمير عاص دخل في خدمة خوارزم شاه، أو في خدمة شريف مكة، وكان فيما بعد سريعاً بالمبادرة إلى الاعتراف بالقوة الجديد، والمرعبة التي كانت منبعثة من الشرق، وبتحسين وضعه معها، وحول هذا قال الاسماعيلية، أنفسهم: «بأنه عندما تحرك امبراطور العالم جنكيز خان من تركستان، وقبل وصوله إلى بلاد الإسلام، أرسل إليه جلال الدين بالسر رسولاً مع رسائل عرض فيها طاعته وولاءه، وهذا ما زعم به الملاحدة، لكن الحقيقة هي غير معروفة، هذا ومن الجلي أن جلال الدين كان ـ عندما دخلت جيوش امبراطور الدنيا جنكيز خان بلاد الإسلام ـ أول حاكم على هذا الجانب من جيحون يرسل وفوداً، ويقدم خدمته، ويرضى بالطاعة»[23].

وفي كانون الأول من عام 1221، وبعد حكم عشرة أعوام فقط، مات جلال الدين حسن، وكان المرض الذي مات جلال الدين منه هو الإسهال، ولقد قيل بأنه سم من قبل زوجاته بالاتفاق مع أخته وبعض أقاربه، وبناء على هذه التهمة، أمر الوزير، الذي كان

بحكم وصيته مدبراً للملك، ومربياً لولده علاء الدين، بقتل عدد كبير من أقاربه وأخته وزوجاته وخواصه وموضع ثقته، وقام بإحراق بعضاً منهم[24].

ولقد فسرت استعادة جلال الدين لأحكام الشريعة، وتواؤمه مع السنة والخليفة بأشكال مختلفة، فالأمر كان بالنسبة للجويني ومؤرخين إيرانيين سنة آخرين، كان ذلك بالفعل تعبيراً عن تحول ديني أصيل، ورغبة في التخلي عن العقائد والطرق الشريرة، ولإرجاع شعبه إلى طريق الإسلام الصحيح الذي ضلوا عنه وابتعدوا بعداً كبيراً، ويبدو أن الخليفة نفسه كان مقتنعاً بإيمان حسن الجيد، ففي تدخله في تأييد زيجاته في جيلان، ومنحه للأم الرئيسية مكان الشرف في الحج، قد أظهر مراعاة أبعد من الحاجة إلى التحالف، لا بل حتى المرتابين من قزوين اقتنعوا بإخلاص جلال الدين، وبعد ستة قرون كان إقناع جوزف فون هامر في فينة مترنيخ أقل سهولة، وكانت لديه قضية صغيرة خاصة أراد إثارتها بقوله: «لذلك إن المسألة أكثر من قضية احتمال، فقيام جلال الدين بتحويل الاسماعيلية إلى الإسلام الذي أعلن في الخارج بمثل هذه الضخامة، ثم لم يكن تبرؤه العلني من مذهب الإلحاد أكثر من نفاق، وسياسة مرسومة بعمق من أجل إعادة تأسيس مكانة النظام الذي كان معرضاً للعنة رجال الدين، وتحريم الأمراء، بسبب اللامبالاة في إعلان عقائدهم، وكذلك ليربح لنفسه لقب أمير عوضاً عن المناداة به باسم السيد الأعظم، فهكذا صنع الجوزويت، عندما هددوا بالطرد بوساطة البرلمان، وبأمر بالحل من قبل الفاتيكان، وعندما ارتفعت من جميع الجهات أصوات الحكومات والبلدان ضد قواعد مثلهم العليا وسياستهم، فعندما وقع ذلك، قاموا فأنكروا عقيدتهم بشرعية العصيان، والفتك بالمعارضين، التي وقع التلميح إليها من دون حكمة سفاسفهم، وأدانوا بصورة مكشوفة مبادئهم العملية، التي ما يزالون على الرغم من هذا يرعونها في السر، وينظرون إليها بمثابة قواعد صحيحة لنظامهم»[25].

وبالنسبة إلى الاسماعيلية استدعت هذه التغييرات أيضاً تفسيراً، فقد كان كيانهم بعد كل شيء، ليس مجرد إمارة إقليمية خاضعة لرئيس - مع أن هذه قد تكون صورتهم بالنسبة للعالم الخارجي، ويظل تصورهم الأدنى مجرد عصابة متآمرين وقتله - بل كانوا التابعين الصادقين المخلصين لديانة، مع ماض مجيد، ورسالة عالمية، ومثلهم مثل جميع المؤمنين الصادقين شعروا بالحاجة إلى إبقاء حصن وحدتهم سليماً، ولقد تطلب ذلك جميع

تلك التغييرات ـ من الشريعة إلى القيامة، ومن القيامة إلى إظهار السنة، وبعيد ذلك عودة إلى اسماعيلية مرتبطة بشريعة ـ لنيل مكانة دينية وأهمية.

وتوفر الجواب في قاعدتين: في عقيدة التقية، وهي إخفاء الإنسان عقيدته الصحيحة في وجه المخاطر، وفي العقيدة الاسماعيلية القديمة في تعاقب أدوار الاستتار والظهور، ويقود هذا كله إلى أدوار من الشريعة الظاهرة والحقيقة الباطنة، وافتح كل دور من قبل إمام يجلب تفسيراً جديداً، وقال كتاب اسماعيلي من القرن الثالث عشر: «يقال لدور كل نبي صاحب شريعة ربانية ظاهرة دور الستر، ويقال لدور كل قائم استحوذ على الحقائق الباطنية لشرائع الأنبياء، دور القيامة»[26]، وفي عام 1210 كان قد بدأ دور ستر جديد، وذلك مع ارتقاء جلال الدين حسن، وفي هذا الدور لم يكن الأئمة أنفسهم مستترين، وذلك على غرار أدوار الستر المتقدمة، بل شمل الستر الطبيعة الحقة لرسائلهم، وعندما كانت الحقيقة الباطنة مستورة، لم تكن مسألة لها أهميتها تبني أي شكل ظاهر من أشكال الحكم المرعية.

وإثر وفاة جلال الدين، خلفه ابنه الوحيد علاء الدين، الذي كان صبياً يبلغ التاسعة من عمره، ولحقبة من الزمن كان وزير جلال الدين هو الحاكم الفعلي في ألَموت، ويبدو أنه تمت المحافظة على سياسة التواؤم مع العالم السني، وعلى كل حال كانت هناك ردات فعل قد شرعت بتجميع القوى، فمراعاة الشريعة والالتزام بها لم تعد أمراً مفروضاً في المقاطعات الاسماعيلية، لا بل حتى هناك روايات بأنها فعلاً لم تتلق التشجيع، وعزا الجويني والمؤرخون الإيرانيون الآخرون هذه التغييرات إلى الإمام الجديد، مع أن «علاء الدين لم يكن أكثر من مجرد طفل، لم يتلق أية تربية، لأنه تبعاً لمذهبهم الباطل... لابد أن يكون صحيحاً، وتبعاً لذلك مهما كان المنحى الذي أخذه علاء الدين، ما من فان يستطيع التعبير عن عدم الرضاء بذلك و.. هم لن يدعوه يتعرض للزجر، أو النصيحة، أو الجلب إلى جادة الصواب....... ورضخت المسائل الإدارية إلى قرار النساء، والأسس التي أرساها والده، أطيح بها، وألقي بها جانباً... وأخذ الذين تبنوا الشريعة والإسلام خوفاً من أبيه، ولكن في قلوبهم القذرة وعقولهم المظلمة، ما برحوا يؤمنون بالمذهب المذموم لجده.... يرون الآن ما من أحد يمنعهم أو يحول بينهم وبين اقتراف الذنوب المحرمة...... ومرة أخرى رجعوا إلى إلحادهم.... واستردوا

قوتهم. . . . . . . وأما البقية الذين قبلوا بالإسلام عن قناعة فقد خافوا. . .
و. . . . . مرة ثانية أخفوا حقيقة أنهم كانوا مسلمين. . .

وبعد أن حكم هذا الطفل لبضع خمس أو ست سنوات. . قُهر بمرض الماليخوليا. . وما من أحد تجرأ على معارضته، وجميع التقارير عن القضايا في داخل مملكته وخارجها. . . حفظت بعيدة عنه. . . . . وما من ناصح تجرأ قط على التفوه بكلمه. . . . . إليه. . . . . ووقعت اللصوصية وأعمال قطع الطريق، والاعتداء يومياً في مملكته، وكان ذلك بمعرفته، وبدون معرفته، وظن هو أنه يستطيع أن يجد مسوغاً لهذا السلوك بكلمات زائفة، وبمنح الأموال، وعندما تجاوزت هذه الأمور كل نطاق، تعرضت حياته، وزوجاته، وأولاده، وبيته، ومملكته وثروته لذلك الخبط والجنون»[27].

وعلى الرغم من هذه المصاعب، لقد كان ما يزال هناك قادة لديهم القدرة على توجيه أعمال الطائفة وشؤونها، وكان حكم علاء الدين حقبة نشاط ثقافي وسياسي، وكان على رأس الواجبات المرعية والمفاخر، للحاكم، الاهتمام بالعلم والعلماء والتعليم، ولم يكن الإمام الاسماعيلي متخلفاً في هذا المجال، فمكتبة ألَموت كانت مشهورة، ولذلك نجد حتى الجويني الذي كان العدو اللدود للاسماعيلية، قد اعترف باهتمامه بها، وقد جذبت إليها، في هذه الآونة، عدداً من العلماء من الخارج، وكان من أوائل هؤلاء، الفيلسوف، والمتكلم والفلكي نصير الدين الطوسي، حيث أقام هناك لعدد من السنين، وقد جاء إليها في هذه الأثناء كإسماعيلي، وفي الحقيقة كتب رسائل الاسماعيلية، ماتزال مقبولة من الطائفة، ومعدودة بمثابة أصول، هذا ولقد ادعى مؤخراً بأنه شيعي اثني عشري، وأن علاقته بالاسماعيلية كانت عن عدم طواعية، وعلى كل حال، أياً من ولائية ـ إن لم يكن كلاهما ـ كان تقية، يبقى ذلك أمراً ليس مؤكداً.

وكانت الأوضاع في إيران أثناء السنوات الأولى من حكم علاء الدين مناسبة لتوسع اسماعيلي أبعد، فقد تمزقت الدولة الخوارزمية بفعل الغزو المغولي، وبينما كان آخر خوارزم شاه ـ السلطان جلال الدين ـ يحاول عبثاً استعادة مملكته المحطمة، مدّ الاسماعيلية بنجاح رقعة مملكتهم، ففي حوالي هذا الوقت استولوا على مدينة الدامغان، قرب حصن جردكوه، ويبدو أنهم حاولوا الاستيلاء على الري، حيث أمر الخوارزميون في حوالي عام 1222 باقتراف مجزرة بحق الدعاة الاسماعيليين.

وفي عام 1227، أجبر السلطان جلال الدين الاسماعيلية على قبول هدنة، وأن يدفعوا جزية له عن مدينة الدامغان، وقبيل هذا بوقت قصير، جرى اغتيال قائد خوارزمي كان اسمه أورخان، وجاء ذلك انتقاماً لغارات شنت ضد المستوطنات الاسماعيلية في قوهستان، ورسم النسوي صاحب سيرة جلال الدين ـ خوارزم شاه، صورة حية للمشهد بقوله: «وثب بأورخان ثلاثة من الفدائية، وقتلوه بظاهرها (مدينة كنجة)، ودخلوا المدينة والسكاكين بأيديهم ينادون بشعار علاء الدين، إلى أن وصلوا إلى باب (الوزير) شرف الملك، دخلوا دار الديوان فلم يجدوه بها، وكان حيئنذ بباب دار السلطنة بالقصر، فجرحوا فراشاً له، وخرجوا منادين بشعارهم، مباهين بانتصارهم، فرجمتهم العوام من الأسطحة إلى أن رضوهم وهم يقولون إلى آخر النفس: نحن قرابين المولى علاء الدين».

وحدث أن كان في هذا الوقت بدر الدين أحمد رسول أَلَموت في طريقة لرؤية السلطان، وعندما سمع بهذه الأحداث، لم يكن من غير الطبيعي أن يتوجس حول استقباله، فكتب إلى الوزير يستشيره أيتابع سفره، أم ينعطف عائداً، وكان الوزير الخائف على حياته الخاصة مسروراً ليرحب بالسفير الاسماعيلي، آملاً بأن وجوده: «يؤمنه في الأجل عن مثل ما تم على أورخان من القتلة العظيمة، والفتكة الشنيعة»، ولذلك حث السفير على الالتحاق به، ومناه بأن يعمل كل ما يستطيعه لمساعدته في مهمته.

ورحل الآن الاثنان معاً، وكان الوزير يبذل كل جهد لينال عرفان ضيفه الخطير، ومهما يكن من أمر، فقد فسدت صداقتهما بفعل حادث مؤسف، ذكره النسوي بقوله: «فلما وصلوا إلى مرج سراب(*)، وقد حدث الاسترسال، قال في بعض مجالس الشرب، وقد أخذت الكؤوس منه مأخذها: إن لنا في عسكركم هذا جماعة من الفدائية، وقد تمكنوا فصاروا كالواحد من غلمانكم، فمنهم من خدم اصطبلك، ومنهم من خدم عند مقدم جاويشية السلطان، فألح شرف الملك عليه أن يحضرهم ليبصرهم، وأعطاه منديله علامه للأمان لهم، فأحضر المذكور خمسة من الفدائية، فلما وقفوا بين يديه، وكان الواحد هندياً وقحاً، صار يقول لشرف الملك: كنت قد تمكنت منك يوم كذا وكذا في منزل

(*) كذا وردت بالأصل الإنكليزي، ويعتقد حافظ أحمد حمدي محقق وناشر سيرة جلال الدين منكبرتي، ط. القاهرة 1953، ص 23، أن صواب هذا الاسم هو «سراو»، وذكر ياقوت سراو في معجمه، وبين أنها إحدى مدن أذربيجان بين أردبيل وتبريز.

كذا، إلاّ أني كنت أنتظر ورود الأمر بإمضاء العزيمة فيك، فرمى شرف الملك حين سمع كلامه الفرجية من على ظهره، وقعد بين أيديهم بالقيمص، وقال: ما سبب ذلك؟ وماذا يريد مني علاء الدين؟ وما الذي صدر عني من الذنب والتقصير ليعطش إلى دمي، وأنا مملوكه، كما أنا مملوك السلطان، وها أنذا بين أيديكم، فافعلوا بي ما شئتم»، وبلغ خبر هذا الأمر إلى السلطان، الذي غضب من خنوع شرف الملك، وسير إليه حالاً أوامر بإحراق الفدائية الخمسة أحياء، وترجى الوزير من أجل العفو عنهم، ولكن عبثاً حاول، وأجبر على تنفيذ أوامر السلطان «فأوقدت على باب خيمته نار عظيمة، ورمي أولئك الخمسة فيها، فكانوا يحترقون وهم يقولون: نحن قرابين المولى علاء الدين، إلى أن فارقت الأشباح الأرواح، وصاروا رماداً تذروه الرياح»، وكإجراء احتياطي إضافي، قتل السلطان مقدم الجاويشية عقوبة له على إهماله.

وشهد النسوي شخصياً النتائج حيث قال: «فبينما كنت في أحد الأيام مع شرف الملك ببرذعة، إذا ورد رسول من ألَموت يلقب بصلاح الدين على شرف الملك يقول: إنك قد أحرقت خمسة من الفدائية، فإن أحببت سلامتك أدّ عن كل واحد منهم عشرة آلاف دينار دية، فهاله ما سمع وآلمه، وأضعف عن كل شيء قلبه ويده فخص هذا الرسول عن أمثاله بإنعام وافر، وتشريف فاخر، وأمرني فكتبت لهم توقيعاً ديوانياً بإسقاط عشرة آلاف دينار مستمرة في كل سنة مما تقرر حملها إلى الخزانة السلطانية، وهي ثلاثين ألف دينار، وعلّم عليها شرف الملك علامته على التوقيع»[28].

ولم تبرهن الاتفاقية بين الخوارزم شاه والاسماعيلية بأنها كبيرة الفعالية، فالخصومات المتنوعة والمتفاوتة استمرت مع السلطان جلال الدين، في حين احتفظ الاسماعيلية بعلاقات صداقة مع العدوين الأساسيين للخوارزميين، وهما: الخليفة في الغرب، والمغول في الشرق، ففي عام 1228، سافر السفير الاسماعيلي بدر الدين شرقاً عبر جيحون إلى البلاط المغولي، وأوقفت قافلة اسماعيلية مؤلفة من سبعين رجلاً، كانت متوجهة غرباً، وذبحت من قبل الخوارزميين، بحجة أن سفيراً مغولياً إلى الأناضول كان مسافراً معها، ولسنين عديدة استمرت المشاحنات بين الاسماعيليين والخوارزميين، وتصاعدت من وقت إلى آخر، بقتال، أو اغتيال، أو مباحثات.

وفي إحدى المناسبات جرى إرسال النسوي ببعثة إلى أَلَموت للمطالبة ببقية الخراج المتوجب عن الدامغان، وقد وصف بعثته بشيء من التفاصيل المرضية، حيث قال: «إن علاء الدين قد خصني من سائر الرسل السلطانية بمزيد من الاحترام والبر، فأجزل العطاء، وضاعف على المعهود في الصلات والخلع، وقال: هذا رجل صحيح، والإحسان إلى مثله لا يضيع، وكان مبلغ ما أنعم علي به من الجنس والنقد قرابة ثلاثة آلاف دينار منها خلعتان كل واحدة منهما قباء أطلس، وكمة، وفروة، وفرجية غشاء الواحد منها أطلس والأخرى خطائي، وحياصتان وزنهما مائتا دينار، وسبعون قطعة، ثياباً مختلفة، وفرسان بالسرج والساخت، والسرفسار والطوق، وألف دينار ذهباً، وأربعة رؤوس خيل بالجلال، وقطار جمال بختيات، وثلاثون خلعة برسم أصحابي»[29]، وإنه لمن الواضح من هذا حتى بالسماح لبعض المبالغة ـ بأن سيد أَلَموت كان حسن التزود بالأشياء الجيدة لذلك العالم.

TRAICTE DE
L'ORIGINE DES ANCIENS ASSASINS PORTECOVTEAVX.

Auec quelques exemples de leurs attentats & homicides és perſonnes d'aucuns Roys, Princes, & Seigneurs de la Chreſtienté.

Par M. DENIS LEBEY-DE BATILLY *Conſeiller du Roy, Maiſtre des Requeſtes de ſon hoſtel & Couronne de Nauarre, & commis par ſa Maieſté à l'exercice de l'Eſtat de Preſident en la ville de Mets.*



A LYON.

Par VINCENT VASPAZE.

M. D C III.

صفحة عنوان كتاب Lebey de Batilly «رسالة عن أصول الحشيشية القدماء» المطبوع في ليون عام 1603.

1 ـ اغتيال الوزير نظام الملك من مخطوطة فارسية لكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين، في مكتبة طوب قبي سراي. استانبول (الخزانة 1653). أوائل القرن الرابع عشر.



2ـ مؤلف وناسخ وحضور من مخطوطة عربية لرسائل إخوان الصفا في مكتبة السليمانية في استانبول ـ نسخت في عام 1287 (أسعد أفندي 3638)

3 ـ هولاكو في طريقه للاستيلاء على القلاع الاسماعيلية في سنة 1256/654، من مخطوطة فارسية لجامع التواريخ، في مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية للبنغال. كلكتا، من حوالي 1430.



4 - هولاكو من مجموع للصور في المتحف البريطاني (المخطوط Add 18803)

5 - نقش على سور قلعة مصياف في سورية من القرن الثالث عشر

6 - منظر جوي لهيكل القلعة الاسماعلية في قائن

7 - منظر قريب لأسوار قلعة قائن

8 ـ قلعة لَمَسر

9 - صخرة ألَموت مع القلعة على عرفها

10 - حصن ميمون دز الحشيشي

11 - منظر للوادي من قلعة يوزي قرب أصفهان

12 - قلعة مصياف



13ـ مدخل قلعة حلب

ولم تكن الخصومة مع خوارزم شاه هي الشاغل الوحيد للاسماعيلية ، فعلى مقربة من موطنهم اشتبكوا بصدامات مع حكام جيلان ، الذين كان من غير الممكن تحسين العلاقات معهم بسبب إعدام الأميرات الجيلانيات بعيد وفاة جلال الدين حسن ، وحصل الاسماعيلية لبعض الوقت ، على بعض الأراضي الإضافية من جيلان حول تارم ، وعلى الجهة الأخرى ، كانت علاقاتهم مع أعدائهم القدامى في قزوين إلى حد ما سلمية ، فعلاء الدين محمد كان بشكل مدهش بعض الشيء ، تلميذاً مخلصاً لشيخ في قزوين ، وقد أرسل له مبلغ خمسمائة دينار ذهبي بمثابة عطاء سنوي ، حيث أنفق الشيخ هذا المبلغ على الطعام والشراب ، وعندما انتقد القزوينيون الشيخ لعيشه على أموال الملاحدة ، أجابهم قائلاً : «لقد رأى الإمام أخذ دم الملاحدة ومالهم حلالاً ، وبالتأكيد إنه حلال مضاعف عندما يقدمونهامتطوعين» ، وكان علاء الدين قد أعلم أهل قزوين بأنه من أجل الشيخ فقط قد أبقى على المدينة ، وأنه «عندما لن يكون هناك سوف أجلب غبار قزوين إلى قلعة أَلَموت بالزنابيل»[30] .

وفي وسط الحروب ، والغارات ، والاغتيالات لم ينس الاسماعيلة هدفهم الأساسي في الدعوة والتحويل ، ففي حوالي هذا الوقت حصلوا على واحد من أكبر نجاحاتهم ، وذلك بزرع عقيدتهم في الهند ، فلقد كانت الدعوة القديمة للمستعلية الاسماعيلية قد أرست قواعدها في الهند منذ أجيال ، خاصة على الساحل الغوجراتي Gugerati ، وحمل الآن دعاة من إيران الدعوة الجديدة للنزارية إلى شبه القارة الهندية التي غدت فيما بعد المركز الرئيسي لفرقتهم .

ورسم الجويني والمؤرخون الإيرانيون السنيون الآخرون ، صورة شديدة العداء لعلاء الدين محمد ، الذي ظهر بمثابة مدمن منحط ، كان واقعاً تحت نوبات من الماليخوليا والجنون ، وقد دخل في سنواته الأخيرة في صراع مع ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه ، الذي كان قد عينه عندما كان طفلاً وريثاً للإمامة ، وحاول مؤخراً أن ينقض هذا الترشيح ويلغيه ويعين واحداً من أبنائه الآخرين ، لكن الاسماعيلية رفضوا قبول ذلك ، وذلك تبعاً لمذهبهم ، وقالوا بأن التعيين الأول هو القائم فقط .

وفي عام 1255 وصل النزاع بين الأب والابن إلى الذروة ، ففي هذا العام نفسه ازدادت علة جنون علاء الدين وسوداويته كثيراً ، «واستحكمت بطبعه ، فازداد إيذاؤه لركن الدين ، وتتابع بالتهديد والوعيد . . . فطفح الكيل بابنه ، وخاف على روحه من أبيه ولهذا

قرر أن يهرب من أبيه، ويقصد قلاع الشام، ويتصرف بها، أو يستقل بأَلَموت، وميمون دز، وبعض قلاع رودبار التي كانت مشحونة بالكنوز والذخائر، ويقف ضد أبيه، ويعلن عليه العصيان، وقد ازداد تخوف أعيان مملكته وأركان دولته منه هذا العام، ولم يأمنوا على حياتهم منه. . . واصطنع ركن الدين الحجة التالية من قبيل الخداع وقال: بسبب سلوك أبي السمج، فإن الجيش المغولي، يعتزم مهاجمة المملكة وأبي غير عابئ، ولهذا فإنني سأزيحه عن العرش، وأبعث برسلي إلى ملك البسيطة، يعلنون باسمي عن خضوعي التام لحكمه، وتبعيتي له، ولن أسمح بعد الآن لأحد بأن يعبث بملكي حفاظاً عليه وعلى شعبي، ولهذه الأسباب ولأسباب كثيرة أخرى بايعه الأعيان وقادة الجيش، واتفقوا معه على طاعته والسير معه حيث سار، وقرروا حمايته من رجال أبيه وأجناده، والدفاع عنه بأرواحهم، ما لم يهاجم والده شخصياً، فعندئذ سيحجمون عن الإقدام ضده».

ومن حسن الحظ بالنسبة للاسماعيلية ـ أو للكل إلاّ قليلاً منهم ـ لم تتوفر الحاجة إلى مثل هذا الاختبار المرعب، فبعد حوالي الشهر مضى على هذا الاتفاق، وقع ركن الدين مريضاً، وتمدد في فراشه ميؤوساً منه، وبينما كان هكذا يبدو عاجزاً عن الحركة، اغتيل والده علاء الدين، وكان تبعاً للجويني ـ في حالة سكر، وحدث اغتياله من قبل مهاجمين غير معروفين، ووقع هذا في واحد كانون الأول لعام 1255، وسبب اغتيال مقدم المغتالين في معقله قيام شكوك كثيرة وواسعة واتهامات، فوضع للموت بعضاً من خدم الإمام المقتول، الذين سلف وشوهدوا قرب مكان الاغتيال، لا بل قيل بأن جماعة من أقرب خواصه تآمروا ضده، وجلبوا أجانب من قزوين إلى أَلَموت ليقوموا بتنفيذ العملية، «ولهذا تعددت التهم وتوزعت الظنون، ولكن الأمور اتضحت تماماً بعد مضي أسبوع، وهي أن حسن المازندراني، الذي كان من خاصة علاء الدين، ومن الذين كانوا يلازمونه ليلاً ونهاراً، وموضع أسراره، هو القاتل، فقد رووا أن زوجة حسن المازندراني كانت معشوقة علاء الدين، ولم يخف حسن قتله، بل أعلنه صراحة لركن الدين، وما مضى أسبوع حتى قتل حسن، وأحرقت جثته، كما أحرقوا أولاده الثلاثة: بنتين وصبياً، وحل ركن الدين خورشاه محل أبيه»[31].

واستدرج الاسماعيلية خلال السنوات الأخيرة لحكم علاء الدين محمد أكثر إلى المواجهة النهائية مع أكثر أعدائهم رعباً، أي المغول، فمع عام 1218 وصلت جيوش جنكيز خان، حاكم الامبراطورية الجديدة، التي قامت في شرقي آسيا إلى نهر سيحون، وأصبح

المغول الجيران المباشرين للخوارزم شاه، وما لبث حادث للحدود أن أعطى المغـول الذريعـة لزحف جيوشهم غرباً، وفي عام 1219، قاد جنكيز خان جيوشه عبر سيحون إلى أراضـي الإسلام، ومع عام 1220 استولى على سمرقند وبخارى، اللتـان كانتـا مدينتين إسـلاميتين قديمتين، ووصل إلى نهر جيحون، وعبر في العـام التـالي نـهر جيحـون، واستولى علـى بلخ، ومرو، ونيسابور، وجعل من نفسه سيداً علـى جميـع شـرقي إيـران، وجلـب مـوت الخان في عام 1127 توقفاً قصيراً فقـط، ففـي عـام 1230، وجـه خليفتـه حملـة جديـدة ضـد الدولة الخوارزمية المتخلخلة، ومع عام 1240 كـان المغـول قـد استولوا علـى غربـي إيـران، وشرعوا بغزو جورجيا، وأرمينيا، وشمالي الجزيرة.

وجـاء الـهجوم النـهائي في منتصـف القـرن الثـالث عشـر، فقـد أرسـل منكـو الخـان الأكبر، حملة جديدة تحت قيـادة أخيـه هولاكـو - حفيـد جنكيـز خـان - مـع أوامـر بإخضـاع الأراضي الاسماعيلية والإسلامية بعيداً حتى مصر، وخلال بضعة أشـهر، انـدفع الفرسـان المغول ذوي الشعور الطويلة عـبر إيـران، جـارفين الجميـع أمامـهم، وفي كـانون الثـاني لعـام 1258، اجتمعوا على مدينة بغداد، وبعد محاولـة للمقاومـة قصـيرة ومخفقـة، توسـل آخـر الخلفاء من أجل الأمان، ولكن عبثاً فعل، واقتحم المغول المدينـة ونـهبوها، وأحرقوهـا، وفي العشرين من شباط جرى عرض الخليفة مع كل من وجد من آله على السيف، وتوقـف البيت العباسي عن الحكم، بعدما بقي لنيف وخمسمائة سنة الرأس السني للإسلام.

وكان أئمة أَلَموت مثلهم مثل الحكام المسلمين الآخرين لذلك الوقت، بلا ريـب غـير منصرفين بكل جوارحهم وقواهم لمواجهة غزاة الإسلام من المغول الكفار، فالخليفة النـاصر الذي كان متورطاً بكليته في الصراع مع الخوارزم شاه، لم ينزعج لظهور عـدو جديـد خطـر على الطـرف الأقصـى للدولـة الخوارزميـة، وكـان حليفـه الإمـام جـلال الديـن حسـن بـين الأوائل في إرسال رسـائل نوايـا طيبـة تجـاه الخـان، وفي الحقيقـة أظـهر الاسـماعيلية في بعـض الأحيان تماسكهم مع جيرانهم من أهل السنة ضد الخطر الجديـد، فعندمـا قـهر جنكيـز خـان شرقي إيران، قدم مقـدم الاسـماعيلية في قوهسـتان ترحيبـاً كريمـاً إلـى اللاجئين السـنة في مآويه الجبلية، وقال مسلم زائر متحدثاً عن المقـدم الاسـماعيلي في قوهسـتان: «هـو إنسـان صاحب معارف لا تحد... مع حكمـة، وعلـم، وفلسـفة، وهـو حكيـم إلـى درجـة أنـه لا يوجد فيلسوف وعاقل يقارنه في بلاد خراسـان، ولقـد اعتـاد أن يرعـى بكـثرة فقـراء الغربـاء

والمسافرين، وكذلك مسلمي خراسان عندما كانوا يأتون إلى جواره، ولقد اعتاد أن يضعهم في ظل رعايته وحمايته، وعلى هذا الأساس حوت جموعه بعضاً من أعظم علماء خراسان شهرة وتميزاً. . . ولقد عاملهم جميعاً بتشريف واحترام، وأظهر لهم كثيراً من العطف، ولقد قيل إنه لأجل هذا الغرض جرى استلام ألف خلعة وسبعمائة فرس مع سروجها، من خزائنه ومرابطه خلال السنتين الأوليتين أو الثلاثة الأوائل للاضطرابات في خراسان، وذلك من قبل علماء وغرباء فقراء»، وتدلل قدرته على صنع هذا، بأن المراكز الاسماعيلية كانت في منأى عن القتال، وما لبث كرمه أن سبب رفع شكوى من رعاياه إلى أَلَموت، طلبوا فيها ـ وحصلوا ـ حاكماً أقل حباء وتصرفاً بالأموال الاسماعيلية ومنحها إلى الأجانب، وقام المؤرخ منهاجي سراج جُرجاني، وهو في خدمة حكام سجستان، بثلاث زيارات إلى المراكز الاسماعيلية في قوهستان، وذلك في بعثات دبلوماسية تعلقت بإعادة فتح طرق تجارية، وفي حملة تسويق لشراء ملابس وحاجات أخرى، صارت نادرة في شرقي إيران في أعقاب فتق الكفرة، ومن الواضح من هذا أن اسماعيلية قوهستان كانوا يحولون منعتهم إلى منفعة جيدة.

ومهما كان نوع التفاهم الذي كان من الممكن أنه قد وجد بين الاسماعيلية والمغول فإنه لم يستمر، حث كان من غير الممكن للسادة الجدد لآسيا التغاضي عن استقلال عصبة هؤلاء المتطرفين الدينيين الخطرين، ثم إنه لم يكن هناك ندرة بالمسلمين المتدينين بين أصدقائهم وشركائهم، ليذكروهم بالخطر الذي كان يمثله وجود الاسماعيلية، حتى لقد قيل بأن قاضي قضاة قزوين مثل أمام الخان لابساً درعاً، وأوضح أنه مضطر لأن يرتديه في كل الأوقات، تحت ثيابه، بسبب استمرار وجود خطر الاغتيال.

ولم يذهب هذا التحذير هباء، فقد ردت على أعقابها بعثة اسماعيلية كانت ذاهبة إلى الاجتماع العظيم [القويرلتاي] في منغوليا، وأوضح القائد المغولي في إيران للخان بأن أشد أعداءه وأعندهم كانا: الخليفة، والاسماعيلية، واتخذت الاحتياطات في قراقورم لحراسة الخان ضد هجوم من المبعوثين الاسماعيليين، وفي عام 1256، عندما قاد هولاكو حملته في إيران، كانت القلاع الاسماعيلية هدفه الأول.

وإلى أن وصل قامت الجيوش المغولية في إيران ـ بتشجيع من المسلمين ـ بحملات ضد قواعد الاسماعيلية في رودبار، وقوهستان، لكن هذه الجيوش نالت نجاحات محدودة فقط،

فقد صد هجوم في قوهستان بوساطة هجوم اسماعيلي معاكس، في حين أخفق انقضاض على الحصن الكبير في جردكوه، ولعله كان من الممكن للاسماعيلية وهم في قلاعهم في وضع مناسب، تقديم مقاومة صلبة للهجمات المغولية، ولكن الإمام الجديد قرر شيئاً آخر.

فلقد كانت المسألة الأولى التي لم يتفق ركن الدين خورشاه مع أبيه حولها، قد تعلقت بمقاومة المغول أو التعاون معهم، ولقد حاول بعد وصوله إلى الحكم أن يقيم سلماً مع جيرانه المسلمين، «وعرض عليهم العلاقة الوطيدة، على عكس ما كان عليه أبوه، ثم أرسل رسلاً آخرين إلى جميع أطراف مملكته يأمرهم جميعاً بالسير على الدين الإسلامي، وأن يحفظوا الطرق آمنة»، وهكذا فإنه بعدما أمن الحماية لوضعه في الداخل أرسل رسولاً إلى يسورنوين ـ القائد المغولي في همذان، مع تعليمات بأن يقول له ويعلمه: «لقد انتقل أمر الحكم إليّ، ولهذا فإنني سأسلك طريق الطاعة والخضوع، وأزيل وجه الخلاف بتحقيق وجه الإخلاص»[33].

ونصح يسور ركن الدين بأن يذهب، فيقدم خضوعه شخصياً إلى هولاكو، ووجد الإمام الاسماعيلي مخرجاً بإرسال أخيه شهنشاه، وقام المغول بمحاولة مستعجلة بالانتقال إلى رودبار، لكنهم ردوا على أعقابهم من قبل اسماعيلية كانوا في مراكز حصينة، وانسحبوا بعد أن أتلفوا المزروعات، وهاجمت بالوقت نفسه قوات مغولية أخرى قوهستان، واستولت على عدد من المراكز الاسماعيلية.

ووصلت الآن رسالة من هولاكو، الذي أعلن عن رضاه عن سفارة شهنشاه، وأن ركن الدين نفسه لم يقترف أية جريمة، وأنه إذا ما هدم قلاعه، وجاء وخدم بنفسه، فإن الجيوش المغولية سوف تبقي على بلاده، وتجاوب الإمام فهدم بعضاً من قلاعه، لكنه أحدث تخريباً ظاهرياً فقط في ألَموت، وميمون دز، ولَمَسر، وسأل أن يمنّ عليه بمهلة سنة قبل أن يقدم نفسه شخصياً، وأرسل في الوقت نفسه أوامر إلى ولاة جردكوه، وقوهستان بأن يمثلوا أمام الملك «لتقديم الخضوع والعبودية»، ولقد فعلوا هذا، لكن قلعة جردكوه بقيت في أيدي الاسماعيلية، ووصلت رسالة من هولاكو إلى ركن الدين تطلب وجوب حضوره إليه حالاً إلى دماوند، وإذا لم يستطع الوصول خلال خمسة أيام فإن عليه أن يبعث بابنه أمامه.

وأرسل ركن الدين ولده، وكان صبياً في السابعة من عمره، وقام هولاكو، الذي ربما كان شاكاً بأنه لم يكن ولده حقيقة بإعادته، على أساس أنه كان صغيراً جداً، واقترح

بأن يرسل ركن الدين واحداً آخر من إخوانه، لكي يسرح شهنشاه ويعيده إليه، وكان المغول في الوقت نفسه يقتربون أكثر من رودبار، وعندما وصلت سفارة ركن الدين إلى هولاكو، وجدت بأنه كان على مسيرة ثلاثة أيام من ألَموت، وكان الجواب المغولي الآن إنذاراً: «أن يخرب ركن الدين قلعة ميمون دز، ويمثل بين يدي الملك، فيكسب بذلك عاطفة الملك وإعزازه، وإلاّ فالنتيجة وخيمة غامضة، لا يعرفها إلاّ الله»، وكانت الجيوش المغولية في الوقت نفسه قد دخلت إلى رودبار، وشرعت باتخاذ مواقع لها حول القلاع، ووجه هولاكو بنفسه حصار ميمون دز التي كان ركن الدين مقيماً بها.

ويبدو أنه كان هناك بعض الخلاف في الرأي بين الاسماعيلية أنفسهم، بين الذين فكروا أن من الحكمة الاستسلام والحصول من هولاكو على أفضل شروط الصلح الممكنة، وبين الذين فضلوا القتال حتى النهاية، وكان واضحاً أن ركن الدين كان من أصحاب الرأي الأول، وكان بلاشك قد شجع على تبني هذه السياسة من قبل مستشارين مثل الفلكي نصير الدين الطوسي، الذي أمل ـ لسبب ـ أنه بعد الاستسلام سيكون بإمكانه تدبر ما يناسبه مع المغول، ومن ثم الإقلاع نحو مستقبل جديد تحت رعايتهم، وكان الطوسي ـ كما روي ـ هو الذي نصح الإمام بالاستسلام، على أساس أن النجوم كانت لا تبشر بالخير، وكان الطوسي ـ مرة ثانية ـ هو الذي مضى بسفارة ركن الدين من حصن ميمون دز إلى معسكر هولاكو، ليبحث شروط الاستسلام، ووافق هولاكو على استقبال ركن الدين وأسرته والمتعلقين به، مع خزائنه، أو كما عرض الجويني ذلك بقوله: «أما هو فخرج من القلعة . . . وقدم الخضوع إلى ملك العالم، وسعد بالمثول بين يديه، وخرج معه كل من يلوذ به، وحمل له كل ما في خزائنه مع أن ما فيها لا يليق بمقامه السامي، فوزعه الملك على عساكره»[35].

واستقبل ركن الدين استقبالاً حسناً من قبل هولاكو، الذي جعله ينغمس حتى في ملاهيه الشخصية، فقد كان ركن الدين مولعاً بالجمال البختية، لذلك اشترى له هدية تألفت من مائة ناقة من ذلك النوع، وكانت الهدية غير كافية، فركن الدين أيضاً مولعاً بقتال الجمال، ولم يكن بإمكانه الانتظار حتى تلد نوقه، لذلك أوصى له على ثلاثين فحلاً من الجمال، وهناك ما يدل على حباء أعظم، وذلك بالسماح له بالزواج من فتاة مغولية هام بحبها، وأعلن لها عن استعداده ـ ليس أبداً كلاماً، بل فعلاً ـ لأن يتخلى عن مملكته[36].

وكان اهتمام هولاكو بركن الدين أمراً بديهياً، فالاسماعيلية كانوا ما يزالون متملكين لبعض القلاع، ويستطيعون إثارة الكثير من المتاعب، وحث الإمام الإسماعيلي

لهم على الاستسلام، كان زيادة ثمينة للبلاط المغولي، وأودعت أسرته، وبطانته، وخدمه، وحيواناته الخاصة في قزوين (لم تسجل لنا تعليقات القزوينيين)، وقام هو بنفسه بمرافقة هولاكو في حملاته المقبلة.

واستحق ركن الدين الاحتفاظ به، فبناء على توجيهاته استسلمت معظم القلاع في رودبار، قرب جردكوه وقوهستان، فوفر بذلك على المغول التكاليف الباهظة، والحظ غير المؤكد للحصار والهجوم، فلقد قدر عددهم بأنه وصل حتى المائة، وهذا من دون شك فيه مبالغة كبيرة، وفي مكانين رفض القادة الاستسلام غير مقدرين أوامر إمامهم، ومرد ذلك ربما، لاعتقادهم أنه كان يعمل بالتقية تحت الإكراه، وكان هذان الحصنان هما حصني رودبار العظيمين: أَلَموت، ولَمَسر، وحاصرت الجيوش المغولية الحصنين معاً، وبعد أيام وجيزة غيّر قادة أَلَموت رأيهم «وبدأوا استعدادهم للصلح، ورحبوا بالمصالحة، فكانوا يرسلون على التوالي رسلهم إلى ركن الدين في سفح لَمَسر، ليشفع لهم لدى الملك عن زلاتهم، ويطلبون منه مرسوم الأمان، فاتجه إليهم، ونزل المقدم من القلعة»، و«في آخر ذي القعدة من تلك السنة (أول كانون الأول 1256) نزل جميع سكان معهد الطغيان ذاك، وعش الشيطان مع جميع أقمشتهم وأمتعتهم، وبعد ثلاثة أيام صعد الجيش إلى القلعة، واستولى على كل ما لم يستطع هؤلاء القوم حمله معهم، وبسرعة ألقوا النار في المحلات المختلفة، وبمكنسة التدمير رموا الغبار للرياح، وسووا الأبنية مع أساساتها»[37]، وقاومت لَمَسر لمدة سنة أخرى، وأخيراً خضعت للمغول في عام 1258، ورفض الاسماعيلية في جردكوه أوامر ركن الدين، وكانوا قادرين على الاحتفاظ بالسيطرة على القلعة، وكان من غير الممكن التغلب عليهم نهائياً حتى بعد بضع سنوات.

وجعل استسلام معظم القلاع ركن الدين غير ضروري للمغول، كما وبرهنت مقاومة لَمَسر وجردكوه بأنه كان غير ذي فائدة، وبناء عليه أرسلت الأوامر إلى القائد المغولي في قزوين بقتل أسرة الإمام والمتعلقين بها، ومضى هو نفسه ـ بناء على طلبه الخاص ـ مسافراً في الرحلة الطويلة إلى العاصمة المغولية قراقورم، حيث رفض الخان استقباله قائلاً: «لقد كلف حضوره طريقاً طويلاً، وأمرنا القديم معلوم، فلم يسمح له بلقائه، بل أرسل إليه: كيف تدعي الخضوع لنا، وعدد من قلاعك لم يستسلم بعد، وها هي ذي جردكوه، ولَمَسر يجب متابعتهما، وحين تخربهما نمنحك شرف اللقاء». وفي الحقيقة لم

يعط هذه الفرصة، فعلى طرف سلسلة الخانقاي Khangay على طريق العودة إلى إيران، اقتيدَ بعيداً عن الطريق بحجة الذهاب إلى حفل، وقتل «ولقد رفس هو وأتباعه حتى عجنوا، ثم عرضوا على السيف فقتلوه ومن معه بالسيوف، ولم يبقوا على أحد منهم، فكان خبره وخبر أقربائه حديث السمار، ورواة الأخبار»[38].

ولم يكن إفناء الاسماعيلية في إيران كاملاً تماماً كما ذهب الجويني، ففي رأي رجال الطائفة قام ابن ركن الدين الصغير، فخلفه كإمام عند موته، وعاش ليلد سلسلة من الأئمة الذين ظهر منهم ـ عندما حان الوقت ـ آغا خان في القرن التاسع عشر، وبقي الاسماعيلية لمدة طويلة من الزمن نشيطين، حتى أنهم كانوا في عام 1275 قادرين على معاودة الاستيلاء على أَلَموت لكن لوقت قصير، ومهما يكن من أمر، لقد كانت قضيتهم قد ضاعت منذ هذا الوقت فصاعداً، وبقيوا فقط بمثابة طائفة صغيرة في البلدان التي تتكلم الفارسية، وموزعين خلال شرقي إيران، وأفغانستان، وبما كان يعرف باسم آسيا الوسطى السوفيتية، واختفوا من رودبار تماماً.

وجرى تصوير تخريب أَلَموت، والإذلال النهائي للقوة الاسماعيلية ببلاغة بشكل مفعم بالحيوية من قبل الجويني بقوله: «لا أبقى الله في هذه الدنيا الفئة الباغية الصباحية، والطائفة الطاغية الإباحية في رودبار ألموت. . . وأفناهم عن بكرة أبيهم من لوح الأزل، بقلم القهر، بالآية ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ [القرآن الكريم: 27، الآية 52]، وأنزل داعي القضاء على أطراف المعمورة لتمحي مخاذلهم ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القرآن الكريم: 23، الآية 41]، وأزال حريمهم كمذهبهم الفاني، ودمرهم تدميراً تاماً، ويرهن بأن ذهب هذه الفئة الضالة، ذوي الوجهين المزيفين، الذي بدا وكأنه ابريز صاف، هو رصاص ساقط.

واليوم حمداً للسعادة المتعالية للملك ضياء العالم، إذا ما حشيشي قد بقي يتلكع في شعبه، فهو يكد محترفاً مثل امرأة، وحيثما وجد داعي كان هناك ناعي، وكل رفيق غدا رقيق، وسقط أصحاب الدعوة الاسماعيلة ضحايا لسيافي الإسلام. وملوك الفرنج والروم الذين كانوا قد غدوا شاحبين صفر الوجوه خوفاً من هؤلاء الملاعين، ودفعوا لهم الجزية، ولم يكونوا خجلين من ذلك الخزي، يستمعتون الآن بنوم هني، وكل سكان العالم، وبالتخصيص أهل الإيمان استراحوا الآن من شر مكيدتهم، وخبث عقيدتهم، لا بل كافة الأنام، خاص وعام، وكرام ولئام، يشاركون في هذه الفرحة، وقارن بهذه

التواريخ تواريخ رُستم بن دستان، فإن تلك غدت مجرد خرافة قديمة[39]، وهكذا نظّف العالم الذي كان قد تلوث بشرورهم وآثامهم، ويروح الآن عابروا الطرق ذهاباً وإياباً، ودونما خوف أو رعب، أو ضيق دفع أتاوة، ويدعون (بدوام) سعد الملك السعيد الذي اجتث أصولهم، ولم يترك أثراً لأي واحد منهم، وحقاً لقد كان هذا العمل بلسماً لجراح المسلمين، وتداركاً للخلل في الدين، وليعلم الذين سوف يأتون بعد هذا العصر والعهد درجة الفساد والتشويش الذي كانوا قد رموه في قلوب الناس، فالملوك سواء أكانوا من العصور الماضية، أو حكاماً معاصرين، كانوا حتى وإن كانوا على عهود تراض معهم، قد لبثوا يرتجفون خوفاً (على حياتهم)، وإذا كانوا مخاصمين لهم، كانوا ليلاً ونهاراً في مضائق السجن خوفاً من مجرميهم الذين لا يجارون في الهول، ولقد كانت كأساً ملئت حتى فاضت، وبدت مثل ريح قد خمدت، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القرآن الكريم: 6/ الآية 90]، وكذلك يفعل الله بالظالمين[40].

الفصل الخامس
شيخ الجبل

عندما كان حسن الصباح ما يزال يحكم في قلعة ألَموت، وكلمات مبعوثيه وسلاحهم تبلغ رسالته إلى شعب إيران وإلى أمرائها، قام قلة من أتباعه بالانطلاق في رحلة إلى الغرب، وطويلة، وفي بلاد معادية، وكانت سورية هي مقصدهم، وكان هدفهم حمل الدعوة الجديدة إلى الاسماعيلية القدامى في ذلك البلد، ومدّ رقعة الحرب ضد السلطة السلجوقية التي كانت آنذاك قد حوت البلدان من آسيا الصغرى إلى حدود مصر.

وكانت الدعوة الجديدة قد قامت في إيران، وكسب ناشروها أول نجاح كبير في أراضي اللغة والثقافة الإيرانية، وذلك في غربي إيران وشرقها، وفي آسيا الوسطى، ومن أجل محاولتهم الأولى للتوسع نحو الغرب، كانت سورية هي الاختيار الطبيعي، فبلاد العراق التي وقعت مباشرة إلى الغرب من إيران قد حوت فرصاً قليلة، وكان هناك من دون شك متعاطفون أو مشايعون اسماعيليون في المدن العراقية، لكن الوديان المسطحة للنهر قدمت مجالاً ضئيلاً للاستراتيجية الاسماعيلية في التغلغل، ثم الخندقة، فالهجوم، وكانت سورية على كل حال مسألة مختلفة، فبين طوروس وسيناء هناك صقع مكسر من الجبال والوديان والصحارى، يؤوي سكاناً ذوي تباين عقائدي كبير، مع تقاليد محلية قوية ونوازع للاستقلال، وسورية خلافاً لمجتمعات مجرى النهر المجاورة في مصر والعراق، نادراً ما عرفت الوحدة السياسية، وكان النمط هنا واحداً من ذوي التمزق، مع تميز طائفي، واستقلال محلي، مع صراع متكرر ومتغير، كان السوريون، مع أن لغتهم العامة كانت العربية، موزعين على عدد من العقائد والطوائف، من ضمنهم عدد أصحاب عقائد شيعية متطرفة، وظهر أول من ادعى التشيع في سورية في القرن الثامن، ومع نهاية القرن التاسع، وبداية القرن العاشر، كان بإمكان الأئمة الاسماعيليين المتخفين الاعتماد على تأييد محلي، كان كافياً لجعل سورية مقراً لقيادتهم السرية، والمسرح الأول لجهدهم نحو

الوصول إلى السلطة، وجلب تأسيس الخلافة الفاطمية في مصر وتوسعها في آسيا، سورية وجعلها تحت حكم اسماعيلي متقطع، وفتح البلد أمام الدعوة الاسماعيلية وتعاليمها.

وكان في سورية إلى جانب الاسماعيليين الظاهريين، طوائف أخرى، كانت قريبة بما فيه الكفاية من الاسماعيلية في العقيدة والمظهر، لجعلها أرض تجنيد مأمولة للمبعوثين من ألَموت، وعلى سبيل المثال كان هناك دروز جبل لبنان والمناطق المجاورة، والدروز هم أتباع طائفة اسماعيلية منشقة، كانت قد انفصمت منذ أمد وجيز عن الهيكل الأساسي، ولم تكن هذه الطائفة قد سقطت في العزلة المتحجرة للحقبة الزمانية المتأخرة، وكان هناك أيضاً النصيرية، الذين يعرفون أيضاً باسم العلوية، جماعة أخرى من المؤيدين القادرين، وكانوا بالأصل شيعة اثني عشرية، لكنهم كانوا متأثرين كثيراً بالأفكار المتطرفة، ولقد كان هؤلاء مستقرين متأسسين في المنطقة المرتفعة شرقي اللاذقية وشماليها، وربما أيضاً في ذلك الوقت في طبرية ووادي الأردن.

وكان الزمان والمكان أيضاً موائمين، ولقد قيل بأن أول فرقة تركمانية دخلت إلى سورية في عام 1064م، وخلال السبعينات من القرن الحادي عشر غزت عصابات التركمان، ثم الجيوش السلجوقية البلاد، وعلى الفور أصبحت سورية كلها، باستثناء شريط ساحلي، احتفظ به من قبل الفاطميين تحت الحكم أو النفوذ السلجوقي، وكان تُتُش أخو السلطان الكبير ملك شاه سيد المقدمين التركمان، وفي عام 1095، قُتل تُتُش في إيران خلال صراع أهلي من أجل السلطنة العظمى، واتحد النمط السوري في التمزق حسب المناطق، مع التقاليد السلجوقية لصراع الأسر الحاكمة، فمزق مملكته ـ تُتُش ـ إلى قطع، ومن جديد تمزقت سورية إلى دويلات صغيرة، حكمت الآن من قبل أمراء ومقدمين سلاجقة، كان أعظمهم أهمية: رضوان، ودُقاق، ابنا تُتُش، اللذان احتفظا بحلب ودمشق، المدينتين المتنافستين.

ولقد حدث في هذه اللحظة من الخلاف والصراع المتنامي، أن دخلت قوة جديدة إلى البلاد، وهي قوة الصليبيين الذين قدموا عبر أنطاكية في الشمال، وزحفوا مسرعين منحدرين على الساحل السوري، حيث لم تكن هناك قوة قادرة على مقاومتهم، وأسسوا أربع دويلات لاتينية، اتخذت من: الرُها، وأنطاكية، طرابلس، والقدس قواعد لها.

وجلب امتداد السيطرة السلجوقية معه إلى سورية كثيراً من مشاكل التوتر، والتغيير الاجتماعي، مما كان معروفاً في الشرق، ويمكن القول أن صدمة الغزو والقهر اللاتيني قد

جاءت فقط لتضاف إلى مصائب السوريين وتعاستهم، وتجعلهم أكثر استعداداً لاستقبال حملة رسالة، ذات تطلعات نحو قيام مهدي منتظر، خاصة لدى الذين أعدتهم عقائدهم القائمة لتقبل مثل هذه الرسالة، وكان ما يزال لفاطميي القاهرة أتباع في سورية ممن تمسكوا بالدعوة القديمة للاسماعيلية، لكن لابد أن الضعف المخزي للحكم القاهري، وإخفاقه في مقاومة أياً من الخطرين التركي أو اللاتيني، قد قاد الكثيرين إلى نقل ولائهم إلى الفرع الذي كان أكثر نشاطاً وعسكرية، وأكثر ـ كما بدا ـ نجاحاً، ويبدو أن بعضاً من الشيعة، ومعظم السنة قد بقيوا مخلصين لولاءاتهم القديمة، ومع هذا كان هناك الكثير ممن انضموا إلى القوة الجديدة، التي بدت وحدها، تقدم تحدٍّ فعال ومؤثر للغزاة ولحكام البلاد.

ومثلهم مثل رفاقهم حاول رجال أَلَموت في سورية منذ البداية أن يستخدموا الطرق نفسها، لينالوا النتائج ذاتها التي نالها رفاقهم في إيران، وكان هدفهم الاستيلاء، أو لنقل الحصول على حصون، لتستخدم بمثابة قواعد في حملة الإرهاب، وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية حاولوا استدرار غيرة المؤمنين وتوجيهها، خاصة في المناطق الجبلية، ولم يستخفّوا، بالوقت نفسه بالتعاون الحصيف مع الأمراء حيثما ظهر أن تحالفاً محدوداً، ومؤقتاً، مفيداً لكلا الطرفين.

وعلى الرغم من مثل هذه المساعدة، وعلى الرغم أيضاً من النجاحات الآنية، وجد الاسماعيلية مهمتهم أكثر صعوبة في سورية، مما كانت عليه في إيران، ويعود هذا، ربما من جانب، لأنهم كانوا إيرانيين يعملون في محيط أجنبي، ولذلك احتاجوا إلى ما يقارب النصف قرن من الجهد المصر والمثابر، قبل أن يكونوا قادرين على بلوغ أول هدف لهم، في تحصين مجموعة من القلاع في سورية الوسطى، في المنطقة الجبلية التي كانت تعرف آنذاك باسم جبال بهراء، والآن باسم جبال النصيرية أو العلويين، ولقد كان قادتهم، بقدر ما هو معلوم، إيرانيين جميعاً، أرسلوا من ألموت، وعملوا تحت أوامر حسن الصباح وخلفائه، ولقد مرّ نضالهم في سبيل تأسيس أنفسهم بثلاث مراحل: فخلال المرحلتين الأوليتين، اللتان انتهتا في عام 1113، عملوا باستمرار من حلب ودمشق، وذلك بممالأة حكام هاتين المدينتين، وحاولوا تأسيس أنفسهم في المناطق المجاورة، وانتهت كلتاهما بإخفاق وفاجعة، وخلال المرحلة الثالثة، التي بدأت في عام 1131، كانوا أخيراً قادرين على نيل القواعد التي احتاجوها، كما كانوا قادرين على تحصينها، هذا وتاريخ الاسماعيلية في سورية ـ كما

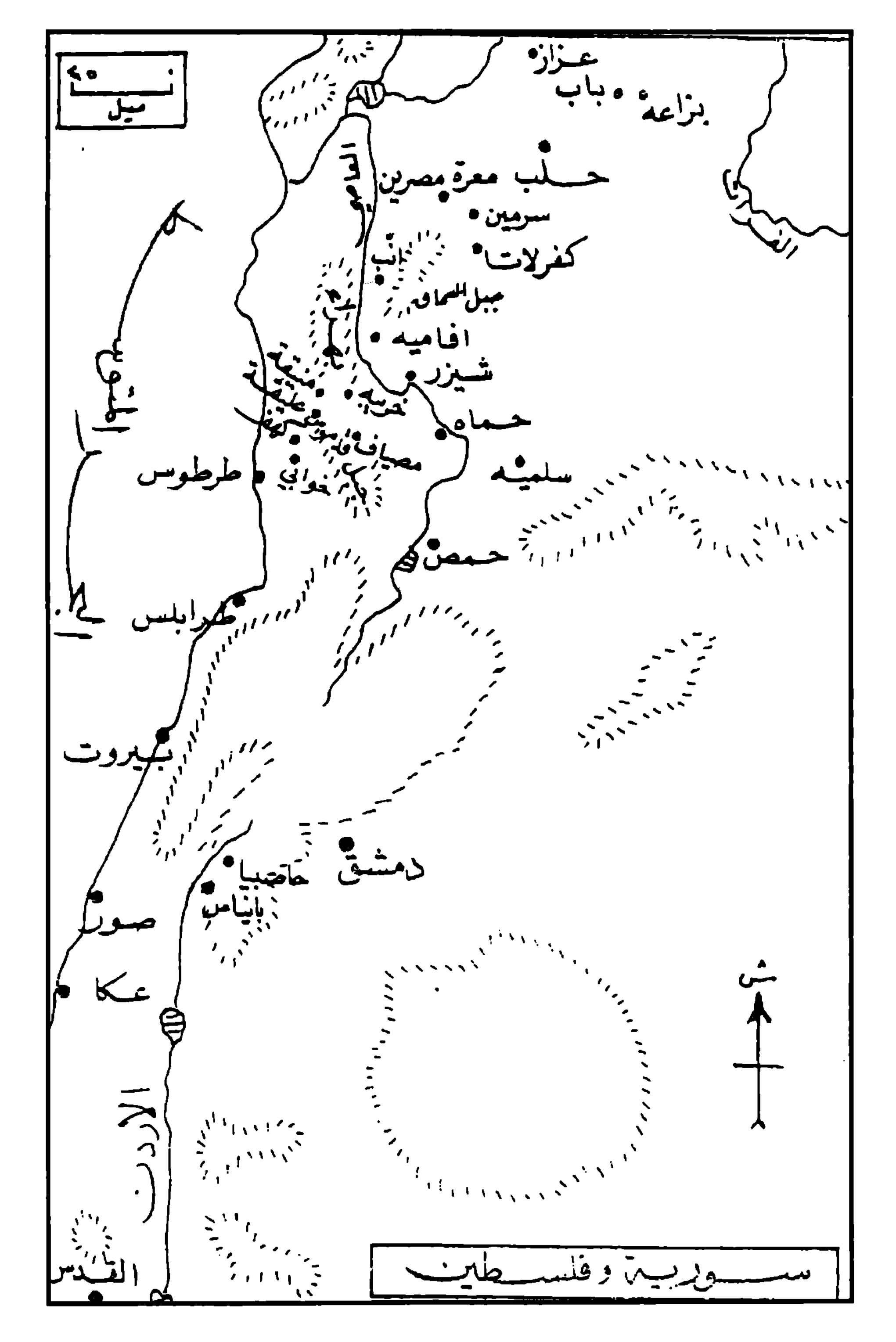
جرى تدوينه من قبل المؤرخين السوريين ـ هو في الغالب تاريخ للاغتيالات التي أعدوها، وتبدأ القصة في اليوم الأول من أيام عام 1103، باغتيال مثير لجناح الدولة حاكم حمص، وكان ذلك في جامع القلعة، أثناء صلاة الجمعة، وكان مهاجموه إيرانيين متزيين على شكل صوفية، ولقد انقضوا عليه بموجب إشارة من شيخ كان بصحبتهم، وقتل أثناء المعمعة عدد من قادة جناح الدولة، وقتلوا هم أيضاً، ومن الخطورة بمكان، أن معظم الأتراك في حمص هربوا إثر ذلك إلى دمشق.

وكان جناح الدولة عدواً لرضوان الحاكم السلجوقي لحلب، ومعظم المؤرخون متفقون على أن الملك رضوان كان شريكاً في الاغتيال، ويعطي بعضهم تفاصيل أوفى، فقد كان مقدم الحشيشية ـ لنستخدم الاسم الذي عرفوا به في سورية ـ شخصاً عرف بالحكيم المنجم، وكان قد قدم هو ورفاقه من إيران، واستقروا في حلب، حيث سمح لهم رضوان بإقامة ديانتهم والدعوة لها، وأن يستخدموا المدينة بمثابة قاعدة في سبيل نشاطات أوسع، وكان لحلب مزايا بديهية بالنسبة للحشيشية، فقد كانت تحتوي سكاناً شيعة لهم أهميتهم، ثم كانت قريبة بيسر من مناطق الشيعة المتطرفين في جبل السماق وجبل بهراء، أما بالنسبة لرضوان، وكان رجلاً متهاوناً ظاهرياً في إخلاصه الديني، فقد قدّم الحشيشية له إمكانية حشد عناصر تأييد جديدة، وتعويضاً لضعفه العسكري بين منافسيه في سورية.

وعاش الحكيم المنجم بعد جناح الدولة لمدة أسبوعين، أو ثلاثة فقط، وخلفه بعدها مقدماً للحشيشية في سورية إيراني آخر، هو أبو طاهر الصائغ، واحتفظ أبو طاهر بالحظوة لدى رضوان في حلب، وقام الآن بسلسلة من المحاولات ليستولي على مراكز استراتيجية في الجبال جنوبي المدينة، ويبدو أنه كان قادراً على نيل بعض المساعدة المحلية، لا بل لعله تمكن من الاستيلاء على بعض الأماكن، ولو أن ذلك كان لأمد وجيز فقط.

ففي عام 1106، وقع أول هجوم موثق ضد أفامية، التي كان حاكمها خلف بن ملاعب شيعياً، وربما اسماعيلياً، ولكن من أتباع القاهرة وليس ألَموت، وكان خلف قد انتزع أفامية في عام 1096 من رضوان، وأظهر صلاحية المكان في استخدامه له قاعدة لأعمال لصوصية ناجحة، وواسعة النطاق، وقرر الحشيشية بأن أفامية سوف تفي بحاجتهم بشكل جيد جداً، واستنبط أبو طاهر خطة لقتل خلف والاستيلاء على قلعته، فقد كان بعض سكان أفامية اسماعيلية محليين بينهم رجل «يقال له ابن القنج، أصله من سرمين،

وأقام بأفامية يحكم بين أهلها» ، ومن خلال ابن القنج هذا كان الفاميون شركاء في المؤامرة ، وقدم ستة حشيشية من حلب لينفذوا الهجوم : «وقد حصلوا حصاناً وبغلة وعدداً إفرنجية ، وتراساً وزردية ، وخرجوا من بلد حلب إلى أفامية . . . . . وقالوا لسيف الدولة خلف . . . جئنا قاصدين خدمتك ، فلقينا فارساً من الأفرنج فقتلناه ، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته ، فأكرمهم وأنزلهم في حصن أفامية في دار مجاورة السور ، فنقبوا السور ، وواعدوا الفاميين . . . فطلع الفاميون من ذلك النقب ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وملكوا حصن أفامية»[1] ، وكان هذا في الثالث من شباط لعام 1006 ، ووصل إثر ذلك على الفور ، أبو طاهر نفسه ، ليأخذ بمقاليد الأمور .



٩٠
ميل
عزاز
باب
بزاعة
حلب
معرة مصرين
سرمين
كفرلاثا
جبل السماق
افاميه
شيزر
حماه
مصياف
خوابي
طرطوس
سلميه
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
حاصبيا
بانياس
صور
عكا
القدس
ش
سورية وفلسطين

ولم يكتب النجاح للهجوم على أفامية، على الرغم من بدايته المشجعة، فقد كان تانكرد (طنكري ـ طنكلي) Tancred الأمير الصليبي لأنطاكية في الجوار، فاغتنم الفرصة للهجوم على أفامية، ويبدو أنه كان جيد المعلومات عن الوضع، حيث جلب معه أسيراً، أخاً لابن القنج السرميني، ورضي في البداية باستيفاء أتاوة من الحشيشية، وتركهم متملكين، لكنه عاد في أيلول من العام نفسه، وحاصر البلدة حتى استسلمت، وأسر ابن القنج السرميني، الذي تعرض للعذاب حتى مات، وأخذ أبا طاهر وأصحابه أسرى، ثم سمح لهم بفداء أنفسهم، والعودة إلى حلب، ويبدو أن هذا الصدام الأول للحشيشية مع الصليبيين، والإعاقة من قبل أمير صليبي لخطتهم الموضوعة بحذر، لم يقد إلى أي انحراف لاهتمام الحشيشية بأهداف صليبية بدلاً عن الأهداف الإسلامية، وبقي كفاحهم الأساسي ضد الحكام السنة، وليس ضد أعداء الإسلام، وكان هدفهم المباشر الاستيلاء على أي قاعدة، من أي متملك، وظلت غايتهم الكبرى توجيه الضربة إلى القوة السلجوقية أينما يمكن أن تظهر.

وحققوا في عام 1113 غاية ما طمحوا إليه من نجاح حتى ذلك التاريخ، وذلك باغتيال مودود في دمشق، وكان مودود هو الأمير السلجوقي للموصل، وقائد قوة حملة شرقية جاءت إلى سورية على عزم مساعدة مسلمي سورية في قتالهم ضد الصليبيين، ومثلت حملة مثل هذه بالنسبة للحشيشية خطراً ظاهراً، ولم يكونوا وحدهم الذين شعروا بالخوف، ففي عام 1111، عندما وصل مودود وجيشه إلى حلب، أغلق رضوان أبواب المدينة في وجههم، وانضم الحشيشية إلى مساعدته، وتدلل الأقاويل المعاصرة، حسبما جرى تدوينها في كل من المصادر الإسلامية والصليبية، بأن اغتيال مودود قد تمّ التشجيع عليه من قبل أتابك دمشق المسلم.

وأصبح الخطر على الحشيشية من نفوذ سلجوقي مشرقي، واضحاً بعد وفاة حاميهم رضوان، وفي العاشر من كانون الأول لعام 1113، سببت نشاطات الحشيشية في حلب، في جعلهم غير مقبولين شعبياً من قبل أهل المدينة، ففي عام 1111 قادت محاولة مخففة، ضد إيراني من المشرق ـ وكان رجلاً صاحب ثروة، مجاهراً بعدائه للاسماعيلية ـ إلى انفجار شعبي ضدهم، وبعد وفاة رضوان اتبع ابنه ألب أرسلان، سياسة أبيه أولاً، لا بل إنه فعل أكثر من ذلك بأن تنازل لهم عن قلعة على الطريق إلى بغداد، لكن ردة الفعل جاءت حالاً، ففي رسالة أرسلت من السلطان السلجوقي محمد، إلى ألب أرسلان، أنذره

فيها ضد الخطر الاسماعيلي، وحرضه على تدميرهم، وفي المدينة أخذ ابن بديع، الذي كان قائد العامة، ومقدم الأحداث بزمام المبادرة، فأقنع الحاكم بالموافقة على اتخاذ إجراءات صارمة «فقبض على أبي طاهر الصائغ، وقتله، وقتل اسماعيل الداعي، وأخا الحكيم المنجم، والأعيان من أهل هذا المذهب بحلب، وقبض على زهاء مائتي نفس منهم، وحبس بعضهم واستصفى أموالهم، وشفع لبعضهم، فمنهم من أطلق، ومنهم من رمي من أعلى القلعة، ومنهم من قتل، وأفلت جماعة منهم فتفرقوا في البلاد»[2].

وعلى الرغم هذه الانتكاسة، وعلى الرغم من إخفاقهم حتى الآن في تأمين قلعة تتخذ معقلاً دائماً، لم يكن نتاج البعثات الاسماعيلية الإيرانية خلال حقبة رئاسة أبي طاهر سيئاً أبداً، فلقد قاموا باتصالات مع متعاطفين محليين، وكسبوا إلى الولاء الحشيشي اسماعيلية من الفروع الأخرى، وشيعة متطرفين من مختلف الطوائف السورية المحلية، وأصبحوا يستطيعون الاعتماد على تأييد محلي مهم في كل من جبل السماق، ومنطقة الجَزْر، وبلاد بني عُلَيم، أو بالحري أن تقول: في المنطقة الاستراتيجية المهمة الواقعة بين سَرْمين وشَيْزر، ولقد شكلوا خلايا تأييد في أماكن أخرى في سورية، وخاصة على امتداد خط اتصالهم نحو الشرق، إلى ألَموت، وكانت مناطق الفرات شرقي حلب، معروفة بمثابة مراكز تشيع متطرف في جميع الحقب التاريخية المتقدمة والمتأخرة، ومع أنه لا توجد مواد إخبارية مباشرة حول هذه السنوات، إلاّ أنه يمكن لكل إنسان أن يكون متيقناً من أن أبا طاهر لم يهمل فرصه، وإنه لمن المدهش، أنه منذ التاريخ المبكر لربيع عام 1114، أن قوة تألفت من حوالي مائة اسماعيلي من أفامية وسرمين، وأماكن أخرى، كانت قادرة على الاستيلاء على شيزر المعقل الإسلامي، وكان ذلك بهجوم مفاجئ، عندما كان صاحبها وأتباعه غائبين، يشاهدون احتفالات النصارى في الفصح، وألحقت الهزيمة بالمهاجمين بعد ذلك مباشرة، وتمّ تدميرهم بوساطة هجوم معاكس.

ومع ذلك حتى في حلب، كان الحشيشية على الرغم من انتكاسة عام 1113، قادرين على الاحتفاظ ببعض مواطئ قدم، وفي عام 1119، جرى طرد عدوهم ابن بديع من المدينة، فهرب إلى ماردين، وكان الحشيشية منتظرينه عند معبر الفرات فقتلوه مع ولديه، وفي العام التالي، طلبوا قلعة من الحاكم، الذي وجد نفسه محرجاً لأنه لم يكن يريد التنازل عنها، وكان بالوقت نفسه خائفاً أن يرفض، لذلك اضطر إلى إيجاد مخرج

بالإسراع بهدمها، ومن ثم تظاهر بأنه كان قد أمر بذلك من قبل، ولقد اغتيل القائد الذي أشرف على الهدم بعيد عدة سنوات، وجاء انتهاء النفوذ الاسماعيلي في حلب في عام 1124، عندما ألقى حاكم المدينة الجديد القبض على الوكيل المحلي لداعي الدعاة، وطرد أتباعه الذين باعوا ممتلكاتهم وغادروا.

ولقد كان الوكيل المحلي، وليس داعي الدعاة نفسه، هو الذي رأس في هذا الوقت الاسماعيلية في حلب، فبعد إعدام أبي طاهر، نقل خليفته بهرام الأعمال الأساسية للطائفة إلى الجنوب، وأصبح على الفور يقوم بدور فعال في أمور دمشق، وكان بهرام مثل أسلافه إيرانياً، ابن أخي الأسد أباذي، الذي أعدم في بغداد في عام 1101، وقد عاش لأمد «وهو على غاية من الاستتار والاختفاء، وتغيير الزي واللباس، بحيث يطوف البلاد والمعاقل، ولا يعرف أحد شخصيته»[3]، وبشكل شبه مؤكد كان له يد في مقتل البرسقي، حاكم الموصل في المسجد الجامع لتلك المدينة في 26 تشرين الثاني لعام 1126، وكان على الأقل هناك بعض السوريين بين الحشيشية الثمانية الذين تنكروا في زي زهاد متصوفة، وانقضوا عليه، وطعنوه، وروى المؤرخ الحلبي كمال الدين ابن العديم قصة غريبة جاء فيها: «وقتل من كان وثب عليه من الباطنية غير شاب واحد، كان من كفر ناصح ـ ضيعة من عمل عزاز ـ فإنه سلم، وكان له أم عجوز، فلما سمعت بقتل البرسقي، وقتل من وثب عليه، وكانت قد علمت أن ابنها معهم، فرحت واكتحلت وجلست مسرورة، فوصلها ابنها بعد أيام سالماً فأحزنها ذلك، وجزت شعرها، وسودت وجهها»[4].

ومن العام نفسه، 1126، وصلت أول تقارير مؤكدة عن التعاون بين الحشيشية وبين طغتكين حاكم دمشق التركي، وتبعاً للمؤرخ الدمشقي ابن القلانسي، قامت جماعات اسماعيلية من حمص وأماكن أخرى كانوا كلهم معروفون بالشهامة والبسالة، بمشاركة عساكر طغتكين في هجوم مخفق على الصليبيين، ومع قرب نهاية العام، ظهر بهرام بشكل معلن في دمشق، مع كتاب توصية من إيلغازي الحاكم الجديد لحلب، فاستقبل استقبالاً حسناً في دمشق، ومع الحماية الرسمية حصل على الفور على مركز نفوذ وقوة، وكان مطلبه الأول تبعاً للاستراتيجية المعتمدة من قبل الطائفة، قلعة، وتنازل طغتكين له عن حصن بانياس، على الحدود مع المملكة اللاتينية للقدس، ولكن هذا لم يكن كل شيء، لأنه حتى في دمشق نفسها أُعطي الحشيشية بناء، جاء وصفه مراراً بمثابة قصر، ودار دعوة

خدمتهم بمثابة مركز قيادة، وألقى المؤرخ الدمشقي أساس اللوم من أجل هذه الأحداث على الوزير المزدقاني، الذي مع أنه نفسه لم يكن اسماعيلياً، كان شريكاً راغباً في خططهم، وكان صاحب التأثير الشرير خلف العرش، وتبعاً لهذا الرأي لم يكن طغتكين موافقاً علي الحشيشية ولا راضياً بهم، ولكنه تساهل معهم لأسباب تكتيكية، وذلك إلى أن يحين الوقت ليوجه ضربة فاصلة ضدهم، ووضع مؤرخون آخرون ـ مع تقديرهم لدور الوزير ـ اللوم كله على الحاكم، وأرجعوا عمله في أبعد الحدود إلى نفوذ ايلغازي، الذي أقام بهرام معه علاقات صداقة عندما كان مقيماً في حلب، وفي بانياس أعاد بهرام بناء القلعة وتحصينها، وباشر في عمل عسكري ودعائي في المنطقة المحيطة، «وبث دعاته ـ كما قال ابن القلانسي ـ في سائر الجهات، فاستغووا خلقاً كثيراً من جهال الأعمال، وسفساف الفلاحين من الضياع، وغوغاء الرعاع. . . »[5]، ومن بانياس أغار بهرام وأتباعه غارات واسعة، ويحتمل أنهم استولوا على بعض الأماكن الأخرى، لكنهم ما لبثوا أن جاءوا إلى الكدر، فوادي التيم في منطقة حاصبيا، كان مسكوناً من قبل خليط من السكان من الدروز والنصيرية، وطوائف أخرى، وظهروا وكأنهم يقدمون أرضاً صالحة للتوسع لصالح الحشيشية، وكان برق بن جندل واحداً من مقدمي المنطقة، فاعتقل وقتل غدراً، وبعد ذلك بوقت قصير انطلق بهرام وقواته لاحتلال الوادي، وهناك واجهوا مقاومة فعالة من قبل ضحاك بن جندل، الذي كان أخاً للرجل المقتول، وكان قد أقسم على أخذ الثأر، وفي اشتباك حاد لحقت الهزيمة بالحشيشية، وقتل بهرام نفسه.

وجاء بعد بهرام وخلفه في قيادة بانياس إيراني آخر، كان اسمه اسماعيل، قام بمتابعة سياساته وأعماله، وتابع الوزير المزدقاني دعمه وتأييده، ولكن ما لبث أن جاءت النهاية، فقد أعقب موت طغتكين في عام 1128 ردة فعل ضد الاسماعيلية، كان شبيهة بتلك التي أعقبت موت رضوان في حلب، وهنا جاءت المبادرة من رئيس المدينة مفرج بن الحسن الصوفي، الذي كان خصماً شديداً للحشيشية، وعدواً للوزير، وأعد بوري بن طغتكين ووريثه الذي حرض من قبل رئيس المدينة، ومن قبل شحنة المدينة يوسف بن فيروز الضربة، وفي يوم الأربعاء الرابع عشر من أيلول لعام 1229، وجه بوري ضربته، حيث جرى قتل الوزير لدى انصرافه من عنده، وقطع رأسه، وشهر به، «وشاع الخبر بذاك في الحال، فثارت الأحداث بدمشق والغوغاء والأوباش بالسيوف والخناجر المجردة، فقتلوا كل من ظفروا به من الباطنية وأسبابهم، وكل ما يتعلق بهم، ومنتم إليهم، وتتبعوهم في

أماكنهم، واستخرجوهم من مكامنهم، وأفنوهم جميعاً تقطيعاً بالسيوف، وذبحاً بالخناجر، وجعلوا مصرعين على المزابل كالجيف الملقاة والميتة المجتواة، وقبض منهم نفر كثير التجأوا إلى جهات يجتمعون بها، وأملوا السلامة بالشفاعة منها قهراً، وأريقت دماءهم هدراً، وأصبحت النواحي والشوارع منهم خالية، والكلاب على أشلائهم وجيفهم متهاوشة عاوية، إن في ذلك لآية لأولي الألباب»[6].

وجرى تقدير عدد الحشيشية الذين قتلوا في أحداث العنف هذه من قبل أحد المؤرخين بستة آلاف، وبعشرة آلاف من قبل مؤرخ آخر، وبعشرين ألفاً من قبل ثالث، وفي بانياس أدرك اسماعيل أن وضعه بات حرجاً، لذلك سلم القلعة إلى الفرنج، وهرب إلى الأراضي الصليبية، ومات هناك في بداية عام 1130، هذا وإن الحكاية التي تكررت روايتها عن تآمر الوزير والحشيشية على تسليم دمشق إلى الصليبيين، مبنية على مصدر واحد ليس موثوقاً كثيراً، ويمكن طرحها وعدم الأخذ بها، على أساس أنها مخترعة بنيت على أقاويل معادية.

واتخذ بوري وأعوانه احتياطات شديدة لحماية أنفسهم ضد الانتقام من قبل الحشيشية، فكانوا يلبسون الدروع، ويحيطون أنفسهم بحرس شاكي السلاح، لكن من دون فائدة، ويبدو أن الدعوة السورية، وقعت في اضطراب مؤقت، لذلك كان أن وجهت الضربة من مركز الطائفة في ألَموت، ففي السابع من أيار لعام 1131، قام إيرانيان تنكرا في زي جند ترك، ودخلا في خدمة بوري، قاما بإصابته بجراح بالغة، ولقد سميا في ملف الشرف لألَموت[7]، وجرى تمزيقهما إلى إرب من قبل الحرس، لكن بوري نفسه توفي في العام التالي متأثراً بجراحه، وعلى الرغم من هذه الضربة الناجحة، لم يسترد الحشيشية مكانتهم أبداً في دمشق، وفي الواقع في مدينة سنية بمثل هذه الصرامة، لم يكن من الممكن العثور على أكثر من أمل ضئيل كي يفعلوا كذلك.

وكان الحشيشية في هذه الآونة يقاتلون عدواً آخر، وذلك بالإضافة إلى الترك، فالخليفة الفاطمي الذي كان ما يزال يحكم في القاهرة، كان في أعينهم مغتصباً، ولقد كان واجباً مقدساً القيام بخلعه، وإقامة إمامة أسرة نزار، وخلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، انفجرت أكثر من ثورة موالية لنزار وأخمدت في مصر، وصرفت الحكومة في القاهرة معظم انتباهها للتغلب على الدعاية النزارية بين رعاياها، فأصدر الخليفة الآمر سجلاً خاصاً للدفاع عن صحة دعوى أسرته بالخلافة، ولنقض الدعوة النزارية، وفي

ملحق مفيد لهذه الوثيقة، رويت قصة تحدثت أنه عندما قرأتها البعثة الفاطمية على مسامع حشيشية دمشق، سببت ضجة وصخب، إلى حد أن واحداً من رجال البعثة تأثر بذلك، فقام بإحالتها إلى رئيسه، فأضاف رداً كتبه في مكان البياض في نهاية الوثيقة، وقرأ النزارية هذا الرد في اجتماع لمؤيدي الفاطميين بدمشق، وسألت البعثة القاهرية مساعدة الخليفة في الإجابة عليه، فاستلمت إفادات أوسع من حجج المستعلية، وقد تكون هذه الأحداث على صلة بعملية قتل، من قبل الحشيشية في دمشق في عام 1120، طالت رجلاً، اتهم بأنه كان يتجسس على الحشيشية لحساب الحكومة الفاطمية.

واستخدم الحشيشية حججاً أقوى، وأكثر وضوحاً ضد منافسيهم الفاطميين، وفي عام 1121 جرى اغتيال الأفضل - أمير الجيوش في مصر، والرجل المسؤول الأول عن عزل نزار، ونفذ الاغتيال ثلاثة حشيشية من حلب، وفي عام 1130 لقي الخليفة الآمر نفسه مصرعه في القاهرة، على أيدي عشرة من الحشيشية، وكانت كراهيته للنزارية معروفة بشكل جيد، فلقد روي أنه بعد موت بهرام، حمل رأسه ويديه وخاتمه إلى القاهرة، واحداً من سكان وادي التيم، حيث تسلم جوائز وخلعة.

وقليل هو المعروف عن علاقات الحشيشية بالفرنجة خلال هذه الحقبة، والقصص الواردة في مصادر المسلمين المتأخرة، عن تعاون الاسماعيلية مع العدو، ربما كانت صدى لعقلية العصر المتأخر عندما ملأ الجهاد من أجل الإسلام، عقول معظم مسلمي الشرق الأدنى، وفي هذا الوقت، إن معظم ما يمكن أن يقال هو أن الحشيشية شاركوا في عدم المبالاة العامة لمسلمي سورية تجاه الانقسامات الدينية، وليس من المعروف وجود ضحايا فرنجية لسكاكين الفدائيين، ولكن في مناسبتين على الأقل دخلت القوات الاسماعيلية في صراع مع الجيوش الصليبية، ومن جهة أخرى بحث مهاجرو الحشيشية من حلب وبانياس عن مأوى في الأراضي الفرنجية، وكان تسليم بانياس إلى الفرنجة، وليس إلى حكام مسلمين، عندما كان من المحتم التخلي عنها، على جميع الاحتمالات مسألة جغرافية فقط.

أما العشرين سنة التالية فيمكن النظر إليها مع المحاولة الثالثة والناجحة للحشيشية لتأمين حصون قواعد في سورية، وكانت المحاولة هذه المرة في جبل بهراء إلى الجنوب الغربي مباشرة لمسرح جهدهم الأول في جبل السماق، وتبع تمركزهم محاولة غير ناجحة قام بها الفرنجة لكسب السيطرة على المنطقة، ففي عام 1132 - 1133، باع صاحب حصن الكهف المسلم

قلعة القدموس الجبلية إلى الحشيشية ، وكانت هذه القلعة قد استردت في العام الفائت من الصليبيين ، وبعد بضع سنوات تنازل ابنه عن الكهف نفسها ، وكان ذلك خلال صراع مع أبناء عمه من أجل الحكم ، وفي عام 1136 ـ 1137 أجليت الحامية الصليبية في الخريبة من قبل جماعة من الحشيشية وقد نجح هؤلاء في استعادة السيطرة عليها ، بعدما اقتلعوا منها بصورة مؤقتة من قبل حاكم حماة ، وفي عام 1140 ـ 1141 ، حدث الاستيلاء على مصياف ، أعظم معاقل الحشيشية أهمية ، وقد انتزعت من حاكم كان معيناً فيها من قبل بني منقذ ، الذين كانوا قد اشتروا القلعة في عام 1127 ـ 1128 ، ومن المحتمل أنه تم الحصول على قلاع الحشيشية الأخرى في الخوابي ، والرصافة ، والقليعة ، والمنيقة ، في حوالي هذه الحقبة الزمانية نفسها ، مع أنه قليل هو الذي معروف عن تاريخ أو طرق الحصول عليها .

وصنع الحشيشية أثناء هذه الحقبة من التمتين الذاتي الهادئ ، قليلاً من التأثير على العالم الخارجي وبالنتيجة كان قليلاً الذي سمع عنهم في التواريخ ، وقليل جداً الذي عرف من أسمائهم ، فلقد ورد بأن الذي ابتاع القدموس عرف بأبي الفتح ، وأن الذي كان داعياً للدعاة قبل سنان كان يعرف بأبي محمد ، هذا وتعاون قائد كردي من الحشيشية عرف باسم علي بن وفاء مع ريموند Raymond صاحب أنطاكية ضد نور الدين ، وهلك معه على أرض المعركة في إنب في عام 1149 ، والذي جرى تدوينه خلال هذه السنين كان اغتيالين فقط ، ففي عام 1149 عاني الضحاك بن جندل مقدم وادي التيم من انتقام الحشيشية لمقاومته الناجحة لبهرام في عام 1128 ، وبعد عام أو عامين اغتالوا الكونت ريموند الثاني ، صاحب طرابلس على باب تلك المدينة ، فكان ضحيتهم الصليبية الأولى .

ومن الممكن أن يُشاهد في سياسة الحشيشية في هذه السنين ، الخطوط الأكثر عرضاً فقط ، فلقد شعروا نحو زنكي صاحب الموصل وبيته بالعداوة فقط ، ذلك أن حكام الموصل ، كانوا دوماً الأعظم بين الأمراء الأتراك قوة ، وقد تحكموا بخطوط المواصلات بين سورية وإيران ، وغالباً ما تمتعوا بعلاقات ودية مع الحكام السلاجقة في المشرق ، وقدموا تهديداً مستمراً لمركز الحشيشية ، الذي ازداد سوءاً بميولهم المتوالية للانتشار في سورية ، فمودود والبرسقي كانا بالفعل قد اغتيلا ، وتعرض الزنكيون إلى التهديد أكثر من مرة ، وعندما استولوا على حلب في عام 1128 ، أصبح الخطر الذي قدموه للاسماعيلية أكثر مباشرة ، وفي عام 1148 أزال نور الدين بن زنكي الصيغة الشيعية التي استخدمت حتى ذلك

الحين، في الأذان والدعوة إلى الصلاة في حلب، وأثارت هذه الخطوة مقاومة كبيرة لكن غير مجدية، من قبل الاسماعيلية والشيعة الآخرين في المدينة، ووصلت الذروة بإعلان مفتوح بالحرب ضد الهرطقة، وفي هذه الظروف، وضمن هذه المعطيات لم يكن مدهشاً أن وجدنا وحدة من الحشيشية تقاتل إلى جانب ريموند صاحب أنطاكية، الذي كان في ذلك الحين القائد الوحيد في سورية، الذي كان بإمكانه تقديم مقاومة فعالة للزنكيين.

وفي هذه الأثناء أخذ بمقاليد أمور الحشيشية في سورية أعظم قادتهم على الاطلاق، وهو سنان بن سلمان بن محمد، الذي عرف بلقب راشد الدين، وكان سنان بالأصل من أهل عقر السودان، وكانت قرية وقعت قرب البصرة، على الطريق إلى واسط، وغالباً ما ورد وصفه بمثابة كيماوي، أو معلم مدرسة، وبناء على ما رواه هو نفسه كان ابناً لواحد من مشاهير سكان البصرة، ووصف كاتب سوري عاصر سنان زيارة له وحديثاً له معه، تحدث سنان في سياقه عن مطلع حياته وسيرته المبكرة، وشرح ظروف بعثته إلى سورية بقوله: «إنني نشأت بالبصرة، وكان والدي من مقدميها، فوقع هذا الحديث في قلبي، فجرى لي مع إخوتي أمر أحوجني إلى الانصراف عنهم، فخرجت بغير زاد ولا مركوب، فتوصلت حتى بلغت إلى الألموت، فدخلتها وبها الكيا محمد متحكم، وكان له ولدان اسماهما: الحسن والحسين، أقعدني معهما في المكتب، وكان يبرني ببرهما، ويساويني بهما بما يجب من بر الأولاد وتعليمهم وكسوتهم، وبقيت حتى مات الكيا محمد، وتولى بعده الحسن ولده، فتقدم إليّ بأن أنفذني إلى الشام، فخرجت مثل خروجي من البصرة، فلم أقارب بلداً إلاّ في القليل، وكان قد أمرني بأوامر، وحملني رسائل، فدخلت الموصل ونزلت مسجد النجارين، وبت به، وسرت من هناك، ولم أدخل بلداً إلى الرقة، وكان معي رسالة إلى بعض الرفاق بها، فأديت الرسالة، وزودني، واكترى لي بهيمة إلى حلب، ولقيت رفيقاً آخر، أوصلت إليه رسالة أخرى، فاكترى لي بهيمة وأنفذني إلى الكهف، وكان الأمر أن أقيم بهذا الحصن، فأقمت حتى توفي الشيخ أبو محمد في الجبل، وكان صاحب الأمر، فتولى بعده خواجه علي بن مسعود بغير نص (من أَلَموت) إلاّ باتفاق بعض الجماعة، ثم اتفق الرئيس أبو منصور ابن أخت الشيخ أبي محمد، والرئيس فهد، فأنفذوا من قتله عند خروجه من الطهارة ضرباً بالسكاكين، وبقي الأمر شورى بينهم، وقبض قاتلوه وأودعوا السجن، ووصل الأمر من أَلَموت بقتل قاتله، وإطلاق سراح الرئيس فهد، ومعه وصيه وأمر أن يقرأها على الجماعة»[8]، وجرى تأكيد النقاط الأساسية من هذه

الرواية من قبل مصادر أخرى، ثم تضاعفت بوساطة تراجم أسطورية لحياة سنان، حيث أعطت مدة انتظاره في الكهف وجعلتها سبعة أعوام، هذا ومن الواضح أن سناناً كان صنيعةً لحسن على ذكره السلام، والعام الذي أظهر فيه نفسه للمؤمنين في سورية، كان هو عام 1162، وهو عام وصول حسن إلى السلطة في ألَموت، وحكاية النزاع حول الاستخلاف، من المحتمل أنها كانت من منعكسات الخلاف بين الحسن ووالده.

وفي عام 1164 أعلن حسن القيامة في ألَموت، وبعث رسلاً يحملون البشائر إلى الاسماعيلية في المناطق والبلدان الأخرى، ووقع على سنان أن يفتتح الإعلان عن التأويل الجديد في سورية، وهناك فارق غريب بين تدوين أخبار هذه الحوادث في إيران، وسورية، ففي إيران جرى تدوين أخبار قدوم القيامة بصدق من قبل الاسماعيلية، مع أنه عبر دون أن يلاحظ بين السنة المعاصرين، ومن جهة أخرى يبدو أن الاسماعيلية في سورية قد نسيوا أخبار هذه القيامة، في حين ردد المؤرخون السنة الإشاعات التي وصلتهم عن نهاية الشريعة بتذوق ورعب مناسبين، فقد قال أحد المعاصرين: «وبلغني أنه (سنان) أحل لهم وطئ أمهاتهم، وأخواتهم، وبناتهم، وأسقط عنهم صوم شهر رمضان»[9].

وفي الوقت الذي نعدّ فيه هذا الخبر وتقارير مماثلة أنها كانت من دون شك مبالغ فيها، إنه لمن الواضح أن نهاية الشريعة قد أعلنت في سورية، وقادت إلى بعض الغلو والتجاوزات، وأن ذلك قد أوقف أخيراً من قبل سنان نفسه، قال ابن العديم: «وفي هذه السنة (572/ 1176 ـ 1177) أظهر أهل جبل السماق الفسق، والفجور، وتسموا بالصفاة، واختلط النساء والرجال في مجالس الشراب، ولا يمتنع أحدهم من أخته ولابنته، ولبس النساء ثياب الرجال، وأعلن بعضهم بأن سناناً ربه»[10]، وأرسل حاكم حلب جيشاً ضدهم، ولكنهم ارتفعوا إلى الجبال حيث حصنوا أنفسهم، وأعلن سنان ـ بعدما قام ببعض البحث ـ عدم المسؤولية، وأقنع الحلبيين بالانسحاب، وقاتل بنفسه الصفاة، ودمرهم، هذا وتحدثت مصادر أخرى عن فئات مماثلة اتهمت بالإباحة في هذه الأعوام، ولعل من الممكن القول بأن الإشاعات الغامضة، والتقارير عن هذه الأحداث قد شكلت الأساس للأسطورة المتأخرة عن «حدائق الجنان» عند الاسماعيلية.

وما أن مكن سنان نفسه ووطد أركانه، حتى التفت نحو إنجاز وظيفته الأساسية، في تمتين أركان مملكته الجديدة، لذلك جدد بناء حصني الرصافة والخوابي، وطوق أراضيه بالاستيلاء على العليقة وتحصينها، قال مؤرخ عربي: «وبنى بالشام حصوناً لهذه الطائفة

مستجدة، وبعضها كانت قديمة فاحتال في تحصيلها وتحصينها وتوعير مسالكها، وسالمته الأيام، وحاذر الملوك التعرض لما في يده خوفاً من هجوم أصحابه عليهم بالقتل، ودام الأمر له بالشام نيفاً وثلاثين سنة، وسير إليه داعي دعاتهم من أَلَموت جماعة في عدة مرار ليقتلوه خوفاً من استبداده عليه بالرئاسة، وكان سنان يقتلهم، ومنهم من يخدعه فيثنيه عما سير لأجله»[11]، ولقد أخذ هذا الكلام ليعني أن سناناً وحده من بين قادة الحشيشية في سورية قد طرح جانباً سلطة أَلَموت، واتبع سياسة مستقلة تماماً، وهناك بعض التأييد لهذا الرأي في شذرات عقائدية حفظت حتى الوقت الحالي بين اسماعيلية سورية، حيث ليس فيها أية إشارات إلى أَلَموت، أو إلى رئيسها، أو إلى الأئمة النزارية، بل فيها إعلان بأن سنان نفسه هو القائد الأعلى، وهو رباني بالوقت نفسه.

وتتعامل معلوماتنا عن سياسات الحشيشية في ظل قيادة سنان مع عدد من الأحداث المحددة التي تورطوا بها وهي: المحاولتان ضد حياة صلاح الدين، اللتان تبعهما هجومه غير الحاسم على مصياف، والقتل والحريق في حلب، واغتيال كونراد أوف مونتفرات Conrad of Montferat، وما عدا ذلك هناك روايات غامضة حول رسائل تهديد إلى نور الدين وصلاح الدين، وإشارة من بنيامين التطيلي ـ الرحالة اليهودي من إسبانيا ـ عن حالة حرب في عام 1167 بين الحشيشية وبلاد طرابلس.

وكان ظهور صلاح الدين مقيماً لوحدة المسلمين وأهل السنة، وبطلاً للجهاد، قد كسبا له في البداية مركز العدو الرئيسي للحشيشية، وحتما جعلهم هذا يميلون إلى أخذ نظرة فيها محاباة أكبر للحكام من أسرة زنكي في حلب والموصل، الذين كانوا الآن الخصوم الرئيسيين لصلاح الدين، وقد اتهم صلاح الدين في رسالة بعثها إلى الخليفة في بغداد عام 1181، حكام الموصل بأنهم كانوا على ميثاق مع الحشيشية الهراطقة، وأنهم يستخدمون وساطتهم لدى الفرنجة الكفار، وتحدث عن وعدهم الحشيشية بقلاع وأراضي وبيت للدعوة في حلب، وأنهم بعثوا رسلاً إلى كل من سنان وإلى الصليبيين، وشدد على أهمية دوره كمدافع عن الإسلام ضد الأخطار الثلاثة المثلة: بكفر الفرنجة، وهرطقة الحشيشية، وخيانة الزنكيين، هذا وتأثر كاتب السيرة الاسماعيلية لسنان نفسه بالمثل الأعلى للعصور المتأخرة للجهاد، فصور بطله معاوناً لصلاح الدين في الصراع ضد الصليبيين.

وكل من هذين التصريحين يمكن أن يكون صحيحاً، لتواريخ متنوعة، ومع أن رواية صلاح الدين عن درجة التعاون بين خصومه، ربما كان مبالغاً فيها من أجل التشهير بالزنكيين، كان طبيعياً بما فيه الكفاية، أنه توجب على أعدائه المتنوعين أن يركزوا في البداية هجماتهم عليه، بدلاً من توجيهها ضد بعضهم بعضاً، وهنا قد نجد القصة الغريبة التي حكاها وليم الصوري، عن اقتراح حشيشي لاعتناق النصرانية، ربما من الممكن أن تعكس وجود تقارب أصيل بين سنان ومملكة القدس.

وحدثت المحاولة الأولى للحشيشية ضد حياة صلاح الدين في كانون الأول لعام 1174، أو كانون لعام 1175، عندما كان يحاصر مدينة حلب، وتبعاً لما حكاه أصحاب سير صلاح الدين أرسل كمشتكين، الذي كان متحكماً بالبلد، نيابة عن الطفل الزنكي وباسمه، الذي كان حاكمها الاسمي، رسولاً إلى سنان، مانحاً إياه أراضي وأموال، مقابل اغتيال صلاح الدين، وولج المرسلون من قبل سنان إلى معسكر صلاح الدين في يوم شتاء بارد، ولكن أمكن التعرف عليهم، وكشفوا من قبل أمير أبو قبيس، الذي كان جاراً لهم، فحاول استجوابهم فقتل في الحال، وقتل إثر ذلك كثير من الناس في المعمعة التي نشبت، لكن صلاح الدين نفسه لم يخدش، وقرر سنان في السنة التالية القيام بمحاولة أخرى، وفي الثاني والعشرين من أيار لعام 1176 هاجمته مجموعة من الحشيشية تموهوا بأزياء عساكر من جيشه، وانقضوا عليه بالسكاكين عندما كان يحاصر اعزاز، وبفضل سابغته نال صلاح الدين جراحاً سطحية فقط، ولقي المهاجمون جزاءهم ومصرعهم على أيدي أمراء صلاح الدين، الذين سقط عدد منهم في العراك، وعزت بعض المصادر هذه المحاولة الثانية أيضاً إلى تحريض كمشتكين، وتبنى صلاح الدين بعد هذه الأحداث احتياطات متقنة، فكان ينام في برج خشبي بني له خصيصاً، ولم يكن يسمح لأحد لم يعرفه شخصياً بالاقتراب منه.

وفي حين أنه بلا ريب، لم يكن أمراً مستبعداً، أو غير ممكن، أن راشد الدين سنان كان على اتفاق مع كمشتكين، عندما أعدّ هاتين المحاولتين ضد حياة صلاح الدين، لكن من المستبعد قبول أن تحريض كمشتكين كان المحرك الرئيسي، والذي من الممكن قبوله، هو أن سناناً قبل المساعدة من كمشتكين، إنما وهو يعمل لأسباب خاصة به، فربح بذلك فوائد تكتيكية ومادية، ومن الممكن اعتماد تقديرات مماثلة وتطبيقها على التصريح الذي ورد في

رسالة أرسلت من قبل صلاح الدين من القاهرة في عام 1174، بعث بها إلى الخليفة، أفاد فيها أن قادة المؤامرة المحبطة التي قامت في مصر، في ذلك العام ضده ولصالح الفاطميين، كانوا قد كتبوا إلى سنان مشددين على إيمانهم العام، وقد حثوه على القيام بعمل ما ضد صلاح الدين، وصحيح أن النزارية الاسماعيلية في سورية وإيران لم يدينوا بالولاء لأواخر الفاطميين في القاهرة، وعدّوهم مغتصبين، ولكن أن تطلب العناصر الفاطمية مساعدة حشيشية سورية، أمر يمكن تصوره وتقبله إلى حد ما، فقبل قرابة النصف قرن، سلف للخليفة الآمر أن حاول إقناعهم بقبول قيادته، ولكن النزارية رفضوا، وسقط الآمر ضحية لسكاكينهم، هذا وإنه ليس أمراً مستبعد ـ لأسباب تكتيكية أيضاً ـ أن سناناً كان على استعداد للتعاون مع المتآمرين المصريين، مع أنه مستبعد التصور أن يكون قد تابع العمل في سبيل مصالحهم، بعد السحق الحاسم لمؤامرتهم في مصر، والذي هو أقرب إلى التصور في أن يكون سبباً مباشراً لصنيع سنان ضد صلاح الدين، يمكن العثور عليه، في رواية حكيت من قبل مؤرخ متأخر، مع أنها لم ترو من قبل أي من المصنفين المعاصرين ممن وصلتنا كتاباتهم، وتبعاً لهذه الرواية أغار في عام 1174 ـ 1175 عشرة آلاف من النبوية ـ تنظيم ديني ضد الشيعة في العراق ـ على المراكز الاسماعيلية في الباب وبزاعة، حيث قتلوا ثلاثة عشر ألف اسماعيلي، وأخذوا غنائم كثيرة وأسرى عديدين، وأرسل صلاح الدين مستفيداً من التخبط الذي وقع فيه الاسماعيلية جيشه ضدهم، وأغار على سرمين، ومعرة مصرين، وجبل السماق، فقتل أكثر السكان، ولسوء الحظ لم يقل المؤرخ أي شهر وقعت هذه الأحداث، ولكن إذا كانت غارة صلاح الدين قد نفذت كما يظهر عندما كان جيشه على طريقه شمالاً نحو حلب، فذلك يمكن أن يساعد على تفسير عداوة الحشيشية تجاهه، هذا وإنه حتى من دون هذا التفسير، إنه لمن الواضح ـ على كل حال ـ أن ظهور صلاح الدين بمثابة صاحب القوة العظمى في سورية، مع سياسة توحيد إسلامية، كان كافياً لجعله خصماً خطيراً(*).

(*) من المرجح أن هذه الواقعة كانت في رمضان سنة 570هـ/ نيسان 1175م، وأقدم من ذكرها معاصرها المؤرخ الجزري ابن الأزرق الفارقي (510 ـ 572هـ/ 1116 ـ 1176م) في تاريخ آمد وميافارقين (قسم الأراتقة في الموسوعة الشامية ج11، ص 314، الذي نشر من قبلي للمرة الأولى) قال ابن الأزرق: «وكان سيف الدين غازي ـ صاحب الموصل ـ قد أحضر من نصيبين رأساً من رؤوس النبوية، وأمر بصلبه فصلب، فهاشت النبوية، وخرجوا من بلد الموصل، ونصيبين وبلدها، وساروا طالبين بالعدة إلى صلاح الدين، واجتازوا بالخابور، فتبعهم خلق كثير من الخابور وطرف الفرات، وعبروا فلما =

وفي بحث عن انتقام زحف صلاح الدين في آب لعام 1176 ، ضد أراضي الحشيشية ، فألقى الحصار على مصياف ، وهناك روايات مختلفة حول الظروف التي أدت إلى انسحابه ، فعماد الدين كاتب صلاح الدين ومؤرخه الذي نقلت عنه معظم المصادر العربية الأخرى ، قد عزا ذلك إلى توسط أمير حماة ، خال صلاح الدين ، الذي رجاه جيرانه من الحشيشية من أجل الوساطة ، وأضاف صاحب ترجمة آخر سبباً أكثر اقناعاً ، وهو هجوم الفرنجة على وادي البقاع ، وما نجم عن ذلك من ضرورة ملحة لوجود صلاح الدين هناك ، وفي تاريخ حلب لكمال الدين ، لقد كان صلاح الدين هو الذي طلب توسط أمير حماة ، وسأل من أجل السلام ، وكان ذلك ـ كما يبدو ـ نتيجة للإرهاب الذي فرضته تكتيكات الحشيشية ، وفي الرواية الاسماعيلية ، ارتعب صلاح الدين من قوة سنان الخارقة ، وتشفع أمير حماة لصالحه ، وتوسل لدى سنان حتى يغادر سالماً ، وقبل صلاح الدين بالانسحاب ، وأعطاه سنان أماناً ، ومن ثم غدا الاثنان أحسن الأصدقاء ، وبديهي أن الرواية الاسماعيلية مثقلة بالأسطورة ، إلاّ أنها ـ كما يبدو ـ حوت عنصر الصدق التالي : إن نوعاً من الاتفاق قد تم التوصل إليه ، ذلك أنه من المؤكد أننا لم نعد نسمع بأي عمل ظاهر للحشيشية ضد صلاح الدين ، بعد الانسحاب من مصياف ، لا بل أكثر من هذا ، هناك بعض الإشارات إلى التواطؤ .

وروى المؤرخون عدداً من القصص ، كان القصد منها تفسير ، وربما تسويغ تغاضي صلاح الدين عن الحشيشية ، فقد قيل : أرسل السلطان في إحدى المناسبات رسالة تهديد

= وصلوا إلى قرية تسمى باب بزاعه على باب حلب ، وجميع من فيها اسماعيلية ، وبين النبوية والاسماعيلية عداوة عظيمة ، فلما أشرفوا بذلك الجمع صاح جميعهم وكبروا ، فقتلوا منهم ونهبوا بعض مالهم ، واختفى منهم جماعة في مغاير لهم .
واتفق أن جماع من التركمان سمعوا بعبور النبوية فتبعوهم طمعاً فيهم ، فلما وصلوا إلى الباب ورأوا ما جرى شدوا جميعهم وصاحوا وصاحت النبوية على أهل الباب ونهبوا وسبوا منهم جماعة ، ودخلوا في المغائر ، فدخنوا عليهم ، وجلسوا على أبواب المغائر ، وكل من خرج منهم قتل ، وتلف أكثرهم في المغائر ، وسبوا النساء والأطفال ، واجتمع إليهم خلق كثير من منبج ، وبزاعه ، وجميع الذين حولهم إلى باب حلب ، وقتلوا ونهبوا وسبوا منهم بحيث لم يبق منهم أحد ، ومر الجميع تحت السيف والقتل والسبي ، ونهب منهم ما لا يحصى ، وبقيت تلك الصحراء مدة لا يستطيع أحد يعبر من بين تلك الجيف ، ولقد حدثني جماعة من الواردين من الشام أنهم كانوا يعبرون وهم قتلى ، على كل ستين وتسعين في موضع ، بعضهم فوق بعض مثل الغنم ، وجرى عليهم ما لم يجر على أحد» .

إلى مقدم الحشيشية، فكان جوابه كما يلي: «وقفنا على تفصيله وجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله، وبالله التعجب من ذبابة تطن في إذن فيل، وبعوضة تعض في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون، فدمرنا عليهم وما كان لهم ناصرون، أو للحق تدحضون، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [القرآن الكريم: 26/ الآية 22]، ولئن صدر قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك آمال كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض، وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن والمعقولات، فلنا في رسول الله أسوة حسنة لقوله: «ما أوذي نبي ما أوذيت»، وقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال، والأمر مازال، ولله الحمد في الآخرة والأولى، إذ نحن مظلومون لا ظالمون، ومغصوبون لا غاصبون، وإذا ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [القرآن الكريم: 17/ 81] وقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، وما يتمنونه في الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت، قل ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [القرآن الكريم: 62/ 6]، وفي أمثال العامة السائرة: أو للبط تهددون بالشط، فهيء للبلايا أسباراً، وتدرع للرزايا جلباباً، فلأظهرن عليك منك، ولأنتقمنّ منك عندك، وتكون كالباحث عن حتفه بظلفه ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [القرآن: 14/ 20]، فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، ومن حالك على اقتصاد، واقرأ أول النحل، وآخر صاد»[12].

وهناك حكاية أخرى هي حتى أكثر ادهاشاً مما تقدم، رواها كمال الدين قال: «وحدثني أخي رحمه الله أنه (أي سنان) سير رسولاً إلى صلاح الدين رحمه الله، وأمره أن لا يؤدي رسالته إلاّ في خلوة، ففتشه فلم يجد معه ما يخافه، فأخلي له المجلس، ولم يبق إلاّ نفر يسير، وطلب منه أداء الرسالة فقال: أمرني أن لا تؤدى رسالته (إلاّ في خلوة)، فأخلي المجلس، ولم يبق سوى مملوكين، فقال: قل رسالتك، قال: أمرت أن لا أقولها إلاّ في خلوة، فقال: هؤلاء ما يخرجوا من عندي، فإن أردت أن تذكر رسالتك وإلاّ ارجع، فقال: لم لا تخرج هؤلاء كما أخرجت غيرهم؟ قال: لأن هؤلاء عندي مثل أولادي، وأنا وهم شيء واحد، فالتفت الرسول إليهما وقال لهما: إذا أمرتكما عن مخدومي، بقتل هذا السلطان تقتلوه؟ قالا: نعم، وجذبا سيفيهما، وقالا: مرنا بما شئت، فبهت السلطان

صلاح الدين رحمه الله، وخرج الرسول وأخذهما معه، فعند ذلك جنح صلاح الدين رحمه الله إلى صلحه، والدخول في مرضاته، والله أعلم»[13].

وكان المقتول التالي في 31 ـ آب لعام 1177 هو شهاب الدين ابن الأعجمي وزير الصالح، الملك الزنكي في حلب، ووزير سالف لنور الدين بن زنكي، وعُزي هذا الاغتيال ـ الذي ترافق مع محاولات مخفقة ضد اثنين من أتباع الوزير ـ من قبل المؤرخين السوريين إلى دسيسة كمشتكين الذي زيف توقيع الملك الصالح على رسالة إلى سنان يسأله بها أن يرسل قتلة، والمستند في هذه القصة، هو اعتراف الحشيشية الذين ادعوا عندما سئلوا، بأنهم كانوا فقط ينفذون أوامر الملك الصالح نفسه، وكشفت هذه الخدعة فيما بعد، كما قيل في مجرى مراسلة تالية بين الملك الصالح وسنان، فاغتنم أعداء كمشتكين الفرصة للتعجيل بإسقاطه، ومهما كان مدى الصدق في هذه القصة، فإن موت الوزير، وما أعقبه من تنافر، وانعدام الثقة، لابد وأنها أمور كانت مرحب بها من قبل صلاح الدين.

واستمر النزاع بين حلب وبين سنان، ففي عام 1179 ـ 1180، استولى الملك الصالح على الحَجيرا وانتزعها من الحشيشية، ولم تأت احتجاجات سنان بنتيجة، وبناء عليه أرسل رجاله إلى حلب، حيث أشعلوا النار في الأسواق، وسببوا دماراً كبيراً، ولم يعتقل ولا واحد من مسببي الحريق، وهذه حقيقة تدلل على أنهم كانوا ما يزالون في وضع يسيطرون به على مساندة محلية في المدينة.

وفي الثامن والعشرين من نيسان لعام 1192، قاموا في صور بتنفيذ ضربتهم الكبرى، باغتيال المركيز كونراد أوف مونتفرات المرشح ليكون ملكاً على القدس، وتتفق معظم المصادر على أن القتلة قد موهوا أنفسهم في زي رهبان مسيحيين، وتدبروا أمورهم حتى نالوا ثقة الأسقف والمركيز، ثم عندما تهيأت الفرصة، طعنوه فأردوه، وروى مبعوث صلاح الدين في صور، أنه عندما وضع الحشيشية للاستجواب اعترفوا بأن ملك إنكلترا قد حرض على الاغتيال، وفي نظر شهادة معظم المصادر الشرقية، وبعض المصادر الغربية، يبدو أن هناك قليلاً من الشك، من أن شيئاً ما من هذا النوع من الاعترافات قد عمل بالفعل، وكان من البديهي أن يهتم رتشارد باختفاء المركيز، فالسرعة المريبة التي تزوج بها صنيعته الكونت هنري أوف شامبين Henry of Champagne من أرملة كونراد، ومن ثم استخلافه لتولي عرش المملكة اللاتينية، تعيد التلوين إلى القصة، فالإنسان

يستطيع مباشرة أن يفهم أنها قد وجدت رواجاً واسعاً وتصديقاً في ذلك الوقت، ولكن هل أخبر الحشيشية بالصدق عندما اعترفوا، أولاً؟ تلك مسألة أخرى، وذكر ابن الأثير مؤرخ الزنكيين ـ والذي ينبغي عمل حساب لعدم محبته لصلاح الدين، علاوة مناسبة ـ أن عزو العملية لتحريض رتشارد لم يكن سوى اعتقاد راج بين صفوف الفرنجة، وسمى هو صلاح الدين وجعله المحرض، لا بل إنه ذكر معرفته بمبلغ المال الذي جرى دفعه إلى سنان من أجل هذه العملية، وبين أن الخطة كانت على أساس قتل كل من رتشارد نفسه وكونراد، لكن تبرهن أن قتل رتشارد كان أمراً مستحيلاً، ونسب صاحب الترجمة الاسماعيلية المبادرة إلى سنان، مع موافقة وتعاون مسبقين مع صلاح الدين، ولكن هنا أيضاً ينبغي عمل علاوة لرغبة الكاتب البديهية، في أن يبرز بطله معاوناً مخلصاً لصلاح الدين في الجهاد، وأضاف هذا الكاتب معلومات مستبعدة ذهبت إلى أن صلاح الدين قد منح الحشيشية كثيراً من الامتيازات من ضمنها الحق، بإقامة بيوت دعوة في القاهرة، ودمشق، وحمص، وحماة، وحلب، ومدن أخرى، وجاء ذلك كله بمثابة مكافأة لهذا الصنيع، ومن هذه القصة ربما يمكننا استخلاص تذكر مبالغ فيه، لبعض من اعتراف محدد، جرى منحه للحشيشية من قبل صلاح الدين في حقبة ما بعد الاتفاق في مصياف، هذا وأخبرنا من جهة أخرى عماد الدين بأن القتل لم يكن مناسباً لصلاح الدين، لأن كونراد، وإن كان واحداً من قادة الصليبيين، كان عدواً لرتشارد الأعظم خطورة، كما أنه كان على اتصال مع صلاح الدين في وقت موته، ثم إن موت كونراد قد حرر رتشارد من القلق، وشجعه على استئناف العدوان، وبعد أربعة أشهر وقع هدنة مع صلاح الدين، شملت فيما شملته بلاد الحشيشية، وذلك بناء على طلب صلاح الدين.

وكان اغتيال كونراد آخر نجاحات سنان، ففي عام 1192 ـ 1193، أو عام 1193 ـ 1194، مات شيخ الجبل المروع والواسع الصيت نفسه، وخلفه بعد موته واحد إيراني اسمه نصر، ويبدو أن سلطات أَلَموت قد استعيدت مع المقدم الجديد، وبقيت ثابتة غير مهزوزة حتى ما بعد الاستيلاء المغولي، هذا وأسماء عدد من رؤساء الدعاة في مختلف التواريخ هي معروفة بالنسبة لنا من المصادر الأدبية، ومن النقوش في المراكز الاسماعيلية في سورية، قد وردت الإشارة إلى معظمهم بصورة مؤكدة، أنهم كانوا مبعوثين لأَلَموت.

وكرعايا لأَلَموت، تأثر حشيشية سورية أيضاً بالسياسة الجديدة لجلال الدين حسن الثالث في استعادة الشريعة، والتحالف مع الخليفة في بغداد، ففي عام 1211، أرسل

صاحب أَلَموت رسائل إلى سورية، أمر فيها أتباعه السوريين ببناء المساجد، وأن يؤدوا الصلوات الشرعية، وأن يتجنبوا الشراب والمخدرات والأشياء المحرمة الأخرى، وأن يلتزموا بالصوم، وبكل فرائض الشريعة.

وقليل الذي هو معروف حول كيف أثر «الإصلاح» في الاعتقاد وفي الممارسة الدينية للحشيشية، ومهما يكن الحال، يبدو أن التحالف مع الخليفة قد أثر على أعمالهم ونشاطاتهم، لأنه من المدهش أنه لم تسجل في سورية أثناء وجود أعداء الإسلام أية اغتيالات أخرى ضد مسلمين، بينما بقي عدد من الصليبيين ليسقطوا، وكان أول هؤلاء ريموند بن بوهيموند الرابع Bohemond صاحب أنطاكية، الذي قتل في الكنيسة في طرطوس في 1223، وقام والده وهو متعطش للثأر بإلقاء الحصار على قلعة الخوابي، وقام الحشيشية وهم بشكل واضح على وفاق مع خلفاء صلاح الدين - فاستغاثوا بحاكم حلب من أجل المساعدة، فأرسل حملة للتفريج عنهم، لكن عساكره عانت من انتكاسة على أيدي الفرنجة، فاستغاث هو بدوره بزميله صاحب دمشق، فأرسل جيشاً أرغم العدو على رفع الحصار والانسحاب.

وفي الوقت نفسه، وجد مقدموا الحشيشية طريقاً لتحويل سمعتهم إلى رصيد جيد، فتحت التهديد بالاغتيال أخذوا عنوة أتاوات من كل حكام المسلمين والصليبين، لا بل حتى من الزوار المؤقتين إلى غربي سورية، ففي عام 1227 - تبعاً لمصدر عربي - استقبل داعي الدعاة مجد الدين سفراء من الامبراطور فريدريك الثاني Frederick II، الذي قدم إلى سورية في حملة صليبية، جلبوا معهم هدايا تبلغ قيمتها ما يقارب الثمانين ألف دينار، وبحجة أن الطريق إلى أَلَموت كان خطراً جداً، بسبب عيث الخوارزمية، احتفظ مجد الدين بالهدايا في سورية، وقام هو نفسه فأعطى الامبراطور الأمان الذي طلبه، واتخذ في الوقت نفسه، الحيطة بإرسال سفير إلى حاكم حلب، أعلمه بسفارة الامبراطور، وذلك في سبيل ضمان عمل متوافق.

ويمكن للخطر الخوارزمي، أن يفسر حدثاً آخر - قيل كان قد وقع من قبل في العام نفسه - وتبعاً لهذه القصة: أرسل مجد الدين مبعوثاً إلى سلطان سلاجقة الروم في قونيه ليقول بأن الألفي دينار، وهي مبلغ الأتاوة السنوية المنتظمة، التي أرسلها السلطان فيما مضى إلى أَلَموت، ينبغي الآن أن ترسل إليه، وقام السلطان، وهو متشكك بعض الشيء،

فأرسل رسولاً إلى أَلَموت، ليأخذ رأي جلال الدين، فأكد صاحب أَلَموت، بأنه قد عين هذه الأموال لسورية، وأوعز إلى السلطان بدفعها، فدفعت.

وفي حوالي الوقت نفسه بات الحشيشية أنفسهم، دافعي أتاوة إلى فرسان الاسبتارية، وذكر مؤرخ عربي بعثة الامبراطور طلب الاسبتارية الجزية من الحشيشية، فرفضوا قائلين: «ملككم الامبراطور يعطينا، وأنتم تأخذون منا؟ وعندها هاجمهم الاسبتارية، وحملوا معهم كثيراً من الغنائم»، ولا يوضح هذا النص فيما إذا كانت الأتاوة إلى الاسبتارية قد بدأت من تاريخ هذه الحادثة أم كانت موجودة من قبل[14].

ولقد أعطيت إشارة مفيدة من قبل ابن واصل ـ الذي كان هو نفسه من أهالي وسط سورية ـ عن المدى الذي أصبح الحشيشية فيه جزءاً معترفاً به، لا بل حتى مقبولاً من قبل المسرح لسورية للسياسة، ففي عام 1240، جلب بدر الدين، قاضي سنجار، على نفسه غضب السلطان الجديد، وأثناء فراره نشد، وتسلم مأمناً من الحشيشية، وكان مقدمهم في ذلك الوقت إيرانياً، قد جاء من ألموت، واسمه تاج الدين، ولم يتردد ابن واصل في أن أضاف بأنه كان يعرفه شخصياً، وأنه كان على صلة للصداقة معه، وورد اسم تاج الدين هذا نفسه في نقش مصيافي مؤرخ في ذي القعدة سنة 646 (شباط أو آذار 1249).

وبقيت مجموعة واحدة من الأحداث، تحتاج إلى التدوين، قبل الانقراض السياسي للحشيشية في سورية، وهي معاملاتهم مع القديس لويس، هذا وإن قصة مؤامرة الحشيشية ضد القديس لويس عندما كان ما يزال شاباً في فرنسا يمكن استبعادها، مثل القصص الأخرى عن أعمال الحشيشية في أوربا، وعدها رواية بلا أساس، ولكن الرواية التي أعطاها جوانفيل، صاحب سيرة القديس لويس عن معاملات الملك مع الحشيشية، بعد وصوله إلى فلسطين، هي من نوعية أخرى، وتحمل كل علامات الصحة، فقد وصل رسل الحشيشية إلى الملك وهو في عكا، وسألوه أن يدفع أتاوة إلى مقدمهم «كما يفعل كل سنة امبراطور ألمانيا وملك هنغاريا، وسلطان بابليون (مصر) وآخرون، لأنهم يعرفون جيداً أنهم يستطيعون العيش فقط بقدر ما يحب ويرضى»[15]، وبدلاً عن ذلك، إذا لم يود الملك دفع الأتاوة، فإنهم سوف يكونون راضين بإلغاء الأتاوة التي هم أنفسهم يدفعونها إلى الداوية (فرسان المعبد) والاسبتارية، ودفعت هذه الأتاوة كما أوضح جوانفيل، لأن هاتين الطائفتين لم تخشيا شيئاً من الحشيشية، لأنه إذا ما قتل مقدم من مقدميهم فإن آخر مثله في الجودة سوف يأخذ

مكانه على الفور، وفي سياق الأحداث تمت متابعة دفع الأتاوة إلى الطائفتين، وتبادل الملك الهدايا مع داعي الدعاة، ولقد كان في هذه المناسبة أن تمت مقابلة الراهب إيف البريتاني Friar Yves the Breton، الذي تكلم العربية، مع مقدم الحشيشية، وتحادث معه.

وجاءت نهاية قوة الحشيشية تحت الهجوم المضاعف للمغول ولبيبرس سلطان مصر المملوكي، ففي سورية ـ كما يتوقع الإنسان ـ اتحد الحشيشية مع المسلمين الآخرين في صد الخطر المغولي، وابتغوا نيل استحسان بيبرس ورضاه، بإرسال سفراء وهدايا، ولم يظهر بيبرس في البداية عداوة ظاهرة نحوهم، وأثناء منحه الهدنة للاسبتارية في عام 1266، اشترط عليهم أن يلغوا الأتاوات التي كانوا يأخذونها من مختلف المدن والمقاطعات الإسلامية، بما في ذلك قلاع الحشيشية، التي قدرت أتاوتها من قبل مصدر مصري بألف ومائتي دينار، ومائة مدّ من القمح والشعير، وبحكمة أرسل الحشيشية سفارات إلى بيبرس يعرضون عليه تقديم الأتاوة التي كان عليهم دفعها من قبل إلى الفرنجة، وذلك من أجل استخدامها في الجهاد.

ولكن بيبرس الذي كان شاغل حياته تحرير الشرق الأدنى الإسلامي من الخطر المزودج للصليبيين الفرنجة، والكفار المغول، كان من غير الممكن أن يتوقع منه أن يتغاضى عن استمرار استقلال بؤرة خطرة من الهراطقة والقتلة في صميم قلب سورية، وقد روى صاحب سيرته أنه قام منذ التاريخ المبكر لعام 1260 بتعيين أراضي الحشيشية ومنحها إقطاعاً إلى واحد من قادته، وفي عام 1265، أمر بجمع الضرائب والمكوس من «الهدايا» التي جلبت إلى الحشيشية، من مختلف الأمراء الذين دفعوا الأتاوة لهم، وكان بينهم كما ورد في الروايات «الأنبرور (الامبراطور) والفنش (ألفونسو Alfonso) وملوك الفرنج وملك اليمن»[16]، وضعف الحشيشية في سورية، وأصابهم الهلع نتيجة لحتف إخوانهم الإيرانيين، ولم يكونوا في وضع قادرين فيه على المقاومة، فقبلوا بخنوع بهذا الإجراء، ودفعوا هم أنفسهم الجزية لبيبرس، الذي ما لبث أن حل هو فعلياً محل صاحب الَموت الذي هوى، فعينهم وصرفهم حسبما أراد.

ففي عام 1270، كان بيبرس غير راض عن ميول المقدم العجوز نجم الدين، فقام بعزله وعين في مكانه صهره صارم الدين مبارك الذي كان أكثر تجاوباً، والذي كان أيضاً الحاكم الحشيشي للعليقة، وشغل المقدم الجديد منصبه بمثابة ممثل لبيبرس، لكن جرى

حرمانه من مصياف، التي صارت تحت الحكم المباشر لبيبرس، لكن صارم الدين ما لبث أن حصل على مصياف وتملكها من خلال استخدام الخديعة، ولهذا اقتلعه بيبرس، وبعث به سجيناً إلى القاهرة، حيث مات ـ ربما مسموماً ـ وأعيد الآن تعيين نجم الدين، الذي سلف طرده، وذلك بالاشتراك مع ابنه شمس الدين، وكان ذلك مقابل جزية سنوية، وورد اسميهما في نقش في جامع القدموس، من حوالي هذا التاريخ.

وفي شباط أو آذار لعام 1271، ألقى بيبرس القبض على اثنين من الحشيشية، حيث اتهما بأنهما قد أرسلا لاغتياله، ولقد قيل بأنهما ذهبا من العليقة إلى بوهيموند السادس صاحب طرابلس، فرتب لهما القيام باغتيال السلطان، وألقى القبض أيضاً على شمس الدين، واتهم بالاتفاق السري مع الفرنجة، ولكن أطلق سراحه بعد أن جاء والده نجم للدفاع عن براءته، وأطلق سراح الاثنين اللذين كانا سيكونان قتلة، وتحت الضغط وافق القائدان الاسماعيليان على تسليم قلاعهما، والعيش في بلاط بيبرس، ورافق نجم الدين بيبرس، وتوفي في القاهرة في أوائل عام 1274، ثم سمح لشمس الدين بالعودة إلى الكهف، لترتيب أمورها، وما أن صار هناك حتى بدأ في تنظيم مقاومة، ولكن عبثاً، ففي مايس وحزيران لعام 1271، استولى قادة بيبرس، بعد أن علم بأنباء مؤامرة لاغتيال بعض أمرائه، بإخراج شمس الدين وجماعته إلى مصر، وتوبعت أعمال حصار القلاع، فسقطت الخوابي في العام نفسه، ومع عام 1273 جرى احتلال بقية القلاع جميعها.

ومع خضوع الحشيشية لبيبرس، يبدو أن خدماتهم البارعة، صارت تحت تصرفه، فمنذ تاريخ مبكر هو نيسان عام 1271، ورد أن بيبرس كان قد هدد كونت طرابلس بالاغتيال، والمحاولة ضد الأمير إدوارد Edwrad ابن ملك انكلترا في عام 1272، وربما أيضاً اغتيال فيليب أوف مونتفورت Philip of Montfort في صور في عام 1270، كانا قد دسا من قبله، وتحدث بعض المؤرخين المتأخرين أيضاً عن استخدام الحشيشية من قبل سلاطين المماليك للتخلص من بعض الخصوم المزعجين وإزاحتهم، حتى أن ابن بطوطة الرحالة المغربي في القرن الرابع عشر، قدم وصفاً لهذه الترتيبات بقوله: «وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له، أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتي ما يراد منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده، ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله، وربما لم تصح حيلهم فقتلوا»[17].

ومثل هذه القصص، من المحتمل أنها كانت نتاج أسطورة وتوجسات، وهي ليست أكثر أهمية من القصص التي كانت تروى بعيداً في الغرب عن اغتيالات أعدت من شيخ الجبل لأمراء أوربيين، وذلك بناء على دفع، وبعد القرن الثالث عشر ليس هناك أية اغتيالات صحيحة إضافية قام بها حشيشية سورية لحساب الطائفة، فمنذ ذلك الحين ركدت الاسماعيلية، وباتت مجرد أقلية متطرفة في إيران وفي سورية، مع قليل ـ أو من دون أي ـ من الأهمية السياسية، ووقع في القرن الرابع انشقاق في سلسلة الأئمة النزارية، فتبع الاسماعيليون والإيرانيون كل على حده أدعياء مختلفين، ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً انقطعوا عن الاتصال ببعضهم، وفي القرن السادس عشر جرى بعد الاستيلاء العثماني على سورية أول عملية مسح وتسجيل للأرض والسكان لصالح العثمانيين، وتناولت قلاع الدعوة، التي تكونت من مجموعة من القرى غربي حماة، كان من ضمنها عدد من المراكز القديمة والشهيرة مثل القدموس والكهف، وأنها مسكونة من قبل أتباع طائفة غريبة تميزوا فقط، بحقيقة أنهم كانوا يدفعون ضريبة خاصة[18]، ولم يعد هؤلاء إلى الظهور على صفحات التاريخ حتى أوائل القرن التاسع عشر، عندما ورد ذكرهم في صراعات عادية مع حكامهم، ومع جيرانهم، وبين بعضهم بعضاً، ومنذ منتصف القرن استقروا بمثابة مزارعين مسالمين في مركزهم في السلمية، التي هي مقر للسكنى جديد انتزع بوساطتهم من البادية، ويبلغون في الوقت الحاضر زهاء مائة وخمسين ألفاً، قد قبل أكثرهم، لكن ليس الجميع، الآغا خان إماماً لهم.

الفصل السادس
وسائل وغايات

لم يخترع حشيشية الاسماعيلية الاغتيال، هم فقط أعاروه اسمهم (في اللغات الأوربية)، والقتل من هذا النوع قديم قدم الجنس البشري، ففي العصور القديمة هناك مثل صارخ في الإصحاح الرابع من سفر التكوين، حيث ظهر القاتل الأول والضحية الأولى أخوين أبناء الرجل والمرأة الأولين، وجاء الاغتيال السياسي مع ظهور السلطة السياسية، وذلك عندما انحصرت السلطة في شخص واحد، وبدا أن إزاحة ذلك الفرد هي طريقة سريعة وبسيطة من أجل إحداث تغيير سياسي، وكان الدافع لمثل هذه الاغتيالات، بالعادة إما دافع شخصي، أو حزبي، أو أسروي، من أجل استبدال فرد أو حزب، أو أسرة بأخرى، في حيازة السلطة، وعمت مثل هذه الاغتيالات في الملكيات المطلقة، والامبراطوريات في كل من الشرق والغرب.

وفي بعض الأحيان جرى تصور الاغتيال - من قبل آخرين وكذلك من قبل القتلة - بمثابة واجب، وتم تسويغ ذلك بحجج عقائدية، فالضحية هو طاغية أو مغتصب، وأن تقتله فذلك فضيلة، وليس جريمة، وكان من الممكن التعبير عن مثل هذا التسويغ العقائدي من خلال اصطلاحات سياسية أو دينية، وكان في كثير من المجتمعات هناك فارق ضئيل بين الاثنين، ففي أثينا تآمر صديقان هما: هارموديوس Harmodius وأرسطوجيتون Arstogeiton على قتل الطاغية هبياس Hippias، فنجحا فقط في قتل أخيه وشريكه في الحكم، وأعدما معاً، وبعد سقوط هبياس أصبحا بطلين شعبيين، جرى تخليدهما في نصب وأناشيد، وتمتع أبناؤهما بالامتيازات والاعفاءات، وهكذا عدت عقيدة اغتيال الطغاة جزءاً من سمات السياسة لكل من اليونان وروما، ووجدت تعبيراً عنها في اغتيالات كثيرة، مثل تلك التي تناولت فيليب الثاني Philip II المقدوني، وتايبروس غراكوس

Tiberas Gracchus ، ويوليوس قيصر Jaliaus Caeser ، وظهرت العقيدة نفسها بين اليهود ، في شخصيات مثل إهود Ehud ، وياهو Jehu ، وأكثر إثارة في حكاية الجميلة يهوديت Judith ، التي أخذت سبيلها إلى خيمة الظالم هولوفيرنا Holoferna ، وقطعت رأسه بعدما نام ، وقد كتب سفر يهوديت في حقبة الحكم الهلنستي ، وقد بقي فقط في نص إغريقي ، لأن اليهود المحافظين رفضوه ، وعدوه نصاً غير قانوني (أبوكريفاوي Apocryphal) وهو على كل حال موجود ضمن النص المعترف به من قبل الكنيسة الكاثوليكية ، ولقد ألهم عدداً كبيراً من الرسامين والنحاتين ، ومع أن يهوديت ليس لها مكان في التقاليد الدينية لليهود ، فقد عاشت عقيدة الاغتيال الورعي التي مثلتها لتلهم السيكاري Sicarii المشهورين ، أو رجال الخناجر ، الذين كانوا فئة من القنائين Zealots الذين ظهروا حوالي وقت سقوط القدس (للرومان) ، فدمروا بتعبد كل الذين عارضوهم أو اعترضوا سبيلهم .

وكان اغتيال الملوك عملياً وعقائدياً معروفاً منذ أوائل التاريخ السياسي للإسلام ، فثلاثة من بين الخلفاء الراشدين الأربعة ، الذين خلفوا النبي ﷺ ، في رئاسة الجماعة الإسلامية اغتيلوا ، فعمر بن الخطاب الخليفة الراشدي الثاني طعن من قبل عبد نصراني ، قيل إنه كان صاحب مظلمة خاصة به ، وعندما علم الخليفة وهو على فراش الموت بهذا ، حمد الله أنه لم يقتل من قبل واحد من المؤمنين ، ولكن حتى هذه المأساة أنكرت على خليفتيه : عثمان وعلي ، اللذين صرعاً من قبل مسلمين عرب ، حيث جرى الاغتيال الأول على يد عصابة من المتمردين الغاضبين ، أما الاغتيال الثاني فاقترف من قبل متعصب ديني ، وفي الاغتيالين معاً ، رأي المقترفون أنفسهم قتلة طغاة ، ومحررين للجماعة من حاكم منحرف ، وفي كلتا الحالتين وجدوا آخرين وافقوهم على ما ذهبوا إليه ، وسوغوا أعمالهم .

وتبلورت النتائج في مجرى الحرب الإسلامية الأهلية التي أعقبت موت عثمان ، فقد طلب معاوية حاكم سورية ، وقريب الخليفة المقتول ، معاقبة القتلة ، وكان علي الذي صار خليفة غير قادر ، أو ربما غير راغب بالاستجابة ، وادعى مؤيدوه تسويغاً لتراخيه ، بأنه لم يقترف أية جريمة ، فعثمان كان ظالماً ، وموته كان إعداماً وليس قتلاً[1] ، وبعد عدة سنوات استخدمت الحجج نفسها من قبل فرقة الخوارج المتطرفة لتسويغ اغتيال علي نفسه .

وتقدم التقاليد الإسلامية ـ إلى حد ما ـ إقراراً بمبدأ الثورة المسوغة، وبينما هي تعطي سلطةً مطلقة للحاكم، نجدها تسن بأن واجب الرعية في الطاعة، ينتهي عندما يكون الأمر إثماً، لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، وبحكم أنه لم تسن أية إجراءات لفحص رشد أمر ما، أو من أجل ممارسة الحق في عدم طاعة ذلك الذي هو إثم، كان المخرج الوحيد الفعال للمسلم الصحيح الطوية هو الثورة ضد الحكم، ومحاولة قلبه، أو عزله بوساطة القوة، والوسيلة الأكثر مواءمة هي إزاحة الحاكم بالاغتيال، وغالباً ما جرى التذرع بهذه القاعدة، خاصة من قبل الثوار الطائفيين، وذلك لتسويغ أعمالهم.

وفي الحقيقة، أصبح اغتيال الحكام بعد موت علي، ووصول معاوية إلى الحكم نادراً، وعندما وقع كان بالعادة أسروياً أكثر منه بإلهام ثوري، وعلى العكس ادعى الشيعة بأن أئمتهم مع أفراد آخرين من بيت آل النبي هم الذين اغتيلوا بتحريض من الخلفاء السنة، ويتضمن أدبهم قوائم طويلة بأسماء الشهداء العلويين الذين يدعو دمهم إلى الثأر.

وهكذا كان بإمكان الاسماعيلية لدى إرسالهم مبعوثيهم لقتل غير الصلحاء ومقربيهم التذرع بسنة إسلامية قديمة، ولقد كانت مجرد سنة، لكنها لم تكن متحكمة قط، وكانت قد عاشت لأمد طويل خامدة، لكن ظلت لها مكانتها، خاصة في داخل محيط النافرين المتمردين والطوائف المتطرفة.

وبالتأكيد أسهم الاعتقاد بضرورة قتل الطغاة، والواجب الديني لتخليص العالم من الحاكم غير الصالح، في مزاولة الاغتيال، حسبما جرى تبنيه واستعمل من قبل النزارية، ولكن كان عملاً هناك أكثر من ذلك، فالقتل من قبل الحشيشي لضحيته لم يكن عملاً تقوياً فقط، بل كان عملاً طقوسياً أيضاً، له في الغالب خصائص تقديم الأضاحي، وإنه لأمر بالغ الأهمية، أن الحشيشية واستعملوا دائماً في كل اغتيالاتهم، في كل من سورية وإيران السكين، ولم يستخدموا السم[2]، لم يستعملوا الرمايات، مع أنه لا بد وأنه كانت هناك فرص، كان فيها استخدام هذه الوسائل أسهل وأسلم، وغالباً ما ألقي القبض على منفذ عملية الاغتيال، وفي الحقيقة لم يقم هو عادة بمحاولة النجاة، بل كانت هناك إشارات أنه أن تعيش بعد تنفيذ مهمة كان عاراً، وتوضح كلمات مؤلف غربي من القرن الثاني عشر هذا الأمر بقوله: «لهذا عندما يكون أياً منهم قد اختار أن يموت حسب هذه الطريقة... يسلمهم هو نفسه (يعني المقدم) سكاكين يخيل إليك أنه مكرسة..»[3].

والتضحية بالإنسان، والقتل الطقوسي ليس لهما مكان في كل من الشرع الإسلامي أو في التقاليد والتطبيق، ومع ذلك فإنهما معاً قديمين وعميقين في جذورهما في المجتمعات البشرية، ودوماً من الممكن ظهورها في أماكن غير متوقعة، ومثلما نجد أن الرقص الطقوسي المنسي للعصور القديمة قد عاد ـ في تحد للعبادات الصارمة للإسلام ـ إلى الظهور في طقوس الوجد للدراويش الراقصين، مثل ذلك فعلت طقوس الموت القديمة، فوجدت تعابير جديدة في الاصطلاحات الإسلامية، ففي أوائل القرن الثامن، حدثنا المؤلفون المسلمون عن رجل كان اسمه أبو منصور العجلي الكوفي، ادعى أنه إمام، وبشر بأفكار أن فرائض الإسلام، ومبادئ الشريعة، هي ذات معنى رمزي، ولا تحتاج أن تطاع بالمعنى الحرفي، فليس للجنة والنار وجود منفصل، ولكنهما كانا السعادة والشقاء لهذه الدنيا بلا زيادة، ومارس أتباعه القتل بمثابة واجب ديني، هذا وعزيت عقائد مماثلة وممارسات مشابهة إلى معاصره وابن قبيلته المغيرة بن سعيد، وتم قمع الطائفتين من قبل السلطات، وإنه لمن الأهمية بمكان أن هاتين الطائفتين قد التزمتا في طقوس قتلهما بسلاح واحد، فقد خنقت الجماعة الأولى ضحاياها بالأوتار، وهشمت الثانية رؤوسهم بهراوات خشبية، لأنه فقط مع قدوم المهدي وظهوره سوف يُسمح باستخدام الحديد[4]، وهاتان الطائفتان قد انتميتا إلى الشيعة المغالية، والموازاة التي تقدمانها للاسماعيلين المتأخرين، والتماثل في كل من التفسير الباطني وطقوس السلاح هي صارخة.

وبحكم أن الاسماعيلية كانوا هم الأوصياء على الأسرار الخفية لعلوم الباطن والتأويل، ولأنهم كانوا الموردين لسبل النجاة من خلال معرفة الإمام، والحملة للوعد بإتمام قيام عهد المهدي، والتحرر من عناء الدنيا، ونير الشريعة، وهم على هذا جزء من تقاليد طويلة تعود إلى الوراء إلى بداية الإسلام، لا بل حتى إلى ما قبل ذلك، وتمضي إلى الأمام إلى يومنا، وهي تقاليد ذات طقوس شعبية وعاطفية تتباين تبايناً حاداً مع الديانة الشرعية والمقررة تعليمياً للنظام القائم.

وكان هناك قبل الاسماعيلية الكثير من الفرق والفئات من هذا القبيل، لكن فرقتهم كانت الأولى في إبداع منظمة مؤثرة وقادرة على الاستمرار، فكانت بهذا آية للأيام والأزمنة، ذلك أن جمعيات الفقراء والمستضعفين الماضية، كانت قد تبعثرت، ولم تكن ذات أهمية، ونادراً ما نالت الذكر المدون الذي هو وحده كفيل بجعلها معروفة بالنسبة

للمؤرخين، وفي المجتمع المشتت وغير الآمن للخلافة المتأخرة، نشد الناس الراحة والطمأنينة في أشكال من الجمعيات أكثر حداثة ومتانة، وأصبح هؤلاء أكثر عدداً، وأعظم اتساعاً، ووصلت من المستوى المنخفض إلى الوسطى لابل حتى إلى المستويات العليا للشعب، حتى أن الخليفة الناصر نفسه التحق أخيراً بواحدة من هذه الجمعيات في احتفال رسمي، وحاول أن يدخلها في هيكل الحكومة.

وكانت هذه الجمعيات مختلفة الأنواع، حيث كان بعضها بصورة رئيسية إقليمياً، تأسس على مدن أو مناطق، مع أعمال مدنية، وأمنية (شرطة)، أو حتى عسكرية، ومن الممكن أن بعضها قد حصل ـ في مجتمع غالباً ما تداخلت فيه الحرف مع جماعات محلية ـ أو عرقية، أو دينية ـ على دور اقتصادي، وغالباً ما كانت تظهر على شكل جمعيات فتيان أو أحداث، مع مراتب وطقوس من أجل تبيان الوصول إلى البلوغ والرجولة، وكان معظمها إخوانيات دينية، بمثابة أتباع للأولياء والطرق التي تأسست من قبلهم، وكانت صفاتها العامة تبني عقائد وتطبيقات عائدة إلى الديانة الشعبية وكانت غير موثوق بها من قبل أهل السنة، مع رباط وثيق للإخلاص للرفاق، وإخلاص كامل للقادة، ومع أنظمة للقبول الانتساب، وطبقات من ذوي الرتب المتدرجة، مؤيدة بمثل، وطقوس احتفالية محكمة، وكانت معظم هذه الجماعات غير نشطة سياسياً، مع أنها كانت بشكل غامض متنافرة، وكان الاسماعيليون بتكتيكاتهم العسكرية، ومقاصدهم الثورية قادرين على استخدام هذا الشكل من التنظيم من أجل محاولة متينة لقلب النظام القائم، وتبديله، ولذلك تخلوا في الوقت نفسه بصورة تدريجية عن التهذيب المثالي لمذاهبهم المتقدمة، وتبنوا أشكالاً من الديانة، كانت أقرب إلى العقائد الرائجة بين الإخوانيات، ومن أحد الوجوه تبنى الاسماعيليون ـ تبعاً للمؤرخين الإيرانيين ـ نظاماً كاد أن يكون رهبانياً، فقادة قلاعهم لم يصطحبوا النساء معهم، طوال الوقت الذي كانوا فيه شاغلين لمناصبهم.

والحشيشية كانوا من أحد الجوانب من دون سابقة، وذلك باستخدامهم الإرهاب المنظم والمخطط له، والطويل الأمد، بمثابة سلاح سياسي، فخناقوا العراق كانوا مزاولين لعملهم، على مستوى صغير، وكيفما كان، وكانوا على الأكثر مثل خناقي Thugs الهند، الذين من الممكن ربطهم بهم، ففي الماضي كانت الاغتيالات السياسية، مهما كانت مثيرة، من عمل أفراد، أو في أحسن الحالات، من عمل فئات صغيرة من المتآمرين محدودين في

كل من الهدف والتأثير، هذا وللحشيشية في البراعة في القتل والتآمر أسلاف لا يحصون، لا بل حتى في تصعيد القتل إلى فن، وطقس وواجب، لقد سبقوا، أو كان لهم نظراء، ولكنهم يمكن القول بأنهم كانوا أول الإرهابيين، وقد قال شاعر اسماعيلي: «إخواني عندما يأتي زمان النصر مع السعد من كلا العالمين، ويكون رفيقاً لنا، عندها بمحارب واحد على قدميه، يمكن صعق ملك بالرعب، مع أنه قد يكون لديه أكثر م مائة ألف فارس»[5].

وكان هذا صحيحاً، فلقرون بدد الشيعة حماسهم ودماءهم من أجل أئمتهم من دون محصلة، وكانت هناك انتفاضات لا تحصى تسلسلت من التضحية بالنفس لجماعات صغيرة من المفتونين إلى عمليات عسكرية جرى التخطيط لها بحذر، وأخفق الجميع إلاّ قليلاً منهم، وقمعوا جميعاً من قبل القوات المسلحة للدولة ونظام كانوا ضعفاء جداً حتى يتمكنوا من الإطاحة بهما، لا بل حتى القلائل الذين نجحوا لم يجلبوا تحريراً للعواطف السجينة التي عبروا عنها، وعوضاً عن ذلك فإن المنتصرين ما أن لبسوا جلباب السلطة والوصاية على الجماعة الإسلامية، حتى انداروا ضد مؤيديهم الخاصين ودمروهم.

وعرف حسن الصباح أن دعوته لا يمكن أن تسيطر ضد سنة الإسلام المتأصلة، وأن أتباعه لا يستطيعون مواجهة القوة المسلحة للدولة السلجوقية وإلحاق الهزيمة بها، فآخرون قبله قد عبروا عن كربهم في عنف غير مخطط، أو في انتفاضات من دون أمل، أو في مقاومة خانعة، ووجد حسن طريقاً جديداً، بحيث أن قوة صغيرة منظمة ومخلصة تستطيع الضرب بتأثير وفعالية ضد عدو متفوق بصورة هائلة، وفي هذا المجال قال مختص حديث: «ينفذ الإرهاب من قبل منظمة محدودة وضيقة، ويوحى به من قبل برنامج متين ذي أهداف واسعة النطاق، باسمها يمارس الإرهاب»[6]، وكان هذا هو المذهب الذي اختاره حسن، أو بالحري المذهب الذي من الممكن أن يكون هو الذي اخترعه.

وقال جوانفيل في حديثه عن مقدم الاسماعيلية المتأخرين في سورية: «يدفع شيخ الجبل الجزية إلى الداوية والاسبتارية، لأنهم لا يخشون شيئاً من الحشيشية، وحيث أن شيخ الجبل لا يستطيع أن يجني شيئاً إذا ما تسبب بقتل مقدم الداوية أو الاسبتارية، لأنه يعرف جيداً أنه إذا ما قتل واحداً سوف يقوم آخر، لا يقل عنه جودة، فيأخذ مكانه، لهذا السبب لم يرغب هو بفقدان حشيشيته حيث لا يمكنه ربح أي شيء»[7]، وكانت طائفتا الفرسان مؤسستين متماسكتين، مع بناء منظم رتباً وإخلاصاً، حيث جعلهما ذلك تمتلكان

الحصانة ضد المهاجم من قبل الحشيشية، وكان غياب هذه المزايا هو الذي جعل الدولة الإسلامية المشتتة، مع السلطة المطلقة القائمة على شخص، وتحولات الولاءات وتقلباتها، عرضة بشكل غريب لها.

وأبدى حسن الصباح عبقرية سياسية في إدراك هذا الضعف في الملكيات الإسلامية، وأظهر أيضاً مواهب إدارية واستراتيجية مدهشة في استغلاله لها بالقتال الإرهابي.

ومن أجل هذه الحملة من الإرهاب المتماسك كان هناك متطلبان بديهيان: «تنظيم وعقيدة» ولهذا كان من الضروري وجود تنظيم قادر على الإقلاع بالحملات، وتحمل الضربات المضادة التي كان لابد من وقوعها، وكان من الضروري وجود نظام عقائدي - الذي كان في ذلك الوقت والمكان يمكن أن يكون ديانة فقط - ليلهم المقاتلين ويثبتهم إلى درجة الموت.

وتم توفير كلاهما، في الديانة الاسماعيلية المعاد تنظيمها مع ذكرياتها في الآلام والشهادة، ووعدها بالوفاء الرباني والإنساني، فهذا أعطى عزة وشجاعة للذين اعتنقوها، وأوحى إليهم بإخلاص لم يوجد ما يماثله في التاريخ البشري، ولقد كان إخلاص الحشيشية الذين خاطروا، لا بل حتى أنهم توددوا بالموت إلى قائدهم، هو الذي جذب أولاً انتباه أو ربا، وجعل اسمهم كلمة مرادفة للإيمان، والتضحية بالذات، قبل أن تصبح مرادفاً للقاتل.

وكان هناك في أعمال الحشيشية تخطيط هادئ، بالإضافة إلى الحماس الملتهب، ومن الممكن استخلاص عدد من المبادئ: فقد زودهم الاستيلاء على القلاع - التي كان بعضها من قبل أوكاراً لمقدمي قطاع طرق - بقواعد آمنة، كما ساعد حكم التخفي - الذي استخلص من عقيدة التقية القديمة - كلاً من الأمن والثبات، وتلقى عمل الإرهابيين من كل من العمل الديني والسياسي، ووجد الدعاة الاسماعيليون، أو ربحوا متعاطفين بين سكان الريف والمدن، وعرج الدعاة الاسماعيليون على ذوي المكانة من المسلمين، الذين كان يمكن لمخاوفهم أو مطامعهم أن تجعلهم حلفاء مؤقتين للقضية.

وتثير مثل هذه التحالفات نتيجة مهمة تعلقت بالاغتيالات، فمن بين عشرات الاغتيالات المتعددة التي سجلت في إيران وسورية، هناك عدد لا بأس به، ورد ذكره في مصدر أو آخر، بأنه جرى التحريض عليه من قبل فئة ثالثة، وجاء ذلك بالغالب مع منحة

من المال أو مغريات أخرى، وأسست الرواية أحياناً على اعتراف قيل بأنه أعطي من قبل القتلة الفعليين، وذلك بعدما ألقي القبض عليهم، ووضعوا تحت الاستجواب.

ومن الواضح أن الحشيشية العبيد المنقطعين المخلصين لقضية دينية لم يكونوا مجرد قاطعي بلاعيم بسكاكين للإيجار، فلقد كانت لهم أهدافهم السياسية الخاصة في إقامة الإمامة الحقة، ومن المستبعد أنهم كانوا هم أو رؤساءهم أدوات لمطامح الآخرين، ومع ذلك فإن القصص المتواترة والواسعة الانتشار عن دسائس تكتنف كذا من الأسماء، مثل بركياروق، وسنجر في المشرق، وصلاح الدين، ورتشارد قلب الأسد في الغرب تتطلب بعض التفسير.

وكان بعض هذه القصص منتشراً، بسبب أنها كانت قصصاً صحيحة، ففي عدد من الحقب والأمكنة وجد أناس طموحين، كانوا مستعدين لتجنيد مساعدة متطرفين، هم من الممكن لم يشاركوا أو حتى لم يعجبوا بعقائدهم، لكنهم اعتقدوا بأنهم يستطيعون استخدامهم على أمل ـ عادة في غير مكانه ـ بأنهم سوف يستطيعون الانفصال عن هؤلاء الحلفاء الخطرين، بعدما يكونوا قد خدموا قضيتهم، فهكذا كان رضوان الأمير السلجوقي صاحب حلب، الذي لم يتحرج من التحول من الولاء السني إلى الولاء الفاطمي، وبعدها الترحيب بالحشيشية في مدينته، وذلك كدعامة ضد أقربائه، وسيده الأعلى، ومثل هذا كان أيضاً الوزراء المخططين في أصفهان ودمشق، الذين حاولوا أن يستخدموا قوة الحشيشية وإرهابهم من أجل منفعتهم الخاصة، وكان الدافع أحياناً الرهبة أكثر من الطموح، مثلما حدث ـ على سبيل المثال ـ مع وزير الخوارزم شاه، الذي أصيب بهلع شجي، كما تقدم وصفه من قبل النسوي، وكان أيضاً من الممكن إرهاب جنود وسلاطين، وأيضاً وزراء حتى الرضوخ، ولابد أن عدداً من القصص الأكثر إثارة، التي حكيت عن براعة الحشيشية، وجرأتهم، كانت كما يبدو غرضاً لهم لتسويغ التفاهم المتبادل، الذي توفر بين ملك سني ورع، وبين الثوار الاسماعيليين.

وكان محرضات مثل سنجر وصلاح الدين ودوافعهما، من نوع أكثر تعقيداً، فكلاهما أقاما مواءمتهما مع الحشيشية، ومن المستبعد أن يكون أي واحد منهما قد أرضخ بمحض خوف أو طموح شخصي، فكلاهما كانا منشغلاً بمهمة كبرى: سنجر في العمل على استرداد السلطنة السلجوقية، والدفاع عن الإسلام ضد الغزاة الكفار من المشرق،

وصلاح الدين في العمل على تجديد الوحدة السنية، وطرد الغزاة الصليبيين من الغرب، ولابد أن كلاهما قد أدرك حقيقة أنه بعد موتهما سوف تتفتت ممالكهما، وتذهب خططهما هباء، ومن الممكن أيضاً أنهما شعرا بأن تنازلاً مؤقتاً للعدو ـ الذي كان في النهاية أقل خطراً ـ أمراً مسوغاً، وذلك في سبيل تأمين سلامتهما الشخصية، ومعها الفرصة لإكمال عملهما العظيم من أجل استعادة الإسلام وحمايته.

وأما بالنسبة للحشيشية فقد كانت الحسابات أقل بساطة، فقد كان هدفهم تشويش النظام السني وتدميره، وأنه إذا كان بالإمكان إغواء أو إرهاب بعض القادة السنة في سبيل مساعدتهم، فالأكثر هو الأفضل، ولم يستخف قادة الحشيشية حتى في أيام تأججهم المبكرة بمساعدة الآخرين، عندما تتوفر أو كان يجري عرضها، وعندما غدوا مؤخراً، بالضرورة حكاماً إقليميين، ثبتوا سياساتهم ببراعة ومرونة، في الفسيفساء المعقدة للتحالفات والتخاصمات للعالم الإسلامي.

وهذا لا يعني أن خدماتهم كانت معروضة للبيع، أو أن كل قصة تآمر، حتى تلك المؤيدة بالاعترافات، كانت صادقة، فمن الممكن أن يعقد القادة اتفاقيات سرية، لكن من المستبعد قيامهم بإخبار القاتل الفعلي بالتفاصيل، والذي هو أكثر احتمالاً أن الحشيشي أعطي ـ عندما مضى لتنفيذ مهمته ـ ما يمكن أن يسمى في التعبير الحديث «قصة تغطية» مورطة للشخصية الأكثر شبهاً على المسرح، وسوف يكون في هذا فائدة إضافية في بذر بذور عدم الثقة والشك في المعسكر المناوئ، وما اغتيال الخليفة المسترشد ثم الصليبي كونراد أوف مونتفرات، إلاّ مثلان جيدان على هذا، فالشكوك التي حامت حول سنجر في إيران، والتهم التي ألقيت عليه وعلى رتشارد بين الصليبيين، لابد أنها قد خدمت كغرض مفيد في إرباك النتائج، وساعدت على إحداث بلبلة، وبالإضافة إلى هذا نحن ليس بإمكاننا أن نكون متأكدين من أن كل اغتيال عزي إلى الحشيشية، أو ادعي من قبلهم، كان في الحقيقة قد اقترف من قبلهم، ذلك أن الاغتيال لأسباب خاصة أو عامة، كان على الأقل عادياً وشائعاً، ولابد أن الحشيشية أنفسهم قد اتخذوا غطاء لعدد من الاغتيالات غير العقائدية التي لم يكن لهم حظ فيها.

واختار الحشيشية ضحاياهم بحذر، ومع ذلك ذهب بعض الكتاب السنة إلى أنهم أثاروا حرباً لا تمييز فيها ضد الجماعة الإسلامية كلها، وبناء على هذا قال حمد الله

مصطفاوي: «لم يهمل الباطنية ـ لاقوا ما يستحقونه ـ لحظة في أذية المسلمين، في أي سبيل استطاعوه، وآمنوا بأنهم سينالون من أجل هذا عطاء جزيلاً، وثواباً عظيماً، ورأوا أن لا تقترف اغتيالاً، أو أن لا تقمع ضحية ذنباً عظيما»[7]، وقدم حمد الله الذي كتب هذا في حوالي عام 1330 وجهة نظر متأخرة تلوثت بالخرافات والأساطير، التي كانت قد أصبحت متداولة، وتدلل المصادر المعاصرة للحشيشية في كل من إيران وسورية على أن الإرهاب الإسماعيلي قد جرى توجيهه ضد أشخاص معينين، لغايات محددة، وأنه باستثناء القليل من الانفجارات لعنف العامة التي كانت تماماً غير اعتيادية، كانت علاقاتهم مع جيرانهم السنة اعتيادية بشكل لا بأس به، وظهر هذا صحيحاً بالنسبة إلى كل من الأقليات الاسماعيلية في البلدات، وللحكام الاسماعيليين الاقليميين في معاملاتهم مع نظرائهم السنة.

وانتمى ضحايا الحشيشية إلى مجموعتين رئيسيتين: كانت الأولى من الأمراء، والقادة، والوزراء، وكانت الثانية من القضاة والأعيان الدينيين الآخرين، وشكل رجال الحسبة في المدن مجموعة متداخلة بين المجموعتين، حيث نالت أيضاً بعض الانتباه أحياناً، ومع قليل من الاستثناءات كان الضحايا مسلمين سنة، حيث لم يقاتل الحشيشية بالعادة الاثني عشرية، أو الشيعة الآخرين، ولم يديروا سكاكينهم ضد النصارى أو اليهود المحليين، كما كان هناك القليل من الهجمات ضد الصليبيين في سورية، وقد كان معظمها ـ كما يبدو ـ تبعاً لتوافق سنان مع صلاح الدين، ولتحالف حسن مع الخليفة.

فلقد كان العدو بالنسبة للاسماعيلية هو المؤسسات السنية: سياسياً، وعسكرياً، وإدارياً، ودينياً، وكانت أعمال اغتيالاتهم قد صممت لإخافة هذه المؤسسات، ولإضعافها، وأخيراً الإطاحة بها، وكان بعضها ببساطة مجرد أعمال ثأر وإنذار، مثل القتل الذي لحق فقهاء السنة في مساجدهم، الذين تكلموا أو عملوا ضدهم، ووقع الاختيار على ضحايا آخرين، مثل قادة الجيوش المهاجمة للاسماعيلية، أو متملكي الحصون التي أرادوا حيازتها لأسباب مباشرة أكثر، وأعظم خصوصية، واجتمعت دوافع تكتيكية ودعائية في اغتيال الشخصيات الرئيسية، مثل الوزير الكبير نظام الملك، والخليفتين، والمحاولات ضد صلاح الدين.

وإنه لأمر أكثر صعوبة تقرير طبيعة التأييد الاسماعيلي، ولابد أن الكثير منه قد جاء من الريف، فقد وضع الاسماعيلية مراكزهم الأساسية في قلاع، وكانوا أكثر نجاحاً عندما

أمكنهم الاعتماد على سكان القرى المحيطة من أجل المساندة والتجنيد، وحاول الدعاة الاسماعيليون في كل من سورية وإيران تأسيس أنفسهم في مناطق، وجدت فيها تقاليد قديمة للزيغ الديني، وتقاليد مثل هذه ما برحت مستمرة بشكل مدهش، حيث حافظت على بقائها حية في بعض هذه المناطق إلى اليوم الحاضر، وتظهر بعض الكتابات الدينية للدعوة الجديدة، لدى مقارنتها مع الفقه الحضري المختمر ثقافياً للفاطميين، كثيراً من السمات السحرية التي تتعايش مع ديانة الفلاحين.

وصحيح أنه كان من الممكن للتأييد الاسماعيلي أن تتم تعبئته وتوجيهه بشكل أكثر فعالية في المناطق الريفية والجبلية، ولكنه لم يكن على كل حال، محصوراً في مثل هذه المناطق، فمن الواضح أنه كان لدى الاسماعيلية أتباعهم في البلدات، حيث قدموا عندما اقتضت الحاجة مساعدة مناسبة إلى الرجال القادمين من القلاع والماضين لتنفيذ مهماتهم، وكانوا أحياناً، كما في أصفهان ودمشق، أقوياء بما فيه الكفاية، لأن يدخلوا بصورة مكشوفة في الصراع من أجل السلطة.

وغالباً ما ذهب بعضهم إلى الافتراض بأن مؤيدي الاسماعيلية من الحضريين قد جلبوا من الطوائف الدنيا للمجتمع: من الحرفيين ومن دونهم من العامة الهائجة المائجة، وأقيمت هذه الفرضية اعتماداً على الإشارات العرضية إلى نشطاء اسماعيليين من مثل هذا الأصل الاجتماعي، وإلى الفقر العام بالشواهد على وجود تعاطف اسماعيلي بين الطبقات الأحسن حالاً، مع أن هؤلاء قد كانوا في شيء من عدم المنفعة في ظل النظام السلجوقي السني، هذا وهناك كثير من الإشارات على وجود تعاطف شيعي بين التجار والأدباء: ولكن يبدو أن هؤلاء آثروا الانعزال السلبي للاثني عشرية وفضلوه على التدمير المتطرف للاسماعيلية.

ولابد أن كثيراً من القادة والمعلمين للاسماعيلية، كانوا رجال مدينة مثقفين، فحسن الصباح كان من الري، وقد تلقى تربية كتابية، وكان ابن عطاش حكيماً، ومثله كان المبعوث الأول لألَموت في سورية، وكان سنان معلم مدرسة، وتبعاً لما قاله، ابنا لأسرة لها مكانتها في البصرة، ومع ذلك فإن الدعوة الجديدة لم تظهر قط وقد امتلكت الغواية الثقافية الجاذبة، التي أغرت شعراء وفلاسفة وفقهاء في الأزمان السالفة، لأنه منذ القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر، كانت الاسماعيلية في مختلف أشكالها، القوة الثقافية

الرئيسية في الإسلام، وكانت مقارعاً جدياً للعقول، كما هي لقلوب المؤمنين حتى أنه ربحت التعاطف ـ لكن ليس القبول ـ من مثل الفيلسوف ابن سينا (980 ـ 1037) الذي كان مثقفاً وعالماً عملاقاً، وبديهي أن هذا لم يعد صحيحاً في القرنين الثاني عشر، والثالث عشر، فبعد ناصر خسرو الذي مات بعد عام 1087، لا توجد شخصية ثقافية رئيسية في اللاهوت الاسماعيلي، لا بل حتى أتباعه كانوا منحصرين بين الفلاحين والجبليين في الأماكن النائية، وتسببت الاسماعيلية تحت قيادة حسن الصباح وخلفائه للإسلام السني بمشاكل مرعبة، كانت سياسية وعسكرية واجتماعية، ولكنهم توقفوا عن تقديم أي تحد ثقافي، وأكثر فأكثر اكتسبت ديانتهم السمات السحرية والانفعالية، وتعايشت آمال الخلاص والقيامة مع عقائد المحرومين والمسلوبين، وغير المستقرين، وتوقف اللاهوت الاسماعيلي عن أن يكون ـ ولم يعد مرة أخرى ـ بديلاً جدياً للسنة الجديدة، التي كانت تتحكم بالحياة الثقافية للمدن الإسلامية، مع أن المفاهيم الروحية، والميول الاسماعيلية والتوجهات قد استمرت، ولكن متموهة وبشكل غير مباشر، لتؤثر في الصوفية، وفي الشعر الإيراني والتركي، ومن الممكن تقصي وجود عناصر اسماعيلية في انفجارات ثورية ذات آمال مهدوية، مثل ثورة الدراويش في تركيا القرن الخامس عشر، وفي جيشان البابية في إيران القرن التاسع عشر.

وهناك سؤال واحد آخر، يجد المؤرخ الحديث نفسه دائماً مجبراً على سؤاله وهو: وماذا يعني ذلك؟ فمن الممكن رؤية الدعوة الجديدة للاسماعيلية، في الاصطلاحات الدينية بمثابة انفجار لميول محددة ذات توجهات مهدوية وإلحادية، هي متكررة الحدوث في تاريخ الإسلام، ولها موازيات ـ وربما سوابق ـ في تقاليد دينية أخرى، ولكن عندما يتوقف الرجل الحديث عن منح المحل الأول في شؤونه للديانة، يتوقف أيضاً عن الاعتقاد بأن أناساً آخرين، في أزمان أخرى، يمكن في الحقيقة أن يكونوا قد فعلوا ذلك مطلقاً، وهكذا يبدأ في إعادة فحص الحركات الدينية الكبرى في الماضي بحثاً عن مصالح ودوافع ومحرضات مقبولة بالنسبة للعقول الحديثة.

وأطلقت النظرية الأولى الكبرى حول الأهمية «الحقيقية» للهرطقة الإسلامية من قبل الكونت دي جوبينو Gobineau، أبو العنصرية الحديثة، فبالنسبة له مثل التشيع ردة فعل الإيرانيين الهندو ـ أوربيين ضد تحكم العرب، أو بالحري ضد الرباط السامي (كذا)

للعرب المسلمين، وبدا تفسير مثل هذا بالنسبة لأوريا القرن التاسع عشر التي كانت مصابة بهوس مشاكل الصراع القومي والحرية القومية، منطقياً، وفي الواقع بديهياً فقد وقف الشيعة من أجل إيران، حيث قاتلوا أولاً ضد العرب، ومؤخراً ضد التحكم التركي، ومثّل الحشيشية نمطاً عسكرياً وقومياً متطرفاً مثل جمعيات الإرهاب السرية للقرن التاسع عشر في إيطاليا ومقدونية.

وقاد البحث العلمي من الجهة الأولى، والتغييرات في الأحوال الأوربية في القرن العشرين من الجهة الثانية، إلى إدخال بعض التعديلات في هذه النظرية للصراع العنصري، وأظهر ازدياد المعرفة بأن التشيع عامة، والاسماعيلية خاصة، لم يكونا بأي حال من الأحوال إيرانيين بدون استثناء، فقد ظهرت الطائفة أولاً في العراق، وبلغت الخلافة الفاطمية ذروة نجاحاتها في الجزيرة العربية، وفي شمال أفريقيا، وفي مصر، لا بل أكثر من هذا، حتى اسماعيلية حسن الصباح المعدلة، وإن كانت قد وجهت من إيران ومن قبل إيرانيين، قد ربحت أتباعاً كثيرين في سورية العربية، لا بل حتى إنها تغلغلت بين القبائل التركمانية التي هاجرت من آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط، وعلى كل حال لم تعد القومية تعد قاعدة كافية من أجل حركات تاريخية كبرى.

وفي سلسلة من الدراسات التي ظهرت أولاها في عام 1911 قدم الباحث الروسي ف. ف. بارثولد V.V. Barchold تفسيراً آخر، فحسب رأيه كان المعنى الحقيقي لحركة الحشيشية هو حرب القلاع ضد المدن، وجاء ذلك بمثابة محاولة أخيرة، وغير ناجحة في النهاية من قبل الأرستقراطية الريفية الإيرانية لمقاومة النظام الاجتماعي المدني الجديد للإسلام، ذلك أن إيران ما قبل الإسلام كانت مجتمعاً فرسانياً، جاءت المدينة بالنسبة له بمثابة اختراع إسلامي، وكان هؤلاء مثل بارونات ـ أو البارونات اللصوص في ـ أوريا للعصور الوسطى، فقد شن الفرسان الإيرانيون، ملاك الأرض، الحرب من قلاعهم معتمدين على تأييد سكان القرى، ضد هذا النظام الأجنبي الجديد والمنتهك لحرماتهم، وكان الحشيشية سلاحاً في هذه الحرب.

وأعاد الباحثون الروس النظر في محاولات بارثولد، وجاء ذلك بوساطة توجهات نحو تفسير اقتصادي للاسماعيلية وهذبوها، فالاسماعيلية لم يكونوا ضد المدن على هذه الصورة، حيث كان لهم فيها مؤيدوهم، بل كانوا ضد عناصر محددة كانت متحكمة في

المدن، مثل الحكام، والأعيان العسكريين والمدنيين، والسادة الاقطاعيين الجدد، وعلماء الدين المرعبين رسمياً، وعلاوة على ذلك من غير الممكن مقارنة الاسماعيلية ببساطة مع طبقة النبلاء القديمة، حيث أنهم لم يرثوا القلاع بل استولوا عليها، ولم يأت تأييدهم بالنسبة نفسها، من الذين كانوا ما يزالون محتفظين بممتلكاتهم، مثلما جاء من الذين فقدوهم لصالح ملاك جدد، ومن ضامني الضرائب، ورجال الديوان، والأمراء العسكريين، الذين تسملوا عطاءات أرض وموارد من الحكام الجدد على حساب النبلاء والفلاحين، وذهب أحد الآراء إلى القول بأن الاسماعيلية كانت عقيدة رجعية اخترعت من قبل السادة الاقطاعيين الكبار لحماية امتيازاتهم، ضد مساواة الإسلام السني، وعدّهم رأي آخر بمثابة استجابة تنوعت تبعاً للظروف ولاحتياجات مختلف الجماعات التي عانت من فرض النظام السلجوقي، وهكذا احتضنت كل من طبقة الحكام القديمة المعزولة، وسكان المدن غير الراضين، ونظر إليهم رأي آخر، ورآهم بمثابة حركة قامت على الحرفيين وفقراء المدينة وفلاحي المناطق الجبلية، وتبعاً لهذا الرأي، كان إعلان حسن للقيامة نصراً للقوى «الشعبية»، وتهديداته ضد الذين كانوا ما يزالون يراعون الشريعة المقدسة، كانت موجهة ضد العناصر الاقطاعية في الممتلكات الاسماعيلية، الذين كانوا مخلصين للإسلام السني، ومعادين للمساواة الاجتماعية[9].

وأغنت هذه النظريات الآخذة بالأسباب الاقتصادية مثلها مثل المحاولات المبكرة للتفسير العنصري، معلوماتنا عن الاسماعيلية، وذلك بتوجيه البحث في منحى جديد ومفيد، ولكنها عانت مثل التفسيرات المتقدمة من المغالاة العقائدية، التي ألحت على بعض الجوانب، وأهملت جوانب أخرى، لاسيما التطور الاجتماعي للأديان وللقيادة، وللتعايش، وإنه لمن الطبيعي أن اتساع معلوماتنا عن الإسلام وعن فرقه، جعلت طرائقنا في البحث تحتاج إلى بعض التهذيب، وذلك قبل أن نستطيع تقرير كم كان العنصر الاقتصادي مهماً في الاسماعيلية، وماذا كان هو بالتحديد، في الوقت ذاته يمكن لكل من تجارب الحوادث، وتقدم البحث العلمي في وقتنا أن يدللا أنه ليس من السهولة بمكان تخليص الحقائق القومية وعزلها عن الحقائق الاقتصادية، أو فصل أي منهما عن العوامل الاجتماعية والعضوية، وأن التمييز بين اليمين المتطرف واليسار المتطرف، الذي كان على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لأسلافنا المباشرين، قد يُبرهن أحياناً على أنه مجرد وهم.

وما من تفسير واحد بسيط يمكن أن يكون كافياً لإيضاح ظاهرة الإسماعيلية المعقدة في المجتمع المعقد لإسلام العصور الوسطى، فالديانة الاسماعيلية قد نمت عبر حقبة طويلة، ورقعة واسعة، وقد عنت أشياء مختلفة في أوقات وأماكن مختلفة، وكانت الدول الاسماعيلية إمارات اقليمية، لها اختلافاتها الداخلية الخاصة، ولها صراعاتها، وكان النظام الاجتماعي والاقتصادي للخلافة الإسلامية مثله مثل الذي كان في مجتمعات العصور الوسطي الأخرى، متشابكاً، له نموذج نمطي متغير بالنسبة للأعيان، والمقامات والتصنيفات، وفيه فئات اجتماعية، وعرقية، ودينية، لا الدين ولا المجتمع الذي ظهر فيه قد اكتشف بشكل كاف بعد.

واعتمدت الاسماعيلية مثلها مثل العقائد والحركات التاريخية الأخرى على مصادر عديدة، وخدمت عدة حاجات، فقد كانت بالنسبة لبعضهم وسيلة للضرب ضد تحكم مكروه، إما في سبيل استعادة نظام قديم، أو لإيجاد نظام جديد، وكانت بالنسبة لآخرين السبيل الوحيد لتحقيق هدف الله على الأرض، وكانت بالنسبة لحكام مختلفين وسيلة اخترعت للحفاظ على استقلال محلي وإبقائه ضد تدخل أجنبي، أو طريقاً يقود نحو الامبراطورية العالمية، وكانت آلاماً وتنفيذاً، جلب الإباء والمعنى للحياة المنحطة والمريرة، أو بمثابة إنجيل للتحرير والتدمير، أو بمثابة عودة لصدق الأوائل، ووعد بمستقبل زاهر.

وفيما يتعلق بمكانة الحشيشية في تاريخ الإسلام، يمكن أن يقال أربعة أشياء، مع تأكيد منطقي، الأول: لقد عدّت حركتهم، مهما كانت قواها الدافعة بمثابة تهديد عميق للنظام القائم سياسياً، واجتماعياً، ودينياً، والثاني: هم لم يكونوا ظاهرة منعزلة، بل كانت ظاهرتهم واحدة من سلسلة حركات آمنت بقيام مهدي منتظر، كانت أحياناً شعبية غامضة، جرى تحريضها بوساطة قلق عميق الجذور، وانفجرت من وقت إلى آخر في انتفاضات ذات عنف ثوري، والثالث: نجح حسن الصباح وأتباعه في إعادة تشكيل، وإعادة توجيه الرغبات الغامضة، والعقائد الواسعة، والغضب غير الهادف للغاضبين غير الراضين، في عقيدة وفي تنظيم، وكانت هذه العقيدة من حيث التماسك، والنظام، والعنف الهادف، لا نظير لها في الأزمان السالفة أو اللاحقة، والرابع، وربما أخيراً النقطة الأكثر أهمية: إخفاقهم النهائي والكامل، فهم لم يتمكنوا من الإطاحة بالنظام القائم، لا بل إنهم حتى لم ينجحوا في الاستيلاء على مدينة واحدة ذات أي حجم، وأكثر من هذا

حتى قلاع تحكمهم قد غدت ليس أكثر من إمارات صغيرة، أطيح بها في سياق الأيام بقوة الاستيلاء، وصار أتباع هذه الإمارات جماعات مسالمة من التجار والفلاحين، أو بكلمة موجزة أخرى: مجرد أقلية طائفية بين كثيرين.

ومع هذا إن التيارات الخفية للآمال المهدوية، والعنف الثوري اللذان حرضوهم، مازالا مستمرين، ووجدت مبادئهم وطرائقهم الكثير من المقلدين، ولهؤلاء أمدت التغييرات العظيمة لزمننا بأسباب جديدة للغضب، وبأحلام جديدة بالإنجاز والتحقيق، وبأدوات جديدة للقتال.

ملاحظات: (حواشي)

رواميز

BIE	Bulletin de l'Institut égyptien (d'Egypte).
BIFAO	Bulletin de l'Institut Francais d'archeologie orientale.
BSOAS	Bullettin of the of the school oriental (and African) studies.
EI (1)	Encyclopaedia of Islam. 1st edition.
EI (2)	Encyclopaedia of Islam. 2st edition.
IC	Islamic Culture
JA	Journal Asiatique
JAOS	Journal of Amarican Oriental Society.
JBBRAS	Journal of the Bombay Branch of the Royal Asiatic Society.
JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society.
RCASJ	Royal Central Asian Society Journal.
REI	Revue des Etudes Islamiques.
RHC	Recueil des Historiens des Croisades.
S	Persian Solar Year.
SI	Studia Islanica.
ZDMG	Zeitschrift der Deutschem Morgenlädischen Gesellschaft.

الحواشي

الفصل الأول:

إن معالجة موضوع الحشيشية في الأدب الغربي للعصور الوسطى قد بحث من قبل س. أ. نويل C. E. Nowell «شيخ الجبل» في Speculum 22 (1947) 497ـ519، و. ل. أولسشكي L. Olschki, Storia Letteraria delle scoperte geografiche فلورنسا 19737، 215ـ22. وضمن مسح قصير عن الدراسات العلمية الغربية في (مقال) برنارد لويس: المصادر من أجل تاريخ حشيشية سورية في Speculum، 27 (1952)، 475ـ89. وأعدت مصادر الدراسات الاسماعيلية من قبل آصف ا. ا. فيظي Asef. A.A. Fyzee «مواد من أجل الدراسات الاسماعيلية» 1920ـ34، في s'N.S.JABRA 11 (1935)، 56ـ65، وملاحظات إضافية من أجل الدراسات الاسماعيلية، المصدر نفسه، 12 (1936)، 107ـ9، ومواد من أجل الدراسات الاسماعيلية: 1936ـ1938، المصدر نفسه، 16 (1940)، 99ـ101. وأحصيت مقالات. (لكن ليس كتباً) أكثر حداثة من قبل ج. د. بيرسون J.D. Pearson Index Islamicus 1906ـ1955، كمبردج 1958، 89ـ90، والملحق Supplement كمبردج 1962، 29.

ومن أجل أصول واستخدام المصطلحات، يمكن أن تعمل الإحالات على المعاجم اللغوية والتاريخية المعتمدة للغات الانكليزية، والفرنسية، والإيطالية، واللغات الأوربية الأخرى، وإلى مقال «الحشيشية» في الموسوعة الإسلامية النشرة الثانية.

(1) بروكارديوس Director ium ad passagium Faciendum في R.H.C.E Documents Aeméniens باريز 1906، 496ـ7.

(2)Villani cronico, ix, 290-1; Dante, Infeno, xix 49-50; cit vocabularia della lengu italia, s.v. Assassino.

(3) تقرير جيرهارد Gerhard (ربما تصحيف برشارد Burchard كما يقترح المحقق Vice-dominus of Strasburg قد اقتبس من قبل المؤرخ الألماني آرنولد أوف لوبك Arnold of Lübeck in his chronicon slavorum, vii, 8 (ed. W. Wattenbaxh. Deutschlands Gescichtsquellen, Stuttgart-Berlin 1907, ii, 240).

(4) وليم الصوري Historiarerum in Partibus Transmarin Gestarum, xx, 31, ed. J.R. Migne, patarlogia. cci paris, 1903, 810 – 1; cf ترجم إلى الإنكليزية من قبل:

E.A. Babcock and A.C. Kery, A History of the deeds done beyond the sea.

تاريخ الأعمال التي تمت ما وراء البحار، 2، نيويورك 1943، 391.

(5) Chronicon, iv, 16, ed. Wattenbach, 178-9.

(6) Modern Language Notes «التروبادور والحشيشية» في F.M. Chambero، 64، (1949)، 245 - 51. يلاحظ Olschki صفحة مشابهة في Sonnet ربما كتب من قبل دانتي في صباه، يصف فيها الشاعر بأن إخلاص المحب لحبيبه أعظم من إخلاص الحشيشي لشيخ الجبل، أو الراهب إلى الرب (Storia, 215).

(7) من وليم الصوري 24/ 27 تحقيق Migne 758 - 9، Patrologia Matthew of Paris, Chronica Majora, ed. H. Luard, Reum britannicarum medii aevi scriptares, 27, iii, London 1876, 488-9.

جوانفيل حياة القديس لويس الفصل 89 في Historiens et Chroniqueus du Moyen Aeg, ed. A. Pauphilet, Paris 1952, 307-10.

(8) حققت رحلة بنيامين التطيلي وترجمت من قبل م. ن. أدلر M.N. Adler إكسفورد 1907، ص50 من النص أو 53 - 54 من الترجمة، ومن المؤكد أن بنيامين قد سافر حتى بغداد، لكن من الممكن أن وصفه لإيران هو معلومات من الدرجة الثانية، ويفسر هذا جعله اسماعيلية إيران خاضعين لاسماعيلية سورية بدلاً من العكس، من أجل جيمس أوف فيتري James of Vitry انظر Bongards, Gesta Dei per Francos, Hanover 1611, 1062 وأيضاً Nowell 515، فإنه اقتبس الترجمة الفرنسية في Collection des mémoires relatifs à l'histoire de france xxii, 47F. النص اللاتيني في his Historia Orientalis 1/ 1062 في Bongars Gesta Dei Per Francos, Hanover 1611.

(9) رحلة وليم روبروك William of Rubruck إلى الأجزاء الشرقية من العام 1253 - 55، وقد ترجمت وحققت من قبل و. و. روك هل W.W. Rockhill لندن 1900، 118، 222، نصوص. روايات جون دي بلانو كاربيني John de Plano Carpini ووليم دي روبروك، تحقيق س، ر، بيزلي C.R.Beazley لندن 1903، 170، 216، 324، وتتحدث روايات أخرى عن 400 حشيشي.

(10) كتاب ماركوبولو Ser Marco Polo ترجمة وتحقيق سير هنري يول Henry Yule النشرة الثالثة، وقد نقحت من قبل هنري كوردير Henry Cordier، 1، لندن 1903، الفصلان 23 و24، 139 - 43.

(11) ابن ميسر، أخبار مصر، حققه هنري ماسه، القاهرة 1919، 68. البنداري مختصر من كتاب عماد الدين أخبار آل سلجوق، حققه م. ث. هوستما Recueil de Textes relatifs à l'historia de seldjoucidas.

1، ليدن 1889، 195، كتاب الرد على الملحدين، حققه محمد تقي دانش بازهوه في مجلة كلية الآداب، جامعة تبريز، 17/ 3 (1344 س) بعض روايات، 312. وفي قصة ماركوبولو لا تظهر كلمة حشيشي أبداً، ويتحدث بنيامين التطيلي (ص 18 ـ 19 من النص أو 16 ـ 17 من الترجمة) عن مقدم الحشيشية «بشيخ الحشاشين» وأضاف (بأنه هو أسنهم Zagen).

(12) Mémoire sur la dynastie des Assassins...

Mémoires de l'Institut Royal, iv (1818) 1-85 (=Mémoires d'histoire de Literature orientales, Paris 1818, 322 – 403).

(13) ج. فون هامر J.Von Hammer تاريخ الحشيشية، ستوتغارت 1818، ترجمة إنكليزية، تاريخ الحشيشية، ترجمة و. س وود O.C. Wood، لندن 1835، 1 ـ 2، 217 ـ 218.

(14) مذكرة عن الاسماعيلة والنصيرية في سورية كتبها م. روسو وقدم لها سلفستر دي ساسي في Cahier xlii, Annales de voyages, xiv, Paris 1809-10, 271ff. وأعطيت تفصيلات أوسع في مصادر لويس. . .، 477 ـ 9.

(15) و. مونتيث W. Monteith يوميات رحلة في أزربيجان وشواطئ بحر الخزر في J. R. Geog. S و ج. شيل J. Shiel «رحلة من طهران إلى ألموت وخرم أباد في أيار 1837»؛ المصدر نفسه 8 (1838)، 430 ـ 4. من أجل تفصيلات أكثر انظر. ل. لوك هارت L. Lockhart «حسن الصباح والحشيشية» في BSOAS، (1928 ـ 30) 689 ـ 96. وإيفانوف، «ألموت» في المجلة الجغرافية 77 (1931)، 38 ـ 45. فرياستارك Freya Stark «وديان الحشيشية»، لندن 1934 و10 إيفانوف، «بعض الحصون الاسماعيلية في إيران»: في IC، 12 (1938)، 383 ـ 92؛ نفسه، «ألموت ولمسر» طهران 1960؛ ب وللي P. Willey «قلاع الحشيشية» لندن 1963. ل. لوك هارت وم. ج. س هودجن M.G.S.Hodgson مقال ألمتو في EI (2).

Manucehr sutudah, «Qal'a-i Alamut, in Farhang-i Iranzamin, iii (13345), 5-21.

(16) Annales des voyages, xiv (1818), 279; St Gugard un grand des Assassins.. repr, From J.A., Paris, 1877, 58-8.

(17) ج. ب. فريزر J.B. Fraser «قصة رحلة في خراسان» لندن 1825، 376 ـ 7.

(18) أعطيت تفصيلات كاملة عن هذه الأحداث في أطروحة ماستر من جامعة لندن لم تنشر بعد كتبها زواهر نور علي ، «الآغا خان الأول والبريطانيين 1838 ـ 1868» . . قدمت في نيسان 1964 . ونشر حكم أرنولد في بومباي في 1867 ، وأعيد طبعه في كتاب ا . س . بكلي A.S. Pickaly «تاريخ الاسماعيلية» بومباي 1940 ، 113 ـ 70 .

(19)E. Griffini, «Die Jüngste ambcosianische sammlug arabischer Handschriften» in ZDMG, 69 (1915), 63 f.

(20)W. Ivanow, «Notes sur L' »Umma, L-Kitab» des Ismäliens de l'Asie Centrale, in REI (1932). 418 f.

مقال . ف . مينورسكي V. Minorsky «شنغان» Isana'iliya; Bobrinskay, sekta in EI (1) Vrusskikh, bukharskikh predelakh, Moscow 1920.

ومن أجل بيان مختصر عن حملة سوفيتية قريبة العهد إلى فامير انظر A.E. Bertel's «Otcet o rabote pamirskoy ekspeditssii.. in Izvestya Akad. Nauk Tadzhikskoy.

الفصل الثاني:

إن أحدث وأحسن كتاب عن الحشيشية هو كتاب م . ج . س هودجسن The order of Assassins The Hague 1955. ومع أن هذا الكتاب يهتم بحقبة ما بعد 1094 إلا أنه يشتمل على بعض البيانات عن الحقبة الأبكر؛ ولقد دون بيان أقصر عن التطور الديني للطائفة من قبل و . إيفانوف Brief survey of evolution of the Ismailism .

والسيد إيفانوف هو صاحب العديد من الكتب والمقالات التي تعالج جوانب خاصة من الديانة الاسماعيلية من أدب وتاريخ ؛ ولقد أعطي تاريخ ووصف الاسماعيلية مع إشارة خاصة إلى الهند في كتاب The Shi,a of India تأليف J.N. Hollister لندن 1953 ، وكتاب A.S. Picklay, History of the Ismailis بومباي 1940 ، وهو رواية شعبية كتبت من قبل كاتب اسماعيلي ولقراء اسماعيليين ، وبين الكتابات العربية الحديثة يمكن الإشارة إلى كتابين عامين كتباً من قبل كاتب إسماعيلي سوري هو مصطفى غالب ، «تاريخ الدعوة الاسماعيلية» ، دمشق بدون تاريخ ، و«أعلام الاسماعيلية» ، بيروت 1964 وإلى بحث عام من قبل الباحث المصري (غير الاسماعيلي) محمد كامل حسين ، «طائفة الاسماعيلية» ، القاهرة 1959 ، ولقد فحصت جوانب من التاريخ المبكر للطائفة من قبل برناد لويس في كتابه أصول الاسماعيلية كمبردج 1940 ومن قبل إيفانونف في Ismaili Tradition concerning the rise of the

Fatimids لنـدن ـ كلكتـا 1942 . ولـه أيضـاً Studies in earky Persian Ismailism بومبـاي 1955 . ومن قبل in Der Islam xxxiv«Fatimiden und Bahraingarmaten» W. Modelung, 34-88 (1958) وله أيضاً : «Lehre,«sas Imamat in der Frühen Ismailischen في المصدر نفسه xxxiv (1961), 43-135 ومن قبل P.J. Vatikiotis, the Fatimid Theory of state لاهور 1957 ؛ وفي العديد من المقالات لايفانوف Corbin و S.M. Stern التي أحصيت وسجلت من Pearson ، وهناك دراسات كثيرة حول ناصر خسرو منها مقالة : Nasr-i»A.E. Bertel's Moscow 1959«Khosrov-i Ismailizm وهي تتضمن مناقشات واسعة حول الأساس التاريخي للاسماعيلية وأهميته في زمنه . وكتب كتاب الغزالي الناقض الرئيسي للاسماعيلية في 1094 ـ 95 للخليفة العباسي المستظهر ، وقد حلل من قبل I. Goldziher, Stretschrift de Gazali gegen die Batinijja-Sekte ليدن 1916 . وحقق أثر آخر للغزالي ضد الاسماعيلية وترجم إلى التركية من قبل أحمد أتاش ، «قواصم الباطنية» في مجلة كلية الإلهيات (أنقره) 1 ـ 2 (1954) ، 24 ـ 54 . ولقد وجه الغزالي كل من هذين الكتابين ضد المذهب الاسماعيلي الجديد لزمانه ، ولقد بحثت ميول الغزالي تجاه الاسماعيلية من قبل مونتغمري وات في «مثقفون مسلمون» دراسة حول الغزالي ، أدنبره 1963 ـ 74 ـ 86 .

وعن مكانة الاسماعيلية في الإطار الأوسع للدين الإسلامي يمكن الإشارة إلى :
storia della religione»H. Laoust. Les schismes dans l'Islam, Paris 1965; M. Guidi, , in P. Tacchi-venturi, storia delle religioni, ii, Turin 1936; A. Bausani. Persia«dell'Islam reliosa, Milan 1959 و . و . مونتغمري وات . الاسلام وتماسك المجتمع ، لندن 1961 ، وبرنارد لويس «العرب في التاريخ» الطبعة المنقحة لندن 1966 ، وهناك فصول ذات صلة في L'Elaboration de l'Islam باريز 1961 ، وفي تاريخ كمبرج للعصور الوسطى 4/ 1 النشرة الجديدة 1966 .

(1) H. Hamdani, »Some unknown Isma'ili authors and their works«, in JRAS (1933). 365.

الفصل الثالث:

إن أحسن بيان عن حسن بن الصباح هو ذاك الذي قدم من قبل هود جسن في نظام الحشيشية وأكثر اختصاراً في مقاله حسن الصباح في (2) EI . وهناك بيانات أبكر في كتابات عامة عن الاسماعيلية قد تم ذكرها . وفي ا . ج . براون ، تاريخ أدبي لإيران من فردوسي إلى سعدي لندن 1906 ص201 والصفحات التالية . ويبحث صراع حسن الصباح ضد السلاجقة في الإطار العام لأحداث ذلك

الوقت من قبل إبراهيم كافس أوغلو، في كتابه في التركية عن الامبراطورية السلجوقية زمن ملك شاه (Sultan Melik Sah devrinde Büyük selcuklu inparatorlugu) استانبول 1953.
وأعطي عرض اسماعيلي شعبي حديث من قبل جواد المسكتي «حسن بن الصباح»، ترجمة إنكليزية من قبل ا. هـ. همداني نشرة ثانية كراتشي 1958.
ولقد جذب حسن الصباح اهتمام الباحثين العرب والإيرانيين الحديثين، فقد ضمن الأستاذ نصر الله فلسفي بياناً عن حياته مع تحقيق عدد من الوثائق في كتابه «بضع مقالات = جند مقاله» طهران342 خ، 403 ـ 44، ونشر كريم كشاورز سيرة نصف شعبية، لكن موثقة، «حسن الصباح»، طهران 1344 خ، وهناك كتابان في العربية لكاتبين اسماعيليين سوريين، عارف تامر، «على أبواب ألموت»، حصيرة (1959)، ومصطفى غالب «الثائر الحميري»، الحسن بن الصباح، بيروت 1966. الأول رواية تاريخية، والثاني سيرة شعبية.
وإن أهم مصدر مفرد لحياة حسن هي سيرته لنفسه المعروفة كـــ «سركذشت سيدنا» (ذكريات سيدنا). ولم تظهر بعد أية نسخة من الكتاب للضوء، ولكنه كان متوفراً للمؤرخين الإيرانيين للحقبة المغولية الذين كان بمكنتهم الوصول إلى منهوبات ألموت، وربما قلاع ومكتبات اسماعيلية أخرى، ولقد استخدمت، ومن جهة أخرى، اقتبست من قبل ثلاثة مؤرخين إيرانيين كتبوا روايات مفصلة عن حسن الصباح وخلفائه كلها قامت بشكل واسع على المصادر الاسماعيلية المستولى عليها وإن أقدمهم وأحسنهم هو عطاء الملك الجويني (1226 ـ 83) الذي حقق تاريخه من قبل ميرزا محمد قزويني (تاريخ جهان كشاي 3 مجلدات، لندن 1912 ـ 37) وترجم إلى الإنكليزية من قبل ج. ا. بويل J.A. Boyle (تاريخ قاهر العالم = The history of the world conqueror مجلدين مانشستر 1958) ويأتي تاريخ الاسماعيلية في المجلد الثالث من النص الأصلي، وفي الثاني من الترجمة الانكليزية، وقد ترجم جزء من القسم الذي يعالج الإسماعيلية إلى الفرنسية عن مخطوطة فارسية من قبل شارل دفرامري Charles Defre'mery (Ja,5e série viii, 1856, 353-87; xv, 1860, 130-210)
وشرح الجويني كيف وجد التواريخ الاسماعيلية في مكتبة قلعة ألموت المحتلة، فنسخ ما ظن أنه مفيد، ثم أتلفهم، ويبدو من خلال كتاباته أنه تتبع مصادرة عن قرب معتنياً فقط في تغيير المدح واللوم وفي إضافة أدعية ورع خليقة بمؤرخ سني لطائفة ملحدة.
والمصدر الرئيسي الثاني هو مؤرخ متأخر قليلاً، وهو رشيد الدين (حوالي 1247 ـ 1318) الذي ضمن تاريخه العالمي بياناً مطولاً عن الاسماعيلية واضح أنه قام بشكل مباشر أو غير مباشر على المصادر نفسها التي استخدمت من قبل الجويني، وعلى كل حال من البديهي أنه توفر لدى رشيد

الدين معلومات أوفى من تلك التي تظهر في طول نص الجويني وعلى الرغم من بعض الحذف فإن رشيد الدين يبدو أنه اتبع نص المصدر الاسماعيلي عن قرب أكثر من الجويني ، وحفظ لنا الكثير من التفصيلات التي حذفت من قبل سلفه ، وكان تاريخ رشيد الدين عن الاسماعيلية معروف كمخطوط منذ مدة من الزمن وقد استخدم من قبل براون وايفانوف وهود جسن وباحثين آخرين ، وقد نشر النص الفارسي في سنة 1958 (فصل من جامع التواريخ ، تاريخ فرقة الرفاق واسماعيلية ألموت ، تحقيق محمد دبير سياقي ، طهران 1337) ، وأعيد نشره بتحقيق آخر في سنة 1960 (جامع التواريخ قسم الاسماعيلية . . . تحقيق محمد تقي دانشبز هوه ومحمد مدرسي زنجاني ، طهراني سنة 1338 و . والإحالات هنا إلى النشرة الثانية منهما ، ومن أجل مناقشات أبكر حول رشيد الدين انظر : R. Levy «The account of the Intle Jami, al-Tawarikh of Rashid Al-Din Fadallah, in JRAS (1930) 509-36. H. Bowen «شركذشت سيدنا» «حكاية رفاق مدرسة ثلاثة ووصية نظام الملك» المصدر نفسه (1931) ، 771 - 82 . ولقد احتار الباحثون حول مشكلة كيف استطاع رشيد الدين أن يعطي نقلاً أوفى وأقرب للمصادر التي رآها الجويني وحده ثم أتلفها ، ولقد اقترح باون أنه من الممكن أن يكون قد استخدم مسودة أقدم وأوفى ، من الممكن أن يكون الجويني لم يقدرها فيما بعد (Cf. Hodgson, Assassins) 73 n. 34 وتبدو المعضلة قضية مصطنعة . فقد كان هناك قلاع اسماعيلية أخرى إلى جانب ألموت ، ومن المنطقي أن يفترض بأنه كان لبعضها مكتبات مع نسخ من تواريخ الطائفة ، وبالإضافة إلى كتاب الجويني ، الذي بديهي أنه استخدمه ، يمكن هكذا لرشيد الدين أن يكون قد توصل مباشرة إلى نسخ أخرى من الكتب التي استخدمها الجويني .

وفي عام 1964 جاء نص جديد إلى الضوء ، وقد كتب من قبل معاصر لرشيد دعي أبو القاسم الكاشاني ، وقد نشر النص من قبل محمد تقي دانشبز هوه (تاريخ الاسماعيية . تبريز سنة 1343خ) ونص الكاشاني شديد الشبه بنص رشيد الدين ، وربما له صلة به ، ومع ذلك فإنه يختلف عنه في بعض النقاط ، ويحتوي تفصيلات غير موجودة لدى كل من رشيد الدين والجويني ، وبالإضافة إلى سيرته فإن حسن الصباح كما يبدو قد كتب كتابات فقهية ، لكن ما من واحد منها موجود بشكله الأصلي ، وعلى كل حال فإن قطعاً منها قد عاشت - بشكل نوعاً ما معدل - في الأدب الاسماعيلي المتأخر (بالنسبة لها انظر . و . ايفانوف ، أدب اسماعيلي ، مسح للتراجم ، النشرة الثانية ، طهران 1963) ، وهناك قطعة هامة اقتبست بالعربية من قبل الفقيه السني الشهرستاني من القرن الثاني عشر (الملل والنحل تحقيق . وكرتن

لندن 1846، 150ـ2، وتحقيق فهمي محمد، 1، القاهرة 1948، 339 وما يتبع، والترجمة الانكليزية من قبل هودجسن الحشيشية، 325ـ8).

وهناك وثيقتان اختلف في صحتهما، اقتبستا في مجموعات فارسية متأخرة وقصد بهما أن تكونا رسالتان تبودلتا بين السلطان ملك شاه وحسن الصباح، وفي الأولى اتهم السلطان حسن بشروعه بعمل ديانة جديدة واضلالة بعض الجهال من سكان الجبال، وانتفائه من الخلفاء العباسيين الشرعيين للإسلام وشتمه لهم، وأن عليه أن يهجر هذه الطرق الشريرة، وأن يعود إلى الإسلام، وإلا فإن قلاعه ستسوى مع الأرض، ويدمر هو أتباعه، ودافع حسن في جواب مهذب ومنمق، كتب بروح ترجمة للذات قوية، عن عقيدته بأنها الإسلام الصحيح، ثم أن العباسيين هم مغتصبين وفاعلين للشر، وأن الخليفة الشرعي هو الإمام الفاطمي، وحذر السلطان من الإدعاء الزائف للعباسيين، ومن دسائس نظام الملك وأفعال مختلف الظالمين، وحثه أن يقوم بعمل ضدهم، وإذا لم يفعل فإن حاكماً أكثر عدلاً سيظهر ويفعل ذلك مكانه، ونشر هذين النصين بأشكال مختلفة يسيراً من قبل محمد شرف الدين (يالتكايا) في مجموعة كلية إلهيات دار الفنون (استانبول)، 7/ 4 (1926)، 38ـ44، ومرة أخرى بشكل مستقل من قبل نصر الله فلسفي في اطلاعات ماهانه (طهران)، 3/ 27 خرداد 1329 خ، 12ـ16 (أعيد طبعهما من قبله في بضع مقالات طهران 1342 خ 415ـ425) وقبلت صحة الرسائل من قبل المحققين، وبحذر أكثر من قبل عثمان توران (تاريخ السلاجقة ومدنية الترك الإسلامية، أنقرة 1965، 227ـ30)، ولكن رفضتا من قبل كافس أوغلو (سلطان ملك شاه. . ، 134ـ5) وإن مقارنة للرسالة المعزوة لحسن مع الحقائق المعروفة عن حياته من جهة، ومع نماذج الرسائل الاسماعيلية الموجودة من جهة أخرى ستؤكد شكوك كافس أوغلو.

وقد أسست الأخبار حول حسن الصباح وخلفائه في ألموت، التي جاءت عند المؤرخين الإيرانيين المتأخرين في الأغلب على الجويني ورشيد الدين، مع بعض الإضافات التي هي بالبداهة ذات أصل أسطوري، وعلى كل حال هناك مصادر أخرى للمعلومات، فالكثير من المعلومات الثمينة حول الاسماعيلية، يمكن أن تجمع من كتابات مؤرخي الامبراطوريات السلجوقية المعاصرين والقريبة من المعاصرين، بما في ذلك كتابات في كل من العربية والفارسية تتعلق بالتاريخ المحلي والعام. ومن أحسن هؤلاء المؤرخ العربي المشهور ابن الأثير (1160ـ1234) الذي يحتوي تاريخه (الكامل في التاريخ، 14 مجلد تحقيق س. ج. تورنبرغ ليدن ـ أوبسالا، 1851ـ1876، أعيد طبعه في القاهرة في تسعة مجلدات، 1348 وما بعد ذلك: كلا الطبعتان قد استخدم) إلى جانب الكثير من المعلومات ذات العلاقة، ترجمة

قصيرة لحسن الصباح التي هي كما هو بديهي مستقلة عن السر كذشت، وأعطيت رواية أطول لهذه الترجمة من قبل المؤرخ المصري المتأخر (المقريزي، المقفى، مخطوطة برتوباشا 496 استانبول) لكن مصدره غير معروف.

ومن أجل مؤرخي هذه الحقبة بشكل عام انظر كلود كاهن «الكتابات التاريخية للحقبة السلجوقية في مؤرخي الشرق الأوسط» تحقيق برنارد لويس وب. م. هولت، لندن 1962، 59 ـ 78. وبالإضافة إلى المصادر الأدبية هناك كمية نامية من الشواهد الأثرية، والأعمال التي تتعلق ببقايا القلاع الاسماعيلية في إيران قد ذكرت في الحاشية 15 للفصل الأول السالف، وفي الحاشية 22 للفصل الثالث اللاحق.

(1) رشيد الدين، 97. كاشاني، 120. تبعاً للجويني 187/ 667 ولد حسن في الري، وتبعاً لمصادر أخرى أخذ إليها كطفل، ويبدو أن هذا الخلاف عائد لاختصار الجويني الاعتباطي. وتبعاً لابن الجوزي (ت 1201) جاء حسن بالأصل من مرو، وقد خدم لدى الرئيس عبد الرزاق، بن بهرام وذلك عندما كان شابا (المنتظم 9، حيدر أباد 1359، 121، المؤلف نفسه تلبيس إبليس، القاهرة، 1928، 110 ترجمة انكليزية من قبل د. س مرجليوت «The Devil's delusion» في I.C.، 9، 1935، 555) وفي الرسالة المدعاة بأنها أرسلت من حسن إلى ملك شاه، قال بها حسن بأن والده كان شافعياً سنياً، وهذه واحدة من التفصيلات التي ترمي شكاً حول صحة الرسالة، انظر هودجسن 43، فلسفي 406.

(2) جويني، 188 ـ 9/ 667 ـ 8. رشيد الدين، 97 ـ 9. كاشاني، 120 ـ 3. هودجسن، 44 ـ 5. حول ابن عطاش انظر (2) EI تحت اسمه (لبرنارد لويس).

(3) رشيد الدين 110 ـ 2. وعن قصة رفاق المدرسة الثلاث انظر ا. ج. براون وهناك ضوء أكثر عن عمر الخيام، في TRAS (1899)، 409 ـ 16. هـ. باون، المقال ذكر أعلاه. براون تاريخ الأدب، 190 ـ 3. م. ث هوتسما M. Th. Houtsma Recueil de textes relatifs à l'histoire des Seldjoucids, ii, Leiden 1889, Preface, pp. Xiv xv, N. 2. هودجسن، 137 ـ 8. ويدافع فلسفي (406 ـ 10) عن صحة القصة، ويقول مصدر مصري متأخر (ابن الدواداري، كنز الدرر، 6، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة 1961، 494) بأن حسن الصباح كان من أتباع الغزالي، وهذا يعود كما يبدو إلى خطأ بالفهم.

(4) ابن الأثير سنة 494، 10، 215 ـ 6/ 8، 201. وكذلك المصدر نفسه، سنة 427، 9، 304 ـ 5/ 8، 11، وسنة 487، 10، 161/ 8، 172 ـ 3. وتبعاً لابن الأثير رحل حسن إلى مصر متخف بزي تاجر، ومن أجل تفصيلات أوسع، انظر المقريزي، المقفى حسن بن الصباح.

(5) تقع رواية حسن الخاصة عن رحلته إلى مصر ومنها، في النصوص الثلاثة للجويني 189 - 91/ 668 - 9، ورشيد الدين 99 - 103، والكاشاني، 122 - 5. وأيضاً هودجسن 45 - 7. (اصلح الخطأ المتعلق بطول مدة إقامة حسن في مصر من قبل المؤلف نفسه في مقالة في (2) EI)، فلسفي 411 - 2، وواضح من رواية حسن بأنه لم يقابل الخليفة الفاطمي شخصياً، ولهذا فإن قصة ابن الأثير عن مقابلة كهذه، وعن تسمية الخليفة لولي عهده بشكل مضطرب، غير صحيحة (انظر آصف ا.ا. فيظي، الهداية الآمرية - كلكتا 1938، 15) وتحوي الرسالة المعزوة لحسن أنه كتبها إلى ملك شاه تأكيد غريب من أن أمير الجيوش قد أثير ضده من قبل الخليفة العباسي، وأنه أنقذ من مؤامرة أعدائه من قبل الإمام نفسه.

(6) جويني، 190/ 669.

(7) ابن الفقيه مختصر كتاب البلدان، تحقيق م. ج. دي غويه، ليدن 1885، 283 ونقل من و. مينورسكي، دولة الديلم La domination des Dailamites باريز، 1935، 5.

(8) ابن الأثير سنة 494، 10، 215/ 8، 201.

(9) جويني، 193/ 669 - 70.

(10) جويني 193 - 5/ 669 - 71. رشيد الدين، 103 - 5. كاشاني، 125 - 8 ابن الأثير سنة 494، 10، 216/ 8، 201 - 2. هودجسن، 48 - 50 فلسفي، 413 - 4.

(11) رشيد الدين، 134، نصوص مختلفة في كاشاني، 154 وجويني 216/ 683 من صفات الجويني أنه يبدل كلمة دعوة إلى بدعة.

(12) جويني 199/ 673 - 4. وكذلك رشيد الدين 107. كاشاني 130.

(13) جويني، 208 - 9/ 678. رشيد الدين، 115 - 16. كاشاني، 136 - 7.

(14) جويني، 200/ 674. رشيد الدين، 107 - 8. كاشاني، 130 - 1. ابن الأثير، سنة 494 - 10، 217/ 8، 202. هودجسن، 76.

(15) ابن الأثير، سنة 494، 10، 217/ 8، 202 هودجسن، 76.

(16) ابن الجوزي، المنتظم، 9، حيدر أباد 1359 هـ، 120 - 1. نفسه، تلبيس إبليس، القاهرة 1928، 110 (ترجمة إنكليزية من قبل د. س. مرجليوث في، 9، 1935، 555)، ابن الأثير سنة 494، 10، 213/ 8، 200 - 1. هودجسن، 47 - 8.

(17) جويني، 201 - 2/ 674 - 5. وكذلك رشيد الدين، 108 - 9 كاشاني 131. هودجسن 74 - 5.

(18) رشيد الدين، 110، وكذلك جويني، 204/ 676ـ7 (وحواشي المحقق على الصفحات 406ـ7 من النص). كاشاني 132ـ3. ابن الأثير، سنة 485، 10، 137ـ8/ 8، 161، 2. م. ث هوتسما، موت نظام الملك وجرائره في مجلة التاريخ الهندي، 3 (1924) 147ـ60. هودجسن، 57.

(19) حقق النص الفارسي من قبل محمد تقي دانشيز هوه في مجلة كلية الآداب لجامعة تبريز 17/ 3، 1344 خ، 329. ونشر الدكتور دانشيز هوه في الأعداد التالية مجموعة من المصادر الهامة، معظمها في الكلام، وتتعلق بالاسماعيلية.

(20) و. ايفانوف قصيدة اسماعيلية في مدح الفداوية «An Ismaili poem in praise of fidlawis في JBBRAs 14/ 1938) 63ـ72.

(21) و. ايفانوف «تنظيم الدعوة الفاطمية The Organization of the Fatimid في JBBRAs 15 (1939)، 1ـ35 وانظر ملاحظات الكاتب نفسه في مقدمة تحقيقه لديوان خاك Khaki الخراساني (بومباي 1933، 11) وهفت أبو اسحاق القوهستاني (بومباي 1959، 11ـ14). وانظر زيادة مقالي «داعي (لـ. هـ. ج. د. هودجسن) ودعوة (لموريس كنار) في [(2) EI]. وبحثت المراتب من قبل نصير الدين الطوسي في، روضة التسليم التي تدعى عادة «التصورات» حققها وترجمها. و. ايفانوف، بومباي 150 النص 96ـ7، الترجمة 143ـ4. ومن بيان اسماعيلي حديث أسس على بعض المادة القديمة، انظر:

Mian Bahi Mulla Abdul Husain Glzari Daudi for the Bohras of India.

أحمد أباد بدون تاريخ (1920)؟.

(22) جويني، 207ـ8/ 678ـ9. رشيد الدين، 116ـ20. كاشاني، 1378ـ41. هودجسن 76 الحاشية. و86ـ7. من أجل قلعة جردكوه. انظر و. ايفانوف «بعض الحصون الاسماعيلية في إيران: في IC، 12 (1938)، 392ـ6. و Manucehrs sutudal قلعة جردكوه، في Mihr، 8، (1331 خ)، 339ـ43. 484ـ90.

(23) يبدو أن صعود وسقوط الاسماعيلية في أصفهان قد أخذ قليلاً من انتباه مؤرخ ألموت فليس لدى الجويني شيئاً يقوله حول الموضوع، وأعطى رشيد الدين (120 ف) وكاشاني (142 ف) رواية قصيرة يمكن أنها قامت على مصادر أخرى غير اسماعيلية، وقد بحث الحديث في المصادر العامة للحقبة؛ على سبيل المثال: ابن الراوندي، راحة الصدور، تحقيق محمد إقبال، لندن 1921، 155ـ61. ظهير الدين النيشابوري، سلجوق نامة، طهران 1332خ. 39ـ42. ابن الجوزي، المنتظم، 9ـ150ـ1ـ البنداري، مختصر عماد الدين، تاريخ آل سلجوق تحقيق م. ث. هوتسما، ليدن 1889، 90ـ2. ابن الأثير سنة 494، 10، 215ـ17/ 8، 201ـ

4. سنة 500، 10، 299، 302/ 8، 242 ـ 3، إلخ. ودراسات حديثة: هودجسن 85 ـ 6، 88 ـ 9، 95 ـ 6. لويس مادة «ابن عطاش» في (2) ـ محمد مهريار، «شاه دزكجاست؟ في مجلة الآداب، أصفهان، 1 (1343/ 1965)، 87 ـ 157.

(24) ابن الأثير، سنة 494، 10، 220/ 8، 203.

(25) ابن الأثير، سنة 497، 10، 260/ 8، 223.

(26) ابن الأثير، سنة 494، 10، 221/ 8، 204.

(27) ابن الأثير، سنة 500، 10، 229/ 8، 242. وأعطى ابن الأثير أوفى رواية عن الحصار.

(28) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، تحقيق، هـ. ف. أمدروز، بيروت 1908، 153. ترجمة فرنسية من قبل R. Le Tourneau «دمشق 1075 ـ 1154» دمشق 1952، 68 ـ 9.

(29) جويني، 211/ 680. وكذلك رشيد الدين 124 ـ 5 كاشاني 135 ـ 6. ابن القلانسي 162 (= Le Tourneau ـ 84 84). البنداري، 98 ـ 100. ابن الأثير سنة 503، 10، 335/ 8، 259. هودجسن، 97.

(30) جويني، 207/ 678.

(31) جويني، 212/ 681. رشيد الدين، 126 ـ 32. كاشاني 141 وما تلاها. ابن الأثير، سنة 511، 10، 369 ـ 70/ 9، 278.

(32) البنداري، 147.

(33) جويني، 213 ـ 5/ 681/ 2. وكذلك رشيد الدين، 123 كاشاني 144. وأخبر كاتب اسماعيلي قصة السكاكين والرسالة المتعلقة بصلاح الدين.

(34) ابن القلانسي، 203. ترجمة إنكليزية من قبل أ. ر. جب، «مؤرخ دمشق للحروب الصليبية» لندن 1932، 163.

(35) رشيد الدين، 132، 137. وكذلك كاشاني، 153، 156.

(36) ابن ميسر، أخبار مصر، 65 ـ 6. وكذلك المصدر نفسه، 68 ـ 9. ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عدلي مخلص في BIFAO، 27/ 1925)، 49. س. م. ستيرن «رسالة الخليفة الفاطمي الآمر (الهداية الآمرية) تاريخها وعرضها «في JRAS (1950)، 20 ـ 31. هودجسن، 108 ـ 9.

(37) جويني، 215/ 682 ـ 3. وكذلك رشيد الدين، 133 ـ 4. كاشاني 153 ـ 4.

(38) ابن الأثير، سنة 494، 10، 216/ 8، 201. مقريزي، المقفى، مادة الحسن بن الصباح.

(39) جويني، 2/ 6. وكذلك رشيد الدين ويقول رشيد الدين، 38 سنة؛ 124 كاشاني 145.

(40) المصادر نفسها.

(41) بالنسبة لسيرته لنفسه انظر حاشية المصادر لهذا الفصل أعلاه. وقد أعطي مختصر رسالته المدعوة الفصول الأربعة، في نص عربي من قبل الفقيه الشهرستاني (من القرن الثاني عشر) في كتابه الملل والنحل، المذكور أعلاه. ترجمة إنكليزية في هودجسن، 325 ـ 8.

الفصل الرابع:

إن الكثير مما قيل أعلاه فيما يتعلق بحياة حسن الصباح، ينطبق أيضاً على تاريخ الإسماعيلية في إيران في حقبة ما بين موته والاستيلاء المغولي، ويظل مصدرنا الأساسي هو تواريخ ألموت، كما نقلت من قبل الجويني ورشيد الدين والكاشاني، والأدب النزاري الاسماعيلي المتوفر هو في الأساس ديني في محتوياته، ولكنه حفظ بعض الصفحات ذات القيمة التاريخية، ويمكن جمع معلومات إضافية من الكتابات التاريخية والأدبية العامة باللغة العربية، وباللغة الفارسية المتعلقة بالعصور السلجوقية والخوارزمية والمغولية، وإن ما ترجم من هذه الكتابات إلى إحدى اللغات الأوربية هو نذر يسير، وما عدا ترجمة الأستاذ بويل للجويني يمكن الإشارة إلى التالية: Ch. Defremery «تاريخ السلاجقة» (تاريخ كزيده لحمد الله مستوفي) في JA، 11 (1848)، 417ـ 12062 (1848)، 259ـ279، 334ـ70. هـ.ج رافيرتي، تاريخ ناصري (لمنهاج سراج جزجاني) في مجلدين لندن 1881. ا.ج. براون، تاريخ طبرستان (لابن اسفنديار)، (لمحمد النسوي) باريز 1905؛ وفحصت مجموعة من النقود من السكة الاسماعيلية ضربت في 542/ 1147ـ 8، و548/ 1153ـ 4 و551/ 1156ـ 7 و555/ 1160ـ 1. من قبل ب كازانوفا «Momaie des Assassins de Perse» in Revue Numismatique, 3e serie 11 (1893)، 343ـ52. وحفظ نقد إسماعيلي ذهبي صغير في متحف الآثار في استانبول (E 175).

إن الأطروحة الأساسية حول تاريخ الإسماعيلية هي تلك العائدة للأستاذ هودجسن، حيث أن الأعمال الأبكر من قبل الباحثين الآخرين، على الأخص و. إيفانوف، قد نوقشت، وهناك بيانات أقصر يمكن العثور عليها في المقالات، «ألموت، بزرك أميد» إلخ، في EI (2).

وبحثت جوانب خاصة من التاريخ الاسماعيلي من قبل Mme L.V. Stroyeva «Den» Voskresenya iz mertvikh» i ego sotsiol'naya sushtnost, in Kratkiye Soobshceniya Instituta Vostokovedeniya xxxiii (1960), 19-25.

, in Issledovaniyia Po istorii Kull«Poslednii Khoreznshah i Ismailiti Alamuta»» Turinarodov vostoka: sbornik cest Akademika I.A. Orbeli موسكو ـ لينين غراد 1960 ، 451 ـ 63 . وأعطيت بعض البيانات عن الاسماعيلية ومكانتهم في التاريخ المحلي من قبل :
in JA, cc«Les dynasties locales du Gil n et du Daylam»H.L. Rabino di Borgomale
xxxviii (1949), 21406 خاصة 301FF .

وبالنسبة للسلاجقة وخلفائهم يمكن الإشارة إلى الفصول التي كتبت من قبل كلود كاهن في كتاب ك. م. ستون (رئيس المحققين) تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الأول تحقيق. م. و. بلدوين، فيلادلفيا 1955 ، الفصل الخامس. والمجلد الثاني تحقيق ر. ل. وولف. مع هـ. ز. هازارد، 1962 ، الفصل التاسع عشر، والفصل الحادي والعشرين، وإلى المقالات المتعلقة في EI (1) و(2) EI ، وإلى الكتابات التفصيلية لعلماء عرب وإيرانيين وأتراك منهم: عثمان توران، تاريخ السلاجقة، ومدنية الترك الإسلامية، أنقرة 1965 ، ومحمد ألطاي كوين، تاريخ الامبراطورية السلجوقية الكبرى، 2، الحقبة الثانية، أنقرة 1954 حسين أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، بغداد 1965 ، وإبراهيم كافس أوغلو تاريخ دولة خوارزم شاه، أنقرة 1956 ، وعباس إقبال. التاريخ الإيراني المفصل 000 . 1 ، طهران 1341 خ .

(1) ابن الأثير، سنة 520 ، 10 ، 445/ 8 ، 319 . وكذلك ابن فندق البيهقي، تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمينار، طهران، طبعة جديدة، 271 ، 276 . كوين 151 ـ 6 . هودجسن 101 ـ 2 .

(2) ابن الأثير، سنة 521 ـ 10 ، 456/ 8 ، 325 ، وكذلك خواندمير، دستور الوزراء، طهران 41314 198 . ناصر الدين منشي كرماني، نسائم الأسحار، تحقيق جلال الدين محدث، طهران 1959 ، 64 ـ 9 . عباس إقبال «الوزارة في عصر السلاطين السلاجقة العظام» ، طهران 1338 خ ، 254 ـ 60 .

(3) رشيد الدين، 138 . كاشاني، 158 . ولم يذكر بنيان ميمون دز من قبل الجويني. ومن أجل وصف مفصل للبقعة إنظر وللي، قلاع الحشيشية 158 وما تلاها .

(4) تاريخ سستان (لجستان)، تحقيق بهار، طهران 1935 ، 391 .

(5) رشيد الدين، 140 . كاشاني، 159 .

(6) جويني، 220 ـ 21/ 685 ، وكذلك رشيد الدين، 141 ـ 2 . كاشاني 164 ـ 5 . هودجسن 104 .

(7) رشيد الدين، 142 ، كاشاني 165 . هودجسن، 103 .

(8) رشيد الدين، 141 ، كاشاني 160 ـ 4 (بيان واف جداً). هودجسن 103 .

(9) جويني 221/ 685 .

(10) رشيد الدين، 146. كاشاني، 168.

(11) رشيد الدين، 146 ـ 7. كاشاني، 168 ـ 9. ابن الأثير سنة 553 ـ 11، 40 ـ 1/ 8، 362. كويمن، 304. كافس أوغلو، 26. هودجسن، 143 ـ 4.

(13) جويني، 322 ـ 4/ 686 ـ 7. وكذلك رشيد الدين، 162 ـ 4. كاشاني 183 ـ 4.

(14) أبو إسحاق القوهستاني، هفت باب، تحقيق وترجمة. و. إيفانوف، بومباي 1959، 41. وكذلك و. إيفانوف، كلام الشيخ، بومباي 1935، 60 ـ 1 و225 ـ 7. بيانين اسماعيليين آخرين في هفت باب بابا سيدنا (تحقيق إيفانوف في رسالتين اسماعيليتين مبكريتن، بومباي 1933، ترجمة إنكليزية مع حواشي، في حشيشية هودجسن 269 ـ 324) وعند الطوسي «روضة التسليم» (فهارس). بحثت في هودجسن، 148 ـ 57. Bausani, Persia religiosa 211-2 هـ. كوربن Corbin ومحمد معين محققاً كتاب جامع الحكمتين لناصر خسرو، طهران ـ باريز 1953. المقدمة 22 ـ 5. Stroyeva 'Den' Voshreaenya..., Loc. cit. (في حاشية المصادر أعلاه).

(15) جويني، 230/ 691. وكذلك رشيد الدين، 166. كاشاني، 168.

(16) جويني، 237 ـ 8/ 695 ـ 6، وكذلك رشيد الدين، 168 ـ 9. كاشاني 188. وعزيت عقائد مماثلة إلى طائفة الخناقين في القرن الثامن، انظر أعلاه صفحات 146. من أجل رقم 28 يرجع إلى المطبوع إلى فصل الاسماعيلية حين شبههم بالخناقين الهنود.

(17) رشيد الدين، 169. وكذلك جويني، 238/ 696. كاشاني، 188 (مع بعض النقول من مدح اسماعيلي ديني لحسن).

(18) جويني، 239/ 697. وكذلك رشيد الدين، 169 ـ 70. كاشاني، 191. هودجسن 157 ـ 9.

(19) رشيد الدين، 170 ـ 3. وكذلك كاشاني، 192 ـ 4. هودجسن، 183.

(20) P. Kraus Les «controverses» de Fakhr Al-Din Razi, in BIE in IC, xii, 1938, 146 FF نص إنكليزي xix (1936-7) 206 FF.

(21) جويني 241 ـ 4/ 698 ـ 701. وكذلك رشيد الدين، 174 وما تلاها. كاشاني 198 وما تلاها هودجسن، 217 وما تلاها.

(22) جويني، 247/ 702 ـ 3. كاشاني، 199. هودجسن، 224 ـ 5.

(23) جويني، 248/ 703. وكذلك رشيد الدين، 177 ـ 8. كاشاني، 200 ـ 1.

(24) جويني، 249/ 4. وكذلك رشيد الدين، 178. كاشاني، 201.

(25) هامر، تاريخ الحشيشية، 154 ـ 5.

(26) نصير الدين الطوسي، روضة التسليم، النص 49، الترجمة، 67 ـ 8. وكذلك هودجسن، 229 ـ 31.

(27) جويني، 249 ـ 53/ 704 ـ 7. وكذلك رشيد الدين، 179 وما تلاها. كاشاني 201 وما تلاها.

(28) محمد النسوي، تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق و. هوداس، باريز 1891، 132 ـ 4. ترجمة فرنسية، باريز 1895، 220 ـ 3. حققت ترجمة فارسية معاصرة تقريباً من قبل الأستاذ مجتبى منوي، سيرة جلال الدين، طهران 1965، 163 ـ 6.

(29) نسوي، نص عربي، 214 ـ 5. ترجمة فرنسية، 358 ـ 9. النص الفارسي، 232 ـ 3.

(30) رشيد الدين، 181. وكذلك كاشاني، 205. هودجسن، 257.

(31) جويني، 253 ـ 6/ 707 ـ 9. وكذلك رشيد الدين، 182 ـ 4. كاشاني، 205 ـ 6.

(32) منهاجي سراج جزجاني، طبقات ناصري، تحقيق عبد الحي حبيبي، الطبعة الثانية، 1، كابول 1964، 182 ـ 3. ترجمة إنكليزية. هـ. ج. رافرتي، 2، 1197 ـ 8.

(33) جويني، 260/ 712 ـ 3. وكذلك رشيد الدين، و185 ـ 6. كاشاني، 207.

(34) جويني، 265/ 716. وكذلك رشيد الدين، 189. كاشاني، 209.

(35) جويني، 267/ 717. وكذلك رشيد الدين: 190. كاشاني، 210.

(36) رشيد الدين، 192 يدعوها كاشاني، 213 تركية. ويذهب جويني، 274/ 722، أبعد فيجعلها تركية من مرتبة وضيعة. انظر حول هذه المسألة حاشية الأستاذ بويل على ص 722 من ترجمته. واتفق على قصة الجمل الجويني والكاشاني بنص يختلف قليلاً عن نص رشيد الدين (213).

(37) جويني، 136/ 636 ـ 7.

(38) جويني، 277/ 724 ـ 5. وكذلك رشيد الدين، 194. كاشاني، 215.

(39) جويني 139 ـ 42/ 639 ـ 40.

(40) جويني، 278/ 725. وكذلك رشيد الدين، 194 ـ 5. كاشاني 215. النقل الأخير من القرآن 6/ 116.

الفصل الخامس:

لقد كتب الكثير حول تاريخ الاسماعيلية في سورية. ويمكن إيجاد أحدث التفصيلات في الأجزاء المتعلقة من حشيشية هودجسن، وفي برنارد لويس «الاسماعيلية والحشيشية» الفصل الرابع «من ك. م. ستون (رئيس المحققين) تاريخ الحروب الصليبية، 1، تحقيق. م. و.

بلدوين، المئة سنة الأولى، فيلادلفيا 1955، 99 ـ 132. ولقد أعطيت هناك إحالات وافية إلى المصادر، وقد أحصي الأدب المبكر من قبل برنارد لويس «المصادر من أجل تاريخ الحشيشية السورية» في Speculum 27 (1952)، 475 ـ 89. ويوجد بين الدراسات الأقدم مقالين Ch. Nouvelles recherches sur les Ismaéliens ou JA, 5e série, iii (1854), 373-»Defrémery, Bathiniens de Syria 5-76 في 421 and V (1855), وهما ما يزالان يستحقان بعض الاهتمام، وضمنت كتابات أحدث في «صلاح الدين والحشيشية» لبرنارد لويس في BSOAS 15 (1953)، 239 ـ 45. وفي كتاب J.J. Saundes Christ church, Aspects of the crusades نيوزلاندا، 1962، الفصل الثالث (دور الحشيشية) 22 ـ 7. وفي أطروحة لم تنشر قدمت لشهادة الدكتوراه في جامعة Durham سنة 1963 من قبل ناصح أحمد ميرزا بعنوان «الاسماعيليون السوريون زمن الحروب الصليبية» The Syrian Ismailis at time of the crucaders.

وبدأ أخيراً عدد من الكتاب الاسماعيليين السوريين في نشر نصوص ودراسات، وحتى الآن إن كل ما نشر من نصوص هي في الأساس ذات محتوى ديني، وتقدم القليل من المعلومات ذات القيمة التاريخية المباشرة، ويمكن جمع بعض المعلومات من معجم تراجم حديث قام في جزء منه على مواد متوارثة كتبه مصطفى غالب بعنوان «أعلام الاسماعيلية» بيروت 1964، وكذلك من عدد من المقالات لعارف تامر نشرت في عدد من المجلات العربية لأنها تحتوي بعض الشواهد المبكرة. «سنان راشد الدين أو شيخ الجبل» في الأديب، أيار 1953، 43 ـ 5. الأمير مزيد الحلي الأسدي، شاعر سنان شيخ الجبل» في الأديب، اب 1953، 53 ـ 6 «الشاعر المغامر: الأمير مزيد الحلي الأسدي» في الحكمة، كانون الثاني 1954، 49 ـ 55 «الفرقة الاسماعيلية الباطنية السورية» في الحكمة، شباط 1954، 37 ـ 40. «الفترة المصيرية من تاريخ الاسماعيليين السوريين» في الحكمة تموز 1954، 10 ـ 13. «صفحات أغفلها التاريخ عن الفرقة الاسماعيلية السورية» في الحكمة في أيلول 1954، 39 ـ 41. «فروع الشجرة الاسماعيلية الإمامية» في المشرق (1957). 581 ـ 612 (تشمل نص رسالة من جلال الدين حسن، سيد ألموت إلى الاسماعيلية في سورية 601 ـ 3). ونشر السيد تامر أيضاً مقالاً في الانكليزية «بهرام بن موسى: الوكيل الاسماعيلي الأعلى» في الأخبار الاسماعيلية (يوغندا)، 21 آذار 1954، ورواية تاريخية بالعربية، سنان وصلاح الدين، بيروت 1965، وعدد لا بأس به من النصوص.

ويبدو مما خرج للنور حتى الآن أن اسماعيلية سورية لم يحتفظوا بمدونات تاريخية، وذلك بالمقارنة مع المدونات التاريخية لألموت التي نقلت من قبل الجويني ومؤرخين فرس آخرين،

وسيرة سنان أعظم المقدمين السوريين، هي ترجمة متأخرة وذات أهمية محدودة، ونشر النص مع ترجمة فرنسية من قبل «Un grand maître de Assassins au S. Guyord temps de
in JA, 7e série, ix (1877) 324-489.«Saladin
وأعيد نشرها من قبل محمد شرف الدين (يالتكايا) في «مجموعة كلية إلهيات دار الفنون» 7 /2 (استانبول 1928)، 54 ـ 71. وجاءت بعض المعلومات المتعلقة بالمنطقة الاسماعيلية في ترجمة سنان التي ضمنت في معجم تراجم كمال الدين ابن العديم (بغية الطلب في تاريخ حلب) ط. دمشق 1988، ونشر النص مع ترجمة وحواشي في مقال برنارد لويس «ترجمة كمال الدين لراشد الدين سنان» في Arabica 8 (1966).
وما عدا مثل هذه القطع الصغيرة الباقية مع بعض النقوش المحلية (انظر حولها J.A. في .M 9e série ix (1897, 453-501)«Epigraphie des Assassins de Syrie»Van Berchem,
وعلى مؤرخ حشيشية سورية أن يعتمد على المصادر العامة لتاريخ سورية في هذه الحقبة.

(1) النص العربي في مقال برنارد لويس «ثلاثة تراجم من كمال الدين» في Mélanges Fuad Köfrülü استانبول 1953، 336.

(2) كمال الدين ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، 2 دمشق 1954، 532 ـ 3.

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق ـ تحقيق. هـ. ف. امدروز، بيروت 1908، 215 ترجمة إنكليزية من قبل. هـ. أ. ر. جب، The Damascus Chronical of Crusades لندن 1932، 179.

(4) كمال الدين، زبدة، 2/ 235.

(5) ابن القلانسي، 221، الترجمة الإنكليزية، 187 ـ 8.

(6) ابن القلانسي، 223، الترجمة الانكليزية، 193.

(7) رشيد الدين، 145. كاشاني، 167. وأعطى كلاهما تاريخ القتل سنة 524 هـ، وتتفق المصادر السورية على أن بوري قد هوجم في سنة 525هـ، وتوفي في سنة 526هـ، وتبعاً لأحد التقارير استخدم مهاجموه سكاكين مسمومة. ولم يؤكد استخدام السم من قبل المصادر المعاصرة، ويبدو أنه بعيداً عن التصور.

(8) برنارد لويس «ترجمة كمال الدين لراشد الدين سنان» 231 ـ 2.

(9) برنارد لويس «ترجمة كمال الدين. . .» 230.

(10) كمال الدين، زبده، 3/ 31.

(11) لويس، ترجمة كمال الدين. . .، 231.

(12) المصدر نفسه، 10 ـ 11 . أول النحل وآخر الصاد هما آيتان من القرآن جاء فيها: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (16/ 1). ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾ (38/ 88).

(13) المصدر نفسه، 12 ـ 13 .

(14) محمد الحموي، التاريخ المنصوري، تحقيق بطرس غرياز نيوبج، موسكو 1963 . اللوحات 164 و. ظ. 166 ظ ـ 167 و170ظ.

(15) جوانفيل، الفصل 89، 307.

(16) المقريزي، كتاب السلوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، 1، القاهرة 1943، 543 ترجمة فرنسية E. Quatremére, Histoire des Sultana mamelouks 245 . العيني، RHC, historiens orientaux, ii/a, Paris 1887, 223 انظر أيضاً Defrémery «Nouvelles recherches..» 1-50 ,.

(17) رحلة ابن بطوطة تحقيق وترجمة فرنسية من قبل Ch. Defrémery and B.R. Sanguinetti باريز 1863، 166 ـ 7 . وكذلك ترجمة إنكليزية من قبل H.A.R. Gibb, the Travel of Ibn Battuta I, Cambridge 1958, 106.

(18) من أجل سجلات منطقة مصياف في لواء حماة، ومن أجل مجموعة من البقاع دعيت بقلاع الدعوة طرابلس، فإن هؤلاء قد تألفوا من الخوابي، والكهف، والعليقة، والقدموس، والمنيقة، وهناك دراسة قائمة لهذه السجلات، ومن أجل التاريخ الأكثر حداثة انظر: N.N. Lwis «The Isma'ilis of Syria today» في RCAS, xxxix (1952) 69-7 .

الفصل السادس:

يمكن إيجاد بعض الأبحاث عن وسائل وأهداف وأهمية الاسماعيلية في الكتابات التي قد تم ذكرها، على الأخص هؤلاء العائدين إلى هودجسن وبيرتل Bertel، وأعطيت ملامح أكثر اختصاراً في مقالات لـ. د. س. مرجليوث في Hastings في Assassins وأكثر حداثة لـــ Encyclopaedia of Religion and Ethics. R. Gelphe Der Gehenbund von Alamut-Legende und Wirklichleit Anlaios, viii, 1966, 269-93 .

وبحث جانب هام من تطور الديانة الاسماعيلية من قبل هنري كوربن Henry Corbin في «De la gnose antique à la gnose ismaélienne» e Convegno di scients morali storiche e filologiche 1756: Oriente ed Occidente nel medio ero, Rome 1957, 105-46 .

وبحثت وجهات نظر المسلمين من مشاكل السلطة والطغيان من قبل الآنسة آن. ك. س.
لامتون Interational Islamic Colloquium,«(The problem of the unrighteous ruler
Lahore 1960, 61-3. Eadem, Quis custodiet custodes: Some reflections on the Persian
Justice in the medieval»theory of government, 31, 1956, 125-48; vi, 1956, 125046.
. Persian theory of Kingship, in SI, xvii, 1962, 91-119)

ومن قبل. هـ. أ. ر. جب (دراسات حول الحضارة الإسلامية، لندن 1962، 141 وما تلاها)
ومن قبل. ج. ا. فون كرونباون (Islam: essays in the native and) growth of Cultural
. Tradion, London 1955, 127-40, and Medieval Islam, w ed., Chicago 1953, 142-69).

ويبدو أنه ليس هناك دراسة حول اغتيال من هذا النوع، ولكن مما يجدر ملاحظته أن كاتباً من القرن التاسع كتب في بغداد تاريخاً حول مقاتل واغتيالات الأشراف (محمد بن حبيب، أسماء المغتالين من الأشراف، تحقيق عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات، 6 - 7، القاهرة 1954 - 5) وبحث قانون الإسلام حول القتل - كجريمة وكعقاب - من قبل J. Schacht في مقال «قتل» في (1) EI.

أن أحدث معالجة للمهدية الإسلامية هي تلك التي كتبها عيمانويل سركسيانز، Emanuel
. Sarkisyant, (Russland und der Messianismus de Oriento T bingen 1956, 223 FF0
وتشمل الدراسات الأبكر

J. Darmesteter, La Mahdi, Paris 1885; E. Blochet, Le Messianisme dans musulmane, Paris 1903; D.S. Margolioth »Mahdi« in Hastings Encyclopaedia of Religion and Ethics; C. Snouck Huergronje, »Der Mahdi« in Verspreide. Geschriften, I, Bonn 1923, 147-81; D.B. Mac Donald, »Al-Mahdi«, in EI (1).

وشكلت جميعات الرجال في الإسلام من حرف، وجماعات الصناع، والطرق الدينية إلخ - موضوع أدب واسع وإن ذكر بضعة أمثلة تعالج جوانباً مختلفة منه قد تكون كافية: كلود
كاهن «Musulmane du Mouvements Populaires et outonomisme urbain dans
Arabica, v, (1958), 225-50; vi (1959), 25056, 223-65; H.J. Kissling«Moyen Age
Zeitschrift F r Religions-und Geistesgeschichte,«Die islamischen Dermischorden»
(F Taeschner) : مقالان D.B. Mac Donald)«Darwish»xii (1960) 1-16; Ei (2)
C. Cohen F. Taeschner).«Ayyar»

(1) من أجل شواهد تؤيد هذا التفسير للحرب الأهلية الأولى في الإسلام، انظر:
Ali-Mu'awiya e la secessione Annali dell'Istituto»Laura Veccia Vaglieri, Il Conflitto
byn.s. iv (1962), 1-94.« Khorigita.. Futuwwa في Universitorio Oriental di Napoli

(2) انظر هودجسن، 114، حاشية 43، وذلك من أجل شذوذ ظاهر.

(3) أعلاه ص 5.

(4) ج. فان. فلوتن، Fustbundel في «Worgers in Islam».
Van Taal-Letter, Geschied-en Aardrijkundige Bigdragen... aan De P.J. Veth.. Leiden, 1894, 57-63; I. Friedlaender, »the heterodoxies of the Shi'ites, in JAOS, xxviii (1907) 62-4; xxix (1908), 91-5; Loust, Schismes, 33-4.

(5) و. إيفانونف «قصيدة اسماعيلية في مدح الفداوية» في JBBRAS 14، (1938)، 71.

(6) Encyclopaedia of the Social في J.B.S. Hordman, «Terrorism» Sciences.

(7) جوانفيل، فصل 89، 307.

(8) حمد الله مستوفي، تاريخ كزيده، تحقيق ا. ج. براون، لندن - ليدن 1910، 455 - 6. ترجمة فرنسية من قبل Ch. Defrémery في JA, 4e sé, xii (1848). 275.

(9) فحصت هذه التفسيرات الاقتصادية بحذر من قبل A.E. Bertel's, Nasir-i Khosrov i Ismailizm خاصة ص 142، وما بعدها حيث اقتبس الأدب الروسي. وأعطي الرأي الأحدث في مقال Mme Stroeya الذي سلف ذكره. وأعطى بارثولد تصريحاً مختصراً عن آرائه في مقال نشر بالألمانية في «Die Persische su'ubija und die moderne Wissenschaft».

الملاحق

آ نصوص أوربية
من عصر الحروب الصليبية

الحشيشية عند يوانس فوقاس

كان يوانس فوقاس إغريقياً أصله من جزيرة كريت، دخل في السلك الكهنوتي، ومارس عمله الديني في جزيرة باتموس، وقد زار الأراضي المقدسة، وكتب مشاهداته عنها عام 1185.

وكنت قد ترجمت رحلته، ونشرتها داخل كتابي الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج35، ص 377 ـ 404، وورد نصنا التالي في ص380 ـ 381:

«والتالي لهذا ولمدينة أنطاكية هي مدينة اللاذقية، وهي مدينة عظيمة وكثيرة السكان، وهي أيضاً قد فقدت عظمتها، ويليها جبلة، أو «زبله»، ويلي جبلة قلعة اسمها أنطرطوس، أو طرطوس، على هذه الصورة تقوم قلاع متنوعة على الساحل حتى طرابلس، وهناك في داخل البلاد سلسلة جبلية عظيمة، يسكنها قوم يدعون «الحشيشية»، وهم من الأمة المسلمة، لكنهم لا يأخذون لا بالمسيحية ولا بعقيدة محمدﷺ، إنما يعبدون الله وفقاً لهرطقة خاصة بهم، ويدعون المقدم بينهم باسم رسول الرب (شيخ الجبل)، ويتولى الذين يذهبون بناء على أوامره إلى حكام البلدان الكبيرة، قتلهم بالسيف، ويقفزون عليهم وهم غير متيقظين، ويهلكونهم فور إنجازهم لأفاعيلهم، وبعدها يقاتلون وهم قلة ضد حشد، وذلك بعد تنفيذهم لجريمتهم، ويعدون هذا بمثابة شهادة تجعلهم مخلدين».

29 - الحديث عن فرقة الحشيشية، وعن السفارة التي أرسلوها إلى الملك أيضاً(*):

وقع بيننا في هذه الآونة بالذات أمور كانت مشحونة بنتائج رهيبة للمملكة والكنيسة، لقد وقعت كارثة يؤسف عليها حتى الوقت الحالي، وربما إلى الأبد، وحتى نحصل على فهم واضح للقضية فمن الضروري أن نأخذ في سرد الحكاية إنما بعد أن نعود إلى الخلف قليلاً.

تعيش قبيلة من الناس في منطقة صور في فنيقية وفي أبرشية طرطوس حيث تمتلك عشرة حصون مع القرى الملحقة بها، ويبلغ تعدادهم، كما سمعنا مراراً، نحو سبعين ألف نسمة، وربما يزيد على ذلك، لقد اعتاد هؤلاء الناس على اختيار حاكمهم ليس بحق وراثي، بل بامتياز الجدارة، ويطلقون على زعيمهم عند اختياره اسم «الشيخ» مترفعين بذلك عن مناداته بلقب مبجل، وخضوعهم وطاعتهم له مطلقتان حيث لا يعدون أي شيء صعباً أو قاسياً جداً في سبيل ذلك، ويتولون القيام بتلهف بأكثر المهام خطورة تلبية لأمره ومثالاً على ذلك، إذا ما حدث ووجد أمير جلب على نفسه كراهية هذا الشعب أو عدم الثقة به، فإن الزعيم يضع خنجراً في يد واحد أو عدد من أتباعه، فيعملون بحماسة طالما يستلزم ذلك حتى تأتي الفرصة المواتية في آخر الأمر بحيث يمكنهم تنفيذ أمر الزعيم، ولا يعرف المسيحيون ولا المسلمون من أين اشتق اسم الحشيشية هذا، حيث كان الحشيشية قد اتبعوا شريعة وتقاليد المسلمين منذ قرابة أربعمائة عام وبشكل تام لدرجة أن جميع الشعوب تبدو بالمقارنة معهم منحرفة وأنهم وحدهم المتقيدون الكاملون بالشريعة، لكن حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكماً لهم كان رجلاً فصيحاً جداً، وحاد الذكاء ولامعاً، وكان بحوزة هذا الرجل ـ خلافاً لعادات أسلافه ـ كتب الأناجيل والشريعة الرسولية، وقد انكب باستمرار على دراسة هذه الكتب وحاول لمدة من الزمن وبجهد كبير اتباع الوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية أيضاً.

(*) من تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تأليف وليم رئيس أساقفة صور المتوفي عام 1185، والملك الذي أشار إليه هنا هو الملك عموري الأول ملك القدس، الذي عاصر نور الدين، وتوفي بعده بوقت قصير.

ودفعته العقيدة الوديعة والمهيبة للمسيح وأتباعه، بعد مقارنتها مع عقيدة محمد ﷺ التعيسة التي كان قد نقلها إلى أصحابه وأتباعه المخدوعين، إلى احتقار المعتقدات التي كان قد رضعها مع حليب أمه، وإلى مقت معتقدات الضلال القذرة، فكان أن أقدم بالطريقة نفسها على تعليم شعبه وجعلهم يتوقفون عن التقيد بخرافة الإسلام، فدمر المساجد التي اعتادوا على استخدامها، وأعفاهم من الصوم وسمح لهم بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وأرسل في نهاية المطاف مندوباً إلى الملك حيث كان راغباً بالتقدم إلى فهم كامل لأسرار شريعة الرب، وكان هذا المندوب، الذي يدعى عبد الله، رجلاً حكيماً وفصيحاً وبارعاً في المشورة، ومتمكناً تماماً من فهم عقيدة سيده، وقد حمل اقتراحات سرية كانت الفكرة الرئيسة منها والفقرة الأكثر أهمية أن شعب الحشيشية سيقوم إذا ما تولى الداوية، الذين كانوا يحتفظون ببعض القلاع المجاورة لمناطقهم، بإلغاء جزية الألفي قطعة ذهبية التي كان شعبه يدفعها لهم سنوياً، وإذا ما تقيدو من ذلك الحين فصاعداً بمعاملتهم بلطف أخوي، سيقوم باعتناق عقيدة المسيح وتلقي التعميد.

30 - فرسان الداوية يقتلون رسول الحشيشية. نشوب اضطراب عنيف جداً في المملكة نتيجة لهذا. موت رالف أسقف بيت لحم:

استقبل الملك الرسول بسرور، وبما أنه كان رجلاً صاحب حسٍّ سليم، فقد وافق تماماً على المطالب المقدمة، ويقال إنه كان مستعداً لأن يعوض الداوية من خزينته الخاصة ويدفع لهم ألفي قطعة ذهبية، أي مقدار الجزية السنوية التي طلب الحشيشية إعفاءهم منها، واحتفظ بالرسول لديه مدة طويلة من الزمن ليكمل معه تفاصيل الاتفاق، ثم أعاده إلى سيده لإعداد الترتيبات الأخيرة، ومعه مرشد ليقوده ويحميه على الطريق، وكان عبد الله قد اجتاز طرابلس بمرافقة الدليل والرفيق الذي زوده الملك به وكان على وشك الدخول في بلاده عندما انقض بعض فرسان الداوية فجأة على فريقه بسيوف مسلولة وقتلوه. وكان هذا الرسول يواصل رحلته دون حذر، وبشكل بعيد عن توقع حدوث عمل كهذا، وباعتماد تام على أمان الملك وعلى الود المخلص لشعبنا، وجلب الفرسان على أنفسهم بهذه الجريمة تهمة الخيانة.

أثار نبأ هذا العمل الوحشي غضب الملك، بشكل عنيف جداً، فاستدعى النبلاء، وهو مسعور تقريباً، وأعلن لهم أن الاعتداء وصل إلى حد الإساءة إليه شخصياً وطلب

مشورتهم بخصوص العمل المتوجب اتخاذه، وكان النبلاء على رأي واحد وهو أنه لا ينبغي التغاضي عن عمل شرير كهذا، لأن السلطة الملكية بدت أنها ملغاة، وأنه قد جلب عاراً جائراً على ود وولاء العقيدة المسيحية، زد على هذا أن الكنيسة بدت في الشرق بهذا العمل معرضة لاحتمال فقدان التوسع السار جداً للرب الذي جرى إعداده لها من قبل.

ولذلك تم بموافقة الجميع اختيار نبيلين هما: سهير دي ميمدنك Seiher de Mamedunc وغودز كالوس (غودتشوكس) دي تور آوت كرسولين خاصين ليطلبا من يودز دي سينت أماند مقدم الداوية تقديم تعويض إلى الملك والمملكة بأسرها عن هذا الاعتداء المدنس للمقدسات.

قيل إن واحداً من الداوية يدعى وولتر دي ميسيلو وكان رجلاً بعين واحدة وصاحب سمعة شريرة، ويفتقر إلى التعقل تماماً «حيث كانت روحه في منخريه»[1]، كان المدبر الحقيقي للجريمة، وأنها تمت بمعرفة الداوية جميعاً، ويقال إضافة لذلك إن المقدم أرسل ـ رغبة منه في استبقاء هذا الرجل بشكل يفوق استحقاقاته ـ رسالة إلى الملك مع رسول كان مفادها أنه كان قد فرض عقوبة على الفارس المذنب، وعلى وشك إرساله إلى البابا، وقد حظر نيابة عن البابا على أي إنسان القبض على الفارس المذكور أو إلحاق الضرر به[2]، كما استدرك فأضاف عبارات أخرى أملتها روح التعجرف المفرطة والرعونة التي كانت تستبد به، وأنه لمن غير الضروري أن ندونها هنا.

ذهب الملك شخصياً إلى صيدا بخصوص هذه المسألة، ووجد المقدم مع عدد كبير من الفرسان بما فيهم المجرم نفسه، وأمر الملك بعد تداوله مع الذين كانوا قد رافقوه إلى هناك بجر الرجل المتهم بالخيانة من داخل منزله وإرساله مكبلاً بالسلاسل إلى مدينة صور حيث

---

(1) أشعيا: 2/ 22.

(2) كان الداوية قد أصبحوا، مثل الاسبتارية تحت الرعاية البابوية بوساطة سلسلة من المراسيم وبشكل خاص مرسوم عام 1154، وذلك كنظام ديني، وقد بات بإمكانهم بالطبع التماس الحصانة الإكليركية، كما حدث هنا، للحصول على الحصانة من القضاء المدني، وحقق هذا الالتماس، الذي تجاهلته السلطات الإقطاعية لمدة طويلة، نفوذاً كبيراً خلال القرن الثاني عشر. هذا ومن الممتع أن نشير إلى أن عموري لم يمنحه سوى احتراماً جزئياً حتى في الأرض المقدسة، وكانت معاملة رجال الدين المجرمين أحد المواضيع الرئيسة للشجار بين هنري الثاني وتوماس آبيكت في الحقبة ذاتها تقريباً في إنكلترا.

ألقي في السجن، وكاد هذا الاعتداء على المبعوث أن يقحم المملكة بأسرها في دمار يتعذر إصلاحه، وتمكن الملك، بإعلان براءته إلى مقدم الحشيشية الذي كان رسوله قد هلك بطريقة مشؤومة جداً، واستطاع تنظيف شرفه، وبذل الملك في تعامله مع فرسان الداوية اعتدالاً كبيراً لدرجة أن المسألة بقيت معطلة حتى يوم وفاته، ومن ناحية ثانية، يقال إن الملك عموري كان قد عقد العزم على عرض المسألة على ملوك وأمراء الأرض عن طريق مبعوثين ذوي منزلة سامية، حيث كانت ستلاقي دراسة دقيقة للغاية، لو أنه شفي من المرض الأخير الذي ألم به[1].

---

(1) من المؤكد أن وليم حصل على هذا الوصف لنوايا عموري من الملك نفسه مباشرة، واستاء وليم، كونه رئيساً للأساقفة من استقلال الداوية عن السيطرة الكنسية المحلية، وربما قدم موافقته القلبية لمناشدة كهذه.

اغتيال المركيز كونراد أوف مونتفرات صاحب صور

كانت أقدم الروايات الغربية حول هذا الاغتيال هي التي كتبها معاصرها بالفرنسية القديمة صاحب الذيل الأول على تاريخ وليم الصوري، وكنت قد ترجمت هذا الكتاب ونشرته في المجلد الثامن من الموسوعة الشامية من تاريخ الحروب الصليبية، انظر ص421:

كيف فتك الحشيشية بالماركيز:

وحدث أن وصلت سفينة من سفن تجار المسلمين من بلاد الحشيشية إلى مدينة صور، وكان الماركيز هو سيد المدينة يتصرف يها وفق هواه، وهكذا بعث برجاله فاستولوا على السفينة، وعندما علم مقدم الحشيشية بما حدث بعث برسالة إلى الماركيز تهدده بها، وطلب منه إعادة ما انتزعه من رجاله وإلا فسيقتله، فأجابه الماركيز بأنه لن يعيد شيئاً أبداً، وعند ذلك طلب مقدم الحشيشية من اثنين من رجاله الذهاب إلى مدينة صور ليقتلا الماركيز، فنفذا الأمر وارتحلا، وعندما وصلا إلى صور تظاهرا أنهما مسيحيين فقد لبسا لباسهم، وقصد أحدهما الماركيز وقصد الآخر بالين الذين كان متزوجاً من الملكة ماري، والمقيمة آنذاك بصور.

وحدث في أحد الأيام أن إيزابيل زوجة الماركيز كانت بالحمام، ولم يشأ الماركيز تناول طعامه حتى تعود، غير أنها مكثت مدة طويلة بالحمام وهو راغب بالأكل، لذلك امتطى فرسه هو وبعض الفرسان وذهب إلى بيت رئيس الأساقفة دي بواف ليتناول الطعام معه، غير أنه عندما وصل إليه وجده قد تناول طعامه فقال له: «مولاي الأسقف لقد جئت لتناول الطعام معكم، ولكن بما أنكم قد تناولتم طعامكم فسأعود من حيث أتيت» وسر الأسقف بقدومه ورجاه بالبقاء حتى يقدم له ما يأكله، لكنه لم يقبل، وأخذ الطريق عائداً إلى بيته، وفيما هو في طريق العودة مر بطريق ضيق، وإذا به برجلين على جانبي الطريق، كل واحد منهما على جانب، وقد وقفا أمامه، وتقدم واحد منهما منه وناوله رسالة، ومد الماركيز يده لتناول الرسالة، فما كان من الآخر إلا أن استل مدية هاجمه بها وطعنه عدة طعنات فأرداه قتيلاً، ولقد دفن في بيت فرسان الاسبتارية، وحدث هذا في سنة 1191 لتجسيد يسوع المسيح.

كيف تزوج الأمير هنري دي شامبين من إيزابيل التي كانت زوجة المركيز:

وسمع ملك إنكلترا الذي كان مقيماً في يافا أن فيليب ملك فرنسا قد وصل إلى بلاده.

وسأحدثكم الآن عما قدم من قبرص التي قامت صلات بينها وبين سورية وبلاد ما رواء البحر ـ فقد حدث أن وصلت سفينة عليها تجار من بلاد المسلمين، ومن بلاد مقدم الحشيشية إلى مدينة صور، وكان الماركيز هو المتصرف بشؤون مدينة صور والمتحكم بها، ولذلك بعث رجاله فاستولوا على السفينة، وعندما علم مقدم الحشيشية بما قام به الماركيز، كتب إليه يتهدده وطلب منه إعادة ما انتزعه من رجاله وإطلاق سراحهم وإلا سيقتله، فرد عليه الماركيز بأنه لن يعيد إليه شيئاً، ثم راسله مقدم الحشيشية ثانية وكرر طلبه، ولكن الماركيز كرر الرفض، وبناء عليه أصدر مقدم الحشيشية أوامره إلى اثنين من رجاله للذهاب إلى مدينة صور واغتيال الماركيز، فنفذا الأمر وارتحلا، وعندما وصلا إلى مدينة صور دخلاها وهما متظاهرين بأنهما من المسيحيين، فقد لبسا لباسهم، وقصد أحدهما الماركيز وأما الآخر فقد قصد إلى بالين الذي كان متزوجاً من الملكة ماري(*)، التي كانت مقيمة في مدينة صور.

وحدث في أحد الأيام أن كانت إيزابيل زوجة الماركيز بالحمام، ولم يرغب الماركيز بتناول طعامه حتى تعود، غير أنها مكثت مدة طويلة بالحمام، وبما أنه كان راغباً بالأكل فقد امتطى ظهر حصانه وقام برفقة بعض الفرسان بالذهاب إلى بيت دي بواف رئيس أساقفة صور مستهدفاً تناول الطعام معه، لكنه عندما وصل إليه وجده قد تناول طعامه، ومع هذا قال للأسقف: «مولاي الأسقف لقد جئت لأتناول الطعام معكم، ولكن بما أنكم قد تناولتم طعامكم فسأعود من حيث أتيت».

وابتهج الأسقف بقدومه وترجاه بالبقاء حتى يقدم له ما يأكله، لكنه لم يقبل، ثم ما لبث الماركيز أن أخذ الطريق عائداً إلى بيته، وفيما هو خارج من بوابة بيت رئيس أساقفة صور، وإذا به برجلين قد وقف كل واحد منهما على أحد الجانبين، ثم تقدما منه، وقام

(*) إغريقية الأصل من الأسرة المالكة في القسطنطينية وكانت أرملة الملك عموري الأول ووالدة إيزابيل التي تزوجها الماركيز بعد تطليقها من زوجها همفري أوف تيرون، وإيزابيل كانت الوريثة الشرعية الوحيدة لعموري لتولي مملكة القدس، وبوساطتها طمح الماركيز للوصول إلى عرش القدس في عكا.

أحدهما بمناولته رسالة، ومد الماركيز يده لتناول الرسالة، فما كان من الآخر إلا أن استل مدية ووثب عليه فطعنه بها عدة طعنات فأرداه قتيلاً، وجرى اعتقال القاتلين، ثم حمل جثمان الماركيز حيث جرى دفنه في مقر فرسان الاسبتارية، وقد حدث هذا في سنة 1191، لتجسيد مولانا يسوع المسيح (الصحيح 28 ـ نيسان 1192).

وكان ملك انكلترا مقيماً في يافا، وقد سمع تقارير وردت من بلاد ما وراء البحار تفيد أن الملك فيليب ملك فرنسا قد عاد سالماً إلى مملكته، ودخل إلى فرنسا واستقر في غيسورت، وهنا أراد ملك إنكلترا الاستيلاء على كل البلاد والسيطرة عليها لنفسه، فغادر يافا وقصد مدينة عكا، ثم ما لبث أن وصلت الأخبار تتحدث عن اغتيال الماركيز من قبل الحشيشية، ووجهت أصابع الاتهام والملامة إلى الملك رتشارد وقيل إنه قتل الماركيز بالتآمر مع الحشيشية والاتفاق معهم.

واستقر في غيسورت، وهنا أراد ملك إنكلترا السيطرة على كل البلاد فغادر يافا إلى عكا، وما لبث أن وصلت الأخبار تتحدث عن اغتيال الماركيز من قبل الحشيشية ووجهت أصابع الاتهام والملامة إلى الملك رتشارد.

وسرت إشاعات أن الملك رتشارد قد تآمر مع مقدم الحشيشية ليرسل رجاله للفتك بملك فرنسا، ولا ندري مدى صحة هذه الأخبار، وقد اطلع ملك فرنسا على هذه المؤامرة، فما كان منه بعدما سمع بذلك إلاّ أن شدد الحراسة حول نفسه وهكذا لم يسمح لزمن طويل لرجل غريب أو أجنبي من الاقتراب منه.

ووجه آخرون الاتهام والملامة إلى الملك غي(*) بسبب الإهانة التي وجهت إليه عندما جاء ومعه الملكة سيبل من طرابلس، ووقفا أمام مدينة صور فمنعهما الماركيز من الدخول إليها.

وعندما تأكد ملك إنكلترا من صحة خبر وفاة الماركيز، استدعى بارونات مملكة القدس للتشاور معهم بشأن مدينة صور، واصطحب معه الكونت هنري(**) ليزوجه من إيزابيل أرملة الماركيز، وبعدما فاتحه الملك رتشارد بهذا لموضوع قال له الكونت: إن هذه السيدة التي تريد أن تزوجني منها حامل من الماركيز، وإذا ما ولدت ولداً ذكراً فهو الذي

(*) آخر ملوك القدس من الصليبيين، وقد أسره صلاح الدين في معركة حطين سنة 583هـ/ 1187م.

(**) كان رتشارد قلب الأسد خاله، لأن أمه كانت أختاً لرتشارد من أمه اليانور من زوجها الأول ملك فرنسا.

سيرث المملكة، ثم استطرد يقول: وسأكون وقتها مزعوجاً من السيدة، وأنت تعلم شخصياً السبب الذي يجعلني غير قادر على الذهاب إلى شامبين، فقال له الملك: «سأعطيك كل ما يلزم من مساعدة للذهاب إلى شامبين، وأعدك أيضاً أنني إذا ما مكنني الرب من الذهاب إلى إنكلترا، سأجهز جيشاً أقدم على رأسه لأساعدك به على إعادة احتلال كل أجزاء المملكة مع احتلال بلدان أخرى أيضاً، وستتوفر لدي القدرات حين أعود، فأتمكن من الاستيلاء على امبراطورية القسطنطينية، وفي ذلك ستنال مساعدة كبرى، كما أنني سأمنحك جزيرة قبرص التي سبق لي الاستيلاء عليها، ذلك أن الملك غي لم يسدد لي مجمل ثمنها، ومازال مديناً لي بمبلغ أربعين ألف دينار، وإنني سأطارده وسألاحقه، ولن يفلت أبداً من يدي حتى يعيد لي جزيرة قبرص».

وبناء عليه وافق الكونت هنري على الزواج المقترح من السيدة، واحتفل بزواجه من السيدة (في الخامس من أيار سنة 1192 في مدينة صور) وقيل إن غالبية الشعب ونخبة الناس في المملكة أقسموا متعهدين أنهم سيجعلون ذويه، أي أبناءه سادة القدس وملوكها، وكان هؤلاء الذين تعهدوا بهذا للكونت هنري ممن لم يتفاهم مع الماركيز، ولم يرغبوا به ولا بذريته.

وكان البيارنة الذين أقاموا في صور قد اشتكوا من الماركيز، فقد كانوا قد أقرضوه أموالهم لشراء جزيرة قبرص، لكن الماركيز لم يسدد لهم المال الذي استلفه منهم، فما كان منهم إلا أن بعثوا برسول خاص من قبلهم إلى الملك غي ليأتي إلى المملكة ليسلموه صور، غير أن الملك رتشارد فاجأه، لأن اغتيال الماركيز وقع يوم الثلاثاء، وفي يوم الخميس تزوجت إيزابيل من الكونت، وبناء عليه بعث الملك رتشارد رسولاً إلى الملك غي ليحضره إليه، ولكن الملك غي أعلم الرسول بتمنعه من الاستجابة والذهاب معه.

كيف أغاث ملك انكلترا يافا التي هاجمها صلاح الدين وكاد أن يحتلها:

علم صلاح الدين أن الملك رتشارد قد سافر إلى يافا ووصل إلى عكا، فما كان منه إلاّ أن حشد قواته وحاصر يافا، ونصب أمامها المجانيق وأخذ يقذفها، وركز رماياته على القلعة حتى أن الذين كانوا في داخلها لم يعرفوا الراحة ليلاً ولا نهاراً.

وذكر أنه تعاون تعاوناً تاماً مع مقدم الحشيشية حتى يرسل بعض رجاله للفتك بملك فرنسا، ولا ندري مدى صحة هذا الخبر، المهم أن ملك فرنسا قد اطلع على هذا الأمر، فما

كان منه بعدما سمع بهذا الخبر حتى شدد الحراسة حول نفسه، ولزمن طويل لم يسمح لرجل غريب أو أجنبي من الاقتراب منه.

ووجه آخرون الاتهام واللوم إلى الملك غي للإهانة التي وجهت إليه عندما جاء ومعه الملكة سيبل من طرابلس، ووقفا أمام مدينة صور فمنعهما الماركيز من الدخول إليها.

وعندما تأكد ملك إنكلترا من صحة خبر وفاة الماركيز، استدعى بارونات مملكة القدس للتشاور معهم بشأن مدينة صور واصطحب معه الكونت هنري ليزوجه من إيزابيل أرملة الماركيز، وبعدما فاتحه الملك رتشارد بهذا الموضوع قال له الكونت: «إن السيدة هذه التي تريد أن تزوجني منها حامل من الماركيز، وإذا ولدت ولداً ذكراً فهو الذي سيرث المملكة، ثم استطرد يقول: وسأكون وقتها مزعوجاً من السيدة، وأنت تعلم شخصياً السبب الذي يجعلني غير قادر على الذهاب إلى شامبين، فقال له الملك: «سأعطيك ما يلزم من مساعدة للذهاب إلى شامبين، وأعدك أيضاً إذا مكنني الرب من الذهاب إلى إنكلترا، سأجهز جيشاً أقدم على رأسه لأساعدك به على احتلال كل أجزاء المملكة واستردادها مع احتلال بلدان أخرى أيضاً، وستوفر لدي القدرات حين أعود فأتمكن من الاستيلاء على امبراطورية القسطنطينية، وفي ذلك ستنال مساعدة كبرى، كما أنني سأمنحك جزيرة قبرص التي سبق واحتللتها، ذلك أن الملك غي لم يسدد لي مجمل ثمنها ومازال مديناً لي بمبلغ أربعين ألف دينار، وإنني سأطارده وسألاحقه ولن يفلت أبداً من يدي حتى يعيد إليّ جزيرة قبرص».

ولهذا وافق الكونت هنري على الزواج المقترح، واحتفل بزواجه من السيدة (في الخامس من أيار 1192 في مدينة صور) وقيل إن غالبية الشعب ونخبة الناس في المملكة أقسموا له متعهدين أنهم سيجعلون ذويه ـ أي أبناءه ـ سادة القدس وملوكها، وكان هؤلاء الذين تعهدوا بهذا للكونت هنري ممن لم يتفاهم مع الماركيز ولم يرغبوا به ولا بذريته.

وكان البيازنه الذين أقاموا في صور قد اشتكوا من الماركيز، فقد كانوا قد أقرضوه أموالهم لشراء جزيرة قبرص، لكن الماركيز لم يرد لهم المال الذي استلفه منهم، فما كان منهم إلا أن بعثوا برسول خاص إلى الملك غي ليأتي إلى المملكة ليسلموه صور.

غير أن الملك رتشارد فاجأه، لأن قتل الماركيز وقع يوم الثلاثاء ويوم الخميس تزوجت إيزابيل من الكونت.

رسالة قيل بعثها راشد الدين سنان
إلى ليوبولد دوق النمسا

أورد نص هذه الرسالة المؤرخ الإنكليزي رالف دي سيتو، الذي عاصر أيام الملك رتشارد، وقد وصلته هذه الرسالة من قبل واحد من زملائه من أعيان الكنيسة، وفي هذه الرسالة حاول شيخ الجبل أن يبرئ ساحة الملك الإنكليزي من تهمة اغتيال كونراد أوف مونتفرات صاحب صور، ونشرت نص هذه الرسالة ضمن الجزء الثلاثين من كتابي الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ص266.

«إلى ليوبولد دوق النمسا، يبعث شيخ الجبل بتحياته.

بما أن عدداً كبيراً من الملوك والأمراء فيما وراء البحار يلومون السيد رتشارد، ملك إنكلترا، من أجل وفاة المركيز، إنني أقسم بالله الذي يحكم إلى الأبد، وبالشريعة التي نؤمن بها، أنه لا ذنب له في ذلك الموت، والسبب الذي أدى إلى موت المركيز هو هذا:

كان واحد من إخواننا عائد إلى مناطقنا من ساتاليا Satalia (أضاليا)، لكن الريح دفعته إلى صور، حيث أمر المركيز بأخذه وقتله، وسلب منه كثيراً من المال، وبعثنا إلى المركيز برسلنا نخبره أن يعيد مال أخينا إلينا، وأن يتفق معنا حول التعويض عن موته، لكنه لم يرغب بشيء من هذا أبداً، زيادة على ذلك لقد أبدى ازدراءً نحو رسلنا، لا بل حتى اتهمنا بوفاة اللورد رينالد (أرناط) صاحب صيدا، علماً بأننا نعرف من رفاق لنا أنه هو نفسه قتل رينالد وسلبه، ثم بعثنا إليه برسول آخر اسمه إدريس، وقد أراد إغراقه، لكن رفاقنا ساعدوا الرسول للنجاة من صور، وعندها بادر إدريس مسرعاً إلينا وأخبرنا بالذي حدث، وأردنا من تلك الساعة أن نقتل المركيز وبناء عليه بعثنا باثنين من إخواننا إلى صور، فقتلوه بشكل مكشوف، وأمام شعب المدينة كله تقريباً، لقد كان هذا السبب في قتل المركيز، ويمكننا أن نخبركم بصدق بأن رتشارد ملك إنكلترا ليس مذنباً في موت المركيز، وأي إنسان يحاول أن يؤذيه بسبب هذه القضية، يقترف بذلك عملاً ظالماً، وبدون مسوغ، واعلم بشكل مؤكد أننا لم نقتل أي إنسان في هذا العالم مقابل أجر أو مال أو أي شيء، ما لم يكن قد سبب لنا أولاً ضرراً، وكتبت هذه الرسالة في قلعتنا مصياف، في منتصف شهر أيلول أمام إخوتنا، وقد ختمت بختمنا في سنة 1504 للإسكندر».

زيارة الكونت هنري أوف شامبين
ملك مملكة القدس الثانية
لراشد الدين سنان شيخ الجبل

وصف هذه الزيارة صاحب الذيل الأول على تاريخ وليم الصوري، وكان هنري عندما زار شيخ الجبل في طريقه إلى أنطاكية للإصلاح ما بين حكام أنطاكية وحكام أرمينية الصغرى في كليكيا انظر الخبر ج8 ص474 ـ 475 من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.

وقام في عام 1193 لتجسيد المسيح إيمري بطريرك أنطاكية وريموند وبوهيموند ولدا الأمير [أمير أنطاكية] بمراسلة الكونت هنري وسألوه القدوم إليهم للمساعدة على إطلاق سراح والدهما من سجن لاون، وبالحال لبى الكونت هنري الطلب الذي تلقاه لأنه كان ابن عمه، وسافر من عكا فكان خلال عدة أيام في طرطوس، وهنا كتب إليه مقدم الحشيشية وبعث إليه بوفد يرجوه بالتفضل بالمرور في أراضيه، وأعلمه أنه سيكون له الشرف العظيم أن يراه ويجالسه ذلك أنه يعده سيداً وصديقاً له، وسر الكونت هنري بهذا الطلب وتوجه نحوه وهو يشعر بالبهجة.

وعندما تحرك الكونت هنري من طرطوس جاء مقدم الحشيشية لاستقباله وقد تلقاه بكل حفاوة وترحاب، ثم صحبه في جولة خلال بلاده وجعله يزور قلاعه، وعندما وصلوا إلى القلعة التي تدعى الكهف، وهي أعظم القلاع التي يمتلكها، سأل الكونت قائلاً: «هل يطيعك رجالك كما يطيعني رجالي»؟ فأجابه الكونت: نعم فقال مقدم الحشيشية وسيدهم: «لكن رجالك لا ينفذون أوامرك مثلما ينفذ رجالي أوامري، وسأريك ذلك» ثم أمسك حربة بيده، وأشار بها إليهم، فما كان من الذين كانوا واقفين على ظهر القلعة إلا أن ألقوا أنفسهم بالقناة فتحطمت أجسادهم، فعندما رأى الأمير هنري ذلك، رجاه ألا يكرر هذا العمل ثانية، فأشار إليهم فتوقفوا عن رمي أنفسهم، ثم دخلا القلعة، وكان أمام مدخلها حاجز حديدي، فالتفت سيد الحشيشية نحو الكونت وقال له: «وسأريك أيضاً كيف يطيعون أوامري» فألقى بملاءه كانت في يده، كان قد أخذها من

الرجال الواقفين أمام الباب ، فألقى ثلاثة أو أربعة من رجاله بأنفسهم خلفها ، وانقضوا عليها فماتوا ، فرجاه أيضاً الكونت هنري بالتوقف وألا يفعل ما فعله ثانية .

وأقام الكونت هنري عنده مدة طويلة ، منحه خلالها سيد الحشيشية هدايا ثمينة ، وفوق كل ذلك أكرمه وأكرم من كان معه غاية الإكرام ، ومن هناك سافر الأمير إلى أنطاكية حيث استقبل استقبالاً عظيماً ، وهناك اجتمع الكونت بالبطريرك مع ولدي الأمير وتداولوا بشأن تحرير والدهم ، وبعد هذا الاجتماع سافر الكونت من أنطاكية وقصد بلاد أرمينية ، فجاء لاون لاستقباله وهناك اتفق معه على إطلاق سراح الأمير من سجن لاون ، وعلى أن يتم الزواج فيما بين ابنة أخي لاون ، أي ابنة روبين وبين ريموند الابن البكر للأمير .

الحشيشية عند بورتشارد

كان بورتشارد راهباً ألمانياً من رهبان طائفة الدومينيكان، وقد ذهب إلى الشرق عام 1232، وزار سورية ومصر، وعرف كليكيا وعاش مدة طويلة في القدس، وترك لنا أوصاف ما شاهده، وقمت بترجمة رحلته وضمنتها المجلد التاسع والثلاثين من الموسوعة الشامية في تاريخ الحرب الصليبية، ص137 ـ 250، وورد نصنا الحالي في ص242 ـ 243:

«ومن حول قلعة عرقة، عبر طرابلس، حتى قلعة الحصن، يسكن مسلمون اسمهم الباطنية، ويجاورهم المسلمون الذين يعرفون باسم الحشيشية، الذين يسكنون الجبال القائمة وراء طرطوس على مقربة من قلعة المرقب، وهم يمتلكون عدداً من القلاع والمدن مع أرض خصبة، ويقال أن لديهم أربعين ألف رجل مقاتل، ولديهم مقدم واحد، لا يلي منصبه بحق الوراثة، بل بحق الفضائل الشخصية، ويطلق عليه اسم شيخ الجبل، وذلك ليس بسبب سنه، بل بسبب حكمته، ويقال بأن هؤلاء الناس كانوا من أصل فارسي، ولقد مررت خلال جزء من هذه البلاد، وهم مطيعون إلى درجة الموت، ويقومون بناء على أوامر مقدمهم بقتل أي إنسان مهما كان، ويقولون إنهم بفعلهم ذلك يحصلون على الجنة، حتى وإن قتلوا، قبل أن ينفذوا أوامرهم، ورغبوا قبل عدة سنوات مضت أن يصبحوا مطيعين لكنيسة روما، ومن أجل هذا المقصد أرسلوا سفيراً إلى عكا، الذي حقق بالمباحثات كل ما رغب به، لكنه قتل، وهو على طريق عودته إلى موطنه، من قبل مرافقيه، وكان ذلك قبل دخوله إلى بلاده، مما سبب خسارة للكنيسة ككل، لأن الآخرين عندما رأوا بأن الصليبيين لا يمكن الوثوق بهم، انسحبوا على الفور وتراجعوا، والحدود بين بلاد هؤلاء القوم وبلاد الصليبيين معلمة ببعض الأحجار، محفور عليها من جهة الصليبيين صلبان، وعلى جهة الحشيشية خناجر، ولم يستطع أي واحد من السلاطين حتى الآن إخضاعهم، بل إنهم اتخذوا لأنفسهم شرائع وعادات يتبعونها كما يرغبون، وهم مرعبون بالنسبة إلى جميع الأقوام من حولهم، بسبب حدتهم المتناهية العظمة».

ما رواه جوانفيل في كتابه عن حياة لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية السابعة

وقد ترجمت كتابه ونشرته في الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج36.

الفصل الثاني عشر
شيخ الجبل

وصل في أثناء إقامة الملك في عكا رسل بعثوا إليه من قبل شيخ الجبل لرؤيته، وقام بعد عودته من سماع القداس، بالأمر بإحضارهم أمامه، وقد أمر بإجلاسهم بحيث جلس في الأمام أمير ارتدى ثياباً أنيقة جداً، وكان مظهره الخارجي بديعاً، وجلس خلفه شاب من الواضح أنه كان من أسرة جيدة، وهذا ارتدى بدوره ثياباً فائقة، وقد حمل بمقبض يده ثلاثة خناجر، دخلت شفرة كل واحد منها في مقبض الآخر، وكان الغرض من هذه الخناجر تقديمها إلى الملك بمثابة شارة للتحدي، وذلك إذا ما أقدم على رفض مقترحات الأمير، وجلس خلف هذا الشاب شاب آخر، هو الذي لف حول ذراعه قطعة من قماش الكتان، ليقدمها إلى الملك لتكون كفناً إذا ما رفض مطالب شيخ الجبل.

وبعدما سأل الملك هذا الأمير أن يخبره لماذا جاء، قدم هذا الأمير رسائل اعتماد وقال: «لقد بعث بي مولاي ليسألك عما إذا كنت تعرفه؟» فأجابه الملك بأنه لم يعرفه، لأنه لم يره قط، لكنه غالباً ما سمع الناس يتحدثون عنه، فقال الأمير: «بما أنك سمعت الناس يتحدثون عن مولاي، فأنا مندهش كثيراً لأنك لم ترسل إليه مبلغاً من مالك حتى تستبقيه صديقاً لك، مثلما يفعل امبراطور ألمانيا، وملك هنغاريا، وسلطان القاهرة مع آخرين، سنة إثر سنة، لأنهم يعرفون بشكل مؤكد أنهم يمكنهم البقاء أحياء طالما مولانا راضٍ بذلك»، واستطرد الأمير يقول: «وإذا كان هذا لا يوافقك فعله، عندها يتوجب عليكَ أن ترتب إعفاءه من دفع الجزية التي يؤديها إلى الاسبتارية وإلى الداوية، ووقتها سوف يعدّكم قد أديتم واجبكم».

ويمكنني أن أقول بأن شيخ الجبل كان يدفع في ذلك الوقت جزية لكل من هاتين الطائفتين، لأنه لا الداوية ولا الاسبتارية كانوا يخشون مطلقاً من الحشيشية، لأن قائدهم كان يعرف تماماً أنه إذا ما جرى قتل أي من مقدمي الاسبتارية أو الداوية، سيحل محل المقتول واحد بالجودة نفسها، وعلى هذا ما كان ليكسب شيئاً من موتهما، ونتيجة لهذا لم يرغب بالتضحية بحشيشيته في مشروع لن يجلب أية منافع.

وأخبر الملك الأمير بأنه سوف يراه مرة ثانية بعد الظهر، ولدى عودة الرسول وجد الملك جالساً، وعلى يمينه قعد مقدم الاسبتارية، وعلى يساره مقدم الداوية، وطلب الملك من الأمير أن يعيد الرسالة التي كان قد قدمها في ذلك الصباح، فرد عليه هذا الرجل بأنه لا يمتلك الرغبة بإعادة ما تقدم وقاله، إلاّ بحضور الذين كانوا مع الملك في اللقاء الأول، وبناء عليه قال له المقدمان: «نحن نأمرك بإعادة رسالتك»، وأجاب الأمير بما أنهما قد أمراه بذلك فهو سيفعل ذلك، وبعد هذا أمره المقدمان، باللغة العربية بأن يأتي للحديث معهما في مقر الاسبتارية في اليوم التالي.

وعندما جاء الأمير في اليوم التالي، وأظهر طاعته لأوامرهما، قاما بإخباره، من خلال مترجم، بأن مولاه قد تصرف بتهور كبير حين تجرأ على إرسال هذه الرسالة الوقحة إلى الملك، وزيادة على هذا أخبراه، لولا أن الأمور مرتبطة بشرف الملك الذي أرسل إليه مع رفيقه بمثابة رسل لقاما بإغراقهم في بحر عكا القذر، وذلك على الرغم من شيخ الجبل، ثم قالا له: «ولهذا نحن نأمرك بأن تذهب إلى مولاك، وأن تعود خلال أربعة عشر يوماً، جالباً معك من عند مولاك رسالة وجواهر يمكن بها الحصول على رضا الملك، وأن تجعله كريماً في سلوكه معكم».

وقبل مضي أربعة عشر يوماً، عاد رسل شيخ الجبل إلى عكا، وجلبوا معهم قميص مولاهم إلى الملك، وقد أخبروه باسم شيخ الجبل، بأن ينظر إلى معنى ذلك، أنه كما القميص هو الأقرب إلى الجسد من بقية الملابس، هكذا ينظر مولانا إلى الملك ويقدره على أنه الأقرب إلى نفسه في الحب من أي ملك آخر، كما أرسل إلى الملك خاتمه الشخصي المصنع من أفضل أنواع الذهب، وقد حفر اسمه عليه، ومع هذا الخاتم رسالة قال فيها أنه ربط بهذا الخاتم بتحالف وثيق مع الملك، راغباً بأن يتحدا منذ ذلك الوقت فصاعداً، وكأنهما قد خطبا إلى بعضهما بعضاً.

وكان بين الهدايا التي بعث بها شيخ الجبل إلى الملك تمثال فيل جميل الصنع، وتمثال حيوان آخر يُدعى الزرافة، وتفاح من مختلف الأنواع، كلهم كانوا من الكرستال، وأرسل مع هذه الأشياء ألواحاً للعب وطواقم شطرنج، وكانت هذه الأشياء مطعمة بورود صغيرة مصنعة من العنبر، وقد ربطت بالكرستال بوساطة خيوط دقيقة من الذهب الممتاز.

ويمكنني أن أضيف، أنه عندما فتح الرسل الصناديق الحاوية لهذه الهدايا، صدرت عنهم رائحة طيبة ملأت الغرفة كلها بالعطر.

وأعاد الملك الرسل ومعهم كمية كبيرة من الجواهر، وقطع من الأقمشة القرمزية، وكؤوس من الذهب، وخيول، وقطع من الفضة، وأوكل أيضاً إلى الراهب إيف (البريتاني) لبريتون أن يذهب معهم، بحكم أنه كان خبيراً بلغة المسلمين، وقد وجد هذا الراهب أن شيخ الجبل لم يكن من أتباع محمد (ﷺ)، بل كان خاضعاً لشريعة علي (رضي الله عنه) الذي كان (ابن) عم محمد (ﷺ).

وكان علي (رضي الله عنه) هو الذي رفع محمد (ﷺ) إلى مكانة الشرف التي تبوأها، لكن ما أن تمكن محمد (ﷺ) من تثبيت نفسه بأن أصبح سيداً على الناس حتى بدأ يحتقر (ابن) عمه، وصار بعيداً عنه، ولدى ملاحظة علي (رضي الله عنه) لهذا، جمع أكبر عدد من الناس من حوله استطاع جمعهم، وعلمهم عقيدة تختلف عن عقيدة محمد (ﷺ)، وهكذا ما زال قائماً حتى الآن أن جميع الذين يأخذون بالشريعة التي أرسى علي قواعدها، يؤكدون أن أتباع محمد (ﷺ) ضالون في إيمانهم، في حين أن الذين يؤمنون بتعاليم محمد (ﷺ) يؤكدون من جانبهم أن أتباع علي إيمانهم غير صحيح.

وهناك نقطة أخرى قررها علي (رضي الله عنه) أنه إذا ما قتل إنسان وهو في طاعة أوامر مولاه، سوف تذهب روحه إلى جسد إنسان آخر أفضل من المتقدم، وهذا هو السبب في أن الحشيشية لا يتجنبون التعرض للقتل بأي حال من الأحوال، عندما يأمرهم سيدهم بذلك، لأنهم يعتقدون أنهم سوف يكونون أكثر سعادة بعد الموت منهم وهم أحياء.

وهناك عقيدة أخرى يأخذون بها، وهي أن ما من إنسان يمكن أن يموت قبل اليوم المعين لموته، وهذا الاعتقاد لا يجوز لإنسان أن يتمسك به، ممن يرى أن الرب لديه القدرة على إطالة أعمارنا وتقصيرها حسبما يرغب.

ويتبع البدو علياً (رضي الله عنه) في هذه النقطة، ولهذا السبب يرفضون لبس الدروع قبل الذهاب إلى القتال، لأنهم لو فعلوا ذلك، اعتقدوا أنهم سيتصرفون ضد ما أمرت به شريعتهم، ولهذا عندما يلعنون أولادهم يقولون لأحدهم: «عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع لخوفه من الموت».

ووجد الراهب إيف كتاباً قرب رأس سرير شيخ الجبل، مكتوب فيه أشياء كثيرة مما قاله ربنا إلى القديس بطرس، عندما كان على الأرض، وقد قال الراهب له: «آه يا مولاي، من أجل الرب، إقرأ هذا الكتاب مراراً وتكراراً، لأن هذه كلمات جيدة»، وأجابه شيخ الجبل أنه غالباً ما فعل ذلك، وقال: «لأن القديس بطرس عزيز جداً علي، لأنه في بداية خلق الدنيا دخلت روح هابيل بعد قتله، في جسد نوح (عليه السلام)، وعادت بعد وفاة نوح فدخلت جسد إبراهيم (عليه السلام)، وعندما مات إبراهيم (عليه السلام) انتقلت من جسده إلى جسد القديس بطرس، وذلك في الزمان الذي جاء فيه مولانا إلى الأرض».

ولدى سماع الراهب إيف بهذا بين لشيخ الجبل أنه قد أخطأ في هذا المعتقد، وشرح له كثيراً من العقيدة الصحيحة، لكن شيخ الجبل لم يعر ما قاله الاهتمام، ولدى عودة هذا الراهب الجيد روى هذه الأشياء جميعاً إلى الملك.

وكان كلما ركب شيخ الجبل وسار، مشى أمامه منادي، يحمل بيده بلطة دانماركية لها حد طويل مغلف بالفضة، وقد ثبت عليها عدداً من الخناجر، وكان الرجل ينادي طوال سيره: «ابتعدوا عن طريق الذي يحمل في يديه موت الملوك».

محاولة اغتيال
ادوارد بن هنري الثالث ملك انكلترا

في عكا حسبما روى خبرها معاصرها متى باريس، وكان راهباً إنكليزياً أرّخ من عام 1235 حتى 1273، وقد ترجمت كتابه في خمسة مجلدات (46 ـ 50) في الموسوعة الشاملة (الشامية) في تاريخ الحروب الصليبية، 21489 ـ 1490:

كيف تعرضت حياة إدوارد بن ملك إنكلترا للخطر في عكا:

في عام النعمة 1272، الذي هو العام السادس والخمسين لحكم الملك هنري الثالث منذ الاستيلاء كان الملك المذكور في لندن أيام عيد الميلاد بصحبة ملكته، وفي هذا العام عندما كان إدوارد الابن الأكبر للملك مقيماً في عكا، كان هناك أمير ليافا (أي أن مرتبته تساوي مرتبة إيرل بيننا)، وكان مسلماً من حيث الأصل، وقد أحبه وتوجهت عواطفه نحوه، بسبب شهرته بالشجاعة، ولذلك بعث إليه مرارا برسائل وبرسل الإطراء له بوساطة واحد من الحشيشية اسمه عبد العظيم Anzazin، وكان هذا الرجل قد تعلم في أماكن تحت الأرض منذ طفولته، وهناك تعلم كيف يقوم بهجوم مفاجئ على أي أمير من خصوم طائفته، وزرع في نفسه وأفهم أنه وإن تعرض للقتل أثناء محاولته، فإنه لعمله هذا، سوف يتلقى حياة جديدة، وسط المباهج في الجنة، وفي إحدى مناسبات قدومه إلى إدوارد، كما اعتاد بالغالب أن يفعل، مع رسائل تظاهر بأنه يود أن يبوح ببعض الأسرار له، وعند ذلك جرى إخراج كل واحد من الغرفة، وعندما كان إدوارد مائلاً أمام النافذة، وموجهاً انتباهه نحو الخارج، سحب الحشيشي مدية مسممة، وجرحه مرتين في ذراعه، ومرة ثالثة تحت إبطه، وتمكن إدوارد على الفور من إلقاء الحشيشي على الأرض بقدمه، وانتزع السكين من يديه، وقتل الجاني بها، وفي انتزاعه للسكين جرح نفسه جرحاً بليغاً في اليد، وبما أن السم انتشر في الجراح، لقد عالجوه بصعوبة بالغة، وباستخدام عدة أنواع من وسائل العلاج.

وقال بعضهم أنه عندما وجد ادوارد نفسه قد جرح فجأة، ولم يكن بيده شيء يدافع عن نفسه به، أمسك المنصب الثلاثي الحامل لمنضدته، وضرب به المجرم على رأسه، ثم إنه

دعا خدمه ، وبعدما شرح لهم تفاصيل ما أصابه أمر بجسد المجرم بأن يعلق على أسوار المدينة ، وذلك إلى جانب كلب حي ، من أجل أن مشاهدة ذلك المنظر قد تبعث الخوف في قلوب الآخرين ، وعندما سمع الأمير بأن ادوارد قد جرح من قبل رسوله حزن كثيراً ، وأعلن بأن الجريمة قد اقترفت من دون رضاه أو معرفته ، وفي الحقيقة ، هو فكر ـ كما قال بعضهم ـ ونوى أن يتخلى عن طائفته الإسلامية ، وأن يتلقى نعمة العماد المسيحي من خلال ادوارد ، وعندما سمع الصليبيون بأن ادوارد قد جرح بهذه الطريقة ، خططوا لمهاجمة المسلمين انتقاماً لهذه الجريمة ، لكن ادوارد منع ذلك وحظر فعله تماماً قائلاً : «باسم الرب ، إنني أمنعكم من إلحاق الأذى بجيش المسلمين بأية طريقة من الطرق ، كما أمنعكم من اقتراف أي عمل عنف ضدهم ، لأن الكثيرين من شعبنا يذهبون إلى الحج إلى ضريح ربنا ، وإذا ما تعرض المسلمون إلى أدنى أذى على أيدينا ، فإن أبناء بلادنا سوف يهلكون على أيدي المسلمين» ، وأعطى هذا الرأي القناعة إلى الجميع ، ولم يكتف الصليبيون بالثناء على حكمة إدوارد ، بل فعل المسلمون ذلك أيضاً ، بل حتى السلطان نفسه أثنى كثيراً على حكمته .

تقرير عن الحشيشية وعن مقدمهم

ذيل عدد من الأوربيين على تاريخ وليم الصوري، ومما وصلنا من هذه الذيول، واحد كتب في فرنسا في القرن الثالث عشر، وعرف باسم ذيل روثلين، نسبة إلى دير روثلين في شمالي إنكلترا الذي عثر فيه على مخطوطة الكتاب، وترجمت هذا الذيل ونشرته في المجلد الحادي والخمسين من الموسوعة الشاملة (الشامية) في تاريخ الحروب الصليبية:

كان في بلاد دمشق وأنطاكية أناس يعرفون باسم الحشيشية، وكان مقدمهم يدعى باسم شيخ الجبل، ويأكل هؤلاء المسلمين غير المؤمنين لحم الخنزير ويناموا مع أمهاتهم وأخواتهم، وبناتهم، ومع كل امرأة يمكنهم الوصول إليها، وذلك على عكس شرائع محمد (ﷺ) وهم يعيشون في جبال عالية، وفي قلاع عظيمة وحصون كبيرة، وكانت المنطقة غنية بالصيد، مما كان مفيداً كثيراً لهم، وفي القريب والبعيد، شعر جميع أنواع الناس بالرعب من هذا المقدم، لأنه غالباً ما اعتاد على قتل الناس من دون حق أو سبب ويمتلك هذا المقدم على قصر فخم، مليء بالثروات وبالأشياء الجميلة والرائعة، ومحاط بشرافات عالية، ومحصن بشكل فائق تماماً، وله مدخل واحد، ولا طريق آخر إليه، ولديه في هذا القصر أولاد أتباعه الفاسدين، حيث تجري تربيتهم وتنشئتهم من اللحظة الذين يكونون فيها في مهودهم، ومن ذلك الوقت فصاعداً لا يرى هؤلاء الأطفال أحداً غير سادتهم، وهناك يجري تعليمهم مختلف الحرف، ومختلف اللغات، وهم أيضاً يعلمونهم أن يخافوا من مقدمهم، وأن يطيعوا أوامره، ويخبرونهم أنهم بهذه الطريقة، وليس بطريقة أخرى سوف يحصلون على الجنة، وهم لا يغادرون القصر حتى اليوم الذي يرسلهم فيه مقدمهم بمهمة قتل أحد الناس، وعندما يمثل مثل هذا الإنسان أمامه، سوف يسأله المقدم عما إذا كان يريد إطاعة أوامره، ومن خلالهم ينال الجنة، وسوف يجيبه الرجل تماماً كما علموه: «نعم يا مولاي، كل ما ترغب به، وفي أي طريق تأمر به» ثم يعطي المقدم كل واحد منهم مدية حادة، ومقبض جيد، ويرسلهم إلى حيثما أراد من أجل اقتراف أذى، وقتل إنسان، وإذا ما تمكنوا بعد ذلك من النجاة والعودة إلى سيدهم، فسيتسلمون تشريفاً عظيماً وتمجيداً وثروة وسلطة في تلك المنطقة، أكثر من أي إنسان آخر، لكن إذا ما اعتقلوا وقتلوا، فإنهم يعتقدون بشكل مؤكد بأن أرواحهم سوف تقف أمام الرب في الجنة.

ما رواه ماركو بولو عن الحشيشية
شيخ الجبل. قصره وبساتينه.
أسره ومصرعه

الآن وقد تحدثنا عن هذا الإقليم، فسنذكر بعد شيئاً عن شيخ الجبل، وأطلق على الناحية التي يقع فيها مقر حكمه باسم منطقة الملاحدة، ومعناها بلغة العرب المسلمين «مكان الهراطقة»، كما كان قومه يسمون بالملحدين، أي المؤمنين بالعقائد المتهرطقة، وذلك كما نطلق مصطلح الباثارين على بعض الزنادقة من المسيحيين.

ويشهد ماركو بولو بأنه سمع المعلومات التالية عن هذا الرئيس من أشخاص متفرقين بأنه كان يسمى علاء الدين، وهو على دين محمد (ﷺ) وهناك في واد بديع، محصور بين جبلين شامخين، أنشأ بستاناً فاخراً، جمع فيه أشهى الثمرات، وأعطر النباتات التي استطاع إليها وصولاً وشيدت قصور متنوعة الأحجام والأشكال بمختلف أرجاء المنطقة، زينت بزخارف من ذهب، وملئت حجراتها بالصور الزاهية، وبالأثاث المكسو بأفخم الحرير، والاستبرق، واستخدمت أنابيب صغيرة صممت في هذه المباني، وبوساطتها كانت أنهار من خمر ولبن وعسل وماء عذب تشاهد وهي تتدفق في كل اتجاه، وكانت تسكن هذه القصور حوريات رشيقات جميلات دربن حتى أتقن جميع فنون الغناء، واللعب على جميع أنواع الآلات الموسيقية، والرقص، كما أتقن بوجه خاص أفانين الغزل والإغراء والغنج والدلال، وكن يشاهدن دوماً وقد ارتدين أثمن الثياب وهن يتلاعبن ويسلين أنفسهن في الحديقة وما حوت من جواسق وسرادقات، إذ كان حراسهن من النساء يبقين داخل المباني ولا يسمح لهن أبداً بالظهور، وكان الهدف الذي رمى إليه الشيخ من إنشاء هذه الحديقة الفاتنة هو التالي: أن النبي محمد (ﷺ) قد وعد من يتبعون دينه ويطيعون أوامره بالحظوة بجنات النعيم، التي يوجد بها فاتنات، فإنه (أي الأمير) رغب في أن يفهم أتباعه عنه أنه هو أيضاً نبي، وأنه ند لمحمد (ﷺ)، ولديه القدرة في أن يدخل الجنة كل من شاء أن يسعده، ولكي يحول دون أن يجد أحد سبيله بغير إذن منه إلى ذلك الوادي

المتع، أمر بإنشاء حصن قوي منيع عند مدخله، كان الدخول من خلاله إلى الوادي عن طريق سرداب سري. وكان ذلك الأمير يجمع في بلاطه كذلك عدداً من الشبان تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، يختارهم من بين سكان الجبال المجاورة، ممن يبدون ميلاً إلى المرانة والدربة العسكرية، وتتجلى فيهم صفة الشجاعة والإقدام، وجرت عادته بالتحدث إليهم يومياً في موضوع الجنة التي بشر بها النبي (ﷺ)، وعن قدرته هو على الإنعام بالدخول إليها على المقربين، كما كان يأمر في بعض الأحيان بإعطاء الحشيش لعشرة أو دزينة (اثني عشر) من هؤلاء الشبان، فإذا صرعهم النوم فأصبحوا نصف موتى، أمر بحملهم إلى الأجنحة العديدة للقصور المتناثرة في البستان، فإذا استيقظوا من حالة التخدير، صعقت حواسهم جميع الأشياء المبهجة التي سلف وصفها، ووجد كل منهم نفسه محوطاً بعذارى فاتنات يغنين له ويلعبن بالآلات ويستهوين لبه وحواسه بأفتن أنواع المداعبة والعناق، ويقدمن إليه أيضاً أشهى اللحوم وأفخر الخمور، ولا يزلن به حتى يسكر بما هو فيه من فرط المتعة وما حوله بالفعل من أنهار ومن لبن وخمر، حتى يعتقد أنه في الجنة، ويحس بعزوف عن التخلي عن مباهجها، فإذا انقضت بهم على تلك الحال أربعة أيام أو خمسة دفعوا بهم ثانية إلى حالة من النعاس وحملوا إلى خارج البستان.

وعندما يدخلون إلى حضرته فيسألهم أين كانوا كان جوابهم: «في الجنة بفضل عطف سموكم» ثم يعمدون، بحضرة البلاط كله الذي يصغي رجاله إليهم بفضول وذهول وتلهف إلى تقديم بيان تفصيلي عن المشاهد التي شهدوها رأي العين، وعندئذ يقول الرئيس مخاطباً لهم: «لقد وعدنا رسول الله (ﷺ)، وكان وعده حقاً، بأن الجنة يرثها عباد الله الصالحون الذين يدافعون عن مولاهم، وإذا أظهرتم إخلاصاً في طاعة أوامري، فإن ذلك المصير السعيد ينتظركم». حتى إذا سرت فيهم الحماسة بأقوال من هذا النوع، كان كل فرد فيهم يعد نفسه سعيداً حين يتلقى أوامر سيده ويبدي توقه إلى لقاء الموت في خدمته.

وكانت نتيجة هذا النظام، أنه متى تجرأ أي أمير مجاور أو بعيد على إثارة استياء هذا الرئيس، كان جزاؤه الموت على يد هؤلاء السفاكين المدربين، ولم يكن أحد منهم يحس أدنى رهبة عند مخاطرته بفقد حياته، التي لم يكن لها عندهم وزن كبير، ما تمكنوا من تنفيذ إرادة مولاهم، وبناء على هذا أصبح طغيانه موضع الرهبة في جميع الأقطار

المجاورة، وقد اتخذ لنفسه أيضاً وكيلين أو ممثلين، كان مقر أحدهما بالقرب من دمشق، ومقر الآخر في بلاد كردستان، واتبع هذان الوكيلان الخطة نفسها التي ابتدعها الشيخ، لتدريب أتباعهما الفتيان، وهكذا لم يكن هناك شخص، مهما بلغت قوته، بمستطيع وقد استنفر عداوة شيخ الجبل، أن يفلت من الاغتيال، ولما كانت ولايته تقع داخل ممتلكات هولاؤون (هولاكو) أخو الخان الأعظم (مانكو)، وترامت إلى مسامع ذلك الأمير أنباء الفظائع التي كان يرتكبها على الوجه المبين آنفاً، فضلاً عن استخدامه بعض الناس لنهب المسافرين أثناء مرورهم داخل ولايته، فإنه في عام 1262 جرد أحد جيوشه لمحاصرة ذلك المقدم في قلعته، على أنها أظهرت قدرة قوية على الدفاع، بحيث انقضت ثلاث سنوات كاملة دون أن يكونوا قادرين على الاستيلاء عليها، وفي الحقيقة ما كانوا ليتمكنوا من الاستيلاء عليها، لولا أنه لم يبق بها طعام، ولذلك أسروا، وتم إعدام الشيخ علاء الدين مع جميع رجاله، ومنذ ذلك الحين لم يكن هناك المزيد من هؤلاء الشيوخ، ولا المزيد من الحشيشية، لكن معه وضعت نهاية لسلطتهم، وهي السلطة التي مارسها شيوخ الجبل الماضين، مع جميع الشرور التي اقترفوها.

ب - نصوص عربية
جلها من عصر الحروب الصليبية

أحمديل الكردي

من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم

أحمديل بن إبراهيم، صاحب مراغة[1]، قيل كان إقطاعه في كل سنة أربعمائة ألف دينار، وجنده خمسة آلاف فارس.

سيره السلطان محمد بن ملكشاه إلى الشام مع سكمان القطبي، ومودود بن التورتكين صاحب الموصل، ومودود مقدم العساكر، في سنة خمس وخمسمائة، في عسكر لقتال الفرنج، واجتازوا على بالس، ومضوا بالعساكر، وافتتحوا حصوناً كثيرة، وقصدوا حلب، فغلقت أبواب المدينة في وجوههم.

ومرض سكمان القطبي، وعاد فمات ببالس، ثم تفرقوا بعد ذلك، وعاد أحمديل إلى بغداد.

وفي المحرم من سنة عشر وخمسمائة كان أحمديل في مجلس السلطان محمد، فجاءه رجل ومعه قصة يشكو فيها الظلم وهو ينتحب، وسأله أن يوصل قصته إلى السلطان فتناولها منه فضربه بسكين كانت معدة، فوثب عليه الأمير مودود فتركه تحته، فجاء آخر فضرب مودوداً، وجاء ثالث فتممه.

وهذا ممدود[2] ليس بابن التورتكين، لأن ذلك قتل بدمشق في سنة ست وخمسمائة على ما نذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى. . (168 ـ و).

---

(1) مراغة أعظم بلدان أزربيجان وأشهرها، معجم البلدان.

(2) لم تصلنا ترجمته في بغية الطلب واغتيل في المسجد الأموي بدمشق وقد عزيت عملية الاغتيال إلى الحشيشية، لكن المصادر غير العربية عزت الاغتيال إلى تدبير طغتكين، فهو أخرج من سجنه أعجمياً واتفق معه على اغتيال مودود، لأن هذا الأمير أراد الاستيلاء على الحكم في دمشق، ولذلك أرسلت السلطنة بعد ذلك حملة بقيادة برسق بن برسق الهمذاني للانتقام من طغتكين، فتحالف طغتكين للوقوف ضدها مع إيلغازي بن أرتق وصليبي القدس وأنطاكية وطرابلس، وكانت المحصلة هزيمة برسق في معركة تل دانيث الأولى في عام 1115م، انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص298 ـ 299 تاريخ متى الرهاوي قسم 3 فقرة 63، وحروب الأنطاكيين لوولتر المستشار، الكتاب الأول، وهذا الكتاب ترجمته في المجلد الحادي والخمسين من الموسوعة، وبعده جاء تاريخ المؤرخ الأرمني متى الرهاوي في ج52.

أق سنقر بن عبد الله البُرسقي

من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم

وقيل اسمه سنقر، وكان مملوك الأمير برسق مملوك السلطان، فترقت به الحال إلى أن ولاه السلطان محمد بن محمد الموصل، وولاه شحنكية بغداد، وتقدمة عسكرها في أيام المسترشد، ثم عزل عن شحنكية بغداد في سنة ثمان عشرة وخمس مائة، فوصل إلى الموصل، واستدعاه الحلبيون إلى حلب وقد حصرهم الفرنج وضاق بهم الأمر فوصل إليهم في سنة ثمان عشرة وخمس مائة، ورحّل الفرنج عنها وملك حلب وأحسن إلى أهلها، وعدل فيهم، وأزال المكوس والضرائب وتعفية آثار الظلم والجور، وكان رحمه الله على ما يحكى حسن الأحوال، كثير الخير، جميل النية، كثير الصلاة والتهجد والعبادة والصوم، وكان لا يستعين في وضوءه بأحد، وقتل رحمه الله شهيداً وهو صائم.

وكان من حديثه في ملك حلب واستيلائه عليها: أن بلك بن بهرام بن أرتق لما قتل بمنبج، ملك ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق حلب، فباع تمرتاش بغدوين ملك الفرنج وكان أسيراً في يد بلك فباعه نفسه، وهادنه وأطلقه ومات شمس الدولة إيلغازي صاحب ماردين، فتوجه تمرتاش إليها واشتغل بملك ماردين وبلاد أخيه، فلما علم بغدوين بذلك غدر بالهدنة واتفق هو ودبيس بن صدقه، وإبراهيم بن الملك رضوان بن تتش على أن نازلوا حلب، واتفقوا على أن تكون البلاد للمسلمين وأن حلب لإبراهيم بن الملك رضوان لأنها كانت لأبيه، وأن تكون الأموال للفرنج، وطال حصار حلب وأشرفت على الاستيلاء عليها، وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف، ووقع فيهم المرض، فحكى لي والدي أنهم كانوا في وقت الحصار مطرحين من المرض في أزقة البلد، فإذا زحف الفرنج وضرب بوق الفزع قاموا كأنما نشطوا من عقال وقاتلوا حتى يردوا الفرنج، ثم يعود كل واحد من المرضى إلى فراشه، ومازالوا في هذه الشدة إلى أن أعانهم الله بقسيم الدولة آق سنقر البرسقي، فأخلص النية لله في نصرتهم، ووصل إلى حلب في ذي الحجة من سنة ثمان عشرة وخمس مائة، وأغاث أهلها ورحل العدو عنها، وكانت رغبات الملوك فيها إذ ذاك قليلة، لمجاورة الفرنج لها وخراب بلدها وقلة ريعه، واحتياج من يكون مستولياً عليها إلى الخزائن والأموال والنفقة في الجند.

فأخبرني والدي أبو الحسن أحمد، وعمي أبو غانم محمد، وحديث أحدهما ربما يزيد على الآخر، قالا: سمعنا جدك ـ يعنيان أباهما أبا الفضل هبة الله ـ يقول: لما اشتد الحصار على حلب، وقلت الأقوات بها وضاق الأمر بهم، اتفق رأيهم على أن يسيروا أبي القاضي أبا غانم قاضي حلب والشريف زهرة ابن الجلي إلى حسام الدين تمرتاش إلى ماردين، وكان هو المستولي على حلب، وهي في أيدي نوابه، وقد تركها ومضى إلى ماردين واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب، قال: فاتفقوا على ذلك وأخرجوا أبي والشريف وابن الجلي ليلاً من البلد، فلما أصبح الصباح صاح الفرنج إلى أهل البلد: أين قاضيكم وأين شريفكم؟ قال: فانقطعت ظهورنا وتشوشت قلوبنا، وأيقنا بأنهم ظفروا بهم، فوصلنا منهم كتاب يخبر أنهم قد وصلوا إلى مكان آمن عليهم بالوصول، فطابت قلوب أهل حلب لذلك.

قال عمي ووالدي: فسمعنا والدنا يقول سمعت أبي أبا غانم يقول: لما وصلنا إلى ماردين ودخلنا على حسام الدين تمرتاش، وذكرنا له ما حل بأهل حلب وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر، وعدنا بالنصر وأنه يتوجه وهو يدافعنا من يوم إلى يوم وكان آخر كلامه أن قال: خلوهم إذا أخذوا حلب عدت وأخذتها، فقلنا في أنفسنا ما هذا إلا فرصه، وقلنا له: لا تفعل ولا تسلم المسلمين إلى عدو الدين، فقال: وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت؟ فقال له القاضي أبو غانم: وأيش هم حتى لا تقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم.

قال القاضي أبو الفضل: فكتبت كتاباً من حلب إلى والدي أبي غانم أخبر فيه بما حل بأهل حلب من الضر، وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القطاط (274 ـ و) والكلاب والميتة، فوقع الكتاب في يد تمرتاش وشق عليه وغضب، وقال: انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة قد بلغ بهم الأمر إلى هذه الحالة، وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ويغرونني ويقولون: إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم.

قال القاضي أبو غانم: فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا، فوكل بنا من يحفظنا خوفاً أن ننفصل عنه إلى غيره، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل، وأن نمضي إلى البرسقي ونستصرخ به ونستنجده، فتحدثنا مع من يهربنا وكان للمنزل الذي كان فيه باب يصر صريراً عظيماً إذا فتح أو أغلق، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتاً ويعالجه لنفتحه

عند الحاجة، ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي.

قال: وكان الزمان شتاء، والثلج كثيراً على الأرض، قال القاضي أبو غانم: فلما نام الموكلون بنا، جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت، وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الداية تعسر عليه فتحه وامتنع كسره، فضاقت صدورنا لذلك، وقلت لأصحابي: قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق، ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه، وبقيت وحدي من بينهم مفكراً لا يأخذني نوم حتى كان وقت السحر فجاءني ياقوت غلامي بالدابة وقال (274 ـ ظ): الساعة انكسر القيد، قال: فقمت وركبت لا أعرف الطريق ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها، قال: فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد، وقد ساروا من أول الليل وسرت من آخره، وكانوا قد ضلوا عن الطريق، فنزلنا جميعاً وصلينا الصبح وركبنا وحثثنا دوابنا وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل، فوجدنا البرسقي مريضاً قد أشفي، وهو يسقى أمراق الفراريج المدقوقة، فأعلم بمجيئنا، فأذن لنا، فدخلنا عليه ووجدناه مريضاً مدنفاً، فشكونا إليه وطلبنا منه أن يغث المسلمين، وذكرنا له ما حل بهم من الحصار والضيق وقلة الأقوات، وما آل إليه أمرهم، فقال: كيف لي بالوصول إلى ذلك، وأنا على ما ترون؟ فقلنا له: يجعل المولى في نيته وعزمه إن خلصه الله من هذا المرض أن ينصر المسلمين، فقال: أي والله ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أشهدك على أنني إن عوفيت من مرضي هذا لأنصرنهم، قال: فما استتم ثلاثة أيام حتى فارقته الحمى واغتذى، ونادى في عسكره للغزاة، وبرز خيمته وخرجت عساكره وعملوا أشغالهم، وتوجه بهم حتى أتى حلب فلما قاربها وأشرفت عساكره من المرتب رحل الفرنج، ونزلوا على جبل جوشن وتأخروا عن المدينة، وساق إلى أن قارب المدينة، وخرج أهلها إلى لقائه فقصد نحو الفرنج وأهل البلد مع عسكره، فانهزم الفرنج من يديه، وهو يسير وراءهم على مهل حتى (275 ـ و) أبعدوا عن البلد، فأرسل الشاليشية وأمرهم برد العسكر.

قال: فجعل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يقول له: يا مولانا، لو ساق المولى خلفهم أخذناهم بأسرهم فإنهم منهزمون، فقال له: يا قاضي كن عاقلاً أتعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري، لو قدر والعياذ بالله علينا كسرة من العدو؟ فقال: لا،

فقال: فما يؤمنا أن يكسرونا وندخل البلد ويقووا علينا ولا ننفع أنفسنا، والله تعالى قد دفع شرهم فنرجع إلى البلد ونقويه، ونرتب أحواله وبعد ذلك نستعد لهم ويكون ما يقدره الله تعالى، ونرجو إن شاء الله تعالى أننا نلقاهم ونكسرهم، قال: ودخل البلد ورتب الأحوال وجلب الغلال وأمن الناس واستقروا.

قال: وكان ذاك في آذار، فجعل الناس يأخذون الحنطة والشعير ويبلونها بالماء ويزرعونها فاستغل الناس في تلك السنة مغلاً صالحاً. هذا معنى ما حدثني به والدي وعمي.

ونقلت من خط عبد المنعم بن الحسن بن اللعيبة الحلبي: دخلت سنة تسع عشرة وخمس مائة ووصلت العساكر من الشرق، ومقدمها آق سنقر البرسقي، وكان الأفرنج نزلوا على حلب في شهر رمضان سنة ثمان عشرة وخمس مائة، وحاصروها وضيقوا على أهلها ومضى القاضي ابن العديم والأشراف، وقوم من مقدمي أهلها مستصرخين لأنه ما كان بقي من أخذها شيء، فوصل البرسقي (275 ـ ظ) معهم في محرم سنة تسع عشرة وخمسمائة، ونزل بالس وكانت رسله مذ وصل الرحبة متواترة إلى حمص ودمشق يستدعي مالكها، وسار الأمير صمصام الدين عن حمص في أول ربيع أول، فلقي الأمير قسيم الدولة البرسقي بتل سلطان بعد انفصاله عن حلب، وانهزم الأفرنج عنها، وكان سرى إليهم من بالس، ووصل إلى حلب وخرج أهل حلب ونهبوا من خيام الإفرنج مقدار المائة خيمة، من على جبل جوشن، وما بقي من هلاكهم شيء، ولكن الله أمسك أيدي الترك عنهم بمشيئته.

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين في تاريخه، في حوادث سنة ثمان عشرة وستمائة: وفي ثاني عشري ذي حجتها دخل البرسقي إلى حلب، وفي غده رحل الفرنج عن حلب.

قلت: وبعد أن أقام البرسقي بحلب ورتب أحوالها ترك ولده بها وعاد إلى الموصل، فقتله الاسماعيلية بها على ما نذكره.

قال لي: أخبرني أبي محمد بن عبد الكريم: حكى بعض الغلمان الذين يخدمون البرسقي، قال: كان يصلي البرسقي كل ليلة صلاة كثيرة، وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد، قال: فرأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل وقد قام من فراشه وعليه فرجية وبر صغيرة، وبيده (276 ـ و) إبريق نحاس، وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به، قال:

فلما رأيته قمت إليه لآخذ الإبريق من يده فمنعني، وقال: يا مسكين ارجع إلى مكانك فإنه برد، فاجتهدت به لآخذ الإبريق من يده، فلم يفعل، ولم يزل حتى ردني إلى مكاني، ثم توضأ ووقف يصلي، قال: وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء يطول ذكرها.

سمعت شيخنا الصاحب القاضي بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، يقول: كان البرسقي ديناً عادلاً قال: ومما يؤثر عنه أنه قال يوماً لقاضي الموصل أظنه المرتضى بن الشهرزوري: أريد أن تساوي بين الرفيع والوضيع في مجلس الحكم، وأن لا يختص أولو الهيئات والمراتب بزيادة احترام في مجلس الحكم، فقال له القاضي: وكيف لي بذلك؟ فقال: ما لهذا طريق إلا أن ترتاد خصماً يخاصمني في قضية ويدعوني إلى مجلس الحكم، وأحضر إليك وتلتزم معي ما تلتزمه مع خصمي، وسوف أرسل إليك خصماً لا تشك في أنه خصم لي، ويدعي علي بدعوى فادعني حيئنذ إلى مجلس الحكم لأحضر إليك، وجاء إلى زوجته الخاتون ابنة السلطان محمود ـ فيما أظن ـ وقال لها وكلي وكيلاً يطالبني بصداقك فوكلت وكيلاً، ومضى الوكيل إلى مجلس الحكم وقال: لي خصومة مع قسيم الدولة البرسقي وأطلب حضوره إلى مجلس الحكم، فسير القاضي إليه ودعاه فأجاب وحضر مجلس (276 ـ ظ) الحكم، فلم يقم له القاضي، وساوى بينه وبين خصمه في ترك القيام والاحترام، وادعى عليه الوكيل وأثبت الوكالة، واعترف البرسقي بالصداق، فأمره القاضي بدفعه إليه فأخذه، وقام إلى خزانته ودفع إليه الصداق، ثم أنه أمر القاضي أن يتخذ مسماراً على باب داره يختم عليه بشمعة وعلى المسمار منقوش أجب داعي الله، وأنه من كان له خصم حضر، وختم بشمعة على ذلك المسمار ويمضي بالشمعة المختومة إلى خصمه كائناً من كان، ولا يجسر أحد على التخلف عن مجلس الحكم.

قرأت بخط الحافظ أبي الطاهر السلفي: وسنقر البرسقي ولي العراق سنين، وبلغ مبلغاً عظيماً، ثم ولي ديار مضر ودار ملكه الموصل، ثم حلب، وكثيراً من مدن الشام، وجاهد الأفرنج، ثم قتله بعض الملاحدة، لعنهم الله، وكان سيفاً عليهم، قلما يرى في جيشه مثله، رحمه الله ورضي عنه، رأيته بالعراق في حال ولايته، وبالشام قبل أن وليها.

قال لي عز الدين أبو الحسن بن الأثير: في سنة عشرين وخمسمائة، وقتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة، قتله باطنية، وكان رأى تلك

الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به، فقتل بعضها ونال منه الباقون أذى شديداً، فقص رؤياه على أصحابه فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام، فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً، وكان يشهدها في الجامع مع العامة، فحضر الجامع على عادته، فثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس فقتل بيده منهم ثلاثة، وقتل رحمه الله.

قرأت بخط أبي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم في تاريخه الذي جمعه، ووقع إلي منه أوراق نقلت منها في حوادث سنة عشرين وخمسمائة أن البرسقي سلم حلب وتدبيرها إلى ولده الأمير عز الدين مسعود فدخل (277 ـ و) حلب، وأجمل السيرة وتحلى بفعل الخير، وسار أبوه إلى الموصل والجزيرتين، وما هو جار من مملكته حتى دخل شهر ذي القعدة من السنة، فلما كان يوم الجمعة تاسع الشهر قصد الجامع بالموصل ليصلي جماعة، ويسمع الخاطب كما جرت عادته في أكثر الجمع، فدخل الجامع وقصد المنبر فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهاد فاخترطوا خناجر وقصدوه، وسبقوا الحفظة الذين حوله فضربوه حتى أثخنوه وجرحوا قوماً من حفظته، وقتل الحفظة منهم قوماً، وقبضوا قوماً وحمل البرسقي بآخر رمقه إلى بيته، وهرب كل من في الجامع، وبطلت صلاة الجمعة، ومات الرجل من يومه وقتل أصحابه من بقي في أيديهم من الباطنية، ولم يفلت منهم سوى شاب كان من كفر ناصح، ضيعة من عمل عزاز من شمالي حلب.

قال حمدان فيما نقلته من خطه: وحدثني رجل منها: أنه كان له والدة عجوز لما سمعت بفتكة البرسقي، وكانت تعرف أن ولدها من جملة من ندب لقتله، فرحت واكتحلت، وجلست مسرورة كأنه عندها يوم عيد، وبعد أيام وصلها سالماً، فأحزنها ذلك، وقامت وجزت شعرها وسودت وجهها (279 ـ ظ).

ألب أرسلان بن رضوان بن تتش

من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم

ألب أرسلان، ويسمى محمد أيضاً، ابن رضوان بن تُتُش بن الب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تُقاق، أبو شجاع، الملقب تاج الدولة، الأخرس، وألب أرسلان الذي قدمنا ذكره جد أبيه.

ملك حلب حين مات أبوه رضوان وهو صبي، وتولى تدبير أمره خادم أبيض كان من خدم أبيه اسمه لؤلؤ (288 ـ ظ) ويعرف باليايا، فلم تتم له سنة حتى قتله غلمانه بالمركز من قلعة حلب، ووافقهم على ذلك لؤلؤ اليايا.

وكان ألثغ لا يحسن الكلام، فدعي بالأخرس لذلك، وكان مهوراً قليل العقل، سفاكاً للدم منهمكاً في المعاصي.

سمعت والدي رحمه الله يقول: جمع تاج الدولة الأخرس بن رضوان جماعة من الأمراء والأجناد، وأدخلهم في موضع بالقلعة شبيه بالسرداب أو المصنع لينظروه، فلما حصلوا كلهم فيه قال لهم: إيش تقولون فيمن يضرب رقابكم كلكم ها هنا، فتضرعوا إليه، وأيقنوا بالقتل، وقالوا: يا مولانا نحن مماليكك وبحكمك، وخضعوا له حتى أخرجهم، ثم إنه خافوا على أنفسهم منه فأجمعوا على قتله فقتلوه.

وقال لي الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم: كان جدي مالك من جملة الأمراء الذين فعل بهم ذلك، فلما نزل من القلعة سار عن حلب إلى قلعة جعبر، وترك المقام بحلب خوفاً على نفسه.

قال: ومضى أكثر الأمراء من حلب من خدمته إلى أن قتل، عمل عليه لؤلؤ الخادم مملوك أبيه مع جماعة من الأمراء. فقتلوه.

قال: ثم إن لؤلؤ خاف فأخذ الأموال من قلعة حلب، وسار طالباً بلاد الشرق، فلما وصل إلى دير حافر، قال سنقر الجكرمشي: تتركونه يقتل تاج الدولة، ويأخذ الأموال، ويمضي! فصاح بالتركية ـ يعني ـ الأرنب الأرنب، فضربوه بالسهام فقتلوه.

قال: ولما هرب لؤلؤ (289 ـ و) أقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يومين، فلما قتل لؤلؤ، ملكوا سلطان شاه بن رضوان، هكذا قال لي، ولؤلؤ، هو الذي نصب سلطان شاه بعد قتل أخيه، وبقي سنة وثمانية أشهر يدير دولته.

وقرأت في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال: وولي بعده ـ يعني رضوان ـ أبو شجاع محمد بن رضوان، وكان لا يحسن أن يتكلم، واستولى على حلب وله من العمر تسع عشرة سنة، وقتل خلقاً من أصحاب أبيه، فاغتاله خادم كان خصيصاً به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمسمائة، وكان ملكه بحلب سنة واحدة.

قال لي بدران بن حسين بن مالك: بلغني أن تاج الدولة الأخرس خرج يوماً إلى عين المباركة، ونصب بها خيمة، وأخذ معه أربعين جارية، ووطئهن كلهن في ذلك اليوم.

أنبأنا أبو نصر محمد بن هبة الله بن محمد القاضي قال: أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال: ألب أرسلان بن رضوان بن تتش بن ألب أرسلان التركي ولي إمرة حلب بعد موت أبيه رضوان في جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة وهو صبي عمره ست عشرة سنة، وتولي تدبير أمره خادم لأبيه اسمه لؤلؤ، ورفع عن أهل حلب بعض ما كان جدد عليهم من الكلف، وقتل أخويه ملك شاه وميريجا، وقتل جماعة من الباطنية، وكانت دعوتهم قد ظهرت في حلب أيام أبيه، ثم كاتب (289 ـ ظ) طغتكين أمير دمشق، ورغب في استعطافه، فأجابه طغتكين إلى ذلك، ودعا له على منبر دمشق في شهر رمضان من هذه السنة، ثم قدم ألب أرسلان في هذا الشهر دمشق، وتلقاه طغتكين وأهل دمشق في أحسن زي، وأنزله قلعة دمشق، وبالغ في إكرامه، فأقام بها أياماً، ثم عاد إلى حلب في أول شوال، وصحبه طغتكين، فلما وصل حلب لم ير طغتكين ما يحب ففارقه وعاد إلى دمشق.

وساءت سيرة ألب أرسلان بحلب وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم وخافه لؤلؤ اليايا، فقتله بقلعة حلب في الثامن من شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة، ونصب أخاً له طفلاً عمره ست سنين، وبقي لؤلؤ بحلب إلى أن قتل في آخر سنة عشر وخمسمائة.

قرأت في مدرج، وقع إلي بخط العضد مرهف بن أسامة بن منقذ فيه تعاليق من الحوادث في السنين قال: وفيها ـ يعني سنة ثمان وخمسمائة ـ قتل الأخرس ابن الملك رضوان في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر.

قلت : ومن العجب العجيب الذي فيه عبرة لكل أريب أن رضوان لما ملك حلب قتل أخوين كانا له ، فقوبل في عقبه ، فلما ولي ألب أرسلان قتل أخويه ابني رضوان .

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وأنبأنا به أبو اليُمن الكندي عنه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها : مات الملك رضوان بحلب ، وجلس موضعه تاج الملوك ألب أرسلان ، وصار أتابكه لؤلؤ الخادم ، وقتلوا من الخدم والخواص جمعاً حتى استقام أمرهم ، وقبض على إخوته ، وفيها قتل تاج الدولة ابن الملك رضوان إخوته : ملك شاه وإبراهيم صبيين أحسن الناس صوراً ، وقتل خادم أبيه ألتونتاش ، وقتل ألفتكين الحاجب وخافه الناس ، فألب عليه خادمه أتابكه لؤلؤ من قتله .

ثم قال : سنة ثمان وخمسمائة ، فيها : قتل تاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان صاحب حلب بداره في قلعة حلب بتدبير أتابكه لؤلؤ ، وأجلسوا موضعه الملك سلطان شاه ابن رضوان .

كذا قال العظيمي : «ملك شاه وإبراهيم» ، وهو وهم ، وإنما هو ميريجا ، وأما إبراهيم فإنه آخر من بقي من ولد رضوان ، ولم يبقَ من ذرية رضوان إلا عقبه إلى يومنا هذا (290 ـ و) .

الحسن بن الصباح

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

الحسن بن صباح، الرازي، رئيس الاسماعيلية، المعروف بالكيال.

كان رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة، والحساب، والنجوم، والسحر وغير ذلك، فمال إلى دعوة الباطنية، وصار تلميذاً لأحمد بن عبد الملك بن عطاش الطبيب، وكتب للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالري، فاتهمه أبو مسلم رئيس الري بدخول جماعة من المصريين عليه، فخافه ابن الصباح وخرج من الري، فطلبه أبو مسلم فلم يدركه.

ومضى ابن الصباح فطاف في البلاد، فقدم إلى مصر في سنة تسع وسبعين وأربعمائة في زي تاجر واجتمع بالخليفة المستنصر بالله، وحدثه في إقامة دعوته ببلاد خراسان، فوصله بمال، وأقام عنده مدة، فبلغه عنه ما أوجب اعتقاله، ثم أخرجه وأنعم عليه، وكتب له بخطه جواباً عن مسائل سأله عنها على مذهب الاسماعيلية.

وخرج من القاهرة إلى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم، ورجع إلى خراسان ودخل كاشغر وما وراء النهر، وهو يطوف على الناس ويدعو إلى المستنصر، وينشر الدعوة ببلاد الجبل وقزوين وأصبهان حتى شاعت، وسير دعاته ورسله إلى بلاد العجم وألقى عليهم مسائلهم التي منها:

لم كانت الأيام السبعة.

والبروج اثني عشر؟.

والسموات سبعاً؟.

والأرضون سبعاً؟.

والشهور اثني عشر؟.

وفي كل كف من الإنسان خمس أصابع؟.

وفي كل إصبع ثلاثة شقوق؟.

وفي ظهر الإنسان اثنتا عشرة خرزة؟.

وفي عنقه سبع خرزات؟.

ونحو ذلك.

وادعى أنه استأثر من إمامه بغوامض علوم وبديع أسرار، وكانت الدعوة الاسماعيلية هناك قديمة فقبلها كثير من الناس، وأخذ في ابتياع الأسلحة والعدد الحربية سراً، وواعد أصحابه ممن استجاب له على ليلة عينها لهم من شعبان سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، والسلطان يومئذ ملك شاه بن ألب أرسلان، وأخذ قلعة أَلَموت، وهي بنواحي قزوين، ولها بلاد كثيرة بأصبهان وقلاع عديدة، وكانت قديماً قبل الإسلام وفي صدر الإسلام لملوك الديلم، وهي من الحصانة والمناعة على غاية، لا ترقى الهمم إلى بلوغها وتحيط بها بحيرة، فبعث نظام الملك عسكراً إلى قلعة أَلَموت فحصر ابن الصباح إلى أن ضاق ذرعه بالحصر، فأرسل من قتل نظام الملك، فلما قتل رجع العسكر عنه.

ولما ملكها اجتمع باطنية أصبهان ونواحيها مع رئيس دعاتهم أحمد بن عطاش، وأخذوا قلعتين عظيمتين، فعظم أمرهم وكثر عملهم بالسكين، وكان أول عملهم بالسكين أن الحسن بن الصباح لما بث دعوته وصارت معه طائفة أظهر التدين والزهادة، وقال لأصحاب قلعة أَلَموت: نحن قوم ضعفاء زهاد نريد عبادة الله عندكم، فبيعونا نصف هذه القلعة.

فباعوها منهم بتسعة آلاف دينار وسكنوا فيها، فاستولى عليها، وبلغ خبره ملك تلك الناحية فقصده بعسكره ليحاربه، فقال علي اليعقوبي للحسن بن صباح ولمن معه: أي شيء يكون لي عندكم إن كفيتكم أمر هذا العسكر؟.

فقال: نذكرك في تسابيحنا.

فقال: رضيت.

ونزل بهم، وقسمهم أرباعاً في أرباع العسكر: وجعل معهم طبولاً وقال: إذا سمعتم الصائحة فاضربوا الطبول.

ثم هجم على صاحب العسكر في الليل وقتله، فوقع الصياح في العسكر، فضرب أولئك الطبول، فلم يثبت العسكر لما ملأ قلوبهم من الخوف وفروا بأجمعهم وتركوا خيامهم، فنقلها أصحاب ابن الصباح إلى قلعة أَلَموت.

ومن ذلك الوقت سنوا سنة السكين، واغتالوا الملوك والرؤساء، وكثر قتلهم للناس.

فاستدعى الإمام أبو حامد الغزالي إلى نيسابور وأقام بالمدرسة النظامية فيها، واشتغل بمناظرة أصحاب ابن الصباح وألف كتاب «المستظهر»[1]، وأجاب عن مسائلهم، وجدّ السلطان ملك شاه في قلعهم فلم يتمكن من ذلك.

فلما مات المستنصر بالله في ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، ادعى الحسن ابن الصباح أنه قال للمستنصر لما كان عنده: «من الإمام بعدك؟ قال: ولدي نزار»، وأنكر إمامة المستعلي، ودعا لنزار بن المستنصر، فلما قتل نزار في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين قال أصحاب ابن الصباح له: إنك تدعي حضوره.

فقال لهم: الآية في ذلك أن يطلع القمر في غير وقته من غير مطلعه.

ثم عمد إلى جبل بجانبهم شديد الارتفاع، وعمل بعض مخاريقه فصار يرى كالقمر قد طلع من وراء الجبل، فعند ذلك صار بعضهم يبشر بعضاً بالإمام نزار، وأقرفوا[2] من أهل مصر وشرعوا في افتتاح الحصون فأخذوا قلاعاً، واشتغلوا بعمل السكين التي سنها لهم علي اليعقوبي، وأخذ ابن الصباح يقول لأصحابه: إن الإمام نزار بين أعداء كثيرة، والأعداء محيطة به، والبلاد بعيدة، ولم يتمكن من الحضور، وقد عزم على أن يستخفي في بطن امرأة ويستأنف الولادة ليجيء سالماً.

فصدقوه في ذلك، وأخرج إليهم جارية حبلى وقال لهم: «إن الإمام قد اختفى في هذه». فعظموها حتى ولدت ذكراً وسماه حسناً، وقال: قد تغير الاسم بتغيير الصورة.

وفي المحرم سنة ثلاث وخمسمائة سير السلطان محمد بن ملك شاه وزيره أحمد بن نظام الملك إلى قلعة أَلَموت لقتال الحسن بن الصباح، فحصره وهجم عليه الشتاء فعاد بغير طائل.

وفي سنة خمس وخمسمائة ندب أيضاً لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب ساوة، فملك عدة قلاع للحسن بن الصباح ونزل على قلعة أَلَموت بعساكره، وأمده السلطان محمد بعدة من الأمراء، فجد في قتال الحسن وبنى له مساكن يسكنها هو ومن معه، فضاق الأمر على الحسن وقلت الأقوات عنده حتى كان يجري لكل من أصحابه

---

(1) شهر باسم «فضائح الباطنية» نشر محققاً في القاهرة، وللغزالي في الباب نفسه رسالة صغيرة اسمها «قواصم الباطنية»، نشرها أحمد أتوشا في مجلة كلية الإلهيات ـ استانبول، 1954.

(2) أي صاروا يتهمونهم وينسبون إليهم أشياء، وابتعدوا عنهم. انظر النهاية لابن الأثير.

رغيفاً وثلاث جوزات في اليوم، فبيناهم في ذلك إذ مات السلطان فرحل العسكر وغنم الحسن ما تخلف عنهم.

ثم إن ابن صباح ندب لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش من أصحابه، فلما قتل في شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، وولي القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك المعروف بالمأمون البطائحي وزارة الخليفة الآمر بأحكام الله بعد قتل الأفضل، اتصل به أن النزارية والحسن بن الصباح فرحوا بموت الأفضل، وأن آمالهم امتدت إلى قتل الآمر والمأمون، وقد بعث ابن الصباح رسلاً لمن في مصر من أصحابه بأموال تفرق فيهم.

فضبط حينئذ المأمون أمر مصر ضبطاً عظيماً حتى قبض على جماعة كثيرة من أصحاب ابن الصباح، وعقد مجلساً بالقصر للنظر في أمر النزارية، وكتب إلى الحسن بن الصباح يعظه ويأمره بالرجوع عن القول بإمامة نزار، فلم يقنع بذلك، وأقام على دعوته إلى أن مات بناحية أَلَموت في سنة ثماني عشرة وخمسمائة.

وكان ذا سمت وزهد، وله أتباع من جنسه.

وقام من بعده بألموت ديلمي يعرف بزرك أميد، وهذه الطائفة الاسماعيلية يقال لها أيضاً الباطنية، وأصل دعوتها مأخوذ عن القرامطة.

وأول ما عرف أمرها أنه اجتمع منها ثمانية عشر رجلاً يوم العيد في مدينة ساوة، وقد فطن بهم الشحنة، وأخذهم وسجنهم ثم سئل فيهم فخلى عنهم، وكان ذلك في سلطان ملك شاه، ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان بأصبهان فلم يجبهم فقتلوه، فأمر الوزير نظام الملك بتتبعهم، فأخذ رجل نجار اسمه ظاهر وقتل ومثل به وجرت العامة برجله في الأسواق.

فحنق الباطنية ودسوا على نظام الملك حتى قتلوه بالنجار، ثم اجتمعوا في موضع بالقرب من قاين، وأخذوا قافلة عظيمة مرت بهم من كرمان، وقتلوا سائر من بها إلاّ رجلاً تركمانياً، فإنه فر إلى قاين وأعلم الناس فخرجوا إليهم فلم يقدروا عليهم، وعظم أمرهم واشتدت شوكتهم بنواحي بأصبهان، وصار دعاتهم يسرقون من قدروا عليه ويقتلونه حتى أتلفوا خلقاً كثيراً، وانتشرت دعوتهم.

ثم إن الفقيه أبا القاسم مسعود بن محمد الخجندي الشافعي تجرد لهم بمدينة أصبهان، وجمع الجمع الغفير بالأسلحة وتطلبهم وأخذ منهم عالماً كبيراً، وحفر لهم

أخاديد وأضرمها ناراً، وجعلت العامة تأتي بالباطنية أفواجاً وفرادى وتلقيهم في النار، وقد أوقفوا على رأس الأخاديد رجلاً سموه مالكاً، فقتل منهم خلقاً كثيراً في شعبان سنة أربع وتسعين وأربعمائة.

وكان الباطنية قد اجتمعوا على أحمد بن عبد الملك بن عطاش وألبسوه التاج، وجمعوا له الأموال وقدموه عليهم، مع جهله، لأن أباه كان مقدماً فيهم، فاتصل بدزدار قلعة أصبهان التي بناها السلطان ملك شاه، وبقي معه فوثق به الدزدار وقلده الأمور، فلما مات الدزدار بعد موت ملك شاه في أيام خاتون الجلالية أم السلطان محمد بن ملك شاه، استولى أحمد بن عبد الملك بن عطاش على القلعة بعده، ونال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل الأنفس، وقطع الطريق والخوف الدائم.

وفي الحسن بن الصباح يقول الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن الهبارية العباسي، وكتب بها من كرمان في سنة ست وسبعين وأربعمائة إلى أمين الدولة أبي سعد ابن الموصلايا نائب الديوان ببغداد، فعرضها على الخليفة المستظهر بالله، وهي:

عز على المنصور والسفاح ظهور أمر الحسن الصباح
يدعو إلى ميمونه القداح بألسن الصفاح والرماح
أنائم أنت يا أبا العباس؟

ناحت دعاة القوم في النواحي فدعوة الصباح كالصباح
قد صرحت بشرها الصراح قائلة بألسن فصاح:
حي على قتل بني العباس

فأكثر العالم مستجيب إلا امرؤ محقق نجيب
بقلبه من خوفهم وجيب وذاك في هذا الورى عجيب
وكلهم شارب هذا الكأس

لم يبق في ظهورهم خفاء قد ذهب النفاق والرياء
ولعبوا بالملك كيف شاؤوا واستذأبت للجرة الجماء
إذ غلبت أسد عن الأخياس

فالباطل اليوم جهاراً ظاهر شيطانه للمسلمين قاهر

بكذبـــــه معـــــالن مجـــاهر ســـيفه علـــى العبـــاد شـــاهر
مفتخـــــــر بمكـــــــره في النــــــاس

حـــــذار مــــن شـــرهم حـــذار فإنـــــهم كالأســـــد الضــــواري
قانيــــة الأنيـــاب والأظفـــــار ليــس لـــها في الغـــاب مـــن قــــرار
شـــــوقاً إلـــــى العـــــراك والمـــراس

فنــــارهم تســــتعر اســــتعاراً ترمـــي إليـــك الجمـــر والشــرارا
تـــرى فـــراش ضوءهـــا الأعمـــــار فـــاحذر أبيـــت اللعـــن نـــارا
فــــــهي بـــــــلا أس ولا نحــــــاس

حقـــرتم الشـــرار في الرمــــاد فعــــاد كــــالجمر في الاتقــــاد
وحـــــــره والله في فـــــــؤادي وســـائر القلـــوب والأكبــــاد
قلــــوب أهــــل الســــنة الأكيــــاس

كأننـــــا نبصــــر مـــــا يكـــــون إن اللبيـــــب ظنـــــه يقـــــين
هونـــــه قـــــوم ومـــــا يـــــهون والاحتقـــــار لــــهم جنــــون
واحزنـــــا ليــــس لجرحـــــي آس!

إن تم أمـــر القـــــوم في كرمــــان دب إلـــــى الأقطــــار والبلـــــدان
وانكشــــفت ســـريرة الســـلطان وجـــاء بغـــداد بـــلا احتبـــاس[1]

---

(1) لم ترد هذه القصيدة في شعره المطبوع، في دمشق 1997.

نظام الملك

أحد أفراد الدنيا

(من بغية الطلب لابن العديم)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقي

الحسن بن علي بن اسحق بن العباس أبو علي الطوسي، الوزير المعروف بنظام الملك، ويعرف بخواجا بزرك، وخواجا بالفارسية الوزير، وبزرك العظيم، وزر للسلطان العادل ألب أرسلان بن جغري بك، وقدم معه حلب في سنة ثلاث وستين وأربعمائة حين قدمها محاصراً لها.

ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه أبي الفتح، وقدم معه حلب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وسمع بحلب أبا الفتح عبد الله بن اسماعيل بن الجلي الحلبي، وروى عن أبي عبد الله بن محمد الطوسي، وأبي بكر محمد بن يحيى بن إبراهيم المزكي، وأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، وأبي حامد أحمد بن الحسن الأزهري، وأبي بكر محمد بن أحمد بن محمد الصفار، وأبي بكر محمد بن أحمد الحسن الطاهري، وأبوي منصور شجاع بن علي بن شجاع المصقلي الشيباني، ومحمد ابن أحمد بن علي القاضي، وأبي نصر علي بن عبد الله الكاغدي، وأبي بكر أحمد بن منصور بن خلف المقرئ، وأبي القاسم اسماعيل بن زاهر الطوسي، وأبي الحسن علي ابن عبد الله بن محمد، وأبي مسلم محمد بن علي بن مهر برد الأديب، وأميرك بن أحمد، وأحمد بن عبد الرحمن الصائغ، وأبي عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله المذكر، وأبي الحسن علي بن محمد بن يحيى المرندي، وغيرهم.

روى عنه أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف بن عمر الأرموي، وأبو الصمصام (285 ـ ظ) ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسني، وأبو الفتح نصر الله محمد بن عبد القوي اللاذقي، وأبو نصر محمد بن محمود الشجاعي، وأبو محمد الحسن بن منصور السمعاني، وأبو القاسم نصر بن نصر الواعظ العكبري، وأبو محمد رزق الله بن عبد

الوهاب التميمي، وأبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله البسطامي، وأبو سفيان محمد ابن أحمد العبدوسي، وأبو بشر مصعب بن عبد الرزاق المصعبي، وأبو الحسين محمد بن محمد بن محمد السهلكي، وأبو القاسم علي بن طراد الزينبي، واسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ، وأبو الفضل محمد بن أبي نصر بن المسعودي، وأبو غالب محمد بن إبراهيم الصيقلي، وأبو نصر علي بن هبة الله بن ماكولا، وغيرهم.

وعقد مجلس الإملاء لحديث رسول الله ﷺ، وكان وزيراً عادلاً سائساً قيماً بأمور المملكة فاضلاً، عالماً، جواداً، حليماً، كثير الصدقة والمعروف، ووقف عدة مدارس لطلبة العلم وكان كثير المخالطة لأهل العلم، مكرماً لهم، حسن الأخلاق.

أخبرنا أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي قراءة عليه بدمشق قال: أخبرنا القاضي أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموي، ح.

وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن عبد الله بن موهوب بن البناء بدمشق قال: أخبرنا أبو القاسم نصر بن نصر الواعظ العكبري قال: حدثنا الصاحب الأجل العالم العادل نظام الملك، قوام الدين، غياث الدولة، وشمس الملة أتابك أبو علي الحسن بن علي ابن اسحق رضي (286 ـ و) أمير المؤمنين، إملاء في يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم من سنة ثمانين وأربعمائة بالمدرسة ببغداد قال: أخبرنا الشيخ أبو بكر أحمد بن منصور بن خلف المقرئ بنيسابور قال: حدثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن اسحق بن خزيمة قال: حدثنا أبو العباس محمد بن اسحاق السراج قال: حدثنا قتيبة بن سعيد قال: حدثنا مالك ابن أنس عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن عمرو بن سليم الأنصاري عن أبي قتادة السلمي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس».

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال: أخبرنا أبو سعد المروزي قال: أخبرنا أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق قال: أخبرنا أبو علي الحسن ابن علي بن إسحق الوزير بأصبهان قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد الطوسي قال: حدثنا أبو عبد الله بن محمد الخازمي قال: حدثنا علي بن عيسى قال: حدثنا خلف بن تميم قال: حدثنا عبد الله بن السري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل على محمد ﷺ» (286 ـ ظ).

أخبرنا عمي أبو غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة بقراءتي عليه قال: أخبرنا والدي أبو الفضل هبة الله بن محمد، ح.

وأخبرنا أبو هاشم الحلبي قال: أخبرنا عبد الكريم بن أبي المظفر قالا: أخبرنا أبو الصمصام ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسني بقراءتي عليه بالموصل قال: أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن إسحق الوزير بأصبهان قال: حدثنا أبو بكر محمد بن يحيى بن إبراهيم المزكي قال: حدثنا أبي قال: حدثنا محمد بن داود بن سليمان قال: حدثني إبراهيم بن عبد الواحد قال: حدثنا وريزة بن محمد الغساني قال: حدثنا الفضل بن محمد عن أبيه عن جده قال: قيل لعبد الله بن عباس: كم تكتب العلم؟ فقال: «إذا نشطت فهو لذتي وإذا اغتممت فهو سلوتي».

قرأت في كتاب زينة الدهر لأبي المعالي سعد بن علي الحظيري الكتبي وذكر نظام الملك وقال: وبلغني أنه كان يقول الشعر، والذي وقع إلي من شعره، وهو بديع، وكان عند كبره يتكئ على عصا:

بعد الثمانين ليس قوة ... لهفي على قوة الصبوة
كأنني والعصا بكفي ... موسى ولكن بلا نبوة

قال الحظيري له:

أتذكرها وقد خرجت عشيا ... بأتراب لها كالعين رود
فمدت من أصابعها وقالت ... خضبناهن من علق الوريد

نقلت من مجموع بخط ولد أسامة بن مرشد بن منقذ، وقال خواجه بزرك رحمه الله:

أأحبابنا لا شتت الدهر شملكم ... ولا ذقتم من لوعة البين ما عندي
تحملتم لي كلكم شوق واحد ... وحملتموني شوق كلكم وحدي

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال: أخبرنا أبو سعد السمعاني قال: قرأت بخط أبي محمد عبد الله بن أحمد بن السمرقندي: مولده ـ يعني الصاحب نظام الملك ـ يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثماني وأربعمائة.

أنبأنا أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل القاضي عن أبي محمد عبد الكريم بن حمزة عن أبي نصر علي بن هبة الله بن ماكولا قال في كتاب الإكمال: بزرك

بفتح الباء، وبعدها زاي مضمومة، ثم راء ساكنة، فهو نظام الملك قوام الدين غياث الدولة رضي أمير المؤمنين أبو علي الحسن بن علي بن اسحق يعرف بين العجم بالبزرك، ومعناه العظيم، سمع الكثير، وحدث، وأملى بخراسان جمعاً، وبالثغور، وبقوهستان وغيرها من البلاد، وسمعت منه إملاء بالري، وسمعت منه بنواحي خت، وبقراءة غيري وكان ثقة، ثبتاً، متحرياً، فهماً، عالماً.

وقال ابن ماكولا في موضع آخر من الكتاب المذكور: أما نظام فهو نظام الملك، قوام الدين، غياث الدولة (287 ـ ظ) وزين الوزراء، أبو علي الحسن بن علي بن اسحق، ولد بطوس، وسمع الكثير وحدث بمرو، ونيسابور، والري، وأصبهان، وبغداد، وجميع بلاد خراسان، وبلاد أران، وهي: جنزه، وبرذعة، وبيلقان، وسائر البلاد.

وأخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال: أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن أبي بكر السمعاني قال: الحسن بن علي بن اسحق بن العباس الطوسي أبو علي، الوزير نظام الملك العالم العادل، كعبة المجد، ومنبع الجود، ومعدن الكرم والأفضال، ذو القلم الماضي، واللسان القاضي، والمعدلة، والأمانة، والصلاح، والديانة، وكان صاحب أناة، وحلم، ووقار، وصفح، وصمت، وكان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء، وأئمة المسلمين وأعلام الدين، وأهل الخير، والستر، والصلاح، وصار مثل الكعبة، يقصده كل أحد من الأقطار، وأمر ببناء المدارس في الأمصار، ورغب في العلم كل أحد، سمع الحديث الكثير، وأملى في البلاد، وحضر مجلسه أكثر الحفاظ والمحدثين، ورغبوا في السماع منه لعلو رتبته، وارتفاع درجته.

وأما ابتداء حالته: فإنه كان من أولاد الدهاقين: وأرباب الضياع بناحية بيهق، وقصبة الراذكان من نواحي طوس، قيل إنه نفي عن والدته رضيعاً، وأن أباه كان يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة حتى شب ولم يدر أحد مكنون سر الله في (288 ـ و) أمره، فنشأ، وساقه التقدير إلى أن علق به شيء من العربية، وقاده ذلك إلى الشروع في رسوم الاستيفاء، فلم يزل الدهر يعلو به، وينخفض حضراً وسفراً، وكان يطوف في بلاد خراسان، ووقع إلى غزنة في صحبة بعض المتصوفين إلى أن تنبه بخته، وحان وقته، ووقع في شغل أبي علي بن شاذان المعتمد عليه ببلخ من جهة الأمير جغري حتى حسن حاله عند ابن شاذان، وظهر أثر خدمته، ولاحت آثار كفايته، وصار معروفاً عند ذي أمره، إلى أن

توفي أبو علي بن شاذان، فذكر أنه أوصى إلى الملك ألب أرسلان به، وذكر له كفايته وأمانته واستصلاحه لشغله، فنصبه مكانه، وصار وزيراً له، والحال بعد مستورة، والدولة مغمورة إلى أن انتهت الدولة الركنية نهايتها، وكانت ولاية مرو لألب أرسلان ملكاً، وهو الوزير المتمكن من الأمر، فاتفقت وفاة طغرلبك، ولم يكن له من الأولاد من ينوب منابه، فتوجه الأمر إلى ألب أرسلان، وتعين للسلطنة فتحرك عن مرو، والوزير يرتب أمره، ويرتب قواعد ملكه حتى زحف إلى نيسابور، وإلى العراق، وخطب له على منابر خراسان، والعراق.

وارتفع أمر الصاحب، وصار سيد الوزراء، صافياً له الورد من سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وانقضت أيام فترة المذاهب والرسوم الممقوتة في الدولة الماضية، وأظهر الله مكنون سره في دولة نظام الملك (288 ظ) فجرى له من الرسوم المستحسنة، ونفي الظلم، وإسقاط المؤن والقسم، وحسن النظر في أمور الرعية، وتقدير المعاملات على سنن الإنصاف والعدل.

وضبط الأمور، واستقامت الأحوال، ورتبت الدواوين أحسن ترتيب، وتزينت الأقطار بآثار العدل والإنصاف، وكان من أكفى الكفاة والسلطان من أعدل الولاة، فصفي العيش، وأطردت التجارات، وأهلت الطرق، وقل أهل العيث والفساد، وأخذ الوزير في بذل الصلات، وبناء المدارس والمساجد والرباطات وتحصين العمارات بالأوقاف الدارة، وتزيين المدارس بخزائن الكتب المودعة فيها، المشتملة على نفائس الأعلاق، ثم إسكان البقاع طلبة العلم والمدرسين في كل فن من الفنون، وكل ذلك من الأسباب الموثقة للملك والبذور.

حتى انقضت النوبة للسلطان ألب أرسلان بعد استكمال عشر سنين، إلى سنة خمس وستين وأربعمائة، وطلع نجم الملكشاهية، وظهرت كفاية نظام الملك بعد تقدير الله في تقرير تلك المملكة، مع اتفاق الوقعة الهائلة للسلطان عند قصدهم ما وراء النهر، وطغاء الخصوم اللد من كل ناحية، وتزاحم الأولاد المستعدين للملك، حتى توطدت أسباب الدولة، واستقام الأمر فصار الملك حقيقة لنظامه ورسماً واسماً للسلطان، فما كان له إلا إقامة رسم (289 ـ و) التخت والاشتغال باللهو والصيد، وكان تحمل إليه الأحمال المجلوبة من الأقطار، والدهر وسنان، والسعد جذلان، والنحس خزيان، واستمر على ذلك عشرون سنة اتفقت لهم فيها غزوات إلى الروم، وظفر منها بطرف الدنيا من

الأموال، والعبيد، والدواب وغيرها، ثم نهضات إلى الموصل، وحلب وتلك الديار، وحركات إلى ما وراء النهر، وكان في أثناء ذلك ظهور خصوم من الأطراف يتمنون أماني فلا يدركونها، ويتحركون عن مواضعهم، وكانت عاقبتهم تؤول إلى أنهم يتركونها، وكل ذلك بكمال كفاية نظام الملك، وتمهيده القواعد، وبركة أيامه، وسعادة جده.

إلى أن انتهى الحال إلى الكمال، فما رضيت تلك النوبة المباركة، والدولة الميمونة إلا وأن تختم بعاقبة تليق بها، وما كانت إلا الشهادة، فأدركه قضاء الله في شهر رمضان صائماً شهيداً، ووجئ في الطريق بين أصبهان ومدينة السلام ليلة، ومضى إلى رحمة الله سنة خمس وثمانين وأربعمائة وما كانت إلا زوال بركته وحشمته حتى تغيرت الأمور واضطربت المملكة، وتشوشت أمور العالم، ونسيت تلك الرسوم، وما ركدت بعد سنين آثار تلك النائرة، والظن أنها لا تعود إلى مثل ذلك والله أعلم.

قال أبو سعد: سمع بأصبهان أبا مسلم محمد بن علي بن مهر برد الأديب وأبا منصور شجاع بن علي بن شجاع المصقلي، وبنيسابور أبا القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، وأبا أحمد بن أحمد بن الحسن الأزهري، وخلقاً يطول ذكرهم.

روى لنا عنه عمه الشهيد أبو محمد الحسن بن منصور السمعاني، وأبو بشر مصعب ابن عبد الرزاق المصعبي بمرو، وأبو نصر محمد بن محمود الشجاعي بسرخس، وأبو الحسين محمد بن محمد بن محمد السهلكي ببسطام، وأبو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان، وأبو القاسم علي بن طراد بن محمد ابن علي الزينبي ببغداد، كتب عنه إملاء بجامع الرصافة، وأبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي اللاذقي بدمشق... وأبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله البسطامي ببلخ.

أنبأنا أبو اليمن زيد الحسن عن أبي منصور بن الجواليقي عن الخطيب أبي زكريا التبريزي أن فخر الملك بن نظام الملك حدثه أن والده كان يكتب (289 ـ ظ) للأمير ياخر صاحب بلخ، وفي رأس كل حول يصادره، ويأخذ ما معه، ويقول له: قد سمنت، ويدفع إليه فرساً ومقرعة، ويقول: هذا يكفيك، فلما طال عليه هرب منه، ولقيه أصحاب ياخر فأخذوه وهو على فرس بطيء فلقي ركابياً فأعطاه فرسه، فقويت نفسه، وهرب منهم ودخل إلى داود بن ميكائيل، فلما رآه أخذ بيده، وسلمه إلى ولده ألب أرسلان وقال له: هذا حسن الطوسي فتسلمه، واتخذه والداً، ودخل ياخر في الحال وقال: هذا كاتبي وقد

أخذ أموالي، وكان قد ركب خلفه فقال له داود: لا خطاب لك معي، والخطاب لولدي محمد، فلم يتمكن من خطابه، ولما خاطبه فيه لم يسمح به.

داود بن ميكائيل هو جغري بك، ومحمد ابنه هو ألب أرسلان، ولكل واحد من الملوك السلجوقية اسمان، اسم عربي واسم تركي.

أخبرنا عبد المطلب بن الفضل قال: أخبرنا أبو سعد السمعاني قال: سمعت أبا منصور علي بن علي بن عبد الله الأمين يقول: سمعت الأمير أبا الحسن العبادي يقول: حين جاءنا نعي نظام الملك، في شهر رمضان سنة خمس وثمانين ـ قال: كنت بسرخس في مجلس شيخي أبي علي الفارمذي فقال في أثناء كلامه: وهذا الحسن سد للفتن، مشفق على المسلمين، وكان يشير إليه، فنظرت فإذا النظام جالس تحت سريره ـ ثم قال الأمير العبادي: أخاف بعد قتله ظهور (290 ـ و) الفتن، فإن الشيخ قال: هو سد للفتن.

أخبرنا عبد المطلب قال: أخبرنا أبو سعد بن أبي بكر بن أبي المظفر قال: قرأت بخط والدي رحمه الله: سمعت الفقيه الأجل أبا القاسم يعني عبد الله بن علي بن اسحق أخا نظام الملك يقول: كان أخي نظام الملك يملي بالري، فلما فرغ قال: إني أعلم أني لست أهلاً لما أتولاه من هذا الإملاء، لكني أريد أن أربط نفسي على قطار بغلة حديث رسول الله ﷺ.

وقال: قال والدي رحمه الله، وسمعته ـ يعني الفقيه الأجل ـ يقول: سمعته ـ يعني نظام الملك ـ يقول: مذهبي في علو الحديث غير مذهب أصحابنا، إنهم يذهبون إلى أن الحديث العالي ما قل رواته، وعندي: إن الحديث العالي ما صح عن رسول الله ﷺ، وإن بلغت رواته مائة.

قرأت بخط الحسن بن جعفر بن عبد الصمد بن المتوكل، وأنبأنا به الحسن بن المقير عنه، قال: حدثني الشيخ الإمام أحمد بن محمد بن إبراهيم الضرير الآزجي، المعروف بابن الصياد صاحب الشيخ أبي سعد المعمر بن علي بن المعمر الواعظ، المعروف بابن أبي عمامة، قال: سمعت من لفظ الشيخ الحسن بن علي بن إسحق، نظام الملك: وفي سنة ثمانين وأربعمائة، قصد الناس نظام الملك، واستجدوه، وكثر عليه الناس والشعراء، فلم يرد أحداً ممن قصده، حتى قيل أنه لما خرج إلى (النهروان) تقدم بأن يثبت ما خرج منه (290 ـ ظ) مدة قبل مقامه، فكان مائة ألف ونيف وأربعين ألف دينار.

أخبرنا أبو هاشم بن أبي المعالي الحلبي قال: أخبرنا عبد الكريم بن محمد بن منصور قال: وقرأت بخط والدي: سمعت الفقيه الأجل، يعني أبا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق، يقول: كنت بمكة وأردنا الخروج إلى عرفات، فأخبرني رجل أن إنساناً من الخراسانية مات في بعض الزوايا، وأنه انتفخ وفسد، ولزمني القيام بحقه لما أديت من الأمانة إلي فيه، فتمكثت لذلك.

قال: فرآني بعض من كان يأتمنه الصاحب نظام الملك على أمور الحاج فقال لي: ما وقوفك ها هنا والقوم قد ذهبوا؟! فقلت: أنا واقف لكذا وكذا، فقال: إذهب ولا تهتم لأمر هذا الميت، فإن عندي خمسين ألف ذراع من الكرباس لتكفين الموتى من جهة الصاحب نظام الملك.

أخبرنا أبو هاشم بن أبي المعالي قال: أخبرنا تاج الإسلام أبو سعد السمعاني قال: وكان أكثر ميله إلى الطائفة المتصوفية مع الإيمان بما كانوا يتوسلون به إليه من فنون الرؤيا، فيقبلهم على ذلك، ويقربهم، وينجح حوائجهم، ويوصل إليه مآربهم، ويقضي ديونهم، ويدر عليهم الإدرارات والمرسومات.

وحكي عن بعض المعتمدين أنه قال: حاسبت مع نفسي وطالعت الجرائد فبلغ ما قضاه الصدر من ديون واحد من المتنمسين المقبولين عنده في مدة سنين يسيرة ثمانين ألف دينار حمر، وكان صادقاً فيما حكاه.

نقلت من خط عماد الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب، وأنبأني عنه أبو الحسن محمد بن أبي جعفر وغيره، قال: ومناقب نظام الملك أكثر من أن تحصى، وحكى من أحضر محاسبة ابن أسمحا اليهودي بإحالاته وتوقيعاته فوجدها في أشهر قد اشتملت على ثلاثين ألف دينار، ليس فيها توقيع إلا لفقيه، أو فقير أو شريف، أو لرجل من أهل بيت (290 ـ و).

أخبرنا أبو هاشم قال: أخبرنا أبو سعد قال: سمعت أبا الفضل مسعود بن محمود الطرازي ببخارى يقول: سمعت شيخنا الحسن بن الحسين الأندقي يحكي عن عبد الله الساوجي أنه قال: كان الوزير نظام الملك استأذن السلطان ملك شاه في سفر الحج فأذن له، وكان ببغداد، فعبر الدجلة، وعبروا بالقماشات والآلات، وضربت الخيام على شط الدجلة، فكنت أريد أن أدخل إليه يوماً، فرأيت على باب الخيمة واحداً من الفقراء يلوح

من جبينه سيماء القوم، فقال لي: يا شيخ أمانة توصلها إلى الصاحب، قلت: نعم، فأعطاني رقعة مطوية، فدخلت، ولم أنشر الرقعة، وما نظرت فيها، وحفظت الأمانة، فوضعت الرقعة بين يدي الوزير فنظر فيها، فبكى بكاءً كثيراً حتى ندمت، وقلت في نفسي: ليتني كنت نظرت فيها، فإن كان شيء يسوءه ما دفعته إليه، ثم قال لي: يا شيخ أدخل علي صاحب الرقعة، فخرجت فلم أجده، فطلبته فلم أظفر به، فأخبرت الوزير أني لم أجده، فدفع إلي الرقعة، فإذا فيها: رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: اذهب إلى الحسن وقل له أين تذهب إلى مكة، حجك ها هنا أما قلت لك أقم بين يدي هذا التركي وأغث أصحاب الحوائج من أمتي؟ فرجع النظام وما خرج.

قال: وكان يقول لي الوزير مرات: لو رأيت ذلك الفقير حتى نتبرك له، فرأيته يوماً على شط الدجلة وهو يغسل (291 ـ ظ) خريقات له، فقلت له: إن الصاحب يطلبك، فقال: ما لي وللصاحب كانت عندي أمانة فأديتها.

قال أبو سعد: وعبد الله الساوجي هو عبد الله بن حسنويه بن اسحق الساوجي من أهل ساوة، نفق سوقه على الوزير نظام الملك حتى أنفق عليه وعلى الفقراء بإشاراته واقتراحه في مدة يسيرة قريباً من ثمانين ألف دينار حمر.

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وأنبأنا عنه صديقنا ورفيقنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار قال: وفيه ـ يعني محرم سنة خمس وثمانين وأربعمائة ـ مرض نظام الملك، فلم يداو نفسه بغير الصدقة فعوفي.

أخبرنا أبو هاشم بن الفضل العباسي قال: أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني قال: أما ميله ـ يعني نظام الملك ـ إلى أهل العلم، ورغبته في أولي الفضل فهو أنه لا يخلو مجلسه عنهم في أي قطر كان، وكان بابه مجمع الأفاضل من الفقهاء للمناظرة بين يديه، والشعراء والمترسلين يعرضون بضائعهم عليه، فيقابل كل أحد بما يليق به من خلعة أو صلة. أو إدرار على قدر حاله.

قال: سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن حماد الطحان بقاسان يقول: سمعت عبد الله بن هارون البزاز يقول: كان نظام الملك في مجلس الشيخ أبي علي الفارمذي، فبكى حتى ابتل ثيابه، فقال له: لا تبك كي ترشوي (292 ـ و) يعني تصير ثيابك مبلولة: ثم قال بعد ساعة: لو كانت الدنيا بحذافيرها لإنسان وأنفقها في المصالح وسبل الخير لا

يصل إلى الله بها، ثم قال بعد ساعة: ينتقل من الدست إلى موضع الحساب، وقال الفارسية: أريبكشاه بحساب كاهت خواهند برد[1].

وقال أبو سعد السمعاني: سمعت أبا البركات اسماعيل بن أبي سعد الصوفي ببغداد مذاكرة يقول: سمعت محمد الأصبهاني، وكان مختصاً بنظام الملك، قال: كان النظام إذا دخل عليه الأستاذ أبو القاسم القشيري، والإمام أبو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو، وإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي يقوم إليه ويجلسه في مكانه، ويجلس بين يديه، فقال لي أبو المعالي الجويني يوماً، قل للصدر عني: يدخل عليك الأستاذ أبو القاسم وهو إمام في كذا وكذا علم، لا تكرمه هذا الإكرام الذي تكرم به هذا الشيخ يعني أبا علي الفارمذي؟!.

قال محمد الأصبهاني: وفي ضمن هذا الكلام تعريض بنفسه أيضاً، فاغتنمت خلوة من النظام وقلت: يا مولانا إمام الحرمين قال لي: كذا على كذا، وحكيت له ما قال لي، فقال النظام: هو وأبو القاسم القشيري وأمثالهما إذا دخلوا علي يقولون: أنت كذا، وأنت كذا، ويثنون علي ويطرونني بما ليس في، فيزيدني مدحهم عجباً وتيهاً في نفسي، وإذا دخل علي هذا الشيخ - يعني أبا علي الفارمذي - (292 - ظ) يذكر لي عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم، فتتكسر نفسي وارجع عن كثير مما أنا فيه، ذكر لي هذا أو معناه، فإني كتبته من حفظي.

وقال السمعاني: قرأت في بعض مسودات والدي رحمه الله بالري بخطه: سمعت: الفقيه الأجل أبا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول: سمعت الصاحب نظام الملك يوصي ابني ويقول: إنك شرعت في أمر - يعني الفقه - فلا تقنع فيه بالاسم، وإذا تناهيت فيه فلا تغرر بنفسك، وأيقن أن ما لا تعلم أكثر مما تعلم، ثم حكى الصاحب أن الإمام أبا حامد الغزالي الصوفي كان رحل إلى أبي نصر الاسماعيلي بجرجان، وعلق عنه، ثم رجع إلى طوس، فقطع عليه الطريق، وأخذ تعليقه، فقال لمقدم قطاع الطريق: ردوا علي تعليقتي، فقال: وما التعليقة؟ قال: مخلاة فيها كتب علمي، وقصصت عليه قصتي، فقال لي: كيف تعلمت وأنت تأخذ هذه المخلاة تتجرد من علمك، وبقيت بلا

---

(1) ردد العبارة نفسها بالفارسية.

علم! فردها علي، فقلت: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني لأمري، قال: فدخلت طوس، وأقبلت على أمري ثلاث سنين حتى تحفظت جميع ما علقت، فصرت بحيث لو قطع الطريق لا أحرم علمي.

قال أبو سعد: قرأت في كتاب سر السرور لصديقنا القاضي أبي العلاء محمد بن محمود الغزنوي أن نظام الملك كان في بعض أسفاره إذ صادف راجلاً في زي (293-و) العلماء قد مسه الكلال، وأضجره التعب، فقال له نظام الملك: أيها الشيخ أعييت أم أُعْيِيْت؟ فقال الرجل: أعييت يا مولانا فتقدم إلى حاجبه ليقرب إليه بعض الجنائب ويصلح من شأنه، وأخذ في اصطناعه، وإنما أراد ليمتحن فضله وعلمه باللغة، فإن عيي في اللسان وأعيي في المشي.

قال: وذكر أنه ولى رجلاً قضاء سرخس فلم يرتض طرائقه فيه فصرفه بآخر وتوسل المعزول بشفاعة بعض الأكابر، فوقع نظام الملك على ظهر كتاب الشفاعة قلدناه أمراً عظيم الخطر ليوم الفزع الأكبر، فأثاقل وتقاعد عن حسن القيام به، ولم يبال بالتفريط في جنب الله، ألم يعلم أنه المقلد لا المخلد!.

أخبرنا أبو هاشم قال: أخبرنا أبو سعد قال: سمعت أبا الحسن علي بن أحمد بن الحسين اليرذي الفقيه قال: سمعت أبا نصر محمود بن الفضل الأصبهاني يقول: سمعت نظام الملك أبا علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير برد الله مضجعه يقول: رأيت في المنام إبليس في صورة رجل طوال مصفار اللون كوسجاً[1]، فلما وقع بصري عليه عرفت أنه إبليس، فقلت: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العظيم، فلم يبرح من موضعه، فأعدت هذه الكلمة عليه مرات بصوت، وأنا أقول في نفسي ما أعجب ذلك، هذا إبليس ولا يهرب من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم» فكنت في ذلك وأنا رافع صوتي (293-ظ) بها إذ ترآى لي بيت خلف ظهره فدخل، فقلت له: يا لعين أنت خلقك الله وأمرك بسجدة واحدة، فخالفته، حتى لعنك ولعن متابعيك، وأنا الحسن بن علي بن اسحق أمرني بالسجدة فاسجد له كل يوم سجدات، لا جرم ما من حاجة أرفعها عليه إلا ويستجيبها لي وأنا في كل نعمة وراحة منه، فقال:

---

(1) الكوسج: الناقص الأسنان، القاموس.

أخبرنا أبو هاشم قال: أخبرنا أبو سعد قال: قرأت بخط والدي رحمه الله سمعت الفقيه الأجل أبا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يذكر أن الصاحب نظام الملك أخاه كان يقول: كنت أتمنى أن يكون لي قلاية خالصة ومسجد اتخذ فيه لطاعة ربي، ثم بعد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة من الأرض بشربها، أتقوت بريعها، ومسجد أتخلى فيه لعبادة ربي في جبل، ثم الآن أتمنى أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أتعبد فيه لربي.

قال أبو سعد: قال والدي رحمه الله وسمعته يقول: كنت ليلة من الليالي عنده وأنا على أحد جانبيه، والعميد خليفة على الجانب الآخر، وبجنب العميد خليفة فقير مقطوع اليد اليمنى، قال: فشرفني الصاحب بالمؤاكلة، وجعل يلحظ العميد خليفة كيف يؤاكل الفقير، قال: فتنزه خليفة من مؤاكلة الفقير لما رآه يأكل بيساره، فقال لخليفة: تحول (294-و) إلى هذا الجانب، وقال للفقير: إن خليفة رجل كبير في نفسه يستنكف من مؤاكلتك، فتقدم إلي، وأخذ يؤاكله.

وقال قرأت بخط الإمام والدي رحمه الله: سمعت الفقيه أبا القاسم عبد الله بن علي بن إسحق الطوسي يقول: دخل أخي نظام الملك على الإمام أبي الحسن الداوودي وقعد بين يديه، وتواضع له غاية التواضع. فقال له الإمام أبو الحسن: أيها الرجل إن الله سلطك على عبيده. فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم.

قلت: هذا أبو الحسن الداوودي هو عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد البوسنجي كان من العلماء الأبرار، وهو يروي كتاب البخاري عن الحموي.

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب، وأخبرنا أبو الحسن بن أبي جعفر إجازة عنه، قال: وكان نظام الملك من طوس، وأهل طوس، يقال لهم في اصطلاح الناس بقر طوس، وكان للخزانة صائغ يقال له حسين، حسن الصناعة في الصياغة، قال: استدعاني يوماً نظام الملك، وقال: أحضر لي قوالب لعمل سخوت، فأحضرتها له فأول ما وقعت يده على قالب فيه صورة البقر، وقد كنت غفلت عن الحديث، فعجل وقال: يا أستاذ ما تخلينا من يدك، فلم يترك الظرف واللطف مع جلالة قدره، وكبر سنه.

أخبرني أبو علي الحسن بن اسماعيل القيلوي بحلب قال: قرأت في بعض مطالعاتي أن الشريف أبا يعلى (294 ـ ظ) ابن الهبارية كان له رسم على الوزير نظام الملك فنظم قطعتين من الشعر أحديهما يمدحه فيها ويقتضيه رسمه، والأخرى يهجوه فيها، وترك الورقتين اللتين فيهما الشعر في عمامته، وحضر عند نظام الملك، وأراد أن يدفع إليه الرقعة التي فيها الاقتضاء، فدفع إليه الأبيات التي هجاه فيها، وإذا فيها مكتوب:

لا غرو أن ملك ابن اسحق وساعده القدر

وصفا لدولته وخص أبا الغنائم بالكدر

فالدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

يعني بأبي الغنائم تاج الملك، وكان من أصحاب السلطان ملكشاه، وكان بين نظام الملك وبينه عداوة.

قال: فلما قرأ نظام الملك الأبيات وقع على رأسها: يطلق لهذا القواد رسمه مضاعفاً، وناوله إياها، فأخذ ابن الهبارية الرقعة، فلما نظر أخذ يعتذر، فقال له النظام: لا تقل شيئاً، وخذ الرقعة وامض إلى الديوان، فمضى وأخذ رسمه.

قال: إن ابن الهبارية هجاه بعد ذلك بقوله:

لا يشمخن بأنفه	**غير الكريم المفضل**
أهون بفقري والكلاب	**على عيال أبي علي**

فأهدر دمه، ثم عفا عنه، والقصة قد ذكرناها في ترجمه أبي يعلى بن الهبارية (195 ـ و)، وقيل إن الأبيات الرائية للأبيوردي، والصحيح أنها لابن الهبارية.

قرأت بخط عبد المنعم بن الحسن بن اللعيبة في دستور جمعة قال الفقيه الأبيوردي يهجو خواجا بزرك وزير السلطان ملك شاه رحمه الله، وهو الوزير أبو علي الحسن بن اسحق:

لا غرو ان وزر ابن	**اسحق وساعده القدر**
وصفت له الدنيا وخص	**أبو الغنائم بالكدر**
فالدهر كالدولاب ليس	**يدور إلا بالبقر**

ولما نمت هذه الأبيات إلى الوزير رحمه الله استدعى الأبيوردي وكانت أياديه عنده جمة، وله عليه رسوم في كل سنة لها قيمة كبيرة، فلما مثل بين يديه قال له: يا هذا بم استوجبت منك أن تهجوني تعصباً بعدوي علي؟.

وهذا أبو الغنائم الذي ذكره هو تاج الملك عدو الوزير، فأنكر أن هذا شعره، فقال له الوزير: إن لزمت الإنكار أحضرت من أنشدنيها، فواقفك عليها، ومع هذا فأنت تعلم ما لي عندك من الأيادي التي لا تذكر، وما كنت تسألني فيه من الحوائج التي تؤخذ عليها الأموال مع الرسوم، فلاذ الفقيه بالعذر، واعترف أنها من جملة غلطاته التي لا تستقال، وعثراته القبيحة، فقال له الوزير: لا شك أن الرسوم التي لك لا تكف ولا تكفي، وقد تقدمت بإضعافها لك، فاقبضها ولا تغلط بعد ذلك.

ونقلت من خط العماد الكاتب أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد وذكر شعراً (295 ـ ظ)[1] . . . . العجم فيه ـ يعني في نظام الملك ـ: إن الله أقام الأرض على قرن ثور وملكها الثور.

أخبرنا أبو هاشم الصالحي قال: أخبرنا عبد الكريم بن أبي بكر المروزي قال: أنشدني كيخسره بن يحيى بن باكير الفارسي من حفظه أملاه علي قال: أنشدني أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي للسيد العلوي البلخي:

تولى الأرض أعجاز لئام ... وباد سوالف كرمت وهاموا[2]

كذاك الدور إن خربت وأقوت ... تولاهن أصداء هام

قال عبد الكريم: قال لي كيخسره بن علي: قال لي أبو زكريا التبريزي: قال السيد البلخي لما أفضت الوزارة إلى نظام الملك في حقه، فلما بلغ البيتان إليه أرسل بي إليه، واستأذن في زيارته، فأذن فزاره وحمل معه بمائة ألف درهم أغراضاً ودنانير، واعتذر إليه وكأنه هجاه بهذين البيتين، ثم تعاهدا على أن يعود على شغله في الاستيفاء فوفيا بالعهد إلى أن مات.

أخبرنا أبو هاشم قال: أخبرنا أبو سعد قال: سمعت محمد بن يحيى بن منصور الجنزي الإمام يقول: سمعت في حياة والدي رجلاً يقول: أقام والدي في حجرة النظام

---

(1) سقط من الأصل مالا يقل عن ورقة.

(2) كذا في الأصل وجاء بالحاشية، بخط مخالف: هام بلا واو، وكتابة الواو خطأ.

الوزير ثلاثة أيام بلياليها ما أكل فيها ولا شرب ، وكان الفراش قد نسي أن يقدم له شيئاً إلى أن تنبه النظام لذلك ، فقام بنفسه وحمل إليه الطعام بنفسه .

قال الإمام محمد بن يحيى : فحكيت هذه الحكاية لوالدي ، فسكت .

قرأت بخط أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ (296 ـ و) في تاريخه قال : حدثني أبي عنه ـ يعني نظام الملك ـ قال : كان رجلاً يصوم الدهر ، وله في أصبهان أربع نسوة يعمل له في كل دار طعام ولأصحابه ومن يكون عنده بقيمة وافية ، فأي دار أراد أن يجلس بها كان الطعام الكثير معداً له ـ كما قال ـ عشرة رؤوس غنم مشوية ، وعشرة ألوان ، وعشرة جامات حلواء .

سمعت القاضي أبا عبد الله محمد بن يوسف بن الخضر الحنفي قاضي العسكر رحمه الله ، وقد جرى ذكر نظام الملك وميله إلى أهل العلم ، يقول : كان نظام الملك يتعصب للشافعية كثيراً ، فكان يولي الحنفية القضاء ، ويولي الشافعية المدارس ، ويقصد بذلك أن يتوفر الشافعية على الاشتغال بالفقه ، فيكثر الفقهاء منهم ويشتغل القضاة بالقضاء ، فيقل اشتغالهم بالفقه ويتعطلون .

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ، وأنبأنا عنه أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن القاضي وغيره قال : كان عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك رئيس مرو ، وهناك شحنة مرو مملوك السلطان بردي فقبض عليه لأمر جرى منه ، ثم أطلقه ، فجاء مستغيثاً ، فنفذ السلطان تاج الملك ، ومجد الملك وجماعة أرباب دولته وقال لهم : أمضو إلى خواجه حسن وقولوا له : إن كنت شريكي في الملك فلذلك حكم ، وإن كنت تابعي فيجب أن تلزم حدك ، وهؤلاء أرذال قد استولى كل واحد منهم على مملكة ، فواحد ببلخ ، وواحد بهراة ، وواحد ببلد كذا ، ثم لا يقنعهم ذلك حتى يتجاوزوا (196 ـ ظ) حدودهم في سفك الدماء ، وقال للأمير بكبرد ، وكان من خواصه ، كن معهم حتى لا يحرفوا ما يقول .

فأتوا إلى نظام الملك وقال له ، فقال : نعم ، قولوا له : أما علم أنني شريكه في الملك ، أو ما يذكر حين قتل أبوه كيف قمت بتدبير أمره ، واعلموا أن ثبات القلنسوة معذوق بفتح هذه الدواة ، ومتى أطبقت هذه ، زالت تيك التي يقر ، فقال له الرسل : قد كبرت يا مولانا وقد ضجرت ، وقد أثر فيك الأمران ، وعدلا بك عن الرأي الذي مازالت

الآراء معه، فقال لهم: قولوا للسلطان عني ما أردتم، فقد دهمني ما لحقني من توبيخه، فلما خرجوا من عنده قالوا: الصواب أن لا نذكر ما قاله، وعرفوا بكبرد حرمة مكانه، وسألوه أن لا يخبر بما جرى، فلم يفعل، ومضى بكبرد من حاله، وأخبر السلطان، وبكر الجماعة فوجدوا السلطان جالساً ينتظرهم فقال لهم: ما قال لكم؟ قالوا: قال: أنا وأولادي عبيد دولته، فقال السلطان: لم يقل هكذا، ثم وقع التدبير في أمره.

وقال: في ليلة السبت عاشر شهر رمضان قتل نظام الملك في نهاوند، بين نهاوند والسحنة وهو سائر مع العسكر إلى بغداد، وذلك بعد أن فرغ من إفطاره، وتفرق من كان على طبقه من العلماء والفقراء والأجناد، وحمل في محفة إلى مضرب حرمه، فأتاه صبي ديلمي في صورة مستميح أو مستغيث فضربه بسكين كانت معه فقضى عليه، وهرب، فوقع في عثرة عثرها بطنب خيمة فأدرك (297 ـ و) فقتل، وركب السلطان ملك شاه إلى مخيم نظام الملك، وسكن معسكره.

وحكي أن أحد الصالحين قال لنظام الملك وهم في الإفطار: رأيت في بارحتنا كأن رسول الله ﷺ أتاك وأخذك فتبعته، فقال: ارجع أيها الرجل فلهذا أبغي، فأولها.

نقلت من خط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين، وأنبأنا به عنه رفيقنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار قال: وفي ليلة السبت عاشر شهر رمضان ـ يعني من سنة خمس وثمانين ـ قتل نظام الملك قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي الله عنه قريباً من نهاوند وهو سائر مع العسكر في محفة، فضربه صبي ديلمي في صورة مستميح أو مستغيث، بسكين كانت معه، فقضى عليه، وأدرك فقتل، وجلس لعزائه عميد الدولة ابن جهير ببغداد.

وفضائله المشهور في كل مكان وزمان تنوب عن لسان مادحه وأفعاله الصالحة من المدارس، والربط، والقناطر، والجسور، والصدقات الدارة على الأيام.

وتحدث الناس أن قتل نظام الملك كان برضى من السلطان وتدبير تاج الملك أبي الغنائم، وإشارة تركان خاتون، لأنهم كانوا عزموا على تشعيث خاطر المقتدي، وكان نظام الملك يمنعهم من ذلك.

قال ابن الحصين: وبلغني أنا أبا نصر الكّندري لما عزل عن وزارة السلطان، وفوضت الوزارة إلى نظام الملك، وحبس وسعى (297 ـ ظ) نظام الملك في قتله، فلما هم الجلاد

بقتله، قال له: قل للوزير نظام الملك: بئس ما فعلت، علمت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الدواوين، ومن حفر مغواة وقع فيها، ومن سن سنة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ورضي بقضاء الله المحتوم، فكان الأمر كما قال.

قرأت بخط أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه قال: سنة خمس ثمانين وأربعمائة فيها: قفز باطنية على خواجا بزرك ببغداد وهو محمول في محفته التي كان يحمل فيها من ضعفه وكبره في تاسع شهر رمضان، فجرحه وحمل إلى داره التي ببغداد، فجاء السلطان ملك شاه يفتقده ويتوجع له، فقال له خواجا: يا سلطان العالم كبرت في دولة أبيك ودولتك، كنت تمهلت علي فما بقي من عمري إلا القليل، أو صرفتني ولا أمرت أن يفعل بي هكذا، فأخرج السلطان مصحفاً في تقليده، وحلف له بما فيه أنه لم يأمر، ولم يعلم، ثم قال: وكيف أستجيز هذا وأنت بركة دولتي، وبمنزلة أبي، وكان الذي اتهم بذلك متولي الخزانة تاج الملك أبا الغنائم.

قال ابن منقذ: حدثني أبي عنه قال: فمات خواجا، ومضى السلطان فمات في العشر الأخير من شوال.

قال: وذكر أن السلطان لما مات اجتمع مماليك خواجا بزرك، وكانوا في سبعة آلاف مملوك مزوجين إلى سبعة آلاف مملوكة، فقتلوا تاج الملك على ما نذكر في ترجمة تاج الملك (298 ـ و). كذا قال ابن منقذ أنه قتل ببغداد وحمل إلى داره التي ببغداد، وهو وهم، والصحيح أنه قتل بقرب نهاوند وهو متوجه إلى العراق.

نقلت من كتاب الاستظهار في التاريخ على الشهور تأليف القاضي أبي القاسم علي ابن محمد السمناني قال: في شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وأربعمائة قتل الشيخ الكبير قوام الدين نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي أمير المؤمنين، رضي الله عنه في ظاهر نهاوند وهو سائر إلى العراق، قتله إنسان ديلمي غيلة بعد الفطر ليلة الجمعة حادي عشر منه.

وكان مولده في ذي القعدة من سنة ثمان وأربعمائة، وبقي في الأمر وزيراً، وناظراً، ومشرفاً نحو خمسين سنة، وبلغ في الوزارة ما لم يبلغه أحد من وزراء الدولتين، وكان يضرب له الطبل والقصاع ثلاث صلوات حضراً وسفراً، وهو الذي بنى الدولة السلجوقية

وأسس قواعدها، وتفتحت الدنيا على يديه، وكان صدوق اللسان جيد الرأي كبير النفس حليماً وقوراً يصلي بالليل. ويصوم في أكثر الأوقات.

وهو أول وزير بنى المدارس في البلاد، وأجرى على المدرسين، والمتفقة، والأدباء والشعراء، وأهل البيوتات والرؤساء، ولم ينظر قط إلى ظهر محرم، وما قصده أحد في أمر وإلا ناله أو معظمه، فأما الحرمان فلا، ولم يبق عليه من عظيم الملك غير ما فعله وبناه وخلد به ذكره في العالم، وفاق به على جميع من تقدم، رضي الله عنه وأرضاه (298 ـ ظ) وأحسن له الجزاء عني فلقد وصلني في سبع سفرات بألف وأربعمائة دينار من ماله، غير الثياب والنزلة والإقامة، وأجرى علي من بيت المال سبع مائة دينار وعشرين ديناراً في كل سنة، وولاني قضاء الرحبة والرقة وحران وسروج وحلب وأعمال ذلك كله، وخاطبني بالقاضي السديد العالم، بحر العلماء، عين القضاة في مكاتبته إلي، فأحسن الله له عني الجزاء.

وكان يكرم العلماء على اختلاف مذاهبهم، وله فضل وكرم وبصيرة بالرجال، قريب من القلوب، لا يتشاغل إلا بتلاوة القرآن وسماع حديث رسول الله ﷺ، ومناظرة الفقهاء بين يديه، وتقدم في زمانه من لم يكن متقدماً من الرجال، وتأخر من كان متقدماً، واسترجع الممالك كلها، وقبضها إلى السلطان.

وهو أول من أقطع البلاد والضياع للعساكر والأجناد، وكان يرعى لأهل البيوتات بيوتهم وللعلماء علمهم، وللشعراء شعرهم، وللأدباء أدبهم، وللأشراف شرفهم، وكان أمر الدولة في الزيادة إلى أن شاركه في الرأي غيره، وداخل السلطان سواه، فهلكت الدولة ولم يبق السلطان بعده إلا نيف وثلاثون يوماً رضي الله عنه.

وذكر أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني في كتاب عنوان السير في محاسن أهل البدو والحضر، وقال: نظام الملك، أبو علي الحسن بن علي بن إسحق الطوسي، وزر للسلطان ألب أرسلان، ولولده السلطان ملك شاه تسعاً وعشرين سنة (299 ـ و) وقتل بالقرب من نهاوند في الليلة الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وعمره ست وسبعون سنة، وعشرة أشهر، وتسعة عشر يوماً، اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره، وقيل أن السلطان ملك شاه ولف عليه من قتله لأنه سأم طول عمره ومات بعده بشهر وخمسة أيام.

وتقدم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم، وأفضل على الخلق الإفضال الكثير، وعم الناس بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي، ووقف عليهم الوقوف، وزاد في الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء، ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوقع على العامل بأنطاكية ما يصرف إلى الملاحين، وملك من الغلمان الأتراك ألوفاً عدة، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

وتحدث أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي قال: سألته عن السبب في تعظيمه الصوفية، فقال: أتاني صوفي وأنا أخدم ابن ياخر الأمير التركي، فوعظني وقال: أخدم من تنفعك خدمه ولا تشتغل بمن تأكله الكلاب غداً، فلم أعرف معنى قوله، فاتفق ابن ياخر شرب من الغد، واغتبق، وكانت له كلاب كالسباع تفرس السباع بالليل، فغلبه السكر وخرج وحده، فلم تعرف الكلاب، فمزقته، فعلمت أن الرجل كوشف، فأنا أطلب أمثاله. (299 ـ ظ).

أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن رواحة الحموي بحلب، وأبو يعقوب يوسف بن محمود الساوي بالقاهرة عن الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهاني نزيل الاسكندرية قال: سمعت صواب بن عبد الله الخصي النظامي ببغداد يقول: قتل مولاي الوزير أبو علي الحسن بن علي بن إسحق شهيداً في رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، بقرب نهاوند، وكان آخر كلامه أن قال: قل للعسكر: لا تقتلوا قاتلي فإني قد عفوت عنه، وتشهد ومات، فمضيت أنا فإذا هو قتل، ولو قلت لهم لما قبلوا قولي.

أخبرنا الشريف عبد المطلب بن الفضل قال: أخبرنا الإمام تاج الإسلام أبو سعد السمعاني قال: سمعت أبا الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي السلامي الحافظ يقول: استشهد أبو علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير وهو متوجه إلى العراق بقرية يقال لها سحنة، في شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة.

قلت: وزرت قبره بأصبهان.

وقال أبو سعد: قرأت بخط والدي رحمه الله بالري: سمعت الشيخ الفقيه الأجل أبا القاسم عبد الله بن علي بن إسحق يقول: حكى لي بعض من رآه ـ يعني أخاه نظام الملك ـ في المنام، فسأله عن حاله، فقال: لقد كاد أن يعرض علي جميع عملي لولا الحديدة التي أصبت بها.

أخبرنا أبو يعقوب يوسف بن محمد بن الحسين بالقاهرة قال: أنبأنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي قال: سمعت أبا مسلم داود بن محمد بن الحسن القزويني، بقزوين، يقول: سمعت (300 ـ ظ) أبا بكر الطحان الصوفي بهمذان يقول: رأى الشيخ أبو عمر عثمان الكرجي الصاحب أبا علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي الوزير في المنام وكأنه في الجنة وهو متوج بتاج مرصع بالجواهر، قال: فقلت: بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ فقال: بفضل الله وحده.

أخبرنا عبد المطلب بن أبي المعالي قال: أخبرنا عبد الكريم بن محمد قال: أنشدنا أبو مضر طاهر بن مهدي الطبري إملاء بنيسابور قال: وأنشدني أبو عبد الله محمد بن الحسن الأرزني إملاء من حفظه، قال أبو مضر: بمرو، وقال أبو عبد الله: بجبل تروع، قالا: أنشدني شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطية البكري لنفسه في مرثية نظام الملك:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزت ولم تعرف الأيام قيمتها ... فردها غيرة منه إلى الصدف

جناح الدولة حسين

(من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم)

حسين، ويلقب باقي الدولة، كان تاج الدولة تُتُش ألب أرسلان قد ولاه حلب ومكنه فيها، واستولى عليها حين قتل تاج الدولة، فلما بلغ خبر قتله رضوان بن تُتُش، وكان متوجهاً إلى أبيه عاد إلى حلب، فسلمها إليه، وتسلمها رضوان منه، ومن وزير أبيه أبي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

أنبأنا أبو نصر القاضي قال: أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن قال: كان بدمشق، يعني رضوان بن تُتُش عند توجه أبيه إلى ناحية الري، فكتب إليه يستدعيه، فخرج إليه، فلما كان بالأنبار بلغه قتله، فرجع إلى حلب فتسلمها من الوزير أبا القاسم وكان المستولي على أمرها باقي الدولة (197 ـ ظ) حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

هكذا ذكر الحافظ الدمشقي[1]، وهو حسين جناج الدولة صاحب حمص، أتابك رضوان بن تتش ومدبره، كان تاج الدولة تتش حين قتل قسيم الدولة أق سنقر وتسلم البلاد، سلم حمص إلى جناح الدولة حسين، وجعله أتابك[2] عسكر ولده رضوان، فلما قتل تاج الدولة تتش كان حسين يدبر أمر رضوان وهو صبي بحلب، فاستشعر جناح الدولة حسين من رضوان فهرب وانفصل عنه، ومضى إلى حمص ومعه زوجته أم الملك رضوان، وعند هربه في الليل كسر باب العراق وخرج منه، وبعد وصوله إلى حمص كبس عسكر رضوان على سرمين، وأسر أرباب دولته وديوانه ووزيره أبا الفضل ابن الموصول، ومات صاحب الرحبة زوج آمنة بن قمار، فخرج جناح الدولة إليها ليأخذها، فوجد دُقاق قد سبقه إليها في سنة ست وتسعين، فعاد منها، ونزل نقرة بني أسد، وخرج إليه رضوان إلى النقرة، واصطلحا وأخذه معه إلى ظاهر حلب، وضرب له خياماً، وأقام في ضيافته عشرة أيام، ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه، وسار جناح الدولة حسين إلى حمص وأقام بها

---

(1) ليس له ترجمة في تاريخ ابن عساكر.

(2) الأتابك كلمة مركبة من: «أتا + بك» أي الأب ـ أو العم ـ الأمير، وغالباً ما كان الأتابك هو زوج أم ابن السلطان بعد تطليقها والعهدة إليه بتربيته إليه.

إلى أن نزل يوماً لصلاة الجمعة فهجم عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه، وكان ذلك بتدبير أبي طاهر الصائغ رئيس الاسماعيلية، تقربا إلى الملك رضوان، لما كان قد تجدد بينه وبينه من الوحشة، وكان حسين رجلاً شجاعاً باسلاً ذا رأي سديد وفيه دين وخير.

أنبأنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي عن الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ قال: وتسلم قسيم الدولة آق سنقر مدينة حمص - يعني من خلف بن ملاعب - وقلعتها، فلما قتل قسيم الدولة، قتله تاج الدولة، وتسلم البلاد، سلم حمص إلى جناح الدولة حسين، وهو أتابك عسكر ولده الملك رضوان، فلما قتل تاج الدولة بالري استشعر جناح الدولة حسين من الملك رضوان، وانفصل عنه، ووصل إلى حمص فنزل من القلعة إلى الجامع يوم الجمعة للصلاة، فلما وصل مصلاه أتاه ثلاثة نفر من العجم فهجموا عليه بسكاكينهم، فقتلوه رحمه الله، وقتلوا معه قوماً من أصحابه، وقتلوا وقتل نفر كانوا في الجامع، من الصوفية العجم بالتهمة وهم أبرياء، وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب سنة ست وتسعين وأربعمائة، واختبط البلد، وخافوا من الأفرنج، فراسلوا شمس الملوك [دقاق بن تُتُش] يلتمسون منه إنفاذ من يتسلم حمص وقلعتها قبل ن يخرج إليها ويتسلمها من الأفرنج من تمتد أطماعهم، فتوجه شمس الملوك إليها، وتسلمها، وأحسن إلى أولاد جناح الدولة، وسار بهم إلى دمشق، فأقر عليهم إقطاع أبيهم.

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد بن منقذ، وفيها، يعني سنة ست وتسعين وأربعمائة وثب قوم من الباطنية على جناح الدولة حسين فقتلوه، وذلك يوم الجمعة ثامن وعشرين رجب، وكان ذلك من تدبير أبي طاهر الصائغ، وخدمة للملك رضوان، واستولى بعده قراجا على حمص.

قرأت في مدرج وقع إليّ بالقاهرة بخط العضد مرهف بن أسامة بن مرشد بن منقذ يتضمن ذكر واقعات ذكرها على وجه الاختصار، قال: سنة ست وتسعين - يعني وأربعمائة - فيها قتل جناح الدولة بحمص في يوم الجمعة.

قلت: وكان قتله في الثاني والعشرين من شهر رجب بتدبير الحكيم أبي الفتح المنجم الباطني، ورفيقه أبي طاهر، وقيل كان ذلك بأمر رضوان ورضاه، وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوماً ومات.

أنبأنا أبو اليُمن الكندي عن أبي عبد الله العظيمي ، ونقلته من خطه قال : سنة ست وتسعين وأربعمائة فيها قتل الباطنية جناح الدولة بحمص في الجامع يوم الجمعة ، ستة نفر ، أحدهم يعرف من أهل سرمين .

وفيها مات الحكيم العجمي الباطني بحلب (198 ـ و) .

خلف بن ملاعب

(من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم)

خلف بن ملاعب الأشهبي الملقب سيف الدولة، كان كريماً شجاعاً، جباراً ظالماً، يقطع الطريق، ويخيف السبيل، وإليه تنسب قبة ابن ملاعب، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب، بينها وبين سلمية، وكان في يده حمص، وأفامية، فكتب الولاة بالشام إلى السلطان ملك شاه، وشكوا إليه خلف بن ملاعب، فكتب إلى أخيه تاج الدولة تُتُش صاحب دمشق وإلى قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب، وإلى (220 ـ ظ) بُزان صاحب الرها، وإلى يغي سِغان صاحب أنطاكية يأمرهم بمحاصرته، وانتزاع معاقله من يده وحمله إليه.

فاجتمعوا عليه وهو بحمص، وسبقهم بُزان فلم يمكنه من الخروج من حمص، فافتتحوا حمص، وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد إلى السلطان ملك شاه، فأطلق حمص لأخيه تُتُش، وحبس ابن ملاعب: وبقي في حبسه إلى أن أطلقته خاتون امرأة السلطان ملك شاه.

فمضى إلى مصر، إلى الأفضل أمير الجيوش جماعة من أهل أفامية في سنة تسع وثمانين، وقيل سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وكان ولائهم فيها (له)، والتمسوا منه والياً يكون عليهم، ووقع اقتراحهم على ابن ملاعب.

فوصل في ذي القعدة من إحدى السنتين، ودخل أفامية وملكها، وتجددت وحشة بينه وبين ابن منقذ، أظنه أبا المرهف نصر بن علي بن منقذ، وكان قسيم الدولة آق سنقر حين فتح أفامية جعله بها، واتصلت غارات ان ملاعب على شيزر، وكفر طاب، والجسر، وزحف ابن منقذ إليه ومعه خلق ورجال، فظفر بهم ابن ملاعب، وكان في نفر يسير، فقتل جماعة وأسر جماعة، وباعهم أنفسهم، واستقرت الحال بينهم بعد ذلك، ثم عمل الباطنية حيلة على القلعة وعليه حتى قتلوه في سنة تسع وتسعين وأربعمائة.

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد بن علي بن منقذ الذي ذيل به تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري، قال: سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فيها: كتب ولاة الشام إلى السلطان ملك شاه يشكون ما يلقونه من خلف بن ملاعب (221 ـ و) بحمص من قطع

الطريق، وإخافة السبيل، فأمر السلطان أن يسير إليه بُزان، وقسيم الدولة، وتاج الدولة، ويغي سغان، فسبق إليه بزان فنزل قريباً من حمص فكتمه ما يريد حتى بلغ منه غرضاً، ودخل إليه رسوله، فقال: عاش لك ملاعب، ثم حصر بزان المدينة، واجتمع عليها كل من في الشام، فافتتحت، وكل من الأمراء المذكورين طلبها، فكتبوا جميعاً إلى السلطان فأنعم بها على أخيه تاج الدولة، وأمر السلطان بحمل خلف بن ملاعب في قفص من حديد إلى قلعة أصبهان، فحمل وحبس بها حتى مات السلطان.

وقال: سنة أربع وثمانين فيها: نزل قسيم الدولة آق سنقر على أفامية وملكها، وسلمها إلى عمي عز الدولة أبي المرهف نصر بن سديد الملك، وذلك في شعبان.

أنبأنا أبو محمد بن عبد الله الأسدي قال: كتب إلينا أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ قال: كانت حمص في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة لسيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي، فنزل على سلمية، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمي فرماه في المنجنيق إلى برج سلمية، وأخذ قوماً من بني عمه مأسورين، فمضى من بقي منهم واستغاثوا بالخليفة والسلطان ملك شاه، فخرج أمر السلطان إلى أمراء الشام: تاج الدولة تُتُش صاحب دمشق، وقسيم الدولة صاحب حلب، وبزان بن ألب صاحب الرها، ويغي سغان صاحب أنطاكية، بالنزول على حمص والقبض على سيف الدولة خلف بن ملاعب (222 ـ ب) وتسييره إليه، فنزلوا على حمص وحاصروه، وأخذوه إلى السلطان، فأقام في الحبس إلى أن توفي ملك شاه في شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فأطلقته خاتون امرأة السلطان، وتسلم قسيم الدولة آق سنقر مدينة حمص وقلعتها، فلما قتل قسيم الدولة: قتله تاج الدولة، تسلم البلاد، وسلم حمص إلى جناح الدولة حسين.

أنبأنا أبو اليُمن زيد بن الحسن قال: كتب إلينا أبو عبد الله محمد بن علي العظيمي وقال: سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة: وفيها سار الأمير قسيم الدولة، وبزان وغسيان وتاج الدولة، ونزلوا حمص وفتحوها من يد ابن ملاعب، وحملوا ابن ملاعب في قفص حديد إلى عند السلطان فلما هلك السلطان، خلص ابن ملاعب وصعد إلى مصر، وعاد منها تسلم قلعة أفامية وأقام بها سبع عشرة سنة وقتل.

قلت: هكذا ذكر العظيمي ونقلته من خطه في كتاب في التاريخ جمعه وسماه المؤصل على الأصل المؤصل، وقال: «وعاد منها ـ يعني من مصر ـ تسلم قلعة أفامية سبع عشرة

سنة»، وهذا وهم، فإن قتل ابن ملاعب ظنه سنة تسع وتسعين وعوده من مصر فيها، وإن كان أراد ولايته الأولى، فالكلام غير مستقيم لأنه أخبر (222 ـ و) أنه تسلم قلعة أفامية وأقام بها سبع عشرة سنة وقتل، وقد خرجت عن يده في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وقتل سنة تسع وتسعين، فبقيت خارجة عن يده قبل قتله أربع سنين وثلاثة أشهر، وكانت أفامية في يد ابن ملاعب مع حمص في أيام أبي المكارم مسلم بن قريش: فإنني قرأت في كتاب العظيمي بخطه قال: سنة خمس وسبعين وأربعمائة، وفيها في صفر حاصر شرف الدولة ابن ملاعب بقلعة حمص، وفيها عاد شرف الدولة إلى حلب، وقد صالح ابن ملاعب.

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد الذي ذيل به تاريخ ابن المهذب، قال: في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفيها، طلع قوم من أهل أفامية إلى الأفضل يسألونه أن يولي عليهم سيف الدولة خلف ابن ملاعب، فنهاهم وقال: لا تفعلوا وحذرهم من فسقه، فقالوا: نحن نجعل عيالاتنا لنا ليلة وله ليلة، فسيره معهم ووصل أفامية ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة.

قلت: هؤلاء أهل تلك الجبال أكثرهم دهرية.. يستبيحون ذوات الأرحام، ولا يعتقدون تحريم الحرام.

قرأت بخط عمر بن محمد العليمي المعروف بابن حوائج كش الحافظ، وأخبرنا به إجازة عنه أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن النسابة، وذكر العليمي أنه نقله من خط ابن زريق، يعني أبا الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زريق، وكان عالماً بالتاريخ، قال: وقدم إلى أفامية، يعني خلف بن ملاعب، من مصر سنة تسع وثمانين وأربعمائة، لأن أهل أفامية مضوا إلى مصر (222 ـ ظ) يلتمسون والياً يكون عليهم، ووقع اقتراحهم عليه، فوصل في يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة، ودخلها وملكها.

قال: ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين، قتله جماعة وصلوا من حلب من أصحاب أبي طاهر الصائغ القائم بمذهب الباطنية، بعد موت المنجم المعروف بالحكيم بحلب، وكانوا من أهل سرمين، وقاموا فيها بموافقة رجل داع كان بأفامية يقال له ابن القنج أصله من سرمين، وأقام بأفامية يحكم بين أهلها، وقرر ذلك مع أهلها، وأحضر هؤلاء، ونقب أهلها نقباً في سورها حتى قارب الوصول، فلما وصل هؤلاء لقيهم ابن ملاعب، فأهدوا له فرساً وبغلة كانوا أخذوها من أفرنج لقوهم في

الطريق، فأعلموه أنهم جاءوا بنية الغزو إلى بلد الروم، وباتوا بظاهر الحصن في الليل، ودخلوه من ذلك النقب، ورتبوا بعضهم على دور أولاده لئلا يخرجوا ينجدونه، وصعدوا، فخرج إليهم فطعن في بطنه، فرمى بنفسه من القلعة يريد دار بعض أولاده، فطعن أخرى، ومات بعد ساعة، وحين صاح الصائح على القلة، ونادى بشعار رضوان بن تاج الملك، ترامى أولاده وخاصته من السور فبعضهم قتل، وأخذ أكثرهم فيما بين أفامية وشيزر، وقتلوا وسلم الله مصبح، ووصل إلى شيزر وأقام عند ابن منقذ مدة وأطلقه.

ودخل طنكلي إلى أفامية عقيب هذا الحادث طمعاً في الحصن ومعه أخ لهذا ابن القنج من سرمين (223 ـ و) كان مأسوراً، فقرروا له شيئاً، وعاد عنها، فوصل بعض أولاد ابن ملاعب الذين كانوا بدمشق، والذي كان بشيزر فذكروا لطنكلي قلة القوت بها فعاد في رمضان فنزل عليها، فأقام إلى آخر السنة، وفتحها في الثالث عشر من محرم سنة خمسمائة، وأسر ابن القنج والصايغ، وعاقب ابن القنج وقتله، وأطلق بعض أهل أفامية.

أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي الفنكي قال: أخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني في كتابه، أن قوماً من أهل أفامية من الاسماعيلية عملوا على مالكها وتحيلوا عليه بأن جاء منهم ستة نفر وقد حصلوا حصاناً وبغلة وعدداً أفرنجية وتراساً وزردية، وخرجوا من بلد حلب إلى أفامية بتلك العدة والدواب، وقالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب ـ وكان رجلاً كريماً شجاعاً ـ جئنا قاصدين خدمتك، فلقينا فارساً من الأفرنج، فقتلناه، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته، فأكرمهم وأنزلهم في حصن أفامية، في دار مجاورة السور، فنقبوا السور، وواعدوا الفاميين إلى ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة، فطلع الفاميون من ذلك النقب، فقتلوا خلف بن ملاعب، وملكوا حصن أفامية.

قرأت بخط العضد أبي الفوارس مرهف بن أسامة بن مرشد بن منقذ:

سنة تسع وتسعين وأربعمائة (223 ـ ظ) فيها قفز أهل أفامية مع القاضي ابن القنج على سيف الدولة خلف بن ملاعب وقتلوه، وقتلوا أولاده في الرابع والعشرين من جمادى الأولى.

ونقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في تاريخه، وأنبأنا به أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، والمؤيد بن محمد الطوسي وغيرهما عنه قال: سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وفيها: عمل الباطنية على قلعة أفامية، وقتلوا ابن ملاعب بها غيلة، وملكوا القلعة، فعاجلهم الفرنج ونزلوا عليهم، وحصروهم بها إلى أن أخذوها.

خلف بن ملاعب الأشهبي
(من المقفى للمقريزي - مجلده برتو باشا)

خلف بن ملاعب الأشهبي الكلابي، الأمير أبو منصور، سيف الدولة أصله من قبيلة بني كلاب يقال لها الأشهب.

استولى على مدينة حمص في ولاية معلى بن حيدرة على دمشق من قبل المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر، في صفر سنة ست وستين وأربعمائة، فلما صار نصير الدولة بعساكر أمير الجيوش من مصر، وفتح صور وصيدا، ونزل بعلبك، قدم عليه خلف بن ملاعب ودخل في الطاعة ووجه بابن عمه إلى أمير الجيوس، فقبله، وبعث إلى خلف بالخلع والطوق، فأقام بحمص، وكان الضرر به عظيماً، ورجاله يقطعون الطريق في جميع النواحي، وكان في صحبته جماعة من اللصوص، فشمل الناس في أيامه مضرة شديدة، فلما سار تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان من دمشق، ومعه الأمير آق سنقر صاحب حلب، والأمير بوزان صاحب حران، وعولوا على قصد مصر، مضوا إلى حمص وقبضوا على خلف هذا وعلى ولديه، وحصل في حيز الأمير آق سنقر فبعث به إلى تركان خاتون الجلالية زوجة السلطان ملك شاه، فاعتقلته بأصبهان، ثم أفرج عنه بعد موت ملك شاه، فورد بغداد على أسوأ حال.

فاجتمع عليه التجار وادعوا عليه أموالاً أخذها منهم، فوكل به من دار الخلافة، فتوصل القائد علي بن كتاش في إطلاقه وأدى عنه من ماله ثلاثمائة وخمسين ديناراً، ثم دبر له في الخروج من بغداد فتم له ذلك ولم يكافئه عنه، وذهب ما أدى عنه ضياعاً، ومضى إلى مصر فلم يلتفت إليه، وأقام بها ومعه أهله وأولاده سنتين.

فكتب القائم بأفامية من جهة الملك رضوان بن تُتُش إلى المستنصر، وكان يميل إلى مذهب المصريين، يستدعي من يتسلم أفامية منه وكانت على غاية الحصانة، فواصل ابن ملاعب السعي في ذلك اليوم، ووعد أنه يحارب الفرنج رجاء المثوبة من الله تعالى، وكانت البلاد يومئذ أكثرها معهم، فأجيب بأنه رجل كافر النعمة مخفر الأمانة لا يملك عنان فرسه فيرى لأحد عليه طاعة، فقال: أنا أعطي أولادي رهينة وأنصرف على السمع والطاعة لكم.

فوقع الاتفاق عليه، وقلد أفامية في سنة تسع وثمانين وأربعمائة، فلما وصل وتمكن منها خلع الطاعة، فكتبوا إليه يعرفونه حال رهينته وما يحل بولده عند معصيته، فأجاب بأني متمسك بمكاني مدافع عن تسليمه، وإنني أوثر أن تطبخوا أولادي وتنفذوا إلي بعض أعضائهم حتى آكله.

فيئسوا منه وأعرضوا عنه، وأقام بأفامية على حالته من التخليط، ومال إليه المفسدون، وعظم قطع الطريق من جهته، فاتفق أن استولى الفرنج على سرمين فتفرق من كان بها، وكانوا غلاة في التشيع، وصار أكثرهم إلى رضوان متملك حلب، وفيهم شجاعة وقوة، والغالب عليهم حمل السلاح، ومضى قاضيهم أبو الفتح السرميني إلى ابن ملاعب في فريق منهم وأقام عنده وحظي لديه وتقدم تقدماً زائداً، فصاريطلعه على سره ويشاوره في أموره، والقاضي يدبر عليه ويكاتب أبا طاهر الصائغ بحلب، وهو من خواص الملك رضوان ليستخدمه في تدبيرها ويرد إليه النظر في أمورها، فاتفق أن أولاد ابن ملاعب تسللوا من مصر خفية ووصلوا إليه فأخبروه بأن القاضي أبا الفتح السرميني المقيم عنده قد اشتهر عندهم أنه يعمل عليه ويروم الفتك به، وأشاروا بإبعاده، فاستدعاه ابن ملاعب فحضر وقد أيقن بالفتك به ومعه مصحف. فلما جلس اعترف بما أولاه ابن ملاعب بالجميل، وأنكر ما قيل في حقه وحلف بالمصحف على صحة ما يعتقده من جميل ولائه، وسأله أن يطلقه عرياناً إن كان قد داخله فيه شك. فقبل قوله وانخدع له وتركه على حالته.

فأخذ القاضي من تلك الساعة في الجد، وكاتب الصائغ بأن يوافق الملك رضوان على تسيير ثلاثمائة رجل من أهل سرمين وصحبتهم شيء من خيل الفرنج وبغالهم وسلاح من أسلحتهم، وعرفه مكيدة يفهمها لهم ليقولوها عند حضورهم، ففعل ذلك الصائغ، وحضر أولئك الخيالة وقالوا: كنا نخدم رضوان وفارقناه على حالة غير مرضية من قلة إنصافه، وتوجهنا نحو الفرنج فأخذنا منها براءة للأمير إن رضينا له خدماً ـ وقدموا له ما كان معهم من الخيل الفرنجية والبغال والسلاح ـ فتم ذلك عليه وظنه صحيحاً، واستخدمهم وقربهم وأسكنهم ربض القلعة، فاجتمعوا مع القاضي أبي الفتح على التدبير، فواعدهم. فلما كانت تلك الليلة طاف العسس كجاري العادة ومضوا وناموا فثار من بالحصن من أهل سرمين ودلوا الحبال إلى الواصلين فرفعوهم، وقام السيف فقتل ابن ملاعب وأولاده، لأربع بقين من

جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وملكت القلعة، وأفلت صبح ونصر ولدا خلف ابن ملاعب، فتوجه صبح إلى شيزر وأقام عند ابن منقذ.

بعث القاضي أبو الفتح إلى أبي طاهر سعيد الصائغ، فسار إلى أفامية لا يشك أنها له، فأكرمه القاضي وامتنع من تسليمها إليه وقال: في هذا الموضع نحن محترمون ما دام لنا وإذا خرج إلى غيرنا إمتهنا ـ فيئس منه.

وكان لخلف ابن يقال له مصبح في خدمة طغدكين بدمشق قد أعطاه حصناً بالبرية يحفظه فعرف بعده بقبة ابن ملاعب فأفسد هناك فهدده طغدكين، فلحق بالفرنج وأوى إلى طنكري متملك أنطاكية، وحسن لهم قصد أفامية، فساروا معه ونازلوها فسير إليهم القاضي أبو الفتح عشرة آلاف دينار. فرحلوا فلامهم ابن خلف ومازال بهم حتى أقاموا عليها إلى أن مات من بها من الجوع، فملكها الفرنج وقتلوا القاضي وأسروا الصائغ وحملوه إلى أنطاكية معهم وقتلوه بها، فأخذ رضوان ماله، وأولاده بحلب.

دُقاق بن تُتُش

(من الجزء السادس من تاريخ دمشق لابن عساكر مخطوط الظاهرية 3450)

دُقاق بن تُتُش بن ألب أرسلان أبو نصر المعروف بالملك شمس الملوك، ولي إمرة دمشق بعد قتل أبيه تاج الدولة في سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وكان بحلب، فراسله خادم لأبيه اسمه ساوتكين كان نائباً في قلعة دمشق، سراً من أخيه رضوان بن تُتُش صاحب حلب، فخرج دقاق إلى دمشق وحصل بها، وأجلسه ساوتكين في منصب أبيه، ثم دبر هو وطغتكين المعروف بأتابك ـ زوج أم الملك دقاق ـ على ساوتكين فقتل.

وأقام دُقاق بدمشق، وقدم أخوه رضوان فحاصرها فلم يصل منها إلى مقصود فرجع إلى حلب، ثم عرض لدُقاق مرض تطاول به وتوفي منه في الثاني عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وإن أمه زينت له جارية فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته، ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم، وإن أمه ندمت على ذلك بعد الفوت، وأومأت إلى الجارية أن لاتفعل، فأشارت إليها أن قد كان، وتهرى جوفه فمات. . . (5 ـ ظ).

رضوان بن تتش

(من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم)

رضوان بن تُتُش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن دُقاق، أبو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة خمس وسبعين وأربعمائة، نشأ في دمشق في حجر أبيه، وكانت أمه أم ولد، فزوجها أبوه من جناح الدولة حسين، وجعله أبوه أتابكاً له ومربياً، ولما توجه أبوه تُتُش لمحاربة بركيارق ووصل إلى همذان كتب إلى ولده رضوان في دمشق، وكان قد تركه بها، يستدعيه إليه من دمشق، وأمره أن يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر، فامتثل أمر أبيه، وخرج من دمشق بالعسكر متوجهاً إلى أبيه، ووصل إلى عانة وقيل إلى الأنبار، فبلغه مقتل أبيه تُتُش، فحط خيمته وسار مجداً عائداً، فوصل إلى حلب وتسلمها من وزير أبيه أبي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتولى حسين زوج أمه تدبير ملكه.

ووصل أخوه دُقاق إلى حلب، ومضى سراً من رضوان إلى دمشق فملكها، وقدم يغي سغان، ويوسف بن آبق بعسكرهما من أنطاكية إلى خدمة رضوان، وسارا (89 ـ و) معه إلى الرها ليستلمها من نواب والده، فأراد القبض على حسين لينفردا بتدبير رضوان، فبلغ حسين ذلك، فهرب إلى حلب، وتبعه رضوان إليها واستوحش رضوان منهما، فرجعا إلى أنطاكية.

وسار رضوان إلى دمشق ليأخذها من أخيه دُقاق، ونزل جناح الدولة حسين بحلب، وسار معه سكمان بن أرتق، فلما وصل رضوان إلى دمشق، اعتقل دُقاق نجم الدين إيلغازي بن أرتق ولم يستتب لرضوان أمر دمشق، فرجع إلى حلب، وتوجه سكمان إلى البيت المقدس، وتسلمه من نواب أخيه إيلغازي.

ووصل يوسف بن آبق إلى رضوان حلب وسكنها فخاف منه رضوان وحسين فتقدما إلى المجن الفوعي (66) فهجم عليه فقتله.

وخرج رضوان وحسين فتسلما تل باشر، وشيح الدير من نواب يغي سغان، وأغارا على بلد أنطاكية، ثم توجها إلى دمشق وسار يغي سغان إليها منجداً دُقاق،

فضعفت نفس رضوان عن دمشق، فسار إلى البيت المقدس فتبعه، دُقاق، وطغكين، ويغي سغان، وأشرف عسكر رضوان على التلف فهرب حسين على البرية إلى حلب، ووصل دُقاق وطغتكين إلى ناحية حلب، واستنجد رضوان بسليمان ابن إيلغازي صاحب سميساط، فوصل إلى حلب بعسكر كبير واجتمع العسكران على نهر قويق، وتحارباً، فهرب دقاق وطغتكين إلى دمشق، ويغي سغان إلى أنطاكية.

وتغيرت نية رضوان على حسين فهرب من حلب إلى حمص، ومعه زوجته أم رضوان.

ثم تجدد بعد ذلك خروج. الفرنج (89 ـ ظ) إلى أنطاكية، ووصل يغي سغان إلى الملك رضوان إلى حلب إلى خدمة رضوان وتزوج رضوان بابنته خاتون جيجك، ونزل الفرنج على أنطاكية، وشنوا الغارات على بلد حلب، ووصل ابن يغي سغان إلى حلب مستنجداً على الفرنج، فسير رضوان معه عسكر حلب وسكمان، فلقيهم من الفرنج دون عدتهم، فانهزم المسلمون إلى حارم، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها، وعاد سكمان ابن أرتق مفارقاً رضوان، وصار مع دُقاق.

واستولى الفرنج على أنطاكية، وضعف أمر رضوان، واستمال الباطنية وظهر مذهبهم بحلب، وشايعهم رضوان، واتخذوا دار دعوة بحلب، وكاتبه ملوك الإسلام في أمرهم، فلم يلتفت، ولم يرجع عنهم، ودام على مشايعتهم.

وقوي الفرنج عليه فباع من أملاك بيت المال عدة مواضع للحلبيين، وقصد بذلك استمالتهم، وأن يتعلقوا بحلب بسبب أملاكهم فيها حتى أنه باع في ساعة واحدة ستين خربة من مزارع حلب لجماعة من أهلها وكتب بها كتاباً واحداً، يذكر حدود كل خربة ومشتريها وثمنها، وكان الكتاب عندي في جملة الكتب التي كانت لوالدي رحمه الله.

وكان الملك رضوان بخيلاً شحيحاً يحب المال، ولا تسمح نفسه بإخراجه، حتى أن أمراءه وكتابه كانوا ينبزونه بأبي حبه، وذلك هو الذي أضعف أمره، وأفسد حاله مع الفرنج والباطنية، وجدد في حلب مكوساً وضرائب لم تكن، ومع هذا كله كان فيه لطف ومحاسنة (90 ـ و) للحلبيين حتى بلغني أنه مر يوماً راكباً ليخرج من باب العراق، سمع امرأة تنادي أخرى يا زليخا تعالي أبصري الملك، فأمسك فرسه ووقف ساعة، ثم نظر فلم ير أحداً فقال: أين هي زليخا، قولوا لها أن تأتي تبصرنا أو نمشي، وهذا من أبلغ اللطافة من ملك مثله.

وحدثني والدي قال: أخبرني أبي قال: وقع بين والدي أبي غانم وبين القاضي أبي الفضل بن الخشاب مشاجرة في التخم الذي بين قرية والدي أقدار وبين قرية ابن الخشاب عيطين، وآل الأمر إلى مواحشة وغلظة، فبلغ الملك رضوان فقال: أنا أخرج بنفسي وأقف معكما على التخم، فخرجا مع الملك فوقف معهما، وقال لأحدهما: إلى أين تدعي؟ فقال: إلى ها هنا، وقال للآخر: إلى أين تدعي؟ فقال: إلى ها هنا، فقال لكل واحد منهما: أريد أن تهب لي نصف ما تدعي على صاحبك، فأجاباه جميعاً إلى ذلك وأصلح بينهما على أن نزل كل واحد عن نصف المدعى به، وجعل بينهما تخماً اتفقا عليه، ورجع إلى المدينة، وهذا أيضاً من المآثر التي ينبغي أن تكتب وتسطر وتنقل في التواريخ وتذكر.

قرأت بخط الشريف إدريس بن الحسن الإدريسي الاسكندراني، قال الشيخ أبو الحسن بن الموصول، أملانيه بدار الشريف أمين الدين أبي طالب أحمد بن محمد النقيب الحسيني الاسحاقي من تعليق لبعض (90 ـ ظ) أسلافه، قال: وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسمائة وصل إلى حلب رجل كبير فقيه تاجر يقال له أبو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندي ومعه خمسمائة جمل عليها أحمال أصناف التجارات، وكان شديداً على الاسماعيلية، مسعداً لمن يقصدهم، مبالغاً في بابهم، أنفق في المجاهدين لهم بسببهم أموالاً جليلة، فقام في غلمان له يستعرض أحماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه، وكان قد أصحب من خراسان باطنياً يقال له أحمد بن نصر الرازي، وكان أخوه قتله رجال هذا الخجندي، فدخل إلى حلب، واستدل على أبي الفتح الصايغ رئيس الملاحدة بها، وكان متمكناً من رضوان، فصعد إلى الملك رضوان، وعرفه ما جرى بينهم وبين الفقيه أبي حرب، وأطمعه في ماله، وأراه أنه بريء من التهمة في بابه إذ كان معروفاً بعداوة الملاحدة، فطمع رضوان وانتهز الفرصة فيه، وطار فرحاً، فبعث بغلمان له يتوكلون به.

فبرز إلى أبي حرب عيسى الفقيه أحمد بن نصر الرازي وهجم عليه، فقال لغلمانه وأصحابه: أليس هذا رفيقنا؟ فقالوا: هو، هو، فوقعوا عليه فقتلوه، وهجم جماعة من أصحاب أبي الفتح الباطني الحلبي على أبي حرب فقتلوا عن آخرهم، ثم قال أبو حرب: الغياث بالله من هذا الباطني الغادر، أمنا المخاوف وراءنا وجئنا إلى (91 ـ و) الأمنة، فبعث علينا من يقتلنا، فرجعوا إلى رضوان، فأخبروه بما قال، فأبلس، وصار السنة والشيعة إلى هذا الرجل، وأظهروا إنكار ما تم عليه، وعبث أحداثهم بجماعة من

أحداث الباطنية فقتلوهم، وأنهي ذلك إلى الملك رضوان فلم يتجاسر على إنكاره، وأقام الرجل بحلب، وكاتب ظهير الدين [طغتكين] وغيره من ملوك الشام فتوافت رسلهم عند رضوان بكتبهم ينكرون عليه ما جاء في بابه، فأنكر وحلف أنه لم كن له في هذا الرجل نية، وخرج الرجل عن حلب مع الرسل، فخيروه في التوجه نحو الرقة، وعاد إلى بلده، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل، ونقص في أعين الناس، فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم.

أنبأنا زيد بن الحسن عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في حوادث سنة إحدى وخمسمائة قال: وفي هذه السنة بلغ فخر الملوك رضوان ما ذكر به عن مشايعة الباطنية واصطناعهم، وحفظ جانبهم، وأنه لعن بذلك في مجلس السلطان، فلما بلغه الخبر أمر أبا الغنائم بن أخي أبي الفتح الباطني بالخروج عن حلب فيمن معه، فانسل القوم بعد أن تخطف جانبهم، وقتل منهم أفراداً.

وقلت: ولما ملك رضوان حلب قتل أخوين له كانا من أبيه، فلما مات رضوان وملك ابنه ألب أرسلان قتل أخوين له كانا من أحسن الناس صورة فانظر (91 ـ ظ) إلى هذه المؤاخذة العجيبة.

أنبأنا المؤيد بن محمد علي الطوسي عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي قال: وفيها ـ يعني سنة تسعين وأربعمائة ـ عصى المجن الموفق على الملك رضوان، وتعصب معه الحلبيون ثم تخاذلوا عنه، واختفى، فقبض عليه الملك رضوان، وعلى ذويه وبنيه، واستصفى أمواله في ذي القعدة وعذبهم بأنواع العذاب، ثم قتله بعد ذلك، وقتلهم حوله.

قال: وفيها وصل رسول مصر إلى الملك رضوان، يعني من المستعلي، بالتشريف والخلع، وخطب للمصريين شهراً، ثم عاد عن ذلك.

وقال: سنة ثلاث وتسعين، وفيها كسرت الأفرنج للملك رضوان على موضع يقال له كلاً، وكان المسلمون في خلق، وكان الأفرنج في مائة فارس، فقتلوا خلقاً من الناس، وأسروا خلقاً، وكانت الكسرة يوم الجمعة خامس شعبان.

وقال: سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، فيها كسر الفرنج للملك رضوان على عين تسيلو من أرض أرتاح، وكان سبب ذلك حصن أرتاح، خرجوا إليه ليأخذوه. وجمع الملك رضوان الخلق العظيم، وخرج لنجدة الحصن، ومعه من الرجالة الخلق العظيم،

وكان المصاف يوم الخمس، فانهزمت الخيل، وأسلموا الرجالة، فقتل منهم الخلق العظيم، وفقد من الحلبيين جماعة كثيرة غزاة رحمهم الله، وانهزم أكثر من به.

قلت: وبلغني أنه قتل من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل، وهرب (92 ـ و) من بأرتاح من المسلمين وقصد الفرنج بلد حلب، فأجفل أهله، ونهب من نهب، وسبي من سبي، واضطربت أحوال بلد حلب من جبل ليلون إلى شيزر، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون وهرب أهل الجزر وليلون إلى حلب، فأدركتهم خيل الفرنج فسبوا أكثرهم وقتلوا جماعة، وكانت هذه النكبة على أعمال حلب أعظم من النكبة الأولى على كلا، ونزل طنكريد الفرنجي على تل أعذى من عمل ليلون وأخذه، وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب، ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية وهي غير آمنة.

وضاق الأمر بأهل حلب، ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج، وكسروا بعض المنابر، فجهز السلطان محمد بن ملكشاه مودود صاحب الموصل وأحمديل الكردي، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة، ومات سكمان قبل وصوله إلى حلب، ووصلت العساكر إلى حلب، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجوههم، وأخذ إلى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها، ورتب قوماً من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور، ومنع الحلبيين من الصعود إليه، وضبر[1] إنسان من السور (92 ـ ظ) فأمر به فضرب عنقه، ونزع رجل ثوبه ورماه إلى آخر، فأمر به فألقي من السور إلى أسفل، وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة.

وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه، وكثرت اللصوص وخاف الأعيان على أنفسهم، وساء تدبير الملك رضوان، فأطلق العوام ألسنتهم بسبه وتعييبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد، وعاث العسكر فيما بقي سالماً ببلد حلب بعد نهب الفرنج له، ورحل العسكر إلى معرة النعمان بعد استيلاء الفرنج عليها

---

(1) أي قفز.

في آخر صفر من سنة خمس وخمسمائة وأقاموا عليها، وقدم عليهم أتابك طغتكين، فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد ما بينهم، وظهر لأتابك طغتكين منهم الوحشية، فصار في جملة ممدود (مودود) وثبت له ممدود، ووفى له، وحمل لهم أتابك هدايا وتحفاً، وعرض عليهم المسير إلى طرابلس والمعونة لهم بالأموال، فلم يعرجوا، وسار أحمديل وبرسق بن برسق، وعسكر سكمان إلى الفرات، وبقي مودود مع أتابك، فرحلا من المعرة إلى العاصي، فنزلا على الجلالي، ونزل الفرنج أفامية: بغدوين، وطنكريد، وابن صنجيل، وساروا لقصد المسلمين، فخرج أبو العساكر سلطان بن منقذ من شيزر (93 - و) بأهله وعسكره، واجتمعوا بمودود وأتابك، وساروا إلى الفرنج، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء، والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد فأصبحوا هاربين سائرين يحمي بعضهم بعضاً.

ونزل طنكريد على قلعة عزاز وبذل له رضوان مقطعة عن حلب، عشرين ألف دينار وخيلاً وغير ذلك، فامتنع طنكريد من ذلك، ورأى رضوان أن يستميل طغتكين أتابك إليه، فاستدعاه إلى حلب، فوصل إليه وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال، واستقر الأمر على أن أقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق، فلم يظهر من رضوان الوفاء بما تعاهدا عليه، ووصل مودود إلى الشام، واتفق مع طغتكين على الجهاد، وطلب نجدة من الملك رضوان، فتأخرت إلى أن اتفق للمسلمين وقعة استظهر فيها الفرنج، ووصل عقبيها نجدة للمسلمين من رضوان دون المائة فارس، وخالف فيما كان قرره ووعد به، فأنكر أتابك ذلك وتقدم بإبطال الدعوة السكة باسم رضوان من دمشق في أول شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة.

أنبأنا سليمان بن الفضل بن سليمان قال: أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن قال: رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تُقاق التركي كان بدمشق (93 - ظ) عند توجه أبيه إلى ناحية الري، فكتب إليه يستدعيه، فخرج إليه، فلما كان بالأنبار بلغه قتلته، فرجع إلى حلب فتسلمها من الوزير أبي القاسم، وكان المستولي على أمرها جناح الدولة حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، ثم قدم دمشق بعد موت أخيه دُقاق، فحاصرها وقرر له الخطبة والسكة، فلم تستتب أموره وعاد إلى حلب، وأقام بها، وجرت منه أمور غير محمودة في قتال الفرنج، وظهر منه الميل إلى الباطنية، واستعان

بهم بحلب، ثم استدعى طغتكين أتابك إلى حلب ولاطفه، وأراد استصلاحه، وقرر بينهما أموراً، وأقام له طغتكين الدعوة والسكة بدمشق، فلم يظهر منه الوفاء بما وعد، فأبطلت دعوته.

وكان لما ملك حلب قد قتل أخويه أبا طالب وبهرام ابني تُتُش، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة.

أنبأنا أبو اليُمن الكندي عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي، ونقلته من خطه، قال: سنة سبع وخمسمائة، فيها مات الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب بحلب، وفيها قتل تاج الدولة ابن الملك رضوان أخويه ملك شاه وإبراهيم صبيين أحسن الناس صوراً.

كذا وجدته، وإبراهيم بقي زماناً، ورأيت ولده بحلب، وأظنه مبارك والله أعلم.

وقرأت في كتاب تاريخ وقع (94 ـ و) إلي بماردين جمعه الرئيس أبو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري، وشاهدته بخطه، وقال: وفيها، يعني سنة ثمان وخمسمائة مات الملك رضوان بن تُتُش بحلب، وتولى ولده الأخرس.

وقرأت في بعض ما علقته من الفوائد، مرض رضوان بحلب مرضاً حاداً، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة ودفن بمشهد الملك، فاضطرب أمر حلب لوفاته، وتأسف أصحابه لفقده، وقيل إنه خلف في خزانته من العين والآلات، والعروض، والأواني ما يبلغ مقداره ستمائة ألف دينار.

قرأت في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال: وملكها، يعني حلب بعده ـ يعني بعد قتل أبيه تُتُش ـ في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة أبو المظفر رضوان بن تُتُش تسع عشرة سنة وشهوراً، وتوفي في سحرة يوم الأربعاء آخر يوم من جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وخلف عيناً وعروضاً تقارب ألف ألف دينار.

راشد الدين سنان

(رواة اليونيني في ذيل مرآة الزمان عن بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم)

. . سنان بن سلمان بن محمد أبو الحسن البصري مقدمهم، وقد ذكره الصاحب كمال الدين عمر بن العديم رحمه الله في تاريخ حلب فقال:

سنان بن سلمان بن محمد بن أبي الحسن البصري صاحب الدعوة النزارية ومتولي حصون الإسماعيلية، قدم حلب عند اجتيازه إلى الحصون، وانقادَّ له الطائفة الإسماعيلية ما لم ينقادوا إلى غيره، وتمكن ما لم يتمكن غيره، وله شعر حسن وكلام منثور جيّد، من شعره:

قال: أنشدني بهاء الدين الحسن بن إبراهيم بن الخشّاب، قال: أنشدني شيخ من الإسماعيلية، قال: أنشدني سنان لنفسه وسمعتها من لفظة:

ما أكثر النَّاس وما أقلَّهم ... وما أقل في القليل النُّجبا

ليتهم إذ لم يكونوا خلقوا ... مهذَّبين صحبوا مهذَّبا

قال كمال الدين عمر بن العديم رحمه الله: وقرأت على ظهر كتاب لسنان صاحب الدعوة:

ألجأني الدهر إلى معشر ... ما فيهم للخير مستمتع

إن حدَّثوا لم يفهموا سامعاً ... أو حدِّثوا مجُّوا ولم يسمعوا

تقدُّمي أخَّرني فيهم ... من ذنبه الإحسان ما يصنع

وقال رحمه الله: أنشدني عبد العزيز بن سالم بن محمد الحراني، قال: أنشدت لسنان صاحب الدعوة النزارية:

لو كنت تعلم كل ما علم الورى ... طراً لكنت صديق كلَّ العالم

لكن جهلت فصرت تحسب أنَّ من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالم

فاستحي إنَّ الحقَّ أصبح ظاهراً ... عمَّا تقول وأنت شبه النَّائم

حكى سعد الدين عبد الكريم رسول الإسماعيلية قال: حكى سنان صاحب الدعوة قال: لمّا قدمت الشام اجتزت بحلب فجئت إلى المسجد الخارج برّاً باب الجنان،

ويُعرف بمشهد عليٍّ فصلّيتُ العصر، وثمَّ رجل شيخ مسن، فسألته من يكون الشيخ، فقال من صبيان حلب. فلما قال لي ذلك لم أتكلّم معه بكلمة واحدة بعد ذلك.

قال: وأخبرني علم ابن أبي الهواري أن الملك الناصر سيّر إليه رسولاً وفي رسالته تهديد له، فقال للرسول سأريك الرجال الذين ألقاه بهم، وأشار إلى جماعة من أصحابه بأن يلقوا أنفسهم من أعلى الحصن فألقوا نفوسهم واحداً بعد واحد فهلكوا. قال: وبلغني أنّه أحل لهم وطئ أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم، وأسقط عنهم صوم شهر رمضان، وسموا أنفسهم الصُفاة.

قال: وأخبرني شيخ من أهل الجَزْر ممن أدرك سنانا أن سنانا كان من أهل البصرة وكان معلماً يعلّم الصبيان، وأنّه مرّ وهو صاعد إلى الحصون على حمار أبيض حين ولاّه إيّاها صاحب ألَموت، فمرّ بأقساس فأراد أهلها أخذ حماره فبعد جهد تركوه، وبلغ من أمره ما بلغ، وكان يظهر لهم التنسّك حتى انقادوا إليه فأحضرهم يوماً وأوصاهم وقال لهم عليكم بالصفاء بعضكم لبعض، ولا يمنعنَّ أحدكم أخاه شيئاً هو له، فنزلوا إلى جبل السمّاق، وقالوا قد أمرنا بالصفاء وأن لا يمنع أحدنا صاحبه شيئاً هو له، يأخذ هذا زوجة هذا وهذا بنت هذا سفاحاً، وسموا أنفسهم الصفاة، فاستدعاهم سنان إلى الحصون وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وقال الصاحب كمال الدين: قرأت بخط أبي غالب بن الحصين في تاريخه: وفيه لعشرين محرّم سنة تسع وثمانين وخمسمائة هلك سنان بن سلمان صاحب الدعوة النزاريّة بالشام، وكانت وفاته في حصن الكهف، وكان رجلاً عظيماً خفي الكيد بعيد الهمة عظيم المخاريق ذا قدرة على الإغراء، وخديعة القلوب، وكتمان السرّ، واتّقاء الأعداء واستخدام الطغام. والغفلة في أغراضه الفاسدة، وأصلُه من قرية من قرى البصرة تُعرف بعقر السُّدَن، وخدم رؤساء الإسماعيلية بألَموت، وراض نفسه بعلوم الفلاسفة، وقرأ كثيراً من كتب الجدل والمغالطة، ومن رسائل إخوان الصفاء وما شاكلها من الفلسفة الاقناعية المسوقة غير المبرهنة، وبنى بالشام حصوناً لهذه الطائفة، بعضها مستجدّة وبعضها كانت قديمة، فاحتال في تحصيلها وتحصينها، وتوعير مسالكها، وسالمته الأيّام، وحاذر الملوك التعرض لما في يده خوفاً من هجوم أصحابه عليهم بالقتل، ودام له الأمر بالشام نيفاً وثلاثين سنة، وسير إليه داعي دعاتهم من ألَموت جماعة في عدّة مرار ليقتلوه خوفاً من استبداده عليه

بالرئاسة، وكان سنان يقتلهم، ومنهم من يخدعه فيثنيه عما سير لأجله. وولى مكانه الإسماعيلية رئاستهم رجلاً من دعاتهم يُعرف بأبي منصور بن محمد.

وقال الصاحب كمال الدين: قرأت بخط الحسين بن علي بن الفضل الداري في تاريخه: حدّثني الحاجب معين الدين مودود أنّه حضر عند الإسماعيلية في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، وأنّه خلا بسنان وسأله عن سبب كونه في هذا المكان أصْلَةً مع وجود الخلوة منه. فقال: إنني نشأت بالبصرة، وكان والدي من مقدميها، فوقع هذا الحديث في قلبي فجري لي مع إخوتي أمر أحوجني إلى الانصراف عنه، فخرجت بغير زاد ولا مركوب، فتوصلّت حتى بلغت إلى الأَلَموت فدخلتها وبها الكيا محمد متحكم، وكان له ولدان اسماهما: الحسن والحسين، فأقعدني معهما في المكتب، وكان يبرني ببرهما ويساويني بهما بما يجب من برّ الأولاد وتعليمهم، وكسوتهم، وبقيت حتّى مات الكيا محمد وتولى بعده الحسن ولده، فتقدم إلي بأن أنفذني إلى الشام، فخرجت مثل خروجي من البصرة فلم أقارب بلداً إلا في القليل، وكان قد أمرني بأوامر وحملني رسائل، فدخلت الموصل ونزلت مسجد النجارين، وبتُّ به وسرت من هناك لم أدخل بلداً إلى الرقة، وكان معي رسالة إلى بعض الرفاق بها فأديت الرسالة وزودني واكترى لي بهيمة إلى حلب، ولقيت رفيقاً آخر أوصلت إليه رسالة أخرى، فاكترى لي بهيمة وأنفذني إلى الكهف، وكان الأمر أن أقيم بهذا الحصن، فأقمت حتى توفي الشيخ أبو محمد في الجبل، وكان صاحب الأمر، فتولى بعده الاخواجه علي بن مسعود بغير نصّ إلاّ باتفاق بعض الجماعة، ثم اتفق الرئيس أبو منصور ابن أخت الشيخ أبي محمد والرئيس فهد فأنفذوا من قتله عند خروجه من الطهارة ضرباً بالسكاكين، وبقي الأمر شورى بينهم، وقبض قاتلوه وأودعوا السجن، ووصل الأمر من أَلَموت بقتل قاتله، وإطلاق الرئيس فهد ومعه وصيّة وأمر أن يقرأها على الجماعة، وهذه نسخة المكتوب:

هذا عهد عهدناه إلى الرئيس ناصر الدين سنان، وأمرناه بقراءته على سائر الرفاق والإخوان: أعاذكم الله جميع الإخوان من اختلاف الآراء واتباع الأهواء، إذ ذاك فتنة الأولين، وبلاء الآخرين، وفيه عبرة للمعتبرين، من تبرأ من أعداء الله وأعداء وليّه ودينه عليه موالاة أولياء الله، والائتمار بالوحدة سنّة، جوامع الكلم كلمه الله والتوحيد والإخلاص، لا إله إلاّ الله عروته الوثقي وحبله المتين، ألا فتمسكوا به واعتصموا عباد

الله الصالحين فيه صلاح الأولين وفلاح الآخرين الذين نجا بهم ﴿ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝ أُولَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[1]، الآخرون الأولون، ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[2].
أجمعوا آرائكم لتعلم شخص معين بنص من الله ووليه، وأهواءكم بطاعته، وتلقوا ما يلقيه إليكم من أوامره ونواهيه بقبول حسن، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[3] فذلك الائتمار به الوحدة التي هي آية الحق المنجية من المهالك، المؤدية إلى السعادة السرمدية، إذ الكثرة علامة الباطل المؤدية إلى الشقاوة المخزية، والعياذ بالله من زواله، وبالواحد من آلهة شتى، وبالوحدة من الكثرة، وبالنصّ والتعليم من الآراء والأهواء المختلفة، وبالحق من الباطل، وبالآخرة الباقية من الدنيا الملعونة، الملعون ما فيها إلاّ ما أريد به وجه الله، ليكون علمكم وعملكم خالصاً لوجهه الكريم، طوبى لمن توجه إليه بقلب عن الشبهات والمشاغلات يرتقي، ورمى في النور القديم والسرور العظيم إلى الملكوت الأعلى، وعلى مقعد الصدق، عند ذي العرش المتين استوى. هنا كلّ جوار الرحمن و ﴿ جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾[4] ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[5] يا قوم إنما دنياكم ملغية لأهلها، ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[6]، والحياة الدنيا لهو ولعب، فلا يغرنكم موبقات زخارفها، ولا يهولنكم معظمات تصاريفها، فعما قليل لتقدمنها، ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴾[7].
فكيف إذا راحت الأباطيل، وزالت التعاليل، ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾[8]، وترقرقت المناظر، وقامت عليها القيامة بالحسرة والندامة، إذ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾[9]، ولا ينفعها ﴿ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[10]. يا قوم

---

(1) سورة الواقعة ـ الآيتان: 10 ـ 11.
(2) سورة الأنفال ـ الآية: 46.
(3) سورة النساء ـ الآية: 65.
(4) سورة النجم ـ الآية: 15.
(5) سورة الكهف ـ الآية: 15.
(6) سورة البقرة ـ الآية: 197.
(7) سورة المؤمنون ـ الآية: 40.
(8) سورة الأحزاب ـ الآية: 10.
(9) سورة الأنعام ـ الآية: 158.
(10) سورة الشعراء ـ الآيتان: 88 ـ 89.

تأهبوا للرحيل قبل يوم الرحيل، إذ العمر قصير، والعمل قليل، والأمل طويل، ولا ينفع الجزع وكثرة العويل، يوم تقوم الداهية على ساق، وينادي منادي الحق والميثاق ويدعو أدعيّات الفراق، ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[1]، ليوم الفصل وميعاد الملاق، إنما نحن بالله وإليه مرجعنا ومآبنا ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[2]، أطيعوا رحمكم الله أميركم، ولو كان عبداً حبشياً﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾[3] ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾[4]، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾[5].

وقال كمال الدين رحمه الله: كتب إليَّ الثقة يوسف بن لؤلؤ يذكر أنّه وقعت إليه أوراق من أخبار بني منقذ، رأى فيها كتاب سنان إلى سابق الدين عمّار بن الداية صاحب شيزر يعزيه عن أخيه شمس الدين صاحب قلعة جعبر منها:

إن المنايا لا يطأن بمنسم ... إلاً على أكتاف أهل السؤدد

فلئن صبرت فأنت سيّد معشر ... صبروا وإن تجزع فغير مفنّد

هذا التناصر باللسان ولو أتى ... غير الحمام أتاك نصري باليد

وهذه الأبيات تمثّل بها سنان في كتابه وهي لأبي تمام الطائي[6].

وقال كمال الدين رحمة الله: وقعت لي رسالة ذكر أن سنانا كتبها إلى نور الدين محمود بن زنكي، والصحيح أنها إلى صلاح الدين:

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا ... لا قام مصرع جنبي حين تصرعُهُ

قام الحمام إلى البازي يهدّده ... واستيقظت لأسود البر أضبعه

أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه ... يكفيه ما قد تلاقي منه اصبعه

وقفنا على تفصيله وجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله، وبالله التعجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تعضّ في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون

(1) سورة القيامة ـ الآية: 30.
(2) سورة هود ـ الآية: 88.
(3) سورة النجم ـ الآية: 32.
(4) سورة يوسف ـ الآية: 53.
(5) سورة النور ـ الآية: 21.
(6) أنظر ديوان أبي تمام ـ ط. دار المعارف، القاهرة ج4 ص 62 ـ 63 مع فوارق.

فدمرنا عليهم وما كان لهم ناصرون، أو للحق تدحضون والباطل تنصرون ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1]. ولئن صدر قولك في قطع رأسي وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك آمال كاذبة وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض، وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمقولات فلنا في رسول الله أسوة حسنة لقوله «ما أوذي نبيّ ما أوذيت»[2]، وقد علمتم ما جرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال والأمر ما زال ولله الحمد في الآخرة والأولى، إذ نحن مظلومون لا ظالمون ومغصوبون لا غاصبون وإذا ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[3]. وقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا وما يتمونه في الفوت ويتقربون إلى حياض الموت قل ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4]. وفي أمثال العامة السائرة: «أو للبط تهددون بالشط»، فهيء للبلايا أسباباً وتدرّع للرزايا جلباباً. فلأظهرن عليك منك ولأنتقمن منك عندك، وتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[5]. فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، ومن حالك على اقتصاد، واقرأ أول النحل وآخر صاد والسلام.

قال الصاحب كمال الدين رحمة الله: وأنشدني شرف الدين بن الحنفي البيت الأول وهو:

يا للرجال لأمر هال مفظعه	**ما مرّ قط على سمعي توقعه**
قام الحمام إلى البازي يروّعه	**وشمّرت في طلاب الأسد أضبعه**
يا ذا الذي بقراع السيف هدّدني	**لا قام مصرع جنبي حين تصرعه**
ومن يسد فم الأفعى بأصبعه	**فهو الخبير بما تلقاه أصبعه**

وقال الصاحب كمال الدين: أخبرني النجم محمد بن إسرائيل قال: أخبرني المنتجب بن دفتر خوان صلاح الدين، وكان أبوه ذمّه خوان نور الدين قال: أرسلني صلاح

---

(1) سورة الشعراء ـ الآية: 227.

(2) أنظر كنز العمال، الأحاديث: 3261، 5817 ـ 5818.

(3) سورة الإسراء ـ الآية: 81.

(4) سورة البقرة ـ الآية: 94.

(5) سورة إبراهيم ـ الآية: 20.

الدين إلى سنان زعيم الإسماعيلية حين وثبوا على صلاح الدين المرة الثالثة بدمشق، ومعي القطب النيسابوري وأرسل معي تهديداً وتخويفاً حاصله: إني أقتلك بسيفي أو قال بيدي، وكتب كتاباً إليه، قال: فلم يجبه عن الكتاب بل كتب من شعره أبياتاً على طرة الكتاب الوارد إليه وقال لنا: هذا جوابكم، والأبيات:

جاء الغراب إلى البازي يهدّده ... ونبّهت لصراع الأسد أضبعه

يا من يهددني بالسيف خذه وقم ... لا قام مصرع جنبي حين تصرعه

يا من يسدّ فم الأفعى بإصبعه ... يكفيك ما لقيت من ذاك إصبعه

ثم قال: إنَّ صاحبك، يحكم على ظواهر جنده، وأنا أحكم على بواطن جندي وقلوبهم، ودليله ما تشاهده الآن، ثم استدعى عشرة من صبيان القاعة وكان على حصنه المنيف المسمّى الكهف، فيه باب ريح إلى الخندق، واستخرج سكيناً من تحت مصلاّه وألقاها في الباب ثم أشار إليهم وقال: من أراد هذه فليلق نفسه خلفها، فتبادروا جميعاً وثباً خلفها فتقطعوا على الصخر قطعاً، قال: فعدنا إلى الملك الناصر وعرفناه ما جرى فصالحه عند ذلك.

وحدثني أخي رحمه الله أنه سير رسولاً إلى صلاح الدين رحمه الله وأمره أن لا يؤدي رسالته إلاَّ في خلوة، ففتشه فلم يجد معه ما يخافه، فأخلى له المجلس ولم يبق إلاَّ نفر يسير وطلب منه أداء الرسالة. فقال: أمرني مخدومي أن لا تؤدى رسالته إلاَّ في خلوة.

فأخلى المجلس ولم يبقَ سوى مملوكين فقال: قل رسالتك، فقال: أمرت أن لا أقولها إلاَّ في خلوة، فقال: هؤلاء ما يخرجوا من عندي، فإن أردت أن تذكر رسالتك وإلاَّ إرجع، فقال: لم لا تخرج هؤلاء كما أخرجت غيرهم؟ قال: لأن هؤلاء عندي مثل أولادي، وأنا وهم شيء واحد، فالتفت الرسول إليهما وقال لهما: إذا أمرتكما عن مخدومي بقتل هذا السلطان تقتلوه؟ قالا: نعم وجذبا سيفيهما وقالا: مرنا بما شئت، فبهت السلطان صلاح الدين رحمه الله وخرج الرسول وأخذهما معه. فعند ذلك جنح صلاح الدين رحمه الله إلى صلحه والدخول في مرضاته والله أعلم.

عبد اللطيف البغدادي
يتحدث عن الحشيشية

كان موفق الدين ـ أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي الذي عرف بابن اللباد، وشهر بالبغدادي موصلي الأصل، بغدادي المولد، ولد سنة 557هـ/ 1162م، ونشأ نشأة جدية، وطلب العلم في بغداد أولاً ثم في دمشق، وفي دمشق احترف صناعة الطب، وقدم إلى دمشق أيام صلاح الدين سنة 585هـ/ 1189م وشاهد صلاح الدين في القدس، والتقى بالعماد الأصفهاني الكاتب، ثم قصد مصر، وترك لنا رحلة مهمة حداً، ووصلتنا شذرات من كتاب صنفه في التاريخ، ذكر فيه بعض أهم شخصيات عصره، وكان من هؤلاء الخليفة الناصر العباسي، وشيخ الجبل راشد الدين سنان، ونشرت هذه الشذرات في الجزء الرابع عشر من كتابي الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، وفيما يلي أقدم الذي ذكره عن علاقة الخليفة الناصر بإسماعيلية أَلَموت، ثم ترجمة قصيرة لشيخ الجبل.

«. . وأقام سنين يراسل جلال الدين حسن، صاحب أَلَموت، يراوده أن يعيد شعار الإسلام من الصلاة والصيام وغير ذلك مما رفعوه في زمان سنان، ويقول: إنكم إذا فعلتم ذلك كنا يداً واحدة، ولم يتغير عليكم من أحوالكم شيء، ومن يروم هذا من هؤلاء فقد رام منال العيوق، واتفق أن رسول خوارزم شاه بن تكش وردفي أمر من الأمور فزور على لسانه كتباً في حق الملاحدة، تشتمل على الوعيد، وعزم الإيقاع بهم، وأنه سيخرب قلاعهم، ويطلب من الخليفة المعونة في ذلك، وأحضر رجلاً منهم، كان قاطناً ببغداد، ووقف على الكتب، وأخرج بها وبكتب أخرى على وجه النصيحة نصف الليل على البريد، فلما وصل أَلَموت أرهبهم، فما وجدوا مخلصاً إلا التظاهر بالإسلام وإقامة شعاره، وسيروا إلى بغداد رسولاً معه مائتا شاب منهم ودنانير كباراً في منجوق، وعليه لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، وطافوا بها في بغداد، وجميع من حولها يعلنون بالشهادتين.

راشد الدين سنان:

كان أعرجاً لحجر وقع عليه من الزلزلة، الكائنة في دولة نور الدين، فاجتمع إليه محبوه، على ما ذكره الموفق عبد اللطيف، لكي يقتلوه، فقال لهم: لم تقتلوني؟ قالوا: لترجع إلينا صحيحاً، فإنا نكره أن تكون فينا أعرجاً، فشكرهم، ودعا لهم، فقال: اصبروا عليّ، فليس هذا وقته، ولاطفهم، ولما أراد أن يحلهم من الإسلام ويسقط عنهم التكاليف، لأمر جاءه من أَلَموت، على عهد الكيا محمد، نزل إلى مصيات في شهر رمضان، فأكل فيها، فأكلوا معه، واستمر أمرهم على ذلك».

رسالة قيل أرسلها صلاح الدين إلى شيخ الجبل وجوابه عليها

(نقلاً عن مخطوط خاص)

هذه صورة الكتاب الواصل من صلاح الدين إلى الصاحب راشد الدين قدس الله سره:

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة من بين يدي السلطان الأعظم، الملك المعظم مالك رقاب الأمم، سيد ملوك العرب والعجم صلاح الدين بن أيوب، إلى الصاحب الأجل راشد الدين حرس الله مجده، وضاعف إقباله وسعده، وأيد عزيمته، وأنجح قصده، وأسعد في الجديدين جده، وأنطق الألسن بشكره، وألهمها حمده، ولا زالت الأيام ببقائه باسمة الثغور، والممالك بحسن رأيه مستوسقة الأمور، والبركات بهمته العالية عائدة على الخلق، سابلة الجمهور، وجنابه العزيز محرم على طوارق الأيام وحوادث الدهور.

أما بعد:

فإذا تصفحت كتابنا، فسارع إلى الوقوف ببابنا، ولتلوذ بجنابنا، والتمسك بأعتابنا، ليكون ذلك لك منا أمانا، وإن خالطك الوهم، وأحاط بك الجهل، فإن الجهل مرد بك لأرماسك، وممرض حواسك. فورب البيت لأسيرن إليك[1] أهد قلاعك، وأخرب بلادك، حين بلغنا أنك كذاب دهري مرتاب، أخذنا المعبر من المستعبر، وأنت منام نائم، وحلم حالم، وأنت بقاع سراب، تأمر بقتل النفس واستعمال الشراب، وبين يديك فيه الشرّاب[2]، وما لهم علم من الكتاب، بل هم على غير صواب، فوعزة السيد الأواب لأقدحن جواهر صدف أنفاسك من بين الأجناب، ولأجعلنك وقومك كلال[3] على

---

(1) بالأصل «وأسير إليك» ويفيد هذا وجود سقط، لعل ما تداركته به هو الصواب.

(2) بالأصل «يسيره» وهو تصحيف لعل صوابه ما أثبتناه.

(3) بالأصل «كلاك» وهو تصحيف لعل صوابه ما أثبتناه، والكلالة: الوارثون الذين ليس فيهم ولد ولا والد. النهاية لابن الأثير.

التراب، فالحذر ثم الحذر من المخالفة أن يكون وقوفك داخل بابنا[1]، فحينئذ نعفو عنك ونصفح عن زلتك إذ نحن أولي الألباب، وأهل الكتاب، وإن أنت استكبرت وعصيت أتيت بك صاغراً أشئت أم أبيت، وضربت عنقك ورب البيت، ولا سيما المهاجرين أنت شتمت[2]، فعلى أي شيء انطويت، فقبل، وضع هذه المكرمة بين يديك، وبعد تقبيلها تتوجه إلينا ساعياً على قدميك، ليكون ذلك أمانا منا إليك.

ثم طوى الكتاب وسلمه إلى بعض خواصه، وقال له سر بمكرمتي هذه إليه، وحذره من بأسي وسطوتي، وخبره بهيبتي وعزيمتي، والحمد لله رب العالمين.

(1) بالأصل «دخل ببابنا»، وهو تصحيف لعل صوابه ما أثبتناه، وإن كنت أوثر القول: وراء بابنا.

(2) بالأصل «سميت» وهو تصحيف لعل صوابه ما أثبتناه، كما هناك وجه آخر للقراءة هو «شنئت».

جواب كتاب صلاح الدين من لفظ راشد الدين قدس الله روحه:

بسم الله الرحمن الرحيم

يـا للرجـال لأمـر هـال مفظعـه	مـا مـرّ قـط علـى قلبـي توقعـه
قـام الحمـام إلـى البـازي يـهدده	وشـمرت في طـلاب الأسـد أضبعـه
يـا ذا الـذي بقـراع السـيف هدّدنـي	لا قـام مصـرع جنبـي حـين تصرعـه
ومـن يسـد فـم الأفعـى بإصبعـه	فـهو الخبـير بمـا تلقـاه إصبعـه
لـو أن عمـرك حبـل أنـت ماسـكه	لسـوف أريـك يومـاً كيـف أقطعـه
إنـا منحنـاك ثوبـاً للحيـاة فـإن	تكـن وإلاً سـوف نخلعـه

ورد كتاب الجناب الصلاحي، أدام الله خلته، وحرس منا مهجته، ووقفنا على تفاصيله وجملة، وعلمنا ما تهددنا من قوله وعمله، فيالله العجب من ذبابة تطن بأذن فيل، ومن بعوضة تعض في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان له من ناصرين، أفللحق تبطلون، أو بالباطل تنتصرون، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

أما ما صدر من قولك في قطع رأسي، وقلع قلاعي من الجبال الرواسي، فتلك آمال كاذبة، وأحلام غير صائبة، لأن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أن الأجساد لا تزول بالأمراض، وكم بين دني وشريف، وكم بين لطيف وكثيف، وإن عدلنا عن الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن والمعقولات، فلنا برسول الله ﷺ، أسوة حسنة لقوله ﷺ: «ما أوذي نبي ما أوذيت»، وقد علمتم ما جرى على أهل بيته وشيعته، وذريته من بعده، فالحال ما حال، والأمر مازال، فلله الحمد في الآخرة والأولى، إذ نحن مظلومين، ولا ظالمين، ومغصوبين لا غاصبين، وفي أمثال العامة السائرة: «أو للبط تهددون بالشط»، ونعما قد علمتم من حلية حالنا، وكيف هيئة رجالنا، وما يتمنوه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2]، فهيء للبلايا

---

(1) سورة الشعراء ـ الآية 227.

(2) سورة البقرة ـ الآيتان: 94 ـ 95.

جلباباً، وتدرع للرزايا أثواباً، فلأرسلنهم منـك إليك، ولأظهرنـهم منك عليك، فتكـون كالباحث عـن حتفـه بظلفـه، والجادع مارن أنفـه بكفـه ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[1]. ولا علينا ببعيد، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[2].

تم بعون الله تعالى، وصلاته على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

---

(1) سورة إبراهيم ـ الآية : 20.

(2) سورة ق ـ الآية 16.

تامر بقتل النفس واستعمال الشراب وبين يديك فيه ينبو
وماللهم علم من الكتاب بل هم على غير صواب فوعم السيد الاواب
لا افترحن جواهر صدف انفاسك من بين الاحباب ولاجعلك
وقومك كلاك على التراب فالحذر ثم الحذر من المخالفة ان
يكون وقومك دخل بنا بنا خلف الحجاب فحبينا ان نعفو
عنك ونصفح عن زلتك اذ نحن اولا الالباب واهل الكتاب
وان انت استكبرت وعصيت اتيت بكل صاعقة اثنين او
ابيت وضربت عنقك ورب البيت ولا سيما المهاجرين سميت
فعلى اي شي انطويت فقبل وضع هذه المكرمة من يدك بعد
تقبيلها نتوجه الينا ساعي على قدميك ليكون ذلك امان
بنا عليك ثم طوى الكتاب وسلم الى بعض حواصه
وقال له سر بمكر متى هذه اليه وحذره من بابني يسطوني وجنو
بهيبتي وعزمتي والحمد لله رب العالمين .

جواب كتاب صلاح الدين من انشاء ابن قرمل الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

بالرجال لامر هال مفضعه ❊ بما قد قطع على قلبي توقعه ❊
قام الحمام الى البازي يهدده ❊ وشمرت في طلاب الاسد اضبعه ❊
ياذا الذي بقراع السيف هددني ❊ لاقام مصرع جنب انت تصرعه ❊

صورة الصفحة الثانية من مخطوط المراسلة

محاولة إلغاء الخلافة العباسية وإقامة خلافة زيدية محلها من قبل معز الدولة البويهية

انتشر المذهب الزيدي في بلاد الديلم، وبناء عليه كانت الأسرة البويهية زيدية، وحاولت هذه الأسرة بعد سيطرتها على بغداد إلغاء الخلافة العباسية، وتأسيس خلافة زيدية بدلاً عنها، علماً بأن الفاطميين حاولوا كسب البويهيين إلى جانبهم، فلم يفلحوا، وحول محاولة الأسرة البويهية المبايعة الزيدي بالخلافة، وجدت نصاً مهماً في كتاب اسمه «الحرز والمنعة في بيان أمر المهدي والمتعة»، وكنت عثرت على هذا الكتاب ضمن مجموعة من المخطوطات الدرزية، صودرت أيام أديب الشيشكلي ونشرت هذا الكتاب محققاً في بيروت عام 1988، ومؤلفه هو موفق الدين، أبو منصور عبد الله بن محمد بن أبي محمد ابن الوليد البغدادي، والذي نعرفه عن هذا المؤلف أنه كان حنبلي المذهب، وأنه كانت له رحلة في طلب العلم، وأنه بعد ما أكتمل بناء المدرسة المستنصرية في بغداد، تولى تدريس الحديث فيها، ولا نعرف سنة ولادته، لكن نعرف أنه توفي سنة 643هـ/ 1245م:

«ولما كان بآخره نشأ رجل يسمى محمد بن الحسن بن القاسم بن القاسم بن الحسن ابن علي بن عبد الرحمن - المعروف بالشجري - بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، وكان أبوه الحسن بن القاسم قد دعا الناس بالديلم إلى مبايعته، فبايعه الناس بالديلم ثم مات، فقبض معز الدولة بن بويه على ابنه أبي عبد الله محمد، وقيده وأنفذه إلى فارس، وأخذ أولئك الديلم الذين بايعوه بعد أبيه فنفاهم، وأنفذه إلى أخيه علي بن بويه، الذي يلقب بركن الدولة، فحبسه في قلعة الحوبكان[1] فبقي محبوساً سنة وشهرين ومعه من الديلم ثمانية أنفس يحفظونه، فشفع فيه إبراهيم بن كوشك، فأطلق على أن [11 - و] يلبس القباء والدشتي كفعل الأجناد، وخرج إلى كرمان، وكان مع إبراهيم بن كوشك إلى أن أسر أميرهم علي بن الياس،

---

(1) كذا بالأصل ولعل الاسم لحقه تصحيف «الخوبذان» بين أرجان والنوبندجان من أرض فارس. معجم البلدان.

فأفلت من الحرب، ومضى إلى منوخان[1] بلد للزيدية، فبايعوه ظاهراً، فعلم ابن الياس بذلك فقصده، فخرج منها إلى البيد مكران فبايعوه هناك، فعلم به ابن مُعدان صاحب الناحية، فقبض عليه فنقله إلى عُمان، فأقام بها فبايعه الزيدية هناك أيضاً سراً، فقبضوا عليه أيضاً، ونفي إلى البصرة فأقام متخفيا في أيام أبي يوسف البريدي، وبايعه من كان هناك بها من الجيل والديلم سراً، فبلغ ذلك البريدي فطلبه وأخذه ونقله إلى داره، وكان معز الدولة بن بويه بطلبه، فعلم به فارس الحاجب، وذلك في سنة ثلاثين وثلاثمائة، وأقطع ضياعاً وأقام بالبصرة سنين، ثم استأذن في الحج، وخرج إلى الأهواز ومنها إلى بغداد، فدخلها، وورد إليها سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فلزم أبا الحسن الكرخي وتفقه عليه، وفهم وصار يكتب خطه في فتاوى الشيعة بمذهب القاسم بن إبراهيم [11 ـ ظ] وأهله الذين بطبرستان، ولما كان في سنة ثماني وأربعين وثلاثمائة راسله معز الدولة في الدخول إليه، فأبى عليه، واحتج بانقطاعه إلى الاشتغال بالعلم، فلم يقبل، وألح عليه، فاشترط أن يدخل عليه بطيلسان لأن زيه كان زي الجند كالديلم وعادتهم وزيهم في لبس ذلك، فأذن له في لبس الطيلسان فدخل إليه فأكرمه وطرح إليه مخدة وسأله أن يتقلد له النقابة على أهله، فأبى، فما فارقه إلى أن أجاب، وبلغ من المرتبة أمراً عظيماً، وكان معز الدولة كثير الإكرام له، وأقطعه ضياعاً كثيرة، وكان يحصل له منها أموال كثيرة، وكان نازلاً على شاطئ دجلة بباب الشعير، وبلغ مبلغاً عظيماً في الرفعة، وكان يظهر مخالفة الخلافة العباسية أمراً عظيماً، فمن ذلك أن المطيع لله أمير المؤمنين كان له محفل، وأنفذ فيه إلى ابن الداعي هذا ليحضر فتغيب حتى انفض المجلس ولم يحضر، فلما سئل عن ذلك، وقيل له: لمَ لَمْ تحضر؟ فقال: إني خفت أن أخاطبه [12 ـ و] بإمرة المؤمنين، ولا أعتقد ذلك فيه، وكان معز الدولة يتخذه إماماً.

ويقال إن رجلاً من أمراء الديلم كان رافضياً فقال له معز الدولة: هذا إمامكم الذي تنظرونه، متى يظهر، هذا له تسعين سنة على زعمكم ما آن له أن يظهر؟! فقال ذلك الديلمي لمعز الدولة: فأنت من إمامك؟ فقال معز الدولة: إمامي أبو عبد الله بن الداعي، وكان أهل طبرستان وأهل هوسم[2] يدعونه إلى المصير إليهم للمبايعة سراً، فما كان يمكنه

---

(1) كذا بالأصل ولعل الاسم لحقه تصحيف صوابه «منوقان» مدينة بكرمان. معجم البلدان.

(2) بلد من نواحي بلاد الجبل خلف طبرستان والديلم. معجم البلدان.

لأجل معز الدولة حتى لا يقبض عليه، ويزيل نعمته، فلما كان خروج معز الدولة في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة لقتال ناصر الدولة[1]، اجتمع جماعة من المعتزلة الحنفيين وبايعوه، وخرج هو وابنه الأكبر وعليه قميص صوف ومصحف حتى لحق بهوسم على طريق شهرزور، وتلقب بالمهدي الداعي إلى طريق الحق، وكتب إلى معز الدولة يخاطبه بالأمير ويدعوه إلى نفسه فلم يجبه، وإلى أخيه ركن الدولة، فأجابه بالسمع والطاعة، واجتمع معه خلق [12 ـ ظ] كثير وعساكر، وأراد أن يتوجه، فأفسد ذلك عليه رجل من الحسينيين يقال له أميركا بن أبي الفضل، وكان هذا رجلاً يدعي هناك بالإمامة، وقصد أبا عبد الله بن الداعي ليحاربه، فوعظه فلم ينفع فيه الوعظ، فحاربه أبو عبد الله بن الداعي في قل من أصحابه، فكسره أميركا وأسره وحبسه في قلعة له، فغضبت الديلم في أقاصي بلدانها له، وكان ثم قوم من الحنبلية نحو خمسين ألف مقاتل، يعرفون بأصحاب أبي جعفر ابن البوني أعجبهم أبو عبد الله بن الداعي لتقشفه وتقلله وسكوته عن الصحابة، ويقال إنه كان يقول بإمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فاجتمعوا هم وأصحاب أبي عبد الله لقتال أميركا، فلما أحس بذلك، وعلم أنه لا طاقة له بقتالهم أخرج أبا عبد الله، وأنزله من القلعة واعتذر إليه، ودعاه إلى إزالة الوحشة بينهما على أن يصاهره، فأجابه أبو عبد الله إلى ذلك، فزوجه بأخته وأطلقه، وعاد إلى هوسم، ورجع أمره إلى ما كان عليه [13 ـ و] وأقام بهوسم شهوراً قليلة، فأنفذ أميركا إلى أخته سماً فسقته، فاعتل بذلك علة يسيرة ومات في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، ويقال إن مولده في سنة أربع وثلاثمائة ببلد الديلم[2].

ومن أطرف الحكايات عنه ما أخبرنا أحمد بن أزهر بن عبد الوهاب الصوفي أنبأ أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزار عن علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: حدثني أبو اسحق الطبري غلام أبي عمر غلام ثعلب، قال: كنت حاضراً في مجلس أبي عمر يوماً، فدخل عليه أبو عبد الله بن الداعي، يقرأ عليه شيئاً من اللغة، وكان أبو عمر مغرماً بالمغايظة والمكايدة، قال: فما عرف محل أبي عبد الله، وبدأ يقرأ عليه، فقال له:

---

(1) الحمداني صاحب الموصل. انظر كتابي «تاريخ العرب والإسلام». ط. بيروت 1975: 358 ـ 361.

(2) لم أقف على هذه التفاصيل في مصدر آخر متوفر، ويفيد هذا الخبر أن معز الدولة البويهي كان يخطط لإزالة الخلافة العباسية، وتكوين خلافة زيدية تحل محلها، فقد كان الديلم زيود شيعة.

أيها الشريف ترحم على معاوية بن أبي سفيان، قال: فلم يجبه أبو عبد الله، فأعاد عليه الكلام، فقال له: لم نجئك بارك الله فيك لهذا، فخذ فيما جئناك له ودع هذا بارك الله فيك، فقال له أبو عمر: أيها الشريف ترحم على معاوية فإن كان ذلك [13 ـ ظ] خيراً وحسنة فهي لك، وإن كانت سيئة أو معصية فهي في عنقي دونك، وأنا أشهد الله تعالى أني أتحمل إثمها عنك، قال: فقال له أبو عبد الله: كيف يجوز أن أرتكب أنا معصية فيكون وزرها في عنقك أنت، هذا جهل، ثم نهض فما رأيته بعد هذا عنده.

ثم بعد أبي عبد الله بن الداعي ما بلغنا أن أحداً تلقب منهم بالمهدي(1)، والذين ظهروا قديماً وادعوا وادعي لهم هذا الأمر ما بلغنا عن أحد منهم فقدٌ ولا غيبة لا يعلم سببها، إلا كان موتهم وهلاكهم مشهوراً معايناً، وما يدعيه هؤلاء القوم من ظهور رجل بعينه ويزعمون وجوده وحضوره لا يعرف عن أحد من السلف رحمهم الله، بل ينكرون ذلك ويبطلونه.

أخبرنا عبد الرزاق بن أبي أحمد الصوفي قال: أنبأنا أبو طاهر السلفي أنبأ أحمد بن عبد الله أنبأ أبو نعيم أنبأ أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن اسحق السراج حدثني العباس بن أبي طالب حدثنا مالك بن إسماعيل عن الحسن بن صالح [14 ـ و] عن أبي محمد ـ يعني أخاه ـ عن عبد الله بن الحسن قال: يا بن أخي ورب هذه البنية ـ يعني الكعبة ـ إن ما تقولون في الإمام لباطل، ولم يكن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي يخفى عليه أن رجلاً من العترة يظهر لوعد رسول الله ﷺ، وإنما أنكر ما تدعيه الشيعة من ظهور رجل بعينه وتسميته والله أعلم.

فأما ذكرت رحمك الله من أمر هذا الذي ادعى الشيعة أنه في سامراء، وأنه في سردابها وهم ينتظرونه، وأنه ابن الحسن العسكري، فهذا شيء لم يكن ولا وجد ولا ذكره أحد من أهل العلم بالتاريخ والمواليد، ولا ذكره أهل النسب في أنساب أهل البيت، وأنا ذاكر لك نسب أهل البيت من لدن الحسين واحداً واحداً، فإنهم يدعون أنه من ولد علي بن الحسين زين العابدين، لأن ولد الحسين هم: علي بن الحسين [14 ـ ظ] الأكبر، قتل معه

---

(1) في حاشية الأصل: «حاشية: من العجب قوله ما بلغنا أن أحداً تلقب بالمهدي بعد ابن الداعي، وحال ابن تومرت بالمغرب مشهورة، ويخطب له إلى يومنا هذا بالمهدي».

بالطف، أمه امرأة تسمى ليلى من العرب، وعلي بن الحسين الأصغر، وهو زين العابدين، وهو الذي كان الخلف فيه، وقيل إنه كان يصلي في كل يوم خمسمائة ركعة، وكان من الفضل والزهد بمكان، وأمه أم ولد يقال لها غزالة، وقالت الشيعة: بل أمه شهزنان بنت كسرى، وهذا لا أصل له في تاريخ ولا نسب، والله أعلم[1].

(1) في حاشية الأصل: حاشية «هكذا ذكره في كتاب الذخيرة في المحشر في أخبار الأئمة الاثني عشر أن علياً الأكبر استشهد مع أبيه، وذكر في الإرشاد أن الذي قتل مع أبيه علي الأصغر والأكبر، قال أمه شهزنان بنت كسرى، والأصغر اسم أمه ليلى بنت أبي مرة الثقفية، وذكر في كتاب الذخيرة أن أم زين العابدين شهربان بنت. . قاشان وقيل بنت كسرى. .» هذا ولم أستطع الوقوف على ذكر كتاب الذخيرة، ولم يذكره آقابرزك في الذريعة إلى تصانيف الشيعة، وذكر أكثر من كتاب باسم «الإرشاد» لكن ليس بينها من تنطبق عليه الأوصاف المناسبة، وبالنسبة لتدارك المطموس في هذه الحاشية يمكن الرجوع إلى مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ـ ط. القاهرة 1949: 78 ـ 95. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ـ ط. بيروت (دار مكتبة الحياة) 158 ـ 160.

ج ـ نصوص إسلامية
حول طوائف مارست القتل الطقوسي

الخناقون والخشبية

تعد العراق بلاداً ذات تراث ديني قديم ومتنوع، كما أن الإمبراطورية الساسانية وإن اتخذت من الزرادشتية ديناً رسمياً، فإن أراضيها شهدت العديد من التيارات الدينية، ونظراً لارتباطها بالعراق وبلدان المشرق العربي من جانب وبالشرق الأقصى البوذي والبراهمي من جانب آخر، ينبغي ألا نفاجئ أمام ظهور كثير من العقائد القديمة والشاذة في الكوفة بعد تأسيسها، وبعد تحول الناس من أهل العراق وإيران وسواهم إلى الإسلام، وقد كان بين من ظهر في الكوفة جماعة مارست القتل الطقوسي بالخنق، ويبدو أنهم كانوا فقراء، شكلوا نوعاً من عصابات السرقة، لكن قتلوا ضحاياهم بالخنق، وأهم من هؤلاء الخشبية، أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي، فقد كان سلاح هؤلاء الأساسي هو العصا على أنواعها، وعرفت حركة المختار باسم الكيسانية، وورثت الدعوة العباسية الحركة الكيسانية، واستخدم رجال الثورة العباسية الأسلحة الخشبية، ودار جدل كبير حول أسباب ذلك[1]، والمطالع لتاريخ الديانة الزرادشتية، يجد أن الإله «مثراً» قد شغل دوراً أساسياً في هذه الديانة، «ولقد كان السلاح المميز لمثرا هو الفزرا Vazra، أي هراوته أو عصاه، التي عدت مقدسة جداً، إلى درجة أنها استحقت التبجيل بحقها الخاص»[2].

وأن تبقى العقائد الزرادشتية موجودة في الكوفة الجديدة، فهذا أمر منطقي وطبعاً زالت الكيسانية ومعها الخشبية بعد استقرار الدولة العباسية، ولكن مع ذلك ظهر استخدام الأسلحة الخشبية بعد قرابة العشرة قرون، إنما ليس في إيران أو المشرق العربي بل في المغرب الأقصى، وهذا أمر يحتاج بالفعل إلى تفسير، فهل يا ترى عرفت بلدان المغرب قبل الإسلام عبادة الإله مثرا؟ والإجابة على هذا السؤال، احتمال ذلك كثيراً لأن عبادة هذا الإله انتشرت في بلاد الشام، ومن بعد ذلك داخل الإمبراطورية الرومانية، وبات مثراس الإله المفضل لدى الجيوش الرومانية، وحكم الرومان الشمال الأفريقي كله، يضاف إلى

---

(1) انظر كتاب الكيسانية في التاريخ والأدب لوداد القاضي - ط. بيروت 1974 ص 133 - 136.

(2) انظر The Dawn and twilight of zoreastrionism, by R.C. Zah ner, London 1961, pp 102-103 وهذا الكتاب مترجم لدي وسأنشره قريباً أن شاء الله وأعان.

هذا أن المسيحية الأولى مزجت بين المسيح الجديد ومثراس الروماني ، وبقيت عقيدة استخدام الأسلحة الخشبية كامنة لقرون في المغرب ، أو أنها لم تسترع انتباه المؤرخين ليتحدثوا عنها إلى أن جاء القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد ، حيث استرعى انتباه المؤرخين والفقهاء كثرة العكاكزة وانتشارهم في كثير من بلدان المغرب ، حيث عرفوا بأسماء أخرى ، وكان هؤلاء العكاكزة يقتلون ضحاياهم بالتجمع حول الضحية وضربها بالهراوات حتى الموت ، وقد تميزوا عقائديا عن المسلمين ، لا بل حتى دينيا ، ولذلك بادر بعض الفقهاء بكتابه فتاوى حولهم ، ومن هؤلاء اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود [1040 ـ 1102هـ/ 1630 ـ 1690] ، وقد أشار اليوسي إليهم في محاضراته ، وكتب رسالة حولهم يمكن للباحث أن يستخلص منها مادة مفيدة جداً ، ولا سيما حول علاقة العكاكزة بطوائف المتصوفة في المغرب ، خاصة الزاوية الدلائية ، التي ارتبط بها اليوسي لبعض الوقت ، ومحاضرات اليوسي منشورة وكذلك رسائله في مجلدين مع إحالات مفيدة ، ورسالة العكاكزة طويلة ، كان بودي تقديمها هنا بين الملاحق ، لكن ذلك قد يعد خروجاً عن الموضوع لذلك اكتفيت بهذه الإشارة ، إنما أقدم هنا ما كتبه الجاحظ عن الخناقين في كتابه الحيوان وبعد ذلك قصيدة نظمت أصلاً بالفارسية في مدح الفداوية .

وأخيراً استخدام السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بعض الحشيشية لاغتيال خصومه السياسيين الذين هربوا منه إلى البلاط الإيلخاني المغولي في تبريز :

(استخدام الخناقين للكلب)

وقال صاحب الكلب : ومن مرافق الكلب أن الخناقين يظاهر بعضهم بعضاً ، فلا يكونون في البلاد إلاَّ معاً ، ولا يسافرون إلا معا ؛ فربَّما استولوا على درب بأسره ، أو على طريق بأسره ، ولا ينزلون إلاَّ في طريق نافذ ، ويكون خلف دورهم : إما صحارى وإمَّا بساتين ، وإما مزابل وأشباه ذلك ، وفي كل دار كلاب مربوطة ، ودفوف وطبول ، ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتاب منهم ، فإذا خنق أهل دار منهم إنساناً ضرب النساء بالدفوف ، وضرب بعضهم الكلاب فسمع المعلِّم فصاح بالصِّبيان : انبحوا ! وأجابهم أهل كل دار بالدفوف والصنوج ، كما يفعل نساء أهل القرى ، وهيَّجوا الكلاب ، فلو كان المخنوق حماراً لما شعر بمكانه أحد ، كما كان ذلك بالرَّقَّة .

و[أنظر][1] كيف أخذوا أهـل درب بأسره ! وذلك أن بعضهم رغب في ثويب كان على حمال ، وفيه دريهمات معه ، فألقى الوهق[2] في عنقه فغشي عليه ولـم يمت ، وتحرّك بطنه فأتى المتوضأ وتحرّك الحمّال والسّاجور[3] في عنقه ، فرجعت نفس الحمال ، فلما لـم يحس بأحد عنده ، قصد نحو باب الدار ، وخرج وزياره[4] في عنقه ، وتلقته جماعته فأخبرهم الخبر ، وتصايح النّاس فأخذوا عن آخرهم .

فقد قال معدان :

خشبي وكافر سبياني	حربيٌّ وناسخ قتّال
تلك تيميّة وهاتيك شنق	ثمّ دين المغيرة المغتال
خنق مرّةً وشمٌ بخار	ثمّ رضخ بالجندل المتوالي

لأنّ من الخناقين من يكون جامعاً ، وبذلك يسمّونه إذا جمع الخنق والتشميم ، وحمل معه في سفره حجرين مستديرين مدملكين وململمين فإذا خلا برجل من أهل الرفقة استدبره فرمى بأحدهما قمحدوته[5] ، وكذلك إن كان ساجداً ، فإن دمغة الأول سلبه ، وإن هو رفع رأسه طبّق بالآخر وجهه ، وكذلك إن ألفاه نائماً أو غافلاً .

ولقد صحب منهم ناس رجلاً خرج من الرّيّ ، وفي حقوه هميان[6] ، فكان لا يفارق معظم النّاس ، فلمّا رأوه قد قرب من مفرق الطريقين ، ورأوا احتراسه ، وهم نزول إمّا في صحراء وإمّا في بعض سطوح الخانات ، والنّاس متشاغلون بأمورهم ، فلم يشعر صاحب الهميان نهاراً والنّاس حوله إلاّ والوهق في عنقه ، وطرحه الآخر حين ألقاه في عنقه ، ووثب إليه وجلس على صدره ، ومدّ الآخر برجليه وألقى عليه ثوباً وأذّن في أذنه فقام إليهم بعض أهل الرُّفقة كالمعين والمتفجّع ، فقالوا له : مكانك ؛ فإنه إن رآك خجل واستحى ، فأمسك القوم عنهم ، وارتحل القوم ، وأعجلوا بصاحبهم ، فلمّا خلوا به أخذوا ما أحبُّوا ، وتركوا ما أحبُّوا ، ثمّ حملوه على أيديهم ، حتى إذا برزوا رموه في بعض الأودية .

---

(1) زيادة اقتفاها السياق .

(2) الوهق حبل يرمي به ، فيه انشوصة ، تؤخذ به الدابة ، والأنشوصة عقدة تمد بأحد طرفيها فتحل .

(3) الساجور : أصله القلادة أو الخشبة توضع في عنق الدابة .

(4) والزيار بالأصل شناق يشد به البيطار جحفلة الدابة .

(5) القمحدوة : الهنة الناشزة فوق القفا ، وأعلى القذال خلف الأذنين ، وإصابة هذا الموضع قاتلة .

(6) الهميان : حافظة للنقود تشد إلى الوسط .

قصيدة حسن في مدح الفداوية

نظمت هذه القصيدة باللغة الفارسية، وكان قد نشرها المستشرق الروسي و. ايفانوف، في مجلة بومباي للجمعية الآسيوية الملكية البريطانية، المجلد / 14/ عام 1938، وترجمها بشيء من التصرف إلى الإنكليزية، وفيما يلي ترجمتها إلى العربية نثراً:

1 ـ صلوات محمد وآلاف من البركات على الأبطال خاطفي أرواح السلاطين، أصحاب السيوف الماضية.

2 ـ المجاهدين الميامين الذين للقائهم رهبة، والعالم كله لهم يستغيث.

3 ـ الوفاء بالوعد والشجاعة قواعد في هذا العالم، وهم ملتزمون بها.

4 ـ قدّر نسيم همتهم الذي يحضر لحديقة الملك الياسمين الباقي والفتوح.

5 ـ وأخيراً فعل الشباب الثلاثة الشجعان ما اعتبر به أولو الأبصار.

6 ـ أولهم حسام المولود في أبيز تحت الجبل الذي أوصل الفرح إلى عالم الأنوار.

7 ـ وثانيهم حسن من أسره قمر الزنجية من منطقة تون، فلقد كان رجلاً مثل المصباح بين أحسن الرجال المتدينين.

8 ـ وثالثهم منصور من جاهكيان، وهو الفريد المنتصر الذي اصطاد نسر نصرته روح العدو.

9 ـ بسبب قبضة خنجر كل منهم أصبح الفلك مثل المرآة، وربط العمامة دليلاً خاصاً على نور فتح العالم.

10 ـ بمدد قدرة صاحب الزمان محمد، ذاك الذي ظهرت السماء والأرض به ومن خلاله.

11 ـ الآن اسمح لي لأروي لك ببيان كاللؤلؤ المنضود.

12 ـ حيث هزم ألدكز الذي كان شريراً، واختار بدل الطاعة طريق الاستكبار.

13 ـ المليك المالك السرمدي هو الذي أمر وزيره والداعي بأن ينهي عمل ذلك المكار.

14 ـ مدار عالم الإقبال، قطب دولة الدين، المظفر بن محمد وحيد عصره.

15 ـ أرسل من بين الجماعة الثلاثة، بأمر الإمام، من أجل هذا المقصد، وتم هذا الأمر كما يرام.

16 ـ ذهب الثلاثة وأغمدوا سكين الانتقام في حلق العدو، وجعلوا صدره غمداً لها، جزاء على سوء فعله.

17 ـ نزل قضاء كن فيكون بروحه المظلمة ، وعندها وصل دخان الشرر إلى لهيب نار جهنم .
18 ـ وهرب كل الركبان الذين كانوا في موكبه من الخوف ، أحدهم نحو الجبل ، وآخر نحو الغار .
19 ـ وذاك الغلام الذي بقي معه ذاق من كأس السيف شراباً فيه الموت الذي سكر به .
20 ـ ولم يصب من أولئك المجاهدين في ذلك الموقف أحد بأذى من سيف العدو ، ولو بمقدار شعره .
21 ـ وجاء كل الثلاثة بعون القائم بالفتوح من جهة اليمين ، والسعود من جهة اليسار .
22 ـ لتبتعد عنهم أعين السوء حيث أنهم كانوا من العبيد المطيعين لدولة القهار .
23 ـ من الذي كان في هذا العالم كله قد وضع قدم الجرأة ولم يتزعزع ؟
24 ـ لم يكن أولئك المعتدون اللعينيون على دراية بأن عمر دولتهم قد شارف على الانتهاء .
25 ـ كل من فكر بمخالفة القائم أوصل الفلك إلى روحه الدمار بالقهر .
26 ـ هكذا وعد الأنبياء المختارون منذ البداية بهذا المبشر النذير .
27 ـ وكل من فكر بالمخالفة لهذا الوعد الحق كان في الحقيقة أسوأ من زمرة الكفار .
28 ـ أوليس بأيديكم أيها الثلاثة انكسرت السماء في أعين الأعداء الذين أهانوا الدعوة؟
29 ـ أعتقد أنني أحتاج إلى ألف روح منيرة حتى أنثرها عند أقدام هؤلاء الثلاثة .
30 ـ أيها الإخوة عندما جاء وقت النصر أصبح النصر حليفاً لنا في العالمين .
31 ـ بمحارب وضيع الرتبة قوي الإيمان ، وقعه أشد خوفاً من ملك لديه أكثر من مائة ألف فارس .
32 ـ ولكن كان من الممكن أيضاً أنه عندما تراجع سعدنا أن يتحول ربيعنا إلى خريف ، وخريفنا إلى ربيع .
33 ـ أولم تشرق شمس القيامة اليوم من جبل دعوة المستنصر ، ومن دعاء نزار؟
34 ـ أو ليس كل من لا يخاف المظالم الكبيرة يكره حكم يوم الجزاء ، وهو مرفوض من الرب لا حول ولا طول ، كأنه ممرغ في الوحل؟
35 ـ لم لا نخاف منه ، ولا نعفر وجوهنا في كل لحظة بتراب الاستغفار؟ .
36 ـ لماذا لا نكون في عالم صدق وصفاء ولا ننهل من فيض هذا الشرف الذي لا ينتهي؟ .
37 ـ أوليس في نهاية هذه الأعمال غير المحمودة ذهب من قلوبنا وعيوننا طريق الرشد والوقار؟ .
38 ـ أحدهم أنا ، بسبب كفرهم صدر عني الكثير من ذنوب السهو والخطأ .

39 ـ لكنني الآن في جماعته أعلق الأمل عليه، لأن يساعدني في يوم الحساب.

40 ـ كرمه الشامل نحوي أنا المسكين، جعل فلك عالم الغفران في دوران.

41 ـ عله يضع لي شفاعة أحبابه على الصراط المعلق بين الجنة والنار.

42 ـ عندما وصل الكلام إلى هذا، يا حسن اكتم السر، صلوات محمد عليك، وآلاف من البركات.

ذكر قضية الفداوي مع الأفرم

(من عقد الجمان للبدر العيني)

قال الراوي: لما كان في يوم من الأيام وهم قد قضوا الموكب، ورجعوا يريدون منازلهم، وفي الرجوع اختلطت الأمراء بالأجناد والعوام على العادة، وإذا فداوي قد وثب على الأفرم من مؤخر الفرس، وصرخ فيه بصوت هائل، ثم ضربه بسكين في صدره فردت السكين إليه، ولم تعمل شيئاً لأنه كان عليه زردية ضيقة العيون لا يعمل فيها، شيء فصرخ الأفرم على مماليكه فجاء إليه مملوك وضرب الفداوي بالدبوس فأرماه، فنظر الفداوي إلى ما حلّ به فصاح: الله أكبر، الله أكبر يا ثارات الملك الناصر، ووثب على المملوك، وضربه بالسكين في جنبه الأيمن ووصلت السكين إلى أمعائه فانقلب المملوك إلى الأرض، وتسابقت المماليك إلى الفداوي فجعل الفداوي يحمل عليهم يميناً وشمالاً، ويقول يا علوق: أين تروحون مني؟ فقتل منهم اثني عشر مملوكاً، فتكاثروا عليه، وجاء إليه واحدٌ من خلفه فضربه بدبوس على دماغه، فنثر مخه من أذنه وأما قراسنقر والزردكاش، وبلبان الدمشقي، لما رأوا الفداوي قفز على الأفرم هربوا وخرجوا من بين الناس، فقال لهم: يا أمراء كنت أخاف من هذا، وقلت لكن ما سمعتم مني، والله إن لم تجعلوا بالكم، وإلا رحتم أشأم الرواح، وحملوا الأفرم إلى وطاقه، وكان قد انجرح من ضربة ثانية، وطلب له جوبان الجرائحيه فداووه وشدوه، ثم طلب جوبان شحنة تبريز ونائبها وقال لهما إعلما بأن هذا الفداوي لم يكن وحده بل له رفاق، ولا أعرفهم إلاّ منكما، وأرسل قاصداً إلى خربندا، واعلمه بالذي جرى، فقال خربندا: والله العظيم ما أمنت من غائله هؤلاء الأمراء إلا هذا الوقت فإني كنت مشككاً فيهم، وكنت أظن أن مجيئهم مكر وخداع، وكنت معولاً على قتلهم، ثم إنه ركب من ساعته، وسار يطلب تبريز، وركب جوبان ومعه الأمراء، وركب الأفرم وهو مجروح ومن معه من الأمراء وساروا حتى لاقوا خربندا، فلما قربوا منه ترجلوا وقبلوا الأرض، وترجل خربندا أيضاً وتعانقوا، ثم ركبوا وساروا، وأخذ قراسنقر عن يمينه والأفرم عن شماله وجعل يسأل عن الأفرم، ويحمل همه، ويطيب قلبه وساروا يطلبون الشام،

يعني البستان الذي ذكرناه، ونزل في خيمة هائلة قد نصبت له ونصبوا قدام الدهليز صيواناً يظل خمسمائة إنسان، ثم جلس وأجلسَ الأمراء كل واحد في منزلته، ثم إن خربندا قال: يا شمس الدين حدثني بالذي جرى عليك مع السلطان الناصر، قال فحدثه بالقصة من أولها إلى آخرها، فقال خربندا: يا أمراء الآن تحققت أمركم، وصدقتكم فطيبوا خواطركم، واشرحوا صدوركم فقد وصلتم إلى مقصودكم فإن تركتم في الشام ما لا أعوض لكم بأكثر منه، أو إقطاعات فأعطيكم أحسن منها أو حكم فقد حكمتكم في جميع بلادي، وبلادي لكم مباحة، فأي شيء أردتم منها خولتكم فيه، فعند ذلك قامت الأمراء على أقدامهم ودعوا له بالدوام والبقاء، فأمرهم بالجلوس، ثم خلع عليهم وأنعم عليهم وأطلق لهم شيئاً كثيراً، وطلب أميراً يقال له درقلي وقال له: واظب خدمتهم ليلاً ونهاراً وأي شيء طلبوه أحضر لهم سريعاً، فبينما هم في ذلك فإذا لعلعة عظيمة على الباب، فقال خربندا: ما هذا؟ فخرج جوبان وسأل عن ذلك، فقالوا: يا مولانا في اليوم الذي قفز الفداوي على الأفرم طلبنا شحنة تبريز والنائب بها وقلنا له: هذا الفداوي ما جاء وحده، ولابد أن يكون له رفيق، وما أعرف رفاقه إلاّ منكم، وقد أحضروا كل غريبٍ أنكروا عليه، وأمر خربندا لجوبان أن يحبسهم ويعذبهم بأنواع العذاب حتى يظهر الغَريم، وإذا بالأفرم قد تقدم وقبل الأرض، فقال خربندا: ما بال الأمير جمال الدين؟ فقال: أطال الله عمر الخان إن عملت هكذا يحصل للناس ضرر ويجفل المترددون، فقال خربندا: إنما عملت هذا لأجلك فقال الأفرم: أسأل من صدقات الخان أن يعرضوا عليّ هؤلاء الذين مسكوهم لأن المملوك عمل بنيابة الشام، ويعرف الفداوية، والقصاد جميعهم فإن كان في هؤلاء أحد منهم قبضنا عليه، وإلاّ أطلقناهم صدقة عن الخان، فقال له: أخرج وافعل مثل ما تريد فخرج الأفرم وعرضوا عليه المسوكين فوجاً فوجاً، وهو يطلقهم ويقول: ما في هؤلاء أحد من أرباب الشبهة، فأطلق الجميع فلما سأله خربندا، قال: هؤلاء كلهم تجار ومترددون وقد أطلقناهم صدقة عن الخان، فقال خربندا: إنما فعلت ذلك لأجلك، ثم خلع عليه وعلى سائر الأمراء وأعطاهم دستوراً، فساروا إلى الوطاق وأما قضية هذا الفداوي فهي عجيبة وذلك أن هؤلاء الأمراء لما قفزوا، وبلغ السلطان ذلك كان سيَّر إلى نائب مصيات، وأمره أن يرسل

اثنين من الفداوية مشهورين بالشطارة والنهضة إلى نـائب الرحبـة ، وهـو يرسـلهما مـع قصاد ثقات إلى تبريز ويعدّلهما أنهما إذا قضيا الشغل كما يريده السلطان فلهما ما أرادا ، كان نائب الرحبة بدر الدين الأزكشي ، وكان رجلاً جيداً ، مشكور السيرة ، فلما وصل الاثنان منهم إليه سأل من مماليكه الذين يعتمد عليهم في أسراره عن رجل ثقة معروف خبير بالطرقات يسفرّه مع هذين الاثنين من الفداوية ، فقال واحد منهم : وهو المهمندار : ههنا قاصدٌ من أهل الحديثة يقال له علي بن المعلم ، وهـو مـن المترددين إلـى دمشق وهـو رجل معروف ، فقال بدر الدين اطلبوه ، فلما حضر بين يديه ذكر لـه هـذه القضيـة ، فإن قضاها يكون لـه اليـد البيضـاء عنـد السلطان ، ويحصـل لـه خير كثير ، فقـال : السمع والطاعـة نبـذل مجهودنا في طاعـة السـلطان ، ولـو راحـت أرواحنـا ، ثـم قـال مـا جـل المقصود؟ قال : قتل قراسنقر والأفرم ، فلما سـمع ذلـك تبسـم وقـال : والله العظيـم هـذا كان في خاطري بأن أروح إلى دمشق وأشاور نائبـها في ذلـك وآخـذ معـي فداويـة وأذهب بهم إليهما ، وأقتلهما ، فلمـا سمع الأزكشي بذلـك فـرح وخلـع عليـه ، وأحضـر هذيـن الاثنيـن مـن الفداويـة وسـلمهما إليـه ، وأمرهمـا أن يمتثلا مـا قالـه وسـلم إليــه سـكاكين مختومة ، ومائتي دينار ، فخرجوا وسـاروا في زي تجار ، ومعـهم صـابون مـع كـل واحـد حماران يطلبون الموصل ، فلمـا وصلـوا فنزلوا في خـان ، وسـألوا عـن قفـل رائحـين إلـى تبريز ، فوجدوا جماعة من سلماس رائحين إلى تبريز ، فخرجـوا معـهم وكـان علـي هـذا من أحسن الناس وجهاً ، وذا كرمٍ وخدمةٍ ، فسألوه من أيـن أنـت؟ قال : أنـا مـن الحديثـة ومعي بعض صابون ، ولا أعلم سِعره في تِبريز ، لأني ما عبرت تبريز قـط ، ثـم كـان كلمـا نزلوا منزلاً يسبق علي هذا ويشتري أحسن الأشياء ، وأطيـب المأكولات ، ويـأتي التجـار ويطعمهم ، وكذا المكارية ، ويخدمهم ، ويتقرب إلى قلوبهم ويسـاعدهم في الشـد والحـل طول الطريق ، فأحبه جميع هؤلاء حتـى لا يقـدر أحـد منهم أن يفارقـه وقـالوا : يـا علـي الدين أمسك يدك فقد استحيينا منك مع هـذه النفقـة الواسـعة ، فقـال : أنـا مـا طلعـت إلاّ بسبب الفرجة وهذه الأحمال بسبب النفقة ، وهـذه صدقـة لله تعـالى ، وقـد مـنَّ الله علـيَّ بصحبتكـم والله لـو ذهبـت روحـي في خدمتكـم لكـان قليـلاً ، ولمـا وصلـوا إلـى سـلماس تنازعوا عليه ، فكل واحدٍ منهم يقول أنا آخذه إليَّ وأضيفه فقوي عليهم شخص يقال لـه

مبارك، فأنزله عنده وأضافه ثلاثة أيامٍ، ومع هذا كل يوم يعمل له التجار ضيافات، ففي اليوم الرابع رحلوا إلى تبريز، فنزلوا في خان خارج تبريز وأعرضوا صابونه فباعوه قبل بضائعهم، والمكارية أخذوا هذين الاثنين من الفداوية ودخلوا بهما الخمارة، وشربوا طول ذلك النهار، فاستمروا على ذلك أياماً، وأما علي فما له شغل إلاّ تتبع آثار قراسنقر إلى ذلك اليوم الذي جرى فيه ما جرى من الفداوي الذي جرح الأفرم وقتل جماعة من الناس، ثم قتل ففي هذا اليوم قال علي لذلك الفداوي: هؤلاء غرماء السلطان الملك الناصر فأبصر اش تعمل وأعطاه سكيناً من السكاكين المختومة التي عنده، وفعل هو كما ذكرنا ورفيقه الآخر ما قدر على عمل شيء بل هرب، واختلط بالناس فلما مسكوا الناس كما ذكرنا، وكان علي هو والمكارية واقفين هناك مع الناس، فلما مسكوا الناس كما ذكرنا، مسكوا علياً والفداوي الآخر مع الناس، فخاف عليٌّ من الأفرم أن يعرفه، فأصفر وجهه، وظهر عليه الخوف فقال له أولئك التجار ما بك يا علي؟ فقال: نحن غرباء مالنا من يعرفنا فيتعلقون وينكرون علينا فيقتلوننا، فقالت التجار: طيب قلبك فنحن ما نخلي أحد يحضر بك إلى الملك ولو أنا خسرنا لأجلك جميع أموالنا ثم بذلوا مالاً كثيراً للظلمة الذين مسكوهم وقالوا: هذا - يعني علياً ورفيقه، يعني الفداوي الآخر - ناس غرباء وبهما حمىً وباردة، فلما تركوهما ودوا الناس إلى الأفرم واستعرضهم وأطلقهم كما ذكرنا، رجعت التجار إلى الخان وتجهزوا وسافروا فخرج علي والفداوي معهم إلى أن وصلوا إلى الموصل فأقاموا فيها يومين، ثم سافروا إلى أن جاءوا إلى الرحبة، ودخل الفداوي على الأزكشي، وأخبره علي بما جرى وأن أحد الفداويين قتل، وأن هذا ما وقع، فكتب الأزكشي إلى نائب الشام وأعلمه بذلك، وكتب نائب الشام إلى السلطان، ثم إن نائب الشام خلع على علي وأعطاه خمسمائة دينار، وحبس الفداوي الآخر في الشام.

المصادر والمراجع للمدخل

الأباضي (أبو عمار الكافي)

الموجز. الجزائر 1978.

ابن الأثير (علي)

الكامل في التاريخ. القاهرة 1348 هـ.

الإربلي (عبد الرحمن بن سنبط)

خلاصة الذهب المسبوك. بغداد (مكتبة المثنى).

الإربلي (علي بن عيسى)

كشف الغمة في معرفة الأئمة. بيروت 1981.

أرنولد (توماس)

الخلافة. دمشق (دار اليقظة).

الدعوة إلى الإسلام. القاهرة 1957.

تراث الإسلام. بيروت (دار الطليعة).

الأزدي (أبو زكريا)

تاريخ الموصل. القاهرة 1967.

الأزرقي (أبو الوليد محمد)

أخبار مكة. بيروت (مكتبة خياط).

ابن اسحق (محمد)

السير والمغازي. بيروت 1978.

الأسدي (الكميت بن زيد)

شرح القصائد الهاشميات. بيروت 1972.

إسماعيل (محمود)

الحركات السرية في الإسلام. فاس 1977.

الأشعري (علي)

مقالات الاسلاميين. القاهرة 1950.

الاصطخري (أبو اسحق إبراهيم)

المسالك والممالك. ليدن 1927 .

الأصفهاني (حمزة)

تاريخ سني ملوك الأرض. بيروت 1961 .

الأصفهاني (أبو الفرج)

الأغاني. القاهرة (دار الكتب)

مقاتل الطالبيين. القاهرة 1949 .

الأصفهاني (محمد بن محمد. العماد الكاتب)

خريدة القصر وجريدة العصر. دمشق 1955 .

الأصفهاني (أبو نعيم أحمد)

دلائل النبوة. حيدر أباد 1950 .

حلية الأولياء. القاهرة 1932 ـ 1938 .

ابن الأعثم الكوفي (احمد)

كتاب الفتوح. بيروت 1988 .

الأفغاني (سعيد)

أسواق العرب. دمشق 1937 .

عائشة والسياسة. بيروت 1971 .

الياد (ميرسيا)

تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية. دمشق 1987 .

رمزية الطقس والأسطورة. دمشق 1987 .

امير (علي)

مختصر تاريخ العرب. القاهرة 1938 .

الأملي (حيدر بن علي)

الكشكول فيما جري على آل الرسول. قم ـ منشورات الرضي .

امين (احمد)

ظهر الإسلام ـ فجر الإسلام ـ ضحى الإسلام. بيروت (بدون تاريخ) .

امين (احمد وزكي نجيب محمود)

قصة الفلسفة اليونانية. القاهرة.

امين (حسين)
أعيان الشيعة . بيروت 1983 .
ابن انس (الإمام مالك)
الموطأ . بيروت 1971 .
الأنطاكي (يحيى بن سعيد)
تاريخ يحيى بن سعيد . بيروت 1909 .
ابن أيبك الداوداري (عبد الله)
الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية . القاهرة 1961 .
إيماني (مهدي الفقيه)
الإمام المهدي عند أهل السنة . أصبهان 1402 هـ .
الباروني (سليمان الطرابلسي)
مختصر تاريخ الإباضية . تونس 1938 .
الباشا (حسن)
الألقاب الإسلامية . القاهرة 1957 .
الباقلاني (أبو بكر بن الطيب)
الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به . بيروت 1980 .
بحر العلوم (محمد المهدي)
رجال السيد بحر العلوم . طهران 1363 هـ .
البحراني (هاشم)
المحجة فيما نزل في القائم الحجة . بيروت 1983 .
البخاري (محمد بن اسماعيل)
صحيح البخاري . بيروت (دار الفكر) .
التاريخ الكبير . حيدر أباد الدكن .
بدج (ولس)
الديانة الفرعونية . دمشق 1987 .
بدوي (عبد الرحمن)
مذاهب الإسلاميين . بيروت .
خريف الفكر اليوناني . القاهرة .

ربيع الفكر اليوناني . القاهرة .
أفلوطين عند العرب . بيروت .
دور العرب في تكوين الفكر الأوربي . الكويت .
التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية . القاهرة 1946 .
برستد (جيمس هنري)
انتصار الحضارة . القاهرة .
بروكلمان (كارل)
تاريخ الأدب العربي . القاهرة .
تاريخ الشعوب الإسلامية . بيروت 1948 .
بشور (وديع)
الميثولوجيا السورية . دمشق 1981 .
ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)
الرحلة ـ تحفة الأنظار في غرائب الأسفار . القاهرة 1958 .
البغدادي (الخطيب . أحمد)
تاريخ بغداد . بيروت (دار الكتاب العربي) .
البغدادي (اسماعيل)
هدية العارفين . بيروت (دار الفكر) .
البغدادي (أبو منصور عبد القاهر)
الفرق بين الفرق . القاهرة 1948 .
البلخي (أبو القاسم)
فضل الاعتزال . تونس 1974 .
ابن بكار (الزبير)
جمهرة نسب قريش . القاهرة (دار العروبة) .
الأخبار الموفقيات . بغداد 1972 .
البكري (أبو عبيد)
جغرافية الأندلس وأوربة . بيروت 1968 .
كتاب المغرب . الجزائر 1911 .
معجم ما استعجم . القاهرة 1965 .

البلاذري (احمد بن يحيى)

فتوح البلدان. القاهرة 1932.

أنساب الأشراف حققته ونشرته في دار فكر لبنان 1996.

البخلي (ابو زيد احمد)

البدء والتاريخ. باريس 1916.

البلوى (أبو محمد عبد الله)

سيرة أحمد بن طولون. دمشق 1358هـ.

بوكاي (موريس)

دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة. القاهرة.

البيذق (ابو بكر الصنهاجي)

أخبار المهدي بن تومرت وكتاب الأنساب. الرباط (المطبعة الملكية).

البيروني (أبو الريحان محمد)

الآثار الباقية من القرون الخالية. لايبزغ 1923.

الجماهر في معرفة الجواهر. دمشق عالم الكتب.

تحقيق ما للهند من مقولة. بغداد (مكتبة المثنى).

بيضون (إبراهيم)

سليمان بن صرد الخزاعي. بيروت 1974.

البيهقي (ظهير الدين)

تاريخ الحكماء. دمشق ـ مجمع اللغة العربية.

تامر (عارف)

ثلاث رسائل اسماعيلية. بيروت 1983.

أربع رسائل اسماعيلية. بيروت 1978.

التجاني (عبد الله)

رحلة التجاني. تونس 1958.

ابن تغري بردي (أبو المحاسن)

النجوم الزاهرة. القاهرة 1942.

التوحيدي (أبو حيان)

رواية السقيفة في المقابسات. القاهرة 1929.

الثعالبي (عبد الملك)
لطائف المعارف. بيروت 1980 .
كتاب الوزراء. بغداد 1972 .
يتيمة الدهر. القاهرة 1956 .
الجاحظ (ابو عثمان عمر)
البيان والتبيين. القاهرة 1311 .
التاج في أخلاق الملوك. والقاهرة 1357 .
الحيوان. القاهرة 1357 .
العثمانية. القاهرة 1955 .
مجموعة من رسائل الجاحظ. القاهرة 1365 .
رسائل الجاحظ، القاهرة 1979 .
الرد على النصارى. القاهرة 1984 .
الجارم (محمد).
أديان العرب في الجاهلية. القاهرة 1923 .
جب (هاملتون)
دراسات في حضارة الإسلام. بيروت 1964 .
ابن جبير (محمد بن احمد)
الرحلة. بيروت 1959 .
الجرهمي (عبيد بن شريه)
أخبار عبيد. حيدر أباد 1347 .
الجعفي (المفضل بن عمر)
الهفت الشريف. بيروت 1964 .
الجندي (علي ورفاقه)
سجع الحمام في حكم الإمام. القاهرة 1967 .
الجهشياري (ابن عبدوس)
الوزراء والكتاب. القاهرة 1938 .
نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب. بيروت .

الجواليقي (أبو منصور موهوب)

المعرب. القاهرة 1361.

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن)

عمر بن الخطاب. القاهرة.

مناقب عمر بن عبد العزيز. لايبزغ 1889.

المنتظم. حيدر أباد 1359.

جوزي (بندلي)

من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام. بيروت (دار الروائع)

الجوزية (ابن القيم)

اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية. القاهرة مطبعة الإمام.

حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت (دار الفكر)

الحامدي (إبراهيم بن الحسين)

كنز الولد. بيروت 1971.

الحائري (علي اليزدي)

إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب. بيروت 1971.

ابن حبيب (محمد)

كتاب المحبر. حيدر أباد 1942.

المنمق في أخبار قريش. بيروت 1985.

المؤتلف والمختلف. الرياض 1980.

حتى (فيليب)

تاريخ العرب. بيروت.

تاريخ سورية ولبنان. بيروت.

ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي)

الإصابة في تمييز الصحابة. القاهرة 1939.

ابن حجر الهيتمي (أحمد)

الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة. القاهرة 1965.

ابن أبي الحديد

شرح نهج البلاغة. بيروت 1967.

الحراني (أبو محمد الحسن بن علي)

تحف العقول عن آل الرسول. بيروت 1969.

ابن حزم الأندلسي (محمد بن علي)

جمهرة أنساب العرب. القاهرة 1962.

المحلى. القاهرة.

الفصل في الملل والنحل. القاهرة 1317.

نقط العروس - مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول) 1951.

حسن (إبراهيم حسن)

تاريخ الإسلام السياسي. القاهرة 1959.

النظم الإسلامية. القاهرة 1962.

المعز لدين الله. القاهرة 1964.

حسن (سعد محمد)

المهدية في الإسلام. القاهرة 1953.

حسن (علي إبراهيم)

تاريخ جوهر الصقلبي. القاهرة.

الحسني (عبد الرزاق)

الصابئون. بغداد 1983.

اليزيديون. صيدا 1958.

حسين (طه) بإشرافه

تعريف القدماء بأبي العلاء. القاهرة 1965.

الحسيني (ابو الحسن علي)

زبدة التواريخ. لاهور 1933.

الحسني (هاشم معروف)

سيرة الأئمة الاثني عشرية. بيروت 1981.

الحلي (الحسن بن يوسف)

الألفين في إمامة أمير المؤمنين. النجف 1953.

الحمادي (محمد بن مالك)

كشف أسرار الباطنية. القاهرة 1939.

الحميري (عبد المنعم السبتي)

الروض المعطار. بيروت 1972.

الحموي (محمد)

التاريخ المنصوري. موسكو 1960.

الحموي (ياقوت الرومي)

معجم البلدان. بيروت 1968.

معجم الأدباء. القاهرة 1927.

حميد الله (محمد)

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي. بيروت.

ابن حنبل (الإمام احمد)

الرد على الزنادقة والجهمية. بيروت 1983.

الحوت (محمد سليم)

الميثولوجيا عند العرب. بيروت 1983.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد)

صورة الأرض. بيروت (دار الحياة).

حيدر (اسعد)

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. بيروت 1983.

خالد (غسان)

أفلوطين رائد الوحدانية. بيروت 1983.

خان (محمد عبد المعيد)

الأساطير والخرافات عند العرب. بيروت 1981.

الخربوطلي (علي حسني)

المختار الثقفي. القاهرة 1962.

خرطبيل (سامي)

أسطورة الحلاج. بيروت 1979.

الخزرجي (علي بن الحسن)

العسجد المسبوك (مصورة عن مخطوطة الجامع الكبير في صنعاء مع قطعة من نسخة الحرم المكي).

ابن خزيمة (محمد بن اسحق)

كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل. القاهرة 1400.

خسرو (ناصر)

سفر نامه. بيروت 1972.

جامع الحكمتين. القاهرة 1977.

الخشاب (يحيى)

كتاب تنسر. القاهرة 1954.

الخضري (محمد)

محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية. القاهرة 1966.

ابن خلدون (عبد الرحمن)

العبر وديوان المبتدأ والخبر. بيروت 1958.

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس)

وفيات الأعيان. القاهرة 1950.

الخليفة (عبد الله بن خالد)

البحرين عبر التاريخ. بيروت 1969.

خليل (خليل)

مضمون الأسطورة في الفكر العربي. بيروت 1973.

خليل (عماد الدين)

معالم الانقلاب الإسلامي في حياة عمر بن عبد العزيز. بيروت الدار العلمية.

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد)

مفاتيح العلوم. القاهرة.

ابن خياط (خليفة)

تاريخ خليفة بن خياط. دمشق 1968.

طبقات خليفة بن خياط. دمشق 1967.

الدارمي (عثمان بن سعيد)

الرد على الجهمية. ليدن 1960.

داود (جرجس داود)

أديان العرب قبل الإسلام. بيروت 1981 .

أبو داود (سليمان)

السنن. بيروت (دار الفكر).

داود (عبد الأحد)

محمد في الكتاب المقدس. قطر 1985 .

الدباغ (عبد الرحمن بن محمد وابن ناجي)

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. تونس 1325 .

دراوور (الليدي)

الصابئة المندائيون. بغداد 1969 .

أساطير وحكايات شعبية صابئية. بغداد.

ابن أبي الدم (إبراهيم)

تاريخ ابن أبي الدم ـ نسخة مصورة عن مخطوطة البودليان.

الدوري (عبد العزيز)

العصر العباسي الأول. بغداد.

دراسات في العصور العباسية المتأخرة. بغداد.

مقدمة في تاريخ صدر الإسلام. بيروت.

الجذور التاريخية للشعوبية. بيروت 1962 .

مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي. بيروت 1968 .

دي غويه (مايكل)

القرامطة. بيروت 1978 .

الديلمي (محمد بن الحسن)

بيان مذهب الباطنية وبطلانه. استانبول 1938 .

ديلتيس (فردريك).

بابل والكتاب المقدس. دمشق 1987 .

الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود)

الأخبار الطوال. القاهرة 1960 .

الرازي (أحمد)

تاريخ مدينة صنعاء. دمشق 1974 .

الرازي (أحمد بن حمدان)

كتاب الزينة. القاهرة 1957 .

الرازي (محمد بن أبي بكر)

الأمثال والحكم. دمشق 1987 .

رايلي (كافين)

الغرب والعالم. الكويت سلسلة عالم المعرفة (90، 97) 1984 .

ابن رسته (أحمد بن عمر)

الأعلاق النفيسة. ليدن 1891 .

رضا (محمد رشيد)

السنة والشيعة. القاهرة.

الرضي (الشريف محمد بن الحسين)

المجازات النبوية. دمشق 1987 .

الرقيق القيرواني (إبراهيم)

تاريخ إفريقية والمغرب. تونس 1968 .

درولف (فلهلم)

صلة القرآن باليهودية والمسيحية. بيروت 1974 .

ابن الزبير (القاضي الرشيد)

الذخائر والتحف. الكويت 1959 .

ابن ابي زرع (أو ابن عبد الحليم)

الأنيس المطرب بروض القرطاس. الرباط ـ المطبعة الملكية.

الزركلي (خير الدين)

الأعلام. بيروت 1969 .

زكار (سهيل)

تاريخ العرب والإسلام. بيروت 1974 .

مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. دمشق 1972 .

تاريخ أخبار القرامطة. بيروت 1971 .

التأريخ عند العرب. دمشق 1974.

ماني والمانوية. دمشق 1985.

يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية للإسلام في العصور الوسطى. بيروت 1988

يهود الخزر. بيروت 1987.

الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ـ دمشق 1995. . . .

الزهيري (عبد الفتاح)

تاريخ الصابئة المندائيين. بغداد 1983.

زيد (علي محمد)

معتزلة اليمن (دولة الهادي وفكره). بيروت 1981.

ابن أبي زينب (محمد بن إبراهيم)

كتاب الغيبة. بيروت 1983.

سارتون (جورج)

تاريخ العلم. القاهرة.

سبانو (أحمد غسان سبانو)

هرمس الحكيم. دمشق 1982.

السبيتي (عبد الله)

عمار بن ياسر، بيروت 1984.

سلمان الفارسي. بيروت 1984.

السجستاني (أبو يعقوب)

الافتخار. بيروت 1980.

كتاب إثبات النبوءات. بيروت 1982.

ابن سيرين (حامد).

مصادر العقيدة الدرزية ـ لبنان ـ ديار عقل 1985.

السيوطي (جلال الدين)

تاريخ الخلفاء. القاهرة 1964.

حسن المحاضرة. القاهرة 1881.

ابن شاذان (الفضل)

الإيضاح. بيروت 1982.

ابن أبي شبة (عمر)
تاريخ المدينة. المدينة 1293هـ.
شلبي (أحمد)
مقارنة الأديان. القاهرة 1964.
شرف (محمد جلال)
نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام. بيروت 1982.
الشيبي (مصطفى)
الصلة بين التصوف والتشيع. القاهرة (دار المعارف).
شمس الدين (محمد مهدي)
أنصار الحسين. بيروت 1975.
الشهرستاني (محمد)
الملل والنحل. القاهرة 1948.
الصابئ (هلال بن المحسن)
تحفة الأمراء. القاهرة 1958.
صالح (أحمد عباس)
اليمين واليسار في الإسلام. بيروت 1970.
صبحي (أحمد محمود)
في علم الكلام (المعتزلة الأشاعرة). الاسكندرية 1982.
نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية. القاهرة (دار المعارف).
الصولي (أبو بكر محمد)
الأوراق. القاهرة 1935.
الصيرفي (علي بن منجب)
الإشارة إلى من نال الوزارة. القاهرة 1923.
ابن طاووس (أحمد بن موسى)
بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية. عمان 1985.
ابن طاووس (علي بن موسى)
الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر. بيروت 1978.

ابن طباطبا (ابن الطقطقي محمد بن علي)
الفخري في الآداب السلطانية. بيروت 1966.
الطباطبائي (محمد حسين)
الشيعة في الإسلام. بيروت (دار المعارف).
الطبرسي (أبو منصور أحمد بن علي)
الاحتجاج. بيروت 1983.
الطبري (محب الدين أحمد بن عبد الله)
ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى. بيروت 1981.
الطبري (علي بن ربن)
الدين والدولة. بيروت 1979.
الطبري (أبو الفضل علي)
مشكاة الأنوار في غرر الأخبار. النجف 1965.
الطبري (محمد بن جرير)
تاريخ الرسل والملوك. القاهرة (دار المعارف).
تفسير الطبري. بيروت (دار الفكر).
الطبري (محمد بن جرير بن رستم)
دلائل الإمامة. النجف 1963.
الطهراني (أغابزرك)
طبقات أعلام الشيعة. بيروت 1975.
الذريعة إلى تصانيف الشيعة. بيروت 1983.
الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن)
الفهرست. بيروت 1983.
رجال الطوسي. النجف 1961.
أمالي الطوسي. بيروت 1981.
الطوفي (نجم الدين البغدادي)
الانتصارات الإسلامية. القاهرة 1983.
ابن طولون (محمد)
الأئمة الاثني عشر. بيروت 1958.

ابن عباد (الصاحب اسماعيل)

نصرة مذاهب الزيدية . بغداد 1977 .

عباس (إحسان)

عهد أردشير . بيروت (دار صادر)

العباسي العلوي (علي بن محمد)

سيرة الهادي إلى الحق . بيروت 1972 .

ابن عبد الحق (صفي الدين عبد المؤمن)

مراصد الاطلاع . القاهرة 1955 .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن).

فتوح مصر وأخبارها . ليدن 1920 .

عبد الحميد (سعد زغلول)

تاريخ المغرب العربي . القاهرة 1956 .

ابن عبد ربه (أحمد بن محمد)

العقد الفريد . القاهرة 1953 .

عبد الوهاب (حسن حسني)

خلاصة تاريخ تونس 1373

ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس)

تاريخ مختصر الدول . بيروت 1958 .

ابن العديم (كمال الدين عمر)

بغية الطلب في تاريخ حلب . 1988 .

زبدة الحلب من تاريخ حلب . دمشق 1958

ابن عذارى (أبو العباس أحمد)

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . بيروت ـ الرباط

ابن العربي (أبو بكر)

العواصم من القواصم . الجزائر 1972 .

العروضي (النظامي)

جهار مقاله . القاهرة 1949

العزيز (حسين قاسم)

البابكية. بيروت 1966

العزيزي (أبو علي منصور)

سيرة الأستاذ جوذر. القاهرة 1954

ابن عساكر (علي بن الحسن)

تاريخ دمشق (المجلدة الأولى). دمشق 1951

تبيين كذب المفتري. دمشق 1399

العسكري (جعفر بن محمد)

المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنة والإمامية. بيروت 1977

العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله)

الأوائل. دمشق 1975

عطوان (حسين)

الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي. بيروت 1986

الجغرافية التاريخية لبلاد الشام. بيروت 1987

العظيمي (محمد بن علي)

تاريخ العظيمي (نشر بعنوان تاريخ حلب). دمشق 1985

العلوي (يحيى بن حمزة)

الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام. الاسكندرية (منشأة المعارف)

علي (جواد)

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. بغداد 1950

العلي (صالح)

التنظيمات الاجتماعية في البصرة. بيروت (دار الطليعة)

تنظيمات الرسول الإدارية. بغداد 1969

ابن علي (القاسم بن محمد)

كتاب الأساس لعقائد الأكياس. بيروت 1980

عليان (محمد عبد الفتاح)

قرامطة العراق. القاهرة 1970

ابن العماد (عبد الحي)

شذرات الذهب. القاهرة 1932

عمر (فاروق)

طبيعة الدعوة العباسية. بيروت 1970

العباسيون الأوائل. بيروت ـ دمشق

ابن العميد (جرجس)

تاريخ المسلمين. ليدن 1625

عنان (عبد الله)

الحاكم بأمر الله. القاهرة 1959

عياض (أبو الفضل بن موسى)

المدارك. بيروت ـ الرباط

العيني (البدر محمد)

عقد الجمان ـ مخطوطة بيازيد رقم 2317

غالب (مصطفى)

تاريخ الدعوة الإسماعيلية. دمشق (دار اليقظة)

أربع كتب حقانية. بيروت 1983

الإمامة وقائم القيامة. بيروت 1981

سنان راشد الدين. بيروت 1967

الغزالي (أبو حامد)

فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة. القاهرة 1961

فضائح الباطنية. القاهرة 1964

قواصم الباطنية. استانبول 1954

التبر المسبوك. القاهرة 1968

إحياء علوم الدين. بيروت (دار الفكر)

مشكاة الأنوار. القاهرة

تهافت الفلاسفة. القاهرة

ابن فاتك (المبشر)

مختار الحكم ومحاسن الكلم. بيروت 1980

الفارقي (ابن الأزرق)
تاريخ الفارقي. القاهرة 1959، وقسم الأراتقة في الموسوعة الشاملة.
فازلييف
العرب والروم. القاهرة ـ الألف كتاب
أبو الفداء (إسماعيل بن محمد)
تقويم البلدان. باريس 1740
المختصر في أخبار البشر. استانبول 1869
الفردوسي (أبو القاسم)
الشاهنامه. القاهرة 1932
فلهوزن (يوليوس)
الدولة العربية. القاهرة 1958
الخوارج والشيعة. القاهرة 1953
فلوتن (فان)
السيادة العربية والشيعة. القاهرة 1965 ـ بيروت 1979
القاسمي (ظافر)
نظام الحكم في الشريعة والتاريخ. بيروت 1974
القاضي (وداد)
الكيسانية في التاريخ والأدب. بيروت 1974
ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله)
المعارف. القاهرة 1300
عيون الأخبار. القاهرة 1963
الإمامة والسياسة (ينسب له). القاهرة 1963
القرشي (الداعي ادريس)
عيون الأخبار وفنون الآثار. بيروت 1973
القرشي (يحيى بن آدم)
كتاب الخراج. القاهرة 1347 هـ
القرمطي (الداعي عبدان)
كتاب شجرة اليقين. بيروت 1982

القزويني (زكريا بن محمد)
آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت 1960
القزويني (ابو جعفر عمر)
مختصر شعب الإيمان. القاهرة ـ مطبعة الإمام
ابن القلانسي (حمزة)
تاريخ دمشق. دمشق 1985
القلقشندي (احمد بن علي)
صبح الأعشى. القاهرة 1338
مآثر الإنافة. الكويت 1964
القمي (سعد)
المقالات والفرق. طهران 1963
القمي (محمد بن علي بن بابويه)
الخصال. قم 1403
من لا يحضره الفقيه. قم 1404 هـ
عيون أخبار الرضا. بيروت 1984
كمال الدين وتمام النعمة. قم 1405
معاني الأخبار. قم 1341
القيرواني (أبو العرب محمد)
طبقات علماء إفريقية وتونس. تونس 1968
المحن. بيروت (دار الغرب)
آل كاشف الغطاء (محمد الحسين)
أصل الشيعة وأصولها. بيروت
كاهن (كلود)
تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. بيروت 1972
ابن كثير (إسماعيل)
البداية والنهاية. القاهرة 1932
الكرماني (أحمد حميد الدين)
راحة العقل. بيروت 1967

مجموعة رسائل الكرماني. بيروت 1983
الأقوال الذهبية. بيروت 1977
المصابيح في إثبات الإمامة. بيروت 1969
الكشي (محمد بن عمرو)
رجال الكشي. كربلاء
الكليني (محمد بن يعقوب)
الأصول من الكافي. بيروت 1401هـ
لويس (برنارد)
أصول الإسماعيلية. بغداد 1947
الدعوة الإسماعيلية الجديدة. بيروت 1972
ماجد (عبد المنعم)
الحاكم بأمر الله. القاهرة 1959
السجلات المستنصرية. القاهرة 1954
ابن ماكولا (أبو نصر علي)
الإكمال. حيدر أباد 1962
المالكي (أبو بكر عبد الله)
رياض النفوس. القاهرة 1951
الماوردي (أبو الحسن علي)
الأحكام السلطانية. القاهرة 1960
المبرد (أبو العباس)
الكامل في الأدب. القاهرة 1927
المتنبي (أبو الطيب أحمد)
الديوان. القاهرة 1944
المجلسي (محمد باقر)
بحار الأنوار. بيروت 1983
مرآة العقول. طهران 1402هـ
مجهول (دي غويه)
العيون والحدائق. ليدن 1869 ـ دمشق 1974

مجهول

أخبار الدولة العباسية. بيروت 1971

مجهول (من القرن الحادي عشر)

تاريخ الخلفاء. موسكو 1966

ابن محمد (القاضي النعمان)

اختلاف أصول المذاهب. بيروت 1973

الأرجوزة المختارة. مونتريال 1970

دعائم الإسلام مع التأويل. القاهرة ـ دار المعارف

رسالة افتتاح الدعوة. بيروت 1970

الرسالة المذهبة ـ نسخ خطية في مكتبتي

المجالس والمسايرات. تونس 1978

الاقتصاد. دمشق 1957

ابن محمد الوليد (علي)

تاج العقائد ومعدن الفوائد. بيروت 1967

الذخيرة في الحقيقة. بيروت 1971

المراكشي (عبد الواحد)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب. القاهرة 1961

ابن المرتضى (احمد بن يحيى)

المنية والأمل في شرح الملل والنحل. بيروت 1979

مرحبا (محمد عبد الرحمن)

من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية. بيروت

ابن مرزوق (ابو عبد الله محمد)

مقدمة المسند الصحيح الحسن. دمشق 1980

ابن مسافر (عدي)

اعتقاد أهل السنة والجماعة. بغداد 1975

المسبحي (محمد بن عبيد الله)

أخبار مصر (قطعة منه). القاهرة 1980 .

المسعودي (أبو الحسن علي)
مروج الذهب ومعادن الجوهر. القاهرة
التنبيه والإشراف. القاهرة 1938
مسكويه (أحمد بن محمد)
تجارب الأمم وذيله. القاهرة 1914
مصطفى (شاكر)
دولة بني العباس. الكويت 1974
مظهر (سليمان)
قصة الديانات. بيروت 1984
المعاضيدي (خاشع)
دولة بني عقيل بالموصل. بغداد 1968
معروف (نايف)
الخوارج في العصر الأموي. بيروت 1977
المعري (أبو العلاء أحمد)
رسالة الغفران. بيروت (دار صادر)
ابن المعمار (أبو عبد الله محمد)
كتاب الفتوة. بغداد 1960
المقدسي (محمد بن احمد)
أحسن التقاسيم. ليدن 1906
المقدسي (يوسف بن يحيى)
عقد الدرر في أخبار المنتظر. القاهرة 1979
المقريزي (احمد بن علي)
اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة لدي)
المقفى (نسخة مصورة لدي)
الخطط. القاهرة 1908
ابن المقفع (ساويرس)
تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية. القاهرة 1959
مكارم (سامي نسيب)

أضواء على مسلك التوحيد. بيروت

الملطي (محمد بن أحمد)

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع. بغداد 1968

ابن منبه (وهب)

التيجان في ملوك حمير. حيدر أباد 1347هـ

الميداني (أحمد بن محمد)

مجمع الأمثال. القاهرة 1959

ابن منصور (جعفر)

الكشف. بيروت 1984

سرائر وأسرار النطقاء. بيروت 1984

المنقري (نصر بن مزاحم)

وقعة صفين. القاهرة 1365

مورنكات (انطون)

تموز عقيدة الخلود والتقمص في فن الشرق القديم. بيروت 1985

المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى)

سيرة المؤيد في الدين. القاهرة 1949

المجالس المؤيدية. القاهرة 1976

ديوان المؤيد في الدين. القاهرة 1949

ميديكو (هـ.ا.ديل)

التوراة الكنعانية. دمشق 1988

ابن ميسر (محمد بن علي)

أخبار مصر. القاهرة 1919

ناجي (عبد الجبار)

الإمارة المزيدية. البصرة 1970

الناشئ الأكبر

مسائل الإمامة. بيروت 1971

الناشى (غضبان رومي عكله)

الصابئة. بغداد 1983

النجفي (محمد حسن)
جواهر الكلام. بيروت 1981
النديم (ابو الفرج محمد)
الفهرس. طهران 1971
ابن النعمان (الشيخ المفيد محمد بن محمد)
أوائل المقالات في المذاهب والمختارات. بيروت 1983
الإرشاد. بيروت 1979
نعناعة (رمزي)
الإسرائيليات. بيروت 1970
النوبختي (الحسن بن موسى)
كتاب فرق الشيعة. استانبول 1931
النويري (شهاب الدين أحمد)
نهاية الأرب في فنون الأدب. القاهرة 1923 (مصورة مخطوطة لدي)
النيسابوري (أحمد بن إبراهيم)
كتاب إثبات الإمامة. بيروت 1984
نيلسن (ديتلف ورفاقه)
التاريخ العربي القديم. القاهرة 1958
ابن هانيء الأندلسي (محمد)
الديوان. بيروت 1952
ابن هشام (عبد الملك)
السيرة النبوية. القاهرة 1955
الهمداني (القاضي عبد الجبار بن أحمد)
تثبيت دلائل النبوة. بيروت 1966 (نسخة مخطوطة لدي)
فرق وطبقات المعتزلة. الإسكندرية 1972
المغني في أبواب التوحيد والعدل. القاهرة
المؤسسة العامة للتأليف والنشر
هوك (س.هـ)
ديانة بابل وآشور. دمشق 1987

ابن واصل الحموي (محمد بن سالم)

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. القاهرة 1953

الواقدي (محمد بن محمد)

كتاب المغازي. اكسفورد 1967

ابن الوليد (علي)

كتاب الذخيرة في الحقيقة. بيروت 1971

ياسين (انور ورفاقه)

بين العقل والنبي. باريس 1984

ابن يحيى (ابو مخنف لوط)

مقتل الحسين. بيروت 1983

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)

تاريخ اليعقوبي. بيروت 1960

أبو يوسف القاضي (يعقوب)

كتاب الخراج. القاهرة 1382

اليوسي (أبو الحسن علي)

المحاضرات. الرباط 1976

رسائل أبي علي اليوسي. الدار البيضاء 1981

المراجع الأجنبية:

1- Anonymous Geographer
Hudud Al-Alam, English Translation
London 1937

2- Atiya (Aziz)
The crusade, Historiography and Bibliography
Oxford 1962

3- Belyaev (E.A.)
Arabs, Islam and the Arab Caliphate
Jerusalem 1969

4- Bar Hebreaue (Abu'l-Faraj son of Aron)
Hisory of the wold. English translation by Ernest A. wallis Budge
Oxford 1932

5- Bosworth (clifford Edmend)
A- The Ghaznavid. Edinburgh 1963
B- The Isamic Dynasties Edinburgh 1967.

6- Cahen (Claude)
A- Mouvements populaise et Atuonomisme urbains dans L'Asie Muslmane du Moyen Age l'Arabica vol. v
Paris 1958
B- Pre Ottoman Turkey (Eng. trans.)
London 1969

7- Cohn (Norman)
The pursuit of the Millenium
London 1970

8- The cambridge History of Iran vol. v
Cambridge 1968

9- Cambridge History of Islam
Cambridge 1970

10- Cambridge Medieval History, vol. IV, Ed.
Joan M. Hussey
Cambridge 1966 - 67

11- Dunlop (D.M.)
The History of the Jewish Khazars.
New York 1967

12- Elisseef (Nikitce) Nur- Ad- Din
Damas 1967

13- Encyclopedia of Islam,
New Eden
London 1960

14- Gabrieli (Francesco)
A- Muhammad and the Conquests of Islam London 1968
B- Ashort History of the Arab London 1965

15- Gibb (H.A.R.)
Mohemmedanism.
Oxford 1969

16- El-Hajji (Abdul-Ralhman)
Andalusian Diplomatic Relations with western Europe, During the umayyad period
Beirut 1960

17- KABIR (Mafizullah)
The Buwayhid Dynasty of B aghdad
Calcuta 1964

18- Lambton (A.K.S.)
Land-lord and peasant in persia
Oxford 1969

19- Lewis (Bernard)
A- The Arab in History London 1968
B- Race an color in Islam London 1971

20- Mcweill (w) and scdlar (J)
The classical Mediterranean world
London 1969

21- Nizam Al-Mulk
The Book of Government
English translation by
Herbert Drabe
London 1960

22- Omar (F.)
The Abbasid caliphate
Baghdad 1969

23- Ostrogosky (D.)
History of the Byzantine
state, Engl. trans. J. Hussey
Oxford 1968

24- Partington (J.R)
A History of Greek fire
and Gunpouder
Cambridge, 1960

25- Pearson (J.D)
Index Islamicus
Cambridge 1961, 1962, 1967

26- Psellus (Michael)
Fourteen Bybantine Rulers
(Eng. trans. Penguin Ed. London
1966)

27- Rice (Tamara Talbot)
The Saljuks
London 1968

28- Rosenthal (E.I.J.)
Political Thought in
Medieval Islam
Cambridge 1962

29- Rosenthal (F.)
A History of the Muslim
Histography
Leiden 1968

30- Segal (J.B.)
Edessa, the blessed city
Oxford 1970

31- Shaban (M.A.)
The Abbasid Revolution
Cambridge 1970

32-SEVIM (Ali)
Suriye selcuklulari
Ankara 1965

33- Le Strange (Guy)
1- The Land af the Eastern
Calipthae London 1966
2- Palestine Under the Muslim.
Beirut 1965

34- Vasiliev (A.)
History of the Byzantine
Empire.
Wisconsin 1964

35- Watt (M.)
1- Muhammad Prophet and
Statesman Oxford 1961

36- ZAKKAR (suhayl)
Emirate of Aleppo,
1004 - 1094
Beirut 1971

37- Zaehneav (R.C.)
The Dawn and twilight of
Zoroastrianism
London 1961

المحتوى

فهرس الأعلام

(الأفراد والجماعات)

- خ -

- د -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

فهرس الأماكن

- ر -

- ز -

- س -

- ش -


دأ الكتاب بمدخل تأريخي عن الإسماعيلية و
ترامطة و الخلافة الفاطمية ولاسيما
سماعيلية التي جاءت فرقة الحشيشية منها.
يدرس المؤلف الظروف المحيطة بنشأة
حشيشية و توزعها الجغرافي و تنظيماتها و
لاتها بالجماعات الأخرى و التحولات السياسية
الفكرية و الدينية و ممارسة الإغتيال
طقوسي الذي أثار التساؤلات الكثيرة بسبب
موض الذي يحيط به.
يصف الرحالة و المؤرخون وادي و حصن ألموت
ي حوله شيخ الطائفة إلى جنة على الأرض
وهم بها المريدين بأنها جنة الله ليطوعهم كما
يد و بذلك بدأت الإنحرافات و الإغتيالات التي
ت الرعب أيام الحروب الصليبية في الشرق و
رب لذلك استحقت هذه الظاهرة
ريدة الدراسة.
قد اختلف المؤرخون و الدارسون لهذه الفرقة
أصل التسمية و معناها (الحشيشية)
صبحت هذه الكلمة تعني القتل خلسة
غدراً لفترة طويلة.